

منهج القرآن
في تقرير حماية الأفكار

القرآن الكريم



سمير مثنى على الأبارة

الألوكة

www.alukah.net



جمهورية السودان
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الدراسات العليا
قسم التفسير علوم القرآن

منهج القرآن في تقرير حماية الأفكار

رسالة دكتوراة بدرجة إمتياز

إعداد

سمير مثنى علي الأبارة

إشراف فضيلة الأستاذة

محمّد حسن محمّد عبد الرحمن

رئيس قسم التفسير كلية علوم القرآن بجامعة أم درمان

١٤٣٤ هـ - ١٣ - ٢٠٢٠ م



الاستهلال

قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ،

لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرَهُ، ضَيِّقًا

حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ

يُجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

(١) سورة الأنعام: ١٢٥

إهداء

أحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأثني عليه الخير كله على ما أنعم به عليّ من نعمه الكثيرة التي لا أحصيها، وأعظمها أن هداني لدين المؤمنين، وسلك بي سبيل طلب علوم الدين، فأعانني على القيام بهذا البحث وإتمامه. فلك الحمد سبحانه أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

وأقدم بإهداء هذا العمل لوالدي الكريمين اللذين تعاهداني بالتربية في الصغر، وكانا لي نبراساً يضيء فكري بالنصح، والتوجيه في الكبر أمي، وأبي حفظهما الله - ومتعهما الله بالصحة والعافية - على ما بذلاه في تربيتي وتعليمي مما أعجز عن وصفه، فجزاهم الله عني خير الجزاء وأوفره وأحسن عاقبتهما في الدنيا والآخرة .

كما أثني بالإهداء لزوجتيّ على ما قدمته لي من عون ومساعدة خلال فترة عمل هذه الرسالة.

وأسأل الله جلا وعلا أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وذخراً لي يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للخلق أجمعين.

شكر وعرfan

وبعد: فإنني أتوجه بالحمد، والثناء على الله تعالى بما هو أهله، حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، على نعمه التي لم تزل تنثرى، وآلائه التي لا أحصي لها عدا، ولا أعرف لها حدا، ثم أقدم الشكر والعرfan لكل من كان له عليّ فضل في هذه الرسالة، بمعونة أو نصح أو توجيه، كما أخص بالشكر والعرfan فضيلة الشيخ الدكتور: محمد حسن محمد عبد الرحمن، رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم درمان الإسلامية، على توليه الإشراف الدقيق على هذه الرسالة، وتقديم النصح والتوجيه بخاطر سرح وخلق ندي، فأسأل الله - تعالى - أن يجزل له المثوبة، وأن يبارك له في علمه وعمله، وأن ينسأ في أثره، ويصلح عقبه.

وأصل الشكر ممتا لصاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور: صلاح عوض محمد إدريس، وأخيه فضيلة الأستاذ الدكتور: السر محمد الأمين على قبولهما مناقشة هذه الرسالة، وتصويبها، كما أتقدم بالشكر والتقدير لجامعة أم درمان الإسلامية ممثلة في قسم القرآن وعلومه على ما تبذله من خدمة للعلم وطلابه، سائلا الله تعالى أن يبقيها مشعلا يستضاء بها، ومنارة يهتدى بها. كما أتقدم بالشكر لكل من أعانني على إعداد هذا البحث بأي وجه كان، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم .

فجزى الله الجميع خير الجزاء وأعظمه، وجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأخيراً: فهذه الرسالة جهد المقل، أسأل الله تعالى أن يعصمني فيها من سلطان الهوى، وغلبة الجهل، وخطل الرأي، كما أسأله - وهو البر الرحيم - أن يجعل عملنا خالصا له - سبحانه - مقربا مرضاته.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه والطيبين..

مستخلص البحث

يعيش المسلمون في زمن انفتحت فيه الدنيا على مصراعيها؛ وصرنا نعيش في عالم يجتمع في غرفة واحدة، فالقنوات الفضائية دخلت البيوت، فصار المرء يتلقى أفكاراً عديدة، وتوجهات متغايرة، تجعله يتابعها وهو في غرفته ليل نهار.

وفي خضم هذه التحديات والأفكار والاختلافات؛ يجدر بالمسلم، أن تكون لديه رؤية ناضجة في مواجهة هذه التحديات، فإن فيها الحق والباطل، والصواب والخطأ، ومن المهم أن يكون لدينا طرق واضحة للتعامل مع هذه التحديات والاختلافات، فمواجهتنا لهذه التحديات الثقافية تتطلب منا قوة عقديّة، وركائز ثابتة، تأخذنا لبرّ الأمان، وشاطئ النجاة. فكيف نحصن أنفسنا وفكرنا من الداخل، خشية أن يضلنا ما هو زائغ عن المنهج القويم، وما الأسس والأصول التي تكوّن لدينا حصانة شرعيّة، نستطيع بإذن الله بعدها أن نردّ الخطأ إذا أوردت الشبهات، وخصوصاً في ظل ما يمارس الآن من الحرب الإعلاميّة الغازية للأفكار والعقول المسلمة.

وقد أوردتها في هذا البحث في ستة فصول:

الأول تكلمت فيه عن الحكمة من خلق الإنسان ومكانته في القرآن وكيف حثه على استخدام عقله وكيف أن الفطرة السليمة تتجه إلى خالقها فتتجلى في مخاطبته لكل جوانب النفس البشرية، بما يلبي حاجات الجسد والروح، ويخاطب العقل والعاطفة.

ثم تكلمت في الفصل الثاني عن مكانة الروح وخصائصها وآثار العبادة الروحية وأساسها الإيمان، والعناية بالجسد من أول مرحلة الطفولة تربية صحيحة حتى يصبح شاباً ويكون عطاؤه في ذروته من حيث القوة البدنية، ومن حيث القدرة على التفكير ومن حيث المرونة في مواجهة الواقع، وتقوية الصلة بالله وأثاره النفسية على الإنسان.

ثم تكلمت في الفصل الثالث عن منهج القرآن في تربية عقل الإنسان وتكريمه واعتباره مناط المسؤولية والتكليف وما هو دور العقل المسلم من منظور القرآن الكريم، فالمنهج القرآني منهج يدعو إلى أن يتولى العقل دوره الريادي في المعرفة والبناء العلمي، ويدعو إلى المعرفة بوجود الله تعالى، والمعرفة بما في الكون من مخلوقات. وكيف تكون علاقة العقل والقرآن والفكر.

أما الفصل الرابع فتحدثت فيه عن منهج القرآن في حماية الأفكار وكيف يوجه الخطاب إلى القلوب وبناء العقول لحمايته من الانحراف، وبيّنت فيه منهج الفلاسفة وعلماء الكلام وأوجه الشبه والافتراق بينهم وكيف رد عليهم القرآن بطريقة علمية يفهمها جميع فئات الناس.

وأما الفصل الخامس فبيّنت فيه دور المؤسسات العلمية في التربية الإسلامية، والمصادر الرئيسية في صياغة المنهج التربويّ الفكري الإسلامي وأهميته. ثم بيّنت منهج الرسول صلى الله عليه وسلم التربوي وتميزه في التوجيه والتعليم الفكري والروحي، وعدم الإكراه، ثم تكلمت عن دور المؤسسات العلمية وعلماء المسلمين في التربية الفكرية، ودورهم في مواجهة الفتن وتحصين المجتمع.

أما الفصل السادس فتحدثت فيه عن الإسلام والمذاهب الهدامة، وعن الأمر بالائتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة وأدب الاختلاف في الإسلام، ثم أثر الغزو الفكري في نشأة التيارات والمذاهب الضالة وإحياء الفرق والبدع بين المسلمين، وأساليب الغزو الفكري وأهدافه، ثم تحدثت عن دور المذاهب الفكرية المعاصرة لحماية العقل المسلم.

ثم في الخاتمة بعد أن شخصت الداء ذكرت العلاج وأهم التوصيات والنتائج.

abstract

Muslims live in an era when the world is wide open; satellites entered houses and people started to receive new ideas and difference orientations. In the midst of these challenges, ideas and differences, Muslims should have a mature vision in the face of these challenges, whether good or bad. It is important to have obvious ways to deal with these challenges and differences; our response to these cultural challenges requires a doctrine force and stable pillars that takes us to a safe land. So, what are the bases and assets that form in us a legitimate immunity, especially in light of what is practiced now from gaseous media war of ideas and Muslim minds?

They are divided in this research into six chapters:

In the first chapter, I dealt with the wisdom of the creation of man and his pace in the Quran, how it urged him to use his mind and how the common sense is going toward its creator and is manifested in addressing all the human soul aspects as to meet the needs of body and soul and address the mind and passion.

In the second chapter, I talked about the position of the spirit, its characteristics and the effects of the spiritual worship and its basis of faith. Taking care of the childhood is a correct education since its first phase to the young age; bestowal at its peak in terms of physical strength, and in terms of the ability to think and be flexible in the face of reality, and to strengthen the link with God and its psychological effects on man.

In the third chapter, I talked about the approach of the Quran to the education of the human mind, its recognition and consideration as the focus of responsibility and commissioning. What is the role of the Muslim mind from the perspective of the Quran? The Quran approach is that the mind should play its pioneering, constructive and scientific role and calls for the knowledge of the presence of God, his creatures and the relation between the mind, the Quran and the thought.

In the fourth chapter, I talked about the Quran approach in the protection of thoughts and how it directs the speech to the heart and the construction of minds to protect it from deviation. In this chapter, I also defined the approach of philosophers and theologians in addition to the similarities and differences between them and how the Quran scientifically responded as to make the same understood by all the people categories.

In the fifth chapter, I outlined the main sources in the formulation of the educational, mental Muslim approach and its importance. Then, I outlines the educational approach of the Prophet, Peace be Upon Him, and its distinction in the orientation, mental and spiritual education and the non-coercion. Then I talked about the role of the educational institutions and the Muslim scholars in the mental education, confrontation of discords and fortification of the community.

In the sixth chapter, I talked about Islam and the subversive doctrines as well as about the order for coalition, the prohibition of differences and disputes and the literature of difference in Islam then I talked about the impact of the intellectual invasion on the appearance of stray currents and doctrines, in addition to the methods of the intellectual invasion and its objectives. I talked as well about the role of the modern intellectual doctrines to protect the Muslim mind.

Finally, in the conclusion, after the diagnosis of the disease, I mentioned the treatment and the most important recommendations and results.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، الحمد لله الذي هدى الإنسان إلى الصراط المستقيم، والصلاة والسلام على رسوله النبي الأمين، رسول الإنسانية ومنقذ البشرية، خير الخلق أجمعين، محمد بن عبد الله وآله والصحب أجمعين، وبعد:

فالإنسان مكرم على كثير ممن خلق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(١)، وميزه بالعقل وهداه إلى اختيار طريق الخير أو الشر، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢).

والإنسان يمتاز عن غيره من المخلوقات بالفطرة الهادية له إلى الخير والتوحيد فهو مؤمن بالله بفطرته التي خلق عليها، وعهد الله إليه قبل أن يخلق بشرا سويا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٣)، فاتجاهه وميوله الداخلية تتجه به إلى الإيمان والتوحيد بالله عز وجل ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(٤).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...»^(٥).

ورغم هذا كله، إلا أن الله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الكريم طبائع وسلوكيات ذميمة تتنافى مع فطرة الإنسان التي فطره الله تعالى عليها مثل: كفران النعم واليأس والقنوط، والشح والبخل، والظلم والمكر، والشرك والجحود والحسد والحقد وغيرها من الطبائع والأفكار في الإنسان..

ذكرها الله تعالى وهو أعلم بحال وطبع الإنسان وبجوهره ومكنونه، فهو الباري المصور: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾^(٦) فهو يشمل نوازع فطرية تربطه بالأرض لأن الحياة لا تتحقق بغير وجود هذه النوازع قوية ملحة يتعذر الفكاك من عقالها، مقابل اشتماله على الفطرة

(١) سورة الإسراء: ٧٠

(٢) سورة الإنسان: ٣

(٣) سورة الأعراف: ١٧٢

(٤) سورة الروم: ٣٠

(٥) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات رقم (١٣٥٩)، ومسلم كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم (٦٦٩٧).

(٦) سورة النجم: ٣٢

التي تهدف إلى الارتفاع والسمو، ومحاولة الانطلاق ولو قليلا من روابط الأرض^(١).
فهذه النوازع الفطرية التي قد يكون منها ما هو محمود إذا هذبت بتعاليم الإسلام أوامر
ونواهي.

ولو كان لدى الداعية المسلم أو الفرد المسلم أيضا اطلاع بالمعتقدات والأفكار الإنسانية لما
تأثر مما يرى ولعامل كل فرد بما يظهر فيه من هذه الخلال التي لا يخلوا منها أبد، وإن كبر
في شيء لا محالة أنه صاغرة في شيء آخر.

ولكن كثير من المسلمين تظهر فيهم بعض الطباع والأفكار السيئة وذلك ثابت بالكتاب
والسنة، وتكلم ابن تيمية في هذا الموضوع في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَلِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ^(٢)

قال: "المراد بها الإنسان فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام، بل يذهب
وهمه إلى من كان مظهرا للشرك من العرب، أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر.

فيقال أولا: المظهرون للإسلام فيهم المؤمن والمنافق، والمنافقون كثيرون في كل زمان.
وثانيا: الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر وإن كان معه إيمان، كما قال النبي
صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه
خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها..»^(٣). فأخبر أنه من كانت فيه خصلة
وقد ثبتت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: «إنك أمرؤ فبك جاهلة»^(٤)،
وأبو ذر^(٥) كان من أصدق الناس إيمانا^(٦).

ولما رأيت من قصور الكتابات والمؤلفات المتحدثة عن هذا، وليقيني القاطع ويقين كل
مؤمن أن كتاب الله شامل كامل لا عوج فيه، توجهت في بحثي هذا إلى القرآن الكريم لأبحث

(١) جاهلة القرن العشرين، محمد قطب (٨٠/٢).

(٢) سورة يونس: ١٢.

(٣) أخرجه مسلم، رقم (٢٠٧) كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق.

(٤) أخرجه مسلم، رقم (٤٢٨٩) كتاب النذر، باب طعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس.

(٥) أبو ذر الغفاري جُنْدُب بن جُنَادَةَ (٣٢ هـ) الزاهد المشهور، الصادق اللهجة مختلف في اسمه واسم أبيه، والمشهور أنه جندب بن جنادة بن سكن.
كان من السابقين إلى الإسلام، وقصة إسلامه في الصحيحين، وكان أبو ذر من كبار الصحابة وفضلانهم، قيل كان خامس خمسة في الإسلام، ثم إنه رد
إلى بلاد قومه فأقام بها بأمر النبي ﷺ له بذلك. فلما أن هاجر ﷺ هاجر إليه أبو ذر رضي الله عنه، ولازمه وجاهد معه. قال رسول ﷺ: "ما أظلت
الخصراء ولا أظلت الغبراء أصدق من أبي ذر" وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. فانتبه بدر. وكان رأسا في الزهد، والصدق، والعلم والعمل،
قوالا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم، توفي سنة اثنتين وثلاثين (موسوعة مواقف السلف في العقيدة المغراوي ج ١ - ص ٦٩).

(٦) انظر مجموع الفتاوى (١٠٥/١٠-١٠٦).

عن ما قدم ولأبين أفكار وطبائع الإنسان، مستثنيا الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لأن الفطرة سببا في سوق الإنسان إلى الخير وإلى طريق الصلاح والرشاد.
مستعينا بالله تعالى أن ينير بصيرتي، ويسدد خطاي ويبارك في عملي وينفع به.. إنه على كل شيء قدير.

أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

دعاني إلى اختيار هذا الموضوع أسباب ودوافع كثيرة أهمها ما يلي:

- ١) لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة، لاسيما في أوساط العاملين في الحقل الإسلامي.
 - ٢) لقد حز في نفسي وآلمني ما عليه المسلمون اليوم من ابتعاد بل وتتكسر لتعاليم دينهم الكامل الذي شرعه الله باريء هذا الكون، والناظر إلى عالم اليوم يجد فيه تطورا كبيرا مع انتشار واسع للأفكار والمعتقدات الفاسدة كونها تدرس الإنسان وشخصيته في ضوء فلسفات وثقافات بعيدة عن الشرع، جاعل كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مصدرا واحدا من مصادرها وفي بعض الكتابات لا يذكر المصدر.
 - ٣) لحاجة الداعية إلى الله تعالى في دعوته وتعامله مع الآخرين والتعاون معهم في كثير من الأشياء لأن البشر لا غنى لهم عن بعضهم البعض. الأمر الذي يستوجب معرفة أحوال الآخرين وطبائعهم وأفكارهم لينطلق في تعامله معهم، ولا بد أن تكون عنده معرفة تحميه من تقلبات الإنسان ومن كيده ومكره والترفع عن الصغائر التي تلاحظ في ذلك الذي لم يهذب نفسه ولم يؤدبها بأدب الله تعالى.
 - ٤) المساهمة في الدراسات القرآنية وربط ذلك بالواقع وخاصة موضوع الفكر الصحيح الموضوع في القرآن الكريم، والترتيب والتناسق في القرآن الكريم.
 - ٥) وجود الرغبة القوية والميل للبحث العلمي لتنمية ملكتي الذاتية في العلم.
- أهمية البحث: تظهر أهمية هذا البحث من عدة جوانب:

١- أنه مساهمة ومحاولة لعلاج قضية فكرية معاصرة، ابتليت بها الأمة منذ أمد بعيد ولم تجد لها فكاكاً، بل اشتدت وطأتها، واستحكمت حلقاتها على الأمة في العصر الراهن، وهي آفة إفساد تفكير الإنسان والتشردم الفكري المؤدي إلى الخلاف والاختلاف المذموم.

٢- الدراسات السابقة أغفلت بعض الجوانب حسب اطلاعي، ولم تتعرض لها بوصفها قضية فكرية اجتماعية ذات جذور عميقة في ضمير الأمة ينبغي البحث عن عللها

وأسبابها ومعالجتها جذرياً، بإعادتها إلى الأصول (الكتاب والسنة) وإلى ثوابت الأمة.
 ٣- إرشاد الأمة والمجتمع وبيان أهمية معتقدات وأفكار الإنسان المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في إقامة شرع الله والحفاظ على المجتمع وحمائمه من التفكك والانحيار والموت البطيء من أثر وراء الأفكار الفاسدة والكثير من الأمراض النفسية والعصبية والاجتماعية، التي انتشرت في المجتمعات الغربية الآن مثل الانتحار واللقطاء الذين لا يعلمون من أين جاؤوا ولماذا جاؤوا.

مشكلة البحث:

تبرز مشكلة البحث من خلال التساؤلات الآتية:—

- ١- هل حماية الفكر في القرآن الكريم مبدأ واضح يسهل على القارئ والمطلع فيه أن يقف عليه؟
- ٢- هل وضع القرآن ضمانات لحماية الفكر والعقل الإنساني؟
- ٣- هل جاءت السنة لتوضح هذا التصحيح الفكري؟
- ٤- لماذا غفل الناس عن أخذ الأفكار المستقاة من كتاب الله وسنة رسوله والعلماء الثقات؟

أهداف البحث:

- يتمثل الهدف العام في المساهمة لإيجاد ثروة معرفية تساعد الأمة من أسر الأزمة الفكرية الراهنة، وتتمثل الأهداف الفرعية في ثلاثة أمور:
- ١- المساهمة في ترسيخ مبدأ عظيم ووضع منهج قرآني حول البحث في قضايا (تصحيح الفكر الإنساني) وذلك بتأسيس مفاهيم عامة تدور حول القضية من منظور قرآني تشكل أرضية للانطلاق نحو تلك القضايا.
 - ٢- المساهمة في وضع بعض المعالم والخطط التي تساعد الأمة في التخلص من ظاهرة الفساد الفكري والعقائدي، من أجل تنشئة جيل يمارس فكراً وعقيدة صحيحة، ويفتخر بالنقد كما كان الحال في العصور الأولى للإسلام، وبعض الأمم الآن.
 - ٣- المساهمة في علاج الفساد الفكري والنهوض بالأمة، وإيضاح طريقة القرآن في تربية الجانب العقلي للإنسان وأهمية العقل الذي كرم الله به الإنسان على سائر المخلوقات لتحقيق خلافة الله له في الأرض، ثم محاولة تطبيق هذا المنهج الرباني في حياتنا الواقعية والاستفادة منه في تربية النشء على المنهج الإسلامي الصحيح.

حدود البحث:

إن إشكالية التشردم الفكري المؤذي أصبحت صورة مألوفة في المجتمع الإسلامي الراهن، وغدت تشكل إشكالية واقعية معاصرة وعقبة حقيقية في طريق تشكيل وحدة شاملة للأمة في ظل مبدأ وعقيدة واحدة ويمكن إعادة جذور هذه الإشكالية إلى عاملين:

العامل الأول: طبيعة العلاقة بين العلماء والمفكرين الإسلاميين وبين المجتمع الإنساني، فإن طبيعة العلاقة بين المصطلحين توحى بأنه يصعب تفاعل صحة الفكر والوحدة في بوتقة واحدة على أرض الواقع، لأن **انفتاح** الفكر تفضي إلى الاختلاف، والاختلاف يفضي إلى الفرقة، والوحدة ضد الفرقة فلا تجتمعان.

العامل الثاني: اختلاف القائمين على أمر المسلمين منذ فجر الإسلام حتى هذا العصر الراهن في نوعية الحل الذي يمكن أن يواجه به الإشكالية التي تثيرها قضية حرية الفكر والرأي والوحدة، وفي المجمل يمكن عرض آراء ثلاثة فرق:

توجه الفريق الأول إلى إتاحة الفرصة كاملة لإبداء الرأي والتعبير عنه، فظهرت كل الآراء على السطح، وتم تبادل الأفكار، فتميّز الصواب من الخطأ، ولم يبق في الصدور رأي محبوس، فانفتحت بذلك دواعي الحقد والضغينة، فتوحدت الأمة. ويمكن التمثيل لهذه الطائفة بعهد النبوي الشريف، والخلافة الراشدة، وبعض العهود الزاهرة في التاريخ الإسلامي.

وبدا لآخرين - وهم الفريق الثاني - أن فساد الفكر والرأي يهدد وحدة الأمة، فعملوا على تقليص مساحتها والتضييق من نطاقها بشكل حاد في بعض المجالات، من أجل سلامة الأمة والدين ووحدتهما. وبدأ التضييق بحرية الرأي حول شؤون السلطة والحكم وما يتبعها من نظم، فتم تقليصها بشكل كبير.

أما الفريق الثالث: فقد امتد إلى حرية الاجتهاد الذي أغلق بابه تماماً في بعض العصور، واحتوى بعضاً من قضايا العقيدة لما كثر الجدل بين الفرق الإسلامية.

هذه الثلاثة هي أهم مجالات تصحيح الفكر والرأي، وقد امتدت إليها يد التضييق، ولم تستثن شيئاً، وللأسف مع هذا التضييق ظلت الإشكالية قائمة: صحة الفكر والرأي مازالت معدومة، الفرق موجودة، ووحدة الأمة لم تتحقق بعد، إذن أين الخلل؟

البحث عن الإجابة لهذا التساؤل هو غرض هذا البحث: الذي يفترض أن عودة التفكير الصحيح والعقيدة الصحيحة وكفالتها بشكل كامل وإشاعتها بين الناس في المجتمع الإسلامي تشكل ضرورة قصوى للأمة؛ للخروج من مأزقها الراهن.

ولكن كيف ذلك، ولماذا لجأ كثير من الأجيال إلى كبت هذه الأفكار والمعتقدات عبر التاريخ الإسلامي؟

ثم لماذا تباين مواقف الأقدمين؟ وهل يعود السبب إلى بعض العوامل التي طرأت بعد الخلافة الراشدة مثل: اتساع رقعة الدول، وزيادة عدد المسلمين، وتغير نظم السلطة... وغيرها من العوامل أم لشيء آخر؟

كل هذه التساؤلات تشكل أسئلة فرعية تحدد بشكل أكبر طبيعة الإشكالية المطروحة وتحدد مسار الفرضية، وهي في مجملها عناصر مساعدة للبحث عن الحقيقة - أي حقيقة العلاقة بين الوحدة والفكر الصحيح - وكانت البداية بالوحدة الفكرية، لأنها أساس انطلاق الوحدة الشاملة، وفي ذلك يعود الباحث إلى القرآن الكريم لاستلهام المنهج بسبب اختلاف أبناء الأمة حول الإشكالية كما مر ذكرها.

منهجية البحث:

اعتمدت على المنهج الوصفي والمنهج الاستدلالي في تنفيذ هذه الدراسة، بالإضافة إلى الاستفادة من بقية المناهج ذات العلاقة، حيث اتبعت أسلوب الاستقراء والتحليل وينهج المنهج التالي في البحث:

أولاً: تحديد مفهوم المصطلح من الناحية اللغوية والاصطلاحية، بغرض الوقوف على العناصر الأساسية والمكونة له، وذلك بالاحتكام إلى الجذر اللغوي من خلال معاجم اللغة وكتب الاصطلاحات.

ثانياً: الاستقراء والنظر في نصوص القرآن والسنة النبوية من أجل تكوين مفاهيم عامة عن الاستعمال القرآني.

ثالثاً: جمع واستقراء النصوص القرآنية والسنة النبوية المتعلقة بالموضوع أو التي ذات صلة به، بغرض الاهتداء إلى أسلوب أو منهج القرآن في عرض الظاهرة ومعالجتها جذرياً، بشروطها وضوابطها، كما هي محددة بالمفهوم اللغوي.

رابعاً: تحكيم المنهج القرآني والسنة النبوية على الظاهرة كما هي في مفهوم الناس في الوقت الراهن، من أجل اكتشاف مواضع خلل أو اختلال شروط.. إلخ.

خامساً: إيجاد حلول لتلك الاختلالات انطلاقاً من المنظور القرآني، وعلى وفق معطيات العصر.

هذه النقاط الخمس تعتبر نقاطاً منهجية متسلسلة تحكم مسار البحث، ومع ذلك ينبغي

ملاحظة الآتي:

- ١- إن ضوابط حماية الأفكار عندما توافرت بشكل أكبر في بعض العصور تحققت وحدة الأمة، مثل العهد النبوي الشريف، وعهد الخلافة الراشدة، وبالتالي ينبغي أخذ الأمثلة من تلك العصور.
- ٢- ليست العبرة في إعادة أشكال أو نظم بعينها، ولكن الغاية هي تحقيق العبودية لله تعالى، بمواجهة تحديات العصر بأسلوب العصر، مع اتخاذ ذلك المثال مرشداً والمنهج القرآني مقوماً.

أدوات البحث:

- ١- كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.
- ٢- كتب العلماء من المفسرين والفقهاء والمحدثين، فأضعها في صورة منهجية تناقش أفكار الإنسان بكل جوانبها.
- ٣- بعد زيارة ومناقشة العلماء وبعض الدكاترة في الجامعات المتخصصة في هذا المجال، وما كتبه العلمانيون من شبهات لتفنيدها والرد عليهم، وقد رتبته في آخر الرسالة مع الفهارس.
- ٤- الملاحظة لسياق الآيات وتحليها والخروج بمنهج واحد يقر الموضوع.
- ٥- المقارنة والمقابلة.

المصطلحات الإجرائية:

قبل الخوض في تفصيل الخطوات المنهجية لخطة البحث، يستحسن تحديد مفاهيم بعض المصطلحات التي يتكرر ذكرها في أثناء البحث، لتأخذ معنىً محددًا يطرده مع أماكن ورودها المختلفة وهي:

منهج القرآن: المقصود بهذا المصطلح - في إطار هذا البحث - هو طريقة القرآن أو الأسلوب القرآني في عرض ظاهرة أو إشكالية ما، من خلال مختلف السور والآيات، ومعالجتها معالجة شاملة بشروطها وضوابطها، والذي يُهتدى إليه باستقراء تلك الآيات وتدبرها.

حماية الأفكار: تستخدم حماية الأفكار في هذا البحث على معنيين:

- أ- قدرة الإنسان على سلوك أساليب وطرق النظر العقلي دون قيد أو مؤثر.
- ب- قدرة الإنسان على إبداء ما يراه أو يعتقده وإشاعته بين الناس دون قيد أو مؤثر. مع الملاحظة أن مصطلح (الفكر) لا يمكن تحديده بدقة إلا بتحديد القيود التي ترد عليه.

الوحدة الفكرية:

المقصود بالوحدة الفكرية في هذا البحث هو اشتراك الناس في منهج أعمال النظر العقلي لنيل المعارف، أما الوحدة التامة بين الناس في الرؤى والأفكار وفي نتائج النظر العقلي فإنها مخالفة لطبيعة البشر.

بمعنى تبين معنى شرع الله وسننه في القرآن والفوائد التي ينتفع بها المجتمع حتى نعيش في رخاء وعافية.

الدراسات السابقة:

حماية الأفكار بمفهومها العام كانت ومازالت، مجالاً للعديد من البحوث والدراسات، بقدر ما هي طموحٌ للشعوب والأفراد، فقد تناولتها الدراسات من جوانبها المختلفة، كاشفة حقيقتها وأنواعها، وضوابطها ومجالاتها.

ولكن قليلاً ما تناولت تلك الدراسات حماية الأفكار انطلاقاً من الرؤية القرآنية التي تعالج الموضوعات عبر نصوص يربط بينها ناظم يمكن الكشف عنه عبر استقراء تلك النصوص من خلال سور القرآن كلها، وهذه الحلقة الثلاثية، من الضروري الربط بين أجزائها، أعني الانطلاق من المنظور القرآني في تقرير حماية الأفكار، ومقارنة ذلك المنظور بوحدة الأمة، من أجل الوقوف على الرابط المنهجي بينهما والكشف عن دور حماية الأفكار في إثبات أركان المجتمع، وخاصة الوحدة الفكرية التي هي أساس الوحدة الشاملة، وهو الأمر الذي لم تفعله الدراسات السابقة.

ولكن من أجل وضع لبنة في بناء العلم والمعرفة موضعها الصحيح، كان لابد من الانطلاق من أرضية المجهودات السابقة، لهذا فقد قمت باستطلاع مجمل الدراسات التي تناولت موضوع (الأفكار) بشكل عام، وحرية الرأي بشكل خاص، فكان من بينها:—

١- كتاب للأستاذ الدكتور مصطفى عبد الواحد والصادر عن دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع (حرية الرأي في الإسلام) الذي لم يشأ كاتبه أن يربط حرية الرأي فيه بأي نوع من أنواع حماية الفكر، ولكن عالج الموضوع منطلقاً من النصوص القرآنية والسنة النبوية بالإضافة إلى أحداث السيرة النبوية الغراء، مستشهداً بكل ذلك ومحاولةً للتحليل أو الربط بين النصوص من أجل الوقوف على الناظم المنهجي بينها، باعتبارها نصوصاً ذات صلة وعلاقة بموضوع واحد، مع ذلك انتهى الكاتب إلى أن حرية الرأي في الإسلام مقررة ومؤصلة بنصوص قرآنية، والممارسات العملية لنبي الإسلام ﷺ وأصحابه الكرام لها.

٢- كتاب للدكتور محمد هاشم كمالى (حرية التعبير في الإسلام) ويتمحور أساس الفكرة في الكتاب حول محورين:

الأول: محاولة إثبات وجود مفهوم (الحقوق) في الإسلام والتصدي للذين ينكرون ذلك، وخاصة الحقوق الأساسية، وفي هذا ينطلق الكاتب من منطلقات دفاعية يجعل المبادرة بيد الآخرين.

والثاني: البحث عن الأهداف الأساسية لتقرير حرية الرأي والتعبير في الإسلام، ويحددها في هدفين: إثبات صدقية القول وتبريرها، وحماية الكرامة الإنسانية، فانصب حديث الكاتب حول هذين المحورين، باحثاً ومحللاً ومستشهداً بالشواهد العملية لممارسة الحقوق في التاريخ الإسلامي - منها حق حرية الرأي والتعبير - عن طريق عرض بعض المفاهيم الإسلامية مثل: الحسبة، والشورى والاجتهاد، ثم الضوابط (الأخلاقية والقانونية) الضرورية لممارسة تلك الحقوق، وكذلك معوقاتهما.

ولو حاول المؤلف الربط بين أثر ممارسة تلك الحقوق وصحة الفكر وقارن بينهما لأفاد أكثر.

٣- وفي محاولة لربط دور حرية ممارسة الرأي بالوحدة الفكرية تأتي رسالة الدكتور عبد المجيد النجار (دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين) التي هي الأولى في هذه المحاولة، فعالج الكاتب من خلالها دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية من خلال خمسة أركان شكلت في مجموعها عناصر الوحدة الفكرية - كما يرى الكاتب - وهي الموضوعية، وشمول النظر، ومنهجية التوحيد، والمنهج النقدي والواقعية.

وكان من المفيد أن يستقرئ المؤلف نصوص القرآن الكريم من أجل تأسيس مفهوم لحرية الرأي مع حماية أفكاره، بدلاً من الاكتفاء بإيراد النصوص للاستشهاد والاستدلال من أجل إثبات الأساس الشرعي لها.

لعل العرض السابق يظهر جوانب الجدة في الموضوع وأهميته، أي الانطلاق من الرؤية القرآنية في تحديد حقيقة حماية الأفكار في الإسلام المنضبطة بالضوابط القرآنية، ثم الانطلاق للبحث عن أثرها في وحدة الأمة سلباً وإيجاباً، وهذا الجانب لم يجد إلا القليل من العناية من الدراسات السابقة.

وهناك كتب عدة تطرقت إلى هذا الموضوع منها:-

٤- خلق المسلم، محمد الغزالي، دمشق، دار القلم، الطبعة (٣) ١٤٠٣ هـ .

- ٥- دستور الأخلاق في القرآن، د . محمد عبد الله دراز، تعريب د . عبد الصبور شاهين، بيروت، الطبعة^(٦) مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ .
- ٦- دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، د . مقداد يالجن، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ .
- ٧- مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر، د . عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ١٤١٩ هـ .

تبويب الأبواب (الهيكل العام للرسالة):

جاءت الرسالة في فصل تمهيدي، وستة فصول وخاتمة.

الفصل التمهيدي عرّفت فيه مفردات عنوان البحث (منهج) (القرآن) (في تقرير) (حماية) (الأفكار).

❖ الفصل الأول: طبيعة ومكانة الإنسان والعقل في القرآن.

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول: الحكمة من خلق الإنسان في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: مكانة الإنسان في القرآن الكريم.
- المبحث الثالث: حث القرآن على استخدام العقل.
- المبحث الرابع: الإسلام دين الفطرة.
-

❖ الفصل الثاني: خصائص الإنسان الروحية والجسمية والنفسية.

في أربعة مباحث :

- المبحث الأول: خصائص الإنسان الروحية.
- المبحث الثاني: خصائص الإنسان الجسمية.
- المبحث الثالث: خصائص الإنسان النفسية.
- المبحث الرابع: نظرة الإسلام للإنسان من حيث أنه جسم وعقل وروح.

❖ الفصل الثالث منهج القرآن في تربية العقل.

ويشتمل خمسة مباحث:

- **المبحث الأول:** اختلاف العلماء حول مفهوم العقل في اللغة والاصطلاح.
- **المبحث الثاني:** التربية العقلية في القرآن الكريم وتقدير الإسلام للعقل واعتباره مناط المسؤولية .
- **المبحث الثالث:** دور العقل في القرآن الكريم.
- **المبحث الرابع:** علاقة القرآن بالعقل والفكر.
- **المبحث الخامس:** دلالات لفظ العقل في القرآن أثرها في توجيه الأفكار وحمايتها.

❖ **الفصل الرابع: منهج القرآن في حماية الأفكار وبيان مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام.** وفيه أربعة مباحث :

- **المبحث الأول:** منهج القرآن في حماية الأفكار بالأدلة الفطرية النفسية.
- **المبحث الثاني:** منهج القرآن في حماية الأفكار بالأدلة العقلية.
- **المبحث الثالث:** بيان مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام.
- **المبحث الرابع:** الفرق بين علماء الفلاسفة وعلماء الكلام ومنهج القرآن في حماية الأفكار.

❖ **الفصل الخامس دور المؤسسات العلمية في التربية الإسلامية.** ويشمل أربعة مباحث :

- **المبحث الأول:** بيان المنهج التربوي في القرآن الكريم.
- **المبحث الثاني:** بيان منهج الرسول ﷺ التربوي .
- **المبحث الثالث:** لا إكراه في الدين.
- **المبحث الرابع:** دور المؤسسات العلمية وعلماء المسلمين في التربية الفكرية.

❖ **الفصل السادس الإسلام والمذاهب الهدامة.**

- **المبحث الأول:** تعريف الخلاف والاختلاف وأقسامه.
- **المبحث الثاني:** أدب الاختلاف في الإسلام.
- **المبحث الثالث:** أسباب غزو المذاهب الهدامة لبلاد المسلمين.
- **المبحث الرابع:** دور المذاهب الفكرية المعاصرة لحماية العقل المسلم.

❖ الخاتمة.

وتشمل أهم النتائج والتوصيات .

وبعد الخاتمة تم وضع فهرس فنية، وهي كالتالي:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الأعلام.
- المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات...

التمهيد

عرّفت فيه مفردات عنوان البحث (منهج) (القرآن) (تقرير) (حماية) (الأفكار)
المنهج في اللغة:

يقول ابن منظور: نهج طريق نهج: بين واضح، وهو النهج، وطرق نهجه، وسبيل منهج: كنهج. ومنهج الطريق: وضحة، والمنهاج كالمنهج وفي التنزيل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾^(١) وأنهج الطريق: وضح واستبان وصار نهجاً واضحاً بيناً، والمنهاج: الطريق الواضح. واستنهج الطريق: صار نهجاً، ونهجت الطريق: أبنته وأوضحته، ويقال عمل على ما نهجت هلك، ونهجت الطريق: سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان، أي يسلك مسلكه. والنهج: الطريق المستقيم^(٢).

المنهاج: الطريق الواضح ونهج الطريق أبانه وأوضحه ونهجه أيضاً سلكته^(٣).

المنهج في الاصطلاح:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ يقول ابن كثير: المنهاج هو الطريق الواضح السهل^(٤). ويقول الأصفهاني: نهج: النهج الطريق الواضح ونهج الأمر وأنهج وضح ومنهج الطريق ومنهاجه، ومنه قولهم: نهج الثوب وأنهج بان فيه أثر البلى وقد أنهجه البلى^(٥). وفي سنن ابن ماجه (في كتاب تعبير الرؤيا) رأيت كأن رجلاً أتاني فقال لي انطلق فذهبت معه فسلك بي في منهج عظيم فعرضت على طريق على يساري فأردت أن أسلكها فقال إنك لست من أهلها ثم عرضت على طريق عن يميني فسلكتها حتى إذا انتهيت، إلى آخر الرؤيا ثم قصصها على النبي ﷺ فقال له ﷺ: ((رأيت خيراً أما المنهج العظيم فالمحشر وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار ولست من أهلها وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة))، إلى آخر الحديث^(٦). وقال العباس ﷺ (والله ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً)^(٧).

(١) سورة المائدة: ٤٨ .

(٢) لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف - (ص. ٤٥٥٤-٤٥٥٥).

(٣) مختار الصحاح - محمد بن بكر الرازي - المطبعة الكلية - ط ١ - ١٣٢٩هـ - (ص. ٧٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم - الحافظ أبي الفداء اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٧هـ - ط ١ - (ج ٢ - ص ٦٩).

(٥) المفردات في غريب القرآن - أبي القاسم الحسين الأصفهاني - تحقيق محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - لبنان - (ص. ٥٠٩).

الحسين بن محمد الراغب أبو القاسم الأصبهاني: أحد أعلام العلم، وله تصانيف كثيرة. العلامة الماهر، المحقق الباهر، كان من أذكى المتكلمين، كتاب معجم الأدباء، شهاب الدين الحموي دار الغرب الإسلامي، بيروت (ج ٣ - ص ١١٥٦).

(٦) هداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجه - صفاء الضوي العدوي - دار البقين - ١٤٢٠هـ - (ص. ٢٥٩/٢٥٨).

(٧) سنن الدارمي تحقيق حسين سليم الداراني - دار المغني - الرياض - ط ١ - ١٤٢١هـ - (ص. ٢٢٠ / ٢٢١).

ويتضح مما سبق أن المنهج: هو الطريق الواضح والأسلوب المتبع والمنهجية هي الطريقة الواضحة بالأسلوب المتبع المحدد .

تعريف القرآن:

القرآن الكريم في اللغة:

القرآن في الأصل مصدر قر أقرأه وقرآناً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَآتَيْتَهُ قُرْآنَهُ﴾ (١) أي: قراءته، فهو مصدر على وزن فعلان -بالضم- كالغفران والشكران (٢).
وقد خصَّ القرآن بالكتاب المنزل على محمد ﷺ، فصار له كالعلم الشخصي، وسمي قرآناً لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة (٣).

ويطلق القرآن على مجموعة، وعلى كل آية من آياته من باب إطلاق الجزء على الكل، فإنك إذا سمعت من يتلو آية منه صح أن تقول أنه يقرأ القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤)، (٥).

يقول ابن منظور نقلاً عن أبو إسحاق النحوي: يسمى كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه ﷺ، كتاباً وقرآناً وفرقاناً، ومعنى القرآن معنى الجمع، وسمي قرآناً لأنه يجمع السور، فيضمها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي جمعه وقراءته، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَآتَيْتَهُ قُرْآنَهُ﴾ أي قراءته وقرأت الشيء قرآناً: جمعته وضمته بعضه إلى بعض (٦).

وقرأ الكتاب قراءة وقرآناً بالضم وقرأ الشيء قرآناً بالضم أيضاً جمعه وضمه ومنه سمي القرآن لأنه يجمع السور ويضمها وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي قراءته (٧).

(١) سورة القيامة: ١٧-١٨ .

(٢) اللسان (ج١-ص١٢٩)، ومناهل العرفان (ج١-ص٧) دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه -القاهرة.

(٣) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص٤٠٢) دار المعرفة -بيروت، ولسان العرب (ج١، ص١٢٩)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص٢٠).

(٤) سورة الأعراف: ٢٠٤

(٥) انظر: مناهل العرفان (ج١-ص١٥-١٦)، ومباحث في علوم القرآن (ص: ٢٠).

(٦) لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف - ط١- (ص٣٥٦٣).

(٧) مختار الصحاح - محمد بن بكر الرازي - المطبعة الكلية - ط ١ - ١٣٢٩هـ - (ص١٣).

وفي القاموس المحيط: القرآن: التنزيل. قرأه و- به كنصره ومنعه، قرأاً وقرأةً وقرآناً فهو قارئ من قرأةٍ وقرأٍ وقارئين: تلاه، كاقترأه وأقرأته أنا. وصحيفةٌ مقروأةٌ ومقروءةٌ ومقريئةٌ، وقارأه مقارأةً وقرأءً: دارسه^(١).

القرآن الكريم في الاصطلاح:

هو: "كلام الله المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه، المكتوب في المصاحف المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس"^(٢).

فالكلام اسم جنس في التعريف يشمل كل كلام، وإضافته إلى الله تعالى يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة والمنزل على محمد ﷺ يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل قبل تحريفهما.

والمعجز بلفظه ومعناه: يخرج الأحاديث القدسية على القول بأن ألفاظها منزلة من عند الله، وأما على قول من يرى أن معانيها من عند الله، وألفاظها من عند الرسول ﷺ، فقد خرجت بالقول الأول، والمنقول إلينا بالتواتر: يخرج قراءة الأحاد، والمتعبد بتلاوته: يخرج الآيات التي نسخت تلاوتها^(٣).

يقول ابن كثير: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي في صدرك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي أن تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فَأَنْبِئْ قُرْآنَهُ﴾ أي فاستمع له وأنصت ثم اقرأه كما أقرأك^(٤). يقول الراغب الأصفهاني: قال بعض العلماء تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمره كتبه بل لجمعه ثمره جميع العلوم^(٥).

ويقول القطان: عرف بأنه كلام الله الذي أنزل على محمد ﷺ ونقل إلينا تواتراً لنتعبد بتلاوته وأحكامه، وكان آية دالة على صدقه فيما ادعاه من الرسالة^(٦).

(١) القاموس المحيط - مجد الدين الفيروزآبادي - إشراف محمد نعيم العرقسوسي - الرسالة - بيروت - ١٤٢٦هـ - ط ٨ - ص ٤٩٠.

(٢) مناهل العرفان للزرقاني (ج ١ - ص ١٠-١٣)، والنبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز (ص ١٥) ط ٢ دار القلم - الكويت، والمدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة (ص: ٦) ط ٢ دار الكتب - القاهرة، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٢٠-٢١) ط ٥ مؤسسة الرسالة - بيروت، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح (ص: ٢١) دار العلم للملايين - بيروت ط ١١.

(٣) لسان العرب، ابن منظور (ج ٥ - ص ٤٥٥٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم - الحافظ أبي الفداء اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٧هـ - ط ١ - (ج ٤ - ص ٤٧٩).

(٥) المفردات في غريب القرآن - أبي القاسم الحسين الأصفهاني - تحقيق محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - لبنان - (ص. ٤٠٢).

(٦) تاريخ التشريع الإسلامي - التشريع والفقه - مناع القطان - مكتبة المعارف - الرياض - ١٤١٧هـ - (ص ٣٩).

ويتضح مما سبق أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي أنزله على سيدنا محمد ﷺ وفيه بيان شرع الله عز وجل .

تعريف التقرير:

(ق ر ر) مصدر قرر. وهو ما يكتب أو يلقي لتبيين تفاصيل حدث أو حالة أو مهمة ونحو ذلك. تقول " كَتَبَ تَقْرِيراً عَنْ سَيْرِ الدَّرَاسَةِ بِالفَصْلِ: "بَيَاناً وَعَرَضاً يَتَضَمَّنُ مَا شَاهَدَهُ. (القرار) المستقر من الأرض. ويوم (القر) بالفتح اليوم الذي بعد يوم النحر لأن الناس يقرون في منازلهم. و(أقر) الله عينه أي أعطاه حتى تقر فلا تطمح إلى من هو فوقه^(١). وقوله تعالى: (ولكم في الأرض مستقر)؛ أي قرار وثبوت. وقوله تعالى: (لكل نبأ مستقر)؛ أي لكل ما أنبأتكم عن الله عز وجل غاية ونهاية ترونها في الدنيا والآخرة. والشمس تجري لمستقر لها؛ أي لمكان لا تجاوزه وقتنا ومحلا وقيل لأجل قدر لها. وقال أبو حنيفة^(٢): القرار كل مطمئن اندفع إليه الماء فاستقر فيه، قال: وهي من مكارم الأرض إذا كانت بها سهولة.

وقوله عز وجل: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٣) هو المكان المطمئن الذي يستقر فيه الماء. ويقال للروضة المنخفضة: القرار. وصار الأمر إلى قراره ومستقره: تناهى وثبت. وقولهم عند شدة تصيبهم: صابت بقر أي صارت الشدة إلى قرارها، والإقرار: الإذعان للحق والاعتراف به، أقر بالحق أي اعترف به، وقد قرره عليه وقرره بالحق غيره حتى أقر^(٤).

معنى كلمة الحماية:

(حماء) يحميه (حماية) دفع عنه وهذا شيء (حمى) أي محظور لا يقرب. و(أحميت) المكان جعلته حمى، وفي الحديث: ((لا حمى إلا لله ولرسوله)). ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا وَصِيلَةَ وَلَا

(١) مختار الصحاح (ج ١ - ص ٢٥٠).

(٢) أبو حنيفة (٢) (١٥٠ هـ) النعمان بن ثابت بن زوطى أبو حنيفة التيمي الكوفي مولى بني تيم الله ابن ثعلبة، الفقيه عالم العراق إمام أصحاب الرأي، أحد الأئمة المجتهدين، رأى أنس بن مالك، قال الفضيل بن عياض: كان أبو حنيفة رجلا فقيها معروفا بالفقه مشهورا بالورع واسع المال، معروفا بالإفضال على كل من يطيف به، صبوراً على تعليم العلم بالليل والنهار، حسن الليل، كثير الصمت قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام فكان يُحسن أن يدل على الحق، هاربا من مال السلطان. يروى أنه ضرب غير مرة على أن يلي القضاء فلم يفعل ومناقبه كثيرة. توفي رحمه الله في السجن وقيل مسموما سنة خمسين ومائة. (موسوعة مواقف السلف في العقيدة المغراوي ج ٢ - ص ٣٢٦).

(٣) سورة المؤمنون: ٥٠

(٤) لسان العرب (ج ٥ - ص ٨٤ - ص ٩١).

حَامِيًّا ﴿١﴾ قال الفراء: إذا لقح ولد ولده فقد حمى ظهره فلا يركب ولا يجز له وبر ولا يمنع من مرعى. وفلان (حامي الحقيقة) (٢).

وتعني الحماية بوقاية النفس من الأخطار القادمة والحماية تعني الوقاية والدفاع عن النفس وقت الخطر.

تعريف معنى الأفكار:

(ف ك ر) التَّفَكُّرُ التأمل والاسم الفِكْرُ والفِكرَةُ والمصدر الفَكْرُ بالفتح وبابه نصر وأفكّر في الشيء وفكّر فيه بالتشديد وتَفَكَّرَ فيه بمعنى ورجل فِكِيرٌ بوزن سكيت كثير التفكير.

التَّفَكَّرُ: التأمل. والاسم الفِكْرُ والفِكرَةُ. والمصدر الفَكْرُ بالفتح. قال يعقوب: يقال ليس لي في هذا الأمر فِكْرٌ، أي ليس لي فيه حاجة. قال: والفتح فيه أفصح من الكسر. وأفكّرَ في الشيء وفكّرَ فيه وتَفَكَّرَ، بمعنى. ورجل فِكِيرٌ: كثيرُ التَّفَكُّرِ (٣).

في الأمر فِكْرًا: أعمل العقل فيه ورتّب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول. (أفكّر) في الأمر: فكر فيه. فهو مفكر. (فكّر) في الأمر: مبالغة في فكر، وهو أشيع في الاستعمال من فكر. وفي المشكلة: أعمل عقله فيها ليتوصّل إلى حلّها. فهو مفكّر.

وفي الأمر: أعمل عقله فيه. (تفكّر) في الأمر: افكّر. (التفكير): إعمال العقل في مشكلة للتوصّل إلى حلّها. (الفكر): إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول. ويقال: لي في الأمر فِكْرٌ: نظر وروية. وما لي في الأمر فكر: ما لي فيه حاجة ولا مبالاة (٤).

فالفكرة: هي كل ما يخطر في العقل البشري من أشياء أو حلول أو اقتراحات مستحدثة أو تحليلات للوقائع والأحداث، فالفكرة هي نتاج التفكير، والتفكير هو أحد أهم ميزات النوع

(١) سورة المائدة: ١٠٣

(٢) مختار الصحاح (ج ١ - ص ٨٢). المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) - المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

(٣) مختار الصحاح (ج ١ - ص ٢٤٢) المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) - المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

(٤) المعجم الوسيط (ج ٢ - ص ٦٩٨)، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.

البشري فقدرة الإنسان على توليد الأفكار يترافق مع قدرته على الاستنتاج والتعبير عن النفس، والأفكار هي ما يولد المصطلحات، التي تشكل أساس أي نوع من أنواع المعرفة سواء كانت نوع من أنواع العلوم أو الفلسفة.

والأفكار هي مجموع العوامل التي يكتسبها الفرد في حياته، من الحياة نفسها طالما أنه ما زال على قيد الحياة والإنسان ما هو إلا مجموعة من سلسلة أفكار تتحول لسلوك إنساني ومنها تتبلور شخصية الإنسان، فعن طريق بلورته لتلك الأفكار تتبلور شخصيته.

والفكرة ثلاثة أنواع: فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال.

قلت: الفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة .

فالتى تتعلق بالعلم والمعرفة فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفي، والتي تتعلق بالطلب والإرادة هي الفكرة التي تميز بين النافع والضار .

ثم يترتب عليها فكرة أخرى في الطريق إلى حصول ما ينفع، فيسلكها، والطريق إلى ما يضر فيتركها، فهذه ستة أقسام لا سابع لها، هي مجال أفكار العقلاء .

فالفكرة في التوحيد استحضر أدلته، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك

واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين فكذلك من

أبطل الباطل عبادة اثنين، والتوكل على اثنين، بل لا تصح العبادة إلا للاله الحق، والرب الحق،

وهو الله الواحد القهار.

الفصل الأول

طبيعة ومكانة الإنسان والعقل في القرآن

وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : الحكمة من خلق الإنسان في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني : مكانة الإنسان في القرآن الكريم.
- المبحث الثالث : حث القرآن على استخدام العقل.
- المبحث الرابع : الإسلام دين الفطرة.

الفصل الأول

طبيعة ومكانة الإنسان والعقل في القرآن

المبحث الأول

الحكمة من خلق الإنسان في القرآن الكريم

المطلب الأول: خلق الله الإنسان لحكمة ولم يخلقه عبثاً:

إن الخالق الحكيم قد خلق الإنسان لحكمة بينها في كتابه الكريم حيث قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ * فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١﴾ أي أظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَبَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٢) يعني هملاً، وقوله: ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ﴾ أي: تقدّس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أي: حسن المنظر بهي الشكل (٣).

فالإنسان مخلوق من مخلوقات الله، محتاج إلى سنة يسير عليها في جميع أحواله، ليسعد في الدنيا والآخرة، وهذه السنة هي الدين الذي أكرمه الله به ورضيه له، وسعاده أو شقاوته مبنية على مدى تمسكه به، أو إعراضه عنه، وهو مختار في قبوله أو رده كما قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٤) أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على

(١) سورة المؤمنون: ١١٥-١١٦

(٢) سورة القيامة: ٣٦

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٥ - ص ٥٥).

ابن كثير :- هو الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي من بني حنيفة. ولد سنة إحدى وسبعمائة ، في قرية «مجدل» من «بصرى»، وقد شهد القرن الثامن الهجري في ظل دولة المالكيك أيام التتار والصليبيين. شيوخه: درس الإمام ابن كثير على أيدي المئات من الشيوخ، ترك الحافظ ابن كثير عشرات المؤلفات في شتى الميادين العلمية، في التاريخ والتفسير والحديث. ، وفاته: توفي ابن كثير في يوم الخميس ٢٦ شعبان من سنة ٧٧٤ هـ، (موسوعة مواقف السلف في العقيدة المغراوي ج ٨ - ص ٣٧٤).

(٤) سورة الكهف: ٢٩

الإيمان (١).

وكذلك لولا التكليف لكان خلق الإنسان عبثاً وسدى، والله يتعالى عن ذلك، وقد نزه نفسه عنه، كما نزه نفسه عن العيوب والنقائص.

لكن الكافر يزعم أن الإنسان خلق عبثاً!! وهو بهذا يتهم خالقه بالعبث، سبحانه وتعالى عما يقول الكافرون علواً كبيراً. ولو قيل للكفار إن أطباءهم يعبثون في أعمالهم لسخروا من هذا القول، وقالوا: وهل يعبث الذي يصلح الخلل في أعينكم وأفواهكم وأمعانكم وقلوبكم إن أصيبت بالمرض؟ إن أطباءنا أجل وأعلا من أن يظن بهم العبث. فنقول لهم: صدقتم، إن الذي يصلح الخلل ويعالج المرض في أعضاء الجسم لا يعبث. ولكن كيف تزعمون أن خالق العيون والأفواه والأمعاء والقلوب يعبث في خلقه؟! إنه سبحانه أجل وأعلا من أن يظن به العبث، وإنما هؤلاء محجوبون عن معرفة حقيقة القدرة الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٢) يقول تعالى ذكره: وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث، ولا يقرؤون بالثواب والعقاب، جعلنا بينك وبينهم حجاباً، يحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤ عليهم، فينتفعوا به، عقوبة منا لهم على كفرهم. والحجاب ههنا: هو الساتر (٣).

فذكر سبحانه الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ لأن الذين لا يؤمنون بالبعث تجمدت قلوبهم على الحس فلا يؤمنون بغيره، لأنهم يحسبون أنه لا حياة غير هذه الحياة، فيرتقبون ويلعبون ويلهون وكأنما خلق الإنسان عبثاً، وذلك أداهم إلى الكفر فصاروا لا يؤمنون بشيء.

وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى وهو ستره عنهم وكونهم محجوبين عنه بقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَيَّ آدْبُرُهُمْ نُفُورًا﴾ (٤) يقول

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن السعدي (ج ١ - ص ٤٧٥). المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويح، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) سورة الإسراء: ٤٥

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٧ - ص ٤٥٧). المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

الطبري هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، ولد في طبرستان سنة مائتين وأربع وعشرين للهجرة. وقد تحدث عن أمره في حدائثه سنة فقال: "حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمان سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع" أشتهر عند كثير من العلماء غزارة علم الإمام وكثرة مؤلفاته في العلوم المختلفة، توفي في بغداد برحلة يعقوب يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة ثلاثمائة وعشر للهجرة، ودفن يوم الأحد في داره. (اللسان (٥/ ١٠٠ - ١٠٣) والسير (١٤/ ٢٦٧ - ٢٨٢).

(٤) سورة الإسراء: ٤٦

تعالى ذكره: وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة عند قراءتك عليهم القرآن أكنة، وهي جمع كنان، وذلك ما يتغشأها من خذلان الله إياهم عن فهم ما يُتلى عليهم ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يقول: وجعلنا في آذانهم وقرا عن سماعه، وصمما، والوقر بالفتح في الأذن: الثقل. والوقر بالكسر: الحمل. وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ﴾ يقول: وإذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ آذَانِهِمْ نُفُورًا﴾ يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفورا من قولك استكبارا له واستعظاما من أن يوحد الله تعالى (١).

ويصح أن نقول إن الكلام السامي ممثل لحالهم في عدم فقههم للقرآن وعدم سماعهم لآياته سماع فهم وتدبر وتعرف لبلاغته بحال من جعل الله تعالى على قلبه غشاوة فلا يصل إلى الحق، وحال من في آذانه ثقل فلا يسمع، ثم يصور سبحانه نفورهم من الحق وتأثرهم بالأصنام التي جعلتهم يعتقدون فيها الألوهية فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَعْلَىٰ آذَانِهِمْ نُفُورًا﴾ (٢) وإذا ذكرت ربك الذي خلقك وخلقهم وحده من غير ذكر آلهتهم على أنه المتفرد وحده بالألوهية اعتراهم إعراض أشد، فأعرضوا سائرين على أدبارهم نافرين من الحق كما يفر ذو الرمد من ضوء الشمس، أي يسارعون بالتولي والإعراض نافرين مدبرين، سائرين بظهورهم لآبائهم، وهذا النص يصور شخصا رأى شيئا فهاله ما رأى فولى مدبرا، رجع مدبرا نافرا كأنه رأى شيئا مخيفا، اقتشعر له بدنه، وهذا يصور مقدار نفورهم من التوحيد الحق، وإقبالهم على الوثنية الباطلة، فالأوهام التي سكنت في نفوسهم صورت لهم الحق مخوفا مرهوبا، والباطل طيبا حسبوا فيه السلامة وما وراءه إلا الحسرة والندامة وساء ما كانوا يصنعون.

كل هذه المعاني تدل على أن هذه النفوس التي تنفر من الحق هذا النفور نفوس مريضة، عرتها آفة حولتها عن الحق وصرفت فطرتها وطمست فؤادها (٣).

استحالة خلق الإنسان عبثاً:

لقد ظن قوم أن هذه الحياة فرصة للأكل والمتع والشهوات واللذائذ، فتنافسوا على الرغيف،

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٧ - ص ٤٥٨).

(٢) سورة الإسراء: ٤٦.

(٣) زهرة التفسير المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ) دار النشر: دار الفكر العربي (ج ٨/ص ٤٣٩٢).

وقضوا حياتهم في تلبية نزواتهم وشهواتهم ومتعمهم ولذائذهم، وهذه الأهداف أهداف هزيلة وضئيلة لا قيمة لها؛ لأن الإنسان يشارك فيها الحيوان، والحيوانات لا تتجاوز أهدافها في هذه الحياة هذه الأهداف.

والله تبارك وتعالى يعيب على الكفار أن تكون تحليلاتهم لهذه الحياة عند هذا المستوى، فيقول جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (١) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ﴾ في الدنيا ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ﴾ التي تأكل وهي غير عابئة بعاقبتها، ولا حاسبة لمآلها حساباً. ومآلها النحر والذبح والمهانة، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي منزل ومقام ومصير (٢).

ويقول عز وجل للنبي ﷺ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣) أم تظن أن أكثرهم يسمعون آيات الله سماع تدبر، أو يفهمون ما فيها؟ ما هم إلا كالبهائم في عدم الانتفاع بما يسمعون، بل هم أضل طريقاً منها (٤).

ويقول سبحانه وهو يخبر أن هؤلاء هم الذين ذرأهم الله للنار: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْعَقِلُونَ﴾ (٥) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أي لدخولها والتعذيب بها ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم الكفار من الفريقين، الموصوفون بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي آيات الله الهادية إلى الكمالات ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي دلائل وحدته، بصر اعتبار ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ، يعني أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه

(١) سورة محمد: ١٢

(٢) أوضح التفاسير، المؤلف: محمد عبد اللطيف بن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ)، الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة: السادسة، رمضان ١٣٨٣ هـ - فبراير ١٩٦٤م (ج ١/ص ٦٢٣).

محمد عبد اللطيف بن الخطيب، ولد في القاهرة، وفيها توفى، عاش في مصر ولبنان والسعودية، حفظ القرآن الكريم صغيراً، ثم التحق بمدرسة الحسين الابتدائية، فحصل على شهادتها مكفياً بها ليعكف على تنقيف نفسه وفق منهج متكامل، حتى أصبح واحداً من علماء عصره في التفسير وعلوم القرآن الكريم، كان عضواً في العديد من الجمعيات والنقابات، له عدد من المؤلفات في مجال التفسير والفكر الإسلامي. (الترجمة من تفسيره).

(٣) سورة الفرقان: ٤٤

(٤) التفسير الميسر (ج ١/ص ٣٦٤). المؤلف: نخبة من أساتذة التفسير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة:

الثانية، مزينة ومنقحة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٥) سورة الأعراف: ١٧٩

الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية^(١).

إذاً: ليس الهدف من خلق الإنسان أن يأكل ويشرب، ويتمتع وينكح وينام؛ هذه أهداف البهائم إذاً ما الهدف؟ هل يعيش الإنسان من أجل أن يموت؟ لأن نهاية الحياة الموت، لقد كان عدماً قبل أن يأتي، فلو كان الغرض من خلق الإنسان أن يموت لتركه الله في الأصل؛ عدماً، إذ ما معنى أن يأتي عبر تلك المراحل الشديدة، تسعة أشهر في معاناة وحمل وكره من قبل الأم، ثم وضع في كرهه، ثم إرضاع سنتين في تعب، ثم تربية إلى أن يكبر، ثم مجاهدة في الحياة وتعب ومعاناة وأمراض، وكد وكدح.

والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٢) يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة^(٣)، والكبد: هو المعاناة، ثم بعد ذلك يموت وتنتهي الرحلة ولا يكون أي غرض غير هذا؟! أيخلق الإنسان من أجل أن يعاني ويتعب، ويكد وينصب ثم يموت؟ لا والله! إن الله عز وجل منزه عن العبث، يقول عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(٤) أي: عبثاً: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هذا زعم الكفار: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم^(٥).

ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُنَا مِنْ لَدُنَّا إِن كُنَّا فَعَلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾^(٦) وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما عبثاً وباطلاً بل لإقامة الحجة عليكم - أيها الناس - ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي خلق ذلك لا يشبهه شيء، ولا تصلح العبادة إلا له^(٧). ونستدل من كل هذا أن الإنسان لا بد أن يصحح فكره ومعتقده وينظر ما يرضى ربه حتى يفوز بما أعده الله للمفلحين.

(١) محاسن التأويل (ج ٥ - ص ٢٢٥). المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

جمال الدين القاسمي (١٣٣٢ هـ) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم أبو الفرج من سلالة الحسين السبط، عالم مشارك في أنواع العلوم، إمام الشام في عصره علماً بالدين وتضلعا من فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق. كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد، ونشر بحثاً كثيرة في المجالات والصحف. ترك ثروة وافرة من تأليفه النافعة الكثيرة. وافاه الأجل في الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف. كتاب الأعلام (٢/ ١٣٥) ومعجم المؤلفين (٣/ ١٥٧ - ١٥٨).

(٢) سورة البلد: ٤

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٤٤ - ص ٤٣٤).

(٤) سورة ص: ٢٧

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٧ - ص ٦٣).

(٦) الأنبياء: ١٦ - ١٨

(٧) التفسير الميسر (ج ١/ص ٣٢٣).

المطلب الثاني: الحكمة من خلق الإنسان لا تعلم إلا من الخالق سبحانه:

قد ضلت في الإجابة عليه العقول وتحيرت فيه الفهوم وتخبطت فيه مدارك الفلاسفة والحكماء والعلماء والعباقرة من ذوي الفهم الثاقب والذكاء الخارق فضلاً عن غوغاء الناس، لا يستثنى من ذلك إلا العقول التي استنارت بوحي الله واهتدت بهداه واتبعت رسله فهي التي عرفت الإجابة عن هذا السؤال بالتلقي عن الله وعن رسله، ومن هنا نعلم علم اليقين أن العقل لا يمكن أن ينفرد بعلم العقيدة لأنه علم يرتبط بالغيبيات، والغيبيات إذا نطق فيها العقل بعيداً عن الوحي ضل وتاه وارتبك وتخبط تخبطاً عجبياً وتصور تصوراً غريباً^(١).

ذلك لأن العقل ما هو إلا أداة لتصور المعلومات التي تصل إليه من طريق الحواس ومتى تجاوز ما يحيط به في الأرض وقع في متاهات كبيرة وانحدر إلى مزلق خطيرة قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) قال أبو جعفر: وهذا الكلام من الله جل ثناؤه يدل على نهيه المؤمنين برسوله يومئذ عن طاعة بعض المشركين الذين جادلوهم في أكل الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمره إياهم بطاعة مؤمن منهم كان كافراً، فهداه جل ثناؤه لرشده، ووفقه للإيمان. فقال لهم: أطاعة من كان ميتاً، يقول: من كان كافراً؟ فجعله جل ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة "الميت" الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يقول: فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه في معاده.

فجعل إبصاره الحق تعالى ذكره بعد عماء عنه، ومعرفته بوحدانيته وشرائع دينه بعد جهله بذلك، حياة وضياء يستضيء به فيمشي على قصد السبيل، ومنهج الطريق في الناس ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ لا يدري كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ، لشدة ظلمة الليل وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشداً ولا يعرف حقاً، يعني في ظلمات الكفر. يقول: أفتأطاعة هذا الذي هديناه للحق وبصرناه الرشاد، كطاعة من مثله مثل من هو في الظلمات متردداً، لا يعرف المخرج منها، في دعاء هذا إلى تحريم ما حرم الله،

(١) إن من يقرأ في كتب الملل والنحل يرى أموراً غريبةاً وتصورات عجيبة تثير الاستغراب ويستبعد الإنسان أن يصدقها العقل.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٢

وتحليل ما أحل، وتحليل هذا ما حرم الله، وتحريمه ما أحل^(١).

فالحكمة من أي مصنوع تكون مخفية في نفس الصانع، ولا تعلم إلا بتعليم منه، أو ممن تعلم منه.

ولقد أرسل الله رسله إلينا لتعليمنا ما نجهل، وأيدهم بالبينات والمعجزات، وخلق لنا أدوات للعلم من سمع وبصر وفؤاد لنكتسب بها العلم، فإذا تعلمنا ما غاب عنا ممن أرسلهم الله إلينا، عرفنا الهدى وخرجنا من حياة التيه والعمى التي يحياها الكافرون إلى حياة النور والهدى، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣) أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة^(٤).

أمران يحددان للإنسان الغاية من خلقه:

إن الإنسان لا معنى لوجوده، ولا قيمة له ما لم يفهم أمرين رئيسيين، فإذا فهمهما تحدد سيره، واستقام خطوه على درب الحياة، هذين الأمرين هما:

الأمر الأول: أن يعرف من هو.

والأمر الثاني: أن يعرف لماذا خلق.

إذا فهم وعرف هذين الأمرين فإنه بلا شك تتغير نظرتة إلى الحياة، ويتغير منهجه، ويعرف أنه مخلوق مميز.

فالإنسان مخلوق مميز بنص القرآن، يقول الله تعالى: ﴿مَنْ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١)

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (ج ١٢ - ص ٨٩).

(٢) سورة المائدة: ١٥٠.

(٣) سورة المائدة: ١٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٣ - ص ٦٨).

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

يقول: ثم أنشأنا هذا الإنسان خلقا آخر. وهذه الهاء التي في: ﴿أَنشَأْنَاهُ﴾ عائدة على الإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ (١) قد يجوز أن تكون من ذكر العظم والنطفة والمضغة، جعل ذلك كله كالشيء الواحد. فقيل: ثم أنشأنا ذلك خلقا آخر (٢).

﴿مَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وقد يصدق هذا على كون الإنسان هو خلاصة عناصر شتى استحالت إلى نطفة الفحل ثم استحالت إلى علقة فمضغة فنفخ فيها الروح فصارت إنساناً آخر بعد أن كانت جماداً لا روح فيها وقوله تعالى: ﴿مَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فأثنى الله تعالى على نفسه بما هو أهله أي تعاضم أحسن الصانعين، إذ لا خالق إلا هو ويطلق لفظ الخلق على الصناعة فحسن التعبير بلفظ أحسن الخالقين (٣).

خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأنزل عليه كتبه، وبعث إليه برسله، وهياً له جنته إن أطاعه، وتوعده بناره إن عصاه.

هذه وظيفة الإنسان، لا يمكن أبداً أن يعرفها إلا من خلال معرفة الأمرين اللذين سوف نذكرهما إن شاء الله: من أنت أيها الإنسان؟ والذي يؤسف له أن الإنسان رغم تطوره وثورة المعلومات التي يوصف بها هذا العصر، ورغم العلم والتكنولوجيا، وغزو الفضاء، وتفجير الذرة، وتطويع المادة رغم كل هذه العلوم إلى الآن لا يعرف نفسه! صحيح أنه يعرف الكائن الجسدي، وهذا ليس الإنسان فقط، فالكائن الجسدي جزء واحد بسيط من مكونات الإنسان، لكن البشرية اليوم لا تعرف إلا هذا الكائن، تعرف الهيكل العظمي المرتبط بتلك الأعصاب، والمغطى بتلك اللحوم والعضلات، التي تجري بداخله تلك العروق، ومركب فيها تلك الأجهزة: سمعي، وبصري، وهضمي، وتنفسي، وتناسلي، وعظمي كل هذه الأجهزة! هذا هو الإنسان في نظر الناس الآن، وهل هذا هو الإنسان؟ لا.

هذا جزء من الإنسان، وهذا الجزء لا يتعلق به مدح ولا ذم، ولهذا لم يأت في كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أن الله مدح الناس بناءً على أجسامهم، بل ذم الناس إذا نظروا إلى هذا المعيار أو هذا المقياس، قال عز وجل في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ

(١) سورة المؤمنون: ١٢

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٩ - ص ١٧).

(٣) أيسر التفاسير للجزائري (ج ٣ - ص ٥٠٨).

لِقَوْلِهِمْ كَانْتُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ^(١) يقول جلّ ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورها ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وإن يتكلموا تسمع كلامهم يشبه منطقهم منطق الناس ﴿كَانْتُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ يقول كأن هؤلاء المنافقين خشب مسندة لا خير عندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول.

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يقول جلّ ثناؤه: يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كلّ صيحة عليهم، لأنهم على خوف ووجل أن يُنزل الله فيهم أمرا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم سبي ذراريهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطبهم. يقول الله جلّ ثناؤه لنبيه ﷺ ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ يا محمد ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ فإن ألسنتهم إذا لقوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم.

وقوله: ﴿فَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يقول: أخزاهم الله إلى أيّ وجه يصرفون عن الحق^(٢).

نظراً لأن قلوبهم خاوية من الإيمان، فعن أبي هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ﴾^(٣).

وجاء في القرآن في آية واحدة في سورة البقرة ثناء على الجسم لكن تبعاً للإيمان والعلم، وذلك في قصة طالوت، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤) فإنه يعني بذلك أن الله بسط له في العلم والجسم، وآتاه من العلم فضلاً على ما أتى غيره من الذين

(١) سورة المنافقون: ٤

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٣ - ص ٣٩٦).

(٣) المسند الصحيح المختصر المؤلف: مسلم بن الحجاج النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، باب تحريم ظلم المسلم، وحذله، واحتقاره، (ج ٤ - ص (١٩٨٧). رقم (٣٤ - ٢٥٦٤).

مسلم هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري ولد بمدينة نيسابور سنة ٢٠٦ هـ وتوفي بها سنة ٢٦١ هـ. رحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق في طلب الحديث، وكان أحد أئمة الحديث وحفاظه، اعترف علماء عصره ومن بعدهم له بالتقدم والإتقان في هذا العلم، من شيوخه الكبار إسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وسعيد بن منصور وغيرهم.. ومن الذين رووا عنه الترمذي وأبو حاتم الرازي وابن خزيمة. (سير أعلام النبلاء للذهبي مؤسسة الرسالة ج ١٢ - ص ٥٥٧).

(٤) سورة البقرة: ٢٤٧

خوطفوا بهذا الخطاب. وذلك أنه ذكر أنه أتاه وحي من الله، وأما "في الجسم"، فإنه أوتي من الزيادة في طوله عليهم ما لم يؤته غيرهم^(١).

فإذا أتى الله الإنسان بسطة في العلم والإيمان وزاد الجسم كان ذلك طيباً، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَتْ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(٢).

لم تكتسب إنسانيتك أيها الإنسان من جسدك، ففي البهائم والحيوانات من هو أقوى من الإنسان، البعير أكبر جسماً من الإنسان، والأسد أقوى عضلات من الإنسان، والفيل أضخم جسماً من الإنسان، وهناك حيوانات أكثر ذكاء من الإنسان، الثعلب من أذكى المخلوقات، وهو أذكى من الإنسان، الثعلب بدهائه وبمكره يستطيع أن يغلب الإنسان في كثير من الأمور، بل حتى البعوضة تمتص دم الإنسان ولا يستطيع أن يمتنع منها.

إذاً! ليس سر التكريم في الإنسان هو الجسد؛ الجسد هو بمنزلة الجهاز، وهذا الجهاز لا يعمل بمفرده، لا بد من تشغيل له، فلا بد للإنسان أن يبحث عن الحق حتى يحمي نفسه وفكره وعقله من الوقوع فيما يغضب الله وهو لا يعلم ويعبد الله على بصيرة. والخلاصة أن الله لا يهدي العقل إلى حكمة خلقه إلا إذا أرشده الله، ولا يأتي ذلك إلا إذا علم الله صدق الإنسان وبحثه عن طريق الهداية التي توصله إلى الله ويبذل جهداً بقلبه وفكره يقبله الله فيبلغه هدايته وتوفيقه.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٥ - ص ٣١٣).

(٢) المسند الصحيح للأمام مسلم (ج ٤ - ص ٢٠٥٢).

المطلب الثالث: الحكمة من خلق الإنسان متعلقة بالدنيا والآخرة:

إن الحكمة من خلق الإنسان متعلقة بالدنيا والآخرة معاً، لذلك فهي تخفي على الذين يقصرون أنظارهم على الحياة الدنيا، فلقد كنا قبل مائة عام في عالم الغيب، وسنكون بعد مائة عام في عالم الغيب مرة أخرى، وكذلك الأجيال من قبلنا، ومن بعدنا تعبر على هذه الأرض ولا تدوم لها حياة عليها. وكما عبرنا في أرحام الأمهات طوراً بعد طور حتى نزلنا في هذه الدنيا، فإننا نعبر في هذه الدنيا إلى الآخرة طوراً بعد طور من الطفولة وحتى الشيخوخة. ولا يستطيع الإنسان أن يفهم الحكمة من وجوده في طور الحياة الدنيا إذا لم يعرف الطور السابق لها وكذا اللاحق بعدها، وما سبق الحياة الدنيا غيب، وما يأتي بعدها غيب آخر، والذين قصروا أنظارهم على مرحلة الحياة الدنيا، وتوهموا للحياة البشرية أهدافاً مقصورة على الدنيا أصيبوا بالخيبة والحيرة وتحطمت كل فلسفاتهم على صخرة الموت، فالذين زعموا أن الحكمة من خلق الإنسان هي:

الحياة، العمل، المتعة واللذة، بناء الحضارة، أو الصراع من أجل الأحسن!

نقول لهم: إذا كانت الحكمة من خلق الإنسان ما ذكرتم:

• فلم الموت بعد الحياة؟!!

• ولم العجز عن العمل بعد القدرة، ثم الموت؟!!

• ولم الكدر بعد المتعة، ثم الموت؟!!

• ولم الانتكاسة إلى الأسوأ، ثم الموت؟!!

فهم كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(١) أي: أكثر الناس ليس

لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكيا في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة.

قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ يعني: الكفار،

يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال^(٢).

(١) سورة الروم: ٧

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٦ - ص ٣٠٥).

إن الحكمة من خلق الإنسان في الحياة الدنيا لا تعلم إلا بمعرفة ما قبلها وما بعدها وذلك الأمر لا يعلمه إلا الله.

انظروا إلى أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَام! لله حكمة عظيمة حيث قدر له أن يأكل من الشجرة، ألا ترون أن الله تَعَالَى نهاه من الأكل من الشجرة؟
إذاً: الأكل من الشجرة بالنسبة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَبْغُوضٌ شَرَعاً لأنه نهاه، وهو كوناً وقدرًا محبوب أي: مراد مطلوب، فاجتمعت فيه إرادته كوناً مع بغضه شرعاً، والإرادة الكونية لها حكم عظيمة وإن خالفت الإرادة الشرعية. فمن ذلك الحكم العظيمة التي نراها الآن في واقع هذه الدنيا.

كيف ترون الحال لو أن آدم وذريته خلقهم الله تَعَالَى في الجنة وبقوا يتناسلون ويتكاثرون فيها، لما كانت هناك حكمة من خلق الإنس والجن مما هو في الدنيا، ومن حكمة خلق الإنسان وحكمة التكليف وتحمل الأمانة، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وافتراق الناس إلى فريقين، هذا يجاهد في الله حق جهاده، وهذا يطيع عدو الله ويتبعه ويعادي ربه.

كل هذه من الحكم التي نراها ووجود خلق من خلق الله اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهم الأنبياء وأفضلهم هو مُحَمَّدٌ ﷺ، فلو تأملنا لوجدنا أنه لا معنى للوجود الإنساني بإطلاق لو كَانَ في الجنة، فهناك نوع شر محض وهم الشياطين المردة، وإن كَانَ في وجودهم خير من جانب، وهناك خير محض وهم الملائكة، ووجود الجنس أو الطرف الذي يمكن أن يكون خيراً ويمكن أن يكون شراً لحكم عظيمة جداً، فوجد عن طريق خلق آدم فخلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادراً لهذا ولهذا، فكان أكله من الشجرة ووقوع الذنب منه الذي لم يرض به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرعاً، لكنه وقع لحكمة كونية فنزل آدم إلى الأرض، فلما نشأ على هذا التراب عرف قيمة الجنة وعرف قيمة الطاعة وعرف أثر المعصية وخطرها وضررها عليه وعلى ذريته.

حتى قيل: إن آدم عَلَيْهِ السَّلَام بكى حتى كانت دموعه تجري في الأرض مثل الأنهار من كثرة البكاء، ولا نستغرب هذا لأن من رأى الجنة ثُمَّ جَاءَ إِلَى هذا التراب لا بد أن يبكي؛ لأنه شيء لا يمكن للإنسان أن يطيقه ويأتي إلى هذه الأرض، ففي هذا من الحكم والمصالح العظيمة ما لم يكن لولا ذلك الذنب، ثُمَّ استمرت الإنسانية قروناً على التوحيد، حتى وقع فيهم الشرك، فظهرت حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أن يكون الناس مختلفين ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً يُعْنَى لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة أي ملة واحدة وهي ملة الإسلام، كقوله إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَهَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْاضْطِرَارِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَضْطُرَّهُمْ إِلَى الْإِتْفَاقِ عَلَى دِينِ الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ مَكْنَهُمْ مِنَ الْإِخْتِيَارِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ التَّكْلِيفِ، فَاخْتَارَ بَعْضُهُمُ الْحَقَّ وَبَعْضُهُمُ الْبَاطِلَ، فَاخْتَلَفُوا، فَلِذَلِكَ قَالَ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ إِلَّا نَاسًا هَدَاهُمُ اللَّهُ وَلَطَفَ بِهِمْ، فَاتَّفَقُوا عَلَى دِينِ الْحَقِّ غَيْرَ مُخْتَلِفِينَ فِيهِ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ الْأَوَّلُ وَتَضَمَّنَهُ، يُعْنَى: وَلِذَلِكَ مِنَ التَّمَكِينِ وَالْإِخْتِيَارِ الَّذِي كَانَ عَنْهُ الْإِخْتِلَافُ خَلَقَهُمْ، لِيُثَبِّبَ مَخْتَارَ الْحَقِّ بِحَسَنِ اخْتِيَارِهِ، وَيُعَاقِبَ مَخْتَارَ الْبَاطِلِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ وَهِيَ قَوْلُهُ لِلْمَلَائِكَةِ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَعَلَّهُمْ يَكْتُمُونَ الْبَاطِلَ (٢).

لكن حكمته اقتضت أن يكون الناس مختلفين، وأن يكونوا على فريقين، ثم نتج عن ذلك إرسال الرسل، وما يكون من رفع لدرجات الرسل ولأتباعهم، وما يكون من إنزال العقاب والعذاب الأليم لمن خالفهم ولمن عصاهم وكفر بالله سبحانه وتعالى (٣).

العبادة هي الحكمة من خلق الإنسان

لقد تبين لنا مما سبق:

- أن الإنسان خلق لحكمة ولم يخلق عبثاً.
- وأن الحكمة من خلق جميع البشر واحدة.
- وأن الحكمة من خلق الإنسان متعلقة بالدنيا والآخرة.
- وأنها لا تعلم إلا من الخالق سبحانه.

(١) سورة هود: ١١٨

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (ج ٢ - ص ٤٣٨). المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

الزمخشري: محمود بن عمر بن محمد بن عمر، العلامة، أبو القاسم الزمخشري، الخوارزمي، النحوي، اللغوي، المتكلم، المعتزلي، المفسر. (المتوفى: ٥٣٨ هـ)، مصنف "الكشف" في التفسير، و"المفصل" في النحو، و"مخشر": من قرأ خوارزم، وكان يقال له جار الله، لأنه جاور بمكة زماناً، ووُلِدَ بزمخشر، في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وقدم بغداد وسمع من أبي الخطاب بن البطر وغيره، وحدث، وأجاز لأبي طاهر السلفي، ولزيب الشعري، وغيرهما. قال ابن السمعاني: كان ممن برع في علم الأدب، والنحو، واللغة، لقي الكبار، وصنف التصانيف في التفسير، والغريب، والنحو، ومات ليلة عرفة. (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي دار الغرب الإسلامي ج ١١ - ص ٦٩٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية المؤلف: سفر بن عبد الرحمن الحوالي (ج ١/ص ١٥٠٣).

سفر بن عبد الرحمن بن أحمد بن صالح آل غانم الحوالي. تخرج من كلية الشريعة من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وتخصص في العقيدة في الفرق والمذاهب، ولد سنة ١٣٧٥ هـ. في قرية حوالة في منطقة الباحة جنوب غرب الجزيرة العربية، أحد علماء أهل السنة والجماعة في السعودية له حضور إعلامي وثقافي واجتماعي على الصعيد العربي والإسلامي. (الموسوعة الحرة موقع في الانترنت).

- وأن الخالق سبحانه قد استخلف الإنسان في الأرض.
- وأن غاية الاستخلاف هو الابتلاء والامتحان.
- وأن موضوع الامتحان هو العبادة لله سبحانه.
- والعبادة هي العمل وفق مراد الخالق الذي خلق سبحانه.

ألست ترى أن أي مصنوع يصنع لا يكون صنعه إلا لعمل وفق مراد الذي صنعه وكذلك الإنسان ما كان ليعمل إلا وفق مراد خالقه سبحانه، وعمل الإنسان وفق مراد خالقه هو العبادة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) وما خلقت السُّعْدَاءَ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِعِبَادَتِي، وَالْأَشْقِيَاءَ مِنْهُمْ لِمَعْصِيَتِي. وقيل ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة. وقيل إلا ليقروا بالعبودة طوعاً وكرهاً^(٢).

فالحكمة من خلق الإنسان هو أن يكون عبداً لله على الأرض التي استخلفه فيها، ليمتحنه ربه أيطيعه ويعبده، أم يعصيه ويكفر به، ثم ينقله بالموت من دار الامتحان والعمل إلى دار الجزاء على ما قدم. وهذه الحكمة واحدة لا تتبدل من خلق كل إنسان في كل زمان ومكان، وكل إنسان مهما كانت مكانته فهو ممتحن فيما استخلفه الله فيه.

عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ^(٣) يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٤).

فكل إنسان عليه أن يعبد ربه لأنه:

- ما خلق إلا ليعمل وفق مراد خالقه سبحانه.

(١) سورة الذاريات: ٥٦

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٢ - ص ٤٤٤).

(٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيُّ الْعَدَوِيُّ، (الوفاة: ٧١ - ٨٠ هـ): صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَابْنُ وَزِيرِهِ. هَاجَرَ بِهِ أَبُوهُ قَبْلَ أَنْ يَحْتَلِمَ، وَاسْتَصْغَرَ عَنْ أَحَدٍ، وَشَهِدَ الْخَنْدَقَ وَمَا بَعْدَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَهُوَ شَفِيقٌ حَفِصَةٌ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أُمُّهُمَا زَيْنَبُ بِنْتُ مَطْعُونٍ. رَوَى عِلْمًا كَثِيرًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَالسَّابِقِينَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْبَرَاءِ: كَانَ رُبْعَةً، وَكَانَ يَخْضِبُ بِالصُّفْرَةِ، وَتُوفِيَ بِمَكَّةَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ.

(٤) الكتاب: الجامع المسند صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ (باب الجمعة في القرى والمدن، ج ٢ - ص ٥ - رقم الحديث ٨٩٣).

الإمام البخاري: محمد ابن إسماعيل ابن إبراهيم ابن المغيرة الجعفي أبو عبد الله البخاري جبل الحفظ وإمام الدنيا في فقه الحديث من سنن الحادية عشرة، وكانت ولادته ببخارى عام ١٩٤هـ مات سنة ست وخمسين في شوال وله اثنتان وستون سنة. (تهذيب الكمال ج ٢٤ - ص ٤٣٠ - ٤٦٧).

• ولأن الله هو الذي استخلفه ومكنه فعليه أن يعمل وفق مراد الذي مكنه واستخلفه.

• ولأنه مملوك في كل أمره فعليه أن يعمل وفق مراد مالكه سبحانه.

• ولأنه محاسب بين يدي ربه فعليه أن يعمل وفق مراد مالك يوم الدين والحساب.

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه كما قال العلماء، والاستخلاف في الأرض داخل في مدلول العبادة. فالعبادة هي غاية الوجود الإنساني، ووظيفة الإنسان الأولى في أي موقع كان. وليس في الوجود إلا رب واحد والكل له عبيد، عليهم أن يتوجهوا بأعمالهم ومشاعرهم وضمائرهم لعبادته عبادة خالصة له دون شريك.

وبهذا الهدى تعلمنا من خالقنا سبحانه أنه قسم حياتنا إلى قسمين:

(١) الحياة الدنيا، وهي دار الابتلاء فيما استخلفنا الله عليه.

(٢) الحياة الآخرة وهي دار الجزاء.

وأعلمنا أن الموت هو الانتقال من دار الابتلاء إلى دار الجزاء، وهناك حسب ما اجتهد

الإنسان وبحث وعمل إما إلى جنة وإما إلى نار.

المطلب الرابع: جريمة من بدل الحكمة من خلقه:

إذا عمد شخص إلى مصنوع ما وقرر أن يستخدمه لغرض غير الذي صنع من أجله، فسنقول له: إنك بهذا تفسده. فإذا أراد أن يجعل القلم سواكا خالف الحكمة من صنع القلم، وإذا أراد أن يجعل السيارة مكاناً ثابتاً للجلوس خالف الحكمة من صنع السيارة، وإذا أراد أن يجعل الكتاب وسادة خالف الحكمة من تأليف الكتاب.

والسبب أن صناعة المصنوع تأتي محققة للحكمة من صنعه، فإذا أراد تغيير الحكمة فيجب عليه أولاً أن يغير الصناعة لتأتي متوافقة مع الغرض الجديد الذي يريده، ولا يجرؤ الناس على مخالفة الحكمة من صناعة المصنوعات خوف إفسادها، لكنهم يتجرؤون ويخالفون الحكمة التي خلقهم الله من أجلها ويفسرونها حسب أهوائهم.

فمنهم الغافل الذي لا يكلف نفسه السؤال عنها!! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١) ولقد خلقنا للنار - التي يعذب الله فيها من يستحق العذاب في الآخرة - كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يعقلون بها، فلا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلتها، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات كتاب الله فينفكروا فيها، هؤلاء كالبهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما تبصره، ولا تعقل بقلوبها الخير والشر فتميز بينهما، بل هم أضل منها؛ لأن البهائم تبصر منافعها ومضارها وتتبع راعيها، وهم بخلاف ذلك، أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته (٢).

ومنهم الملحد الذي يدعي أنه خلق عبثاً، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْدِيكُمُ الْإِلَٰهَ رَبُّكُمْ وَمَا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٣) يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون الذين تقدم خبره عنهم: ما حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها لا حياة سواها تكذيباً منهم بالبعث بعد الممات. كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (٤) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾:

(١) سورة الأعراف: ١٧٩

(٢) التفسير الميسر (ج ١/ص ١٧٤).

(٣) سورة الجاثية: ٢٤

(٤) قتادة بن دعامة (١١٧ هـ) أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري الضرير الأكمه، كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ. روى عن عبد الله بن سرجس وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وخلق كثير. روى عنه أيوب السخيتاني وابن أبي عروبة ومعمر بن راشد والأوزاعي ومسعر بن كدام، وأم سواهم. قال أحمد بن حنبل: كان قتادة عالماً بالتفسير، وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ، قال ابن

أي لعمرى هذا قول مشركي العرب.

وقوله ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن ونحيا وتحيا أبناءنا بعدنا، فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم، لأنهم منهم وبعضهم، فكأنهم بحياتهم أحياء، وذلك نظير قول الناس: ما مات من خلف ابنا مثل فلان، لأنه بحياة ذكره به، كأنه حيّ غير ميت، وقد يحتمل وجهاً آخر، وهو أن يكون معناه: نحيا ونموت على وجه تقديم الحياة قبل الممات، كما يقال: قمت وقعدت، بمعنى: قعدت وقمت؛ والعرب تفعل ذلك في الواو خاصة إذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان، ولم تقصد الخبر عن كون أحدهما قبل الآخر، تقدم المتأخر حدوثاً على المتقدم حدوثه منهما أحياناً، فهذا من ذلك، لأنه لم يقصد فيه إلى الخبر عن كون الحياة قبل الممات، فقدّم ذكر الممات قبل ذكر الحياة، إذ كان القصد إلى الخبر عن أنهم يكونون مرّة أحياء وأخرى أمواتاً. وقوله ﴿وَمَا يَهْلِكُكُمَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: وما يهلكنا فيفينا إلا مرّة الليلي والأيام وطول العمر، إنكاراً منهم أن يكون لهم ربّ يفنيهم ويهلكهم. وقد ذكر أنها في قراءة عبد الله ﴿وَمَا يَهْلِكُكُمَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعاً، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿وَمَا يَهْلِكُكُمَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال: الزمان (١).

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿وَمَا يَهْلِكُكُمَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال ذلك مشركو قريش ﴿وَمَا يَهْلِكُكُمَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إلا العمر. وذكر أن هذه الآية نزلت من أجل أن أهل الشرك كانوا يقولون: الذي يهلكنا ويفينا الدهر والزمان، ثم يسبون ما يفنيهم ويهلكهم، وهم يرون أنهم يسبون بذلك الدهر والزمان، فقال الله عزّ وجلّ لهم: أنا الذي أفنيكم وأهلككم، لا الدهر والزمان، ولا علم لكم بذلك (٢).

ومنهم المشرك الذي خلط الأمور وعبد مع الله غيره ومنهم العاصي الذي عرف حكمة خلقه لكنه غلب أهواءه وشهوته، وخالف ما خلق من أجله. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا

حبان: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، وكان من حفاظ أهل زمانه، على قدر فيه، توفي سنة سبع عشرة ومائة بواسط وقيل ثماني عشرة. سير أعلام النبلاء (ج ٥ - ص ٢٦٩ - ٢٨٣)

(١) هذا القول لمجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ) في تفسيره (ج ١ - ص ٦٠٠).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٢ - ص ٧٩).

قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿١﴾ أي: بيّنًا، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها، من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال (٢).

وإذا سألت ملحدًا عن الحكمة من خلق أعضاء جسمه أجابك مقرأً بأن لكل عضو في جسمه حكمة بديعة، وإذا سألته عن ارتباط الحكمة من العضو بالجسم أجابك بأن الحكمة من أي عضو مرتبطة بالكيان بأجمعه، وإذا سألته عن الحكمة من كيانه بأجمعه، الذي أحكمت الأعضاء من أجله، نفى أن تكون له حكمة!! ولو طلبت من أحدهم أن يستخدم أي عضو في بدنه لغير الحكمة التي خلق من أجلها، كأن يأكل بإذنه أو عينه فإنه سيستنكر ذلك، لأنه بذلك سيفسد العضو بتغيير وظيفته التي خلق من أجلها، بينما هو يخطئ في تفسير الحكمة من خلقه بأجمعه، ويفسد حياته ويخسر نفسه. فقد خلقه الله ليسير في طريق العبادة والطاعة في الدنيا ليكون من الفائزين بالجنة فأبى إلا أن يسلك طريق المعصية فيخسر نفسه في نار جهنم، وأي مصيبة وجريمة أكبر من أن يتمرد على خالقه ويخسر نفسه في النار أبدًا. قال تعالى ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُونَ﴾ (٣) قل أيها الرسول: إن الخاسرين - حقًا - هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك بإغوائهم في الدنيا وإضلالهم عن الإيمان. ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة هو الخسران البين الواضح (٤).

فهذا دليل على أنهم يريدون أن يهلكوا أنفسهم والدلائل أمامهم واضحة وبينه ولكن لم يلقوا لذلك بالاً ولا أدنى جهد ليدركوا الحق.

(١) سورة الأحزاب: ٣٦

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٦٦٥).

(٣) سورة الزمر: ١٥

(٤) التفسير الميسر (ج ١/ص ٤٦٠).

المبحث الثاني

مكانة الإنسان في القرآن الكريم

المطلب الأول: مكانة الإنسان في الإسلام:

إذا نظرنا إلى القرآن الكريم كيف وضع الإنسان نجد انه قد وضعه في موضعه الصحيح فالتقسيم الصحيح للإنسان هو انه ابن ذكر وأنثى وانه ينتمي بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التي لا تفاضل بين الإخوة والأفراد فيها بغير العمل الصالح وبغير التقوى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

أي من آدم وحواء باعتبار الأصل كما أن كل آدمي مخلوق من أبوين أحدهما ذكر والآخر أنثى ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ وبطونا وأفخاذاً وفصائل كل هذا لحكمة التعارف فلم يجعلكم كجنس الحيوان لا يعرف الحيوان الآخر ولكن جعلكم شعوباً وقبائل وعائلات وأسر لحكمة التعارف المقتضي للتعاون، إذا التعاون بين الأفراد ضروري لقيام مجتمع صالح سعيد فتعارفوا وتعاونوا ولا تتفرقوا لأجل التفاخر بالأنساب فإنه لا قيمة للحسب ولا للنسب إذا كان المرء هابطاً في نفسه وخلقته وفسادا في سلوكه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ﴾ (٢).

نعم إنهم أمة واحدة ولهم اله واحد وهو رب العرش العظيم، إن تعدد الناس شعوباً وقبائل يعتبر من أقوى الأسباب لأحكام صلة التقارب بينهم وتعريف الإنسانية بأسرار خلقها بل إن الإنسانية تزداد عرفانا بأسرار الخلق ومعرفة بالخالق قال تعالى: ﴿وَمَنْ آيَنِيهِ خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْبَأْتُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوْنُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣) يقول تعالى ذكره: ومن حججه وأدلته أيضا على أنه لا يُعجزه شيء، وأنه إذا شاء أمات من كان حيا من خلقه، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ (٤) وأعادته كما كان قبل إماتته إياه خلقه السموات والأرض من غير شيء أحدث ذلك منه، بل

(١) سورة الحجرات: ١٣

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م (٥ج - ص ١٣١).

الجزائري: أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري. ولد في قرية ليوا جنوب بلاد الجزائر عام ١٩٢١ م، ارتحل مع أسرته إلى المدينة المنورة، وفي المسجد النبوي استأنف طريقه العلمي بالجلوس إلى حلقات العلماء حيث حصل بعدها على إجازة من رئاسة القضاء بمكة المكرمة للتدريس في المسجد النبوي. فأصبحت له حلقة يدرس فيها تفسير القرآن والحديث، وعندما فتحت الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٠هـ كان من أوائل أساتذتها، قام بتأليف عدد كبير من المؤلفات، ويقوم بالوعظ والتدريس في المسجد النبوي الشريف. الأعلام للزركلي (٣/ ٢٢١ - ٢٢٢).

(٣) سورة الروم: ٢٢

(٤) سورة عبس: ٢٢

بقدرته التي لا يمتنع معها عليه شيء أراه **﴿وَإِخْتَلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾** يقول: واختلاف منطق ألسنتكم ولغاتها **﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾** يقول: واختلاف ألوان أجسامكم **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالِمِينَ﴾** يقول: إن في فعله ذلك لعبرا وأدلة لخلق الذين يعقلون أنه لا يعييه إعادتهم لهيئتهم التي كانوا بها قبل مماتهم من بعد فنائهم، وقد بيننا معنى **﴿لِّعَالِمِينَ﴾** فيما مضى قبل (١).

ومن دلائل القدرة الربانية: خلق السموات وارتفاعها بغير عمد، وخلق الأرض مع اتساعها وامتدادها، واختلاف لغاتكم وتباين ألوانكم، إن في هذا لَعبرة لكل ذي علم وبصيرة. يقول الله تعالى: **﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلِّإِلَيْنَا لَاجِعُونَ﴾** (٢) هؤلاء الأنبياء جميعاً دينهم واحد، الإسلام، وهو الاستسلام لله بالطاعة وإفراده بالعبادة، والله سبحانه وتعالى رب الخلق فاعبدوه - أيها الناس - وحده لا شريك له (٣).

إن العلماء على مر العصور لم يستطيعوا أن يصلوا إلى مرحلة معينة لتعريف وحدة الإنسانية ولكن المرحلة العظمى في تاريخ العقيدة جاءت بعد الرسالة المحمدية العظيمة لكي تعرف الإنسانية ولكي تضع الإنسان في موضعه الصحيح.

إنها مرحلة عظيمة في تاريخ العقيدة وفي تاريخ الفكر وفي تاريخ القيم الأخلاقية بل في تاريخ الحياة الإنسانية من مطلعها في ظلمات الماضي المجهول إلى هذه المكانة السامية التي ارتفعت إليها بعد ألوف السنين.. والإنسانية ما كانت لترتفع إلى هذه المكانة بغير عقيدة قوية إنما العقيدة في رب واحد وهو رب العالمين **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** (٤) يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحى إلي أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾** يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته **﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾** يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية. وقوله **﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** يقول: ولا يجعل له شريكاً في عبادته إياه، وإنما يكون جاعلاً له شريكاً

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٠ - ص ٢٨).

(٢) سورة الأنبياء: ٩٣.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣٣٠).

(٤) سورة الكهف: ١١٠.

بعبادته إذا رأى بعمله الذي ظاهره أنه لله وهو يريد به غيره^(١).

احتل الإنسان في الإسلام أعظم مكانه، وأعلى منزله، فقد نوه القرآن الكريم بشأنه وأشار إلى رفعة منزلته وعلو قدره، فقد خلقه الله عز وجل بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، واستخلفه في الأرض ليقوم بعمارته وإصلاحها، وأعانته على أداء دوره في هذا الوجود بما زوده من أدوات العلم والمعرفة، وأوحى إليه برسالاته، وشرع له من التكاليف ما يسمو بإنسانيته، ويرقى بآدميته، ويصون كرامته، ويعظم حرمة، لا أحد أحب إلى الله عز وجل من الإنسان ولا أكرم عليه منه، وأشد احتراماً لإنسانيته، وتقديراً لذاته وقدرته، واعترافاً بفضله، ولكن كثيراً من الناس حاد عن الفطرة السليمة عندما كرمه الله بل وتكبر وعاند.

أما الإنسان في نظر الإسلام فهو الكائن البشري الذي خلقه الله عز وجل، فسواه فعدله وصوره في أحسن صورته، وفضله على سائر خلقه، وحمله أمانته، وسخر له من فضله كل شيء حوله، واستخلفه واصطفاه لعبادته، وليس الإنسان كائناً أرضياً بحثاً كما يصفه الماديون وإنما هو كائن يمتزج في كيانه عنصران، فهو قبضه من طين ونفخه من روح الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾^(٢) يقول تعالى مخبراً إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها، قال زيد بن أسلم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر؛ ثم لما ذكر تعالى خلق السماوات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(٣) أي يتناسلون كذلك من نطفة، تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾^(٤) يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سويًا مستقيماً، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾^(٥) يعني العقول، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(٦) أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل، فالسعيد من استعملها في طاعة

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٨ - ص ١٣٥).

(٢) سورة السجدة: ٧

(٣) سورة السجدة: ٨

(٤) سورة السجدة: ٩

(٥) سورة السجدة: ٩

(٦) سورة السجدة: ٩

ربه عز وجل (١).

وتمثل قبضة الطين فيه (جسده) ومتطلبات هذا الجسد الطبيعة، وألوان نشاطه المادي، وتمثل النفخة من روح الله عز وجل في الإنسان (روحه) ومظاهر هذه الروح من وعي وإدراك، وإرادة واختيار، والعنصران ممتزجان مترابطان يتكون منهما كيان موحد يصدر عنه النشاط الإنساني جسدياً كان أم روحياً، ولا يصدر أحدهما عن عنصره منفصلاً عن الآخر أو مستقلاً عنه.

غير أن الإنسان حين يمارس نشاطاً جسدياً يشبع فيه حاجاته المادية يكون ذلك منه ميلاً جسدياً، وحين يمارس نشاطاً روحياً يشبع فيه حاجاته المعنوية يكون ذلك منه ميلاً روحياً، وهو في كلتا الحالتين ميل مؤقت لا يدوم لناحية دون أخرى، وإنما هو تداول بين نشاط الجسم ونشاط الروح، وذلك يساعد الإنسان على التوازن في الوسط بين الروح والجسد، وأي إشباع لجانب منهما على حساب الآخر يعد خلافاً في النفس الإنسانية يأباه الدين.

ومن هنا نرى أن نظرة الإسلام للإنسان هي نظره عادله ترفعه في أعلى مكانة إذا ارتقى بفكره كما يحب الله ويرضاه.

(١) تفسير ابن كثير (ج ٦ - ص ٣٦٠).

المطلب الثاني: الحياة الدنيا دار استخلاف:

أولاً: مؤهلات الاستخلاف:

ما كان مؤهلات الاستخلاف الله ليستخلف الإنسان وقيمه مقامه في عمل ناءت بحمله الجبال والسموات والأرض، إلا لما زوّد به هذا الإنسان من خصائص ومميّزات رفعتة عن مستوى يكون فيه "مجرد مسرح للإبداع" إلى مستوى يجعله "منتجا للإبداع"، ومن "مظهر لدقيق الصنع" إلى "مُظهر لدقيق الصنع"، تجلّت في عقل "مطلق الإدراك" عبر رحلة التجدد الدائمة، وفي إرادة مطلقة التصرف من خلال حتميات طبيعية راسخة، وفي "عمل" مطلق الإمكان متراكم الثمرات بمرور الزمان، وفي مقومات متنوعة هي جسور بين الإنسان ومحيطه، تتشكل مع الأيام أشكالاً كثيرة، فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية له استعداد محدود، وعلم إلهامي محدود، وعمل محدود، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته... وأما الإنسان، فقد خلقه الله ضعيفاً، ولكنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الأسماء، فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا الرغائب، ولا محدود العلم ولا محدود العمل...".

ولعلك تجد غرابة في إفاضة هذه "المطلقات" على إنسان لشد ما وصم بالضعف، ولكني لا أجد أي تناقض بين الأمرين، مادام تواردتهما على حالين مختلفين، فالإنسان محدود الطاقات كفرد، مطلقها كجنس، نسبي المعرفة في حقبة معينة مطلقها إذا توالى الحقب، واجتمعت التجربة إلى التجربة، وانضافت الخبرة إلى الخبرة، وتضافرت وشدّ بعضها بعضاً لتقوم على سوقها بناء متكامل هو المطلق في توحد النسبي في تجزئه، فيلتقي المقيد بالمطلق، ويتعانق النسبي والمجرد، لتصل المعرفة الإنسانية بعدها الأقصى في "رؤية الله" يوم القيامة. وأسوق مسألة الرؤية هذه بعيداً عن المزايدات المذهبية، لأقرأها قراءة وظيفية راسخة القدم في الواقع، إذ تمثل - حسب ظني - شهادة بأن الإنسان سيدرك كل شيء في الأرض من "المقيدات"، ذلك ما أفهمه من قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (١) فتأتي "رؤية الله" في الآخرة نتويجا للرؤية "الأرضية" التي حصلها الإنسان بعد رحلة طويلة من البحث المتواصل عبر مسالك الخطأ والصواب.

(١) سورة البقرة: ٣١

ثانيا: دلالات الاستخلاف:

لا يخفى دلالات الاستخلاف على ذي بصيرة ما يحمل مفهوم الخلافة بين طياته من معنى التكريم المقدم على بساط من المسؤولية: تكريم استشرفته الملائكة وهي تقول ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي: نطهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونطهرها من الأخلاق الرذيلة. قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة، أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم من الخير والشر بالامتحان، وليتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى، أن يبين لهم من فضل آدم، ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه^(٢)، وقد أثبت القرآن حقيقة التكريم فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٣) يقول تعالى ذكره ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ﴾ على ظهور الدواب والمراكب ﴿و﴾ في الأب نزل في الفلك التي سخرناها لهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يقول: من طيبات المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذباتها ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

(١) سورة البقرة: ٣٠

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٤٨).

(٣) سورة الإسراء: ٧٠

ذكر لنا أن ذلك تمكنهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق^(١).

ونطق بها حال الإنسان: من حيث تزويده "بمواهب الخلافة"، ومن حيث تسخير الكون له، مسرّحا لإعمال تلك المواهب، ومجالا لعملية التغيير المرجوة، و"أرض الميعاد" للإبداع الإنساني المنتظر، ﴿وَسَخَّرْ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض ولما أودع الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب والثوابت والسيارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثمار وأجناس المعادن وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه^(٣). ويبلغ التكريم ذروته في سجود الملائكة، إذ هو يتضمن تفضيل المسجود له على الساجد، ومن ثم فالخلافة درجة وجودية عليا بين المخلوقات يؤكددها:

- استشراف الملائكة لهذا المركز استشرافا استبطنه قولهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) يأمر تعالى رسوله أن يذكر قوله للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة يخلفه في إجراء أحكامه في الأرض، وإن الملائكة تساءلت متخوفة من أن يكون هذا الخليفة ممن يسفك الدماء ويفسد في الأرض بالكفر والمعاصي قياساً على خلق من الجن حصل منهم ما تخوفوه. فأعلمهم ربهم أنه يعلم من الحكم والمصالح ما لا يعلمون.

والمراد من هذا التذكير: المزيد من ذكر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة للإيمان به تعالى ولعبادته دون غيره^(٥).

- الأمر بسجود الملائكة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٧ - ص ٥٠١).

(٢) سورة الجاثية: ١٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٧٧٦).

(٤) سورة البقرة: ٣٠.

(٥) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (ج ١ - ص ٨١).

الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ سجود تحية وإكرام فسجدوا إلا إبليس تعاضم في نفسه وامتنع عن السجود الذي هو طاعة الله، وتحية آدم. تكبراً وحسداً لآدم في شرفه فكان بامتناعه عن طاعة الله من الكافرين الفاسقين عن أمر الله. الأمر الذي استوجب ابلاسه طرده (٢).

وأما المسؤولية، فلها مستويان:

مسؤولية مع "المستخلف" هي العبودية، يؤسسها الوحي ويرعاها، وما الرسائل إلا دستور ينظم طريقها. وهذه العبودية بشتى أجزائها ومقوماتها قد صبغت بصبغة الحرية، وعليها انبنت، انطلاقاً من الوحي الذي يؤسسها، وانتهاء بالجزاء الذي يتوجها.

فالوحي اعتراف عملي بحرية هذا الإنسان المستخلف، يترسخ ويتأكد بسمات الخطاب الإلهي في محاورته للعقل البشري من خلال الإدلاء بالحجة أو المطالبة بها، وتصل بعدها الأسنى في خطب ود الإنسان وتتمين رضاه ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٣) فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته (٤).

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ (٥) قال: اذكروني، فيما افترضت عليكم أذكركم

فيما أوجبت لكم على نفسي.

وعن سعيد بن جبير (٦): اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية: برحمتي.

وعن ابن عباس في قوله ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

وفي الحديث الصحيح: "يقول الله تعالى: ((من ذكرني في نفسه ذكرتة في نفسي، ومن

ذكرني في ملاء ذكرتة في ملاء خير منه)) (٧).

(١) سورة البقرة: ٣٤

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (ج ١ - ص ٤٤).

(٣) سورة البينة: ٨

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٩٣٢).

(٥) سورة البقرة: ١٥٢

(٦) سعيد بن جبير (٩٥ هـ): سعيد بن جبير بن هشام أبو محمد، ويقال أبو عبد الله، الإمام الحافظ المقرئ المفسر، أحد الأعلام، من كبار التابعين. روى

عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس فأكثر عنه وجود، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين، فأهلكه الله بعده بخمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً. تهذيب

الكمال (١٠ / ٣٥٦-٣٧٦) البداية والنهاية (٩ / ٩٨ - ٩٩).

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ١ - ص ٤٦٥).

ومسؤولية مع "المستخلف فيه" استثمار وتغييرا وتطويرا، يراها العلم، وتضمنها مقومات الإنسان المتعددة، تعطيه موهبة الحياة على مستويات مختلفة، وتمكنه من تذوق أنواع شتى من كؤوس الوجود ومشاربه، وتكثر من روابطه بالحياة تعميقا لدوره فيها تأثيرا وتأثرا. فالكون كتاب صفحاته الفعل الإنساني، وأحداث روحها عمله الذي لا ينقضي، لا يصلحه إلا التطوير والتغيير كالماء إذا ركد أسن، والإنسان وحده هو المؤهل لذلك بما اختص به من قابلية التغيير والتغيير عبر عقل مستفيد وإرادة حرة منطلقة.

محور عملية الخلافة حسن تمثل صفات المستخلف، وذلك عبر مسيرة طويلة من التغيير والتغيير سعيا إلى الأكمل، يرحل فيها الإنسان من إبداع إلى إبداع، موقعا في التاريخ بأفعال لا يفتر عنها تجاوزا للقائم، لا يضع عصى الترحال بحثا عن الأمثل يحدوه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١).

أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذلكها، لتدركوا منها كل ما تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها الله امتحاناً، وبلغه يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى الله، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة (٢).

فبالخلافة صيرورة إنسانية لا تتوقف، تنهل من قاموس التغيير كـ "العمل"، و"البحث" و"الكشف" و"الاختراع"، وغيرها من أخواتها الكثيرات التي جافيناها برهة من الزمن فجافانا التقدم، لما أشهرنا كلمات قاتلة مثل "ليس في الإمكان أبداع مما كان" أو "لم يترك الأول للأخر شيئا". فوقفنا، بل تراجعنا لأنه "لا ثبات" فإما حركة إلى الأمام وإما إلى الوراء، وشهد الزمان وكله عجب، رحلتين متضادتين في الاتجاه، واحدة متسارعة إلى الأمام على وقع القاطرة البخارية، فالطائرة، فالصاروخ... بينما تهوي الأخرى إلى مجاهيل من التعطيل والتخلف، لولا بقية من الذين لم تصبهم تلك الشعارات بـ "العشى"، فراحوا يحاولون كبح جماح "رحلة التراجع" والتقليص من أضرارها، لينجحوا بعد ذلك لأي تغيير في وجهتها، وتتطلق عملية

(١) سورة الملك: ١٥

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٨٧٧).

البناء. عملية لم تستلهم إلى الآن على الوجه الأمثل معنى الخلافة في الأرض، فحرموا القوة على "الاندفاع التاريخي".

وأعود إلى تعجب الملائكة من جعل الإنسان خليفة، ذلك التعجب الذي أخفى أمرا كتموه في أنفسهم ألا وهو أحقيتهم بالخلافة، وذلك لما ظنوا أن "مؤهل استحقاق" الخلافة وجوهرها يكمن في الإكثار من الذكر والتسبيح، وهم من هذه الناحية أجدر من الإنسان ﴿وَمَنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(١) فتأتيهم إجابة الله حاسمة أنه زوّد آدم بأساس فاق به الملائكة تمثل في قابليته "للعلم"، فكانت بذلك مسيرة علم، هو "تأشيرة" خلافته لربه.

ثالثا: تجليات الخلافة:

إن من أظهر ما يميز الإنسان عن الحيوان - رغم اتفاقهما في أكثر "الدوافع" - طرق "الاستجابة" لهذه الدوافع، إذ هي تختص عند الإنسان بأمر منها:

أ- تعدد الطرائق: فالإنسان لا يتخذ في تحقيق مبتغاه سلوكا واحدا، وإنما يختلف هذا السلوك من فرد إلى فرد، كما يختلف بالنسبة للفرد الواحد من حالة إلى حالة.

ب- التصنيع: فالإنسان لا يأخذ الأمور على حالتها الخام، وإنما يغيرها من فترة إلى فترة، ومن مكان إلى مكان.

واقترنت على هذين الخاصيتين لما توحيان به من ضرورة تغير واقع الإنسان، مادام يعدد طرائق "استجابته" ومادام "يُصنَع" و"يُغَيَّر" الأمور من حالتها الخام، وهذه الأفعال هي بعض تجليات "الإنسان الخليفة". "فقد ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض، ونحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فهو يتقن ويبدع ويكتشف ويخترع ويجد ويعمل، حتى غير شكل الأرض، فجعل الحزن سهلا، والساحل خصبا، والخراب عمراناً، والبراري بحارا وخلجانا، وولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن، وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية... أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض: يقيم سننه، ويظهر عجائب صنعه..."^(١)

(١) سورة البقرة: ٣٠

إذا تأملنا في موقف الإنسان على الأرض وجدناه موقف المستخلف عليها من قبل مالكيها؛ لأن الإنسان لم يخلق شيئاً على هذه الأرض مما ينتفع به ويستخدمه أو مما هو مسخر لمنفعته ومصالحته، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١) بل إن الإنسان لا يملك من نفسه شيئاً، لا يملك يده ولا لسانه ولا عينه ولا رجله ولا يملك عرقاً ولا عظماً ولا جلدًا ولا لحمًا ولا عصباً ولا حتى قطرة دم لأنه لم يخلق من ذلك شيئاً، قال تعالى: ﴿مَنْ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢) نحن خلقناكم - أيها الناس - ولم تكونوا شيئاً، فهلا تصدقون بالبعث. أفرأيتم النطف التي تقذفونها في أرحام نساءكم، هل أنتم تخلقون ذلك بشرا أم نحن الخالقون؟ وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣) أخلق هؤلاء المشركون من غير خالق لهم وموجد، أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وكلا الأمرين باطل ومستحيل. وبهذا يتعين أن الله سبحانه هو الذي خلقهم، وهو وحده الذي لا تتبغي العبادة ولا تصلح إلا له (٤).

ومع أن الإنسان لا يملك شيئاً من نفسه ولا مما حوله فهو من الناحية العملية يتصرف وكأنه المالك، فقد أعطي من الصلاحيات والقدرات والإمكانات ما جعله يسخر كل شيء في الأرض لمصلحته، وينتفع بالقوى والخيرات وغيرها من المخلوقات حتى سمي الإنسان (سيد الأرض) قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَاكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (٥). ومن الواضح أن هذه المنزلة التي للإنسان لم تكن له إلا بما يأتي:

(١) بما أودع الله فيه من طاقات ومواهب وكفايات.

(٢) بتسخير ما في الأرض جميعاً له.

(٣) بعدم خلق من ينافسه أو يتغلب عليه ويستضعفه.

وإذن فمنزلة الإنسان في هذه الأرض بمنزلة المالك لما فيها، مع أنه لم يخلق منها شيئاً فهو

إذن مستخلف عليها من قبل مالكيها الحق ومالك الإنسان.

(١) سورة البقرة: ٢٩

(٢) سورة الواقعة: ٥٧-٥٩

(٣) سورة الطور: ٣٥

(٤) التفسير الميسر (ج ١/ص ٥٢٥).

(٥) سورة الجاثية: ١٣

فالحكمة إنما تتم بخلق المتضادات والمتقابلات كالليل والنهار والعلو والسفل والطيب والخبث والخفيف والثقيل والحلو والمر والبرد والألم واللذة والحياة والموت والداء والدواء، فخلق هذه المتقابلات هو محل ظهور الحكمة الباهرة ومحل ظهور القدرة القاهرة والمشية النافذة والملك الكامل التام، فتوهم تعطيل خلق هذه المتضادات تعطيل لمقتضيات تلك الصفات وأحكامها وآثارها وذلك عين المحال، فإن لكل صفة من الصفات العليا حكماً ومقتضيات وآثاراً هو مظهر كمالها وإن كانت كاملة في نفسها لكن ظهور آثارها وأحكامها من كمالها، فلا يجوز تعطيله فإن صفة القادر تستدعي مقدوراً، وصفة الخالق تستدعي مخلوقاً، وصفة الوهاب الرازق المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر المعز المذل العفو الرؤوف تستدعي آثارها وأحكامها... فلو عطلت تلك الصفات عن المخلوق المرزوق المغفور له المرحوم المعفو عنه، لم يظهر كمالها وكانت معطلة عن مقتضياتها وموجباتها، فلو كان الخلق كلهم مطيعون عابدون حامدون لتعطل أثر كثير من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وكيف كان يظهر أثر صفة العفو والمغفرة والصفح والتجاوز والانتقام والعز والقهر والعدل والحكمة التي تنزل الأشياء منازلها وتضعها مواضعها، فلو كان الخلق كلهم أمة واحدة لفاتت الحكم والآيات والعبر والغايات المحمودة في خلقهم على هذا الوجه وفات كمال الملك والتصرف^(١).

وفي هذا الكلام ملمح للإجابة عن الشرط الثاني من السؤال أيضاً، فلا شك أن الله غني عن العالمين فلم يخلق الله تعالى الخلق لحاجة أو منفعة تعود عليه سبحانه، قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢) ولكن اقتضت حكمته تعالى أن يخلق الخلق على هيئة تظهر بها آثار أسمائه وصفاته، قال ابن القيم: سر هذا الباب أنه سبحانه كامل في أسمائه وصفاته فله الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه ما، وهو يحب أسمائه وصفاته ويحب ظهور آثارها في خلقه فإن ذلك من لوازم كماله... فإذا كان يحب العفو

(١) (مدارج السالكين، وشفاء العليل، ومفتاح دار السعادة)، لابن القيم وأشار إلى هذا المعنى في مواضع أخرى من كتبه منها (مدارج السالكين-وطريق الهجرتين).

العلامة ابن القيم (٧٥١ هـ): الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي بل المجتهد المطلق المفسر النحوي الأصولي، الشهير بابن قيم الجوزية، وإمامها. ولد سنة إحدى وتسعين وستمئة. وسمع الحديث واشتغل بالعلم، وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصولين. سمع من النبي سليمان وأبي بكر بن عبد الدائم وابن الشيرازي وإسماعيل بن مكتوم وطبقتهم. وقرأ الفقه على المجد الحراني وشيخ الإسلام ابن تيمية وقرأ أيضاً على ابن أبي الفتح والصفى الهندي وعدة. ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من مصر سنة اثنتي عشرة وسبعمئة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جماً. فصار فريداً في بابيه في فنون كثيرة، البداية والنهاية (١٤ / ٢٤٦ - ٢٤٧).

(٢) سورة لقمان: ٢٦

والمغفرة والحلم والصفح والستر لم يكن بد من تقديره للأسباب التي تظهر آثار هذه الصفات فيها ويستدل بها عباده على كمال أسمائه وصفاته ويكون ذلك أدعى لهم إلى محبته وحمده وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله فتحصل الغاية التي خلق لها الخلق وإن فاتت من بعضهم فذلك لفوات سبب لكمالها وظهورها فتضمن ذلك الفوات المكروه له أمراً هو أحب إليه من عدمه فتأمل هذا الموضع حق التأمل وهذا ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم حين يجمعهم في صعيد واحد ويوصل إلى كل نفس ما ينبغي إيصاله إليها من الخير والشر واللذة والألم حتى مثقال الذرة ويوصل كل نفس إلى غاياتها التي تشهد هي أنها أولى بها فحينئذ ينطق الكون بأجمعه بحمده تبارك وتعالى قالاً وحالاً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)(٢) ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نزل كلا في المحل الذي يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذي لا يجور - أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدمونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية، وقضى الأمر، وحكم بالعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾ ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ونطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمة - ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، بالحمد في حكمه وعدله؛ ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد (٣) ..

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤) ومع أن الإنسان مستخلف في الأرض، فهو في نفسه خاضع ومحكوم بما قدر الله له وعليه. فلا يملك أن يختار أبويه أو جنسه (ذكراً كان أو أنثى) أو صورته أو عمره أو زمانه أو مكان ولادته أو موته أو مواهبه أو مجتمعه أو أبناءه. ويخرج الإنسان من الدنيا كما دخل إليها وقد سلم الودائع جميعاً، وترك كل ما كان يحرص عليه. فالإنسان عبد مستخلف على الأرض بتقدير سيده ومالكة خالقه وخالق كل شيء.

(١) سورة الزمر: ٧٥

(٢) الزمر : ٧٥ ، الكتاب: روضة المحبين ونزهة المشتاقين المؤلف: ابن قيم الجوزية الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (ج/١ ص ٦٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٧ - ص ١٢٥).

(٤) سورة الأنعام: ١٦٥

المطلب الثالث: الأرض دار ابتلاء وامتحان للإنسان :

يستخلف الخالق سبحانه الإنسان على هذه الأرض لمدة محدودة، وأجل معلوم، لمعرفة طاعته من معصيته، ولتمييز المؤمن من الكافر، والمطيع من العاصي، حتى يكون الجزاء في الآخرة على ما قدم الإنسان من عمل في الدنيا.

ألست ترى أن الذي خلقك أخرجك إلى الدنيا وأنت لا تملك شيئاً ثم وهب لك ما شاء من المواهب، والأموال، والأولاد، والعلم، والجاه. ثم يسترد بالموت كل الودائع، وتخرج من الدنيا كما دخلت إليها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: للحساب والجزاء فرادى أي: منفردين عن الأموال والأولاد، وما أترتموه من الدنيا. أو عن الأعوان والأوثان التي زعتمت أنها شفعاؤكم.

و﴿فُرَادَى﴾ جمع فريد، كأسير وأسارى. ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: مشبهين ابتداء خلقكم، حفاة عراة غرلا (يعني قلفا). ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا، فشغلتم به عن الآخرة من الأموال والأولاد والخدم والخول ﴿وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يعني: في الدنيا، ولم تحملوا منه نقيرا. كناية عن كونهم لم يصرفوه إلى ما يفيد في الآخرة (٢).

فكل ما أعطاك الله إياه لم يرد منه التملك الدائم لك؛ لأنه يسترد منك الذي أعطاك. وعندما أخذ الله منك ما أعطاك لم يرد سلبك لأنه الذي أعطاك أول مرة، إذن فالامتحان والاختبار هو المراد من التملك المؤقت لما أعطاك ربك. وجعل كل ما في الدنيا أداة من أدوات الامتحان. ولأن الامتحان هو المقصود من الحياة فإن الله لم يرغم الناس على عبادته بل استخلفهم على الأرض، وأرسل إليهم رسلاً ورسالات، وطلب منهم أن يخضعوا لأمره، وأن يطيعوه ويعبدوه باختيارهم، في المهلة المعطاة لهم على الأرض.

أولاً: كيف يتحقق الامتحان:

لقد تبين كيف يتحقق الامتحان زين الله في أنظارنا الدنيا الفانية، وزين لنا في كتابه وسنة نبيه الآخرة الباقية كي يتحقق الامتحان لإيماننا. قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِئْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا

(١) سورة الأنعام: ٩٤

(٢) محاسن التأويل (ج ٤ - ص ٤٣٤).

وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشرب، واللذات، كلها متاع الحياة (الدنيا) وزينتها، أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشوا بالمنغصات، ممزوجاً بالغصص. ويزين به زماناً يسيراً، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان (٢).

وعرفنا أن كل ما في الأرض فإن لا يدوم ولا قيمة له وأنه قد غر من قبلنا فتصارعوا عليه، ثم تركوه مرغمين قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الأبد. وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى (٤).

وإذا استعرضت حياتك وجدت صدق هذه الحقيقة المبينة لحقيقة الدنيا، فكل ما مضى من حياتك لا قيمة له عند موتك، ولا يبقى منه إلا عملك الصالح، وما هي إلا سنوات حتى تكتشف هذه الحقيقة في حياتك بأكملها، بل في حياة جيلك كله، بل ستجدها واضحة في الحياة البشرية كلها قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمَّ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةٌ مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلٌ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ (٥).

ثانياً: نتيجة الامتحان:

تعتمد نتيجة الامتحان على درجة الإيمان، فمن كان إيمانه قوياً، وخوفه من ربه عظيماً، سلك لجمع الدنيا طريق ربه، واتبع هدى خالقه، وقاوم الهوى ووسوسة الشيطان، ولم ينخدع بزينة الدنيا فذلك هو الامتحان والنجاح والنجاة من النار والفوز بالجنة. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

(١) سورة القصص: ٦٠

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٦٢١).

(٣) سورة العنكبوت: ٦٤

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٦ - ص ٢٩٤).

(٥) سورة الأحقاف: ٣٥

ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكَمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْمُرُورِ ﴿١﴾ ومن أبى وعصى، فقد ظل وغوى، وفي النار هوى، قال تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢) وأما إن كان ضعيف الإيمان، لا يخاف ربه فإن بريق الدنيا يخدعه، وينطلق لجمع ما في الدنيا من متاع وزينة بأي وسيلة أو طريق، بقتل أو تدمير أو تخريب، بحيلة أو خديعة، معرضاً عن هدى خالقه وهداه، وبهذا يظهر كفره أو فسقه فذلك هو الامتحان والفشل فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ لَطَمَ * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٥) وهؤلاء الذين أعرضوا ولم يؤمنوا بالله ويتبعوا رسله هم الذين يختارون الحياة الدنيا الفانية، ويتركون الآخرة الباقية، ويمنعون الناس عن اتباع دين الله، ويريدونه طريقاً معوجاً ليوافق أهواءهم، أولئك الموصوفون بهذه الصفات في ضلال عن الحق بعيد عن كل أسباب الهداية (٦)، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوْنَا يَوْمَ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٧) أي نتركهم في عذابهم كما تركوا يومهم هذا فلم يعملوا له من الإيمان والصالحات، وبسبب جحودهم لآياتنا الداعية إلى الإيمان وصالح الأعمال (٨).

(١) سورة آل عمران: ١٨٥

(٢) سورة الزمر: ٢٥-٢٦

(٣) سورة يونس: ٧-٨

(٤) سورة النازعات: ٣٧-٣٩

(٥) سورة إبراهيم: ٣

(٦) التفسير الميسر (ج ١/ص ٢٥٥).

(٧) سورة الأعراف: ٥١

(٨) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (ج ٢ - ص ١٧٨).

المبحث الثالث

حث القرآن على استخدام العقل

المطلب الأول: تكريم الله الإنسان بالعقل:

جاء القرآن بتمجيد العقل وتعظيمه وبيان مكانته، فبين أن أهل العقول هم المنفكرون دائماً في عظمة الله، وهم المقربون إلى ربهم، فهذه هي وظيفة العقل في القرآن، وأما السنة فقد علق النبي ﷺ التكليف والمؤاخذه والعتاب والعقاب على وجود العقل واستقراره، لكن أهل البدع جعلوه حاكماً للشريعة قديماً وحديثاً، فما استساغه العقل قبلوه، وما لم يستسغه ويستوعبه ردوه؛ وبهذا تتميع أحكام الشريعة، فنعوذ بالله من الخذلان! (١).

القرآن الكريم يدعو الإنسان دائماً إلى التفكير وإلى التأمل حتى يعي وحتى يفسر ما حوله ونجد عقيدة الروح هي إحدى العقائد الغيبية في الدين الإسلامي العظيم ولكن الفضيلة الأولى في هذه العقائد أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها فالروح والجسد في القرآن الكريم هما ملاك الذات الإنسانية وتتم بهما الحياة ولا يجوز للإنسان أن يبخل للجسد حقاً ليوفي حقوق الروح وفي المقابل لا يبخل للروح حقاً ليوفي حقوق الجسد.

هذا هو القرآن الكريم وهذا هو الدين الإسلامي الذي يعتبر مفخرة لكل مسلم على وجه الأرض حيث فضله ووضعه في مكانته اللاتقة ومكنه في الأرض بيتغي فيها معاشه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

هذه هي المكانة المتميزة للإنسان في القرآن الكريم ثم نجد أن هناك قوانين موضوعة للإنسان لكي يسمو بنفسه ولكي يعيش حياة منظمة لها أحكام وقوانين فهناك قوانين للأمانة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الْأُذَىٰ أَوْ تُؤْمِنَ أَمْنَتَهُ وَاذْكُرُوا رَبَّكُمْ وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهَا فَإِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ بِمَاتَمَلُونَ عَلَيْهِمْ﴾ (٣) إن وثق ببعضكم ببعض فلا حرج في ترك الكتابة والإشهاد والرهن، ويبقى الدين أمانة في ذمة المدين، عليه أدائه،

(١) كتاب البدعة وأثرها في محنة المسلمين، المؤلف: أبو إسحاق الحويني الأثري، (ج ١/ص ٤).

أبو إسحاق الحويني: هو حجازي بن محمد بن يوسف بن شريف، أحد علماء الدين الإسلامي المصريين المعاصرين، وأحد أشهر دعاة الدعوة السلفية حالياً. ولد بقرية حوين بمحافظة كفر الشيخ بمصر. يعده البعض كبير مشايخ أهل الحديث والسلفية في مصر والعالم، ولد يوم الخميس غرة ذي القعدة لعام ١٣٧٥هـ، الموافق ٠٦ / ١٩٥٦م بقرية حوين بمركز الرياض من أعمال محافظة كفر الشيخ. (الموسوعة الحرة موقع في الانترنت).

(٢) سورة الأعراف: ١٠

(٣) سورة البقرة: ٢٨٣

وعليه أن يراقب الله فلا يخون صاحبه. فإن أنكر المدين ما عليه من دين، وكان هناك من حضر وشهد، فعليه أن يظهر شهادته، ومن أخفى هذه الشهادة فهو صاحب قلب غادر فاجر. والله المُطَّلِع على السرائر، المحيط علمه بكل أموركم، سيحاسبكم على ذلك^(١).

وجاء أيضا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٢) هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع، لأن الظاهر أن الخطاب يشمل جميع الناس في جميع الأمانات، وقد روي عن علي، وزيد بن أسلم، وشهر بن حوشب: أنها خطاب لولاة المسلمين، والأول أظهر، وورودها على سبب كما سيأتي لا ينافي ما فيها من العموم، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما تقرر في الأصول وتدخل الولاة في هذا الخطاب دخولا أوليا، فيجب عليهم تأدية ما لديهم من الأمانات، ورد الظلمات، وتحري العدل في أحكامهم، ويدخل غيرهم من الناس في الخطاب، فيجب عليهم رد ما لديهم من الأمانات، والتحري في الشهادات والأخبار^(٣).

إن الدين الإسلامي يحث المؤمنين على أداء الأمانة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ﴿وَأَوْفُوا كَيْفَ وَعَدْتُمْ وَأَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(٤).

هذا هو الإنسان صاحب العقل والبصيرة الذي يعي كيف يؤدي الأمانة وكيف يحافظ عليها لأنه أفضل مخلوق بين المخلوقات جميعها ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٥) ولقد احتار العلماء في القرن السابع عشر أين يضعون الإنسان، هل يضعونه في موضع واحد مع الحيوان؟ وهل هو من طبقات الحيوان اللبون؟ ومن هنا نشأت نظرية النشوء والارتقاء أو ما يعرف بنظرية السلالات.

كرم الله الإنسان بالعقل وبين منزلته في القرآن الكريم وأهميته، فالعقل ميزة الإنسان لأنه

(١) التفسير الميسر (ج ١/ص ٤٩).

(٢) سورة النساء: ٥٨.

(٣) فتح القدير: محمد الشوكاني الناشر: دار ابن كثير، - دمشق، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ (ج ١/ص ٥٥٥).

محمد بن علي بن محمد الشوكاني، أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة وفقهائها، ومن كبار علماء اليمن، (١١٧٣ هـ - ١٢٥٥ هـ، ١٧٥٩م - ١٨٣٤م). ولد في وسط نهار الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣ هجرية في بلدة هجرة شوكان، ونشأ في صنعاء، وتلقى العلم على شيوخها. اشتغل بالقضاء والإفتاء، توفي في ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٥٥ هـ. الأعلام للزركشي دار العلم للملايين (ج ٥ - ص ١٧).

(٤) سورة الأحزاب: ٢٧.

(٥) سورة الإسراء: ٧٠.

منشأ الفكر وله القدرة على الإدراك والتدبر وتصريف الحياة وينحط ويطغى ويفسد باجتئاب الحق وإتباع الهوى، العقل أداة وصل الدين بقضايا الواقع لأنه يملك طاقات إدراكية أودعها الله فيه بدور مهم في الاجتهاد والتجديد إلى يوم القيامة.

العقل مناط التكليف وأساسه لان التكليف خطاب من الله ولا يتلقى ذلك الخطاب إلا من يعقل، وترجع أهمية العقل في القرآن الكريم إلى:

(١) العقل أداة التمييز والفهم والإدراك وبه ميز الله الإنسان عن سائر الخلق.

(٢) أداة الاجتهاد ووصل الدين بقضايا الواقع.

(٣) العقل مناط التكليف.

ومنهجية التفكير كما يبرزها القرآن الكريم

أمرنا الله عز وجل بالتدبر في القرآن الكريم وفهم معانيه والتدبر في خلقه وكونه لقوله:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١) فربط الحالة الإيمانية بالحالة الفكرية ويرد إليه التفكير العقلي الخالص والتأمل أذهني العميق الذي يفضي إلى المعرفة الصحيحة.

وإذا قلنا العقل الإسلامي، قصدنا به العقل الذي يتخذ من الإسلام منهجاً له في تحركه وفعله واستنتاجه وحكمه، ومعلوم شرعاً وعقلاً ومنطقاً وحساً أن الإسلام دين الفطرة السليمة ورسالة الإنسانية في اعتدالها وقيمها وإنسانيتها، فأحكامه وتوجيهاته مستساغة عقلاً، مبرهنة منطقاً، مقبولة طبعاً، مألوفة فطرة، مستحسنة عرفاً وعادة، وهذا هو الذي عبر عنه قديماً وحديثاً بتطابق المنقول مع المعقول. وما يظن أنه مخالف لذلك فهو راجع إلى أن الأمر بين الوحي والعقل في المناط والمحل الواحد لم يتحقق على الوجه المطلوب، كأن يرجع إلى الجهل بالعربية والمقاصد، أو يرجع إلى أن الوحي مما يعلو الفهم العقلي، أو أن يكون الوحي قد حمل على ظاهره وهو مما ينبغي أن يؤول لإزالة التناقض المتوهم بينه وبين العقل، أو أن العقل قد أخطأ فيما توصل إليه من نتائج، أو أن ما ظن من آحاد الأدلة وحياً هو على غير ذلك.

إننا نقصد بالعقل الإسلامي في العصر الحالي كما ذكرنا عقل الفرد المكلف، وعقل الخاصة من العلماء والمجتهدين، وعقل الجماعة والأمة المسلمة.

فعقل الفرد المكلف هو أداة فهمه للأحكام والامتثال إليها، وهو مطالب شرعاً بمزاولة أقدار عقلية تتناسب مع إمكاناته واستطاعته، ومحمول على لزوم بذل أكبر ما يمكن من حظوظ

(١) سورة النساء: ٨٢

الفهم والاستيعاب، والتفكير في الشرع والكون والنفوس، بهدف تقوية الإيمان، وتصحيح التعبد والتعامل، وترشيد السلوك، وتهذيب الأخلاق، حتى بلوغ درجات الكمال أو الاقتراب منه. أما عقل الخاصة والنخبة والصفوة فهو عقل العلماء والمجتهدين والخبراء، الذين توافرت لهم حظوظ من الفهم والاستيعاب والتميز لم تتوفر لغيرهم من العامة، وهي تتفاوت رسوخاً وعمقاً بتفاوت صلاح النفس، وعمق التحصيل، وطول الخبرة، وشدة الاستقراغ، وتدريب الملكة على البذل والنظر والتأمل والمراجعة وغير ذلك وواجب العلماء اليوم تشكيل عقل جماعي متخصص ينظر للواقع بشمول وإحاطة واستيعاب، ويزن الأمور بميزان الجماعة التي بارك الله فيها من جهة، والتي يتوقف فهم الواقع المعاصر عليها، لما بلغته قضاياها وأحواله من تشعب وتعقيد واختلاط وتداخل في صوابه وخطئه، في حلاله وحرامه من جهة أخرى، هذا فضلاً عما يتوقف فهمه على ذوي الاختصاص والخبرة لطبيعته وماهيته، وفضلاً أيضاً عما شاب العقل الإسلامي من اختلالات واهتزازات في الفهم والتميز بسبب اختلاط الثقافة الإسلامية بثقافات أخرى، وليس مع ذلك الاختلاط من تحصين ووقاية وعمق في الأصالة والهوية والثقافة وتشبع بالمعرفة الإسلامية في جانبها العقدي والتشريع والأصولي، بل إن قلة ذلك التحصين أو انعدامه أحياناً راجع إلى نفس سبب ذلك الاختلاط غير المتكافئ، والمقصود به التحامل والتأمر وتشويش العقل الإسلامي، وتشويه الممارسة وتحريفها عن منهج الصواب والصلاح والساد والرشد.

إن التحديات الفكرية والاقتصادية والحضارية المعاصرة التي تواجه الكيان العام، وتستهدف البناء القيمي التشريعي الإسلامي لن يكون مقدوراً عليها إلا بتشكيل العقل العام والضمير الجماعي المتشبع بالروح العقدية والفكرية الأصيلة، والروح المعنوية والوجدانية العالية، والنفس الإصلاحية التعميري الشامل، والرغبة في الشهادة على العالم، وإحياء الخيرية والرحمة لكافة الناس^(١).

(١) (الاجتهاد المقاصدي حجيته، ضوابطه، مجالاته) الجزء الثاني، للدكتور نور الدين بن مختار الخادمي، في سلسلة (كتاب الأمة)، (ج ١/ص ١٤٩).

المطلب الثاني: حث القرآن على استعمال العقل:

دعا القرآن إلى إطلاق العقول من أسرها ودفعها للتأمل في ملكوت السموات والأرض واستعمالها في مختلف شؤون الحياة.. كما حث على الاستغلال الأمثل لها وتمييزها وأن لا يحجر عليها بالتعصب والتقليد.. والخرافات والأساطير... قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١) يقول تعالى أمرا عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ونهبوا إلى ذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت! أي كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم (٢).

وقد بعث الله عز وجل سيدنا محمداً ﷺ بالرسالة الخاتمة، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والجور والشرك والغي إلى أنوار العلم والعدل والتوحيد والرشد، وكان العالم قبل البعثة المحمدية وفي زمنها، غارقا في بحر تلك الظلمات، وفي مقدمتها ظلمة الجهل التي تستتبع باقي الظلمات. فكان من الطبيعي والمنطقي أن يكون شعار الدين الخاتم "اقرأ" وأن يكون إعلاء شأن العقل والتفكير والعلم وطلبه وتعليمه أول المبادئ لترقي معراج الكمال الإنساني الذي جاء به الإسلام.

فباستخدام العقل يفرق الإنسان بين الصالح والفاقد، بين النافع والضار، بين الحق والباطل، وبتعطيله تلتبس عليه الأمور ويفقد هذا التمييز. وبطلب العلم يدرك حقائق الأشياء، ودلالاتها على عظمة وقدرة الله وصفات الكمال والجلال والجمال التي هي واجبة لمبدع الأكوان وخالق الموجودات، فإذا لم يطلب الإنسان العلم بقي في ظلمات الجهل لا يعرف الحقائق ولا الدلائل، ولا ما جاءت به الرسل ولا مقاصد الشرائع، فضلا عن جهله بالعلوم الأخرى التي تزيده نورا، وتبين له طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

لذلك كان مبدأ العلم والتعلم والتعليم، على مدى الحياة، الفردية والجماعية، أول مبادئ بناء الحضارة الإسلامية الراقية، وأول لبنة في صرح الكمالات الفردية والاجتماعية.

(١) سورة الغاشية: ١٧

(٢) تفسير ابن كثير (ج ٨ - ص ٣٨٦).

ومن هنا يجد قارئ القرآن الكريم عددا كبيرا من الآيات التي تحت على استخدام العقل، وطلب العلم، ونشره، مبينة فضله وفضيلة العلماء الذين يتحلون ويعملون به، وينشرونه ويبتغون وجه الله الكريم بذلك.

وإذا تدبرنا هذه الآيات وجدنا أنها تدعو إلى التفكير واستخدام العقل من عدة وجوه:

أولاً: الغاية المرجوة من بث الآيات

إن الغاية المرجوة من بث الآيات – أي العلامات الدالة على وحدانية الخالق وعظمته – في الأنفس والآفاق، ومن تنزل الآيات المتلوة .. أي القرآن الكريم – هي أن يعقل الإنسان هذه الحقيقة الكبرى وأن يعمل بمقتضاها في حياته.

قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١) فحرف "عل" يفيد الترجي ويضمن هنا معنى القصد، أي أن الغاية المرجوة والمقصودة من تبين وإظهار الآيات هي حصول العقل، بمفهومه الشرعي.

ثانياً: الإنكار والتشريع والذم

فالقرآن لم يكتف ببيان فضل العقل والتفكير إيجاباً، بل بين هذا الفضل من خلال ذم حال الذين يعطلون ملكاتهم العقلية. ولا يتدبرون ولا يتفكرون، وذلك كقوله عز وجل: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِرُ جُودِهِمْ مَنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِنْنَةُ شَدِيدٌ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ﴾ (٢) شبه الله سبحانه وتعالى الذين كفروا بالبهائم التي لا تعقل، وزاد حالهم بيانا بوصفهم بالصم والبكم والعمى، فكان هذا التعطيل لعقولهم مسبباً لآفات تنحط بالإنسان الذي كرمه الله إلى حضيض البهائم. مع أن لهذه مستواها الخاص من التسبيح ولكننا لا نفقهه، كما بين القرآن.

ومثل الآية السابقة قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٣) إذ لو عقل هؤلاء الذين اتخذوا الصلاة هزواً ولعباً لما فعلوا ذلك. بل لأدركوا فضلها وسارعوا إلى إقامتها. ولكنهم قوم لا يعقلون، وكفى به ذماً وتوبيخاً.

وكذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يَقْنَنُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ

(١) سورة البقرة: ٢٤٢

(٢) سورة البقرة: ١٩١

(٣) سورة المائدة: ٥٨

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وصف الله عز وجل حال اليهود الذين حاربوا الدعوة الإسلامية بالجبن، والقتال فيما بينهم، وتفرق قلوبهم لتعاديهم، وذلك بسبب أنهم غير عقلاء، إذ أن هذه الصفات المذمومة لا يتصف بها إلا الجاهلون، وهذه الأفعال القبيحة لا تصدر إلا عن الحمقى.

ثالثاً: أولو العقول وحدهم المؤهلون لإدراك الحق وللتذكر:

وقد سماهم المولى عز جل بأولي الألباب، وخصهم بأجل العلوم وأنفعها فقال ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢) فدللت الآية على عظم قدر الحكمة، وعلى أن الذين خصهم الله بنورها هم أصحاب العقول، أي القلوب التي عبر عنها بالألباب.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٣) فختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته، إذ لا تصدر إلا عن حي قيوم قدير قدوس سلام غني عن العالمين، حتى يكون إيمانهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليد. ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمل الدلائل (٤).

وكذلك قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥).

ففي هذه الآية الكريمة، إعلام بأن في قصص الأنبياء التي ذكر الله في القرآن عبرة وموعظة ودروسا ينتفع بها أولو العقول النيرة، ويستدلون بها على صدق الرسول في ما بلغ

(١) سورة الحشر: ١٤

(٢) سورة البقرة: ٢٦٩

(٣) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١

(٤) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، (ج ٤/ص ٣١٠).

الإمام القرطبي: هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المفسر ولد بقرطبة من بلاد الأندلس وتعلم فيها العربية والشعر إلى جانب تعلمه القرآن الكريم وتلقى بها ثقافته الواسعة في الفقه والنحو والقراءات كما درس البلاغة وعلوم القرآن وغيرها ثم قدم إلى مصر واستقر بها وكانت وفاته بصعيدها ليلة الاثنين التاسع من شهر شوال سنة ٦٧١ هـ وقبره بالمنيا بشرق النيل. (الديباج المذهب (٢/ ٣٠٨ - ٣٠٩) ونفح الطيب (٢/ ٢١٠ - ٢١٢)

(٥) سورة يوسف: ١١١

عن ربه من رسالات.

وأما قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (١) ففيه تنصيص على أن الذين يتذكرون، إنما هم أولو الألباب، و"إنما" — كما هو معلوم — أداة حصر، فأصحاب العقل وحدهم يعلمون أن الذي يعلم هذا الحق ليس كمن هو أعمى لا يبصر — ثم ذكر الله صفات أخرى لأولي الألباب الذين لا يعطون عقولهم عن التفكير والتدبر، وهي الوفاء بالعهد، وعدم نقض الميثاق، ووصل ما أمر الله به أن يوصل، والخشية والخوف، والصبر احتساباً وإخلاصاً، وإقامة الصلاة، والإنفاق سرا وعلانية والدفع بالتي هي أحسن، ثم ذكر جزاءهم يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢).

لقد أنزل الله هذا القرآن الكريم تذكرة لهذه الفئة المؤمنة التي تتدبره، وتتنفع بعلمه. وأما الذين أعرضوا ولم يوجهوا قلوبهم وعقولهم لتحصيل هذا التدبر والانتفاع، فلا يتذكرون قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَعْمَىٰ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُكَ وَوَجْدٌ لِيذَكَّرَ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ (٣) فجعل الآيات السابقة بلاغا عاما، وإنذارا شاملا للناس، حتى يعلموا أن لا إله إلا الله، وبين أن أولي الألباب هم المؤهلون للتذكر النافع، وفي الآية عطف للخاص على العام، والله أعلم.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ (٤) وأولو النهى هم أولو العقول التي تنهاهم عن القبائح، وهم الذين يستفيدون من عبر التاريخ ودروس القصص القرآني.

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٥) بيان للغاية من تنزيل القرآن الكريم، وهي التدبر والتذكر، اللذان هما وظيفتا العقلاء المفكرين، إذ لهم آيات ودلائل وإشارات في الأنفس والآفات وتاريخ الأمم، كما في قصة سيدنا

(١) سورة الرعد: ١٩

(٢) سورة الرعد: ٢٢-٢٣

(٣) سورة إبراهيم: ٥٢

(٤) سورة طه: ١٢٨

(٥) سورة ص: ٢٨

أيوب عليه السلام : ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (١) فهذه القصة القرآنية تتضمن من الحكم والعظات والفوائد ما ينتفع به أولو الألباب أيضا.

وهذه الفئة المؤمنة هي التي تدعن لسماع الحق، وتستقيم على نهج السنة، ولذلك كانت هي الطائفة المهدية. كما في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢) إنهم الذين يعقلون فيوقنون، لأنهم يعملون عقولهم، ويستخدمون تفكيرهم في تأمل الآيات المشهودة، وتدبر الآيات المتلوة والمسموعة، إنهم الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلِّفَ لَيْلَ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣) ذلك أن هذه الموجودات البديعة التي تملأ هذا الكون الرحب لم تخلق سدى، بل هي كتاب مفتوح مليء بالإشارات والأسرار والدلائل الموجهة إلى عقل الإنسان الواعي المفكر.

هكذا حثّ القرآن الكريم الإنسان على التفكير الدائم، حتى يظل عقله أو قلبه حيا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٤) وذكر الصحاح أن كلمة " قلب " تعني العقل.. ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ قال: لمن كان له عقل يتدبر به فكنى بالقلب عن العقل.. وقيل لمن كان له نفس مميزة، فعبر عن النفس البشرية بالقلب (٥).

وقال الفيروز أبادي (٦): القلب هو الفؤاد والعقل ومحض كل شيء.. كما في قوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧) أي من كانوا مرضى في عقولهم وأفكارهم ، وفي سورة الشعراء يقول الله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٨) أي على وعيك وإدراكك وفكرك وعقلك.

(١) سورة ص: ٤٢

(٢) سورة الزمر: ١٨

(٣) سورة الجاثية: ٥٥

(٤) سورة ق: ٣٧

(٥) كتاب: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م (ج ١٧ - ص ٢٣).

(٦) الكتاب: القاموس المحيط المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م،

(٧) سورة البقرة: ١٠

(٨) سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٤

فالقلب: هذه اللطيفة الربانية المدركة المميّزة العارفة، يصيبها العمى أحيانا إذا ضل صاحبها الطريق بالإعراض عن الحق أو بتعطيل الفكر السليم، وتستتير أحيانا بنور الحق فتبصر علائم الطريق، وتلمح وعد الله الصادق من وراء حجاب الدنيا، لكن كيف تحيا هذه اللطيفة الربانية؟

سؤال نجد جوابه في هذا الإنكار القرآني لحال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعقولهم كما ينبغي: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١) فهم يبصرون بأعينهم الحسية آيات الله في الأنفس والآفاق، ولكن علتهم أنهم لا يبصرونها بقلوبهم لأنها عميت. كما دلت الآية على أن مكان القلب بهذا المعنى السامي هو الصدر إن هذه الآيات يشهدها الشهود القلبي المتوسمون ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٢) وهم المتذكرون المتأملون.

وكذلك أسلوب التقرير والتبكيث والتوبيخ الذي يتضمن من ذم تعطيل النظر والعقل ما لا يخفى على من يحترم عقله. وذلك كقول الله تعالى في نهايات العديد من الآي: "أفلا تعقلون"، "أفلا تذكرون"، "أفلا تبصرون"، وكقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ (٣). إن القرآن يخاطب كيان الإنسان كله: عقله ووجدانه، ويوجه ملكاته الفكرية إلى التأمل، ويقوم الحجة على الحقائق التي يبينها له، ويدعو الإنسان إلى سلوك طرق البحث العلمي، ويحدد مبادئ المنهج الصحيح للوصول إلى الحقيقة، ويحاور عقل الإنسان، مستعملا أساليب بلاغية متنوعة حسب المقامات الخطابية، وبما يراعي طبيعة النفس الإنسانية، ويأخذ بعين الاعتبار رواسب العادات والتقاليد الاجتماعية وما تقتضيه من طرائق مناسبة في سوق الخطاب القرآني حتى يكون مقنعا، ولا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل.

وقد رأينا من الأساليب القرآنية في الحث على التفكير واستخدام العقل أربعة أنواع: التركيز على قصد العقل، والإنكار والذم، ومدح أولي الألباب، والتقرير والتبكيث، وهذا كله يدل على مدى العناية الإلهية بتعليم الإنسان قيمة التفكير واستخدام العقل، حتى يدرك كبرى اليقينيّات الكونية، فيسعد في الدنيا والآخرة، فالعقل يصون الإيمان وليس خطرا عليه حيث نجد أن إبراهيم عليه السلام عندما عمل عقله وطلب الدليل في خلق الله إنما كان يتحسس نعمة العقل التي هداه أصلا إلى الله عز وجل.

(١) سورة الحج: ٤٦

(٢) سورة الحجر: ٧٥

(٣) سورة محمد: ٢٤

المطلب الثالث: وجوب المحافظة على العقل:

أحكام حفظ العقل من حيث الوجود هي الأحكام التي تقيم أركانه وتثبت قواعده بحيث تثمر منفعتها فكراً مستقيماً وعلوماً نافعة ومعارف صالحة تمكن الأمة من تحقيق الاستخلاف ومن هنا شرع طلب والتفكير والنظر والتدبر وليس هنالك دليل أحسن من افتتاح الله كتابه الكريم وابتدائه الوحي بهذه الآيات التي تأمر مرتين بالقراءة على الإطلاق دون تقييد قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١) اقرأ يا محمد بذكر ربك ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ثم بين الذي خلق فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني: من الدم، وقال: من علق؛ والمراد به من علقه، لأنه ذهب إلى الجمع، كما يقال: شجرة وشجر، وقصبة وقصب، وكذلك علقه وعلق. وإنما قال: من علق والإنسان في لفظ واحد، لأنه في معنى جمع، وإن كان في لفظ واحد، فلذلك قيل: من علق.

وقوله: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ يقول: اقرأ يا محمد وربك الأكرم ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ خَلَقَهُ لِلْكِتَابَةِ والخط (٢).

أخطر أنواع الانحراف هو انحراف الفكر والبعد به عن القصد إفراطاً وتفريطاً فالانحراف الفكري ينتج عن خلل في البناء الفكري وهذا الخلل قد يعود إلى الأمرين الآتيين أو لأحدهما:
أ) الجهل بأصول التشريع.
ب) الجهل بمناهج التعامل مع هذه الأصول.

وإذا علمت أن العقل عاجز عن الاستقلال بمعرفة الحكمة التي من أجلها خلق الإنسان فعليك أن تتعرف على الحكمة التي من أجلها خلق الإنسان من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فقد بين الله تعالى في القرآن الكريم الذي قال عنه منزله جل وعلا ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٣) بين حكماً وأحكاماً هي أقل شأناً من هذا الأمر العظيم كيف لا وهو أهم المهمات وأعظم الواجبات إذا فالحكمة التي خلق الله الإنسان من أجلها هي العبادة قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٤) فقد أخبر الله تعالى في هذه

(١) سورة العلق: ٥

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٤ - ص ٥١٩).

(٣) سورة الأنعام: ٣٨

(٤) سورة الذاريات: ٥٦

الآية أنه خلق الجن والإنس للعبادة، فالعبادة هي الحكمة التي من أجلها خلقوا ومن أجلها خلق الله السموات والأرض والدنيا والآخرة والجنة والنار ومن أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وسن الأحكام وبين الحلال والحرام ليلوكم أيكم أحسن عملاً، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (١) وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات. ﴿الْغَفُورُ﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستتر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا (٢).

وذلك أن الله خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار وأخبرهم أنهم سينقلون إلى دار أخرى، وأمرهم ونهاهم وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره ونهيه فمن انقاد لأمر الله أحسن الله له الجزاء في الدار الآخرة ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله وارتكب نهيه فله شر الجزاء.

فالعباد جميعاً خلقوا للعبادة ولكن لما كان منهم من خلق للعبادة من دون ابتلاء بمضاد كالملائكة، فهذا القسم صارت العبادة سجية لهم لا يريدون غيرها، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُسْـَٔفُونَہٗ بِالْقَوْلِ ۗ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٣) ومنهم من خلق للعبادة مع ابتلاء بمضاد كالجن والإنس الذين جبلوا على خلائق وسجايها تنأى بهم غالباً عن الطاعة وتوقعهم في المعاصي ابتلاء من الله لهم وذلك كالابتلاء بالشهوات، شهوة المطعم وشهوة المشرب، وشهوة المنكح، وشهوة القهر، والتغلب، والاستعلاء، إلى غير ذلك.

(١) سورة الملك: ٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٨٧٥).

(٣) سورة الأنبياء: ٢٦-٢٨

وجوب المحافظة على العقل:

الحفاظ على العقل مقصد من مقاصد الشريعة وواجب شرعي ويتحقق ذلك بأمر:

- تتميته بالعلم النافع وتحصيل منفعه.
- درء المفسد والمضار عنه كالخمر والمخدرات والبدع والخرافات والتقليد التعصب والغلو...

ملاحظة: يعد الغلو والانحراف الفكري أخطر أنواع الانحراف لأن السلوك نابع منه ومتأثر به ولهذا كانت دعوة الأنبياء كلها مركزة ابتداء على تصحيح العقيدة وتقويم الفكر ومرد هذا الانحراف إلى أمرين:

- (١) الجهل بأصول التشريع الكتاب أو الإعراض عنها.
- (٢) الجهل بمناهج التعامل مع هذه الأصول.

المبحث الرابع الإسلام دين الفطرة

ومعنى أن الإسلام دين الفطرة هو أن شعائره وشرائعه لا تتعارض ولا تصطدم مع المنطق القويم والعقول السوية والفطر المستقيمة، ولو لم يكن أصحابها مسلمين.

ولا أدل على كون الإسلام دين الفطرة من أن النبي ﷺ جعل المعيار في التعرف على الإثم والخير هو انشراح الصدر وانقباضه، فما انشרכת له النفس ولم يكره صاحبه أن يطلع الناس عليه دل ذلك على حسنه، وما ترددت فيه وكره صاحبه اطلاع الناس عليه دل على قبحه.

قال النواس بن سمعان^(١) رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٢).

(١) النواس بن سمعان بن خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة الكلابي. (الوفاة: ٤١ - ٥٠ هـ) معدود في الشاميين، يقال: إن أباه سمعان بن خالد وفد على النبي ﷺ فدعا له رسول الله ﷺ، وأعطاه نعليه، فقبلهما رسول الله ﷺ وزوجه أخته. فلما دخلت على النبي ﷺ تعوذت منه فتركها، وهي الكلابية روى عن النواس بن سمعان جبير بن نفير، ونفير بن عبد الله، وجماعة. (تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٨٠).

(٢) المسند الصحيح المختصر المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ج/٤/ص ١٩٨٠).

المطلب الأول: التعريف العام للفطرة:

الفطرة: (هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها وعلى محبة الخير وإيثاره وكرهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب إليه) (١) قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي رُبِّتَ عَلَيْهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه، وإقباله عليه، أي مائلاً إليه مستقيماً عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة فإن من اهتم بالشيء عند عليه طرفه وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه مقبلاً عليه (٣).

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِةِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحٌ مِثْنَى وَوَلْتَكُ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها، وقال ابن عباس: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي بديع السماوات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض: فهو خالق السماوات والأرض (٥).

الفطرة: (هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها وعلى محبة الخير وإيثاره وكرهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب وقيل هي: الخلقة المتهيئة لقبول الدين، وقيل هي: ما ركب الله في الإنسان من قوته على معرفة الإيمان، والكل يؤدي لمعنى واحد فبالجمع والتلخيص نستطيع أن نقول أن الفطرة هي: الطبيعة الداخلية أو الاستعداد الداخلي الذي خلقه الله عز وجل في الإنسان لمعرفة الحق وقبوله ومعرفة

(١) كتاب القول السديد (ج ١/ص ٦٢). المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)،

الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ

(٢) سورة الروم: ٣٠

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى:

١٣٠٧هـ)، عني بطبعه وقدم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت،

عام النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، (ج ١٠/ص ٢٤٥).

محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيب: من رجال النهضة الإسلامية المجددين. ولد ونشأ في قنوج (بالهند) وتعلم في دهلي. وسافر إلى بهوپال طلباً للمعيشة، ففاز بثروة وافرة، قال في ترجمة نفسه: (ألقى عصا الترحال في محروسة بهوپال، فأقام بها وتوطن وتمول، واستوزر وناب، وألف وصنف) وتزوج بملكة بهوپال، ولقب بنواب عالي الجاه أمير الملك بهادر. له نيف وستون مصنفاً بالعربية والفارسية والهندسية. وكانت وفاته كانت ليلة ٢٩ جمادى الثانية ١٣٠٧هـ وهي توافق ٢٠ فبراير ١٨٩٠. (إيضاح المكنون ١: ١٠).

(٤) سورة فاطر: ١

(٥) مختصر تفسير بن كثير (ج ٢/ص ١٣٨).

الباطل ورفضه، فالفطرة تقود الإنسان إلى الإيمان بوجود الله جل وعلا ومعرفته وتوحيده والاستسلام له سبحانه وتعالى وهذا هو الإسلام، إذا فالإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها منذ آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة.. . لأننا كما قلنا أن الإسلام هو دين الله جل وعلا الذي أنزله لجميع البشر.. . فالفطرة أيضاً هي مخلوقة في جميع البشر لقبول هذا الدين.. . لكن منهم من سار عليها وقبل دين الله عز وجل، ومنهم من طمست فطرته فعبد غير الله وأشرك وأحد وما الدليل على ذلك ؟

الدليل على ذلك هو قول الله عز وجل ﴿ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ أي اتجه لهذا الدين المستقيم وتمسك به وكن مستقيماً على أمره وهذه هي ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ أي الطبيعة التي خلق الله عز وجل عليها الناس من معرفة الحق وتوجههم إليه وتمسكهم به ﴿ لا تبدل خلق ﴾ أي لا تبدل لهذه الخلقة التي خلق الناس عليها فإن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبل المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي هذا الذي أمرتك به هو الدين القيم أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) فنجد في هذه الآية أن الله عز وجل لما أمر بالتوجه لهذا الدين ومعرفته والتمسك به بين سبحانه وتعالى أن هذه هي الفطرة التي خلقها في الناس فربط سبحانه وتعالى بين الفطرة وطبيعة هذا الدين، فالدين موافق للفطرة، والفطرة متوافقة مع هذا الدين، لأن كلاهما من صنع الله جل وعلا، فالذي خلق القلب وجعل فيه هذه الفطرة التي تقوده إلى معرفة الحق وقبوله هو الذي أنزل هذا الدين الذي هو دين الحق وأمرنا بقبوله وإتباعه.

ومن الأدلة أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِ الْبُهَيْمَةُ بِبُهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تَحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ)) (٢).

قوله: ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ)) يفيد الحصر.. . أي أنه لا يوجد مولود على وجه الأرض منذ أن خلق الله آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة ((إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ)) ثم بعد ذلك، ((فَأَبَوَاهُ

(١) سورة الروم: ٣٠

(٢) الكتاب: الجامع المسند الصحيح المختصر = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ (ج ٢/ص ٩٤).

يُهوِّدَانِهِ أَوْ يُنْصِرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ) أي يطمسوا هذه الفطرة التي هي الإسلام فيهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، ثم ضرب ﷺ مثلاً لذلك فقال ((كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ)) أي ما يفعله الناس من طمس الفطرة التي فطر الناس عليها عند أولادهم هو تماماً كما تلد البهيمة بهيمة كاملة صحيحة وسليمة كما خلقها الله عز وجل ثم يأتي أحد الناس فيقطع أذنها أو يبتتر أنفها أو ذيلها إذاً فالإسلام هو دين الفطرة ومن خالفه فقد خالف فطرة الله التي فطر الناس عليها.

لقد اختار الله لهذه الأمة الفطرة النقية، وجعلها أخص خصائص دينها، وهدى نبيها ﷺ إلى الفطرة، ففي حديث الإسراء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((حين أسري بي لقيت موسى قال فنعتته فإذا رجل مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى قال فنعتته قال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس يعني الحمام ورأيت إبراهيم قال وأنا أشبه ولده به قال وأتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر خمر فقبل لي خذ أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقبل لي هديت للفطرة أو أصبت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك))^(١).

(١) المسند الصحيح المختصر المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت ٥ (ج ١/ص ١٥٤).

المطلب الثاني: الفطرة في عبادة الله وتوحيده:

الإنسان بفطرته منذ ولادته يتجه إلى التوحيد الخالص وإلى عبادة الله تعالى وحده، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(١)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، حَتَّى يُعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، فَإِذَا أُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ، إِمَّا شَاكِرًا، وَإِمَّا كَفُورًا»^(٢).

وها هو الخليل إبراهيم عليه السلام يضرب لنا مثلا رائعا في أن الفطرة السليمة تتجه إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزْرَأُتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰ أَرْكَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْأَفْلِينَ * فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى ٱلسَّمَاءَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّمُ ٱلْإِنِّي بِرِيءٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) أي واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين لقناك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم- قصص جدهم إبراهيم الذي يبجلونه ويدعون اتباع ملته حين جادل قومه وراجعهم في باطل ما كانوا يعملون، إذ قال لأبيه أزر منكرا عليه وعلى قومه شركهم وعائبا عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه، يا أزر أتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك وخلقها؟ فهو المستحق للعبادة دونها.

﴿إِنِّي أَرَىٰ أَرْكَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك، في ضلال عن الصراط المستقيم، مبين لا شبهة فيه للهدى، فإن هذه الأصنام تماثيل تتحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب، أو تصنعونها من المعادن، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا، ولم تكن آلهة بذاتها بل باتخاذكم إياها ولا يليق العاقل أن يعبد ما هو مساو له في الخلق، ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه، ومحتاج

(١) جابر بن عبد الله (٧٨ هـ) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، الأنصاري السلمي من بني سلمة، يكنى أبا عبد الله. كان من المكثرين الحفاظ للسنن، روى علما كثيرا عن النبي ﷺ، وعن أبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيدة ومعاذ بن جبل والزبير وطانفة. كان مفتي المدينة في زمانه، وكان من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتا. مات سنة ثمان وسبعين، وهو ابن أربع وتسعين سنة، وكان قد ذهب بصره رضي الله عنه. (سير أعلام النبلاء للذهبي مؤسسة الرسالة ج ٣ - ص ١٨٩). و(تاريخ ابن عسكرا ٣ / ٣١١).

(٢) المسند الجامع حققه ورتبه وضبط نصه: محمود محمد خليل، الناشر: دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، (ج٤/ص٤٠٤) رقم الحديث (٢١٤٦)، وأخرجه أحمد (٣/٣٥٣)(٤٨٦٥).

(٣) سورة الأنعام: ٧٤-٧٩

إلى الغنى القادر، ولا يقدر على نفع ولا ضرر، ولا إعطاء ولا منع.

والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى لخاتم أنبيائه: "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ" وقولك لمن تراه منحرفاً عن الطريق الذي يسلكه: إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضالٌّ عنه.

وقد دلت آثار الكشف الحديث في العراق على صدق ما عرف في التاريخ من عبادة أولئك القوم للأصنام الكثيرة حتى كان لكل منهم صم للعبادة خاص به، سواء في ذلك الملوك والسوقة، وكانوا يعبدون الفلك والنيرّات من الكواكب عامة والدراري السبع خاصة^(١).

هذا ما نطق به لسان الفطرة عندما سئل الأعرابي عن الدليل وجود الله فقال: البعرة تدل على البعير. والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟، قال سبحانه: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٢) ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك: من خلقهم؟ ليقولنَّ: الله خلقنا. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ فأبي وجه يصرفون عن عبادة الذي خلقهم، ويحرمون إصابة الحق في عبادته^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾^(٤) فلما رأت هذه الأمم المكذبة رسلها بأسنا، يعني عقاب الله الذي وعدتهم به رسلهم قد حلّ بهم. قالوا: أقررنا بتوحيد الله، وصدقنا أنه لا آله غيره ﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ يقول: وجدنا الآلهة التي كنا قبل وقتنا هذا نشركها في عبادتنا الله ونعبدها معه، ونتخذها آلهة، فبرئنا منها^(٥).

(١) تفسير المراغي (ج ٧ - ص ١٦٩). المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

أحمد بن مصطفى المراغي: مفسر مصري، من العلماء. تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩ ثم كان مدرّس الشريعة الإسلامية بها. وولي نظارة بعض المدارس. وعين أستاذاً للعبية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم. وتوفي بالقاهرة. له كتب، منها (الحسبة في الإسلام - ط) رسالة، و(الوجيز في أصول الفقه - ط) مجلدان، و(تفسير المراغي - ط) ثمانية مجلدات، و(علوم البلاغة - ط) (الأعلام للزركشي (ج ١ - ص ٢٥٨).

(٢) سورة الزخرف: ٨٧

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢١ - ص ٦٥٥).

(٤) سورة غافر: ٨٤

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢١ - ص ٤٢٣).

وَعَنْ شَرِيكَ (١) بَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ (٢) يَقُولُ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَكِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَكِيُّ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ أَجَبْتُكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمُشِدُّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدُ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ، فَقَالَ: سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ، فَقَالَ: أَسَأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخُمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: اللَّهُ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: اللَّهُ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَعْيَانِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَيَّ فَقَرَأْنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللَّهُ نَعَمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامٌ بِنُ ثَعْلَبَةَ (٣)، أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ (٤)».

الفطرة في الدعاء:

ويتجلى ذلك إذا ما نزل بالإنسان كرب أو حل به مكروه، فيلجأ بقلبه خاشعاً إلى السماء سائلاً رب السماء أن ينجيه منها ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ (٥) نبه تعالى إنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه (٦).

(١) شريك بن عبد الله القاضي (١٧٧ هـ): شريك بن عبد الله بن أبي شريك العلامة الحافظ القاضي أبو عبد الله النخعي الكوفي أحد الأعلام. أدرك زمان عمر بن عبد العزيز. روى عن جامع ابن شداد وسماك بن حرب وسليمان الأعمش وسلمة بن كهيل وطائفة. روى عنه يحيى القطان وعبد الله بن المبارك وعبد الرحمن بن مهدي وابنه عبد الرحمن وآخرون. توفي سنة سبع وسبعين ومائة. البداية والنهاية (١٠/١٧٧)

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضَمَمِ الْأَنْصَارِيِّ، ابْنُ زَيْدِ بْنِ حَرَامِ بْنِ جُنْدَبِ بْنِ عَامِرِ بْنِ غَنَمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ. الْإِمَامُ، الْمُفْتِي، الْمُفَرِّقُ، الْمُحَدِّثُ، رَاوِيَةُ الْإِسْلَامِ، أَبُو حَمْرَةَ الْأَنْصَارِيُّ، الْخَزْرَجِيُّ، النَّجَّارِيُّ، الْمَدَنِيُّ، خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَرَابَتُهُ مِنَ النِّسَاءِ، وَتَلْمِيزُهُ، وَتَبِعُهُ، وَآخِرُ أَصْحَابِهِ مَوْتًا. رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ عُلْمًا جَمًّا، وَعَنْ: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَمُعَاذٍ، دَعَا لَهُ النَّبِيُّ بِالْبُرْكَ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ، قَالَ فَوَاللَّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي يَتَعَاثُونَ عَلَيَّ نَحْوَ مِنْ مِائَةِ الْيَوْمِ. البداية والنهاية (٩/٨٨ - ٩٢)

(٣) ضمام بن ثعلبة السعدي من بني سعد بن بكر. وقع ذكره في حديث أنس في الصحيحين، وكان عمر بن الخطاب يقول: ما رأيت أحدا أحسن مسألة، ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة. قال البيهقي: كان يسكن الكوفة، وذكر ابن هشام أن قدمه كان سنة تسع. (تجريد أسماء الصحابة ١/٢٧٢)

(٤) الجامع المسند الصحيح من صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ باب ما جاء في العلم. وقوله تعالى: ﴿وقل رب زدني علما﴾ (ج ١ - ص ٢٣ - رقم الحديث ٦٣).

(٥) سورة النمل: ٦٢

(٦) مختصر تفسير ابن كثير (ج ٢/ص ٦٧٨).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَبْتُمْ بِهِم رِيحَ طَبِيبَةٍ وَقَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أُنجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١) هو الذي يسيركم -أيها الناس- في البر على الدواب وغيرها، وفي البحر في السفن، حتى إذا كنتم فيها وجرت بريح طيبة، وفرح ركاب السفن بالريح الطيبة، جاءت هذه السفن ریح شديدة، وجاء الركاب الموج (وهو ما ارتفع من الماء) من كل مكان، وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، أخلصوا الدعاء لله وحده، وتركوا ما كانوا يعبدون، وقالوا: لئن أنجيتنا من هذه الشدة التي نحن فيها ل نكونن من الشاكرين لك على نعمك (٢).

ومهما غطت العوارض هذه الفطرة فلا بد أن تبرز عند الشدائد، حتى إن فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿وَجَوْزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَنْبَعَثَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣). ولكبريائه لم يقل لا إله إلا الله ولو قالها لتاب الله عليه فأنجاه بل قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وهو يعرف أنه الله. وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ مبالغة في طلب النجاة من الغرق بالتوبة حيث أعلن أنه من المسلمين أي المستسلمين المنقادين لأمره. فرد الله تعالى بقوله: ﴿ءَأَلْتَنَ﴾ أي وقت التوبة والإسلام بعد الإيمان، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ وتمردت على الله وشرعه وكفرت به وبرسوله ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤) للبلاد والعباد بالظلم والشر والفساد (٥).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغَيِّرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَتَسَمَّعُ الْأَذَانَ، فَإِن سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ، وَإِلَّا أَغَارَ، فَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَى الْفِطْرَةِ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خَرَجْتَ

(١) سورة يونس: ٢٢-٢٣

(٢) التفسير الميسر (ج ١/ص ٢١١).

(٣) سورة يونس: ٩٠

(٤) سورة يونس: ٩١

(٥) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للجزائري (ج ٢ - ص ٥٠٥).

مِنَ النَّارِ. فَانظُرُوا فَإِذَا هُوَ رَاعِي مِعْرَىٍّ» (١).

وعن البراء بن عازب (٢)، قال: قال النبي ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسَلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَالْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: لَا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» (٣).

(١) خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي المحقق: حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، الناشر: مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، كتاب الأذان، باب ابتدائه وفضله (ج ١ / ص ٢٧٦ / رقم الحديث (٧٧٨)).

النووي هو الإمام أبو زكريا، محيي الدين، يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام، النووي، ثم الدمشقي، كان مولده رحمه الله في شهر المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة من الهجرة، بنوى، بدمشق. قدم به والده إلى دمشق وعمره تسعة عشرة سنة، حيث بدأ رحلته في طلب العلم. برع في شتى صنوف العلم، من فقه وحديث ولغة. وهو من كبار محققي المذهب الشافعي، توفي رحمه الله ليلة الأربعاء، الثالث الأخير من الليل، ٢٤/رجب/٦٧٦هـ، بنوى، ودُفن بها صبيحة الليلة المذكورة ((البداية والنهاية (١٣/ ٢٩٤)).

(٢) البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الحارثي، الفقيه الكبير، أبو عمارة الأنصاري، الحارثي، المدني، نزيل الكوفة، من أعيان الصحابة. روى حديثاً كثيراً، وشهد غزوات كثيرة مع النبي ﷺ واستصغر يوم بدر، وقال: كنت أنا وابن عمري لذة، وفني سنة اثنتين وسبعين. وقيل: توفي سنة إحدى وسبعين، عن بضع وثمانين سنة. (سير أعلام النبلاء للذهبي مؤسسة الرسالة ج ٣ - ص ١٩٤).

(٣) الجامع المسند الصحيح من صحيح البخاري (كتاب الدعوات - باب إذا بات طاهراً وفضله، (ج ٨ - ص ٦٨ - رقم الحديث (٦٣١١)).

المطلب الثالث: الفطرة في التصديق بدعوة النبي ﷺ:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ (١) قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَنْجَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَلَمَّا اسْتَنْتَبْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامًا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (٢).

وأيضاً قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي (٣): وهو من دوس زهران، من السراة سمع بالرسول ﷺ في مكة، فركب جملة، وأخذ متاعه، ولبس ثيابه، وكان الطفيل شاعراً مجيداً، وخطيباً فصيحاً، يعرف جزل الكلام من ضعيفة. وصل إلى مكة، ولكن الدعايات المغرضة ضد الرسول ﷺ تتحرك من المشركين لتثويبه سمعة المصطفى ﷺ بالقول المريض، والتعليقات المرة. دخل مكة، فلقية كفار قريش. فقالوا: إلى أين يا طفيل؟ قال: أريد هذا الذي يزعم أنه نبي قالوا: ما أشبه ذلك تريد؟

قال: أريد أن اسمع كلامه، إن كان حقا أتبعته، وإن كان باطلا تركته. قالوا: إياك وإياه، إنه ساحر، انه شاعر، انه كاهن، انه مجنون، أحمز لا تسمع كلامه. قال الطفيل: فوالله، ما زالوا بي يخوفونني حتى أخذت القطن فوضعت في أذني. لكن الحق أقوى من القطن، والقران ينفذ من خلال القطن إلى القلب. قال: ودخلت الحرم يوماً، والقطن في أذني لا اسمع شيئاً. لكن أراد الله عز وجل أن يفتح أذنيه؛ لأن بعض الناس له أذنان وعينان وقلب، لكن كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ طَهُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (٤) أي: أنشأنا وبنشنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ طَهُم﴾

(١) عبد الله بن سلام (٤٣ هـ): عبد الله بن سلام بن الحارث، أبو يوسف الإسرائيلي الأنصاري، من ذرية يوسف النبي عليه السلام، أسلم وصحب النبي ﷺ، وشهد له بالجنة. فقال رسول الله ﷺ: "يموت عبد الله وهو أخذ بالعروة الوثقى". ومناقبه كثيرة، توفي سنة ثلاث وأربعين. وتهذيب الكمال (١٥/٧٤ - ٧٥).

(٢) سنن ابن ماجه (باب ما جاء في قيام الليل - ج ١ - ص ٤٢٣ - رقم الحديث ١٣٣٤).

ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني: الحافظ الكبير الحجة، المفسر، مصنف "السنن"، و"التاريخ" و"التفسير"، وحافظ قزوين في عصره هو ثقة كبير، متفق عليه، محتج به، له معرفة بالحديث، ارتحل إلى العراق، ومكة والشام، ومصر والري لكتابة الحديث. ولد سنة تسع ومائتين. ومات في رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وعاش أربعاً وستين سنة. (تهذيب الكمال (٢٧/٤٠ - ٤٢) والسير (١٣/٢٧٧ - ٢٨١).

(٣) الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِو الدُّوسِيِّ الأَزْدِيُّ (المتوفى: ١٢ هـ) كَانَ يُسَمَّى ذَا الطُّفَيْتَيْنِ، أَسْلَمَ بِمَكَّةَ وَرَجَعَ إِلَى بِلَادِ قَوْمِهِ. ثُمَّ وَافَى النَّبِيَّ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ، وَفِي الْفَتْحِ. وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَعَزَا الْيَمَامَةَ فَاسْتَشْهَدَ وَأَبْنَاهُ. وَكَانَ شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا اسْتَشْهَدَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ. ابن هشام (١/٨١، ٣٨٢، ٣٨٥).

(٤) سورة الأعراف: ١٧٩

صارت البهائم أحسن حالة منهم، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقهه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها، ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا تَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعا يصل معناه إلى قلوبهم، ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان، تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالا منهم.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره. خلقت لهم الأفئدة والاسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون، وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء، أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون^(١).

قال أتى فرأى وجه الرسول ﷺ، فقال: فلما رأيت وجهه عرفت انه ليس بوجه كذاب.

لو لم تكن فيه آيات مبينة *** لكن منظره ينبئك بالخير

وجه الكذاب تعرفه، ووجه الخمار تعرفه، ووجه تارك الصلاة تعرفه، وهكذا وجه المصلي والصادق تعرفه، وأصدق الصادقين وخير الناس أجمعين: محمد ﷺ. قال الطفيل: فسمعتة ﷺ يقرأ، لكن لا اسمع؛ لأن في أذني القطن، فقلت لنفسي: عجا لي، أنا رجل شاعر فصيح، اعرف حسن الكلام من قبيحه، لماذا لا أضع القطن، فإن سمعت الكلام طيباً وإلا تركته؟! فوضع القطن، وهذه هي الخطوة الأولى. وبدأ ﷺ يقرأ آيات القرآن، فلما سمع الكلام وقع في قلبه، هل يستطيع ملحد، إن كان عنده عقل أن يسمع ﴿طه﴾ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢﴾ ولا يؤمن؟ من يستطيع أن يسمع ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٣٠٩).

(٢) سورة طه: ١-٣

مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١﴾ ولا يسلم ؟ قال: فلما سمعت الكلام، تقدمت، وقلت: عم صباحا، يا أخا العرب، هذه تحية جاهلية، وهي ملغاة عند محمد ﷺ، فلا تقبل، وقد كانت تقال في الجاهلية: عم صباحا، فقال ﷺ: ((أبدلني الله بتحية خير من تحيتك)). قال: وما هي؟ قال: وما هي؟ قال: ((السلام عليكم ورحمة الله)). ما أحسن الكلام! فقال: السلام عليكم. فرد عليه. قال: من أنت؟ قال: ((أنا رسول الله)). قال: من أرسلك؟ قال: ((الله)). فقال الطفيل: إلى ماذا تدعو؟ فأخبره وقرا عليه شيئا من القرآن.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ثم قال: يا رسول الله، أنا من دوس (هو سيد قبيلة دوس). فأمره ﷺ أن يعود داعية إليهم. فعاد داعية إلى دوس؛ فلما وصل إليهم قال: هدمي من هدمكم حرام، ودمي من دمكم حرام، حتى تؤمنوا بالله، فكفروا، وأعرضوا، وغلّبهم الزنا.

فأتى مرة ثانية إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، غلب على دوس الزنا، وكفروا بالله، فادع الله عليهم يا رسول الله، أي أن يسحقهم ويحطمهم ويجعلهم شذر مذر. لكن محمدا ﷺ كان كما قال الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٣﴾ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٤﴾.

فرفع يديه ﷺ، يريد أن يدعو لهم، فظن الطفيل انه يدعو عليهم. فقال الطفيل: هلكت دوس. فقال ﷺ: ((اللهم اهد دوسا وائت بهم، اللهم اهد دوسا وائت بهم، اللهم اهد دوسا وائت بهم)). ثم قال: ((يا طفيل، اذهب إلى دوس، فادعهم إلى الإسلام، ومن ألم معك، فقاتل به من كفر)) فذهب، وطلب من الرسول ﷺ أن يجعل له آية. فسأل له فوقع نور في جبهته يضيء له في الليل.

قال: يا رسول الله، أخشى أن يقولوا: في مثلة (أي: مرض) فادع الله أن يحول عني هذا النور، فحوله إلى العصاء، فكان إذا رفع العصا أضاعت له جبال زهران. فلما وصلهم، كانوا قد تهيؤوا بدعاء الرسول ﷺ، فقال: ((أدعوكم إلى لا إله إلا الله

(١) سورة ق: ١-٢

(٢) سورة القلم: ٤

(٣) سورة آل عمران: ٥٩

(٤) سورة التوبة: ١٢٨

محمد رسول الله»، ثم أراهم الآية فاسلموا جميعا ودخلوا في دين الله أفواجا، فسبحان من يهدي. وأتى بهم، رضي الله عنه وأرضاه، في موكب عظيم، ودخل بهم بعد الهجرة إلى المدينة في جيش عرمرم، حتى ثار الغبار من رؤوسهم، وكلهم في ميزان الطفيل. وكان من حسناته: أبو هريرة، صاحب الحديث، وأستاذ المحدثين في الإسلام، وابر حافظ في الأمة المحمدية، والراوي العملاق، رضي الله عنه وأرضاه. واستمر الطفيل يدعو، ويجاهد، وكان قد باع نفسه من الله، حتى قتل في اليمامة شهيدا ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخِلِي جَنَّتِي﴾ (١)(٢) يا أيتها النفس المطمئنة إلى ذكر الله والإيمان به، وبما أعدّه من النعيم للمؤمنين، ارجعي إلى ربك راضية بإكرام الله لك، والله سبحانه قد رضي عنك، فادخلي في عداد عباد الله الصالحين، وادخلي معهم جنتي.

(١) سورة الفجر: ٢٧-٣٠

(٢) الفجر: ٣٠.

المطلب الرابع: الفطرة في يسر الإسلام وسماحته:

الإسلام دين الفطرة، ودين السلام والأمان، والبشرية لن تجد الراحة، ولن تحقق السعادة إلا بالأخذ بالإسلام، وتطبيقه في شتى الشؤون، ومما يؤكد عظمة دين الإسلام، ما يتميز به من خصائص لا توجد في غيره من المذاهب والأديان.

ومن تلك الخصائص التي تثبت تميز الإسلام، ومدى حاجة الناس إليه نخلص إلى ما يلي:

(١) أنه جاء من عند الله: والله عز وجل أعلم بما يصلح عباده، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١) ألا يعلم رب العالمين خلقه وشؤونهم، وهو الذي خلقهم وأتقن خلقهم وأحسنه؟ وهو اللطيف بعباده، الخبير بهم وبأعمالهم.

(٢) أنه يعتني بالعقل ويأمر بالتفكير: ويذم الجهل، والتقليد الأعمى، والغفلة عن التفكير السليم، قال تعالى: ﴿أَمْ نَهَوْنَا أَنْ نَآلِيَ سَاجِدًا أَوْ قَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢) هل يستوي الذين يعلمون ربهم ودينهم الحق والذين لا يعلمون شيئاً من ذلك؟ لا يستوون. إنما يتذكر ويعرف الفرق أصحاب العقول السليمة.

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة: فهو كامل في عقيدته وشرائعه؛ فليس ديناً فكرياً فحسب، أو خاطرة تمر بالذهن، بل هو كامل في كل شيء، مشتمل على العقائد الصحيحة، والمعاملات الحكيمة، والأخلاق الجميلة، والسلوك المنضبط؛ فهو دين فرد وجماعة، ودين آخرة وأولى.

(٤) أنه يعتني بالعواطف الإنسانية ويوجهها الوجهة الصحيحة التي تجعلها أداة خير وتعمير.

(٥) أنه دين العدل سواء مع العدو أو الصديق أو القريب أو البعيد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) فنجد دلالة واضحة في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف في حقه بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده

(١) سورة الملك: ١٤

(٢) سورة الزمر: ٩

(٣) سورة النحل: ٩٠

بإعطاء كل ذي حق حقه، ويأمر بالإحسان في حقه بعبادته وأداء فرائضه على الوجه المشروع، وإلى الخلق في الأقوال والأفعال، ويأمر بإعطاء ذوي القرابة ما به صلتهم وبرُّهم، وينهى عن كل ما قُبِحَ قولاً أو عملاً و عما ينكره الشرع ولا يرضاه من الكفر والمعاصي، وعن ظلم الناس والتعدي عليهم، والله -بهذا الأمر وهذا النهي- يعظكم ويذكركم العواقب؛ لكي تتذكروا أوامر الله وتتفعلوا بها^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاتُكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) وإذا قلتم فتحرروا في قولكم العدل دون ميل عن الحق في خبر أو شهادة أو حكم أو شفاعة، ولو كان الذي تعلق به القول ذا قرابة منكم، فلا تميلوا معه بغير حق، وأوفوا بما عهد الله به إليكم من الالتزام بشريعته. ذلكم المتلوه عليكم من الأحكام، وصاتكم به ربكم؛ رجاء أن تتذكروا عاقبة أمركم^(٣).

٦) الإسلام دين الأخوة الصادقة: فالمسلمون إخوة في الدين، لا تفرقهم البلاد، ولا الجنس، ولا اللون، فلا طبقية في الإسلام، ولا عنصرية، ولا عصبية لجنس أو لون أو عرق، ومعيار التفاضل في الإسلام إنما يكون بالتقوى.

٧) الإسلام دين العلم: فالعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم يرفع صاحبه إلى أعلى الدرجات، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَّحُوا يَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٤) يرفع الله مكانة المؤمنين المخلصين منكم، ويرفع مكانة أهل العلم درجات كثيرة في الثواب ومراتب الرضوان، والله تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها، وفي الآية تنويه بمكانة العلماء وفضلهم، ورفع درجاتهم.

٨) أن الله تكفل لمن أخذ بالإسلام وطبقه بالسعادة، والعزة، والنصرة فرداً كان أم جماعة:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

(١) التفسير الميسر (ج ١/ص ٢٧٧).

(٢) سورة الأنعام: ١٥٢.

(٣) التفسير الميسر (ج ١/ص ١٤٩).

(٤) سورة المجادلة: ١١.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾ نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قاله مالك. وقيل: إن سبب هذه الآية أن بعض أصحاب النبي ﷺ شكوا جهد مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم (٢) فوعد الله بالنصر الذين آمنوا منكم وعملوا الأعمال الصالحة، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها، مثلما فعل مع أسلافهم من المؤمنين بالله ورسوله، وأن يجعل دينهم الذي ارتضاه لهم - وهو الإسلام - ديناً عزيزاً مكيناً، وأن يبدل حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله وحده، واستقاموا على طاعته، ولم يشركوا معه شيئاً، ومن كفر بعد ذلك الاستخلاف والأمن والتمكين والسلطنة التامة، وجدد نعم الله، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله.

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) في الدنيا بطيب الحياة وهدوء البال، وانسراح الصدر وفي الآخرة ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء خيراً مما عملوا (٤).

٩) في الإسلام حل لجميع المشكلات: لاشتمال شريعته وأصولها على أحكام ما لا ينتاهي من الوقائع قال تعالى ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٥).

١٠) أن شريعته أحكم ما تساس به الأمم: وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح، أو التنازع في الحقوق.

١١) الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، وأمة وحال، بل لا تصلح الدنيا بغيره: ولهذا كلما تقدمت العصور، وترقت الأمم ظهر برهان جديد على صحة الإسلام، ورفعة شأنه.

١٢) الإسلام دين المحبة، والاجتماع، والألفة، والرحمة: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ يُوْسُفَ، قَالَ:

(١) سورة النور: ٥٥

(٢) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م (ج ١٢/ص ٢٩٧).

(٣) سورة النحل: ٩٧

(٤) أوضح التفسير، المؤلف: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ)، الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة: السادسة، رمضان ١٣٨٣هـ - فبراير ١٩٦٤م، (ج ١/ص ٣٣٢).

(٥) سورة الأنعام: ٣٨

حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنِ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ (١)، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى» (٢).

حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي قَابُوسَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ (٣)، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَالرَّحْمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، مَنْ وَصَلَهَا، وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا، بَتَّتَهُ» (٤).

١٣) الإسلام دين الحزم والجد والعمل: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الطَّنَافِسِيُّ قَالَا: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزُ، فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحُ عَمَلُ الشَّيْطَانِ» (٥).

١٤) الإسلام أبعد ما يكون عن التناقض قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

(١) النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ بنِ سَعْدِ بْنِ تَعَلْبَةَ الْأَنْصَارِيِّ، الْأَمِيرُ، الْعَالِمُ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبْنُ صَاحِبِهِ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، ابْنُ أُخْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ. (مُسْنَدُهُ): مائة وأربعة عشر حديثاً. اتَّفَقَا لَهُ عَلَى خَمْسَةِ، وَأَنْفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِحَدِيثٍ، وَمُسْلِمٌ بِأَرْبَعَةٍ. شَهِدَ أَبُوهُ بَدْرًا. وَوَلِدَ النُّعْمَانُ: سَنَةَ اثْنَتَيْنِ؛ وَسَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَدَّ مِنَ الصَّحَابَةِ الصَّيِّبَانَ بِاتِّفَاقٍ. قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَوُلِدَ عَامَ الْهَجْرَةِ. قَالَ سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ: كَانَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ - وَاللَّهُ - مِنْ أَخْطَبٍ مَنْ سَمِعَتْ. قِيلَ: إِنَّ النُّعْمَانَ لَمَّا دَعَا أَهْلَ حِمَاصٍ إِلَى بَيْعَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، ذَبَحُوهُ. وَقِيلَ: قُتِلَ بِقَرْيَةِ بَيْرِينَ، قَتَلَهُ خَالِدُ بْنُ خَلْفَةَ بَعْدَ وَقْعَةِ مَرَجٍ رَاطِطٍ، فِي آخِرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (البداية والنهاية ٨ / ٢٤٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، باب النعمان بن بشير (ج ٣٠ - ص ٣٣٠ - رقم الحديث ١٨٣٨٠).

أحمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المزوزي ولد في بغداد سنة ٧٨٠هـ وتقل بين الحجاز واليمن ودمشق. سمع من كبار المحدثين ونال قسطاً وافراً من العلم والمعرفة، وقف في وجه حملة تحريف الدين الإسلامي وفي وجه المعتزلة وتخبطهم في علوم وخفايا الدين وقفة عظيمة. وقد صمد الإمام بالرغم من التعذيب والضرب بالسياط والحبس والملاحقة والإغراء. توفي الإمام يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومائتين للهجرة، وله من العمر سبع وسبعون سنة. (البداية والنهاية ١٠ / ٣٤٠ - ٣٥٨) والسير (١١ / ١٧٧ - ٣٥٨).

(٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، ابْنُ هَاشِمِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ هُصَيْنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ. الْإِمَامُ، الْحَبْرُ، الْعَابِدُ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبْنُ صَاحِبِهِ، أَبُو مُحَمَّدٍ. وَقَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ أَبِيهِ - فِيمَا بَلَّغْنَا، وَلَهُ: مَنَاقِبُ، وَقَضَائِلُ، وَمَقَامٌ رَاسِخٌ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، حَمَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمًا جَمًّا. يَبْلُغُ مَا أَسْنَدَ: سِتْعَ مِائَةِ حَدِيثٍ، اتَّفَقَا لَهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحَادِيثَ، وَأَنْفَرَدَ الْبُخَارِيُّ بِثَمَانِيَةٍ، وَمُسْلِمٌ بِعَشْرِينَ. وَكَتَبَ الْكَثِيرَ بِإِذْنِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَرَخِيصَهُ لَهُ فِي الْكِتَابَةِ بَعْدَ كَرَاهِيَّتِهِ لِلصَّحَابَةِ أَنْ يَكْتُبُوا عَنْهُ سِوَى الْقُرْآنِ، وَسَوَّغَ ذَلِكَ ﷺ. ثُمَّ أُنْعَقَ الْإِجْمَاعُ بَعْدَ اخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى الْجَوَازِ وَالِاسْتِحْبَابِ لِتَقْيِيدِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابَةِ. (التذكرة: ٣٩٤٣٠، التقريب: ٣٤٩٩).

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج ١١/ص ٣٣).

(٥) سنن ابن ماجه المؤلف: ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية (ج ١/ص ٣١).

لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿١﴾ أفلا ينظر هؤلاء في القرآن، وما جاء به من الحق، نظر تأمل وتدبر، حيث جاء على نسق محكم يقطع بأنه من عند الله وحده ولو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (٢).

١٥) أنه يحمي معتنقيه من الفوضى والضياع والتخبط، ويكفل لهم الراحة النفسية والفكرية.
١٦) الإسلام واضح ميسور، وسهل الفهم لكل أحد، ودين مفتوح لا يغلق في وجه من يريد الدخول فيه.

١٧) الإسلام يرتقي بالعقول، والعلوم، والنفوس، والأخلاق: فأهله المتمسكون به حق التمسك هم خير الناس، وأعدل الناس، وأزكى الناس.

١٨) الإسلام يدعو إلى حسن الأخلاق والأعمال: قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣) أي إذا أساء إليك مسيء فأحسن إليه. أو "ادفع بالتي هي أحسن": بالصبر عند الشدة، والكظم عند الغضب، والعفو عند القدرة، وبسبب إحسانك لمن أساء إليك: يصير الذي بينك وبينه عداوة؛ كالمصاحب المحب المخلص (٤).

١٩) الإسلام يحفظ العقول: ولهذا حرم الخمر، والمخدرات، وكل ما يؤدي إلى فساد العقل.
٢٠) الإسلام يحفظ الأموال: ولهذا حث على الأمانة، وأثنى على أهلها، ووعدهم بطيب العيش، ودخول الجنة، وحرمة السرقة، وتوعد فاعلها بالعقوبة، وشرع حد السرقة وهو قطع يد السارق؛ حتى لا يتجرأ أحد على سرقة الأموال؛ فإذا لم يرتدع خوفاً من عقاب الآخرة ارتدع خوفاً من قطع اليد.

ولهذا يعيش أهل البلاد التي تطبق حدود الشرع آمنون على أموالهم، بل إن قطع اليد قليل جداً؛ لقلّة من يسرق.

ثم إن قطع يد السارق فيه حكمة الزجر للسارق من معاودة السرقة، وردع أمثاله عن الإقدام عليها، وهكذا تحفظ الأموال في الإسلام.

٢١) الإسلام يحفظ الأنفس: ولهذا حرم قتل النفس بغير الحق، وعاقب قاتل النفس بغير

(١) سورة النساء: ٨٢

(٢) التفسير الميسر (ج ١/ص ٩١).

(٣) سورة فصلت: ٣٤

(٤) أوضح التفاسير الخطيب (ج ١/ص ٥٨٦).

الحق بأن يقتل.

ولأجل ذلك يقل القتل في بلاد المسلمين التي تطبق شرع الله ؛ فإذا علم الإنسان أنه إذا قتل شخصاً سيقتل به كف عن القتل، وارتاح الناس من شر المقاتلات.

٢٢) الإسلام يحفظ الصحة: فالإشارات إلى هذا المعنى كثيرة جداً سواء في القرآن أو السنة النبوية.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(١) قال العلماء: إن هذه الآية جمعت الطب كله؛ ذلك أن الاعتدال في الأكل والشرب من أعظم أسباب حفظ الصحة. ومن الإشارات لحفظ الصحة أن الإسلام حرم الخمر، ولا يخفى ما في الخمر من أضرار صحية كثيرة، فهي تضعف القلب، وتغري الكلى، وتمزق الكبد إلى غير ذلك من أضرارها المتنوعة.

ومن ذلك أن الإسلام حرم الفواحش من زناً ولواط، ولا يخفى ما فيهما من الأضرار الكثيرة ومنها الأضرار الصحية التي عرفت أكثر ما عرفت في هذا العصر من زهري، وسيلان، وهربس، وإيدز ونحوها.

ومن حفظ الإسلام للصحة أنه حرم لحم الخنزير، الذي عرف الآن أنه يولد في الجسم أدواءً كثيرة، ومن أخصها الدورة الوحيدة، والشعرة الحلزونية، وعملهما في الإنسان شديد، وكثيراً ما يكونان السبب في موته.

ومن الإشارات في هذا الصدد ما عرف من أسرار الضوء، وأنه يمنع من أمراض الأسنان، والأنف، بل هو من أهم الموانع للسل الرئوي ؛ إذ قال بعض الأطباء: إن أهم طريق لهذا المرض الفتاك هو الأنف، وإن أنوفاً تغسل خمس عشرة مرة لجديرة بأن لا تبقى فيها جراثيم هذا الداء الوبيل، ولذا كان هذا المرض في المسلمين قليلاً وفي الإفرنج كثيراً. والسبب أن المسلمين يتوضؤون للصلاة خمس مرات في اليوم، وفي كل وضوء يغسل المسلم أنفه مرة أو مرتين أو ثلاثاً.

٢٣) يتفق مع الحقائق العلمية: ولهذا لا يمكن أن تتعارض الحقائق العلمية الصحيحة مع النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة.

وإذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة

(١) سورة الأعراف: ٣١

لها، وإما أن يكون النص غير صريح في معارضته؛ لأن النص وحقائق العلم كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين.

ولقد قرر هذه القاعدة كثير من علماء المسلمين، بل لقد قررها كثير من الكتاب الغربيين المنصفين، ومنهم الكاتب الفرنسي المشهور (موريس بوكاي) في كتابه: (التوراة والإنجيل والقرآن) حيث بين في هذا الكتاب أن التوراة المحرفة، والإنجيل المحرف الموجودين اليوم يتعارضان مع الحقائق الفلكية لكثرة التحريف الواقع فيه، وفي الوقت نفسه سجل فيه هذا الكتاب شهادات معجزة وتفوق للقرآن الكريم سبق بها القرآن العلم الحديث^(١).

وكذلك فإن الفطرة تتجلى في هذا الدين في يسره وسماحته، وفي مخاطبته لكل جوانب النفس البشرية، بما يلبي حاجات الجسد والروح، ويخاطب العقل والعاطفة، لا يطغى جانب على جانب، تنزيل من حكيم حميد، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، إن هذا التوازن هو من أعظم خصائص هذا الدين، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضى الله عنه - قال جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوِّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

فهذا أتقى الخلق يرسم لنا الطريق السديد بالقيام بحق الجسد، والسمو بالروح بأنواع العبادة، فلا رهبانية تصطدم بحاجة الإنسان الطبيعية، ولا بهيمية تهبط به إلى حمأة إشباع اللذات والغرائز، لنتحقق بذلك السعادة، فتشرق الروح، وتطوف عوالم الملكوت، ويأخذ الجسد نصيبه من اللذات الغريزية باعتدال يضمن بقاءه، ويحقق مقاصد عمارة الأرض، ويطلق العقل قدراته، ويتحرر من قيود الخرافة والأوهام، فتفيض النفس طمأنينة وسكينة.

ثم إن هذه الفطرة تتجلى في ما شرعه الله من الحلال والحرام، فقد قال ربنا عزوجل:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣)

(١) كتاب إقامة الحجّة على العالمين بنبوّة خاتم النبيين / الدكتور جورج بوست الشهير (ج١/ص١٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (ج٧-ص٢ - رقم الحديث (٥٠٦٣).

(٣) سورة الأعراف: ١٥٧.

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِن مَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ (٢) الْمُجَاشِعِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمُ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا» (٣).

كان أبو داود السجستاني يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب - يعني " السنن " - جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث:

أحدها قوله ﷺ «(إنما الأعمال بالنيات)» (٤). والثاني قوله: «(من حسن المرء تركه ما لا يعنيه)» (٥). والثالث قوله: «(لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه)» (٦). والرابع قوله: «(الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهاة)» (٧). وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «(البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)» (٨).

وعن وابصة بن معبد (٩) رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «(جئت تسأل عن

(١) سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩

(٢) عياض بن حمار المجاشعي التميمي (الوفاة: ٥١ - ٦٠هـ) لَهُ صُحْبَةٌ وَنَزَلَ الْبُصْرَةَ، وَلَمَّا وَقَدَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَهْدَى لَهُ نَجِيْبَةً، فَقَالَ: " إِنَّا نُهَيْبْنَا أَنْ نَقْبَلَ زَيْدَ الْمُشْرِكِينَ "، فَلَمَّا اسْتَلَمَ قَبْلَهَا مِنْهُ. رَوَى عَنْهُ: الْعَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ الْعَدَوِيُّ، وَمُطَرِّفٌ، وَيَزِيدٌ، ابْنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ، وَالْحَسَنُ الْبُصْرِيُّ. وَهَلْ حَدِيثٌ طَوِيلٌ فِي " صَحِيحِ مُسْلِمٍ ". (تجريد أسماء الصحابة: ١ / الترجمة ٤٦٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢/٤) (١٧٦٢٣).

(٤) الجامع المسند (صحيح البخاري) (كتاب بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ - ج ١/ص ٦) وهو حديث صحيح مشهور، وأخرجه السنة من حديث عمر بن الخطاب.

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل - باب حديث الحسن بن علي (ج ٣/ص ٢٥٩) وهو حديث صحيح بشواهد ٨ أخرجه من حديث أبي هريرة الترمذي: (٢٣١٧)، وابن ماجه: (٣٩٧٦).

(٦) أخرجه البخاري من حديث أنس: في كتاب الإيمان: باب علامة الإيمان، (ج ١ / ص ٥٣ - ٥٤) ومسلم: (٤٥) في الإيمان: باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، والترمذي: (٢٥١٧)، والنسائي: ٨ / ١١٥، وابن ماجه: (٦٦).

(٧) سنن ابن ماجه (ج ٢/ص ١٣١٨).

(٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج ٢٩/ص ١٧٩) ورواه مسلم (ج ٤/ص ١٩٨٠).

(٩) وابصة بن معبد: بن عتبة بن الحارث بن مالك بن الحارث بن قيس بن كعب بن سعيد، وقد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة تسع، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن ابن مسعود، وأم قيس بنت محسن، وغيرهم. روى عنه ولده: سالم، وعمر، وزر بن حبيش، وشداد مولى عياض وراشد بن سعد، وزيد بن أبي الجعد، وغيرهم. (تهذيب التهذيب ٦ / ٦٦ وتهذيب الكمال ١٩ / ٣٥٠).

البرّ؟))، قلت: نعم، فقال: ((استفت قلبك، البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك المفتون))^(١).

فالفطرة هي المرأة صافية نظيفة ينطبع عليها الشيء الذي أمامه وهكذا طبيعة المرأة إنها تعكس ما أمامها، فلو أن دخاناً كثيفاً طمسها لغير صفاءها، وغير قابليتها للانعكاس وعندئذ يأتي الدليل، فالإيمان بالله عز وجل يمكن أن يكون عن طريق الفطرة السليمة، ويمكن أن يكون عن طريق الدليل العقلي والبرهان العلمي.

ومن كل ذلك نخلص إلى أن فطرة المؤمن نقيه طاهرة، لأنها تتاسب ماهيته وطبيعته، ولا تتصادم مع عقله وتفكيره ومبادئه.

وبهذا نعلم أن الساعة لن تقوم إلا على نصرة هذا الدين وظهوره وبلوغه مبلغ الليل والنهار ، لأنه الدين الذي فطرت عليه الخلائق بل ولا تزال تفطر عليه إلى قيام الساعة.

(١) مسند الأمام احمد (٢٥/ج/ص ٤٥٦) وهو حديث حسن رُوينا في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل، والدرامي بإسناد حسن.

الفصل الثاني

خصائص الإنسان الروحية والجسمية والنفسية

فيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : خصائص الإنسان الروحية.
- المبحث الثاني : خصائص الإنسان الجسمية.
- المبحث الثالث: خصائص الإنسان النفسية.
- المبحث الرابع : نظرة الإسلام للإنسان من حيث أنه جسم وعقل وروح.

الفصل الثاني

خصائص الإنسان الروحية والجسمية والنفسية

فيه أربعة مباحث:

المبحث الأول

خصائص الإنسان الروحية

المطلب الأول: مكانة الروح في القرآن الكريم:

الروح خلق من أعظم مخلوقات الله شرفها الله وكرمها غاية التشريف والتكريم فنسبها لذاته العلية في كتابه الكريم، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (١) فإذا صورته فعدلت صورته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فصار بشرا حيا ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة (٢).

ومن جلاله وعظمة هذا التشريف لهذا المخلوق أن الله اختصه بالعلم الكامل بالروح فلا يمكن لأي مخلوق كائن من كان أن يعلم كل العلم عن هذا المخلوق إلا ما أخبر به الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣) أي اليهود ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي يحيا به البدن ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي علمه لا تعلمونه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالنسبة إلى علمه تعالى (٤).

يعيش الإنسان في حياته هذه نوعان من الحياة:—

(١) الحياة المحسوسة بنواميسها المعروف فالحواس الخمسة هي التي تعطي الإنسان الإحساس بهذا العالم ونستطيع تسمية هذا العالم بعالم الملك ويكون الإنسان في هذه الحياة

(١) سورة الحجر: ٢٩

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٧ - ص ١٠١).

(٣) سورة الإسراء: ٨٥

(٤) تفسير الجلالين، المؤلف: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الأولى (ج ١ - ص ٣٧٥).

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين:— إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة يتيماً (مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحداً منهم، فألف أكثر كتبه، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها. وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه. وبقي على ذلك إلى أن توفي. (معجم الشعراء العرب ج ١ - ص ١٠٨٠)

محدد القدرات التي تكون وفقا لتركيبه المخلوق منه وتكون الروح في هذه الحياة مأسورة الجسد يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْنَا خَلْقَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (١) لِحْنُ خَلَقْنَا هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ بِاللَّهِ الْمَخَالِفِينَ أَمْرَهُ وَنَهَيْهِ ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾: وشددنا خلقهم، من قولهم: قد أسر هذا الرجل فأحسن أسره، بمعنى: قد خلق فأحسن خلقه وقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ يقول: وإذا نحن شئنا أهلكتنا هؤلاء وجئنا بآخرين سواهم من جنسهم أمثالهم من الخلق، مخالفين لهم في العمل (٢).

(٢) حياة الملكوت وتعتمد هذه الحياة على أسس قواعد الإحساس الابتدائية المعروفة المرتبطة بالحواس المعروفة ولكنها لا تعتمد وسائل الطرق الموصلة إلى تلك القواعد الابتدائية المعروفة ولكنها تسلك مسلك الاعتماد على العادة المتبعة في سلوكيات الحواس المبرمجة داخل الدماغ البشري، ونستطيع القول بأن هذه الحياة هي أقرب ما يكون لعالم الملائكة لأنها بالعادة تكون مستقبلية وليست مفكرة أي أنها تستقبل ما يملى عليها من عالم الغيب مع تفلتها في بعض الأحيان حسب نوع البث المستقبل فهو كما علم في الإسلام ثلاث أنواع أرتبها حسب الوسطية البشرية:

١- حديث نفس. ٢- الوحي الهي. ٣- بث شيطاني.

النوع الأول: بالعادة ليس له تأثير على مستقبل الإنسان لأنه يكون عبارة عن الأفكار أو السلوكيات المؤثرة على الإنسان فيما سبق.

أما الثاني: وهو البث الإلهي فله التأثير على مستقبل الإنسان أو واقعه لأنه يعد تبشير أو إنذار أو محاكاة واقع.

وأما الثالث: البث الشيطاني فتأثيره إذا ذكر أول فالأولى عدم ذكر وعمل ما هو متعارف لتجاوزه كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام.

وأما حياة الملك يكون الإنسان متفاوت الإدراك لما يجري حوله لأن ميكانيكية اتصال الروح بالجسد تكون معتمدة على وضع الجسد في استقبال التأثيرات المحيطة به أو التي تكون وسيلة النقل بين التأثيرات الخارجية وقواعد الاستقبال مثل أعصاب السمع والبصر وغيرها.

(١) سورة الإنسان: ٢٨

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٤ - ص ١١٩).

يقول الله: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (١) لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان، فكشفنا عنك غطاءك الذي غطى قلبك، فزال الغفلة عنك، فبصرك اليوم فيما تشهد قوي شديد (٢).

مفهوم القيم الروحية في الإسلام:

خلق الله الإنسان من جسد وروح وقدر له سبيل العيش ليسير في هذه الحياة وفق حكمته وإرادته وأمهه بالتوجيهات اللازمة للعناية المتكاملة بالجانبين المادي والروحي والتوازن بينهما دون تغليب لجانب على آخر وبذلك يحصل الإنسان على غذاء متوازن لمكوناته المادية والروحية، والتوجيهات التي يتضمنها الجانب الثاني هي ما يعبر عنه بالقيم الروحية.

فالقيم: هي ضوابط ومعايير تقوم بها تصورات الفرد وتصرفاته، والقيم الروحية نسبة إلى الروح بمعنى أنها تستند إلى عالم الغيب لا عالم الشهادة، فيه غذاؤها واستقرارها...

٣) محل (القيم الروحية) من الإنسان:

المخاطب في الإنسان بذلك هو باطنه المعبر عنه بالقلب والنفس وجوارح الجسد، فالقلب كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٣) أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك (٤).

وقوله ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (٥).

والنفس كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَآئُوسٍ بِهِ فَنَسُوهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٦) ﴿وَنَعَلَهُ مَآئُوسٍ بِهِ فَنَسُوهُ﴾ أي نعلم خواطره وهو أجسه. لأنه تعالى ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى﴾ (٧) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو مثل لشدة القرب. والوريدان: عرقان في باطن العنق: يموت

(١) سورة ق: ٢٢

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥١٩).

(٣) سورة الرعد: ٢٨

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٤ - ص ٤٥٥).

(٥) صحيح مسلم (باب أخذ الحلال وترك الشبهات - ج ٣ - ص ١٢١٩ - رقم الحديث ١٠٧ - (١٥٩٩))

(٦) سورة ق: ١٦

(٧) سورة طه: ٧

الإنسان والحيوان بقطع أحدهما^(١).

حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم» قال قتادة: «إذا طلق في نفسه فليس بشيء»^(٢).

٤) أصول ومصادر القيم الروحية :

تستند إلى أسس مرجعية أصيلة وهي: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة باعتبارهما أساس الدين ومصدر التشريع ومنهاج حياة المسلمين في جميع شؤون حياتهم. والسيرة النبوية العطرة التي تعد التطبيق العملي للقرآن، كما قالت السيدة عائشة حين سئلت عن أخلاق الرسول ﷺ فقالت كان خلقه القرآن^(٣).

٥) آلات التدريب عليها :

العبادات المختلفة الفرائض منها والنوافل، لذلك أرشدنا الإسلام إلى تزكية النفس قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٤) من طهر هذه النفس، وأصلحها، وارتفع بها من مرتبة الحيوانية، والمتمثل في القيام بأركان الإسلام الخمسة كما في الحديث إضافة إلى النوافل لتحصيل الحد الأعلى من الكمالات النفسية والروحية .

٦) تجلياتها في الواقع:

وهي متعددة بتعدد اهتمامات الإنسان وحاجاته عبر أخلاق شرعية شمولية منها: التوبة والإخلاص والتوكل والصبر والشكر والرضا..... الخ. ولتحقيق ذلك لا بد مما يلي:

الاستحضار الدائم للأخرة والموت، كما في الحديث أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجُنَيْدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رِزْمَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يُكْتَرُ أَنْ يَقُولَ: «أَكْثَرُوا مِنْ نِكْرِ هَانِمِ اللَّذَاتِ»^(٥).

وَحَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ حَبِيبِ بْنِ عَرَبِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ

(١) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٦٣٨).

(٢) صحيح البخاري (باب الطلاق في الإغلاق والإكراه والسكران - ج ٧ - ص ٤٦ - حديث رقم ٥٢٦٩).

(٣) المسند الجامع، باب عائشة بنت أبي بكر الصديق (ج ٢٠ - ص ٣٠٠ - رقم ١٧١٥٧).

(٤) سورة الشمس: ٩

(٥) صحيح ابن حبان المؤلف: محمد بن حبان التميمي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ -

١٩٩٣ (باب ذكر إكثار المصطفى ﷺ (ج ٧ - ص ٢٦١ - حديث رقم ٢٩٩٥).

عُمَرَ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِبَعْضِ جَسَدِي، فَقَالَ: (يَا عَبْدَ اللَّهِ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ كَأَنَّكَ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ) (١).

الموازنة بين مطالب الروح والجسد وعدم تغليب الجانب المادي.
كثرة ذكر الله لطمأنة القلب وتحصيل سكينه النفس.... الخ.

٧) خصائص القيم الروحية:

تتميز القيم الروحية في الإسلام بخصائص ثلاث :

١- خصية الثبات: ومعناها أن القيم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان وتبدل الظروف والأحوال ولكن قد تتغير وسائل تحقيقها

٢- خصية الاستمرار: ومعناها أن المسلم مطالب بتحري هذه القيم والتزامها في مختلف مناحي الحياة.

٣- خصية الشمول: ومعناها أن هذه القيم توجه سلوك الإنسان في مختلف مجالات

الحياة حيث تشمل علاقته بربه وبنفسه وبأسرته وجيرانه وبالناس كلهم، وبالبيئة

المحيطة به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ

لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد،

لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، الذين يسألونك أن تتبع أهواءهم على الباطل

من عبادة الآلهة والأوثان ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، يقول: وذبحي ﴿وَمَحْيَايَ﴾، يقول:

وحياتي ﴿وَمَحْيَايَ﴾ يقول: ووفاتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يعني: أن ذلك كله له خالصاً دون

ما أشركتم به، أيها المشركون، من الأوثان ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك من

خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب، لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصاً ﴿وَبِذَلِكَ

أُمِرْتُ﴾، يقول: وبذلك أمرني ربي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، يقول: وأنا أول من أقرّ وأذعن

وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك (٣).

(١) سنن بن ماجه (باب مثل الدنيا - ج٢ - ص١٣٧٨ - رقم الحديث ٤١١٤).

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٢ - ص ٢٨٣).

المطلب الثاني: الآثار الروحية للعبادة:

وسأبدأ ببيان طبيعة الإنسان المزدوجة في تكوينه الأصلي الذي جمع الله فيه بين المادة والروح، أو الجانب العلوي والسفلي، وفي استعداده للخير والشر، والفجور والتقوى، والشكر والكفر، والسمو إلى مدارج الكمال البشري، والانحدار إلى أدنى المستويات، ثم أنتقل إلى الحديث عن العقيدة، وبعض آثارها النفسية، ثم أختتم بإبراز الآثار النفسية والروحية للعبادة.

الإنسان كائن مزدوج التكوين:

الحديث عن الآثار الطيبة للعبادة، وفضلها على حياة الإنسان النفسية والروحية، يقتضى معرفة طبيعة تكوينه، لأننا إذا علمنا أنه مخلوق مزدوج التكوين والاستعداد، علمنا أن حاجته إلى العبادة لا تقل حيوية عن حاجته إلى الماء والطعام وسائر الحاجات الحيوية. وبعبارة أوضح، علمنا أن حاجته إلى التغذية الروحية لا تقل عن حاجته إلى التغذية المادية الجسدية.

إن الإنسان كائن مزدوج التكوين، خلقه الله من طين الأرض، نفخ فيه من روحه قال الله عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ. وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١) أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقاً يليق به، ويوافقه، فهذا عام، ثم خص الآدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام، أبي البشر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو النطفة المستقذرة الضعيفة. ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه، وأعضائه، وأعصابه، وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه، بالمحل الذي لا يليق به غيره، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ بأن أرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله، حيواناً، بعد أن كان جماداً (٢).

لقد خلق الله الإنسان من عناصر طين الأرض، وهي عناصر مادية يستوى فيها الإنسان مع غيره، ثم نفخ فيه من روحه، والروح عنصر نوراني علوي، صادر عن نور الله، هذا العنصر هو الذي منح الإنسان خصائصه الإنسانية، وهو الذي جعله مستعداً للسمو الروحاني، والارتقاء في مدارج الطاهرين، وجعله قادراً على أن يعيش بجسده على الأرض، وأن ينطلق بروحه إلى آفاق الملائكة الأعلى.

(١) سورة السجدة: ٧-٦

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٦٥٣).

لكن هناك موانع تمنع الإنسان من السمو الروحي، منها الانسلاخ من آيات الله والإخلاق إلى الأرض ومتاعها المادي، واتباع الهوى وحرمان النفس من الغذاء الروحي. قال الله عز وجل:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١) ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على قومك أو على اليهود ﴿نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي علم الكتاب، فلفظ به حتى تعلم وفهم المعاني، وصار عالماً بها ﴿فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ بأن نزع العلم عنه فكفر بها، وخرج منها خروج الحية من جلدها ﴿فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي فلقه وأدركه وصار قريناً له حتى أضله ﴿فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي لعظمناه بالعمل بها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي مال إلى الدنيا، ورغب فيها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ وذلك لأنه استوى في حقه إيتاء الآيات، والتكليف بها، والتعظيم من أجلها، وعدم ذلك. كالكلب يدلغ لسانه بكل حال، إن تحمل عليه، أي تشدّ عليه وتهيجه، أو تتركه غير متعرض له بالحمل عليه، فلهته موجود في الحالتين جميعاً ﴿ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي من التوراة أو غيرها ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

فقد نصت الآية على أن الانسلاخ من آيات الله، والإخلاق إلى الأرض ومتاعها المادي، واتباع الهوى، هي الموانع التي حالت دون ارتفاع هذا الإنسان، فمثله الله بالكلب، وهو في حالة العطش الشديد، أو السحر، فهو لا يدري شيئاً من حوله، ولا يرد بالألإ إلى صاحبه، سواء حمل عليه، أم لم يحمل، إنما هو اللهث المستمر، ولا يوقفه عن ذلك إلا أن يروي عطشه بالماء. فالإيمان للإنسان لا غنى عنه، فإذا انقطع، ضل الإنسان وقصرت بصيرته، وخرج عن كل ما هو مألوف فيه من صفات حميدة.

والقرآن يسوي بين الإنسان الذي ينغمس في الحياة المادية ويكفر بآيات الله، وبين الأنعام. بل يجعله أدنى منها. قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

(١) سورة الأعراف: ١٧٥-١٧٦

(٢) محاسن التأويل (ج ٥ - ص ٢٢٣).

أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١﴾ ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون بل هم أضل من الأنعام لأن الأنعام يهديها راعيها فتتهدي وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه وهي أيضا أسلم عاقبة من هؤلاء، فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف وأن كل حيوان بهيم فهو أهدى منه (٢).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿٣﴾ أي: في دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضما وقضما وليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»، ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: يوم جزائهم (٤).

ومثل الذين كفروا في أكلهم وتمتعهم بالدنيا، كمثل الأنعام من البهائم التي لا هم لها إلا في الاعتلاف دون غيره، ونار جهنم مسكن لهم ومأوى، ويستفاد من كل هذا، أن الإيمان بالله والاهتداء بآياته واتباع منهجه وامتثال أمره، هو الوسيلة الوحيدة المتاحة للإنسان للانعتاق من قيود المادة وجاذبيتها، ولإيجاد التوازن في حياته وكيانه بين مطالب الجسد ومطالب الروح.

قوة انجذاب الإنسان إلى الأرض:

الإنسان جسد وروح، الجسد يشده إلى الأرض لأنه من طينها، والروح نور لطيف، وعنصر خفيف يشناق إلى السمو والارتفاع والصفاء.

وقوة انجذاب الإنسان إلى الأرض أكبر، لأن الله الذي خلقه منها غرز فيه غرائز ودوافع حيوية لحكمة أرادها، وقدرته على الانفلات من هذه الجاذبية ضعيفة لا تكفي وحدها ليحافظ الإنسان على التوازن المطلوب..، فأنزل الله إليه رسالاته، ورسم له منهاجاً قويمًا، ووضع له نظاماً للتربية الروحية، كل ذلك من أجل الارتقاء به إلى المستوى اللائق بإنسانيته.

إن مطالب الجسد القوية المندفعة، غالباً ما تطغى على المطالب الروحية فتحجبها وتحتل مركز الاهتمام. والتأثير السيء لهذا الطغيان المادي، وإن كان في ما يبدو غير ملحوظ، يتراكم

(١) سورة الفرقان: ٤٤

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٥٨٤).

(٣) سورة محمد: ١٢

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٧ - ص ٣١١).

ويؤدي إلى تدنيس النفس، وتكدير صفاء الروح، وذلك ما أشار إليه قول الله عزو وجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١) أي غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب فغطتها، يقال منه: رانت الخمر على عقله، فهي ترين عليه ريناً، وذلك إذا سكر، فغلبت على عقله (٢).

والتوازن بين العناصر الطينية المادية، والعناصر الروحية في الإنسان، هو الأفق الأعلى الذي يدعى لأجل بلوغه، فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن مطالبه الروحية ليكون حيواناً، ولا عن مطالبه الجسدية ليكون ملاكاً، فالذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية ويحرم نفسه من رغباتها، ويقتل فيها شهواتها كالذي يحاول أن يعطل طاقاته الروحية، كلاهما يخرج عن سواء فطرته، وكلاهما يدمر نفسه بتدمير جزء من كيانها الأصيل.

ومن أجل إيجاد هذا التوازن والحفاظ عليه، يحث الإسلام على مجاهدة النفس، ويدعو إلى تركيتها، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٣) وأمّا مَنْ خاف القيام بين يدي الله للحساب، ونهى النفس عن الأهواء الفاسدة، فإن الجنة هي مسكنه (٤).

ويقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٥) فجوهر الإنسان هو الروح، وعلى قدر ما يهتم بمطالبه الروحية ومجاهدة مطالبه الجسدية، يكون قريباً من حقيقة الإنسانية. قال الإمام الغزالي: " فالروح حقيقة جوهر ك، وغيرها غريب منك، وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة.. فإن كنت من جوهر الملائكة، فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب" (٦).

(١) سورة المطففين: ١٤

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٤ - ص ٢٨٦).

(٣) سورة النازعات: ٤٠-٤١

(٤) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٨٤).

(٥) سورة الأعلى: ١٤

(٦) كتاب المنقذ من الضلال، ص ٧٥.

للإمام الغزالي وهو محمد بن أحمد الملقب (بأبي حامد، والمعروف لعلو مكانته (بحجة الإسلام). وقد ولد بطوس من أعمال خراسان عام ٤٥٠هـ (وقيل ٤٥١هـ). ويذكر السبكي أنه تربي تربية صوفية، وقد تتلمذ الغزالي في صباه وجد واجتهد حتى برع المذهب، والخلاف، والجدل، والأصلين -علم الكلام وأصول الفقه-، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم، وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها «، وصار من الأعيان المشار إليهم في أقبل الغزالي بعد ذلك على حياة من نوع جديد،

وحدة بين المادة والروح:

من المزايا الحسنة التي انفرد بها الإسلام عن المذاهب المادية، أنه يوحد في حياة الإنسان بين المادة والروح، إنه منهج حكيم ينظر إلى الحياة الإنسانية باعتبارها وحدة ملتزمة. فالإسلام لا يؤمن بالرهبانية ولا يفرض على الإنسان أن يتجنب الحاجات المادية الضرورية في حياته، بل يرشده إلى أن السمو الروحي المطلوب ينبغي أن يتم عن طريق ممارسة حياته العادية باستقامة وطهارة، في معترك الحياة، وليس عن طريق التخلي عن مطالبه المادية والانعزال عن العالم.

إن الإسلام يحث الإنسان على أن يسخر كل طاقاته لبناء الحياة وتتميتها على أسس سليمة، ويعلمه أن الطاقتين المادية والروحية ينبغي أن تلتحما معاً في سلوكه اليومي، وأن السلامة الروحية المنشودة يمكن أن تتحقق عن طريق ممارسة الطاقة المادية لصالح الإنسان . وقد شقي الإنسان على يد الديانات والمذاهب الإيديولوجية ذات النظرة الأحادية، فقد ذهب بعضها إلى الغلو في الرفع من قيمة الجانب الروحي لحياة الإنسان، وتجاهل الجانب المادي منها، وذهب بعضها إلى الاهتمام بالجانب المادي وتجاهل الجانب الروحي تماماً، واعتبره شيئاً مختلقاً أو متخيلاً، وهذان الموقفان جلبا الشقاء والاضطراب للإنسان، وحرماه من الراحة والطمأنينة، حتى صار فقدان التوازن واضحاً في حياته.

العبادة دعامة التوازن:

الإنسان في حاجة دائمة إلى نوعين من الغذاء، غذاء مادي لتلبية مطالبه الجسدية، وغذاء روحي لتلبية مطالبه الروحية، وبما أن الجسد من الأرض فغذاؤه من طعام وشراب من عناصر الأرض، وبما أن الروح من نور الله فغذاؤه كذلك من نور الله وروحه. هذا الغذاء النوراني الروحاني قد أنزله الله تعالى إلى الناس على يد أنبيائه.

فكلام الله تعالى نور، وذكره وعبادته نور وضياء، قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ

وهي حياة الزهد والعبادة، والتكامل الروحي والأخلاقي، والتقرب إلى الله. إلى أن انتقل إلى ربه، وكان ذلك في يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ. « (البداية والنهاية (١٢/ ١٨٥ - ١٨٦).

وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ (٢) ،
﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿بَيِّنَاتٍ لَكُمْ
كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾ عن الناس مما في التوراة والإنجيل، ويترك بيان ما لا تقتضيه
الحكمة. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ وهو القرآن الكريم. يهدي الله بهذا
الكتاب المبين من اتبع رضا الله تعالى، طرق الأمن والسلامة، ويخرجهم بإذنه من ظلمات الكفر
إلى نور الإيمان، ويوفقهم إلى دينه القويم. (٣)

وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (٤) يقول تعالى مخاطبا جميع
الناس ومخبرا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعدر، والحجة المزيلة
للشبهة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أي: ضياء واضحا على الحق، قال ابن جريج (٥)
وغيره: وهو القرآن (٦).

فهذا النور الذي جاء من عند الله، وهذا الروح الذي أوحاه إلى رسوله، ﷺ، هو الغذاء
الروحي الذي يحفظ للإنسان التوازن في حياته، ولأهمية هذا الغذاء الروحي في حياة الإنسان،
تولى الله - سبحانه - ورسوله وضع نظامه، فحدد مقاديره الضرورية التي لا يجوز أن ينقص
منها شيء، وفرض الله تعالى على الناس فرائض وحدوداً، ونهى عن تضييع شيء منها،
فالعبادات التي فرضها الله تعالى من صلاة وصيام وزكاة وحج، وأقامها على أساس توحيده،
وجعلها أركاناً وقواعد للإسلام، هي هذا النظام الحكيم الذي وضعه لتغذية الروح وتزكية النفس.
فحدد الله تعالى القدر الضروري من تلك العبادات وعين مقاديرها ومواقيتها، وأمر أمراً
جازماً بأدائها على أكمل وجه ممكن، وشدد الوعيد على تركها أو التهاون في أدائها، أو
إخراجها عن وقتها. وجعل الصلاة أهم عنصر في هذا الغذاء الروحي. ففرض، إقامتها خمس
مرات في اليوم، وعيّن أوقاتها وعدد ركعاتها.. وأخبر أنها زاد روعي ومعنوي للإنسان في

(١) سورة المائدة: ١٥-١٦

(٢) المائدة: ١٥.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ١١٠).

(٤) سورة النساء: ١٧٤

(٥) بن جريج : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم، أبو خالد المكي القرشي الأموي صاحب التصانيف مولى أمية بن خالد قال عبد الرزاق: ما رأيت أحدا أحسن صلاة من ابن جريج. وقال عطاء: سيد شباب أهل الحجاز ابن جريج. وقال يحيى بن سعيد: كنا نسمي كتب ابن جريج كتب الأمانة. توفي سنة خمسين ومائة. (الجرح والتعديل (٥/ ٣٥٦ - ٣٥٨).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٢ - ص ٤٨١).

حياته، وأمر بالاستعانة بها، قال سبحانه: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١) يقول تعالى أمرا عبده، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان (٢) في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة (٣).

ونوع الله تعالى العبادات لتكون غذاء روحياً متنوعاً، ولكل نوع منافعه وفوائده التي تلبى نوعاً معيناً من مطالب الروح والقلب، وأي تقصير في أداء هذه العبادات، وفي الالتزام بنظامها المحدد، هو في الحقيقة ظلم للنفس، لأنه يؤدي إلى حرمان الروح من حقه، وليس من الرشد أن يترك الإنسان روحه في جوع وفقر مُدَقِّع، ويبالغ في تغذية جسده وإشباع مطالبه، لأنه إن فعل ذلك أهدر إنسانيته وأضاع التوازن الذي هو قوامها، وانحدر بنفسه إلى مرتبة أسفل الكائنات.

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٤) لقد خلقنا الإنسان في أحسن صورة، ثم رددناه إلى النار إن لم يطع الله، ويتبع الرسل، لكن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر عظيم غير مقطوع ولا منقوص (٥).

إن من فضل الله وكرمه أنه خلق الإنسان على فطرة قويمه، مستعدة للاستقامة والخير والصلاح، بالاستجابة لنداء الإيمان والهداية والخير، وإنما تتحرف وتتحدر عن مقام التوازن والاستقامة، بالإعراض عن نداء الإيمان والاستكبار عن عبادة الله والعمل الصالح والانغماس في مستنقع الرذيلة والشهوات.

والآيات السابقة تبين ذلك، فالتركيز فيها واقع على الخصائص الروحية للإنسان، فهي التي تستقيم بالإيمان والعمل الصالح، والعبادة منه، وتتنكس إلى أسفل سافلين حين يحيد الإنسان عن فطرته القويمه، وينحرف عن الإيمان الذي هو قوامها.

في هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني، فهو مهياً بها لأن يبلغ مدى

(١) سورة البقرة: ٤٥

(٢) مقاتل بن حيان (١٥٠ هـ): مقاتل بن حيان بن دوال دوز، الإمام العالم المحدث الثقة. قال الذهبي: وكان خيراً ناسكا كبير القدر، صاحب سنة. كان ذا منزلة عند قتيبة ابن مسلم الأمير، هرب مقاتل إلى كابل فأسلم به خلق. وتوفي في حدود الخمسين ومائة. سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٤٠ - ٣٤١).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ١ - ص ٢٥١).

(٤) سورة التين: ٤-٦

(٥) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٩٧).

من السمو يفوق مقام الملائكة، كما شهدت بذلك قصة المعراج، حيث وقف الملك جبريل عليه السلام، وارتفع محمد بن عبد الله الإنسان، ﷺ، إلى المقام الأسنى.

لكن هذا الإنسان مُهيأً كذلك – عندما ينحرف عن منهج الله القويم – لأن ينتكس ويرتد إلى الدرك الأسفل الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط، حيث تصبح أدنى البهائم أرفع منه، لاستقامتها على فطرتها.

والإنسان مهدد بالانتكاس والتردي إلى هذا المستوى. ليس له من واقٍ يقيه – ولا عاصم يعصمه، إلا الإيمان والعمل الصالح. هذه حقيقة مؤكدة، أقسم الله عليها قسماً مكرراً، وأكدها تأكيداً قوياً بليغاً. وما ذلك القسم المكرر إلا لإيقاظ الإنسان، وتوجيه وعيه وفكره بقوة إلى أهمية الإيمان والعبادة في حياته.

فالإيمان والعمل الصالح هما دعامة التوازن في حياة الإنسان، وليس هناك شيء يمكن أن يقوم مقامهما، فخالق الإنسان أعلم به وبما يصلح حاله.

المطلب الثالث: الإيمان أساس التربية الروحية في الإسلام:

الإيمان بالله تعالى هو كبرى النعم التي يكرم الله بها من يشاء من عباده، إنه أكبر من نعمة الوجود نفسها، ومن كل ما يتعلق بالوجود من نعم الرزق والصحة والمتاع، قال الله عز وجل: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يمين عليك هؤلاء الأعراب يا محمد أن أسلموا ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يقول: بل الله يمين عليكم أيها القوم أن وفقكم للإيمان به وبرسوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول: إن كنتم صادقين في قولكم آمنا، فإن الله هو الذي منّ عليكم بأن هداكم له، فلا تمنوا عليّ بإسلامكم، وذكر أن هؤلاء الأعراب من بني أسد، امتنوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: آمنا من غير قتال، ولم نقاتلك كما قاتلك غيرنا، فأنزل الله فيهم هذه الآيات (٢).

وقال سبحانه: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣) ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ القرآن الكريم ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وأمراض الصدور: أخطر من أمراض الجسوم؛ لأن أمراض الصدور تؤدي إلى الجحيم، وأمراض الجسوم تؤدي إلى النعيم ولا شفاء للصدر إلا بالقرآن، ولا نجاة من النيران إلا به وشفاء الصدور: هو تخليصها من الشرور، وإرشادها إلى ما فيه الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية.

وقد ورد أن المراد بفضل الله في هذه الآية: الإسلام. والمراد برحمته: القرآن. هذا وكل خير يصيب الإنسان: فمرده إلى فضل الله تعالى وحده، وكل بر وسعادة ونجاة: فمرده إلى رحمته جل شأنه ففضله تعالى ورحمته هما الموصولان إلى خيري الدنيا والآخرة منحنا الله تعالى فضله، ووهبنا رحمته؛ بفضلته ورحمته ﴿هُوَ﴾ أي فضل الله ورحمته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ في الدنيا من الأموال (٤).

إن فضائل الإيمان وآثاره النفسية والقلبية، وآثاره في حياة الإنسان العملية كثيرة، فهو نور وسكينة للقلب والعقل، وهو تحرر وكرامة وعزة للنفس، وهو قوة وعزيمة دافعة للخير.

(١) سورة الحجرات: ١٧

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٢ - ص ٣٢٠).

(٣) سورة يونس: ٥٧-٥٨

(٤) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٢٥٤).

من هنا كان الأساس الأول للتربية الروحية في الإسلام، لقد بدأ هذا المنهج بتثبيت كلمة الإيمان في النفوس، وترسيخها في أعماق القلوب في أول ظهور الإسلام، وطالت مدة غرس حقيقة الإيمان بين أهل مكة في ذلك العصر، حتى بلغت ثلاثة عشر عاماً، لم يكن المنهج الإسلامي يهتم إلا بها، حتى إذا نبتت كلمة الإيمان، وصارت عقيدة مكيبة في القلوب، وأصبحت مهياً لامتنال أوامر الله تعالى، عندئذ بدأت التكاليف الشرعية، بما فيها العبادات والحدود والمعاملات، وعندئذ بدأت التربية وتنقية النفوس من رواسب الجاهلية وذرائلها وانحرافاتهما.

لقد كان الإيمان ولا يزال مدرسة خلقية، وتربية نفسية ذاتية تجعل الإنسان يتمسك تلقائياً بالفضائل الخلقية ويضرب أروع الأمثلة في الصبر والشجاعة والتضحية والأمانة والعفة، قال أبو الحسن الندوي: "كان الإيمان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس، يحبس الإنسان عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية، وحتى إذا جمحت بالإنسان السورة البهيمية، وسقط سقطة، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين، ولا تتناوله يد القانون، تحول هذا الإيمان، في أعماقه، نفساً لوامة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئناً مرتاحاً، تفادياً لسخط الله وعقوبة الآخرة. وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفاهة وكرامته، يملك زمام نفسه أمام المطامع والشهوات الجارفة في الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد وفي عز سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً" (١).

إن كل خير وكل فضل في حياة الإنسان وأعماله ما هو إلا من ثمار كلمة التوحيد الطيبة، ونور الإيمان بالله. قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢) ألم تعلم -أيها الرسول- كيف ضرب الله مثلاً لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بشجرة عظيمة، وهي النخلة، أصلها متمكن في الأرض، وأعلىها مرتفع علواً نحو السماء؟ تعطي ثمارها كل وقت بإذن ربها، وكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، وفرعها من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية يُرفع إلى الله وينال ثوابه في كل

(١) كتاب ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٧٥. لأبي الحسن الندوي: وهو عليّ أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني، هو مفكر إسلامي وداعية كبير ولد بقرية نكية، مديرية رائي بريلي، الهند عام ١٣٣٢هـ/١٩١٣م. تَعَيَّنَ مُدْرِساً فِي دَارِ الْعُلُومِ لِنَدْوَةِ الْعُلَمَاءِ عَامَ ١٩٣٤م، وَدَرَسَ فِيهَا التَّفْسِيرَ وَالحَدِيثَ، وَالأدبَ العَرَبِيَّ وَتَارِيخَهُ وَالمَنْطِقَ. أَسَّسَ مَرْكَزاً لِلتَّعْلِيمَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ عَامَ ١٩٤٣م، وَنَظَّمَ فِيهَا حُلُقَاتٍ دَرَسَ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ وَالسَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَفَاتَهُ يَوْمَ الجُمُعَةِ ٢٣ رَمَضَانَ ١٤٢٠ هـ الموافق ٣١ ديسمبر ١٩٩٩. (الموسوعة الحرة موقع في الانترنت).

(٢) سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥

وقت. ويضرب الله الأمثال للناس؛ ليتذكروا ويتعظوا، فيعتبروا^(١).

فثمرات الإيمان وآثاره الطيبة في نفس الإنسان وحياته لا تعد ولا تحصى ، ومن ثمراته أنه يحرر فكر الإنسان، ويحفظ عزته وكرامته. فالمؤمن يعلم أن الله تعالى هو وحده المالك لكل شيء، وهو رب العالمين، بيده المنع والعطاء والنفع والضرر، والغنى والفقير، الإيمان بهذه الحقيقة يجعل الإنسان متحرراً، لا يخاف من أي قوة في الأرض أن تضره، ولا ينتظر منها أن تنفعه، لا يمد يده لأحد، ولا يذل نفسه لأحد، ويتحرر من الخرافات والأضاليل، ومن الاعتقادات الباطلة التي تقيد فكره وتلفه في ظلام الأوهام. مثل هذا التحرر لا يحصل إلا بالإيمان بالله تعالى.

ومن ثمراته الطيبة الطمأنينة والرضى، فالمؤمن لا يكون بأي حال قنوطاً، لأن لديه العلم بأن الله هو مالك خزائن السموات والأرض، وبأن رحمته الواسعة لا حدود لها. هذا الإيمان يملأ قلبه رجاء وأملاً في رحمة الله وفضله، ومع أنه يصادف في الدنيا البؤس والحرمان والابتلاء، فإن الأمل والرجاء لا يفارقانه أبداً، وبقوة يمضي في حياته عاملاً متفائلاً، والكافرون محرومون من هذه النعمة، لذلك يسيطر عليهم اليأس، وغالباً ما يؤدي بهم إلى الانتحار، والله عز وجل يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايُنِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُؤُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) والذين جحدوا حجج الله وأنكروا أدلته، ولقائه يوم القيامة، أولئك ليس لهم مطمع في رحمتي لَمَّا عاينوا ما أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وأولئك لهم عذاب مؤلم موجه^(٣). إن الإيمان بالله يجعل الإنسان قوي العزيمة كثير الصبر، ثابتاً كالجبل مهما كانت المصاعب، ويجعله يراقب الله تعالى ويطيعه في أوامره ونواهيه، لأنه يعلم أن الله معه أينما كان وأنه مطلع على سره وعلانيته. هذا الإيمان هو المبدأ الأساس في التربية الإسلامية.

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٥٩).

(٢) سورة العنكبوت: ٢٣

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣٩٨).

المبحث الثاني

خصائص الإنسان الجسمية

يمر الإنسان منذ تكوينه في مراحل نمو مختلفة، لكل منها خصائص جسمية وعقلية ونفسية واجتماعية ينبغي أن تراعى عند تربية الإنسان وتوجيه نموه. ولقد سبق الإسلام في العناية بالفرد من قبل تكوينه كما عني عناية فائقة بإتاحة الفرصة لنموه النمو السليم، وفيما يلي نحاول تحديد مختلف مراحل نمو الإنسان، فقد قسمنا مراحل نمو الإنسان إلى عدة مراحل:

المطلب الأول: مرحلة التكوين الجسدية:

إذا فهمنا التربية بأنها -في جوهرها- عملية مقصودة لتنمية الفرد وتوجيه سلوكه بهدف تحقيق أهداف معينة، وأن المؤسسات التربوية ينبغي أن تتخذ كافة السبل لإحداث تلك التنمية وذلك التوجيه، فإننا نجد أن نظرة الإسلام إلى تربية الفرد غير مسبوقة في أنها بدأت العناية بالفرد قبل تكوينه في حين وجهت اهتماما خاصا إلى مرحلة التهيئة للتكوين السليم قبل الزواج، حيث يتم فيها اختيار الزوج لزوجته والزوجة لزوجها، والأساس الأول للاختيار في الحالين - وفق نظرة الإسلام- هو التمسك بمنهج الله. حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ (١) عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تُنكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَظَفَرُ بَدَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ» (٢)، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَابُورَ الرَّقِّيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَنْصَارِيُّ، أَخُو فُلَيْحٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجَلَانَ، عَنْ ابْنِ وَثِيمَةَ النَّصْرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفَعَّلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» (٣).

وإذا كان كل من الزوجين على دين، فإن كل طرف منهما سوف يتقي الله في معاملته للطرف الآخر. وفي رعايته له، وفي تربية أولاده، وفي التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي البعد عن المحرمات مثل شرب المسكرات وتبديد المال والتحيز لبعض

(١) سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ نُعَيْمِ بْنِ إِشْكَابٍ، أَبُو عَثْمَانَ النَّيْسَابُورِيُّ الصُّوفِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْعَبَّارِ، سَمِعَ مِنْ شَيْخِ خُرَّاسَانَ مَعْرُوفٍ بِالْحَدِيثِ، صَحَبَ جَمَاعَةً مِنْ مَشَايخِ الصُّوفِيَّةِ، سَمِعَ (صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ)، تُوُفِّيَ سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ، (تهذيب ابن عساکر ١١٦/٦).

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين (ج ٢- ص ١٠٨٦- رقم ١٤٦٦)

(٣) سنن ابن ماجة باب الأكل (ج ١- ص ٦٣٢- رقم ١٩٦٧).

الأولاد، إلى غير ذلك من دروب التمسك بالعمل الصالح، والبعد عن جميع ما يحدد عنه. وأسرة هذا شأنها تكون منبتا حسنا للأولاد.

فإن العلم الحديث يضيف كل يوم جديداً لأثر الوراثة التي يورثها الآباء والأجداد والأسلاف للأولاد من حيث الخصائص الجسمية والأمراض، وغير ذلك من مكونات الشخصية، وهذا يوضح الحكمة من توجيه الله للمسلمين إلى دقة الاختيار، والاختيار من ذوي الدين لما لذلك من أثر في نقاء الجسم والعقل والنفوس من الأدران، والبوائق.

ومن أهم جوانب حرص الإسلام على تكوين الجنين تكويناً سليماً أن خص المرأة الحامل بحقوق تكفل لها الراحة البدنية والنفسية. والتغذية المناسبة، والرعاية الصحية الملائمة. كما رخص للحامل بالفطر في رمضان مع القضاء عند الاستطاعة، وغير ذلك من الحقوق التي نبعت من مفهوم الإسلام عن الإنسان والكون والحياة، والتي تهيب للجنين التكوين السليم.

مرحلة الرضاعة:

وتمتد من لحظة الولادة إلى أن يتم الطفل سنتين كاملتين من العمر، وحرصاً على الرضاعة الطبيعية، يؤكد الإسلام على ضرورة إعطاء الأمهات أجورهن عن الرضاعة، كما يؤكد على ضرورة إيجاد مرضعة أخرى للطفل إذا لم ترضعه أمه، وأن تكون الرضاعة حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ﴾ (١) أي على جميع الوالدات مطلقاً كن أو غير مطلقاً أن يرضعن أولادهن مدى حولين كاملين لا زيادة عليهما، وقد تنقص المدة إذا رأى الوالدان أن في ذلك مصلحة، والأمر موكل إلى اجتهادهما (٢).

ومن عناية الإسلام بالطفل في مرحلتي الحمل والرضاعة أنه رخص للحامل وللمرضع بالإفطار في الصوم إذا لم يطيقانه مع القضاء عند الاستطاعة، كما وجه رسول الله بتأجيل الحد عن الحامل حتى تكفل وليدها.

ومما يوضح حكمة تأكيد الإسلام على ضرورة رضاعة الطفل رضاعة طبيعية ما يتنادى به الأطباء في عصرنا هذا أن الرضاعة الطبيعية للطفل وقاية له من الكثير من الأمراض،

(١) سورة البقرة: ٢٣٣

(٢) تفسير المراغي (ج ٢ - ص ١٨٥).

وأفضل له من حيث نموه مما سواها.

وما يوضح أهمية عناية الإسلام بتوفير المرضعة المناسبة للطفل في هذه المرحلة، حتى تعنى بالوفاء بحاجاته الأساسية، وبراحته ونظافته ... ما أكدته بحوث الأطفال من أن صلة الطفل بالعالم الخارجي في هذه المرحلة تكون من خلال حاجاته الأساسية من مأكّل ومشرب وإخراج وراحة وشعور بالأمان. وإذا ما توافرت هذه الحاجات تكون مرتكزات طمأنينته وسعادته قد توافرت.

ونلاحظ أن الطفل في السنة الأولى من عمره، يكون اتصاله بالعالم الخارجي عن طريق فمه -بالدرجة الأولى- ويكون دور الحواس -باستثناء السمع- ضعيفاً جداً. وحتى السمع في هذه المرحلة لا يؤدي وظيفته بصورة فعالة، إذ أن نسبة كبيرة من الأطفال في هذه المرحلة لا يميزون الأصوات، إلا أصوات من لهم بهم صلة وثيقة مثل الأم، أما حاسة اللمس فإنها لا تؤدي دورها بصورة جيدة، وخاصة في بداية المرحلة. ولذا نجد الطفل يتحسس عالمه الخارجي باللمس باليد عشوائياً، ثم يتحسن بتقدم عمره، وكذلك الأمر بالنسبة للحواس الأخرى.

مما سبق نستطيع أن نستنتج أن أكثر المؤثرات على الطفل في هذه المرحلة هو ثدي المرضعة الذي لا يمدّه فقط بالغذاء، ولكن أيضاً بالشعور بالأمان. وهنا تتضح حكمة الإسلام في التدقيق في اختيار المرضعة، وفي عنايته الخاصة بحاضنة الطفل في هذه المرحلة، وفي العناية الخاصة بالطفل نفسه، لما لهذه الفترة من تأثير كبير على نموه الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي.

ويستهوي الطفل في هذه المرحلة، الألوان الفاقعة مثل الأحمر والأصفر، وتستهويه الأجسام الكبيرة نسبياً، والأجسام المتحركة حركة بطيئة، كما تستهويه الأصوات المعتدلة ذات الإيقاع المنتظم. لذلك ينبغي مراعاة هذا عند اختيار خبرات المنهج الدراسي.

بناء على ما سبق، فإن عناية مخططي المناهج الدراسية للطفل في هذه المرحلة تتركز بالدرجة الأولى في العمل على توافر التغذية المناسبة والنظافة التامة لجسمه وملابسه وفرشه، والبيئة الصالحة لنموه المتكامل، ووقايته من التغيرات المفاجئة والحادة ومن الأخطار، والعمل على علاج ما قد يظهر من أعراض غير مرغوب فيها، وإحاطته بعوامل الشعور بالأمان والأمان والاستقرار الانفعالي، وتوفير فرص الحركة المناسبة وفرص اكتساب بعض العادات السليمة.

فلاحظ أن الطفل في السنة الأولى من عمره، يكون اتصاله بالعالم الخارجي عن طريق فمه -بالدرجة الأولى- ويكون دور الحواس -باستثناء السمع- ضعيفاً جداً. وحتى السمع في هذه المرحلة لا يؤدي وظيفته بصورة فعالة، إذ أن نسبة كبيرة من الأطفال في هذه المرحلة لا يميزون الأصوات، إلا أصوات من لهم بهم صلة وثيقة مثل الأم، أما حاسة اللمس فإنها لا تؤدي دورها بصورة جيدة، وخاصة في بداية المرحلة. ولذا نجد الطفل يتحسس عالمه الخارجي باللمس باليد عشوائياً، ثم يتحسن بتقدم عمره، وكذلك الأمر بالنسبة للحواس الأخرى.

وقد ضرب الرسول عليه الصلاة والسلام لنا أمثلة لهذا الحنو نذكر منها، فيما روى عنه أنه ذهب يوماً إلى المسجد وهو يحمل أمامة بنت أبي العاص فصلى، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها^(١).

وفي هذه المرحلة تتكون أساسيات شخصية الطفل. فمن حيث النمو الجسمي، فإن النمو الحواس يكتمل تقريباً. وفي أول المرحلة يكون الطفل قد بدأ المشي والكلام والسيطرة على عضلاته، وينتقل من المشي إلى الجري، ومن الحركة غير المنتظمة وغير الثابتة إلى الحركة المستقرة الثابتة، وفي هذه المرحلة يستطيع التنسيق الحركي، فيركب الدراجة ويقفز ويتابع إيقاع الأصوات بحركة جسمه، وفي أثناء السنة الرابعة يبدأ في السيطرة على القلم وبالتدريج يستطيع السيطرة على عضلاته.

ومن حيث النمو العقلي، فإن الطفل يبدأ في فهم بعض الإرشادات وتنفيذها والبعض منهم يستطيع ذلك قبل سن الثانية، وفي بداية هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يتعلم بعض العلامات مثل "أمام" و"خلف" و"أكبر" و"أصغر" و...، وفي أثناء السنة الرابعة يستطيع أن يقوم بتلوين المساحات الواسعة، كما يمكنه كتابة الحروف والأعداد بحجم كبير، وأن يقارن بين الفراغات والحجوم، وأن يتعلم بعض المهارات العقلية البسيطة، والمهارات الحركية. ولكن ينبغي التنبيه - هنا- أنه لا يزال غير قادر على تركيز انتباهه لفترة طويلة. ومن أهم خصائص هذه المرحلة قدرة الطفل على التخيل، وعلى الحفظ السريع للمواد التعليمية المنظومة، وبخاصة إذا ما

(١) فتح الباري بشرح البخاري.

قدمت من خلال مخاطبة أكثر من حاسة من حواسه الخمس.

أما بالنسبة للنمو النفسي، فإن الطفل في هذه المرحلة تتركز اهتماماته حول ذاته، فهو أناني يحب ما يحقق أهدافه الخاصة بغض النظر عن أثره على الغير، ويكره ما يتعارض مع رغباته، ويكون متقلب المزاج سريع الخاطر. ولكن في نهاية هذه المرحلة تبدأ انفعالاته في الاستقرار.

وبقدر الأهمية البالغة لهذه المرحلة في تكوين الطفل ينبغي أن يتحمل مخطو المناهج المسئولية عن تنميته تنمية متكاملة في جميع مجالات النمو الجسدي والعقلي والنفسي(١).

(١) للتوسع ارجع إلى كتاب المؤلف: أساسيات المناهج الدراسية ومهماتها. الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

المطلب الثاني: مرحلة التمييز والبلوغ:

في هذه المرحلة يكون النضج العقلي قد أصبح مهياً لعملية تعلم مقصودة، ويكون النمو النفسي أكثر استقراراً، بحيث يسمح بتحمل التوجيهات والأوامر والنواهي دون أن يولد انفعالات حادة بالمقارنة لما كان سابقاً.

ويبدأ، في سن السابعة، تكليف الصبي بالصلاة، حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ هِشَامٍ يَعْنِي الْيَشْكُرِيَّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ سَوَّارِ أَبِي حَمْرَةَ - قَالَ أَبُو دَاوُدَ: وَهُوَ سَوَّارُ بْنُ دَاوُدَ أَبُو حَمْرَةَ الْمُزَنِيُّ الصَّيْرَفِيُّ - عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ (١)، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاصْرَبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ)) (٢).

وغني عن القول أن تعلم الصبي ما يرغبه في الصلاة، وكيفية أدائها يسبق قيامه بأدائها الفعلي. وهنا مؤشر أن عملية التعلم بالنسبة لهذا الطفل تسبق سن السابعة، وأنه في سن العاشرة يحاسب الطفل بدقة على أفعاله؛ لأنه قد أصبح في درجة من النضج النسبي الذي يؤهله للتمييز.

وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل في النمو الجنسي، إذ قد يبدأ في المراهقة فتبدأ القدرة على الأبوة في الظهور عند الذكر وتظهر على الأنثى الخصائص المؤهلة للأمومة، لذلك فقد وجه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الفصل بين الصبي والفتاة في المضاجع.

ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى فترتين: إحداهما تشمل السنوات "٧-١٠"، وهذه أقرب إلى "مرحلة الطفولة"، والثانية تشمل السنوات "١٠-١٤"، وتتميز هذه ببعض الخصائص التي تختلف عن الأولى، ولكننا سوف ننظر إلى المرحلة نظرة متكاملة إلا في حال ضرورة التمييز بينهما:

١- النمو الجسمي في مرحلة التمييز:

يتدرج الطفل في هذه المرحلة، نحو التحكم الأوثق في حركة عضلاته ولكن لا يتضح الفرق في هذه القدرة عنه في مرحلة الطفولة إلا قرب نهاية المرحلة، كما يكون الطفل كثير

(١) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، السهمي، أبو إبراهيم القرشي عن أبيه، وسالم، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وطاوس، وعدة، وخلق، قال يحيى القطان: إذا روى عنه الثقات فهو ثقة يحتج به، وقال خليفة وغيره: مات سنة ثمان عشرة ومائة. وأمه رملة بنت عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة بن صبيبة السهمي. (تذهيب التهذيب ٣ / ١٠١ / ١، تاريخ الإسلام ٤ / ٢٨٥).

(٢) سنن أبي داود باب متى يؤمر الغلام بالصلاة (ج ١ - ص ١٣٣ - رقم ٤٩٥) قال الألباني حسن صحيح.

الحركة، كثير القفز والعدو.

ويلاحظ أن نمو الحواس عمومًا يتجه هو الآخر إلى النضج، فنجد أن الذوق واللمس قد وصلا إلى النضج الكامل تقريبًا، ورغم أن طول النظر لا يزال من خصائص البصر في الفترة الأولى من المرحلة، إلا أنه يقترب من النضج في الفترة الثانية منها، أما السمع والشم فينضجان تمامًا بنهاية الفترة الثانية.

٢- النمو العقلي في مرحلة التمييز:

لا يزال الطفل في هذه المرحلة غير قادر على استيعاب الأفكار المجردة، ولا يزال يرتبط تعلمه بالمحسوسات -بالدرجة الأولى- وبخاصة بالنسبة للمواد المنظومة، كما أنه لا يزال غير قادر على التركيز بالقدرة على الحفظ وبخاصة بالنسبة للمواد المنظومة، وفي فترة طويلة، وتقل قدرته على التخيل في الفترة الثانية عنها في الفترة الأولى من المرحلة، وفي نهاية هذه المرحلة تظهر قدرة الطفل على التعميم طبقًا لخاصة معينة، ويتحول حبه للاستطلاع من التعرف على الأشياء إلى التعرف على أسباب الظواهر، وتتمو قدرته على التذكر المبني على الربط بين الأشياء والمواقف.

بناء على ما حدث في النمو العقلي للطفل في هذه المرحلة، فإن خبرات المنهج ينبغي أن تتخذ المواقف العملية، والمشاهدات الواقعية والمواد المنظومة واللعب والنشاط الجماعي مدخلًا للتعلم.

٣- النمو النفسي في مرحلة التمييز:

عرفنا أن انفعالات الطفل في المرحلة السابقة تتركز حول حاجاته ورغباته الشخصية، وتظل كذلك في هذه المرحلة، ولكن تتجه حدتها نحو الهبوط.

وإذ يتعلم الطفل كيف يضبط انفعالاته في نهاية المرحلة وتتحرك هذه الانفعالات نسبيًا فإنها تظل حادة نسبيًا في الفترة الأولى، وترتبط -أساسًا- بعدم شعور الطفل بالأمان.

وتتغير أساليب التعبير عن الانفعال، فبعد أن كان البكاء هو التعبير عن الغضب في المرحلة السابقة، فإن التعبير عنه في هذه المرحلة يتم بأساليب مختلفة منها تكسير الأشياء أو إخفاؤها انتقامًا من الكبار، وقد يبادر الطفل بالعدوان تعبيرًا عن الخوف، كأن يهجم على أبيه أو أخيه ليوسعه ضربًا تعبيرًا عن خشيته من أن يضرباه، كما أنه قد يعتدي على غيره لينفس عن انفعالاته، وأشد أنواع الانفعال التي تجعل الطفل ينسحب من الجماعة وينطوي على ذاته، نتيجة

لعدم شعوره بالأمان بالنسبة لمن حوله.

٤- النمو الاجتماعي:

يقتصر مجتمع الطفل في مرحلة الطفولة على مجتمعه المباشر -بالدرجة الأولى- وهو الأسرة والرفاق في المدرسة، ففي بداية هذه المرحلة يقتصر مجتمع الطفل على مصادر الوفاء بحاجاته الأساسية. وأهمهم الأم والأب، ثم الإخوة والأخوات، ويتسع المجتمع بعد ذلك ليشمل أطفال الأسر المجاورة من رفاق اللعب، ومن يظهر عاطفة حب قوية نحو الطفل من الكبار، وأما بالنسبة لمجتمعه في المدرسة فغالبًا يكون محدودًا بمن يتصلون به مباشرة من رفاقه في حجرة الدراس والمدرسة.

والطفل في هذه المرحلة لا يرتبط بمجموعات أخرى ارتباطًا مستمرًا، فغالبًا ما تكون علاقاته وقتية ترتبط بظروفها وتنتهي بانتهاء هذه الظروف. وفي بداية هذه المرحلة يكون الطفل مهتمًا بذاته. ولكن في نهايتها يتضح اهتمامه بتكوين جماعات اللعب.

وفي نهاية مرحلة التمييز تبدأ الحدود بين البنين والبنات في الظهور، كما يقوى الانتماء إلى جماعات اللعب، وتكون المنافسة جماعية، ويصبح الطفل مهتمًا بشئونه الخاصة، ويظهر بعض العناد، ويتوقع ممن يتعامل معه أن يقدره ويقدر جماعة أصدقائه، ورغم هذا فإنه يتقبل النقد من جماعة اللعب أو من أفرادها.

وفي نهاية هذه المرحلة يبدأ الميل إلى الجنس الآخر في الظهور، وإن كان هذا الميل يبدأ في شكل الرفض وعدم التقبل تغطية لهذا الميل الجديد. كما يتضح الاهتمام بالخدمة العامة مدخلًا لإثبات الذات وجذب أنظار الآخرين، والحصول على اعترافهم به وتقديرهم له.

٥- مرحلة البلوغ أو الرشد:

هذه المرحلة قد تبدأ قبل السنة الرابعة عشرة، فقد تبدأ مرحلة البلوغ في الحادية عشرة بالنسبة للذكور، وقد تبدأ قبل ذلك بالنسبة للفتيات، وقد تتأخر عن الخامسة عشرة. وعلى كل حال، فإن ظهور علامات البلوغ هي المؤشر الحقيقي لبداية مرحلة البلوغ تلك، وهي بداية الاحتمال عند الذكر والحيز عند الأنثى، ويأخذ الذكر شكل الرجال وتأخذ الأنثى شكل الإناث. وقد وجه الرسول ﷺ إلى أبناء هذه المرحلة بخاصة، وأبناء المراحل التالية بعامة قوله: " حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، قال: حدثني عمارة، عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: دخلت مع علقمة، والأسود على عبد الله، فقال عبد الله: كنا مع النبي ﷺ

شبابا لا نجد شيئًا، فقال لنا رسول الله ﷺ: (يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج،

فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(١).
ونظرًا للنمو السريع في هذه المرحلة، ونظرًا للحساسية الانفعالية في بدايتها، وتناقض تصرفات أبنائها بين الطفولة والرجولة، فإن توجيه هؤلاء ينبغي أن يتم بصورة مقبولة لديهم، كما أن للأصدقاء أثرًا كبيرًا عليهم.

وقد حذر رسول الإسلام ﷺ من أثر قرناء السوء، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ الْهَمْدَانِيُّ - وَاللَّفْظُ لَهُ - حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمَسْكِ، وَنَافِخِ الْكَيْرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ: إِذَا نَزَلَ يُحَنِّتُكَ، وَإِذَا نَزَلَ تَبْتَاعُ مِنْهُ، وَإِذَا نَزَلَ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَيْرِ: إِذَا نَزَلَ يُحْرِقُ نَيْلَكَ، وَإِذَا نَزَلَ تَجِدُ رِيحًا خَبِيثَةً»(٢).

(١) صحيح البخاري باب من لم يستطع الباءة فليصم (ج٧- ص٣- رقم ٥٠٦٦)

(٢) صحيح مسلم باب استحباب مجالسة الصالحين ج٤ - ص٢٠٢٦ - رقم ٢٦٢٨/١٤٦.

المطلب الثالث: مرحلة الشباب:

هذه المرحلة هي مرحلة بلوغ الأشد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (١) فإن "الأشد" جمع "شد" و"الشد" القوة، وهو استحكام قوة شبابه وسنه، كما "شدَّ النهار" ارتفاعه وامتداده. يقال: "أنتيته شدَّ النهار ومدَّ النهار"، وذلك حين امتداده وارتفاعه فقال بعضهم: يقال ذلك له إذا بلغ الحُلم، وقال آخرون: إنما يقال ذلك له، إذا بلغ ثلاثين سنة (٢) وهي المرحلة التي يبلغ فيها الفرد النضج الجسمي بحيث يكون قادراً على تكوين أسرة. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (٣) أي: قوي وشب وارجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين (٤). في هذه المرحلة يتم نضج الفرد الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي، ويكون عطاؤه في ذروته من حيث القوة البدنية، ومن حيث القدرة على التفكير ومن حيث الاستقرار الانفعالي. ويأتي بعد ذلك مرحلة النضج ونقدها بين السنوات "٤٠-٦٠" على وجه التقريب، وهذه هي المرحلة التي تلقى محمد ﷺ الرسالة في بدايتها، وتتلو مرحلة الشيخوخة هذه المرحلة، وتأتي فيما بعد الستين، وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذه المرحلة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّىٰ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٥)، هو الله الذي خلق أباكم آدم من تراب، ثم أوجدكم من المنى بقدرته، وبعد ذلك تنتقلون إلى طور الدم الغليظ الأحمر، ثم تجري عليكم أطوار متعددة في الأرحام، إلى أن تولدوا أطفالاً صغاراً، ثم تقوى بنيتكم إلى أن تصيروا شيوخاً، ومنكم من يموت قبل ذلك، ولتبلغوا بهذه الأطوار المقدرة أجلاً مسمى تنتهي عنده أعماركم، ولعلكم تعقلون حجج الله عليكم بذلك، وتندبرون آياته، فتعرفون أنه لا إله غيره يفعل ذلك، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له (٦).

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَنْوِقُكُمْ ثُمَّ يَنْوِقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

(١) سورة الأنعام: ١٥٢

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٢ - ص ٢٢٢).

(٣) سورة الأحقاف: ١٥

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٧ - ص ٢٨٠).

(٥) سورة غافر: ٦٧

(٦) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٧٥).

(١)، يخبر تعالى عن تصرفه في عبادته، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم. وقد روي عن علي رضي الله عنه ﴿أُرْذِلَ الْعُمُرُ﴾: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف، ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات» (٢).

الصحة الجسمية:

- قال أهل الحكمة: " إن العقل السليم في الجسم السليم " إن الإسلام ينظر لجسم الإنسان على أنه وعاء الروح فالإنسان من خلال الأتي : النظافة ، ممارسة الرياضة ، تركية النفس ، الاعتدال في الطعام والشراب ، الوقاية من الأمراض ومسارة التداوي .

أ - النظافة : دعى الإسلام إلى النظافة من الأوساخ والقذارة وهي أمة الطهارة حيث يتوضأ أفراد الأمة خمس مرات في اليوم ويغتسلون كل أسبوع وينظفون المكان والثوب والبدن كما قال أهل الحكمة: " النظافة من الإيمان والوسخ من الشيطان " .

ب- ممارسة الرياضة : أرشد الإسلام ضرورة تنمية قوة الجسم بصورة منتظمة واعتبر ذلك من الأمور الواجبة تعليمها للكبار والصغار قال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (٣) رضي الله عنه: " علموا أبناءكم السباحة والرمية وركوب الخيل " .

ج - تركية النفس: إن تقوية الجانب النفسي ضرورة في الصحة الجسمية لأن النفس عندما تتعرض للمشاكل كالوسواس والهواجس والأمراض النفسية المختلفة يتعب الإنسان معها بالضرورة وقد يصل ذلك إلى هلاكه كما في حالات الانتحار والإدمان والكآبة.

(١) سورة النحل: ٧٠

(٢) تفسير بن كثير (ج ٢- ص ٣٣٨)، والحديث في صحيح البخاري (باب وقوله "ومنكم مي يرد إلى أرذل العمر ج ٦ ص ٨٢).

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك أبو حفص العدوي وأم عمر حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أخت أبي جهل وكان قد استخلفه أبو بكر الصديق في حياته بعهد كتب له في علقته التي توفى فيها فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذب عن دين الله ويبالغ المجهود في إظهار سنن المصطفى ﷺ وأبى بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن فتح الله عليه الامصار وجبى إليه الاموال من غير ان لوث نفسه بشيء من حطام هذه الفانية الزائلة إلى ان حلت به المنية قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة بخنجر وجاء يوم الاربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة عند قيامة إلى صلاة الفجر طعنه ثلاث طعنات في ثنته وتوفى عمر رضي وله خمس وخمسون سنة وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال ودفن بجانب أبي بكر الصديق ودخل قبره عثمان بن عفان وعبد الله بن عمر. (أسد الغابة ٣ / ٦٤٢ والاصابة ٢ / ٥١٨ رقم ٥٧٣٦).

د- الاعتدال في الطعام الشراب والأكل والنوم : إن هذه الأمة هي أمة الوسط والتوسط في كل شيء تقريبا ، فلا ينبغي أن يطغى فيها جانب عن جانب آخر فالطعام والشراب الأكل والنوم ضروريات للجسم والروح ولكن المبالغة فيه أو التقليل منها يعرض الإنسان إلى أي الجسد والروح إلى الخطر قال الله تعالى: ﴿وَكُنُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (١).

هـ- الوقاية من الأمراض : وهذا يقتضي تجنب أسبابها الموضوعية من النجاسات كالخمر والمخدرات والزنا والعدوى وعدم الدخول أرض بها أو الخروج منها.
ر- المسارعة إلى التداوي: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا، وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ» (٢).

(١) سورة الأعراف: ٣١

(٢) صحيح دون ما بين القوسين: تخريج المشكاة (٤٥٣٨) ثم صحيح بتمامه: السلسلة الصحيحة (١٦٣٣).

المبحث الثالث

خصائص الإنسان النفسية

النفس: هي مصدر السلوك والتوجيه حسب ما يغمرها من أفكار ويصبغها من عواطف. إنَّ الاعتناء بصحة النفس لا يتعارض مع المطالب المادية للجسم والمطالب المعنوية للعقل، ولا يتنافى مع حاجات الإنسان، وسواء منها ما كان ضرورياً كالأكل والشرب واللباس والنوم والراحة، أو طبيعياً كالزواج والعمل والسلامة البدنية والصحة العقلية، بيد أنَّ للصحة النفسية حق الهيمنة على هذه الضروريات من أجل أن يحفظ للإنسان توازن كامل بين مطالبه الروحية ومطالبه المادية، فتكمل بذلك إنسانيته، ويرتقي ببشريته إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة. عناية القرآن بالصحة النفسية: لا شك أن القرآن الكريم اعتنى بالنفس اعتناء خاصاً، وذلك من خلال ما يأتي:

المطلب الأول: تقوية الصلة بالله تعالى وأثارها النفسية

وذلك من خلال تصحيح العقيدة الإسلامية وربط الإنسان مباشرة بربه والتفائل معه بكثرة الأذكار قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَجَرُّعًا وَقَلْبًا وَأَدْمَاقًا وَأَكْمَامًا يَحْفَظُونَ مَا آتَاهُم مِّنَّا حَتَّىٰ يُبَدِّلُوا أَمْثَلًا مِّنَ الَّذِي آتَاهُم مِّنَّا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

فذكر الله وعبادته تحقق الاطمئنان وتهذب الانفعالات الإنسانية اعتماداً على نصوص من القرآن والحديث يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلُقٌ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلْمَسْأَلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوَاتِهِمْ * وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢) إن الإنسان جبل على الجزع وشدة الحرص، إذا أصابه المكروه والعسر فهو كثير الجزع والأسى، وإذا أصابه الخير واليسر فهو كثير المنع والإمساك، إلا المقيمين للصلاة الذين يحافظون على أدائها في جميع الأوقات، ولا يشغلهم عنها شاغل، والذين في أموالهم نصيب معيّن فرضه الله عليهم، وهو الزكاة لمن

(١) سورة الرعد: ٢٨

(٢) سورة المعارج: ١٩-٣٥

يسألهم المعونة، ولمن يتعفف عن سؤالها، والذين يؤمنون بيوم الحساب والجزاء فيستعدون له بالأعمال الصالحة، والذين هم خائفون من عذاب الله. إن عذاب ربهم لا ينبغي أن يأمنه أحد. والذين هم حافظون لفروجهم عن كل ما حرم الله عليهم، إلا على أزواجهم وإمائهم، فإنهم غير مؤاذين. فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات، فأولئك هم المتجاوزون الحلال إلى الحرام. والذين هم حافظون لأمانات الله، وأمانات العباد، وحافظون لعهودهم مع الله تعالى ومع العباد، والذين يؤدّون شهاداتهم بالحق دون تغيير أو كتمان، والذين يحافظون على أداء الصلاة ولا يخلّون بشيء من واجباتها. أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة مستقرّون في جنات النعيم، مكرمون فيها بكل أنواع التكريم^(١).

فهذه الآيات البيّنات توضح في بدايتها حقيقة نفسية أصيلة، وهي أن الإنسان خلق مجبولاً على الخوف الشديد. والهلع هو الخوف الشديد يملأ قلب الإنسان في الشدة والرخاء معاً، لا يحتمل أقل شيء من الشدة ولو كان مساً خفيفاً، ولا يتماسك في حال الرخاء، ولا يملك نفسه من شدة الخوف على زوال النعمة وانقضاء ساعة الرخاء. هكذا خلق الإنسان، جزوع شديد التأثير، قليل الصبر إذا مسه الشر. هذه حال قلب الإنسان حين يكون مقطوع الصلة بالله، محروماً من نعمة الإيمان لا يستقر على حال، ولا يذوق طعم السكينة والاطمئنان، يتمزق خوفاً من الشر قبل وقوعه، وينهار تحت وقعه إذا وقع.

تلك صورة نفس الإنسان كما رسمها خالقها العليم الخبير، في ضعفها وشدة خوفها، إنها صورة صادقة للإنسان حين يكون قلبه فارغاً من الإيمان، بعيداً عن خالقه، لا يهتدي في حياته بهديه، ولا يتبع منهجه، ولا يستعين بذكره وعبادته. تلك حال الإنسان، وإنها لحال شقية بئيسة، لا يملك لها دواء، ولا يجد منها لنفسه خلاصاً، إلا بأن يكون من المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، وأن يكون من الذين يتحلون بالصفات الإيمانية والفضائل الإسلامية التي ذكرت في الآيات السابقة، من أداء حق السائل والمحروم، والإيمان بيوم الدين والإشفاق من عذاب رب العالمين، وحفظ فرجه، والوفاء بالأمانات والعهود، والقيام بالشهادة لله، والمحافظة على الصلاة.

هذه هي الوصفة الإيمانية التي وصفها الخبير الحكيم لداء الهلع والخوف الذي يلزم قلب الإنسان حين يكون محروماً من هذا الدواء.

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٦٩).

وبالنظر إلى هذه الوصفة الربانية نجد أن الصلاة هي أهم عنصر فيها، ذكرت في بدايتها ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، وأعيد ذكرها في خاتمتها، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ نعم إن الصلاة دواء للقلوب وتهذيب للنفوس، ووسيلة لمواجهة الخطوب والأزمات، ولذلك يقول الله عز وجل في خطاب المؤمنين المجاهدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) يا أيها المؤمنون اطلبوا العون من الله في كل أموركم: بالصبر على النوائب والمصائب، وبالصبر على ترك المعاصي والذنوب، والصبر على الطاعات والقربات، وبالصلاة التي تطمئن بها النفس، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر. إن الله مع الصابرين بعونه وتوفيقه وتسديده. وفي الآية: إثبات معية الله الخاصة بالمؤمنين، المقتضية لما سلف ذكره؛ أما المعية العامة، المقتضية للعلم والإحاطة فهي لجميع الخلق^(٢).

وقال في خطاب نبيه، ﷺ، وإرشاده إلى الإكثار من التسبيح والسجود ومواصلة العبادة عندما يضيق صدره من جرّاء توالي الشدائد: ﴿وَلَقَدْ نَعِمْنَا أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣).

الشاهد من الآيات فافزع إلى ربك عند ضيق صدرك، وسبِّح بحمده شاكراً له مثنيا عليه، وكن من المصلين لله العابدين له، فإن ذلك يكفيك ما أهمك^(٤).

وقد روى أنه، ﷺ، كان يهتدى بهذه التوجيهات التربوية الربانية فيلجأ إلى كنف الله، ويفزع إلى الصلاة والدعاء كلما اشتد عليه البلاء.

ومعلوم أن الصلاة وسائر العبادات لا تُحدث آثارها المباركة في نفس الإنسان إلا بمداومتها، لأنها غذاء القلب والروح، والغذاء الروحي القلبي كالغذاء المادي الجسدي لا تظهر آثاره ومنافعه إلا إذا كان منتظماً دائماً، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾. ثم إن المداومة على الصلاة وغيرها من العبادات لا تؤتي ثمارها المنشودة إلا بالمحافظة عليها، والمحافظة على الصلاة تدل على معنى زائد على المداومة عليها، ويدل على الحرص عليها والعناية بأدائها في أوقاتها على أفضل وجه ممكن من الإحسان والإتقان والإخلاص، فهي أهم

(١) سورة البقرة: ١٥٣

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٣).

(٣) سورة الحجر: ٩٧-٩٩

(٤) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٦٧).

عنصر في علاج داء الهلع، ومن المعلوم أن الدواء لا يحدث التأثير الصحي المطلوب إلا بالمحافظة عليه بالمقادير الموصوفة، وفي المواعيد المحددة، بطريقة منتظمة.

وسائر الخصال الإيمانية التي اشتملت عليها الآيات تتدرج كلها في معنى العبادة بالمعنى الشامل لها، وإن ذكرها مع الصلاة في سياق واحد ليدل على أن الإيمان والعبادة مسألة ضخمة في حياة الإنسان، إنها ليست مجرد كلمات تقال باللسان، أو شعائر تعبدية تقام، إنها حياة للقلب والروح، وتهذيب لنفس الإنسان وانفعالاته وحين يكون القلب خاوياً من الإيمان، وتتقطع صلته بربه يصبح فريسة سهلة للخوف والهلع، وغيرها من الانفعالات العنيفة.

الإيمان باليوم الآخر وآثاره النفسية:

الإيمان بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية، لها آثار طيبة على نفس الإنسان وحياته وسلوكه في الدنيا، لأنه يجعل الإنسان يعلق نظره ورجاءه بالله تعالى في عالم آخر بعد عالم الأرض، فلا تستبد به ضرورات الحياة الدنيا، ولا يستبد به القلق على تحقيق جزاء سعيه في عمره القصير المحدود، وبذلك يملك القوة على العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله، في طمأنينة وثقة ويقين في الله. وفي إصرار على الحق ولو كان مرأاً. ومن ثم فإن الإيمان باليوم الآخر يمثل مفرق الطريق في حياة الإنسان بين العبودية للنزوات والشهوات، وبين التعلق بالقيم الروحانية والاستعلاء على القيم الأرضية.

الإيمان بحياة أخرى بعد الموت له أثر بالغ في حياة الإنسان وسلوكه وأخلاقه. المؤمن بالآخرة يفعل الخير، وإن كان يبدو غير مريح له في الدنيا، ويتجنب الشر، وإن كان يبدو مريحاً، لأنه يقدر الأمور بعواقبها النهائية، وليس بمدى موافقتها لنزواته وغرائزه.

المؤمن بالآخرة وبالْحساب بين يدي الله يراقب أفعاله ويحاسب نفسه، ويكون حريصاً على ألا يضيع سعادته الأبدية مقابل مكسب دنيوي عابر.

هناك فرق جوهري بين المؤمن بالآخرة وبين الكافر بها، في أخلاقهما، وفي مقاييسهما، ونظرتهما إلى الأمور، العمل الحسن في نظر الكافر هو كل ما يجلب له كسباً وربحاً في الدنيا، وكل همه إشباع رغباته الذاتية، لا يتخرج من استخدام الوسائل الظالمة لبلوغ أهدافه، والعمل السيء في نظره هو كل ما يدخل ضرراً على مصالحه الدنيوية، أو يحول بينه وبين إشباع شهوة من شهواته.

أما المؤمن بالآخرة فالعمل الحسن في نظره هو كل ما يرضى الله عز وجل. والعمل السيئ هو كل ما يؤدي إلى غضبه، والعمل الحسن يكون حسناً، في نظر المؤمن، وإن لم يجلب له

منفعة شخصية عاجلة في الدنيا. بل يكون حسناً وإن كان مضراً ببعض مصالحه الدنيوية لأنه على ثقة من أن الله سيجازيه في الحياة الدائمة.

المؤمن بالآخرة لا يسلم بنسبية الأخلاق، لأنها قيم ثابتة مطلقة منزلة من عند الله، لهذا كله فإن الإيمان بالآخرة هو الذي يجعل الإنسان يختار في الدنيا طريقاً أو سلوكاً دون آخر. وفي الحقيقة يستحيل أن يكون الإنسان صالحاً إذا كان كافراً باليوم الآخر، لأن إنكار الحياة الأخرى والحساب يقتلع الإحساس بالمسؤولية من قلبه ويهبط به من مستوى الإنسانية المكرمة إلى مستوى أسفل الحيوانات.

والإيمان بالآخرة يُفيض السلام والسكينة على روح المؤمن وشعوره، ويبعد عنه القلق والسخط والقنوط، الإيمان بالآخرة يعنى الإيمان بأن الحساب الختامي ليس في هذه الدنيا، بل هو هناك في الحياة الأخرى حيث العدالة المطلقة مضمونة بين يدي الله، فلا ندم إن في قلب المؤمن، ولا قلق ولا قنوط بسبب ما يقع للإنسان في الحياة الدنيا، فالعدل والجزاء واقع لا شك فيه.

والإيمان بالآخرة حارس للقيم الأخلاقية النبيلة، حاجز دون الاندفاع في الصراع المحموم على متاع الدنيا، ذلك الصراع الذي تداس فيه القيم والحرمان والأخلاق وأوامر الله ونواهيه بلا حرج ولا حياء.

ثم أن معرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة، وأنه مخلوق ليعبد الله، من شأنها، ولاشك، أن ترتقي به إلى هذا المستوى الرفيع من الأخلاق، ترتقي بشعوره واهتماماته وأنشطته وأعماله، وتنظف وسائله، فهو يقصد بنشاطه وعمله، وكسبه وإنفاقه، عبادة الله تعالى، وهو يريد بامتثال كل أمر واجتناب كل نهي، العبادة. فأولى به، وذلك هو قصده النبيل، ألا يغدر ولا يفجر ولا يغش ولا يخدع، ولا يطغى ولا يتجبر، وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة، ولا وسيلة خسيسة.

الإيمان بالآخرة ليس طريقاً للثواب في الآخرة فحسب كما يعتقد بعض الناس، إنما هو حافز، كذلك، على الخير في الحياة الدنيا، حافز على إصلاحها وإنمائها، إنه وسيلة لتحقيق حياة كريمة لاثقة بالإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه. ورفعته عن درك الحيوان، لتكون اهتماماته وأهدافه أرفع من ضرورات الحيوان.

إن الإيمان بالآخرة، وبما وعد الله به فيها من الجزاء الأوفى، إذا رسخ في القلب تحول إلى

قوة دافعة تجعل الإنسان مستعداً للبذل والعطاء والتضحية في سبيل الخير والصلاح، وتجعل خلقه وسلوكه مستقيماً، وتجعل الأوضاع الاجتماعية صالحة قويمه، لأن الأفراد إذا كانوا صالحين، فإنهم لا يتركون أحوالهم الاجتماعية تفسد وتتحرّف. ولكي يبقى الإيمان بالله وباليوم الآخر قوة حية في الضمير تدفع إلى الخير، وتحبس عن الشر، فرض الله العبادات وحدّ الحدود، لتكون وسيلة لتجديد الإيمان وزيادته وتقويته، وبقدر ما يداوم الإنسان عليها يكون تجدد إيمانه وتأثيره في النفس والسلوك والأخلاق.

المطلب الثاني: الثبات والتوازن الانفعالي:

إذا كان الإنسان يحتاج إلى الإيمان والعمل الصالح والعبادة لحفظ التوازن في كيانه وحياته بين المطالب الجسدية والروحية، ووقاية فطرته من الانتكاس والتردي إلى الدرك الأسفل من المراتب، فإنه يحتاج إليها أيضاً لتهديب انفعالاته التي خلق مجبولاً عليها، أو التخفيف من عنفها وحدتها، كالهلع والجزع والغضب واليأس والقنوط والبطر والغرور والفخر والتكبر.. وغير ذلك من الانفعالات التي قد تبلغ درجة من العنف تدمر حياة الإنسان، وتدمر معها من حوله. فالإنسان مزود بغرائز ودوافع فطرية قوية، والإسلام يعترف صراحة بتلك الدوافع الفطرية، ويدعو إلى تنظيمها وضبطها، والتخفيف من اندفاعها وجموحها، ويعين الإنسان برفق على أن يكون مالكاً لزماتها، ويضع له نظاماً حكيماً لتهديب نفسه وتركيتها، ويملاً حياته باهتمامات نبيلة تستنفذ جانباً كبيراً من طاقاته، ويوجه تطلعاته إلى لون آخر من اللذة الروحية أرقى وأسمى من الشهوات المادية المحسوسة.

يقول الله عز وجل: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ * قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لَدِّينَ اتَّقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْأَعْمَارِ ﴿١﴾ يعني تعالى ذكره: زَيْنٌ للناس محبة ما يشتهون من النساء والبنين وسائر ما عدّ، وإنما أراد بذلك توبيخ اليهود الذين آثروا الدنيا وحبّ الرياسة فيها، على اتباع محمد ﷺ بعد علمهم بصدقه (٢).

في هذه الآيات تقرير وبيان لواقع الإنسان وطبيعته، فهو بفطرته يميل إلى حب الشهوات، شهوة النساء والبنين والمال والخيول والأنعام والحرث، بل إن هذه الشهوات مزينة له لحكمة إلهية، وهذا الميل الفطري جزء من تكوينه الأصل لأنه ضروري للحياة البشرية. لكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانباً آخر هو تلك النفخة الروحية التي هي قوام إنسانيته وأهم خصائصها، ولهذا الجانب الروحي مطالبه كذلك وحاجاته الحيوية، لكن هذه المطالب الروحية ليست غريزية كالشهوات الجسدية، لذلك يحتاج الإنسان إلى التنكير والترغيب والترهيب كي لا ينساها تحت ضغط الغرائز والشهوات، ويحتاج إلى وازع قوي وإلى رياضة

(١) سورة آل عمران: ١٥

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٦ - ص ٢٤٣).

روحية مستمرة، ومجاهدة إرادية دائمة كي يزكي نفسه، ويصونها من الانغماس في الشهوات، والانتكاس إلى مرتبة البهائم، ولهذا شرعت العبادات.

وهنا موضع الخلاف بين الإسلام وبين علم النفس الغربي الذي يدعو إلى إطلاق الإنسان من قيود الدين والأخلاق والتقاليد. الإسلام يدعو إلى تزكية النفس ومجاهدة ميولها ودوافعها، ويؤكد أن فلاح الإنسان في حياته الأولى والآخرة مرهون بتلك التزكية، قال الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلَمَهَا أَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١) أي قد فاز من زكى نفسه وأنامها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب وظفر بكل محبوب، ويقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (٢) أي تطهر من الكفر بالإيمان، ومن المعاصي بالطاعة. أو هو بمعنى تصدق بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّى﴾ الصلاة المكتوبة (٣).

وجعل من أهداف بعثة رسله تزكية الإنسان، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَالِّينَ﴾ (٤) أي تفضل عليهم وأكرمهم وأعزهم ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ محمداً: خاتم الرسل وإمامهم؛ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي من جنسهم، ولسانهم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ من القرآن الكريم ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ العلم النافع (٥).

فالإسلام يدعو إلى تزكية النفس، ويفرض قيوداً لضبط شهواتها، لأن الخالق سبحانه يعلم أن تلك القيود ضرورة إنسانية ملحة لحفظ كيان الفرد وتوازنه وسلامة المجتمع ونظافته. فالشهوات قوية جامحة وإرادة الإنسان ضعيفة، حب النساء وحب المال والبنين شهوات، ودوافع غريزية قد تصل في جموحها إلى درجة كافية لأن تدمر حياة الإنسان، حين يباح لها الإشباع بلا قيود ولا حدود.

فالمؤمن يتحلى بضبط النفس ورباطة الجأش وهذا يتحقق بصفاء سريرته وصدقه مع

(١) سورة الشمس: ٧-١٠

(٢) سورة الأعلى: ١٤-١٥

(٣) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٧٤٥).

(٤) سورة آل عمران: ١٦٤

(٥) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٨٣).

الله فيحصل له الثبات والسكينة قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١) يثبت الله الذين آمنوا بالقول الحق الراسخ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وما جاء به من الدين الحق يثبتهم الله به في الحياة الدنيا، وعند مماتهم بالخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين بهدايتهم إلى الجواب الصحيح، ويضل الله الظالمين عن الصواب في الدنيا والآخرة، ويفعل الله ما يشاء من توفيق أهل الإيمان وخذلان أهل الكفر والطغيان (٢).

وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣) هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين بالله ورسوله يوم "الحديبية" فسكنت، ورسخ اليقين فيها؛ ليزدادوا تصديقاً لله واتباعاً لرسوله مع تصديقهم واتباعهم. والله سبحانه وتعالى جنود السموات والأرض ينصر بهم عباده المؤمنين. وكان الله عليماً بمصالح خلقه، حكيمًا في تدبيره وصنعه (٤).

الجانب السيء من الحضارة المعاصرة:

ومن سوء الحظ أن الجانب الروحي من حياة الإنسان لم يحظ في الحضارة المعاصرة إلا بالقليل جداً من العناية. وعلى العكس من ذلك تماماً بالغت في تقوية الغريزة الجنسية والشهوة الحيوانية في الإنسان إلى حد أفقده توازنه وإنسانيته.

إن الخطر الذي يهدد الإنسانية في العصر الحاضر ليس في أن هذه الحضارة — كما يقال — أطلقت الحرية للفكر الإنساني في البحث عن الحقيقة، بل إن الخطر يأتي — على العكس مما يقال — من كونها تضعف الفكر الإنساني بوضعه تحت ضغط الشهوات الحيوانية القاتلة، والحضارة المعاصرة تفننت وبالغت في ابتكار وسائل تقوية الغرائز الحيوانية في الإنسان، انظر إلى كتب الروايات، إنها مليئة بالخلاعة والفاحشة، وانظر إلى الأفلام والأشرطة المثيرة للشهوة الجنسية، والمشحونة بصور الاتصال والعلاقات الجنسية، وانظر إلى أماكن اللهو الليلية، إنها مليئة بألوان الاستعراض وفنون الرقص التي أعدت قصداً لإثارة الشهوة.

(١) سورة إبراهيم: ٢٧

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٥٩).

(٣) سورة الفتح: ٤

(٤) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥١١).

وقد أصبحت هذه الفنون التي تقام في الحانات والنوادي والسهرات الليلية أكثر أساليب التسلية الشعبية انتشاراً، وأسهمت دور تصميم الأزياء النسائية بدور كبير في تأجيج نار الشهوة الجنسية بما تصممه من الأزياء المثيرة.

ولقطف ثمار كل هذه الوسائل المثيرة أبيحت الفرص الكاملة لاختلاط الجنسين بلا قيود. وفي هذا الجو المشحون بالإثارة الجنسية المستمرة أصبح من المستحيل تماماً على عدد كبير من الناس أن يستخدموا طاقاتهم الفكرية والمعنوية بحرية وهدوء، وأن يستجيبوا لفطرتهم التي فطرهم الله عليها باعتدال وتوازن.

نعم إنه صار من المستحيل على العدد الكثير من الذين فتحوا أعينهم على هذا الجو غير الصحي الذي أنشأته الحضارة المعاصرة أن يفكروا بحرية وهدوء وتركيز، ومن ثم صار فقدان التوازن في حياة الإنسان المعاصر بارزاً للعيان.

وقد حذر من خطورة هذه الحضارة المعاصرة عدد من مفكري الغرب أنفسهم. يقول المفكر الفرنسي دوبروكبي^(١) "De Brogbi": إن الخطر يكمن في حضارة موهلة في المادية.. فعن هذه الحضارة ذاتها سينتج فقدان التوازن، إذا كانت تربية الأرواح الموازية لطغيان المادية عاجزة عن إيجاد التوازن الضروري^(٢).

ويقول لورد سنيل "Lord Snell": لقد بنينا بناءً متناسقاً باعتبار مظهره الخارجي (يشير إلى المنجزات المادية للحضارة المعاصرة) لكن أهملنا المطلب الجوهرى لعنصر فطري في حياتنا (يقصد الروح) لقد صممنا وزينا ونظفنا الكأس من الخارج، لكن داخله مليء بالعفن.. إننا نستخدم معارفنا المتزايدة في رفاهية الجسد، لكن تركنا الروح في فقر وهزال.

الإسلام منهج التوازن:

أما الإسلام فإنه يسعى إلى تحقيق التوازن في حياة الإنسان بين هذين العنصرين، بين الباطن والظاهر، بين الروح والجسد. وتعاليمه تستجيب للحاجات الروحية للإنسان إلى تزكية نفسه وإلى إصلاح حياته المادية الفردية والجماعية معاً^(٣).

الغاية العليا للإسلام هي إيجاد التوازن في نفس الفرد، وفي المجتمع، بقدر ما يكون هذا في

(١) دوبروكبي: ولد عام ١٨٩٢، وتخصص في الفيزياء وبرع فيها، وكان من المقربين لأينشتاين، حصل عام ١٩٢٩ على جائزة نوبل في الفيزياء، وتولى منصب سكرتير الأكاديمية الفرنسية للعلوم، ساهم في تطوير نظرية الكم، واختراع المجهر الإلكتروني، وكانت وفاته عام ١٩٨٧ (معجم الفلاسفة).

(٢) الإسلام اختيارنا، ص 10. Islam our Choice, p.10.

(٣) الإسلام اختيارنا، ص ١١.

حدود الإمكان. وبهذا التوازن يمتاز الإسلام عن الديانات التي اشتملت على الكثير من التعاليم التي تخالف الطبائع البشرية، كما يمتاز عن الاتجاهات الفلسفية الانحلالية التي تريد الانحدار بالإنسان إلى مستوى الحيوان.

وحين يوجه الإسلام العناية إلى التربية الروحية وتركية النفس بما يفرضه من العبادات، ويضعه من الحدود والقيود لضبط الشهوات وتنظيم الاستجابة الفطرية لحاجاتها، لا يفعل ذلك إلا لحفظ كيان الفرد وسلامته ومصالحته.

ولا يكتفي الإسلام في تهذيب الغرائز والشهوات بوضع القيود والحدود، بل يعمل على تقوية الإرادة والعزيمة في الإنسان، ويقوي في حسه الوازع الأخلاقي والديني المنبثق من تقوى الله. ويفتح أمامه ميادين العمل الصالح، ويرغبه في الإكثار منه بالثواب العظيم. ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ (١) ويرفع العمل الصالح إلى مرتبة العبادة.

إلى جانب كل ذلك يفرض الإسلام أنواعاً من العبادات لتزكية النفس وحفظها من سورة الشهوات. فالصلاة مثلاً تنتهي عن الفحشاء والمنكر، والصيام وجاء للشباب الذي لا يستطيع الزواج، وهو أغض للبصر وأحصن للفرج، والزكاة تطهر النفس من رذيلة البخل وتعودها العطاء.

نستخلص مما تقدم في هذا الفصل أن فلاح الإنسان في حياته الأولى والآخرة متوقف على تزكية نفسه وتهذيب انفعالاته وميوله وغرائزه الفطرية، وأن السبيل إلى هذه التزكية واحد لا ثاني له هو التربية الروحية والمجاهدة ومداومة العبادة والاعتصام بمنهج الله والاستقامة عليه.

فالخالق سبحانه هو الخبير بأسرار النفس الإنسانية، وهو العليم بما يصلح لتزكيته وتطهيرها. وسنرى في الفصل الأخير من هذا البحث، أن العبادات التي فرضها الإسلام من أهم مقاصدها تطهير الإنسان من دنس المعاصي. فهي مشروعة ومفروضة لمصلحة الإنسان، وهي من فضل الله عليه. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢) ولولا فضل الله على المؤمنين ورحمته بهم ما طهر منهم أحد أبداً من دنس ذنبيه، ولكن الله -بفضله- يطهر من يشاء. والله سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم (٣) والله سبحانه وتعالى، غني عن العالمين.

ورسوله، ﷺ، الذي يعلم أن تزكية الإنسان من فضل الله، كان يدعو ويقول: «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها».

(١) سورة التوبة: ١٠٥

(٢) سورة النور: ٢١

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٩٢).

المطلب الثالث : المرونة في مواجهة الواقع :

- إن واقع الحياة فيه يمتزج الخير بالشر وبضدها تعرف الأشياء كما يقول أهل الحكمة ورب ضارة نافعة فلا داعي للقلق والاضطراب والتوتر عند حصول المكاره والنكبات ولكن الزمن مليء بالمفاجئات والمباغئات فينبغي للعاقل أن يستثمرها لتقوية حصانته النفسية وليعلم أنه يتعلم باستمرار من مدرسة الحياة قال الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَرَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) وهذه الآية عامة مطردة، في أن أفعال الخير التي تكرها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس لما تتوهمه فيها من الراحة واللذة فهي شر بلا شك.

وأما أحوال الدنيا، فليس الأمر مطردا، ولكن الغالب على العبد المؤمن، أنه إذا أحب أمرا من الأمور، فقيض الله (له) من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك، أن يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبء من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢) فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم (٣).

توافق المسلم مع نفسه ومع الآخرين :

لأن النقصان والضعف والعيوب هي صفات الإنسان الأساسية وعليه يجب إن يقبل نفسه كما أراد الله له فلا يتشام ولا يسخط وليعلم إن له دور ووظيفة في الحياة ويجب عليه القيام بها وبفضل الإيمان والتربية الصحيحة يكسب الإنسان هذه الثقة كما يجب عليه قبول الآخرين والتفاعل معهم بإيجابية والتسامح معهم ويطهر قلبه من الكراهية والبغضاء والأخطاء وتقديم العفو والصفح وكظم الغيظ وهذا أكبر دليل على تقوى الله والتوازن النفسي قال تعالى: ﴿وَلَا

سَتَوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا

(١) سورة البقرة: ١٦٤

(٢) سورة البقرة: ٢١٦

(٣) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٩٦).

الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١﴾ لا تستوي حسنة الذين آمنوا بالله، واستقاموا على شرعه، وأحسنوا إلى خلقه، وسيئة الذين كفروا به وخالفوا أمره، وأسأوا إلى خلقه. ادفع - أيها الرسول - بعفوك وحلمك وإحسانك من أساء إليك، وقابل إساءته لك بالإحسان إليه، فبذلك يصير المسيء إليك الذي بينك وبينه عداوة كأنه قريب لك شفيق عليك. وما يُوفَّق لهذه الخصلة الحميدة إلا الذين صبروا على المكاره والأذى، وحملوا أنفسهم على ما يحبه الله، وما يُوفَّق لها إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة (٢).

إن أفضل شيء في هذه الحياة أن تحب الناس ويحبونك وتألفهم ويألفونك وعند فقدان هذا الأمر تكون الكارثة حيث يتحرك الجحيم والعذاب النفسي، ولذلك كانت الأخلاق الرصيد لفتح القلوب والسيطرة على مشاعر الناس قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٣) وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم *** نطالما استعبد الإحسان إنسان

كذلك التفاؤل وعدم اليأس لان اليأس صفة من صفات الضالين المكذبين الكافرين قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكٰفِرُونَ﴾ (٤) لا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله، إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته، الكافرون به، لأن الإيمان في حقيقة الأمر ما هو إلا قوة التفاؤل والأمل ولذلك قال تعالى على لسان النبي ﷺ وهو يذكر صاحبه أبا بكر بهذه الحقيقة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (٥).

ومن الانفعالات العنيفة التي تسيطر على قلب الإنسان في حال الضراء والبلاء القنوط. فمن طبيعة الإنسان، حين يكون مقطوع الصلة بالله، محروماً من نفحات الإيمان، ومن الأنس بعبادة الله أن تتأرجح نفسه بين اليأس والقنوط في وقت الضراء، والبطر والطغيان في وقت الرخاء والنعماء لا يهذب هذه الانفعالات ولا يخفف من عنفها ولا يقف بها عند حد الاعتدال إلا الإيمان والعمل الصالح أي العبادة بمعناها الواسع الذي يعني دوام اتصال القلب والوجدان بالله تعالى.

(١) سورة فصلت: ٣٤-٣٥

(٢) التفسير الميسر (ج ١ ص ٤٨٠).

(٣) سورة الرحمن: ٦٠

(٤) سورة يوسف: ٨٧

(٥) سورة التوبة: ٤٠

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ * وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمًا بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١) يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيرا منها عليه.

وأه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: فرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدرائهم، وأي عيب أشد من هذا؟! وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطنوا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو: الفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهيبه الأنفس، وتلذ الأعين (٢).

وإنما ذكرت صفة الصبر في موضع الإيمان لأن الصبر أعظم شعب الإيمان، وأبرز خصال المؤمن، والدليل على أن لفظ الصابرين يستعمل في القرآن بمعنى المؤمنين قوله تعالى في آية أخرى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣).

بعد هذا التحقيق نعود إلى الآية الكريمة لنبين فضل العبادة في تهذيب النفس، والتخفيف من انفعالات اليأس والقنوط ومن البطر والفخر، يبين الله تعالى طبيعة النفس الإنسانية وصورتها حين تكون فارغة من الإيمان، محرومة من الأُنس بالله وعبادته. إنها بين اليأس الكافر وبين البطر الفاجر، إذا ذاق رحمة الله ثم نزع منها، وحل محلها البؤس والشدة استسلمت لليأس ونسيت ما كانت فيه من رحمة، وضافت بها الدنيا، وحسبت أن ساعة الشدة لا تنتهي ولا تزول، هذه حال النفس الكافرة التي لا تتطلع إلى الفرج من عند الله، ولا تعلق رجاءها برحمته

(١) سورة هود: ٩-١١

(٢) تفسير السعدي (ج ١، ص ٣٧٨).

(٣) سورة إبراهيم: ٥

الواسعة، ولا تستمد من عبادته ما يهون عليها مصائب الدنيا. وفي حال النعماء بعد الضراء، تمتلئ بطراً وفخراً وغروراً وأنانية، وتحسب أن البؤس والشدة ذهبا إلى الأبد.

ثم استنتى الله عز وجل من هذه القاعدة الكلية الذين صبروا وعملوا الصالحات، فهؤلاء يستطيعون بفضل إيمانهم وصبرهم، وبفضل عمل الصالحات، وفي مقدمتها امتثال أمر الله واتباع دينه ومنهجه، أن يملكوا أنفسهم وانفعالاتهم في وقت زوال النعمة، فلا يستبد بهم اليأس والقنوط، وفي حال عودة النعمة والرخاء، فلا يستبد بهم البطر والفخر والغرور.

"إن الإيمان الجاد الذي يتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في وقت الشدة، كما يعصمها من البطر الفاجر في وقت الرخاء، وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء واعتدال في البأساء والنعماء. ويربطه بالله تعالى في حاله. فلا ينهار تحت مطارق اليأس ولا يختال بطراً حين تستحقه النعمة"^(١).

وما دام الإنسان في الدنيا فهو هدف لسهام المصائب والشدائد. والإيمان والأنس بعبادة الله هو درعه الذي يخفف عنه ما أصابه منها، فالإيمان يعلمه أن ما أصابه فيأذن الله ولا مفر منه، ويهتدي قلبه بذلك فلا يسخط ولا يبأس ويلوذ إلى كنف الله وإلى عبادته ويلقي بين يديه تعالى كل ما يتقل كاهله من أثقال ومتاعب. فإذا السكينة والرضى ينسكب في قلبه حتى ولو كان في أشد لحظات المصيبة. قال الله عز وجل: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾^(٢) ما أصاب أحداً شيئاً من مكروه يحلُّ به إلا بإذن الله وقضائه وقدره. ومن يؤمن بالله يهد قلبه للتسليم بأمره والرضا بقضائه، ويهدده لأحسن الأقوال والأفعال والأحوال؛ لأن أصل الهداية للقلب، والجوارح تبع. والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء من ذلك^(٣).

حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدِ الْأَزْدِيُّ، وَشَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ، جَمِيعًا عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةَ - وَاللَّفْظُ

(١) في ظلال القرآن سيد قطب (ج ٤ - ص ١٨٦٠) الناشر: دار الشروق بيروت القاهرة، الطبعة: السابعة عشر ١٤١٢ هـ -

سيد قطب بن إبراهيم: مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط. تخرج بكلية دار العلوم (بالقاهرة) سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في مجلتي (الرسالة والثقافة) وعين مدرسا للعربية، فموظفا في ديوان وزارة المعارف. ثم مراقبا فنيا للوزارة. وأوفد في بعثة لدراسة (برامج التعليم) في أميركا (١٩٤٨ - ٥١) وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (١٩٥٣ - ٥٤) وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى ان صدر الأمر بإعدامه، فأعدم. الأعلام للزركشي (ج ٢ - ص ١٤٧).

(٢) سورة التغابن: ١١

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٥٧).

لَشَيْبَانَ - حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ (١)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سِرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضِرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (٢).

العبادة تساعد على كظم الغيظ:

ومن الانفعالات النفسية العنيفة التي قد تعصف بالإنسان وبمن حوله إذا لم يهذبها الإيمان والتأدب بآدابه، الغضب، فالغضب انفعال قوي عنيف ينبع من فطرة الإنسان. والإسلام يعترف بالفطرة الإنسانية، لذلك لا ينكر حق الإنسان في أن يغضب ويتأثر بما يصيبه من الأذى، ويتعرض له من سوء أو إهانة. ولكنه في الوقت نفسه يهتف بالإنسان أن يملك نفسه في وقت الغضب، ويحافظ على الاعتدال في انفعاله. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَعَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ حَمَّادٍ، قَالَا: كِلَاهُمَا قَرَأْتُ عَلَى مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ (٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّارِعِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (٤).

في هذا الحديث دليل على أن الغضب انفعال عنيف، وأن التحكم فيه وفي زمام النفس عند فورانه مطلب صعب، لا يقوى عليه إلا الشديد القوي من الرجال. ولهذا نبه رسول الله ﷺ، إلى أن الرجل الشديد في الحقيقة هو الذي يقوى على أن يملك نفسه عند الغضب، وليس كما يعتقدون هو الذي يقوى على أن يصرع كل من يصارعه.

وما نحتاج إلى توضيحه هنا، هو أن الإنسان لا يبلغ إلى اكتساب تلك القوة النفسية التي تمكنه من القدرة على ضبط نفسه في ساعة الغضب إلا بالتربية الإيمانية التي تغرس في نفسه أخلاق الصبر والسماحة والعتو عن الناس، ولتحريض المؤمنين على هذا الخلق النبيل جعل الله تعالى كظم الغيظ من صفات الإيمان التي يحب أهلها. قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن

(١) صُهَيْبُ بْنُ سَيَانَ أَبُو يَحْيَى النَّمِرِيُّ: مِنَ النَّمْرِ بْنِ قَاسِطٍ. وَيُعْرَفُ بِالرُّومِيِّ؛ لِأَنَّهُ أَقَامَ فِي الرُّومِ مَدَّةً. وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، سُبَيْ مِنْ قَرِيْبَةِ نَيْنَوَى، مِنْ أَعْمَالِ الْمُؤَصِّلِ. وَقَدْ كَانَ أَبُوهُ أَوْ عَمُّهُ عَامِلًا لِكِسْرَى، ثُمَّ إِنَّهُ جُلِبَ إِلَى مَكَّةَ، فَاشْتَرَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُدْعَانَ الْقُرَشِيُّ النَّبِيُّ. وَيُقَالُ: بَلَ هَرَبٌ، فَأَتَى مَكَّةَ، وَحَالَفَ ابْنَ جُدْعَانَ. كَانَ مِنْ كِبَارِ السَّابِقِينَ الْبَدْرِيِّينَ. رَوَى أَحَادِيثَ مَعْدُودَةً، خَرَجُوا لَهُ فِي الْكُتُبِ، وَلَمَّا طَعَنَ عُمَرُ، اسْتَنَابَهُ عَلَى الصَّلَاةِ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يَنْتَفِقَ أَهْلُ الشُّوْزَى عَلَى إِمَامِهِ. وَكَانَ مَوْصُوفًا بِالْكَرَمِ وَالسَّمَاةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَاتَ: بِالْمَدِينَةِ، فِي شَوَّالٍ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ، وَكَانَ مِمَّنْ اعْتَزَلَ الْفِتْنَةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (ابن عساکر: ٨ / ١٨٦ / ٢، أسد الغابة: ٣ / ٣٦).

(٢) صحيح مسلم باب المؤمن أمره كله له خير (ج ٤ - ص ٢٢٩٥ - رقم ٦٤ - (٢٩٩٩).

(٣) سعيد بن المسيب (٩٤ هـ): هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب، سيد التابعين في زمانه، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب وقيل لأربع مضين منها بالمدينة. رأى عمر، وسمع عثمان وعلياً وزيد بن ثابت، وعائشة وأبا هريرة وابن عباس وخلقاً سواهم. توفي رحمه الله سنة أربع وتسعين. (البداية والنهاية ٩ / ٩٩).

(٤) صحيح مسلم باب فضل من يملك نفسه عند الغضب (ج ٤ - ص ٢٠١٤ - رقم ١٠٧ - (٢٦٠٩).

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالنَّيِّظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾ أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قل. ﴿وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم. ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماح عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم (٢).

فالغيظ انفعال بشري تصاحبه فورة الدم، وهو أحد ضرورات الطبيعة البشرية، ولا يغلبه الإنسان إلا بذلك السمو الروحاني المنبعث من تقوى الله عز وجل، وبذلك القوة الروحية المنبثقة من الصلة بالله، والتطلع إلى أفق أعلى وأسمى من آفاق الضرورات الذاتية والحسابات الأرضية.

وكظم الغيظ فضيلة، ولكن الله تعالى يحب أن يرتقى المؤمن إلى مقام من الفضيلة أسمى، هو مقام العفو عن الناس، فقد يكظم الإنسان الغيظ ويبقى الحقد والضغينة دفيناً في قلبه، ويتحول إلى عداوة خفية. لذلك جمع الله في وصف المؤمنين والمحسنين الذين يحبهم بين كظم الغيظ والعفو عن الناس، ليحرضهم على الارتقاء إلى هذا المرتقى السامي من الفضائل الخلقية، وحين يشيع خلق العفو عن الزلات والهفوات تصفو القلوب ويسود الإخاء والسلام بين العباد. وذكر الله من صفات المؤمنين في آية أخرى أنهم يغفرون إذا ما غضبوا، وينتصرون إذا

(١) سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٤

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ١٤٨).

أصابهم البغي، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١) والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع أفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه. ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح. فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: انقادوا لطاعته، ولبوا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه. ومن الاستجابة لله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها. ﴿بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ من النفقات الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الديني والدنيوي ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوافقهم وتوادهم وتحاببهم وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموما، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا

(١) سورة الشورى: ٣٧-٤٠

(٢) سورة فصلت: ٣٥

أذلاء عاجزين عن الانتصار. فوصفهم بالإيمان، وعلى الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم، فعل ما هو دونها، وانتفاء ضدها.

فمرتبة العدل، جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله. ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه اجرا عظيما، وثوابا كثيرا، وشروط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورا به^(١).

نستخلص مما تقدم في هذه الفقرات أن الإنسان لا يستقيم في انفعالاته التي جبل عليها كالهلع والخوف واليأس والبطر والفخر والأنانية والغضب على حد الاعتدال، ولا يقوى على التحكم في زمامها إذا ثارت وفارت، إلا بالإيمان والتربية الروحية والنفسية، وأن الخالق سبحانه الذي خلق الإنسان هو الخبير بأمراضه النفسية وبالذواء الذي فيه شفاؤها.

إن من طبيعة النفس الإنسانية أنها لا تطمئن ولا تهدأ إلا بذكر الله والإنابة إليه والأنس بقربه وطاعته. قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢) ويهدي الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله وذكره فتطمئن، ألا بطاعة الله وذكره وثوابه تسكن القلوب وتستأنس^(٣).

قال ابن القيم "ولقلب الإنسان أسرار عجيبة منها أنه لا يطمئن إلا بالله عز وجل". وقال أيضاً: "وهنا سر لطيف، وهو أن الله عز وجل، جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً، إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته، في معرفة الله سبحانه ومحبهه والإنابة إليه والإقبال عليه والأنس به. فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذاباً واضطراباً، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٧٥٩).

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٥٢).

وإلهه ومعبوده، وغاية مطلوبة(١).

ومما يؤكد صحة ما ذهب إليه ابن القيم أن الروح التي خص بها الإنسان، نفخة علوية نورانية، شاء الله أن يفيضها على هذا المخلوق الذي خلقه من التراب، ولكنها تظل مشتاقة إلى عالمها النوراني الذي تنتمي إليه، وتتطلع على الدوام إلى الاتصال به، وإلى الخلاص من كل ما يكدر صفاءها ويعكر طهرها. وكلما اتصل الإنسان بربه، وتقرب إليه بعبادته وذكره وطاعته، وجدت روحه ما يلبي أشواقها ويعيد إليها طمأنينتها وراحتها، وليس للإنسان من سبيل إلى الطمأنينة الحقة إلا بذكر الله ومعرفته وطاعته. قال ابن القيم: "ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره"، فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره ألبتة، وما عداه فالطمأنينة إليه غرور"(٢).

(١) كتاب الروح لابن القيم ، ص ٢١٨ .

(٢) المصدر السابق.

المبحث الرابع

نظرة الإسلام للإنسان من حيث أنه جسم وعقل وروح

المطلب الأول: مفهوم الإنسان وصفاته الجسدية :

تعني الشخصية في مفهومها العام ملامح الإنسان وصفاته التي تميزه عن غيره، ولا يقتصر هذا المفهوم على الصفات البدنية، إنما يتعداها إلى الصفات النفسية والاجتماعية والعقلية، وقد صارت الشخصية علماً على السمات الخاصة التي يتميز بها كل إنسان عن الآخر في عقيدته وعواطفه ومشاعره وسلوكه وعلاقته الاجتماعية وطرائق تفكيره وسائر تصرفاته الإرادية، لأن هذه هي المقومات الشخصية للإنسان ومدار الحكم على شخصيته.

إن تفاوت الناس في صفاتهم البدنية يرجع إلى عوامل الوراثة والبيئة، وهو تفاوت محمود لا يغير شيئاً من خصائص الإنسان الجسمية، ووظائفه العضوية، وقلمما يكون له تأثير في الصفات النفسية إلا لدى أصحاب العاهات من الشواذ، والنادر لا حكم له.

والحياة الإنسانية لا تقوم بالمقاييس الحسية الظاهرة، إنما تقوم بمعيار العقيدة والقيم الأخلاقية، والمستوى الفكري، لأن هذه هي خصائص الإنسان العاقل المكلف الرشيد. وبهذا المفهوم الخاص تتميز شخصية المسلم عن غيره، فهي شخصية مؤمنة مهتدية، تتجه بمشاعرها وأحاسيسها لله تعالى، تستلهم منه الرشد والساد، وتهتدي بنور الإيمان في سلوكها، وتتخذ الشريعة الإسلامية نبراساً لها في تصرفاتها، وتحتكم إليها في كل شؤون حياتها.

وهي شخصية متميزة بالعقيدة الإسلامية التي تؤمن بها. وتخالط شغاف قلبها، وتمتزج بأحاسيسها، فتعيش من أجلها، وتجعل حياتها وفقاً عليها، إذ لا قيمة للحياة بدون عقيدة، والعقيدة لدى المسلم هي المعيار الأساسي للعمل. فأى عمل لا ينبعث من العقيدة لا قيمة له في ميزان الإسلام مهما كان جليلاً نافعاً يعود على البشرية بالخير يقول الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له. ومن قرأ: "مسجد الله" فأراد به

(١) سورة التوبة: ١٨

المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له. وأسس خليل الرحمن هذا، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرك، لقال: مشرك. ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد. حدثنا سريح حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث؛ أن دراجا أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري^(١)؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»^(٢) وقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، ﴿وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿فَعَسَىٰ أَوْلِيٰكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾^(٣).

فهي شخصية متميزة بسلوكها على حساب دينها الإسلامي، تقف عند حدود الإسلام وشرائعه، عبادة ومعاملة وأخلاقاً لا تجامل، ولا تداري ولا تماري ولا تدع لأي ضغط اجتماعي فرصة للتأثير عليها. حتى تتهاون في شيء من قيمها، وهي شخصية تعزز بمقوماتها من غير كبرياء، فلا تلين ولا تضعف، ولا تذوب في أي بيئة تعيش فيها، أو مجتمع يضمها، إنها شخصية تؤثر في غيرها، ولا يؤثر عليها، وان استفادت بكل خير، "فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها".

فالشخص المسلم الذي يخضع للعادات والتقاليد الفاسدة التي تفرض وجودها بالانتشار في بعض المجتمعات، فيجاري أحوال الناس في فسادهم، أو يعيش في مجتمعات غير إسلامية لمقاصد سليمة فلا يلبث طويلاً حتى ينخرط في سلوكها، ويتقبل أوضاع حياتها التي تتنافى مع عقيدته أو دينه، هذا الشخص أو ذاك لا شخصية له لأنه تهاون في مقومات شخصيته الإسلامية وأهدر مثلها. وجماع ما تتميز به شخصية المسلم أن يكون رجل عقيدة، ترى حياته صورة

(١) سعد بن مالك أبو سعيد الخدري (٦٣ هـ): هو الإمام المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك بن سنان، حدث عن النبي ﷺ، وعن عمر وعلي وابن عباس وجابر وزيد بن ثابت. وعنه من الصحابة عائشة وابن عمر وجابر بن سمرة وآخرون، ومن التابعين سعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعلقمة والأحنف. أول مشاهده الخندق، وغزا مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وكان ممن حفظ عن رسول الله ﷺ سنناً كثيرة وعلماً جماً، وكان من نجباء الصحابة وعلمائهم وفضلائهم. توفي سنة ثلاث وستين للهجرة. (البداية والنهاية (٤٣/٩) والسير (٣/١٦٨ - ١٧٢).

(٢) سنن ابن ماجه، باب لزوم المساجد (ج ١ - ص ٢٦٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٤ - ص ١١٩).

صادقة لها، يقرأ الناس فيها كتاب الإسلام مسطوراً في آرائه وأفكاره وأخلاقه وسلوكه، حيث تكون نظرتة إلى الكون والإنسان والحياة نظرة إسلامية، وتكون المثل الذي يحتذيها والفضائل التي يتحلى بها أخلاقاً قرآنية ويستقي أحكامه على الأمور كلها من هدي الإسلام وشريعته، ويأخذ نفسه بعد هذا يدين الله في أعماله وشؤون حياته، يفندي عقيدته بنفسه وماله، ويفي بالبيعة وفاء المؤمنين الصادقين ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْنِلُونَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنِلُونَ وَيَقْنِلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١). وهذا هو المثل الذي أعطى الله تعالى فيه الثمن وهو الجنة، وقوله ﴿يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنِلُونَ﴾ أي أعداء الله المشركين ﴿وَيُقْنِلُونَ﴾ أي يستشهدون في معارك القتال وقوله ﴿وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾ أي وعدهم بذلك وعداً وأحقه حقاً أي أثبتته في الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن تقريراً له وتثبيتاً وقوله ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد مطلقاً أوفى بعهدته إذا عاهد من الله تعالى وقوله ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فبناء على ذلك فاستبشروا أيها المؤمنون ببيعكم الذي بايعتم الله تعالى به أي فسروا بذلك وافرحوا وذلك البيع والاستبشار هو الفوز العظيم الذي لا فوز خير ولا أعظم منه (٢).

أسس بناء الشخصية المسلمة:

من الجدير بالذكر أن الإيمان الحق يدفع إلى السلوك المستقيم حيث جاء الإنسان إلى الحياة ومعه فطرة نقية مهيأة لقبول الحق وكل تغيير لنقاء هذه الفطرة وصفاتها ما هو إلا تشويه لشخصية المسلم الذي ينبغي أن يتجه اتجاهها مستقيماً لا عوج فيه، وهو الاتجاه نحو الله تعالى والاستسلام له والاستعانة منه في كل أمور وشؤون الحياة.

إن الأساس الأول لشخصية المسلم هو الأسوة الحسنة إذ يبدأ المسلم تكوين شخصيته الإسلامية سلوكاً وتطبيقاً من القرآن الكريم ومنهج الرسول ﷺ وأهل بيته الكرام (رضي الله عنهم)، فقد ذكر القرآن الصفات الأساسية التي تشكل صورة واضحة الملامح لشخصية المؤمن كما أرادها الله تعالى وهي الصورة التي تمثلها شخصية النبي محمد ﷺ لأن خلقه القرآن ولأن

(١) سورة التوبة: ١١١

(٢) تفسير أبو بكر الجزائري (ج ٢ - ص ٤٢٩).

الله تعالى قد أدبه فأحسن تأديبه.

أما الأساس الثاني فهو العلم حيث تتسامى شخصية المسلم بالعلم الذي يكشف له طريق الحق والخير وينير مسالك الحياة فيمضي فيها على هدى، فتتميز شخصيته عن غيره بالفكر والعلم المفيد، ومن أسس الشخصية الإسلامية، العبادات فهي دعائم الإسلام وهي التطبيق العملي للعقيدة والعبادات بدورها تثمر السلوك الصحيح والخلق القويم وترسم لشخصية المسلم، الخطوط العريضة فيعيش حياته موصولاً بربه، حانياً على مجتمعه، ففي كل عبادة من عبادات الإسلام يستشعر بنبض الإيمان في أعماقه فلا ينبعث من حياته إلا الخير.

ويعتبر العمل من الأسس الهامة في بناء شخصية المسلم، فالمسلم العامل له في الحياة أهميته مهما كان عمله مادام عملاً شريفاً وما دام كسبه حلالاً فهو يشارك في عمارة الحياة وازدهارها ويعمل على دفعها إلى الإمام.

وتنهض شخصية المسلم على أساس العمل بإتقانه له، أخروياً كان أو دنيوياً، ثم يأتي الجهاد كأساس أخير لشخصية المسلم فهو شجاع لا يعرف الجبن إلى قلبه سبيلاً، يتوجه بعقيدة راسخة يرى من خلالها أن الأجل واحد، لذا فهو يدافع عن الدين وعن النفس والعرض والأرض والمال وفي قلبه يقين لا يتزعزع.

ومن ملامح شخصية المسلم، العزة من غير تكبر فهو لا يذل ولا يستكين لأحد، وعزته هذه تتنافى مع الغرور والاستعلاء، كما يتميز المسلم باستقلال الشخصية فهو يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل في دائرته دون أن يكون هناك أي تأثير خارجي عليه، وقد حرص الإسلام على تحرير الشخصية لئلا تستبد بها الآفات أو تحتلها الأباطيل والنزعات، فليس لأحد أن يخضع إلا لله، ودعا إلى تحرير الشخصية من العادات السيئة والتقاليد المرفوضة، وحث المسلم إلى تحرير شخصيته من الخوف والقلق.

ومن ملامح شخصية المسلم أيضاً، الثبات في العسر وفي اليسر، فهو شاکر في السراء، صابر في الضراء، وللمسلم شخصيته المعتدلة نحو المال الذي استودعه الله إياه فهو يتصرف فيه بالطرق المشروعة من غير إسراف أو تقتير سائراً على المنهج القرآني الذي رسمه الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (١) والذين إذا أنفقوا من أموالهم لم يتجاوزوا الحد في العطاء، ولم يضيّقوا في النفقة، وكان إنفاقهم

(١) سورة الفرقان: ٦٧

وسطاً بين التبذير والتضييق^(١).

ولشخصية المسلم سمة من أرفع السمات التي تميزه عن غيره، أنها القوة الدافعة قوة الإيمان التي تستحثه لارتياح مسالك الخير وتجعل منه إنساناً قوياً لا يخشى في الحق لومة لائم، وهو ثابت الشخصية لا تزلزله عواصف الحياة، انه يستمد ثباته من عقيدته الثابتة التي تمنحه القوة والرسوخ ولذا نرى الإنسان المسلم صاحب العقيدة الراسخة، ثابتاً في كل أحواله وإعماله وأفعاله، يتحلى بالأخلاق والقيم النابضة، ومن ابرز صفات المسلم الشجاعة الأدبية فهي إحدى قيم الإسلام الهامة، والشجاعة الأدبية تحتاجها مواقف الحياة الفاضلة، كجهاد أهل الباطل والزيغ والجهر بكلمة الحق، فالمسلم الذي يعتمد على ربه لا يخاف من مخلوق وإنما يخاف ربه وحده القادر على كل شيء، ويعمل الإسلام على ألا يتعرض المسلم إلى الأذى بأية صورة، ووجوب المحبة والمودة لأخيه المسلم وان يؤثر أخاه على نفسه وعندئذ ترتقي شخصيته الإيمانية ويستشعر عظمة الإسلام في كل كيانه، ولشخصية المسلم مظهر معين يتسم بالهدوء، فهو لا يقوم إلا على ما يطمئن إليه، كما يتميز بصفاء القلب ونقاء سريرته، فبصفاء القلب وصلاحه تستقيم الجوارح ويتهدب السلوك، وهو قادر على ضبط النفس، فالإنسان القائم على نفسه، الحاكم لرغباتها الكابح لجماعها، إنسان قوي الشخصية، والمسلم غني النفس راض بما في يده، قانع بما عنده لا يتطلع إلى غيره.

وهناك عوائق تعترض النفس البشرية وتعوق أمنها وراحتها فإذا ما اهتدى بهدى الله ويمم وجهه شطر الإيمان وجد العقيدة الإسلامية عاصمة له يقول عز وجل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٢) الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشعره ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، أولئك لهم الطمأنينة والسلامة، وهم الموفقون إلى طريق الحق^(٣).

ويعنى الإسلام ببناء الشخصية على الصدق منذ فجر الصبا ويدعو الآباء والأمهات إلى تنشئة الأبناء عليه منذ صغرهم. ومن سمات شخصية المسلم الحياء وهو شعبة من الإيمان وتتسم شخصية المسلم بأعلى أنواع الحياء وهو الحياء من الله تعالى كما تتميز شخصية المسلم بالأمانة حيث يقول الرسول ﷺ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، حَدَّثَنَا الْمُغِيرَةُ بْنُ زِيَادٍ النَّقَّاشِيُّ، سَمِعَ

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣٦٥).

(٢) سورة الأنعام: ٨٢

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ١٣٨).

أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ» (١).

" ولعظمة الأمانة وضخامتها وما تشتمل عليه من أحكام الدين الشرعية فإن ضعف الشخصية لا يستطيعون حملها، كما تتميز شخصية المسلم بالتعاون والعفة نظرا لحرصه على حفظ دينه وعرضه وكرامته وشرفه، والمبادرة بالعمل الصالح والوفاء والشكر والبر وقدرته على توثيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية والعفو عند المقدرة والصبر وغير ذلك من السمات (٢).

(١) مسند الإمام أحمد المحقق: شعيب الأرنؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، (باب مسند أنس بن مالك، ج ٢١ - ص ٢٣١ - رقم ١٣٦٣٧).

(٢) كتاب الشخصية المتميزة للمسلم / أحمد سعد الدين.

المطلب الثاني: نظرة الإسلام للعقل والروح في الحياة :

إنّ العقل هو أعظم النعم وأجل المنح، ولا ريب في أنّ صلاح العقل واستقامته في الإدراك والتفكير ووزنه الأشياء بميزان الحقيقة، وتحرّيه الإنصاف في أحكامه يترتّب عليه إصلاح الأعضاء كلّها، فلا تُصدر إلّا خيراً ولا تعمل إلّا صلاحاً، ولا تقول إلّا حسناً، لأنّه الحاكم عليها والرئيس بينها، وإذا صلح العقل صلحت الحياة، أمّا إذا فسد العقل واختلّ نظام التفكير فسدت الحياة فلا يصدر إلّا الشر.

ولقد كرم الله الإنسان بالعقل وهو تلك النعمة العظيمة والمنحة الربانية العجيبة التي منحها الله تعالى للإنسان وكرّمه بها وفضّله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (١) وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقدر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ﴾ على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية، ﴿وَو﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ في السفن والمراكب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المأكّل والمشارب والملابس والمناجح. فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلّا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ بما خصهم به من المناقب وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات. أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم بل ربما استعانوا بها على معاصيه (٢).

والعقل هو إحدى معجزات الخلق، الذي يتحقّق به الإدراك والفهم والتصور، ولأجل ذلك ذمّ الإسلام إتباع الأمم السالفة وحتى الأمم الحاضرة من غير إعمال العقل وهو ما يسمّى بالتقليد الأعمى (والتقليد في عُرْف اللغة هو مجموع العادات التي يرثها الآباء عن الأجداد أو التي تسري بمجرد عامل الاحتكاك في بيئة من البيئات أو بلد من البلدان) الذي لا دليل عليه يقويّه، ولا برهان يعضّده، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ

(١) سورة الإسراء: ٧٠

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤٦٣)

كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١﴾ أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ فاكثفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً (١).

وبالعقل كلّف الله تعالى الإنسان وخاطبه بكتابه العظيم قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّا تَمَثَّلَ لَكُمْ نَصْرُهُمْ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٢) وهذه الأمثال نضربها للناس؛ لينتفعوا بها ويتعلموا منها، وما يعقلها إلا العالمون بالله وآياته وشرعه (٣).

وقد حث القرآن على إعمال العقل وبناء على الآيات التي سبق ذكرها فقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز التقليد في مبادئ العقيدة، وأنّ من قال أنني أؤمن بالله لأنني أرى أهلي جميعاً يؤمنون به أو لأنّ البيئّة تفرض عليّ ذلك، فإنّ إيمانه ليس بالإيمان الصحيح الذي أراده الله تعالى.

فأحكام الله تعالى ليست من قبيل التعاليم التي تنتقل بالوراثة، وإنما هي مبادئ قائمة على أساس من المصالح الدنيوية والأخروية.

إنّ المتأمل في آيات القرآن الكريم يلقاه حافلاً بالدعوة إلى إعمال العقل في الأمر، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٤) قالوا معترفين: لو كنا نسمع سماع من يطلب الحق، أو نفكر فيما ندعى إليه، ما كنا في عداد أهل النار (٥).

وقال تعالى: ﴿أَفِي لَكُمْ لِكْرٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦) قال إبراهيم محقراً لشأن الأصنام: كيف تعبدون أصناماً لا تنفع إذا عبّدت، ولا تضر إذا تركت؟ قبلاً لكم ولآلهتكم التي

(١) سورة البقرة: ١٧٠.

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٨١).

(٢) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٠١).

(٤) سورة الملك: ١٠.

(٥) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٦٢).

(٦) سورة الأنبياء: ٦٧.

تعبودنها من دون الله تعالى، أفلا تعقلون فتدركون سوء ما أنتم عليه؟^(١).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ﴾^(١) أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواضع القرآن وينفكرون في حججه؟ بل هذه القلوب مغلقة لا يصل إليها شيء من هذا القرآن، فلا تتدبر مواضع الله وعبره^(٢).

وجوب المحافظة على العقل:

من خصائص العقل الإدراك، فإعمال العقل يقود إلى فهم الأمور فهماً كاملاً وتصورها تصوراً صحيحاً، وذلك هو الذي يُعين على إدراك الأمور على حقيقتها فتستخرج منها أسرارها وتبنى عليها النتائج والأحكام الصحيحة.

وإذا استعمل الإنسان عقله يمنع غيره من السيطرة عليه، ممّن يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، بل ويمنعه من الحيلولة بينه وبين الحياة العادية التي يُنشدها آل إنسان عرف إنسانيته في هذه الحياة الدنيا.

ولأجل ذلك كله أوجب الإسلام على الإنسان أن يحافظ على هذه النعمة الإلهية العظمى، وحفظ العقل واستقامته تكون في:

الإدراك والتفكير، والتأمل في ملكوت الله، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣) الذين يذكرون الله في جميع أحوالهم: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وهم يتدبرون في خلق السموات والأرض، قائلين: يا ربنا ما أوجدت هذا الخلق عبثاً، فأنت منزّه عن ذلك، فاصرف عنا عذاب النار^(٤) وقال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ فِي آيَاتٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) أولم ينظر هؤلاء المكذّبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيءٍ فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، فيؤمنوا بالله ويصدقوا رسوله، ويئيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣٢٧).

(١) سورة محمد: ٢٤

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٠٩).

(٣) سورة آل عمران: ١٩١

(٤) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٧٥).

(٥) سورة الأعراف: ١٨٥

أَجَالَهُمْ قَدْ اقْتَرَبَتْ فِيهِلَكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: فَبِأَيِّ تَخْوِيفٍ وَتَحْذِيرٍ وَتَرْهِيْبٍ بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهِيْبِهِ الَّذِي آتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، يُصَدِّقُونَ إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ (١).

ودرء عنه ما يفسده من جهل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) هل يستوي الذين يعلمون ربهم ودينهم الحق والذين لا يعلمون شيئاً من ذلك؟ لا يستونون. إنما يتذكر ويعرف الفرق أصحاب العقول السليمة (٣).

الروح في الحياة البشرية:

إن الكائن البشري هو أكثر المخلوقات تطوراً على الكرة الأرضية، فقد ميزه الله عن غيره من المخلوقات في المقدرة على الإدراك. ولكن ذلك لا يدل على أنه لا يوجد كائنات متطورة أكثر منه. نحن لا نستطيع أن ندرك تلك المخلوقات الأكثر تطوراً، مثل الملائكة والجن وغيرها من المخلوقات النورانية أو ربما المخلوقات غير النورانية أيضاً. يتكوّن الجهاز العصبي البشري من عنصر التراب، وهذا مثبت في جميع العلوم الدينية، لم يتوصل العلم من تحديد هذا المفهوم التكويني للجهاز العصبي إذ أن العلم لا يقبل بمبدأ العناصر الخمسة للمادة، وبما أن الجهاز العصبي البشري مكوّن من التراب، والتراب هو العنصر الأكثر ثقلًا من العناصر الخمس، من المنطقي أن يكون هناك مخلوقات بجهاز عصبي من غير العنصر الترابي، قد يكون أي من العناصر الأربعة الأخرى. لقد ورد في بعض الديانات أحاديث عن مخلوقات لها جهاز عصبي من العنصر الناري وغيرها، وهذا ما يشير إلى أن الحياة المادية سوف تستمر في التطور تماشياً مع تطور الروح، وقد يكون هناك مخلوقات متطورة أكثر من الإنسان كي تسمح لاستمرار التطور الروحي ولظهور الطاقة الإلهية بشكلها الكامل من خلال المادة التي يخلقها.

يتميز الإنسان عن باقي المخلوقات أنه يمتلك المقدرة على الإدراك، إن ميزة الإدراك عند الإنسان هي التي تجعله يتمتع بمقدرة الخيار، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتمتع بمقدرة على

(١) مختصر تفسير بن كثير (ج ٢ - ص ٧٠).

(٢) سورة الزمر: ٩.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٥٩).

الاختيار والتقرير، علماً أنه لا يملك هذه المقدرة بشكل مطلق. إن السؤال فيما إذا كان الإنسان مخيراً أو مسيراً، لا يستطيع أن يجد إجابة واحدة، فالإنسان مخيرٌ بقدر ما هو مدركٌ للطاقة الكاملة لوعيه الصافي. إن عدم إدراك الإنسان لوعيه الصافي بشكل كامل، لا يجعله مخيراً بشكل كامل، فهو مخيرٌ فقط بنسبة إدراكه لوعيه الصافي الكامن في داخله. إن هذه الميزة عند الإنسان تجعله قادراً على أن يصل بالروح إلى أعلى مراتب الاختبار المادي، ويحقق الإنسان بذلك غاية الله الكاملة في الظهور.

عندما يعلم الإنسان أن وجوده من أجل تحقيق رغبة الله في الوصول إلى ظهور الطاقة الإلهية بكاملها في حقل المادة، يصبح هدفه الأول في الحياة، العمل على تحقيق غاية الله. تتحقق غاية الله عندما تستطيع الطاقة الإلهية أن تخرج من الحقل المطلق غير المحدود إلى الحقل النسبي المادي بشكلها الكامل، كي تختبر المادة بشكل مباشر دون أي معوقات مادية أو معوقات جسدية أخرى. لقد أظهرت الدراسات العلمية أن الطاقة الكونية غير المحدودة هي موجودة في داخل كل ذرة من ذرات الكون، وبالتالي هي موجودة في كل عنصر من عناصر الكون، وهكذا هي موجودة في داخل كل إنسان. وقد حدد العلم موقع الطاقة غير المحدودة في الحقل المطلق في داخلنا في نطاق وعينا غير المحدود الذي تسميه العلوم الفيزيائية بالوعي الصافي. لذلك على كل إنسان أن يزيل كل المعوقات التي تحجب الطاقة الإلهية غير المحدودة عن الاتصال المباشر بالحقل المادي.

من أجل أن نعرف كيفية ظهور الطاقة الإلهية من الحقل غير المحدود في داخلنا وصولاً إلى الحقل النسبي، علينا أن نعرف المسلك أو الطريق الذي سوف تسير به هذه الطاقة الكونية.

يتكون الإنسان من عدة مستويات منها ما هو غير ظاهر مثل الروح والنفس، منها ما هو غير مادي مثل الإدراك والعقل والمشاعر والمنطق والفكر ومنها ما هو مادي مثل الحواس الخمس والدماغ والجسم. يبدأ الوجود الفردي من الروح الفردية المتصلة بالروح الإلهية، أي الطاقة الإلهية المراد كشفها.

إن الروح الفردية لها صفات الروح الإلهية وهي تبقى منزّهة عن أي دنس، إذ أن طبيعتها مطلقة لا تتأثر بأي شيء، وقد وردت هذه الصفات للروح في العديد من المراجع الدينية التي تصفها بأنها خالدة ومطلقة ولا تتأثر بأي عوامل مادية، فالنار لا تحرقها والماء لا تبللها والهواء

لا يجفها الخ.

وبسبب طبيعة الروح المطلقة، فهي مغلفة بالنفس التي بها تتصل بالحقل المادي. إن للنفس وجهتين، وجهة مطلقة وصافية وبها تتصل بالروح، ووجهة نسبية تتصل بالعقل الكلي للفرد أي الوعي. إن اتصال النفس بالعقل الفردي يجعلها عرضة لما قد يجلب لها العقل من تأثيرات خارجية. إن العقل الفردي هو الذي يقود الجسم، ونتيجة لخطية العقل الموروثة منذ البدء من العقل الكلي للكون، لا يستطيع العقل الفردي أن يحتوي طاقة الروح ومعها النفس، فيعتقد أنه هو صاحب المرجعية في كل ما يقوم به من خلال الجسم. وبهذه الخطيئة للعقل يمنع النفس من الإطلال على الحقل النسبي إلا بما تسمح به محدودات العقل.

المطلب الثالث: إنكار نظرة الإسلام المتوازنة إلى الإنسان :

مضمون الشبهة:

ينكر دعاة المادية على الإسلام نظرته المتوازنة للحضارة الإنسانية عموماً، وللإنسان خصوصاً روحاً وجسداً، ويزعمون أن الإنسان الجسد هو المقوم الأمثل والأوحد للحضارة المادية، (القائم على الروح والجسد بينما قصر هولاء على الجسد المادي دون الروح) وهذا - في ظنهم - ما دفع فرويد إلى تصور الإنسان على أنه مجموعة من الغرائز الجسدية التي تهوي به إلى أصله الهابط، وهو القرد كما يؤكد دارون.

وهم بهذه الدعوى، ينكرون صلاحية المنهج الإسلامي لإرساء مقومات الحضارة الإنسانية، ويشككون في الأسس التي يقيمها الإسلام في نظرته للإنسان وبناء شخصيته السوية وفق مبادئه العالية والسامية.

وجوه إبطال الشبهة:

(١) اختلفت نظرة الإسلام للإنسان روحاً وجسداً عن نظرة الحضارة المادية له، فالأولى عادلة متوازنة بين الروح والجسد، أما الأخرى فمادية متدنية؛ وذلك أن تصور الإنسان بوصفه مجموعة من الغرائز الجسدية تصور خاطئ؛ فالتعادل لا يتم ولا يتحقق إلا بعد الإنسان روحاً وجسداً.

(٢) إن الارتقاء المادي ليس دليلاً أو مقياساً للرقى الإنساني المأمول، فعلى الرغم من التقدم الذي وصلت إليه الحضارة الغربية - فإنها لم تحقق السعادة الإنسانية.

(٣) لو كان تجريد الإنسان من روحه، والنظر إليه على أنه جسد فقط يقيم حضارة إنسانية؛ لما بحث ضحايا المادية عن الإسلام بديلاً روحياً.

التفصيل:

أولاً: النظرة الإسلامية المتوازنة للإنسان:

لقد ذم مثيرو هذه الشبهة الإسلام، بما ينبغي أن يمدح به، وذلك حين أنكروا عليه نظرته المتوازنة إلى الإنسان، على أنه روح وجسد معاً.

وإن حضارة الإسلام لا تقف عند النظرة المتدنية للإنسان، التي تغفل جانب الروح وإنها وإن كانت لا تغفل واقع الإنسان الذي يتمثل في أنه جسد، لا تغفل واقع الآخر بأنه روح، فإن له عقلاً وقلبا، وفي هذه تفرق عن سائر الحضارات من أعز مكان وأشرفه، حيث تتجه إلى

حضارة المثل، والقيم، والأخلاق، ولا تغفل - بعد ذلك - بقية القوى.

والروح والجسد ثنائية شديدة الوضوح في الماديات، فالجسد مطية، والروح راكب، لا غنى لأحدهما عن الآخر، بيد أن الروح سيد مطاع، والجسد خادم مطيع، وهذه الروح لا تفارق الجسد، إلا مرة واحدة، حين يقبضها ملك الموت، ولا أحد يستطيع أن يعطي رأيا في ماهيتها، فقد حسمها الله بشكل قطعي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١) ويسألك الكفار عن حقيقة الروح تعنتاً، فأجبههم بأن حقيقة الروح وأحوالها من الأمور التي استأثر الله بعلمها، وما أعطيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً (٢).

ثم إن للجسد حقوقاً ومتطلبات، لكن لا قيمة لجسد فارقت روحه، فهو جثة هامة خاوية مهما تكن ضخمة وجميلة، فهي بعد الفراق شيء موحش، وإنما جمالها بحسن الازدواج مع الروح، وعند نقل هذا المعنى إلى مجاله الشرعي، نجد أن العبادات الأربع العملية، بل وسائر التعبدات تجمع بين الجسد والروح.

إن رسالة الإنسان في هذه الحياة تتطلب مزيداً من الدرس والتمحيص، ووظيفته العتيدة في ذلك العالم الرحب يجب أن تحدد، وتبرز حتى يؤديها ببصيرة ووفاء وقوة ومضاء. إن بعض الناس جهل الحكمة العليا من وجوده، فعاش عاطلاً في زحام الحياة، وكان ينبغي أن يعمل ويكافح، أو عاش شارداً عن الجادة تائها عن الهدف، وكان ينبغي أن يشق طريقه على هدى مستقيم، والنظرة الأولى في خلق آدم وبنيه، كما ذكرها القرآن الكريم، توضح كل شيء في هذه الرسالة.

لقد بدأ هذا الخلق من تراب الأرض وحدها، والبشر جميعاً في هذه المرحلة من وجودهم، ليس لهم فضل يمتازون به، أو يعلي مكانتهم على غيرهم من الكائنات، فكم تساوي حفنة من التراب؟ لا شيء بالطبع. بل إن القرآن الكريم وصفهم في هذه المرحلة بما يدل على تفاهة الشأن، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهُ لَشَأْنًا مُسْتَقِيمًا * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ﴾

(١) سورة الإسراء: ٨٥

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٩٠).

(١) الله الذي أحكم خلق كل شيء، وبدأ خلقَ الإنسان، وهو آدم عليه السلام من طين، ثم جعل ذرية آدم متناصلة من نطفة ضعيفة رقيقة مهينة، أتم خلق الإنسان وأبدعه، وأحسن خلقته، ونفخ فيه من روحه بإرسال الملك له؛ لينفخ فيه الروح، وجعل لكم -أيها الناس- نعمة السمع والأبصار يُميّز بها بين الأصوات والألوان والذوات والأشخاص، ونعمة العقل يُميّز بها بين الخير والشر والنافع والضار. قليلا ما تشكرون ربكم على ما أنعم به عليكم(٢).

إن الإنسان كائن عظيم حقا، بيد أن عظمته ترجع إلى نسبه السماوي الروحي لا إلى نسبه الأرضي المادي، ومن الناس من يقدرون نسبهم الإلهي هذا فيجعلون الحياة تزدان بالمعرفة والكرامة والفضيلة. ومنهم من تستهويهم نزعات الحمأ المسنون، فيجعلون الحياة تسود بالشهوات والمظالم والأنانية وتسخير الإنسان لأنفه شيء في الكون.

فالمادية تشد الناس إلى أسفل، والنزاع الأبدي بين الناس في هذه الحياة أساسه: أتكون الهيمنة للحيوان الرابض في دم الإنسان، يتحرك بنزعات القسوة والأثرة وحدها، أم تكون الهيمنة للقلب الإنساني المتطلع إلى الكمال، والسلام، والحب، والإيثار؟

ذاك ما يجب أن يعرف بجلاء وأن ترتفع حناجر المصلحين به، وقد حملنا نحن المسلمين حضارة أعلت قدر الإنسان، وفتت نظره إلى أن ملكوت السماوات والأرض مهده له قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ (٣) ألم تروا -أيها الناس- أن الله ذلّل لكم ما في السموات من الشمس والقمر والسحاب وغير ذلك، وما في الأرض من الدوابّ والشجر والماء، وغير ذلك مما لا يحصى، وعمّم بنعمه الظاهرة على الأبدان والجوارح، والباطنة في العقول والقلوب، وما اتّخره لكم مما لا تعلمونه؟ ومن الناس من يجادل في توحيد الله وإخلاص العبادة له بغير حجة ولا بيان، ولا كتاب مبين يبيّن حقيقة دعواه(٤).

إن هذا التسخير لآفاق السماء، وفجاج الأرض، وجعلها في خدمة الإنسان يتضمن إشارة بينة إلى أن الإنسان خلق ليكون سيّدا لا مهانا، إن سجود الملائكة له في السماوات، معناه أن يحيا على ظهر هذه الأرض سيّدا، موفور الحرمة مدعوم المكانة، إذ وظيفته أن يخلف الله

(١) سورة السجدة: ٧-٩

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤١٥).

(٣) سورة لقمان: ٢٠

(٤) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤١٣).

في أرضه، ولكن لا يجوز عند انشغاله بأعباء العيش الأرضية أن ينسى حقوق ربه الذي أسندها إليه، والذي قواه عليها، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١) أفحسبتم -أيها الخلق- أنما خلقناكم مهملين، لا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب، وأنكم إلينا لا ترجعون في الآخرة للحساب والجزاء؟(٢).

وقد صالح الإسلام في تعاليمه بين مطالب الجسد، ومطالب الروح، وبين واجبات الدنيا، وواجبات الآخرة، فكان الإنسان بعد هذا الصلح الذي عقده الإسلام كيان واحد يستقبل به عالما ليست فيه فواصل بين الموت والحياة.

وتوضيحا لهذا المنهج الوسط قيل لكل إنسان: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣) والتمس فيما آتاك الله من الأموال ثواب الدار الآخرة، بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا، ولا تترك حظك من الدنيا، بأن تتمتع فيها بالحلال دون إسراف، وأحسن إلى الناس بالصدقة، كما أحسن الله إليك بهذه الأموال الكثيرة، ولا تلمس ما حرم الله عليك من البغي على قومك، إن الله لا يحب المفسدين، وسيجازيهم على سوء صنيعهم(٤).

ليس في الإسلام إذن انفصال بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، فإن العمل للدنيا بطبيعته يتحول إلى عبادة، ما دام مقرونا بشرف القصد، وسمو الغاية، وليس فيه تغليب للجسد على الروح، ولا للروح على الجسد، إنما فيه تنظيم دقيق يجعل معنويات الإنسان هي التي تتولى قيادته، وتتمسك بزمامه، فلا هو براهب يقتل نداء الطبيعة، ويميت هواتف الفطرة، ولا هو مادي يتجاهل سناء الروح، وأشواقها إلى الرفعة والخلود.

إن الإسلام يلح على كل إنسان فوق ظهر الأرض ألا ينس نسبه السماوي، وألا يتجاهل أصله المنبثق من روح الله، وللجسد كذلك حقوق مقدرة، وقد قال الله في وصف أنبيائه: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٥) أي وما جعلنا الأنبياء ﴿جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ

(١) سورة المؤمنون: ١١٥

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣٤٩).

(٣) سورة القصص: ٧٧.

(٤) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣٩٤).

(٥) سورة الأنبياء: ٨.

الطعام ﴿بل إنهم بشر أمثالكم: يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق﴾ **﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾** في الدنيا؛ بل يموتون كسائر البشر (١).

لكن توفير هذه الحقوق ليس إلا لصيانة الفؤاد والفكر، وحماية القلب والعقل، فما أشبه هذا الجسم، بزجاجة المصباح الكهربائي، إنها هي التي تصقل الضوء وتحد الشعاع، فلو انكسرت ذهب الضوء واحتبس التيار.

ومع ذلك فالمحافظة على هذه الزجاجاة وتلميعها وإزالة الغبار من فوقها شيء غير مقصود لذاته، بل مقصود لينطلق الضوء من خلالها صافيا نقيًا، وقد أمر الإسلام بتطهير البدن وتزكية الروح، فقال: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾** (٢) وطهارة الروح أساسها حسن الصلة بالله، وطهارة البدن بإزالة ما لا يليق بمكانة إنسان كريم على الله، له رسالة سماوية مجيدة.

إن عبادة الجسد وعبادة المادة والتمرد على الأساس الإلهي في الحياة الإنسانية عوج لا يتمخض إلا عن الشر والبلاء، وأفة الحضارة المادية أنها سخرت العقول للشهوات، وأخرست نداء الروح، وأطلقت نداء الطين، ووجدت أن الإنسان نفخة من روح الله، ورأت أنه - كلا وجزءا - نشأ من الأرض، فلا يجوز أن يرفع رأسه إلى أعلى، يذكر الله ولي نعمته وسر عظمته، ونحن نؤكد أن شرف الإنسانية أولا وآخرا في صلتها بالله، واستمدادها منه وتقيدتها بشرائعه ووصاياه، والحرية الحقيقية ليست في حق الإنسان أن يتدنس إذا شاء، ويرتفع إذا شاء، ولكنها تتمثل في أن يخضع لقيود الكمال، وأن يتصرف داخل نطاقها وحده: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾**

(٣) أي: لا ينبغي ولا يليق، ممن اتصف بالإيمان، إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما، واجتتاب نهيهما، فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة **﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾** من الأمور، وحتما به وألزما به **﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾** أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة، أن الرسول أولى به من نفسه، فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابا بينه وبين أمر الله ورسوله، **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾** أي: بيّنا، لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها، من الطرق

(١) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٣٨٩).

(٢) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٦.

الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال، الدال على العقوبة والنكال^(١).

حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهَيْعَةَ، حَدَّثَنَا زُهْرَةُ يَعْنِي ابْنَ مَعْبُدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامِ أَبُو عَقِيلٍ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)). فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الآنَ يَا عُمَرُ))^(٢).

ما الحرية التي هفت إليها الشعوب وتنادى بها كبار القلوب؟ إنها حق البشر في تأمين الوسائل التي يحيون بها زكية نقية، وليست حق امرئ - أي امرئ - في أن ينسلخ عن طبيعته، أو يتمرد على فطرته، إن الحرية ليست حق الإنسان أن يتحول حيواناً إذا شاء، أو يجمد نسبه الروحي إلى رب العالمين، أو يقترف من الأعمال ما يوهي صلته بالسماء، ويقوي صلته بالتراب، فإن الحرية بهذا المعنى لا تعدو قلب الحقائق، وإبعاد الأمور عن مجراها.

والواقع أنك لن تجد أعبد ولا أخنع من رجل يدعي أنه حر فإذا فتشت في نفسه وجدته ذليلاً لشهواته كلها، ربما كان عبداً لبطنه، أو فرجه وربما كان عبداً لمظاهر يرئى بها الناس، أو لمراسم يظنها مناط وجاهة، فإذا فقد بعض هذه الرغائب، رأته أتفه شيء، ولو كان يلي أكبر المناصب بل لو كان ملكاً تدين له الرقاب، وهكذا فإن الحرية المطلقة لا تتبع إلا من العبودية الصحيحة لله وحده.

ثانياً: فشل الجانب المادي المحض في تحقيق السعادة الإنسانية:

ليس الجسد - كما زعموا - هو المقوم الأمثل للحضارة الإنسانية، الأمر الذي دفع فرويد إلى تصور الإنسان بوصفه مجموعة من الغرائز الحسية؛ إذ إن الروح هي التي تسعد الإنسان بالطاعات والعبادة، ولذلك نجد أن العبادة تسمى بالجانب الروحي للإنسان، وهذا الأمر يجعل النصراني واليهود حين يدخلون الإسلام يجدون الطمأنينة التي لم يتذوقوها من قبل، يقول فاسان مونتيه: "اخترت الإسلام لأنني شعرت بالراحة في ظلاله، فهو لا يفصل بين الروح والجسد".
فربما تكون الروح قادرة على تحقيق مبدأ التعادل لدى الإنسان، فلا يكون تحت ضغط

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٦٦٥).

(٢) مسند الإمام أحمد (باب حديث عبدالله بن هشام - ج ٣٧ - ص ١٨٠ - رقم الحديث ٢٢٥٠٣) حديث صحيح، ابن لهيعة - وإن كان سيئ الحفظ - قد توبع، وباقي رجاله ثقات.

النفس وشهواتها فقط، ربما يقابل النفس التي تجنح إلى دفع جسد الإنسان وعقله نحو الإيغال في الشر، ومع ذلك فإن هناك أنفسا مطمئنة للخير كارهة للشهوات. وبناء عليه يتحقق في الإنسان المسلم التوازن المفقود عند غيره، فلا الجسد يطغى على الإنسان فينقلب حيوانا تسييره غرائزه، ولا العقل يطغى عليه فينقلب إلى خيال بعيد عن الواقع والحياة، ولا القلب وأشواقه يطغى فينقلب الإنسان إلى راهب، ينقطع عن الدنيا، وما فيها، وإنما يسير بقدر، كما أن كلا خلق بقدر. والأخلاق الإسلامية قومت هذا الجانب، فمن خصائصها التوازن بين مطالب الروح والجسد، فلا تمنع حاجة الجسد من الشهوات والرغبات، بل تصونها في إطارها الشرعي، فمن حق الإنسان إشباع رغباته بالضوابط الشرعية مع اتباع الروح بالذكر والطاعة والعبادة. فالصلاة - مثلا - جسدها: القيام، والقعود، والركوع، والسجود، والأعمال البدنية، وهي مما يحفظه الكثير من المسلمين ويتعلمونه ويسألون عنه، إلى حد التعمق في الجزئيات وما وراءها. وروحها: الخشوع والإخبات والانكسار لله وتحقيق العبودية والذل والاعتراف لله المجيد بالعظمة والكبرياء والألوهية، وهناك تناسب بين التنافس والحفاوة بروح الصلاة وجسدها، وهو أن أداء الصلاة ولو ظاهرا، يعني طاعة الإنسان لربه والتزامه بأمره وقيامه بركن من أركان الدين دون شك، لكن يجدر بالمصلي أن يدري لماذا أمره الله الحكيم بأداء الصلاة في أوقاتها وعلى هيئاتها؟ وأن يتساءل عن الأثر الذي تحدثه في نفسه، وعلاقاته، ومجريات حياته! وكذلك الصوم والزكاة والحج، فهذه العبادات لها مقصدان عظيمان: أولهما: بناء النفس بناء إيمانيا أخلاقيا صادقا، أساسه التقوى واليقين، ففي الصوم قال سبحانه وتعالى: ﴿لَمَّا كُمُتُمْ تَتَقُونَ﴾ (١) وفي الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٢) وفي الحج: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (٣) وفي الزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (٤) وهكذا كل العبادات تقوم على بناء الذات الإنسانية وإصلاحها أخلاقيا وعقديا، وإيمانيا. ثانيهما: إصلاح علاقة الفرد مع الآخرين، من خلال القيم والأخلاق وحفظ الحقوق، في كل النواحي وعلى كافة المستويات، وكل العبادات في الأديان السماوية السابقة وفي ديننا الحنيف عبارة عن منظومة واحدة تصب في هذين المقصدين: بناء الفرد والعلاقة مع الآخرين، وأي

(١) سورة البقرة: ١٨٣

(٢) سورة العنكبوت: ٤٥

(٣) سورة البقرة: ١٩٧

(٤) سورة التوبة: ١٠٣

معنى للصوم عندما يصوم الإنسان عن كل ما هو مباح في الأصل، ثم هو يفطر على سوء الخلق والأنانية، وحب الذات، مما هو محرم أصلا.

وفي هذا يختلف منهج الإسلام بوصفه حضارة، في مختلف المجالات عن منهج الحضارة الغربية، إن المنظومة الإسلامية الحضارية تعطي للدين أولوية وتقدر الله حق قدره، أما المشروع الغربي للحضارة فقد أنزل الله منزلة لا تليق به حتى جعلته بطلا في بعض الأساطير عند اليونانيين، إلا أن المشروع الحضاري الإسلامي يعطي الكمال المطلق لله وينزله عن الشبيه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) كما أن الإسلام وضع حدودا فاصلة بين الحلال والحرام، والأشياء التي حرّمها لم يكن تحريمها عبثا، أما الحضارة الغربية فقد أغفلت جانب مراقبة الله، فالحرية عندها بديل عن الدين.

ويزيد على ذلك أن المشروع الحضاري الإسلامي يعطي أولوية للبناء الداخلي، فإله - عز وجل - يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (٢) فالنهضة والحضارة لا تقومان بالعوامل الخارجية، ولا بالمعونات.

أما الحضارة الغربية، فهي حضارة شبيهة (مادية) فقط، وتجعل من الإنسان وسيلة، فهي تعرض المرأة سلعة تباع وتشتري، ثم تدعي بعد ذلك أنها تدعو لتحريرها ومساواتها بالرجل، أما الحضارة الإسلامية فهي حضارة متوازنة تقدر الأشياء بقدرها، ولا تبخسها حقها، وترى أن الروح أيضا ضرورية، كما أن العقل ضرورة، فالإسلام يجمع بين هذه الثلاثة في تآلف شديد. كما أن الأخلاق في الحضارة الإسلامية مطلقة، وليست نسبية كما هي في الحضارة الغربية التي ليس لديها مشروع إنساني، وكل العرب والمسلمين الذين يعتقدون أن لها مكانا بين الحضارات، فإنهم سرعان ما سيكتشفون زيف اعتقادهم، وإذا ساروا في فلکها، فإنهم يسيرون في طريق الانتحار، والغواية، ويجب أن ندرك أن هذه الحضارة الغربية غير صالحة للمسلمين؛ لأنها حضارة ليست عادلة، فهي قائمة على القهر، والغلبة، والظلم، واستعمار الشعوب، وامتصاص خيراتها، ولا تعرف حقوق الإنسانية بالمعنى العام للإنسانية.

إن الارتقاء المادي لأمة من الأمم ليس دليلا، أو مقياسا لرقبتها الإنساني، فقد تمخضت الحضارة الأوروبية عن حروب مدمرة، واستعمار ظالم، وإذا كانت هذه الحضارة فيها بعض

(١) سورة الشورى: ١١

(٢) سورة الرعد: ١١

آثار العلم، فليس ذلك دليلاً على الرقي المأمول! ولأن يعيش الناس في عصر الجمل والسفينة الشراعية سالمين مسالمين خير لهم من أن يعيشوا في عصر الفضاء والقمر متناحرين. ومن ثم اتجه الباحثون إلى العامل الخلقى للأمة، فهو يتصل بالروح لا بالجسد، وهو وحده آية التقدم المنشود، فإذا أقام نظام الأمة على أساس من الخلق القويم فقد ضمنت علاج أكثر الشُرور، وحرصت على أن تمد للإنسانية يداً بيضاء تعمل على رَأب الصدع وبرء الجراح.

ثالثاً. لهذا أنا أسلمت: إن ما سبق كله هو ما دفع ليوبولد فايس على سبيل المثال المستشرق اليهودي الأصل للإعلان عن إسلامه، حين زار القاهرة، فالتقى بالإمام مصطفى المراغي، فحاوره حول الأديان، فانتهى إلى الاعتقاد بأن "الروح والجسد في الإسلام هما بمنزلة وجهين توأمين للحياة الإنسانية التي أبدعها الله".

ولقد كان ليوبولد رجل التساؤل والبحث عن الحقيقة، وكان يشعر بالأسى والدهشة لظاهرة الفجوة بين واقع المسلمين المتخلف وبين حقائق دينهم المشعة، وفي يوم حاور بعض المسلمين منافحاً عن الإسلام ومحملاً المسلمين تبعه تخلفهم عن التدهور الحضاري؛ لأنهم تخلفوا عن الإسلام، ففاجأه أحد المسلمين بهذا التعليق: فأنت مسلم، ولكن لا تدري! فضحك قائلاً: "لست مسلماً، ولكنني شاهدت في الإسلام من الجمال ما يجعلني أغضب عندما أرى أتباعه يضيعونه". ولكن هذه الكلمة هزت أعماقه، ووضعته أمام نفسه التي يهرب منها حتى أثبت القدر صدق قائله، حين نطق ليوبولد - الذي تسمى بـ "محمد أسد" بعد إسلامه - بالشهادتين. لقد كان محمد أسد طرازاً نادراً من الرحالة في عالم الفكر والروح. يقول: جاءني الإسلام متسللاً كالنور إلى قلبي المظلم، ولكن ليبقى فيه إلى الأبد، والذي جذبني إلى الإسلام هو ذلك البناء العظيم المتكامل المنتاسق، فالإسلام بناء تام الصنعة، وكل أجزائه قد صيغت ليتم بعضها بعضاً.. ولا يزال الإسلام - على الرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخر المسلمين - أعظم قوة ناهضة بالهم عرفها البشر.

ويقول: إن الإسلام يحمل الإنسان على توحيد جميع نواحي الحياة؛ إذ يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، والفرد والمجتمع، إنه ليس سبيلاً من السبل، ولكنه السبيل الوحيد، فالإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته إلى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه

الروحي دقيقة واحدة، فالإسلام لا يجعل احتقار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة^(١).
فالحضارة الإسلامية لا تقف عند نظرة الغرب المتدنية للإنسان، فهي - وإن كانت لا تغفل واقع الإنسان على أنه جسد - لا تغفل واقعه على أنه روح، ليس الجسد كما زعموا هو المقوم الأمثل للحضارة الإنسانية؛ إذ ربما تكون الروح قادرة على تحقيق مبدأ التعادل لدى الإنسان، فلا يكون تحت ضغط النفس وشهواتها فقط، وبناء عليه يتحقق في الإنسان المسلم التوازن المفقود عند غيره.

قومت الأخلاق الإسلامية في الإنسان المسلم التوازن المفقود عند غيره، وحفظت التوازن بين مطالب الروح والجسد، فلا تمنع حاجة الجسد من الشهوات والرغبات المباحة، بل تضعها في إطارها الشرعي.

الارتقاء المادي ليس دليلاً، أو مقياساً للرقى الإنساني، فالحضارة الغربية، وإن كانت فيها بعض آثار العلم، إلا أنها تمخضت عن حروب مدمرة، واستعمار ظالم.
النظرة المادية الغربية للإنسان دفعت عقلاء الغرب أمثال "فانسان موننتيه" و"ليوبولد فايس" إلى إعلان إسلامهم؛ إذ إن الإسلام يعد الروح والجسد وجهين توأمين للحياة الإنسانية التي أبدعها الله عز وجل^(٢).

(١) انظر: مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م. الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م. العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، مصر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. البيان لما يشغل الأذهان، د. علي جمعة، المقطم للنشر والتوزيع، مصر، د. ت. التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.

(٢) أساليب الغزو الفكري، د. علي محمد جريشة، د. محمد شريف الزبيق، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م.

إِفْصِيحُ الثَّالِثِ مَنْهَجُ الْقُرْآنِ فِي تَرْبِيَةِ الْعَقْلِ

ويشتمل خمسة مباحث :

- المبحث الأول : اختلاف العلماء حول مفهوم العقل في اللغة والاصطلاح.
- المبحث الثاني : التربية العقلية في القرآن الكريم وتقدير الإسلام للعقل واعتباره مناط المسؤولية .
- المبحث الثالث : دور العقل في القرآن الكريم.
- المبحث الرابع : علاقة القرآن بالعقل والفكر.
- المبحث الخامس : دلالات لفظ العقل في القرآن أثرها في توجيه الأفكار وحمايتها.

الفصل الثالث

منهج القرآن في تربية العقل

لقد عني القرآن بتربية العقل أيما عناية وكان له في ذلك منهج واضح نوره في خمسة
مباحث:

المبحث الأول

اختلاف العلماء حول مفهوم العقل في اللغة والإصطلاح.

المطلب الأول: تعريف العقل:

معنى العقل في اللغة:

بالنظر إلى المعاني اللغوية نجد أن مادة "عقل" وردت بعدة معاني ومنها:—
المعنى الأول: الحبس ، قال ابن فارس "عقل) العين والقاف واللام أصل واحد منقاس
مطرده، يدل عظمه على حُبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. ومن ذلك العقل، وهو الحابس
عن ذميمة القول والفعل" (١).

المعنى الثاني: العقل نقيض الجهل، "قال الخليل (٢): العقل: نقيض الجهل، يقال عقل يعقل
عقلا، إذا عرف ما كان يجله قبل، أو انزجر عما كان يفعله. وجمعه عقول. ورجل عاقل وقوم
عقلاء. وعاقلون. ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل" (٣).

المعنى الثالث: الحجر والنهي، "العقل الحجر والنهي ضد الحمق والجمع عقول، وفي
الحديث عن عمرو بن العاص قال: تلك عقول كادها بارئها أي أرادها بسوء. عقل يعقل عقلا
ومعقولا" (٤). وقد أورد ابن منظور العديد من المعاني للعقل، ولم يفرق بينه وبين القلب (٥)، وقد
ورد بنفس هذا المعنى السابق هذا في قاموس آخر: "عقل العقل: الحجر والنهي. ورجل عاقل

(١) معجم مقاييس اللغة ابن فارس، أبو الحسين أحمد، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) ج ٤، ص ٦٩.
(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ عصره في اللغة العربية وأحد أهم علماء اللغة العربية، ولد في عمان عام ٧١٨م. توجه إلى البصرة ليلتقى
العلم هناك ولُقّب بالبصري. كما تميز الفراهيدي في علم الموسيقى، والرياضة والترجمة تتلمذ على يد كبار العلماء وفي مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء
وعيسى بن عمر. (معجم الأدباء (٧٢ / ٧٧) والسير (٧ / ٤٢٩ - ٤٣١).
(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٩.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، (بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى) ج ١١، ص ٥٨٤.
(٥) ومنها التثبت في الأمور، وقال: العقل القلب والعقل، ومن المعاني سمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبس،
ومنها: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان، ومنها العقل الفهم وعقول أي فهم، (انظر: المرجع السابق، ج ٤، ص ٦٩).

وعقول. وقد عقل يعقل عقلا ومعقولا أيضا وهو مصدر، وقال سيبويه: هو صفة " (١).

فمن المعنى الثالث (الحجر والنهي) قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢) أفلا تفقهون وتفهمون قبح ما تأتون من معصيتكم ربكم التي تأمرون الناس بخلافها وتنهونهم عن ركوبها وأنتم راكبوها، وأنتم تعلمون أن الذي عليكم من حق الله وطاعته، واتباع محمد والإيمان به وبما جاء به (٣).

ومن المعنى الثاني (نقيض الجهل) قوله تعالى: ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤) قُبْحًا لَكُمْ وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السماوات والأرض، والذي بيده النفع والضرر (٥).

ومن المعنى الأول (الحبس عن ذميمة القول والفعل) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦) أفلا يعقل هؤلاء المشركون قُدْرَةَ الله على ما يشاء بمعابنتهم ما يعاينون من تصرفه خلقه فيما شاء وأحب من صغر إلى كبر، ومن تتكيس بعد كبر في هرم (٧).

وبهذا فإن مفهوم العقل في القرآن يأخذ مناحي متعددة، مجملها تشير إلى أنه أداة العلم والمعرفة، والتمييز بين الأشياء، والحبس والحجر عن الوقوع في المهالك والمضار، وضميم القول والفعل لأن العاقل يعرف به الضار من النافع والخير من الشر، ومجمل الآيات التي تحدثت عن العقل تدعوه إلى العمل بالطرق المختلفة والتي سنتناولها لاحقاً.

وبالنظر إلى ما ورد في القرآن الكريم من مادة العقل نجد أنه وردت ٤٩ مرة معظمها بصيغة المضارع، ففعل " تعقلون" تكرر ٢٤ مرة، وفعل " يعقلون" تكرر ٢٢ مرة، وفعل "عقل"

(١) الصحاح تاج العربية، الجوهري، إسماعيل بن حماد، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م) ج ٥، ص ١٧٦٩.

(٢) سورة البقرة: ٤٤

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١ - ص ١٠)

(٤) سورة الأنبياء: ٦٧

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٨ - ص ٤٦٤).

(٦) سورة يس: ٦٨

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٠ - ص ٥٤٩).

و "نعقل" و "يعقل" جاء كل واحدٍ منها مرة واحدة ولم يرد لفظ العقل معرّفاً^(١).

تعريف العقل في الاصطلاح:

عرف العلماء العقل بتعريفات كثيرة، بعضها يجعل العقل هو الروح، لأن العقل لا إدراك له بلا روح، وبعضهم يجعله هو القلب، لأن محل العقل القلب، وبعضهم يجعله هو الإنسان لأن ما يميز الإنسان عن غيره العقل، وبعضهم يجعله غريزة تعرف بها العلوم، وبعضهم يجعله ذات العلوم.

وعرّف أبو الوليد الباجي العقل بأنه: "العلم الضروري، الذي يقع ابتداءً ويعمّ العقلاء".
والعلم الضروري هو ما يلزم نفس المخلوق بحيث لا يمكنه الانفكاك منه، ولا الخروج عنه.

وقوله: "يقع ابتداءً" أي من غير تحصيل، ولا كسب له عن طريق أحد الحواس الخمس، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الضدين لا يجتمعان.
وقوله: "ويعمّ العقلاء" أي كل عاقل من بني آدم، وأراد بذلك إخراج المجانين، ومن في حكمهم، وكذلك الحيوانات.

وأورد على هذا التعريف الانتقاد التالي:

أن الباجي قصر العقل على العلوم الضرورية، وخصّ منها ما يقع ابتداءً، دون ما يحصل بكسب الحواس؛ فجعل العقل بذلك شاملاً لجميع العقلاء، ومن ثمّ فلا يمتاز أحد عن أحد من جهة العقل؛ فلا يقال: فلان ذو عقل، أو فلان عقول، أو غير ذلك من ألقاب التفاضل.
والتعريف الذي اختاره العلماء، هو أن يقال: العقل يقع بالاستعمال على أربعة معانٍ:
الغريزة المدركة، والعلوم الضرورية، والعلوم النظرية، والعمل بمقتضى العلم:

الأول: الغريزة التي في الإنسان، فبها يعلم ويعقل، وهي فيه كقوة البصر في العين، والذوق في اللسان، فهي شرط في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف، وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، يقول شيخ الإسلام: "الغريزة التي يعقل بها الإنسان، وهذه مما تتنوع في وجودها، والسلف والأئمة متفقون على إثبات هذه^(٢) ويقول أيضاً "هو غريزة في النفس

(١) العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م) ص ١٣ بتصرف يسير.

(٢) بغية المرتاد لابن تيمية ص ٢٦٠-٢٦٣.

شرف الدين ابن تيمية (٧٢٧ هـ) عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن تيمية الحراني شرف الدين أبو محمد الدمشقي أخو الشيخ الإمام العلامة تقي الدين. ولد في حادي عشر محرم سنة ست وستين وستمئة بحران. سمع من ابن أبي اليسر وابن علان وابن الصيرفي

وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين" (١)، وبه قال الإمام أحمد (٢).

الثاني: العلوم الضرورية أو البديهيات العقلية وهي التي يتفق عليها جميع العقلاء كالعلم بأن الكل أكبر من الجزء إلى غيرها من البديهيات وهي علوم لا تحتاج إلى دليل لإقرارها وغير مكتسبة ولو لزم كونها تحتاج لبرهان لأفضى ذلك إلى التسلسل وهو محال (٣).

يقول ابن تيمية في تعريفه للمعنى الثاني للعقل: "علوم ضرورية يفرق بها بين المجنون الذي رفع القلم عنه، وبين العاقل الذي جرى عليه العقل، فهو مناط التكليف".

الثالث: العلوم النظرية، وهي التي تحصل بالنظر والاستدلال، وتفاوت الناس وتفاضلهم فيها، أمر جليّ وواقع، وهي التي "تدعو الإنسان إلى فعل ما ينفعه وترك ما يضره".

الرابع: الأعمال التي تكون بموجب العلم، ولهذا قال الأصمعي: "العقل: الإمساك عن القبيح، وقصر النفس وحبسها على الحسن" وقيل لرجل وصف نصرانيًا بالعقل: "مه، إنما العاقل من وجد الله وعمل بطاعته"، وقال أصحاب النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٤).

فتعريف بعض الناس العقل بذكر بعض هذه المعاني ليس بجامع، والصواب ذكر معانيه مجتمعة.

وفي كل معاني العقل المتقدمة لا يوصف بأنه جوهر قائم بنفسه، خلافًا للفلاسفة ومن شايعهم من المتكلمين، بل العقل صفة أو عرض - عند من يتكلم بالجواهر والعرض - يقوم بالعاقل، وكونه صفة يمنع كونه أول المخلوقات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها.

وابن أبي عمر وخلق كثير وسمع منه الطلبة. ذكره الذهبي في معجم شيوخه. فقال: كان إماما بارعا، فقيها عارفا بالمذهب وأصوله وأصول الديانات، عارفا بدقائق العربية، وبالفرائض والحساب والهيئة، كثير المحفوظ، له مشاركة جيدة في الحديث، ومشاهير الأئمة والحوادث، ويعرف قطعة كثيرة من السيرة، وكان متقنا للمناظرة وقواعدها، والخلاف. وكان حلو المحاضرة متواضعا، كثير العبادة والخير ذا حظ من صدق وإخلاص وتوجه وعرفان. (الدرر الكامنة ٢/ ٢٦٦) وشذرات الذهب (٦/ ٧٦).

(١) درء التعارض بين العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٨٩ ج ١.

(٢) العقيدة بين السلف والمتكلمين - حسن بن محمد شبانة ص ٤٧.

(٣) وقد أشار الفيلسوف اليوناني أرسطو لهذا المعنى حيث قال: ((للمبادئ الأولى خصلتان، الأولى عدم احتياجها إلى الإثبات بالدليل، والثانية كونها معلومة يقيين أعلى من جميع النتائج التي يمكن أن تُستنتج منها)) ويقول أيضا: ((لو احتاجت كل معرفة إلى برهان لاستحال العلم)).

(٤) سورة الملك: ١٠.

المطلب الثاني : مكان العقل في الإنسان :

اختلف أهل العلم في مكان العقل من جسم الإنسان، فقالت الأحناف والحنابلة -وهو مذهب المعتزلة- : إن العقل محله الدماغ، أي: الرأس، ودليلهم: أنه إذا ضرب الرأس ضربة قوية زال معها العقل. وقالوا أيضاً: إن العرب تقول للعاقل، وافر الدماغ، ولضعيف العقل، خفيف الدماغ، وهو محل الإحساس.

وقال المالكية والشافعية: محلّ القلب، وعليه بعض الحنابلة، ونسب إلى الأطباء^(١)، وصحّح الباجي، ودليلهم قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(٢) فأضاف منفعة كل عضو إليه؛ فمنفعة القلب التعقل كما أن منفعة الأذن السمع؛ فجعل عقل الشيء وتدبره في القلب، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾^(٣) أي عقل، وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره^(٤) وقال ﷺ: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))^(٥)، وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن، وسائر الأعضاء حجة له، توصل إليه من الأخبار ما لم يكن يأخذه بنفسه، فالعين والأذن وحاسة الشم، وحاسة اللمس، توصل إليه ما لا يدركه إلا بها، وبصلاح الأمير تصلح الرعية،

(١) مجموعة من الأطباء الأمريكيان وجدوا مجموعة من الخلايا العصبية في جدار القلب، وأن هذه الخلايا مسؤولة عن اتخاذ القرار في الجسم، وفي برنامج وثائقي عرضه أخيراً إحدى المحطات الأجنبية، ورد خبر يتحدث عن اكتشاف جديد، مفاده أن القلب هو أحد أهم مراكز الذكريات والمواهب والقدرات الفكرية لدى الإنسان، وأن هذا الدور ليس حكراً على الدماغ، أما البرهان القاطع على هذه الفرضية، فمنحته إحدى عمليات زرع القلب الغربية التي تمت أخيراً، حيث أودع قلب شاعر توفى حديثاً صدر سائق شاحنات هجر المدرسة في الخامسة عشرة من عمره، وبعد الجراحة، شرع سائق الشاحنات، في كتابة القصائد، ولدى مقارنة نصوص هذا السائق بقصائد الشاعر الراحل الذي وهبه قلبه، تبين أنها متشابهة للغاية، وقد فسر العلماء ذلك بأن القلب يحتوي على خلايا عصبية تؤدي دور دماغ صغير موصول بالدماغ الرئيسي، تتيح له أن يخزن الذكريات والميول الفكرية، لا المشاعر فحسب، ما يجعل متلقي القلب الموهوب يصاب بعدوى سلوك الواهب وشخصيته وطباعه وذوقه، بل وحتى ثقافته.

(٢) سورة الحج: ٤٦

(٣) سورة ق: ٣٧

(٤) فتح الباري لابن حجر ، ١/١٢٩.

بن حجر العسقلاني (٢) (٨٥٢ هـ) شيخ الإسلام أمير المؤمنين في الحديث حافظ العصر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر -وهو لقب لبعض آبائه- الكنانى العسقلانى الأصل، المصرى المولد والمنشأ، الشافعى. ولد في ثاني عشر شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة بالقاهرة ونشأ بها يتيماً في كنف أحد أوصيائه الزكى الخروبى. فحفظ القرآن وتولع بالنظم. ثم حبيب الله إليه طلب الحديث فأقبل عليه، ورحل من أجله إلى قوص ثم إلى الإسكندرية والحجاز واليمن والشام. ودرس على عدة شيوخ بلغوا ستمائة نفس، منهم: البلقيني وابن الملقن والعراقي والهيثمي ومحمد المنبجي وعدة. واجتمع له من ذلك ما لم يجتمع لغيره. تتلمذ عليه السخاوي والسيوطي والديلمي وابن مرزوق وغيرهم. مؤلفاته كثيرة مشهورة وصلت إلى أكثر من مائة وخمسين مؤلفاً منها: 'شرح البخاري' و'تهذيب التهذيب' و'التقريب' و'الإصابة' و'لسان الميزان' توفي رحمه الله تعالى ليلة السبت ثامن عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة. (النجوم الزاهرة (١٥/٥٣٢ - ٥٣٤).

(٥) الجامع المسند الصحيح من صحيح البخاري باب من استبرأ لدينه (ج ١/ص ٣٤ - برقم ٥٢).

وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه^(١).
والعقل يُراد به العلم والعمل كما مر معنا، وأصلهما من الإرادة، والإرادة في القلب،
والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد، فلا بد أن يكون القلب متصوراً، ويكون منه هذا
وهذا، ويبتدئ ذلك من الدماغ، وآثاره صاعدة للدماغ، وكلا القولين له وجهة صحيحة^(٢).
ومن ذلك يمكن القول بأن هناك ارتباطاً بين الدماغ والقلب في إدراك الأشياء وعقلها،
فالدماغ يُدرك الأشياء بالحواس، أو بالتفكير فيها، ثم يعقلها القلب فيرفضها أو يقبلها، فترجع
للدماغ مرة أخرى محملة بالقرار من القلب، ويرسل الإشارة اللازمة بسلوك معين، أو بقرار
معين، بحسب ما جاء من القلب.

ولذلك فإن الإنسان إذا فكر كثيراً فإنه يشعر بالألم أو التعب في دماغه الواقع في الرأس،
فاذاً هناك ارتباط قوي بين القلب والدماغ، وأن مكان العقل هو القلب، والدماغ وسيط. والله
تعالى أعلم.

فأساس العقل أنه فطري مطبوع في الإنسان، وهو العقل الذي يعقل ويدرك به، ويعقل به
العلم، وبالعلم والدربة يحصل العقل المكتسب، فالعقل الغريزي وسيلة لحصول العقل المكتسب،
ولا يمكن أن يكتسب الإنسان عقلاً وهو فاقد العقل الغريزي، قال عبد الله بن المعتز: "العقل
كشجرة، أصلها غريزة، وفرعها تجربة، وثمرتها حمد العاقبة، والاختيار يدل على العقل، كما
يدل توريق الشجرة على حسنها، وما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل إن لم يصدها
الهوى"^(٣).

أفرايت الرجل الذي لا يتقن حرفة معينة، فإنه لا يستطيع أن يبدع فيها ويفكر في أحسن
الطرق لأدائها، ولكن بعد أن يتعلمها ويتمرسها، قد يبدع فيها، فما حصل له من خبرة ومن
كشف أحسن الطرق لأدائها هو ما يسمى بالعقل المكتسب، أي هو نتيجة تنمية القوى العقلية
الغريزية.

فالعقل عقلاّن: عقل غريزيّ وهو أب العلم ومربيّه وثمره، وعقل مكتسب مستفاد، وهو
ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره،
وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه،

(١) الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، ٢/٢٠.

(٢) الفتاوى ابن تيمية، ٩/٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) الفقيه والمتفقه الخطيب البغدادي، ٢/٢١.

وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما.

وأما آفة فقدهما، أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجام، وترك انتهاز الفرصة، لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها. وأما صاحب العقل المكتسب فيؤتى من الإقدام بما ليس عند سابقه، فإن علمه بالفرص وطرقها، يلقيه على المبادرة إليها، وعقله الغريزي لا يطيق رده عنها، فإذا رُزق العقل الغريزي عقلاً إيمانياً مستفاداً من مشكاة النبوة لا عقلاً معيشياً نفاقياً، فإن صاحبه يكون على نقیض أهل العقول المعيشية النفاقية الذين يرون العقل أن يُرضوا الناس على طبقاتهم ويستجلبوا مودتهم على حساب الدين.

النظرة البشرية للعقل:

لقد تشعب الناس إلى طوائف من حيث نظرتهم لمكانة العقل وأهميته، وبناء على ذلك جاءت تصرفاتهم واهتماماتهم بحسب نوعية وجودة الغذاء المعرفي، وترتب على ذلك أن ظهرت تربيّات متنوعة بحسب تباين المفاهيم، ويمكن بيان تلك الأقسام على النحو التالي:

(١) قسم من الناس أله العقل التابع لهواه، وجعله هو المرجع الرئيس والحاكم على الأشياء، والقائد والمشرع، والموجه والمنظم لحياة الإنسان، وعطله عن معرفة الحق وإدراكه، فهؤلاء يعيشون لشهواتهم، وهؤلاء هم أهل الكفر بجميع أصنافه، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ (١) أي نسي مولاه، واتبع هواه، وانقاد له في كل الأمور. قيل: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر؛ فإذا مر بحجر أحسن منه عبده وترك الأول (٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالاَ إِنَّا نُرْسِلُكَ إِلَيْهِمْ بِآيَاتٍ بَارِعَاتٍ كَذَبُوا وَفَرِحُوا فَيَقْتُلُونَ﴾ (٣) يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموه على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه (٤).

وهذا النوع من الناس هم الذين ألهوا العقل، وجعلوه حاكماً على قضاياهم وأعمالهم ونتائجهم

(١) سورة الفرقان: ٤٣

(٢) أوضح التفسير (ج ١ - ص ٤٣٩) مرجع سابق.

(٣) سورة المائدة: ٧٠

(٤) الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعتلة، لابن قيم الجوزية، ٢/٦٦٠.

وورثوا هذا المنهج الضال عن إبليس لعنه الله، فهو أول من عارض أوامر الله تعالى بالعقل وقدمه عليه، فإن الله تعالى عندما أمره بالسجود لآدم، عارض أمر ربه بقياس عقلي مركب من مقدمتين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(١) وهاتان المقدمتان هما:

- إحداهما قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وتقدير ذلك أنا الفاضل فكيف أسجد للمفضول.
 - والثانية: معلومة من أساس النفاضل التي اعتمد عليها على حد زعمه، وهي المادة التي خُلق منها، فمن خلق من نار فهو أفضل، فكيف يسجد لمن خلق من طين.
- فهما قياسان متداخلان، وباطلان أيضاً، من عدة وجوه، كما وضح ذلك ابن قيم الجوزية رحمه الله^(٢):

- أنه قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله كان قياساً باطلاً.
 - أنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وهذا كذب، ومستنده في ذلك باطل، إذ لا يلزم من تفضيل مادة على مادة، تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى.
- فالعبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خير وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم، وأن صالحى البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نورا، ومادة البشر تراباً، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

أن التراب أفضل من النار لعدة اعتبارات منها:

- أن طبع النار الطيش والخفة، والأرض الثقل والرزانة.
 - أن طبع النار العلو والإفساد، وطبع الأرض الخشوع والإخبات، والله لا يحب المفسدين، ويحب المخبتين.
 - أن الأرض مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه، فهي حارقة لذلك.
 - أن الأرض تعطيك من البركة أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، والنار تحرقه.
- والمعتزلة والمدارس العقلانية تقدم العقل على النقل، فضلت وأضلت.

(١) سورة الأعراف: ١٢

(٢) الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية، والمعطة لابن قيم الجوزية، ٢/٦٦٣-٦٦٨.

(٢) وقسم عطل العقل، فلا يتدبرون ولا يتفكرون، وإنما حياتهم حياة بهيمية، لا يتدبرون آيات الله الماثورة في الكون وفي أنفسهم ولا يتفكرون في مآلهم ونهاية حياتهم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١) أفلم يسيروا هؤلاء المكذِّبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذبي رسل الله الذين خلوا من قبلهم، كعاد وشمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبيرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبد غيره وكذب رسله، فينبؤوا من عتوهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحق ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيّنا ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يقول: أو آذان تصغي لسماع الحق فتعي ذلك وتميز بينه وبين الباطل. وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ يقول: فإنها لا تعمي أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها، بل يبصرون ذلك بأبصارهم؛ ولكن تعمي قلوبهم التي في صدورهم عن أنصار الحق ومعرفة (٢).

(٣) وأمة من الناس قدمت الشرع على العقل، وأصبح الشرع بمثابة ضوء الشمس للعين، وتحقق عندهم لصحة عقولهم وصفاء منهجهم عدم تعارض العقل السليم والنقل الصحيح (٣)، وهؤلاء هم أهل الحق، وهم أهل السنة والجماعة، عرفوا قدر الشرع وأهميته، وحاجة الناس إليه فاتبعوه، وعرفوا أهمية العقل فلم يعطلوه (٤).

وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه (٥).

(١) سورة الحج: ٤٦

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٨ - ص ٦٥٧).

(٣) انظر: كتاب درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية.

(٤) انظر كتاب إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية ١/٥٣-٨٥ وذلك لمعرفة موقف السلف من الرأي.

(٥) المرجع السابق ١/٦٧.

المطلب الثالث: مفهوم العقل في الإسلام:

ولكي نحدد مفهوم العقل لابد أن نذكر بعض الآيات لكي نتبين من خلالها المفهوم بوضوح يقول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ لَمِزُونَ عَلَيْهِمْ مٌصِحِّينَ * وَإِلَيْهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١) بمعنى أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتتفكرون، فتعلمون أن من سلك من عباد الله في الكفر به، وتكذيب رسله، مسلك هؤلاء الذين وصف صفتهم من قوم لوط، نازل بهم من عقوبة الله، مثل الذي نزل بهم على كفرهم بالله، وتكذيب رسوله، فيزجركم ذلك عما أنتم عليه من الشرك بالله، وتكذيب محمد عليه الصلاة والسلام (٢).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣) فكذلك أبين لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيي محمد ﷺ في هذا الكتاب، لتعلموا حدودي - أيها المؤمنون بي وبرسولي - فتفهموا اللازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وأجلكم، فتعلموا به ليصلح ذات بينكم، وتناولوا به الجزيل من ثوابي في معادكم (٤).

فمفهوم العقل هو: إدراك الشيء على ما هو عليه من حقيقة في تكوينه وغاية خلقه ووجوده، وهذا المعنى يشترك فيه الجنس البشري كله.

أما مقياس العقل فحده: إدراك الحكمة التي من أجلها خلق الكون والعقل نفسه وإدراك هذه الغاية هو الذي يُعطي الإنسان صفة العقل الشرعي، فمن أدرك هذه الغاية فهو عاقل ومن لم يدركها فهو غير عاقل حيث يُعبر الكفار يوم القيامة عن هذه الحقيقة بوضوح كما جاء في القرآن العظيم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٥) فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته نذيمة، فلا سمع (٦) ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله، علماً ومعرفة وعملاً، والأدلة العقلية: المعرفة

(١) سورة الصافات: ١٣٨

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، (ج ٢١ - ص ١٠٥).

(٣) سورة البقرة: ٢٤٢

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري المرجع السابق (ج ٥ - ص ٢٦٥).

(٥) سورة الملك: ١٠

(٦) سورة لهم

لهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم -في الإيمان- بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير (١).

فالآية لا تنفي وجود القوة العقلية عندهم وإلا لسقط التكليف بل تنفي إدراك الحقيقة التي لأجلها خلق الإنسان وهي حقيقة واضحة فاستحق أولئك أن يوصفوا بأنهم أقل مرتبة من الحيوان، جاء في الكتاب العزيز ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۗ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۗ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٢) ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليهم، فيعون ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما يعاينون من حجج الله، فيفهمون ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ يقول: ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها، ولا تفقه، بل هم من البهائم أضل سبيلا لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتتقاد لأربابها، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم، بل يكفرونها، ويعصون من خلقهم وبرأهم (٣).

فهم كانوا يسمعون ويبصرون ويدركون ولكنهم لم يدركوا الحقيقة الشرعية والكونية يقول الملك - تبارك وتعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَأْتِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤) أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة، آيات أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره (٥).

أي لقوم يدركون الحكمة من هذه الآيات، وعدم إدراك الحقيقة الكونية هو ما يسميه القرآن بعَمَى الأبصار، أما الذين يدركونها فهم المُبْصِرُونَ والعاقِلُونَ وهم أولى الأبواب.

فالعقل:- هو البصر الروحاني الداخلي الذي يدرك الحقيقة كما هي ما لم تقف أمامه

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٨٧٥).

(٢) سورة الفرقان: ٤٤

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٩ - ص ٢٧٤).

(٤) سورة البقرة: ١٦٤

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٧٨).

الحجب من هوى وعقائد فاسدة وغير ذلك، فالقلب هو محل العقل والإدراك، والعقل صفة الروح، فتسمى الروح عقلاً من باب إطلاق الصفة على الموصوف، وكذلك يُسمى القلب عقلاً من هذا الباب، ومثال ذلك العين فهي عضو الإبصار، والإبصار صفة لها والشمس هي سبب حصول الرؤية، فكذلك القلب فالعقل هو صفته، والقرآن هو شمس الحقيقة الروحانية التي تعرف بها ذاتها وربّها ولذلك سمي الله القرآن نوراً: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١) يقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ يا أهل التوراة والإنجيل ﴿مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ يعني بالنور، محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبين الحق، ومن إنارته الحق، تبيّنهُ لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب (٢).

فالعقل لا يُبصر بدون نور الشريعة، وكذلك الإنسانية لن تبصر بدون شمس الحقيقة المحمدية يقول تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٣) أي وضياء لخلقه يستضيء بالنور الذي أتيتهم به من عند الله لعباده ﴿مُنِيرًا﴾ يقول: ضياء ينير لمن استضاء بضوئه، وعمل بما أمره، وإنما يعني بذلك: أنه يهدي به من اتبعه من أمته (٤)، فالسراج هو الذي استنار ثم أنار غيره، به تبصر الكائنات، فكما أن للبصر المادي شمساً حقيقية سماها الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٥).

جعل الله لنا شمساً للقلوب سماها سراجاً منيراً وهي الحقيقة النبوية المحمدية، فالقلب لا يهتدي بدون شمس الحقيقة القرآنية بالرغم من وجود صفة الإدراك التي هي العقل البشري، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (٦) أفلم يسيروا هؤلاء المكذبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذّبي رسل الله الذين خلوا من قبلهم، كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر

(١) سورة المائدة: ١٥

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٠ - ص ١٤٣).

(٣) سورة الأحزاب: ٤٦

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٠ - ص ٢٨٢).

(٥) سورة الفرقان: ٦١

(٦) سورة الحج: ٤٦

وعبد غيره وكذب رسله، فإنيبوا من عتوهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحق ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيننا ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يقول: أو آذان تصغي لسماع الحق فتعي (١).

فهم يمتلكون القلوب ولكن لا يعقلون بها، فالآية تؤكد أن القلب هو الذي يعقل ويتدبر، وبذلك لا يبقى مجال للشك حول تعيين مركز المعرفة والإدراك عند الإنسان، فالقلب هو مركز المعرفة والإدراك والشعور وليس الدماغ، وهذا لا يعني أن الدماغ ليس له علاقة بالوعي والحس بل هو المجمع الرئيسي للأعصاب والحواس، وهو مرآة العقل التي يدرك القلب بواسطته عالم المادة والحس ويتصرف فيها فالقرآن لم يذكر الدماغ كمصدر للوعي ولا في أي آية من القرآن بل أكد على أنه القلب فقط فقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عَٰمِرٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) أي جعل معبوده ما تهواه نفسه فما هويت قولاً إلا قاله، ولا عملاً إلا عمله ولا اعتقاداً إلا اعتقده ضارباً بالعقل والشرع عرض الحائط فلا يلتفت إليهما ولا يستمع إلى نداءهما، وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عَٰمِرٍ﴾ أي منه تعالى حيث سبق في علمه أن هذا الإنسان لا يهتدي ولو جاءته كل آية فكتب ذلك عليه فهو كائن لا محالة، وقوله ﴿وَوَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشًّا﴾ أي وختم تعالى على سمعه حسب سنته في ذلك فأصبح لا يسمع الهدى ولا الحق كأنه أصم ولا يسمع، وأصبح لا يعقل معاني ما يسمع وما يقال له كأنه لا قلب له، وأصبح لما على بصره من ظلمة لا يرى الأدلة ولا العلامات الهادية إلى الحق وإلى الطريق المستقيم المفضي بسالكه إلى النجاة من النار ودخول الجنة، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ وقد أضله الله والجواب لا أحد.

كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ (٣) أي من أضله الله تعالى حسب سنته في الإضلال وهي أن يدعى العبد إلى الحق والمعروف والخير فيتكبر ويسخر ويحارب فترة يصبح بعدها غير قابل لهداية فهذا لا يهدي أحد بعد أن أضله الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تذكرون فتتعظون أيها الناس فتؤمنوا وتوحدوا وتعملوا

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٨ - ص ٦٥٧).

(٢) سورة الجاثية: ٢٣

(٣) سورة النحل: ٣٧

الصالحات فتكملوا وتسعدوا في الدنيا وتتجو من النار وتدخلوا الجنة في الآخرة^(١)، فالسمع هو مفتاح الإدراك وخاصة الإدراك الشرعي.

فالقرآن نزل على قلب محمد ﷺ وسمعه، ونقله الرسول الكريم إلى الصحابة بواسطة السمع، فإذا سمع الإنسان الحق وأدركه بقلبه نطق به بلسانه فيشهد به فيكون مؤمناً، كما يحصل في عالم الشهادة فمن ولد أصماً يكون بالضرورة أكمماً، وإن كان جهاز النطق سليماً لأن النطق مرتبط بالسمع فمن لا يسمع لا ينطق وبالتالي يكون محروماً من اللغة التي هي وسيلة التفاهم بين الناس وكذلك من لم يشهد بقلبه الحقيقة المحمدية لا ينطق بها لسانه إلا منافقاً وكذلك من لا يسمع الحق الذي هو لغة الروح لا يؤمن به، لأن سماع اللفظ هو صفة السمع المادي أما السمع الروحاني فيدرك المعاني والحقائق المجردة عن اللفظ، أو إن شئت التعبير فيدرك محتوى اللفظ، فمن سمع الحق ينطق به فيكون عالماً بلغة الحق وهي لغة الكون، فحينها يكون الإنسان قادراً على تفهم الحقيقة من خلال التأمل والنظر في الآيات المكتوبة في القرآن والآيات المنظورة في الكون، فالسمع والبصر والقلب هي عناصر الإدراك الرئيسية في الإنسان يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

^(٢)ما زال السياق في الحديث عن أولئك العادلين بربهم المشركين به سواء فيخبر تعالى عن بعضهم فيقول: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حال قراءتك القرآن ولكنه لا يعيه قلبه ولا يفقه ما فيه من أسرار وحكم تجعله يعرف الحق ويؤمن به، وذلك لما جعلنا حسب سنتنا في خلقنا من أكنة على قلوبهم أي أغطية، ومن قرأ أي ثقل وصمم في آذانهم، فلذا هم يستمعون ولا يسمعون، ولا يفقهون وتلك الأغطية وذلك الصمم هما نتيجة ما يحملونه من بغض للنبي ﷺ وكره لما جاء به من التوحيد، ولذا فهم لو يرون كل آية مما يطالبون به من المعجزات كإحياء الموتى ونزول الملائكة عياناً لا يؤمنون بها لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا^(٣).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ﴾ ^(٤) قال ابن عباس^(١) المعنى: أولم يتبين ^(٢)﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال ابن

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للجزائري (ج ٥ - ص ٣٥).

(٢) سورة الأنعام: ٢٥

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للجزائري (ج ٢ - ص ٤٩).

(٤) سورة الأعراف: ١٠٠

جرير (٢) في تفسيرها: أولم يتبين للذين يُسْتَخْفُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ آخَرِينَ قَبْلَهُمْ كَانُوا أَهْلَهَا فَسَارُوا سِيرَتَهُمْ، وَعَمَلُوا أَعْمَالَهُمْ، وَعَتَوْا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (٣) يُقُولُ: أَنْ لَوْ نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلِهِمْ، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يُقُولُ: وَنَخْتُمُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكرة (٤).

ولما كان الإنسان يُمثل صورة مصغرة لعالمي الشهادة والملكوت فجسده يمثل عالمي الشهادة وروحه تمثل عالم الملكوت كان من الضروري وجود نقطة اتصال بين العالمين بين الروح والجسد فجعل الله له الدماغ وجعله في الرأس لأنه الأعلى والأشرف، ولذلك يوجد في الدماغ مركزاً لكل عضو في الجسم الإنساني تتحكم به تلك المناطق المخصصة له في الدماغ، ويستقبل الدماغ الأحاسيس المادية عبر المنافذ الحسية للجسد، وكذلك يستقبل الأحاسيس الروحانية عبر منافذ الإدراك الروحاني فيسجل الدماغ صورة لكل شيء مُدرك من عالم الروح والملكوت وعالم الشهادة، وكذلك توجد في القلب صورة روحانية لكل شيء مُدرك من العالمين، وبذلك يكون الدماغ هو مركز العلاقة الإدراكية المتبادلة بين الروح والجسد وبين العوالم المادية والعوالم الروحانية.

وقد أدى ذلك الوضع إلى التوهم بأن الدماغ هو مركز الوعي والشعور الأساسي، فالدماغ يفني بفناء الجسد عند الموت والروح تبقى بخروجها من الجسد ويبقى معها الوعي والعلم، فلذلك فهي الأساس في الوعي وليس الدماغ كما توهم البعض، وقوله جل وتعالى يؤكد ذلك ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ اللَّهِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥) قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين بربهم الآلهة والأنداد، والقائلين: ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٦) والمفتريين على الله كذباً،

(١) بن عباس: صحابي جليل، هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النبي محمد، حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير وترجمان القرآن، ولد ببني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين، وكان النبي محمد دائم الدعاء لابن عباس فدعا أن يملأ الله جوفه علماً وأن يجعله صالحاً. وكان النبي محمد يدينه منه وهو طفل ويربّت على كتفه وهو يقول: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". (البداية والنهاية (٨/ ٢٩٨ - ٣١٠).

(٢) سبق الترجمة لابن جرير ص ٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٠٠

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (ج ٢ - ص ٣٨).

(٥) سورة الأنعام: ٩٣

(٦) سورة الأنعام: ٩١

الزاعمين أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، والقائلين: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (١) فتعابنهم وقد غشيتهم سكرات الموت، ونزل بهم أمر الله، وحان فناء آجالهم، والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم (٢).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ (٣) يقال ذلك للمؤمنين: عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة ﴿أَرْجِي إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى رحمته، ورضوانه، ونعيمه الوافر ﴿رَاضِيَةً﴾ عن الله تعالى بما آتاك من نعيم مقيم ﴿مَرْضِيَةً﴾ عنده؛ بما عملت من صالح الأعمال (٤).

فالروح والقلب والنفس تأتي أحيانا بمعنى واحد، وأحيانا تختلف المعاني حسب نظام الإسناد للمعاني.

وقوله تعالى: ﴿زُبُكْرٌ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾ (٥) ربكم أيها الناس أعلم بما في ضمائرکم من خير وشر، إن تكن إرادتكم ومقاصدكم مرضاة الله وما يقربكم إليه، فإنه كان -سبحانه- للراجعين إليه في جميع الأوقات غفوراً، فمن علم الله أنه ليس في قلبه إلا الإجابة إليه ومحبتة، فإنه يعفو عنه، ويغفر له ما يعرض من صغائر الذنوب، مما هو من مقتضى الطباع البشرية (٦).

ويقول تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُيِّنْتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧) يعني شكاً ونفاقاً في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في بنائهم مُحْسِنِينَ ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار، من شكهم في دينهم، وما قصدوا في بنائهم وأرادوه، وما إليه صائرٌ أمرهم في الآخرة، وفي الحياة ما عاشوا، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره إياهم، وتدبير جميع

(١) سورة الأنعام: ٩٣

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١١ - ص ٥٣٧).

(٣) سورة الفجر: ٢٨

(٤) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٧٤٩).

(٥) سورة الإسراء: ٢٥

(٦) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٨٤).

(٧) سورة التوبة: ١١٠

خلقه (١).

فالشك محله القلب، وتقطع القلوب هو انفصالها عن القلب المادي " أي الموت " فالقلب الروحاني " الحقيقية الروحانية الإنسانية " متصل بالقلب المادي بطريق تختلف عن مفهوم الاتصال المادي بل هو اتصال روحاني تختلف قوانينه عن القوانين المادية، فلذلك يكون الانفصال أيضا بمعنى مخالف لمعنى الانفصال المادي بالمفهوم الفيزيائي. والاتصال بين القلب الروحاني والقلب المادي هو سر الحياة الإنسانية على الإطلاق، وهو مجهول الكيفية، لأنه ليس من عالم المفاهيم المادية، وبالتالي لا يقاس على أساس نظام المساطر الأرضية للزمان والمكان.

يقول الحق جل وعلا: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢) فإذا سويته وأكملت صورته ونفخت فيه الروح، فخرُّوا له ساجدين سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة (٣). وقد جعل الله له منافذ يدرك بواسطتها صور الأشياء والعلاقة بينها، وجعل له وسائل إدراك باطنية كالذاكرة تُخزن له المعلومات، وجعل له الحس المشترك يربط بين المحسوسات في قالب واحد، وجعل له قوة التخيل يتخيل بها صور المحسوسات، وجعل له التفكير وهي قوة يحصل بواسطتها على المعلومات المجهولة فيزداد علما، والتفكير غير العقل الذي هو الإدراك والإحاطة بقوة القلب الروحاني، أما التفكير فهو جهاز إدراك كباقي الأجهزة الإدراكية في الدماغ.

فالإنسان يُدرك أنه يفكر فالإدراك سابق على التفكير، والإنسان يُريد أن يفكر فأرادة التفكير سابقة على التفكير نفسه أما الإدراك فليس بإرادة الإنسان، فالروح تدرك وتعقل بدون إرادة سابقة فالعقل سابق على جميع الإدراكات البشرية، وهذا هو سر التكريم الإلهي للإنسان حينما نسب إليه الروح بقوله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (٤) فليست الروح جزءا من الذات الإلهية ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ ﴾ (٥) فالتفكير أعطي للإنسان ليدرك الحقيقة من وراء الحجب المادية

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٤ - ص ٤٩٥).

(٢) سورة الحجر: ٢٩.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٦٣).

(٤) سورة الحجر: ٢٩.

(٥) سورة الإخلاص: ٣.

والحسية والنفسية ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (١) فليس هناك حاجة للتفكير فالحقيقة تكون واضحة مُدركة وهناك عالم الحق، فيبقى التفكير قوة أرضية مرتبطة بالدماع يحتاجها الإنسان في عالم الغطاء والحجاب ليقضي بها حاجاته الشخصية، ويتوصل إلى المجهول.

وذكر في القرآن من الآيات التي تؤكد بأن القلب هو مركز المشاعر والأحاسيس الروحانية يقول الحق تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (٢) كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله (٣).

وفي قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانَهُمْ وَإِلَهُ جُنُودِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٤) يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه (٥).

والآيات التي تؤكد بأن القلب هو مركز نزول الوحي والإلهامات والإدراكات الروحانية يقول الحق جل وعلا: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٦) نزل به الروح الأمين فتلاه عليك يا محمد، حتى وعيته بقلبك (٧) فالقلب هو محل التنزيلات الإلهية. من هنا نفهم أن أهم مبدأ في نظرية المعرفة الإسلامية هو أن القلب هو أساس

(١) سورة ق: ٢٢

(٢) سورة النحل: ١٠٦

(٣) تفسير بن كثير (ج ٢ - ص ٦٠٥).

(٤) سورة الفتح: ٤

(٥) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٧٩١).

(٦) سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٤

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٩ - ص ٣٩٦).

المعرفة والوعي والإدراك والشعور والإحساس، بذلك يكون مقياس العقل هو إدراك شمس الحقيقة المحمدية التي استنارت بنور القرآن الذي هو شمس الحقيقة الكونية وهذا هو معيار عقلانية الأمة ومعيار حضارتها وتقدمها وبذلك نفهم أن غياب مفهوم العقلانية الإسلامية هو سبب تأخر الأمة وضياعها فريسة للأفكار الغربية.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١) بمعنى إنا أنزلنا هذا الكتاب المبين، قرآنًا عربيًّا على العرب، لأن لسانهم وكلامهم عربي، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه^(٢)، فلن تكونوا عقلانيين في تفكيركم ما لم تدركوا الحكمة من نزول القرآن عربيًّا فإنه شرف لكم وهدى ونور تهتدون به في ظلمات الحيرة والجهل ومataهات الأفكار والحضارات.

(١) سورة يوسف: ٢

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٥ - ص ٥٥١).

المطلب الرابع : التفاوت في العقول :

اختلف الأصوليون في تفاوت العقول من شخص لآخر على قولين :

القول الأول: العقل يتفاوت من شخص لآخر.

وممن ذهب إلى هذا القول من الأصوليين: القاضي أبو يعلى^(١)، وأبو الخطاب، والفتوحى،

والبزدوي، ومحمد بن نظام الدين الأنصاري.

واستدلوا بما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في

أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإني أريتنَّ

أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من

ناقصات عقل ودين أذهب لب الرجل الحازم من إحدكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا

رسول الله قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل. قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان

عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم. قلن: بلى قال: فذلك من نقصان دينها»^(٢).

وجه الاستدلال: أن هذا الحديث يدل على نقصان عقل النساء عن عقول الرجال مع

وصفهن بالعقل، ولو كان العقل شيئاً واحداً لا يتفاوت لما استقام ذلك.

الدليل الثاني: قالوا إن الإجماع منعقد على أن العقل متفاوت، وذلك لأن كل الناس يقولون:

عقل فلان قليل، وعقل فلان أكثر من عقل فلان، وفلان غير عاقل.

الدليل الثالث: قالوا إن العقل منحة إلهية تفضل الله تبارك وتعالى بها على عباده، وفصل

(١) الإمام القاضي أبو يعلى (٤٥٨ هـ) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد، المعروف بابن الفراء البغدادي الحنبلي. ولد سنة ثمانين

وثلاثمائة. قال ابن الجوزي: كان من سادات الثقات، وكان إماماً في الفقه، له التصانيف الحسان الكثيرة، في مذهب أحمد، ودرس وأفتى سنين، وانتهى

إليه المذهب. توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، ودفن في مقبرة باب حرب (موسوعة مواقف السلف في العقيدة المغراوي ج ٦ - ٢٢٨).

— أبو الخطاب (٥١٠ هـ) محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني ثم البغدادي الأزجي. ولد سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة. وقال السمعاني: أحد

الفقهاء، وكان مفتياً، فاضلاً، ورعاً، ديناً عزيز الفضل، وافر العقل، توفي سنة عشر وخمسمائة. (موسوعة مواقف السلف في العقيدة ج ٦ - ص ٤١٨).

— محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحى، تقي الدين أبو البقاء، الشهير بابن النجار: (٨٩٨ - ٩٧٢ هـ = ١٤٩٢ - ١٥٦٤ م)، فقيه حنبلي مصري.

من القضاة. قال الشعراني: صحبته أربعين سنة فما رأيت عليه شيئاً يشينه، وما رأيت أحداً أحلى منطقاً منه ولا أكثر أدباً مع جلسه. له (منتهى الإيرادات

في جمع المقنع) مع شرحه للبهوتي، في فقه الحنابلة، (الكتاب: الأعلام، الزركلي ج ٦ - ص ٦).

— الحسن بن علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم البزدوي، أبو ثابت ولد بسمرقند، ولما مات والده حملة عمه القاضي أبو اليسر المعروف بالصدر

إلى بخارى، وأحسن تربيته، ونشأ مع ولده، وتفق على عمه ببخارى، ثم انتقل إلى مرو، وسكنها مدة من الزمان، ثم لما مات ابن عمه أبو المعالي، ولي

القضاء ببخارى، وانصرف إلى بزدة وسكنها. وكان حسن الصمت، ساكناً، وقوراً، ملازماً بيته، حسن الصلاة. وكانت ولادته بسمرقند، سنة نيف

وسبعين وأربعمائة، ووفاته سنة سبع وخمسين وخمسمائة. (الطبقات السنوية في تراجم الحنفية، المؤلف: تقي الدين الغزي ج ١ - ص ٢٣٨).

(٢) الجامع المسند الصحيح من صحيح البخاري باب ترك الحائض الصوم (ج ١ - ص ٦٨ - رقم ٣٠٤).

وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (رقم ٧٩ - ص ٨٠).

الله تعالى يتفاوت بحسب قابلية المحل واستعداده، فيزيد عند بعض الناس، وينقص عند البعض. ... ولو كان العقل على حالة واحدة لما كان كذلك.

القول الثاني: العقل لا يتفاوت، بل هو شيء واحد في جميع الناس لا يزيد ولا ينقص.

وإلى هذا القول ذهب الأشاعرة والمعتزلة وابن عقيل الحنبلي، استدلوا بدليلين:

الدليل الأول: أن العقل من العلوم الضرورية، وتلك لا تختلف في حق عاقل، بل العقلاء في ذلك متساوون.

الدليل الثاني: أنه لو كان أحد الناس أكمل عقلاً من الآخر لم يحصل لغير الكامل الغرض، وهو تأمل الأشياء ومعرفتها لأجل النقصان الذي حصل فيه.

يترجح لديّ مما سبق عرضه ومناقشته أن العقل متفاوت، فهو يختلف قلة وكثرة من إنسان لآخر، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن الله تبارك وتعالى أمرنا برد كل شيء متنازع فيه إليه سبحانه وإلى

رسوله ﷺ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١) أي إذا اختلفتم فيما بينكم وبين أنفسكم

في أمر من الأمور أو إذا تنازعتم أنتم وأولوا الأمر ﴿فَرُدُّوهُ﴾ ارجعوا في حكم هذا النزاع ﴿إِلَى

اللَّهِ﴾ إلى ما جاء في كتابه المستبين ﴿وَالرَّسُولِ﴾ وإلى الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه

حال حياته، وإلى سنته وهديه من بعده ﴿ذَلِكَ﴾ الرجوع إلى الله ورسوله فيما شجر بينكم من

خلاف ﴿خَيْرٌ﴾ من رد النزاع إلى النهور والتعصب الأعمى ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ مآلاً وعاقبة (٢).

وقد رددنا هذه المسألة المتنازع فيها إلى الرسول ﷺ فوجدنا أنه عليه الصلاة والسلام

أخبرنا في الحديث المتفق عليه السابق ذكره، بأن النساء ناقصات عقل، وفي هذا الإخبار دلالة

صريحة على نقصان عقول النساء عن عقول الرجال، ولو كانت العقول متساوية لما أخبرنا

بذلك عليه الصلاة والسلام.

السبب الثاني: أننا نجد في الواقع المحسوس الملموس اختلاف الناس في الإدراك العقلي،

فبعضهم أكثر إدراكاً من بعض، وهذا يدل دلالة واضحة على تفاوت العقول بين الناس، إذ لو

(١) سورة النساء: ٥٩

(٢) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ١٠٢).

كانت متساوية لما وُجد ذلك الاختلاف.

ثمرة الخلاف في المسألة:

حَقَّق الغزالي^(١) رحمه الله تعالى في هذا المقام الأمر الذي لا تتفاوت فيه العقول بين الناس بعد أن بيَّن أن العقل يطلق بالاشتراك على أربعة معانٍ: أولها: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعدَّ به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وثانيها: العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وثالثها: العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الأحوال، ورابعها: معرفة عواقب الأمور التي تفضي إلى قَمَع الشهوة وقَهْرها^(٢).

فقال: (قد اختلف الناس في تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام مَنْ قَلَّ تحصيله، بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق، والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فإنَّ مَنْ عَرَفَ أَنَّ الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين، وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً، وكذا سائر النظائر، وكل ما يدركه إدراكاً محققاً من غير شك، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها).

وهذا التحقيق الذي ذهب إليه الغزالي رحمه الله تعالى يجعل عدم التفاوت محصوراً فيما يتعلق بالعلوم الضرورية فقط، ومعنى ذلك أن (العقل الغريزي) وهو الذي ميَّز الله تبارك وتعالى به الإنسان عن البهائم قابل للتفاوت فيختلف فيه الناس بعضهم عن بعض بحسب اختلاف مداركهم ومعارفهم.

إلا أن الزركشي^(٣) رحمه الله تعالى قد خالف في تحقيقه تحقيق الغزالي، فذهب إلى أن (العقل الغريزي) ليس قابلاً للتفاوت حين قال: (والتحقيق: أنه إن أُريد الغريزي فلا يتفاوت، أو التجريبي فلا شك في تفاوته).

ومعنى ذلك أن العقل الغريزي يستوي فيه كل الناس دون تفاوت، بل التفاوت بينهم إنما هو

(١) أبو حامد الغزالي، هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الملقب بحجة الإسلام وزين الدين (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ م - ١١١١ م)، مجدد القرن الخامس الهجري، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين السنة في التاريخ الإسلامي. (تاريخ الإسلام ووقايات المشاهير والأعلام للذهبي دار الغرب الإسلامي ج ١١ - ص ٦٢).

(٢) مجلة جامعة أم القرى (ج ٤ - ص ١٨٧).

(٣) الزركشي هو أبو عبد الله، بدر الدين، محمد بن بن بهادر بن عبد الله الزركشي المصري فقيه ومحدث وله مشاركة في علوم كثيرة ولد في القاهرة سنة ٧٤٥ هـ، وتوفي سنة ٧٩٤ هـ رحل إلى حلب واخذ عن الشيخ شهاب الدين الانرعي واخذ عن علماء حلب وسافر إلى دمشق وسمع الحديث من شيوخها. (الدرر الكامنة ٣: ٣٩٧ وشذرات الذهب ٦: ٣٣٥).

في العقل التجريبي، إذ الناس مختلفون في تجاربهم قلة وكثرة، وكلما كان الإنسان أكثر تجربة ازداد تعقلاً بشؤون هذه الحياة.

... وفي تصوري أنه بالموازنة بين هذين التحقيقين لا يستقيم خلاف معنوي بين ما قرره

الغزالي والزرکشي رحمهما الله تعالى، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: أنهما متفقان على أن العلوم التجريبية محل لتفاوت العقول فيها، إذ أن تلك

العلوم خاضعة في قلتها وكثرتها للتجارب التي يخوض الناس غمارها قلة وكثرة، أو أنها خاضعة للبحث والنظر، والبحث والنظر مما يختلف باختلاف المدارك والقدرات.

الوجه الثاني: أن ما اختلفا فيه من كون العقل الغريزي قابلاً للتفاوت وعدمه لا تعارض

فيه، إذ يمكن تخريجه عن طريق الجمع بحمل القول بعدم التفاوت على العلوم الضرورية لاستواء جميع العقلاء في إدراكها، وحمل القول بالتفاوت على العلوم النظرية التي يختلف فيها الناس بحسب قلة وكثرة تجاربهم، وبحسب اختلافهم في الاستعداد الذهني، وبهذا يؤول خلاف الفريقين في هذه المسألة إلى خلاف لفظي لا تنهض به ثمرة عملية.

وسبب الخلاف في تحكيم العقل يعود إلى المعرف لأحكام الله تبارك وتعالى، فمن رأى أن

المعرف لها إنما هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاصة ذهب إلى أنه لا سبيل إلى درك حكم الله تعالى بالعقل قبل البعثة، ومن رأى أن العقل يصلح أن يكون معرفاً ذهب إلى أن العقل يمكنه أن يستقل بدرك حكم الله تعالى في الفعل قبل البعثة بناء على ما يدركه من حسن فيه أو قبح، ثم قال الشيخ الخضري: والرأي الأول إما أنه مبني على أنه ليس في الأفعال صفات حسن وقبح ذاتية بسببها يطلب الله فعلها أو تركها وإنما هو يطلب فعل ما يشاء فيكون حسناً، ويطلب الكف عما شاء فيكون قبيحاً، فلا سبيل للعقل للعلم بحسن فعل أو قبحه إلا متى علم بطلب الله لفعله على لسان رسله أو الكف عنه، وإما مبني على أن الأفعال فيها صفة حسن أو قبح ذاتية ولكن لا يلزم من اتصافها بذلك أن يكون حكم الله وفق ما أدركه العقل من ذلك، فلا تكليف قبل ورود الشرع فالنتيجة واحدة وهي نفي التكليف قبل ورود الشرع وإن اختلفت العلة.

والرأي الثاني مبني على اتصاف الأفعال بالحسن والقبح اتصافاً ذاتياً، وأن العقل يمكنه

الاستقلال بفهم ذلك قبل ورود الشرائع، وأنه يلزم أن تكون أحكام الله على وفق ما اتصفت به الأفعال من ذلك)، وهذا ما نحى إليه المعتزلة حين قرروا أن النقل إذا جاء مخالفاً للعقل فإما أن يُردَّ أو يُؤوَّل.

ومما سبق يتبين لنا أن العقل متفاوت، فهو يختلف قلة وكثرة من إنسان لآخر وهو منحة

إلهية تفضل الله تبارك وتعالى بها على عباده، وفضل الله تعالى يتفاوت بحسب قابلية المحل واستعداده، فيزيد عند بعض الناس، وينقص عند البعض الآخر.

المبحث الثاني

التربية العقلية في القرآن وتقديره واعتباره مناط المسؤولية

المطلب الأول: التربية القرآنية للعقل:

يهتم القرآن الكريم بتربية الفرد في المجتمع من جميع الجوانب، فكما يهتم بتربيته من الناحية الجسمية والروحية والخلقية، كذلك فإنه يولي أهمية كبرى لتربية الفرد المسلم من الناحية العقلية؛ وذلك ليكمل بناؤه من جميع الجوانب.

والتربية العقلية في الإسلام تسعى إلى تنمية ذكاء الفرد، وقدرته على التأمل، والتفكير، والنظر، وتنمية قدرته على التخيل والتصور، إلى جانب تقوية ذاكرته، وإعطائه القدرة على التحليل، وإدراك العلاقات بفهم عظات التاريخ، وربطها بواقع الحياة، وربط العلل بالمعلولات، والأسباب بالنتائج، إلى جانب اهتمامها بتنمية القدرة على التعبير، فهي بذلك تشمل جميع نشاط الإنسان العقلي.

وهي إذ تهتم وتُعنى بهذه القدرات العقلية وتنميتها، فإنها تهدف من وراء ذلك إلى الوصول إلى الغاية الكبرى من معرفة الله عز وجل وحبه وعبادته، فليس التفكير في الإسلام لمجرد التفكير فحسب؛ لهذا كان العقل أهم وسيلة للوصول إلى معرفة الله عز وجل من خلال آياته "إذ بدون العقل لن نعرف الآية، وبدون الفكر لن يُعرف صاحبها".

والتربية العقلية تهتم أيضاً إلى جانب تثبيت العقيدة في نفس الطفل: ببناء الفكر الإسلامي في ذهن الطفل، وإعطائه القدرة على تمييز الفكرة الإسلامية من بين التيارات الفكرية الدخيلة المناهضة للتصور الإسلامي، كما أنها تبت روح العزة والأصالة بالفكر الإسلامي عند النشء.

وتضمن القرآن الكريم التوجيهات الكثيرة المباركة في الأمر بالتفكير، والتدبر، والتعقل،

فمنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأَخْلَافِ

أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) إن في

السموات السبع، والأرض التي منها خروج الخلق، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، لأدلة وحججاً للمؤمنين بها. وفي خلقكم -أيها الناس- وخلق ما تفرق في الأرض من دابة تدب عليها، حجج وأدلة لقوم يوقنون بالله وشرعه، وفي اختلاف الليل والنار وتعاقبهما عليكم وما أنزل الله من السماء من مطر، فأحيا به الأرض بعد يبسها، فاهتزت بالنبات والزرع،

(١) سورة الجاثية: ٥

وفي تصريف الرياح لكم من جميع الجهات وتصريفها لمنافعكم، أدلةٌ وحججٌ لقوم يعقلون عن الله حججه وأدلتها^(١).

وفي هذا دليل واضح على أهمية استخدام العقل - الذي هو مناط التكليف - في معرفة الله عز وجل والإيمان به، مما يتطلب ويوجب السعي في مرضاته بكمال الخضوع والذل في عبادته.

ولقد حبا الله الكائن البشري بملكات وقدرات عقلية عظيمة كالذكاء، والقدرة على الحفظ والتذكر، والإبداع، والفهم، وغير ذلك. وهذه القدرات وإن كانت مكنونة في الطفل عند ولادته، فإنها في حاجة إلى استخراج وتنمية، وما لم نهتم بهذه القدرات العقلية ونمّنها بالأساليب الصحيحة، فإنها ربما تضحل وتذهب، أو توجه وجهة غير صحيحة، فتتحرف وتضل، لهذا كان دور الأب في الأسرة مهماً للغاية؛ إذ هو المسؤول الأول عن تربية ولده وتعليمه وتوجيهه، محافظاً على ما حباه الله من قدرات وطاقات مختلفة وجاداً في تنميتها، وتوجيهها إلى الخير.

فالتربية العقلية تشمل توعيةً وتنقيفاً وتعليماً، وقد يظن البعض أنها الاهتمام بتعليم أبنائهم وكفى... كلا.. فإن عملية البناء العلمي والفكري للأبناء لا بد أن تكون واضحة للوالدين؛ حتى يقدموا لأبنائهما البناء العلمي السليم والأفكار الصحيحة.

فهي تشمل:

(١) الواجب التعليمي.

(٢) التوعية الفكرية.

(٣) الصحة العقلية.

الواجب التعليمي:

على الآباء أن يتحملوا مسئولية تعليم الأبناء، ومعلوم أن أول آية نزلت من القرآن ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٢) اقرأ - أيها النبي - ما أنزل إليك من القرآن مُفْتَتِحًا باسم ربك المتفرد بالخلق^(٣)، كذلك ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٤) وقل يا محمد: ربّ زدني علماً إلى ما علمتني أمره بمسألته من

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٩٩).

(٢) سورة العلق: ١

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٩٧).

(٤) سورة طه: ١١٤

فوائد العلم ما لا يعلم (١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) قل يا محمد لقومك: هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيراً، ولا يخافون بسئها شراً؟ يقول: ما هذان بمتساويين (٣)، وغيرها من الآيات.

كذلك حديث الرسول ﷺ الذي حَدَّثَ بِهِ الْأَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)) (٤).

ولقد ازدهرت الحضارة الإسلامية، ونشرت علومها إلى البلدان الأخرى، فكانت الدولة الإسلامية أستاذًا للعالم والإنسانية في ذلك الوقت بشهادة غير المسلمين، والسر في ذلك أن الإسلام روح ومادة ودين ودنيا، ويدعو للمساواة والانفتاح والتعارف إلى كل الأمم ودين مستمر دومًا، وأنه يجعل التعليم إجباريًا، قال رسول الله ﷺ: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم)) (٥)، مسلم يشمل الذكر والأنثى، فقد سبقت الدول الإسلامية العالم في نشر التعليم مجانًا للمواطنين، فكانت المدارس والمساجد ودور العلم.

إن تعلم العلوم الشرعية فرض عين بالمقدار الذي يُحتاج إليه، وينطبق على جميع الأفراد مسلمًا ومسلمة؛ حتى إن الرسول ﷺ كان يجعل يومًا لتعليم النساء أمور دينهم، أما العلوم الكونية فهي فرض كفاية إذا قام بها البعض سقط عن الباقيين.

فالواجب على المربين أن يهتموا بتعليم أبنائهم تلاوة القرآن وحفظ شيء منه، والسيره،

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٨ - ص ٣٨٢).

(٢) سورة الزمر: ٩.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢١ - ص ٢٦٨).

(٤) مسند الامام احمد باب مسند أبي هريره (ج ١٤ - ص ٦٦ - رقم ٨٣١٦) إسناده صحيح على شرط البخاري. أبو بكر: هو ابن عياش، والأعمش: هو سليمان بن مهران، وأبو صالح: هو ذكوان السمان. وانظر (٧٤٢٧).

(٥) سنن الدارمي: كتاب المقدمة: باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. حديث رقم (٢٢٠) بلفظ: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم وواضع العلم عند غير أهله كمثل الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب)). ضعف الألباني الشطر الثاني من الحديث من قوله وواضع العلم عند غير أهله..... ضعيف الجامع الصغير برقم (٢٢٤). انفرد به ابن ماجه.

الدارمي أحمد بن سعيد بن صخر (خ، م، د، ت، ق)، الإمام، العلامة، الفقيه، الحافظ، الثبت، أبو جعفر أحمد بن سعيد بن صخر بن سليمان الدارمي، السرخسي. وُلِدَ سَنَةَ نَيْفٍ وَتَمَانِينَ وَمِائَةً. وَسَمِعَ: النَّضْرَ بْنَ شُمَيْلٍ، وَجَعْفَرَ بْنَ عَوْنٍ، وَرَوْحًا، وَعَبْدَ الصَّمَدِ بْنَ عَبْدِ الْوَارِثِ، وَأَحْمَدَ بْنَ إِسْحَاقَ الْحَضْرَمِيَّ، وَأَبَا عَاصِمٍ النَّبِيلَ، وَحَبِيبَانَ بْنَ هِلَالٍ، وَوَهْبَ بْنَ جَرِيرٍ، وَعَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ وَقِيدٍ، وَطَبَقْتَهُمْ، وَأَكْثَرَ التَّطَوُّافِ، وَتَوَسَّعَ فِي الْعِلْمِ، وَبَعْدَ صَيْئِهِ. حَدَّثَ عَنْهُ: الْجَمَاعَةُ السُّنَّةُ - سِوَى النَّسَائِيِّ - . (السير ١٢/ ٢٢٤ - ٢٣٢) وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٣٤ - ٥٣٦).

والأحاديث النبوية، والعلوم الشرعية... قال ابن عباس: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبياً»^(١).

والحمد لله ما أكثر دور تحفيظ القرآن الآن، كذلك حفظ بعض الأحاديث النبوية التي تتناسب مع سنهم وما يستفاد منها، وتعليمهم القيم الأخلاقية والإسلامية، فهناك المدارس الشرعية، فعلى الآباء الاهتمام بالعلوم الشرعية لأبنائهم من حيث:—

(١) توفير المكتبة المنزلية الصالحة، يُختار لها كتب من التاريخ الإسلامي وتراجم للسلف وفقه وسيرة، ويمكن الحصول على كل ذلك من شبكة المعلومات.

(٢) وغرس حب العلم في نفوسهم حتى يقبلوا عليه، وأن ينووا بهذا العلم وجه الله ونفع الإسلام والمسلمين.

رغم أننا في الواقع نرى كثيراً من الآباء يهتمون بالجانب العلمي (الكوني) أكثر من الديني؛ فإننا نريد لهم التفوق الديني والعلمي مع التطبيق العملي في الحياة.

(٣) اختيار المدرسة الصالحة والمدرس الصالح؛ لأن الطفل يتأثر بمدرسه في العادات والآداب؛ لأنه يجلس معه مدة كثيرة في المدرسة فيتأثر به، ويلاحظ أن المدارس الأمريكية كثرت هذه الأيام، والمشكلة تظهر في الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى المدارس التبشيرية الأجنبية، فقد يستفيد الطالب علمًا كونيًا من المدارس، ولكن قد يخسر من دينه كثيراً، مقابل هذا؛ فإن هناك عدة مدارس إسلامية، جيدة يمكن للآباء أن يرسلوا أبناءهم فيها، فلا بد للآباء أن يكون عندهم وعي بهذا الأمر.

(٤) تحبيب الأبناء في إتقان اللغة العربية فهي لغة القرآن والحديث ولغة أهل الجنة.

ولقد مر عمر بن الخطاب على صبية يرمون بالنبال، فيخطئ أحدهم في كلامه، فينصب المرفوع فيقول: "يا أمير المؤمنين إنا قوم متعلمين"، فغضب عمر لهذا، وقال: (إن خطأكم في رميكم أحب إليّ من خطأكم في لغتكم). فما بالنا بالذين يكتبون بالعامية، ويدخلون الكلمات الأجنبية في كلامهم، فعلينا الانتباه لهذا الأمر، وحسن توجيه أبنائنا له ونحن قدوة لهم.

هذا لا يمنعنا من إتقان اللغة الأجنبية لتعلم العلوم الكونية، وكشف خطط الأعداء؛ حتى نأمن مكرهم فإننا نجد الأطفال في فلسطين يتعلمون العبرية حتى يأمنوا مكر اليهود وخذاعهم.

(٥) توجيه الأبناء وفق ميولهم العلمية حتى يتقنوا فيها وينفعوا مجتمعهم الإسلامي.

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي باب تقريب الفتيان من طلاب العلم (ج ١ - ص ٣٧٤ - رقم ٦٣٩) والحديث موقوف على الصحابي ابن عباس.

٦) تجنب الآباء تعليم أبنائهم في المدارس المختلطة ذكورا وإناثا؛ حتى يسلم المجتمع من المفسد، ألا يكفي الإعلام الذي ينفذ مخططات أعداء الإسلام في إفساد الشباب!!؟
التوعية الفكرية:

يجب أن يقوم الآباء بتوعية أبنائهم بأن الإسلام دين ودولة ونظام شامل، وأن ديننا دين العزة، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأنه خالد حتى قيام الساعة، وأن الأولين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من عز وقوة وحضارة إلا بفضل اعتزازهم بالإسلام وتطبيقهم للقرآن. تنبيه الأبناء إلى مخططات الأعداء والتقاليد والأفكار الغربية في محو العقيدة الإسلامية وانهلال الأسرة والمجتمع المسلم، ونحرص أن نستعيد هذا المجد إن شاء الله إذا تمسكنا بإسلامنا وعملنا به، ولقد كان الصحابة يعلمون أبناءهم مغازي رسول الله ﷺ، كما يعلمونهم السورة من القرآن، وهذه التوعية عن طريق:

- ١) التلقين الواعي المستمر للأبناء بأنه لا عز إلا بالإسلام، ولا قوة ولا نهوض إلا بالشرعية الإسلامية، ويُصرون أبناءهم بكل المخططات التي تستهدف القضاء على الإسلام... وضعف روح المقاومة والجهاد في نفوس المسلمين؛ فلا شك بفضل هذا التلقين الواعي المستمر سيرتبط الأبناء بالإسلام، ويعتزون به ويجاهدون في سبيله، وما أشد حاجتهم له في حياتهم الآن.
- ٢) القدوة الواعية التي تفهم الإسلام فهماً شاملاً صحيحاً، وتطبقه وتجاهد في سبيله، ولا تأخذ في الله لومة لائم؛ ولكن للأسف نجد من يركز على إصلاح النفس فقط، ويهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح، ومنهم من يهتم بالمظهر الإسلامي فقط ويهمل الحركي، ومن يهتم بالدراسة الشرعية ويهمل الدعوية.
- ٣) المطالعة الواعية: مكتبة متنوعة، قصص إسلامية، فقه، سيرة، أخبار الصالحين.. والآن أصبح على النت كل ما يريده، والاطلاع على أخبار العالم الإسلامي ومتابعته؛ خاصة ما يحدث في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها، فيصبح عندهم ثقافة إسلامية ومطالعة واعية ووعي ناضج صحيح.
- ٤) الرفقة الواعية توجيه الآباء لأبنائهم باختيار الصحبة الواعية المأمونة المتميزة التي تفهم الإسلام الفهم الناضج، فهم فيه صلاح وتقوى ونضج عقلي ووعي اجتماعي؛ حتى يكون رفيقاً سوياً (فالساحب صاحب)، فهناك شباب كل أحاديثهم عن الكرة والموضة والفنانين وتفاهات الأمور، هذه هي ثقافتهم.. فلنحذر أبناءنا من مصاحبة هؤلاء.

الصحة العقلية:

وهي أن يبقى الأبناء تفكيرهم سليماً، وذاكرتهم قوية وأذهانهم صافية وعقولهم ناضجة، وقد أجمع الأطباء وحذر علماء الصحة من المفاصد المنتشرة في المجتمع التي تؤثر على العقل والذاكرة وتخمل الذهن وتشل عملية التفكير مثل: التدخين فإنه يهيج الأعصاب، ويضعف ملكة إحضار الذهن، كذلك المخدرات، والعادة السرية، والإثارات الجنسية من أفلام ومسلسلات وفيديو كليب؛ فإنه عندما تتحرك الغريزة الجنسية لدى الإنسان تفرز غدهه نوعاً من مادة تتسرب بالدم إلى المخ فتخدره، فلا يكون قادراً على التفكير الصافي، فالرجاء حسن توجيهه لهذا، وشغل أبنائنا بما هو مفيد وعدم تركهم للفراغ.

هذا بالإضافة إلى الغذاء الصحي، ويبدأ من الرضاعة الطبيعية، ثم التغذية السليمة لنمو العقل والوجبة المتكاملة الصحية، والتركيز على الغذاء الذي يساعد على زيادة الذكاء الفطري وتنمية المهارات العقلية حتى ينشط المخ.

فعلى الآباء ألا يقصروا في حق أبنائهم ويفرطوا في هذه الأمور وحسن متابعتهم لهم؛ فإن الله سيحاسبهم على ذلك ويسألهم عن مسئوليتهم هذه.

فلا نقصر التربية العقلية على التعليم المدرسي والشهادات العلمية وكفى كما يظن البعض؛ ولكن هي كل ما ذكرناه، فلا بد من استشعار هذه المسئولية متكاملة غير منقوصة، وسيحاسبنا الله على هذه الأمانات.

ففي الحديث الذي رواه النسائي أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا معاذ بن هشام قال: حدثنا أبي، عن قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلُ كُلِّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرَعَاهُ، أَحْفَظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ» (١).

(١) السنن الكبرى للنسائي، باب كل راع عم استرعى (ج ٨ - ص ٢٦٧ - رقم الحديث ٩١٢٩).

المطلب الثاني : تقدير القرآن الكريم للعقل :

الذي يقرأ آيات القرآن الكريم يجد فيها تقدير العقل وتعظيمه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ (١) أي: لذي عقل، وسمي العقل حجراً لأنه يحجر على صاحبه (٢)، فلا يقع في القبائح، ولا في خوارم المروءة.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٣) أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتزلعون منه (٤).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكٌ لِيَدَّبُرُوا بِنَبِيِّهِمْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٥) أي: ذوو العقول وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل (٦).

إذاً للعقل قيمة عظيمة جسيمة مقرره في القرآن وقد أعطى القرآن للعقل منزلته اللائقة به بخلاف أهل البدع والانحراف كالفلاسفة؛ لكن أين موقعه؟ وبمعرفة ذلك نهدم الصنم الذي نصبه المبتدعة أمام نصوص الوعد إن العقل صار صنماً يعبد، ووثناً يجب تكسيره؛ لأنهم وضعوه في مكان ليس له.

فالمبتدعة الذين لهم أوثان ومن أعظم أوثانهم وثن العقل فجعلوا العقل قاضياً على كلام الأنبياء، وميزانا على صحة الشرع أو عدم صحته، فالعقل عندهم رقم واحد، وكلام الرسول رقم اثنان فإذا خالف كلام النبي ﷺ عقولهم ردوه.

إنهم يحرفون كلام الوحي لصالحهم، قال قائلهم: إن إبراهيم عليه السلام ما اهتدى إلى ربه إلا بالعقل وكذب! فقصة إبراهيم عليه السلام تنادي بغير ذلك وهي معروفة في سورة الأنعام:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْوِينِي بِنِعْمَةِ رَبِّي وَمِمَّا دُشِرُوكُونَ ﴾ (٧).

(١) سورة الفجر: ٥

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٨ - ص ٣٩٠).

(٣) سورة العنكبوت: ٤٣

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٦ - ص ٢٧٩).

(٥) سورة ص: ٢٩

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٧ - ص ٦٤).

(٧) سورة الأنعام: ٧٦-٧٨

أين - في هذه الآيات- ما يدل على أنه اهتدى بالعقل؟! يكذب هذه الدعوة قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (١) أكد سبحانه وتعالى ما آتاه لإبراهيم، بـ " اللام " و " قد "، والرشد هو العلم والإدراك والنفوذ إلى الحقائق كما رأينا تعرفه على الله تعالى في وسط الجهالة التي كانت غمامة على العقول منعته من الإدراك السليم، وكيف تعرّف في نجم فرآه قد أفل، ثم في القمر فرآه أيضا أفل، ثم رأى الشمس بازغة، فقال هذا حتى انتهى إلى الوحداية، هذا كله رشد وإدراك سليم انتهى إلى الإدراك الكامل لمعنى الألوهية المنزهة عن المشابهة للحوادث في أفعالها وظهورها، وفي فنائها وبقائها، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى عليه السلام، وهو أسبق منه، وكان تقديمه لما ذكرنا من أنه جاء بشريعة مفصلة وإن نسخ بعضها وبقي الآخر، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي عالمين كيف ربيناها، وكيف صنع على أعيننا، وربينا فيه روح الحق وتتبعه والوصول إليه (٢).

فالهداية نعمة من الله، ومنحة إلهية ليس للعقل فيها دور أبداً، ولذلك يخطئ الناس عندما يقولون: إن الله عرفوه بالعقل. لا والله! لا يعرف ربنا بالعقل استقلالاً أبداً، لأن العقل قاصر على ما دخل تحت الحواس؛ ولذلك ما خرج عن الحواس لا يتخيله العقل ولا يستطيع وصفه ولا توصيفه، والعقل لا يستطيع وصف الجنة ولا وصف النار، ولا وصف الملائكة ولا الشياطين.

جاء في مسند الإمام أحمد روى عبدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَهَا يَبُوسُ، لَهَا تَبَلَى ثِيَابُهُ، وَلَهَا يَفْنَى شَبَابُهُ، إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا لَمْ يَرَأْ، وَلَمْ يَأْذَنْ سَمِعَتْ، وَلَمْ يَخْطَرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ)) (٣) وقال ابن عباس: (ليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء) فيها نخل ورمان، هل هي كنخلنا ورماننا؟ لا. فيها خمر لذة للشاربين هل هي كخمرتنا؟ لا. فيها لبن لا يتغير طعمه، هل هو كلبننا؟ لا. فيها ماء غير آسن، هل هو كمائنا؟ لا.

(١) سورة الأنبياء: ٥١

(٢) زهرة التفاسير (ج ٩ - ص ٤٨٨١).

(٣) مسند الإمام احمد باب مسند أبي هريرة (ج ١٦ - ص ٣٩ - رقم ٩٩٥٧) إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم. ثابت: هو ابن أسلم البناني، وأبو رافع: هو نفيح الصائغ.

وأخرجه الحسين المروزي في زياداته على "زهد ابن المبارك" (١٤٥٦)، ومسلم (٢٨٣٦)، وأبو الشيخ في "العظمة" (٦٠٥)، والبيهقي في "البعث" (٢٩٤) من طريق عبد الرحمن بن مهدي، بهذا الإسناد. واقتصر مسلم على شطره الأول. وانظر (٨٨٢٧).

نعم فيها الاسم، لكن الجنس الوصف الطعم مختلف تماماً ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فكيف يعقله المرء إذا؟! نوافذ العقل على الدنيا هي الحواس والله تبارك وتعالى لا يقع تحت حاسة بشر، فكيف يمكن أن يهتدي العبد إلى ربه بعقله؟! أبداً. الهداية منحة من الله ثم يأتي دور العقل ثانياً ليثبت هذه المنحة. إذاً دور العقل أن يكون رقم اثنين، ولا يكون قبل النقل أبداً، وإنما ضل أهل البدع بسبب أصلهم الفاسد، وهو تقديم العقل على النقل (١).

العقول لا تصل إلى معرفة الله استقلالاً:

إن الإيمان بالله منحة إلهية، ليس للعقل فيها فضل ولا منة وهذا الأمر واضح وجلي في مشاهدة الناس، إذ أن أغلب المسلمين إسلامهم حكيم، كل منهم لم يسلم بالنظر في الدلائل، إنما أسلم لأن أبويه مسلمان، وهذا يختلف عن الإسلام الفعلي.

والإسلام الفعلي: هو الإسلام الناتج بالنظر فيما يسميه العلماء بـ (السمعيات)، أي: الدلائل من نصوص الوحي قرآناً وسنة التي تتلقى عن طريق السمع؛ فالدلائل إما عقلية وإما سمعية، إما أن تعمل عقلك وإما أن تسمع.

فعندما نقرأ كلمة (السمعيات) في الكتب نعرف أنها الأمور التي لا يتعرف عليها إلا بطريق السمع، وهي كل أحكام الغيب مثل صفات الباري، فما علمناها إلا عن طريق السمع، أي: سمعناها.

هناك ناس بلغت عقولهم مبلغاً من الذكاء حتى عدو من أذكى بني البشر، ومع ذلك هم من أجهل الجاهلين بالله واليوم الآخر وما يعود عليهم بالنعمة، فعالم الذرة أو عالم الإلكترونيات الهندي الهندوسي إذا رأى بقرة - وهو ذاهب إلى المعمل في سيارته على خط سير مستقيم - أوقف السيارة وسجد لها، ثم واصل طريقه أي عقل هذا؟ مع أننا في ميزان العقول نجعل عقل هذا الهندوسي كبيراً، بل عقل الفلاح الذي يعمل في الأرض لا يساوي شيئاً بجانبه، ومع ذلك هذا الفلاح مسلم، وذلك كافر، فلو كانت المسألة مسألة نظر ورجاحة عقل، لآمن جماعة العلماء الذين صعدوا الفضاء إذا كانوا صعدوا؛ فهناك عالم فضاء كندي ألف كتاباً خطيراً جداً يقول فيه: نحن لم نصعد الفضاء، ويقول: إن الصعود إلى القمر أكذوبة أمريكية؛ فبيننا وبين القمر منطقة درجة حرارتها أربعة آلاف درجة مئوية، لا يستطيع إنسان أن يقترب منها، هذا ملخص

(١) كتاب البدعة وأثرها في محنة المسلمين لأبو إسحاق الحويني الأثري حجازي محمد شريف، (ج ٤ - ص ١).

هذا الكتاب الذي أحدث ضجة وعمل فضيحة كبرى، وقد نشر ملخصه في مجلة لبنانية، وعالم الفضاء هذا انشق عنهم وأصدر هذا الكتاب، فقال: إن التمثيلية التي عملها الأمريكيان - وهم أصحاب الإخراج العالمي، هوليوود بلد السينما العالمية والخداع - هؤلاء عملوا مسرحية انطلاق المركبة الفضائية حتى شاهدها الجمهور الأمريكي، وكان لدى الجمهور الأمريكي رغبة في مشاهدة مكوك الفضاء، فاجتمع الأمريكيان كلهم ليشاهدوا هذا، وصعد علماء الفضاء أمام الجمهور إلى المكوك، يقول هذا العالم الكندي: ولا يعلم الأمريكيان أننا خرجنا من الناحية الأخرى، ولا يعلم الجماهير أن هذه المركبة كذلك سقطت في المحيط، وعودنا إلى الفضاء كان أكذوبة كبرى، وهذا الكلام لم يقله متخلفون، هذا الكلام لعالم كندي قضى عمره في محطة الفضاء الأمريكية، ولأمر ما (إذا اختلف اللسان ظهر المسروق) اختلفوا مع بعض فكشف بعضهم بعضاً، مثل ضابط الموساد الإسرائيلي الذي أخرج فضائح الموساد خلال عشرين سنة ماضية، فقد اختلف معهم، وأخذوا يبحثون عنه لكي يقتلوه، فنشر ثلاثة كتب قاضية فضح فيها الشرق والغرب.

يذكر عن عالم فضاء سوفييتي صعد إلى الفضاء فقال: سعدت أبحث عن الله فلم أجده. فهل هذه عقول؟! لا يمكن أن تكون عقولاً مفكرة! مع أنها في نظر البشر أجل العقول، وصلت إلى تحطيم الذرة وما أشبه ذلك، فلما لم يهتدوا إلى معرفة الله وتعالى كان هذا من أدل الدلائل التي لا يعارض فيها أحد أن معرفة الله عز وجل لا يستقل العقل بإدراكها؛ لأن العقل لو فكر بما يتعلق بالله تبارك وتعالى كفر، والنبي عليه الصلاة والسلام هو الذي قال لنا ذلك، في حَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الرَّومِيِّ، قَالَ حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ وَهُوَ ابْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَا يَزَالُونَ يَسْأَلُونَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟)) قَالَ: فَبَيَّنَّا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ جَاءَنِي نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، هَذَا اللَّهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ قَالَ: فَأَخَذَ حَصَى بَكَفِهِ فَرَمَاهُمْ، ثُمَّ قَالَ: قَوْمُوا قَوْمُوا صَدَقَ خَلِيلِي (١).

فإذا هاجم هذا الوسواس المسلم، فماذا يقول؟ قال عليه الصلاة والسلام: ((فمن وجد ذلك فليقل: لا إله إلا الله)) أي: يرجع إلى كلمة التوحيد؛ لأن الإنسان لو فكر وأعمل عقله في كنه الله تبارك وتعالى، فيمكن أن يقيم الدلائل العقلية على أنه غير موجود.

(١) صحيح مسلم باب بيان الوسوسة في الإيمان (ج ١ - ص ١٢١ - رقم ١٣٥).

فرانسوا ميتران الرئيس الفرنسي في إحدى مقابلاته سأله: هل عندك شك في وجود الله؟ قال: الشكوك في ذلك قوية! وهذا حاكم بلد يعتبر ثاني أو ثالث بلد في العالم، ومن أقوى دول العالم بجانب أمريكا وبريطانيا، وهي إحدى الدول المحتركة لتصنيع السلاح والتكنولوجيا، وهو أول رئيس فرنسي استمر في الحكم أربعة عشر عاماً، وهذا يدل على أنه عبقرى، ومع ذلك يُسأل عن الله تبارك وتعالى، هل عندك فيه شكوك؟ فيقول: الشكوك قوية جداً أنه غير موجود. ولو وضع عقله أمام عقل فلان أو فلان، لما كانت عقولهم تزن شيئاً أمام عقله.

إذاً: الهداية منحة إلهية ليس لك فيها فضل، ثم يأتي العقل بعد ذلك لتثبيت هذه الهداية ومنحها، إذا آمنت نفعك عقلك، وإذا لم تؤمن لا ينفعك عقلك.

وقد حمل القرآن على المقلدين الذين يعطون عقولهم ولا يستعملونها، فقال في موضع ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) إِنَّ شَرَّ مَا دَبَّ عَلَى الْأَرْضِ - مِنْ خَلْقِ اللَّهِ - عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الَّذِينَ انْسَدَّتْ آذَانُهُمْ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ فَلَا يَسْمَعُونَ، الصَّمُّ الَّذِينَ خَرَسَتْ أَسْنَانُهُمْ عَنِ النُّطْقِ بِهِ فَلَا يَنْطِقُونَ، هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ (٢).

وكثيراً ما وردت آيات تنتهي بهذه الجوامع ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٣) ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤) ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٥) ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٦) ﴿وَقَدْ أَنْفَسِكُمْ أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧) ولم يقف القرآن عند هذه الحدود، بل أمر بإحسان استعمال السمع والبصر والعقل حتى يهدي الإنسان عن طريقها إلى الحق والحقيقة، ويكون الحق واضحاً عنده والحقيقة ثابتة لديه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٨) أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما

(١) سورة الأنفال: ٢٢

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ١٧٩).

(٣) سورة العنكبوت: ٦٣

(٤) سورة البقرة: ١١١

(٥) سورة القصص: ٧١

(٦) سورة الزمر: ٩

(٧) سورة الذاريات: ٢١

(٨) سورة الإسراء: ٣٦

قاله وفعله و عما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى (١).

وفي هذه الآية الجامعة الكريمة أصول رئيسية متبعة في أصول النظر العلمي، فلقد أمر بالمشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح، وأن على الإنسان أن يتمسك بما يصل إليه من حق أو حقيقة عن هذين الطريقتين، المشاهدة والتفكير.

وقال جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢) يقول تعالى ذكره لمُنكري قدرته على ما وصف في هذه السورة من العقاب والنكال الذي أعدّه لأهل عداوته، والنعيم والكرامة التي أعدّها لأهل ولايته: أفلا ينظر هؤلاء المنكرون قُدرة الله على هذه الأمور، إلى الإبل كيف خلقها وسخرها لهم ودلّلها وجعلها تحمل حملها باركة، ثم تنهض به، والذي خلق ذلك غير عزيز عليه أن يخلق ما وصف من هذه الأمور في الجنة والنار وقوله: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ يقول جلّ ثناؤه: أفلا ينظرون أيضا إلى السماء كيف رفعها الذي أخبركم أنه معدّ لأوليائه ما وصف، ولأعدائه ما ذكر، فيعلموا أن قُدرة القدرة التي لا يُعجزه فعل شيء أراد فعله.

وقوله: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ كيف أقيمت منتصبية لا تسقط، فتتسبط في الأرض، ولكنها جعلها بقدرته منتصبية جامدة، لا تبرح مكانها، ولا تزول عن موضعها، وقوله: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ كيف بُسطت، يقال: جبل مُسَطَّح: إذا كان في أعلاه استواء. أليس الذي خلق هذا بقادر على أن يخلق ما أراد في الجنة (٣).

وقال تعالى: ﴿سَتْرِيهَمْ أَيْنَتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٤) أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ يعني خراب منازل الأمم الخالية ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالبلايا والأمراض. وقال ابن زيد: ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ آيات السماء ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حوادث الأرض. وقال مجاهد: ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ فتح القرى، فيسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤٥٧).

(٢) سورة الغاشية: ١٧-٢٠.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٤ - ص ٣٨٩).

(٤) سورة فصلت: ٥٣.

الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادات ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ مفتوح مكة (١).

ولا شك أن هذا النمط من الآيات الجامعات والأقوال البينات مما يرشد الناس إلى التفكير من الكون وخبايا الأرض وأسرار الحياة والتطلع على خفايا الوجود، وبهذا ينطلق العقل البشري باحثاً منقّباً متطلعاً مما يؤدي إلى الوصول دقائق الحقائق في الوقوف على نظام هذا الكون وموجوداته على تعددها وتبيانها وتعقدتها.

(١) تفسير القرطبي (ج ١٥ - ص ٣٧٤).

المطلب الثالث: مكانة العقل في الإسلام:

وللعقل بعد هذا في الإسلام منزلة كبيرة ودرجة رفيعة، يتبوأ فيها ويتفياً ظلالها، فليس ثمة عقيدة تحترم العقل الإنساني وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلامية، وليس ثمة كتاب خاطب العقل وغالى بقيمته وكرامته ككتاب الإسلام، ونظرة إلى آيات القرآن الكريم تلقى عبارات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لَقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ تتكرر عشرات المرات، مؤكدة المنهج القرآني الفريد في الاقتناع العقلي للإيمان، كل هذا يؤكد ما للعقل من منزلة كبرى في الإسلام.

وإذا ما ذهبنا لتلمس مظاهر أخرى عديدة لتكريم الإسلام للعقل برزت لك جوانب مشرقة؛ أذكر منها:

أولاً: قيام الدعوة إلى الإيمان على الإقناع العقلي: وتظهر سمات ذلك بأساليب شتى؛ مثل: الدعوة إلى التفكير والتدبر في كتابه ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١) ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به (٢)، ثم يستثير العقل الإنساني متحدياً له أن يأتي بمثل هذه القرآن، حتى إذا ما عجز سلم مقتنعاً بأنه من عند الله ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ (٣) لقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا فتحداهم بسورة فعجزوا، وقد صور الزمخشري أن الانتقال من العشر إلى الواحدة تنزُّل في التحدي كمن يقول لمن يتعلم الكتابة، اكتب عشرة أسطر فلا يستطيع، فيقول له اكتب سطراً فإذا لم يكتب كان ذلك دليلاً على العجز المطلق، ولقد ادعوا على النبي ﷺ أنه افتراه، فتحداهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات (٤).

ودعا العقل إلى التدبر في مخلوقات الله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيْرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ (٥) يقول تعالى منبهاً على التفكير في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال:

(١) سورة ص: ٢٩

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢١ - ص ١٩٠).

(٣) سورة هود: ١٣

(٤) زهرة التفاسير (ج ٧ - ص ٣٦٧٨).

(٥) سورة الروم: ٨

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم^(١).

ثم يستثيره مرة أخرى أن يجد خللاً في شيء منها حتى إذا ما عجز زاد تسليماً واقتناعاً ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِن تَفٰوُتٍ ۗ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۗ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خٰسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^(٢) الذي خلق سبع سموات متناسقة، بعضها فوق بعض، ما ترى في خلق الرحمن -أيها الناظر- من اختلاف ولا تباين، فأعد النظر إلى السماء: هل ترى فيها من شقوق أو صدوع؟ ثم أعد النظر مرة بعد مرة، يرجع إليك البصر ذليلاً صاغراً عن أن يرى نقصاً، وهو متعب كليل^(٣).

ودعاه إلى التدبر في تشريعاته، ففيها عبرة وفيها إعجاز ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يٰٓأُولِي الْأَلْبٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤).

ودعاه إلى التدبر والنظر في أحوال الأمة الماضية وعاقبة معاصيهم التي أصروا عليها ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكٰذِبِينَ﴾^(٥).

ودعاه إلى التدبر والنظر والتأمل في هذه الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاۤ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾^(٦).
﴿وَأَضْرِبْ لَهُم﴾ يا محمد ﴿مَّثَلِ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ وحسنها وبهجتها؛ مع سرعة زوالها وانقضائها ﴿كَمَاۤ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ﴾ ببسر وسهولة ﴿فَاخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي شرب منه، ونما وازدهر

(١) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ٣٠٥).

(٢) سورة الملك: ٣-٤

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٦٢).

(٤) سورة البقرة: ١٧٩

(٥) سورة الأنعام: ١١

(٦) سورة الكهف: ٤٥

بسببه؛ غير أنه ذبل بعد ذلك ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً متكسراً ﴿نَذْرُهُ الرِّيحُ﴾ تنسفه وتطيره^(١). هذه بعض مظاهر التأمل التي دعا القرآنُ العقلَ إليها، وهو حين يدعوهُ إلى ذلك لا يريد منه أن يقف عند حدود التأمل والنظر، فليس ذلك بمراد لذاته؛ وإنما ليعبر منه إلى ثمرته وفائدته؛ فيقوم به عقيدته، ويرسي أركانها، ويثبت قواعدها ثباتاً لا تزعه هبات؛ بل رياح الشهوات؛ وحينئذ يكون الفلاح، وحينئذ يكون الإيمان الحق؛ ذلكم هو المراد وهو الهدف؛ لكنه ليس هو نهاية المطاف.

ثانياً: وحين يصل القرآنُ بالعقل إلى هذه الدرجة فإنه لا يدعه هملاً؛ بل وجه طاقته إلى هدف آخر أوسع رُقعة وأعظم نتيجة؛ تلكم هي مراقبة الحياة الاجتماعية مراقبة إصلاح وتوجيه لما فيه فلاحها وسعادتها ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحَّاك: هُمْ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ، وَخَاصَّةُ الرُّوَاةِ يَعْنِي الْمُجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءَ^(٣).

وليست هذه المهمة لإصلاح المجتمع مسئولية مؤسسات المجتمع فحسب؛ بل هي مسئولية كل فرد فيه، فلا قيمة للإصلاح إذا اقتصر على إصلاح الذات ولم يتسع لإصلاح الآخرين مع القدرة على ذلك ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤) يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع^(٥).

ثالثاً: والقرآن حين يدعو إلى الإيمان ينعي على المقلدين الذين لا يعملون عقولهم، ويتبعون نظريات واهية وآراء زائفة، لا لشيء إلا لأنهم ألفوا آباءهم عليها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِمْ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا سَوِيًّا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٦) وإذا قال المؤمنون ناصحين أهل الضلال: اتبعوا ما أنزل الله من القرآن والهدى، أصروا على تقليد

(١) أوضح التفسير (ج ١ - ص ٣٥٧).

(٢) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٣) مختصر تفسير بن كثير (ج ١ - ص ٣٠٦).

(٤) سورة الأنفال: ٢٥.

(٥) تفسير بن كثير (ج ٤ - ص ٣٧).

(٦) سورة البقرة: ١٧٠.

أسلافهم المشركين قائلين: لا نتبع دينكم، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. أيتبعون آباءهم ولو كانوا لا يعقلون عن الله شيئاً، ولا يدركون رشداً^(١)، وحذر من هذا السلوك، وأن يتبع الإنسان ما ليس له به علم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٢) أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبء الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى^(٣).

رابعاً: وكرمه ودعاه إلى العلم، وطلبه وقرن سبحانه ذكراً أولي العلم بذكره عز وجل وذكر ملائكته ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤) بين الله لخلقه الدلائل والآيات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود في الوجود بحق ﴿لَا هُوَ﴾ شهد بذلك ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالإقرار ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ من الأنبياء والمؤمنين بالاعتقاد واللفظ ﴿قَائِمًا﴾ بتدبير مصنوعاته ونصبه على الحال والعمل فيها معنى الجملة أي تفرّد ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره تأكيداً ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه^(٥).

وجعل العلم مشاعاً؛ لأنه غذاء العقل، ولعن أولئك الذين يحتكرونه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٦) علماء اليهود وأخبارها، وعلماء النصراني، لكتمانهم الناس أمر محمد ﷺ، وتركهم اتباعه وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ التي أنزلها الله: ما بين من أمر نبوة محمد ﷺ ومبعثه وصفته، في الكتابين اللذين أخبر الله تعالى ذكره أن أهلها يجدون صفته فيهما، ويعني تعالى ذكره بـ ﴿الْهُدَى﴾ ما أوضح لهم من أمره في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، فقال تعالى ذكره: إن الذين

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٦).

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

(٣) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤٥٧).

(٤) سورة آل عمران: ١٨.

(٥) تفسير الجلالين (ج ١ - ص ٦٧).

(٦) سورة البقرة: ١٦٠.

يكتمون الناسَ الذي أنزلنا في كتبهم من البيان من أمر محمد ﷺ ونبوته، وصحة الملة التي أرسلته بها وحقَّيتها، فلا يخبرونهم به، ولا يعلنون من تبيني ذلك للناس وإيضاحيه لهم، في الكتاب الذي أنزلته إلى أنبيائهم، ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ (١).

خامساً: وكرمه فأسند إليه استتباط الأحكام فيما لا يوجد فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع.

سادساً: وتوَّج تكريمه له بالأمر بالمحافظة عليه، وتحريم كل ما يغطي فعله وأثره، فضلاً عما يزيله؛ فحرم شرب الخمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢) يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رِجس ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره، والميسر، وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما يُنصب ويُعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسدها الداعية إلى تركها واجتنابها، فمنها: أنها رِجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً.

والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضاعها، ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقوع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٣ - ص ٢٤٩).

(٢) سورة المائدة: ٩٠.

الخمير والميسر، ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حباه، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من الأسباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمير والميسر، يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو. فأبي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيتها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟ " فهل فوق هذه المفساد شيء أكبر منها؟ "

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ (١) لأن العاقل -إذا نظر إلى بعض تلك المفساد- انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ (٢).

لكن الإسلام مع هذا التكريم كله وهذا الاهتمام حدًّا للعقل حدودًا، هي كل ما يستطيع تبيينه، وحذره من الولوج فيما لا يستطيع إدراكه؛ خشية عليه، وحرصًا على سلامته حتى لا يضل، وكيف له وهو المخلوق أن يدرك ذات الخالق؟! بل أنى له أن يدرك كل المخلوقات؟! فليؤمن بما استطاع إدراكه، وليبني على ما أدرك ما لم يدرك، وما أعظمها من شفقة حين قال عليه الصلاة والسلام: "لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ فمن خَلَقَ اللهُ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً؛ فليقل: "أمنت بالله" (٣).

(١) سورة المائدة: ٩١

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٢٤٣).

(٣) رواه مسلم: كتاب الإيمان (ج ١ ص ١١٩).

وما أعظمه من توجيه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (١) **ص**رف الجواب عن ماهيتها؛ لأنه ليس من شؤون العقل ولا من مداركه توجيهه وشفقه هما التوجيه السديد حتى لا يتيه العقل فيما ليس من دركه، وليس من طاقته، وهما لا شك تكريم وأي تكريم، ولذا كان الصحابة - رضي الله عنهم - لا يخوضون فيما لا يستطيعون دركه ومعرفته؛ فهذا عمر - رضي الله عنه - يقرأ على المنبر: ﴿وَفَكِهَةٌ وَأَبًا﴾ (٢) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب (٣)؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر (٤). وليس هذا من عمر بالتسليم الأعمى - كما يعبر عنه - أو بمطلق التقليد؛ بل هو وقوف منه عند حد المعرفة، وإعراض عما زاد عنها مما هو تكلف.

(١) سورة الإسراء: ٨٥

(٢) سورة عبس: ٣١

(٣) الأب: المرعى وكل ما أنبتت الأرض مما تأكله البهائم كالكلأ والعشب، صفوة التفاسير (ج ٣ - ص ٤٩٤).

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (ج ١٣ ص ٣٧٢).

المطلب الرابع : العقل مناط للتكليف :

ويكفي العقل البشري شرفاً أن جعله الله تعالى مناط التكليف، ويسقط التكليف بغيابه أو ضعفه فقد رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ، والصبي حتى يحلم، والمجنون حتى يشفى من جنونه وقد جعل الله تعالى العقل والرشد معياراً للتصرف في المال فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (١) ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن هاهنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحجر للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفلس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه (٢).

وقال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الَّتِي تَنَّمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنَّ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِنَّ أَمْوَالَهُنَّ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا﴾ (٣) فانظر إلى كلمة ﴿السُّفَهَاءَ﴾، ﴿رُشْدًا﴾ فالمعيار فيهما العقل وحسن التصرف. قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدي، ومقاتل بن حيان: أي اختبروهم ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال مجاهد: يعني: الحلم، قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد. وقد روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: ((لا يتم بعد احتلام ولا صمات يوم إلى الليل)) (٤).

وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة، رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: ((رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق)) (٥) أو يستكمل خمس عشرة سنة، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: عرضت على النبي ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة، فلم يجزني،

(١) سورة النساء: ٥

(٢) تفسير بن كثير (ج ٢ - ص ٢١٤).

(٣) سورة النساء: ٦

(٤) سنن أبي داود في ج، أ: "بإسناده" برقم (٢٨٧٣).

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، باب وجوب الزكاة (ج ٨ - ص ٢٣٧).

وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز -لما بلغه هذا الحديث- إن هذا الفرق بين الصغير والكبير (١).

إن العلاقة بين الإبداع والعقل مترابطة جداً، فالعقل هو الجهاز الذي يفكر به الإنسان، والتفكير هو محور الإبداع، لذلك فإن العلاقة بينهما قوية، كما أن مجالات الإبداع تتنوع بحسب القدرات العقلية المتعددة مثل: "القدرة على الإدراك، والقدرة على التذكر، والقدرة على التخيل، والقدرة على الاستنباط والاستنتاج، والقدرة على التحليل، والقدرة على التركيب، والقدرة على الاستقراء، والقدرة اللغوية، والقدرة العددية أو الحسابية، والقدرة العملية، ونحوها" (٢).

ولذلك نلاحظ أن البعض لديه القدرة على الحفظ، لكنه ضعيف مثلاً في جانب التحليل، والبعض لديه مهارة وقدرة في الجوانب الحسابية، لكنه ضعيف في جانب آخر، والبعض قد وفقه الله تعالى بأن جمع له قدرات متعددة.

ولما أن العقل غريزي ومكتسب، فإن محور عمل التربية يتركز على تنمية العقل المكتسب، من خلال المناهج الدراسية، وأساليب طرق التدريس التي تحرك عقل المتعلم نحو التفكير الجيد البناء، وأن لا يكون أداة للاستماع فقط، فإذا نجحت التربية في هذا استطاعت أن تسهم في تنمية الجوانب الإبداعية لدى المتعلمين.

وحين نتأمل في كل هذه الظواهر التي وجهت للنظر التفكيري فيها نجد أن اكتشاف آيات الله فيها يبدأ عن طريق لفت الإنسان بإسماع الكلام، ثم يعقل ليتوجه العقل إلى التأمل والبحث العلمي الهادئ الرصين.

ومن هذه الأدلة القرآنية وغيرها من الأدلة في الكتاب والسنة النبوية المطهرة والفقهاء الإسلامي نرى منهاج الرحمن في تكريم عقل الإنسان، وتقدير المسلمين لإعمال هذا العقل في تعمير الكون بنواميس الله في الخلق وفق منهاج إيماني بعيداً عن العلمانية (بفتح العين) الإلحادية والداروينية القائمة على المصادفة والعشوائية المجافية لآيات الله في الخلق وتدبيره المحكم لمخلوقاته وخلق كل شئ في هذا الكون وفق ميزان الحكمة والتقدير الإلهي في الخلق (٣)

كما قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

(١) صحيح البخاري برقم (٢٦٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٦٨) .

(٢) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، عبد الحميد الصيد الزنتاني: ص ٤١٩.

(٣) كتاب براهين وأدلة إيمانية للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني رحمه الله في ، دار القلم : دمشق ١٩٨٧م (ص ٤٣).

فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿١﴾ وفي كل هذا تقدير وتكريم لعقل الإنسان الصريح البعيد عن اتباع الهوى وتعطيل العقل عن الإيمان بالخالق العليم الخبير اللطيف سبحانه وتعالى.

فمن أعظم نعم الله على العبد نعمة العقل، وقد أناط الله تبارك وتعالى التكليف جملةً وتفصيلاً على وجود هذا العقل، فعلماء أهل السنة عندما يقولون: لا عقل مع النقل، لا يقصدون منه: أن تأخذ النقل بلا عقل وما قدمنا يدل على أن العقل ضرورةٌ وأساس للتكليف فكيف يفهم كلام ربنا وكلام النبي ﷺ بلا عقل؟! فقولهم: (لا عقل مع النقل) أي: لا تقدم عقلك على النقل لا تجعل عقلك قاضياً على كلام النبي ﷺ، كذلك قولهم: (لا اجتهاد مع النص) ليس معناه أن تأخذ النص بلا اجتهاد ولا تفكير، وإنما معناه: لكن لا تجتهد اجتهاداً مضاداً للنص.

فمثلاً لو قرأت أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الوضوء فأراه ثلاثاً ثلاثاً ثم قال ((هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وتعدى وظلم)) (٢) فالواضح من هذا الحديث: أنه لا يجوز الزيادة على ثلاث مرات في الوضوء، فمن زاد على ثلاث، فقد أساء وتعدى وظلم، فإذا جاء آتٍ وقد قرأ مثلاً حديث علي بن أبي طالب: (أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً) فقال: على الإنسان أن يتوضأ ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً حتى يعلم أنه قد أسبغ الوضوء! هذا اجتهاد مراده في هذا الكلام أن تسبغ الوضوء في النهاية، ولو أدى إلى تكثير مرات الغسل، فحينئذٍ نقول له: لا اجتهاد مع النص بمعنى لا اجتهاد مضاد للنص، وليس المعنى: خذ النص بلا اجتهاد.

وأما ورود "العقل" في القرآن فأكثره قد جاء في الكلام على آيات الله، وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيبته وحكمته ورحمته.. ويلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه، كقوله تعالى في تفصيل الوصايا الجامعة من آخر سورة الأنعام: ﴿ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْتَلُونَ﴾ (٣) وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار.. ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٤) وكذلك آيات النظر العقلي والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز

(١) سورة الفرقان: ٢

(٢) تخريج مشكاة المصابيح - الراوي: جد عمرو بن شعيب المحدث: ابن حجر العسقلاني - (١/٢٢٤).

(٣) سورة الأنعام: ١٥١

(٤) سورة الملك: ١٠

فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر..^(١).
ولكن هل يستقل العقل في المعارف الدينية؟ إن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه
سعادة الأمم بدون مرشد إلهي.. وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما
جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته..^(٢). ويقول في موضع
آخر: "ما شرع الله الدين للناس إلا لأنهم لا يستغنون عن هدايته بعقولهم، ومن كان يؤمن
بدين منزل من عند الله لا يمكن أن يقبل ما يوافق عقله ويرد ما لا يوافق من المسائل التي يعتقد
أن الله فرضها عليه.. فمن فعل ذلك كان غير متبع لدين يؤمن به قطعاً وإنما يكون متبعاً لهواه
بغير هدى من الله، فوظيفة العقل أن يعلم ويفهم ليعمل، لا أن يتحكم في دينه.. ثم إن عقول
الناس تختلف اختلافاً كثيراً فيما يوافق أصحابها وما لا يوافقهم، وذلك يقتضي أن يكون لكل فرد
ممن يحكمون عقولهم في الدين دين خاص به، وللمجموع أديان كثيرة بقدر عددهم.

إن تحكيم العقل في كل مسألة من مسائل الدين مخالف لحكم العقل الصحيح^(٣)، وهذا
الموقف من العقل هو الموقف الصحيح، فالإسلام دين العقل بهذه المعاني، وأنه هاد للعقل
ومرشد له وقائد، وهو مبادئ يفهمها العقل في سهولة ويسر، وهو لا يناقض العقل^(٤).

ومما يزيد الأمر وضوحاً أن أكثر آيات القرآن الكريم جاءت على وجهين متقابلين^(٥):
الوجه الأول: آيات تنعى على أولئك الذين لا يعلمون عقولهم التي وهبهم الله إياها، وأنعم
بها عليهم؛ فعطلوها عن عملها الذي خلقها الله له، وأنقادوا لشهواتهم ورغباتهم؛ فأصبحوا كمن
لا عقل له؛ بل هم أضل.

الوجه الثاني: ويقابل ذلك النعي على أولئك دعوة من استعمل عقله إلى إعماله على الوجه
الأمثل حسب إرشاد القرآن الكريم وتوجيهاته، وتوجيه أعماله وتفكيره وتدبره لما فيه الخير
والصلاح، وإلا صار وبالاً على صاحبه وعلى مجتمعه.

إذاً، فالمقصود فيما نرى بالعقل في القرآن الكريم العقل المكتسب الناشئ عن حركة العقل
الغريزي، حركة يدرك بها الحق، ويعمل به، وينقاد إليه، ويفهم بها الباطل؛ فيحذره ويجتنبه،

(١) كتاب الوحي المحمدي ، المؤلف محمد رشيد رضا (ص: ٢٤٤).

(٢) مجلة المنار (١/ ٢٩٣) ، مقال للشيخ / محمد رشيد.

(٣) كتاب الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد المصدر السابق (٣٤/ ٧٥٨ - ٧٥٩).

(٤) انظر: د. عبد الحلیم محمود: الإسلام والعقل (ص: ١٢) ط. دار الكتب الحديثة، مصر.

(٥) العقل مجالاته وأثاره في ضوء الإسلام: رسالة قيمة أعدّها لنيل درجة الماجستير الشيخ عبد الرحمن زيد الزبيدي ص ٤٦.

مسترشداً بهذا وذلك بدليل الوحي، وبدون هذه الحركة فإن العقل الغريزي لا أثر له إلا كونه حُجة على صاحبه يوم القيامة.

فالقُرآن إذاً إنما يستثير فينا تحريك العقل؛ حتى يؤدي عمله، وعمله الفقه والتفكير والتذكر والتدبر؛ ولهذا فإننا نرى القرآن الكريم يحث أحياناً كثيرة على نتاج العقل؛ إذ هو المراد وهو المقصود؛ ولذلك نرى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يقول: "فالعقل لا يُسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم؛ بل إنما يُسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم^(١)؛ ولهذا قال أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢) أي: لو كانت كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم^(٣).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٤) أفلم يسير هؤلاء المكذبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذبي رسل الله الذين خلوا من قبلهم، كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فينفكروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبد غيره وكذب رسله، فينيبوا من عتوهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحق ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ حجج الله على خلقه وقدرته على ما بينا ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يقول: أو آذان تصغي لسماح الحق فتعي^(٥).

لا أريد أن أقول: إن هذا هو العقل بكل إطلاقاته، فلا ماشحة في الاصطلاح؛ ولكن أريد أن أقول: هذا ما أحسبه المراد بالعقل في القرآن الكريم، وهذا هو العقل الذي يخاطبه ويوجه إليه أوامره كتابُ الله، ومن حُرِّمَ منه فقد حُرِّمَ، أما من حُرِّمَ الأول -أعني: الغريزي- فهو غير مكلف، وبالتالي غير مخاطب.

(١) رسالة في العقل والروح: لابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ج ٢ ص ٣٤.

(٢) سورة الملك: ١٠.

(٣) تفسير بن كثير (ج ٨ - ص ١٧٨).

(٤) سورة الحج: ٤٦.

(٥) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ٦٥٧).

فالعقل جوهرة يتميز بها الإنسان عن الحيوان، وهو مناط الإدراك فيه، فبه يفرق بين الخير والشر، ويميز به الخبيث من الطيب، ومن ثم حرص الإسلام أعظم الحرص على المحافظة عليه، وجعله محل التكليف الشرعية، إذ قد أسقطها عن فقده، ففي الحديث الذي رواه علي بن أبي طالب قال حَدَّثَنَا بِهِزٌ، وَحَدَّثَنَا عَفَّانُ، قَالَا: حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ عَلِيٍّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (رَفَعَ الْقَلَمَ عَنْ ثَلَاثَةٍ، عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَعْتُوهِ، - أَوْ قَالَ: الْمَجْنُونِ - حَتَّى يَعْقِلَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَشِبَّ) (١).

ومعنى رفع القلم: أي: رفع قلم التكليف والمؤاخذة عن هؤلاء الثلاثة.

والنائم والصغير فيهما نوع جنون، إذ أن النائم ذاهب العقل مؤقتاً والصغير لا عقل له.

إذا صار عندنا: مجنون لا يفيق، ونائم زائل العقل مؤقتاً حتى يستيقظ، والصغير الذي لا

عقل له، فهؤلاء الثلاثة زال التكليف عنهم لزوال العقل إما كليةً وإما مؤقتاً.

وحين نستقري آيات القرآن الكريم نجد أن الإشارة إلى العقل قد تكررت في صيغ مختلفة - تسعاً وأربعين مرة - ورد فيها الاستفهام التوبيخي بصيغة "أفلا تعقلون؟" خمس عشرة مرة، والاستفهام بقوله جل وعلا "أفلا تعقلون؟" يوبخ أولئك المخاطبين، لأن الله منحهم قولاً تدرك، ومع ذلك أبوا إلا أن يطمسوها طمساً تعطل به ولا تستعمل فيما أعدّها الله تعالى له، فبدلوا هذه النعمة الجليلة التي أنعم الله بها عليهم كفرأ، فلم ينتفعوا بها شيئاً، وسوف يدركون هذه الحقيقة في الدار الآخرة فيقولون وهم يتلظون بالنار، كما أشار إليهم الله تعالى في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢) فهؤلاء أعطاهم الله أسماعاً، وأعطاهم عقولاً، ولكنهم لم يستعملوا أسماعهم ولا عقولهم في إدراك الحق الذي أنزله الله تعالى، فكانوا بمثابة الذين انعدمت أسماعهم وعقولهم ولم تغن عنهم شيئاً.

أقول هذه لمحة موجزة عن الآيات التي وردت فيها الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم، وإذا كانت الإشارة إلى العقل قد تكررت بهذا العدد الوفير، فإن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على الأهمية العظمى للعقل لأنه مناط الإدراك في الإنسان، ومحل التكليف الشرعية التي كلفه الله تعالى بها.

وإذا كان العقل بهذه المثابة، وله هذه المكانة، وهذه الأهمية، فقد أمر الشارع بالمحافظة

(١) مسند الإمام أحمد، باب مسند علي بن أبي طالب (ج ٢ - ص ٢٦٦ - رقم ٩٥٦).

(٢) سورة الملك: ١٠.

عليه ضمن الكليات الخمس (الدين - والنفس - والعقل - والمال - والنسل) التي بحفظها يجمع الخير لحياة الإنسان.

ومن ثم فإن اعتداء الإنسان عليه لتعطيله ووقف عمله، يُعدُّ جريمة يرتكبها الإنسان على بعض نفسه، وعلى إحدى كلياته وهو العقل، دون أن يجرم هذا العقل في حق صاحبه شيئاً، وعلى ذلك يستحق هذا المعتدي أن يعاقب تأديباً له على إجرامه. وحين ننظر إلى المسكرات والمخدرات التي يتعاطاها الإنسان نجد أنها من صور الاعتداء البشعة على عقله، لأنها تخامره وتخالطه، فتذهب وعيه، وتبدد إدراكه، ويصبح صاحبه المعتدي على نفسه، كالحیوان أو أضل، لا يفرق بين الخير والشر، لأن أداة التفريق قد أفسدت وعطلت، وانعدمت فيها قدرة التمييز. والسكر بالخمير يخامر العقل، ويتخلل جوانبه، فيفسده، والتخدير بالمخدر يشل العقل، ويوقف عمله.

فهل لعاقل أن يقدم - باختياره - على تعطيل آلة غاية في الدقة وهي عقله تسجل له الماضي تسجيلاً دقيقاً، وتساير له الحاضر مساييرة منتظمة، وتتصور له المستقبل تصوراً معقولاً؟ هل لعاقل أن يفسد مثل هذه الآلة في روعة دقتها؟ وقد فطرها على هذا الإبداع الفريد الخلاق العظيم؟

إن الذي يقدم على إفساد عقله يدل بفعله هذا على أنه مستغن عن عقله، وليس في حاجة إليه، وأنه يريد أن يكون هكذا بدون عقل كالحیوان الذي لا يميز، أو كالجماذ الذي لا يدرك مما حوله شيئاً.

المبحث الثالث

دور العقل في القرآن الكريم

من خلال ما سبق من اللّفات القرآنية، التي دعت لإعمال العقل، والدلالات التي تنبأ عن كامل اعتبار القرآن للعقل، والمنهجية التي وضعها القرآن ليدور العقل في فلكها، وفي قنوات مسارها، واتجاهاتها نحو العلم والبناء والتجديد والتطور في ظل الخطوط العريضة الحاكمة لعمل العقل ومساراته ومساقات تفكيره، وطموحه، وإلى أي مدى يستطيع أن ينطلق، وفي حدود ماذا من العلوم والفنون يستطيع أن يتوسع ويتطلع، وما هي المواجهات التي تحكم التفكير الذي ينتجه العقل المسلم؟

إن دور العقل المسلم من منظور القرآن الكريم دور هام وفاعل في شتى مجالات الحياة، وفي كل الميادين، وفي مختلف المعارف والعلوم، هذا الدور الذي دعا إليه المنهج القرآني بكل وضوح ومنهجية، وتوافرت عليه كثير الآيات والسور، لا بد وأن يتمثله العقل المسلم من زوايا مختلفة، ومحاوَر متجددة، ورؤى وضيئة، تضيء على العقل الفاعلية، وتتفي عنه الجمود والتحجر، وتطلق له العنان ليقوم بالدور المناط به كعقل بشري يمتلك المؤهلات البيولوجية، والقدرات العالية في التنقيب والتجديد، والبحث والنظر، والابتكار والاختراع، والاستدلال والمحاكاة، ونقد الأشياء وفق الزاوية المتاحة، والضابط المتاح.

لقد أسس القرآن الحياة والحضارة المدنية على أساس العقل، فخاطبه ودعاه إلى التفكير، والنظر العقلي، والتفكير فيما أودع الله في الكون من الأسرار وبدائع الخلق، ورفض الأساطير والخرافات، والأكاذيب بشتى صورها وألوانها، والشائعات والأراجيف التي تتصادم مع عمل العقل، واستخدم القرآن في ذلك الدليل الحسي العقلي لإثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى، من هذه الرؤية فإن دور العقل ينبغي أن يكون في المشاركة في النهوض الحضاري، والتقدم الصناعي، والتطور التكنولوجي وفق العلمية والمنهجية القرآنية التي كونته وأضفت عليه الطابع المعرفي وفق الإسلامية الفريدة والتميزة، وسأتناول شيئاً عن الدور المناط بالعقل المسلم، وفقاً لثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: العقل ودوره في البناء المعرفي:

لقد اعتنى القرآن الكريم بتكوين العقل وتوجيهه، وذلك من خلال تكوين العقلية العلمية الفريدة والتميزة، المستنيرة بنور الوحي المبارك، العقلية الراضة لكل تقليد وتبعية، الشائنة بالغوغائية والخرافية الظلامية، الغير مستسلمة للثقافة المستعارة، ثقافة إنا وجدنا آباءنا على أمة.

وكما هو متقرر أنه لا يمكن للعلم أن يزدهر ويتطور، ويبنى على جذورٍ راسخة، وتمتد إلى الأرجاء فروعه، ولا يمكن للأفكار أن تنتج، وللتفكير أن يتلاقح، وللأراء أن تُدرس وتناقش، مالم تكن وفقاً للعقلية العلمية القرآنية، وهذا ما عمل القرآن على إيجاده، بدعوته القوية، وتوجيهاته النيرة والمتكررة لتكوين "العقلية العلمية" المتحررة، التي لا تنهض العلوم إلا على كاهلها، يقول الشيخ القرضاوي^(١): "فهو - أي القرآن - يرفض العقلية الخرافية، ويرفض العقلية المقلدة، ويرفض العقلية المتخرصة، ويرفض العقلية المقلدة، ويرفض العقلية المتخرصة، ويرفض العقلية المتبعة للهوى^(٢)."

إن دور العقل في البناء المعرفي لا ينبغي أن يكون في مجال حفظ العلوم واستظهارها، فإن بني إسرائيل كان اختلافهم بعد أن علموا الحق وعرفوا الحقيقة، بل لا بد أن يكون دور العقل في كيفية ترجمة العلوم إلى معارف تفاعلية تنعكس على السلوكيات، ويتضح أثرها في التعامل والاختلاط، وينبغي ألا يقتصر هذا الدور على زاوية واحدة سواءً أكانت زاوية الفرد أو الكون أو الواقع، بل لا بد أن يشمل دور العقل كل هذه الزوايا مجتمعة حتى يكون هناك من التكاملية والفاعلية في المعرفة ما لا يحدث تصادم بين المعارف والقناعات لدى الفرد.

إن المنهج القرآني منهجٌ يدعو إلى أن يتولى العقل دوره الريادي في المعرفة والبناء العلمي، والحصول على أعلى الرتب العلمية سعياً في محاربة الجهل، ومحو أمية العقل، وجاهلية الموجودات منه، ويدعو إلى المعرفة المطلقة، والمعرفة بوجود الله تعالى، والمعرفة بما في الكون من مخلوقات، وموجودات، ويتضح هذا المفهوم من خلال النقاط الآتية:

(١) يوسف عبد الله القرضاوي (٩ سبتمبر ١٩٢٦)، أهدأ أبرز العلماء السنة في العصر الحديث، ورئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ولد في قرية صفت تراب مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية في مصر. حفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة، وقد التحق بالأزهر الشريف حتى تخرج من الثانوية وكان ترتيبه الثاني على دولة مصر ثم التحق الشيخ بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر ومنها حصل على العالمية سنة ١٩٥٣ وكان ترتيبه الأول في جميع دراسته. (الموسوعة الحرة موقع في الانترنت).

(٢) كتاب العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، ص ٢٤٥.

١- التعلم وأمر القرآن بالعلم:

لأن أمة القرآن هي أمة "اقرأ" فقد كان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ثم تلتها آية التوكيد على الأهمية والفضل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢) وإن المتتبع لآيات فضل العلم ودعوة القرآن للعلم والتعلم يقر في مكنون نفسه أن دور العقل دور كبير ينبغي أن يضطلع فيه، ومن المعروف أن العلوم الإسلامية التي ورثها لنا الأولون زاخرة بالدرر والكنوز، التي تؤكد الدور الملقى على العقل.

من هنا فإن دور العقل المسلم في البناء المعرفي من جانب التعليم وطلب العلم ينبغي أن يرقى إلى درجة المسؤولية في فهم العلوم الموروثة، والاجتهاد والتجديد فيها بما يواكب ثقافة العصر، وبما يواجه التحديات الراهنة، ولا يقف دور العقل في البناء المعرفي عند حفظ العلوم واستظهارها فحسب بل يتعدى الأمر إلى فهمها وتحليلها وتقويتها من الشوائب والدّخن، ذلك أن المنهجية القرآنية قادرة على قيادة العقل نحو التفاعل مع المعطيات والمؤثرات الخارجية، يقول الدكتور طه جابر العلواني (٣): "والمنهجية القرآنية قادرة على التفاعل مع ظواهر بناء وتشكيل العقل المسلم، ومعالجة قضاياها التاريخية والمعاصرة باعتبارها سبيلاً لذلك لأن المنهج سبيل للوصول إلى الحقيقة وطريقة تسلك في فهم الظواهر وتحليلها" (٤).

٢- الضوابط العلمية لعمل العقل في القرآن:

لقد وضع القرآن الضوابط العلمية التي تحكم مسار العقل في تعاطيه مع العلم، وتتمثل هذه الضوابط في العقلية العلمية التي دعا لها القرآن، هذه العقلية من ضوابطها أنها ترفض الظن في مواضع اليقين، فالنظرة إلى الخالق والكون والإنسان والحياة من القضايا التي لا يكفي فيها الظن، بل لابداً فيها من العلم اليقيني، ومن هنا أنكر القرآن على المشركين إتباع الظن في مثل

(١) سورة العلق: ١

(٢) سورة العلق: ٣

(٣) طه جابر العلواني (ولد عام ١٩٣٥، في العراق) هو رئيس المجلس الفقهي بأمريكا منذ عام ١٩٨٨، ورئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية (بهرندن)، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على الدكتوراة في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر في القاهرة، مصر، عام ١٩٧٣. كان أستاذاً في أصول الفقه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٧٥ حتى ١٩٨٥. في عام ١٩٨١ شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة، كما كان عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضو مجمع الفقه الإسلامي الدولي في جدة. هاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٨٣. يرأس طه العلواني الآن جامعة قرطبة الإسلامية في الولايات المتحدة. يسكن مع عائلته في القاهرة. (الموسوعة الحرة موقع في الانترنت).

(٤) كتاب إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م) (ص ٢٠-٢١).

هذه القضايا الهامة، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١)، وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ظنا، يقول: إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم منه في شكٍّ وريبة، إن الشك لا يغني من اليقين شيئاً، ولا يقوم في شيء مقامه، ولا ينتفع به حيث يُحتاج إلى اليقين، إن الله ذو علم بما يفعل هؤلاء المشركون، من اتباعهم الظن، وتكذيبهم الحق اليقين، وهو لهم بالمرصاد، حيث لا يُغني عنهم ظنهم من الله شيئاً (٢).

وقال في موضع آخر: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٣) أي: لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق (٤)، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ((إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث)) (٥).

ومن تلك الضوابط رفض التقليد الأعمى للأباء والأسلاف، فالعقل لا بد له من التحرر والانطلاق بين أفياء المعرفة، وبساتين العلم، يستنتج ويستنبط ويحلل ويقيس، لقد شن القرآن حملة عنيفة على الجمود والتقليد في كل صورته، وسائر أشكاله، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٦) وإذا قال المؤمنون ناصحين أهل الضلال: اتبعوا ما أنزل الله من القرآن والهدى، أصروا على تقليد أسلافهم المشركين قائلين: لا نتبع دينكم، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. أيتبعون آباءهم ولو كانوا لا يعقلون عن الله شيئاً، ولا يدركون رشداً (٧).

ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبدُونَ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِبْنَاهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ (٨) يُخبر تعالى ذكره أنهم لم يعبدوا ما عبدوا من الأوثان إلا اتباعاً منهم منهاج آباءهم، واقتفاءً منهم آثارهم في عبادتهم لها، لا عن أمر الله إياهم بذلك، ولا بحجة تبينها

(١) سورة يونس: ٣٦.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٥ - ص ٨٩).

(٣) سورة النجم: ٢٨.

(٤) تفسير بن كثير (ج ٧ - ص ٤٥٩).

(٥) صحيح البخاري برقم (٥١٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) سورة البقرة: ١٧٠.

(٧) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٦).

(٨) سورة هود: ١٠٩.

توجب عليهم عبادتها^(١).

والقرآن زاخر بمثل هذه الآيات الراضية للتبعية والنقل في الإلتباع لأن ذلك يلغي عمل العقل ويوقفه عن العمل، ويؤدي إلى جموده وإنكاره للجديد في مجال المعرفة والتكنولوجيا، والتقدم العلمي بكل صورته وألوانه، ومن تلك الضوابط رفض التبعية للسادة والكبراء، فإن هذا اللون من التبعية لأصحاب السلطان والثراء مفسدة للعقل كذلك، من حيث كونه خوفاً وتعطيلاً للعقل وعمله في العطاء، ولقد ذم القرآن هذا النوع من التبعية العمياء، حيث قال في قصة فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾^(٢) واتبع ملاً فرعون أمر فرعون دون أمر الله، وأطاعوه في تكذيب موسى، ورد ما جاءهم به من عند الله عليه. يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ يعني: أنه لا يرشد أمر فرعون من قبله منه، في تكذيب موسى، إلى خير، ولا يهديه إلا صلاح، بل يورده نار جهنم^(٣).

وقوله تعالى في قصة هود: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٤) كفروا بها، وعصوا رسل الله، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم (به) منزلة من كفر بجميع الرسل، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادي عليهم يوم القيامة على رعوس الأشهاد^(٥).

ومن الضوابط القرآنية للعقلية العلمية عدم إلتباع الأهواء والعواطف في مجال العلم، فالعقل لا بد أن يؤدي دوره في المعرفة والعلم بإلتباع الحقيقة وإظهارها والصدع بها، وعدم التنازل عن الحقائق، أو تدويرها بسبب العاطفة والهوى فإن ذلك مما يتصادم مع الحق والهدى، ومع العقل نفسه، والقرآن صريح في هذا حيث قال الله لداود: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٥ - ص ٤٩١).

(٢) سورة هود: ٩٧.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٥ - ص ٤٦٦).

(٤) سورة هود: ٥٩.

(٥) تفسير بن كثير (ج ٤ - ٣٣١).

(١) هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله وقد توعد (الله) تعالى من ضل عن سبيله، وتتاسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

وقال سبحانه وتعالى في مخاطبة النبي ﷺ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغير هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) فإن لم يجبك هؤلاء القائلون للتوراة والإنجيل سحران تظاهرا، الزاعمون أن الحق في غيرهما من اليهود يا محمد، إلى أن يأتوك بكتاب من عند الله هو أهدى منهما، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، وأن الذي ينطقون به ويقولون في الكتابين، قول كذب وباطل، لا حقيقة له (٣).

إن دور العقل في البناء المعرفي لا يتعدى أن يكون الدور الباحث عن الحقيقة، والمتبع للدليل، والهدى والنور المبين، وفق الفهم السليم والبعيد عن الغلو والتطرف والتبعية، والانحياز لفكرة خاطئة، أو دليل ضعيف، أو منهج ضال، أو نهج غير سوي، ولا بد للعقل المسلم أن يتعبد الله تعالى بالنظر العقلي (٤) الذي دعا إليه القرآن الكريم في مواضع عدة.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) فلينظر الإنسان المكذب بالبعث بعد الممات، المنكر قدرة الله على إحيائه بعد مماته، ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ يقول: من أي شيء خلقه ربه (٦).

ولا بد للعقل أن لا يقبل دعوى بغير برهان، فإن هذا من الضوابط القرآنية للعقلية العلمية في القرآن، وهذه حقيقة أكد عليها القرآن حتى يكون عمل العقل وفق دليل يستند عليه، وهذا مما زخرت به الآيات أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧) أي: من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض بالمطر

(١) سورة ص: ٢٦

(٢) سورة القصص: ٥٠

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ١٩ - ص ٥٩٢).

(٤) والمراد بالنظر العقلي، هو الذي يستخدم الإنسان فيه فكره في التأمل والاعتبار، بخلاف النظر البصري الذي يستخدم فيه الإنسان عينه" (انظر:

كتاب العقل والعلم في القرآن للدكتور يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٣).

(٥) سورة الطارق: ٥

(٦) تفسير الطبري (ج ٢٤ - ص ٣٥٣).

(٧) سورة النمل: ٦٤

والنبات؟ ﴿أَمَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك ويقدر عليه؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على ما قلمت ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإلا فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك فذلك مجرد دعوى صدقوها بالبرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات (١).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ عَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (٢) أتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة تنفع وتضر، وتخلق وتحيي وتميت، قل يا محمد لهم: هاتوا برهانكم، يعني حجتكم يقول: هاتوا إن كنتم ترعون أنكم محقون في قيلكم ذلك حجة ودليلا على صدقكم (٣).

ومن هنا كان الشرك جهل لأنه دعوى بدون برهان، ولقد أتى القرآن يحمل بين جنباته البراهين (٤) الراضة لكل دعوى بدون حجة (٥)، وأقام الدليل على القضايا العقائدية الكبرى، المتمثلة بوجود الله تعالى، ووحدانيته وتنزيهه عن الولد، وإنزال الكتب وإرسال الرسل، والبعث والجزاء، وذلك بأدلة واضحة الثبوت قطعية الدلالة، وقع بها التحدي والإعجاز، مما لا يدع للعقل مجالاً للتردد وإتباع غير الحق والدليل، والمغزى من ذلك تعليم العقل منهجية أخذ الدليل والبرهان، ورفض التبعية والتقليد القائمين على الهوى والجهل، ومن الضوابط القرآنية للعقلية العلمية، احترام السنن والقوانين التي أقام الله عليها نظام الكون، وعليها نظام المجتمع، هذه السنن والقوانين لها صفة الدوام والشمول، وكذلك الثبات، ومن ذلك سنن الله في أخذ الظالمين، وسنة الله في النصر والهزيمة، وفي البقاء والهلاك حيث يقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٦) وهذه الآيات الكريمة، وما بعدها في قصة "أحد" يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة،

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٦٠٨).

(٢) سورة الأنبياء: ٢٤

(٣) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ٤٢٦).

(٤) تشمل البراهين الحسية مثل قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [كهف: ٥١]، والبراهين السمعية مثل قوله تعالى: ﴿تَبَوُّؤُنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، والبراهين التاريخية مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

(٥) بالتتابع والاستقراء نجد أن القرآن يسمي الحجة سلطاناً، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، يعني: ما لم يؤيده بحجة.

(٦) سورة آل عمران: ١٣٧

امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزلوا في مداولة ومجاولة، حتى جعل الله العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل (١).

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلاً﴾ (٢) سنة الله التي سنّها في خلقه من قبل بنصر جنده وهزيمة أعدائه، ولن تجد -أيها النبي- لسنة الله تغييراً (٣) بعد ذكر أحوال المنافقين. وهكذا ينبغي أن يفهم العقل النصوص من زاوية التصور القرآني للكون والحياة والإنسان.

ولا يتوقف دور العقل عند ممارسة النشاط الفكري، والتزام العلمية القرآنية في الطلب والتحصيل، والقراءة والنظر، بل يتعدى ذلك إلى التجديد والابتكار، وهذا ما سأتناوله في المطلب الآتي:

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ١٤٩).

(٢) سورة الفتح: ٢٣.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥١٣).

المطلب الثاني: العقل ودوره في البناء والتجديد:

إن قيام العقل بكل عملياته الذهنية منها والحركية، يتطلب مساحة واسعة من العطاء وميداناً كبيراً من المساحة للذات في ضوءها يستطيع أن يبتكر ويجدد ويطور ويبني ويخطط وينظم، وبغير هذين العنصرين لا يمكن للعقل أن ينتج معارف جديدة أو يكتشف مقاصد وأحكام كانت غائبة، وتطورات ملائمة للطبيعة المجتمعية المعاصرة.

لقد باتت الحاجة ملحة لأن يلعب العقل دوره الفعال والمثمر في تجديد العلوم وبناء الحضارة، فعلى سابق الذكر من النصوص القرآنية الداعية إلى حركية العقل وعلميته ومهمته في النهوض المعرفي والتطور والسير في الأرض، واكتشاف الجديد فيها، والتقيب عن المعادن، والتطور في مجالات المعرفة المختلفة، يجد المتأمل أن دور العقل أصبح كبيراً في ميادين البناء والتقدم، والتجديد والتطوير والعطاء.

وإن غياب دور العقل في هذه المجالات البالغة الأهمية تعني استسلامه ورضوخه لضربات الأعداء الذين يمارسون ضده وسائل وممارسات هادفة إلى توقيفه عن العمل، ومصادرة حقه في التفكير والتعلم والعطاء والبذل في الإسهامات والممارسات المناطة به كعقل يعمل وفق منهجية حكيمة رشيدة، مصدرها الوحي، مقرونة بالدليل والحجة والبرهان، إن غياب دور العقل في التجديد والبناء الحضاري يعني استيراد الثقافة المعلبة من قبل إملاءات معادية للإسلام طامعة في استعمار العقل المسلم، وإيداعه في محاضن التبعية والتقليد، والجمود والمصادرة، إن ذلك يعني مصادرة حق العقل المسلم الذي كفله القرآن ودلت عليه الشريعة السمحة، وبه تحقق مقاصدها، ولذا يمكن أن نلخص دور العقل في هذا الجانب بالنقطتين الآتيتين:

أولاً: دور العقل في البناء الحضاري:

الإنسان منذ أن استخلفه الله على الأرض طلب منه أن يقوم بواجب الاستخلاف، وأن يحقق الغاية التي أوجده الله لأجلها من الإيمان به وحده، والتصديق برسله، والإيمان بما أنزل، هذا الدور المناط بالإنسان كخليفة الهدف منه التعبد لله في التعمير والبناء والتشييد وعمارة الأرض بكل لدى الإنسان من إمكانات وقدرات ومواهب حتى تستقيم الحياة، وتشبع الرغبات.

إن دور العقل في البناء الحضاري أن يفهم واجب الخلافة والمقصد منه، ومن منظور آخر كيف قامت الأمم السابقة بواجب الاستخلاف، ومن ثم الفهم الشامل والصحيح للحضارة المعاصرة بالانفتاح عليها انفتاحاً منضبطاً بضوابط الوحي، يقول الدكتور عبد الحميد أبو

سليمان: "الفهم الشمولي الصحيح للحضارة المعاصرة، والانفتاح المنضبط نحوها أمر ضروري للتبادل الحضاري الصحيح، لأن هذا الفهم هو الذي يمكن من الانتقاء والاستفادة العلمية والفنية الصحيحة، دون مساس بالقيم والعقائد والهوية"^(١).

دور العقل في البناء الحضاري الأصل فيه أن يكون دوراً متبصراً، ومتوازناً ذلك أن العقل المسلم عقل أخلاقي، ولقد استفادت الأمم والحضارات السابقة من الخبرات التي جال فيها العقل المسلم فعرف منها وأنكر، وقبل ورفض، وهذا الموقف الذي ينبغي للعقل أن يتمسك به، وهذا الذي ذكره الدكتور عماد الدين خليل بقوله:

"إن هذا الموقف الحضاري المتبصر المرن، الموزون، حقق مردوده الإيجابي الفعال ليس على مستوى الحضارات الإسلامية فحسب، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعاً، العناصر الطيبة الصالحة في هذه الحضارات بمعنى أدق، وهو خلال هذا كله يؤدي وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق: حماية التراث البشري، وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء"^(٢).

ومن هنا فإن مهمة العقل أن يعرف أن النهوض الحضاري للأمة لن يقوم إلا من الهوية والتجربة وقبل ذلك من استلهام الوحي، وهذا ما أكد عليه الدكتور لؤي صافي، حيث قال: "إن النهضة الحضارية للأمة لا يمكن أن تتم انطلاقاً من الواقع الغربي الحداثي، أو اعتماداً على عقل هلامي، بل تتطلب تطوير نموذج حضاري بديل، انطلاقاً من الذاتية التاريخية للأمة التي لا تستمد قوامها وهويتها من تجاربها وحسب، بل تستمدها كذلك من الوحي الذي منحها الرؤية، وأمدتها بالقيم، وزودها بالتوجه الذي أدى إلى ظهورها، وإقامتها حضارة متميزة رائدة"^(٣).

إن دور العقل في البناء الحضاري يتمثل في مواكبة التطور بالجديد والمفيد في ميادين التكنولوجيا، والتقدم الصناعي والعلمي، وتشجيع المفكرين والمبدعين، وفسح المجال للعلماء وأرباب الفكر في صناعة التقدم والحضارة، وبذلك تنمو الحياة بشكل متكامل ومتنامي من جميع الجوانب، وعلى كافة الأصعدة والاتجاهات، ومقدرته على مواجهة الأزمات والتحديات المعاصرة والتي سيتناولها الباحث في المبحث القادم.

(١) عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٢) كتاب حول إعادة تشكيل العقل المسلم، خليل عماد الدين، (قطر: كتاب الأمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ) ص ٦٦-٦٧.

(٣) أعمال العقل، لؤي صافي، ص ٧٥.

ثانياً: دور العقل في التجديد:

بناءً على ما سلف من بيان المنهجية القرآنية للعقلية العلمية، ودعوة القرآن إلى نبذ التبعية والتقليد، لثقافة الآباء والأجداد، والسلاطين والحكام، فإنه ومن خلال تلك الأدلة يتضح دور العقل في التعامل مع الجديد مما تفرضه الحياة وينتجه الواقع.

إن دور العقل في التجديد وفقاً للنظرة القرآنية لا يتجاوز القواعد التي رسمها القرآن للتعامل مع المعطيات الجديدة، والمستجدات التي تطرأ في حياة الناس، فإن طبيعة الحياة أنها تجدد وتتطور، وإذا وقف العقل في مواكبة تطور الحياة وتقدمها فإن ذلك يعد تعثراً فكرياً، وتخلفاً حضارياً.

إن البنية العقلية التي أسسها منهج القرآن الكريم، وساندها السنة المطهرة، هي بنية منفتحة، تجمع بين الصلابة والمرونة، فمنهج القرآن يدعو إلى الاجتهاد، ويدل عليه، وهل هناك أكثر من أن تجعل لمن يجتهد ويخطئ أجراً؟^(١).

إن الإنسان بسعيه في فقه ما في الوجود، واكتشاف ثوابته يرى في كل يومٍ جديد، هذا الجديد لا بد أن تكون النظرة إليه نظرة متجددة، وبالتالي تتغير الأفكار والرؤى بما يتناسب مع هذا التغيير والتجديد.

إن دور العقل في التجديد ينبغي أن يوجه في تقويم مألوفات الناس الغير صحيحة، والتي أنت نتيجة ثقافة التبعية والتقليد، فإن الكثير من الناس من يتبع ثقافة قد عفا عليها الزمن، وولى عنها الدهر! ظناً أنها الصواب ولن تتجدد، إننا إذا نظرنا إلى نصوص التنزيل نظرة فاحصة يتبين لنا كيف وجه القرآن العقل نحو التعامل مع المعطيات والمستجدات وفق القواعد والقصص القرآنية، الدالة على ذلك وكيف عالج الوحي القضايا التي ألفها الناس، ولعل في تدرج القرآن في تحريم الخمر مثلاً خير دليل على ذلك.

من ناحية أخرى فإن من أهم المحاور التي ينبغي أن ينالها التجديد في حياتنا وفقاً للرؤية القرآنية، "نقل الاهتمام والعناية من حقول الأشياء إلى فلك الإنسان"^(٢)، فإن الأصل التعامل وفق ضوابط حدود الطاقة البشرية، والمقدرة الإنسانية، ومن ذلك الحوار والمجادلة والتي هي

(١) انظر: بكار، عبد الكريم، تجديد الوعي، (الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) ص ١٤٨-١٤٩ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٣.

أحسن فإن ذلك أبلغ في التأثير وأقرب إلى القلوب، وهذا ما اعتمده القرآن في توجيهه لمحددات الحوار وقواعده.

إن دور العقل في التجديد يصرف إلى النافع دائماً، وإلى المصلحة غالباً، وهذا مقتضى نصوص القرآن الكريم، لا بد أن يكون دور العقل في التجديد بما فيه مصلحة وتيسير للناس، ولا يخرج عن دائرة الشرع، وإذا ما أريد للتجديد أن يكون نافعا، وجامعاً غير مفرقا فإنه لا بد وأن يتخلص صاحبه من التعصب الفكري لشخصٍ أو مذهبٍ أو طائفةٍ أو جماعةٍ، وينبع من وحي الدليل الواضح الصريح.

المطلب الثالث: العقل ودوره في مواجهة الأزمة الحضارية القائمة:

لقد مُنيَ العقل المسلم المعاصر بالعديد من المعضلات^(١) التي جعلته يفقد الكثير من الفاعلية والعطاء والإنتاج الفكريين، بعد أن عاش حقباً من الزمن يتربع عروش السيادة، وميادين العطاء العلمي الحضاري، ولعل السبب في ذلك غياب الوعي بالدور المناط بالعقل من ناحية، وتركيز المعادين للإسلام لنقاط القوة والحيوية لدى المسلمين من ناحية أخرى.

فإنه ومن خلال الدور التاريخي للعقل المسلم، المتمثل في إنتاج المعرفة، وبلورة العلم وقولبته في القوالب الصحيحة، واجتهادات الأئمة والمفكرين، ونتاج الأوائل يظهر لنا أن العقل المسلم عاش في أوج قوته وعنفوانه، وأبلى بلاءً حسناً في خدمة العلم والمعرفة، وتطويرها وتلقيتها من الشوائب والفساد الذي أراده أعداء الإسلام لبث الغث في الصافي من العلوم، وأن تلك المحاولات من قبل الأعداء قد باءت بالفشل إن صح التعبير.

وتكررت تلك المحاولات في صور أخرى، ومسارات مختلفة ومدروسة لاغتيال العقل، وإيقاف وظائفه، ولا تزال هذه المحاولات جارية على قدمٍ وساق، وتتراوح سمومها على العقل بين الفينة والفينة، ولكن ظهورها كما أسلفت مدروساً بخطط ومشاريع استراتيجية، وتقوم على ذلك دراسات وأبحاث علمية، ونفقات عالية، ومؤسسات مقننة، كلها تسعى إلى تنويم العقل المسلم، والحد من فاعليته وعطاءاته المتجددة، وينبغي أن نشير هنا إلى قضيتان أساسيتان^(٢): وهما الغزو الفكري، وتعاطي العقل المسلم معه، لقد وقف العقل المسلم مع الغزو الفكري على مسارين: الأول: تمثل بالاستسلام والنقل الذي نتج عنه التبعية الحضارية، والثاني وقف موقف الاستعداد والمحاربة ونتج عنه الانتحار الحضاري، وإن الموقف الذي يراه العاملون في الحقل الإسلامي من رواد إسلامية المعرفة^(٣) هو موقف الوسط الذي دعا إليه الإسلام، ونصت عليه آيات القرآن والمتمثل في التمييز بين النافع والضار واستلهاً المقاصد وفقاً للرؤية الوسطية، وتحقيق الانسجام مع نصوص الكتاب والسنة، وإخضاع تلك الأفكار لمنهج القرآن الكريم، وقياسها بالنظرة الشمولية وفقاً لمقاصد الشريعة، والذي ينتج عنه حوار حضاري، لا يمكن للمريدين لتعطيل العقل فعل ما يريدون، وحتى يعترف هؤلاء بحتمية التعامل مع المعطيات

(١) من تلك المعضلات الفكرية: معضلة التبعية والتقليد، والجمود والتطرف، ودعوى غلق باب الاجتهاد، وتعارض العقل والنقل، والسببية وغيرها.

(٢) وهذا ما ذهب إليه الدكتور طه جابر العلواني في كتابه: الأزمة الفكرية المعاصرة، (انظر: العلواني، طه جابر، الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م) ص ٣.

(٣) منهم رواد مدرسة إسلامية المعرفة: إسماعيل الفاروقي، وطه جابر العلواني، وعبد الحميد أبو سليمان، والعطاس، وعماد الدين خليل، وغيرهم.

الجديدة للعقل، بعدم النيل منه أو اللعب عليه.

وأمام كل التحديات فإن الدور المناط بالعقل ينبغي أن يركز على منطلقات الوحي، الداعية للقيام بالدور الإيجابي والفاعل للعقل المسلم من خلال ممارساته ونشاطاته المتعددة، بدءاً من النظرة العقلية للكون وإبداعات الخالق سبحانه، وأنه كرم الإنسان من خلال عقله، وجعل العقل مناط التكليف، وانتهاءً بالحوار الجاد والمقنع مع كل الدعاوى والمزاعم، وكشف مكامن الجد فيها، والإفصاح عن الخبيث وإن كان تحت مسميات الانفتاح والتطور، أو القابلية والتحضر، قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَيْثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١) يحشر الله هؤلاء الذين كفروا بربهم، وينفقون أموالهم للصدّ عن سبيل الله، إلى جهنم، ليفرق بينهم (وهم أهل الخبث) كما قال وسماههم ﴿الْخَيْثَ﴾ وبين المؤمنين بالله وبرسوله، وهم (الطيبون)، كما سماهم جل ثناؤه. فميّز جل ثناؤه بينهم بأن أسكن أهل الإيمان به وبرسوله جناته، وأنزل أهل الكفر نارَه (٢).

إن دور العقل المسلم في مواجهة التحديات والأزمات الفكرية المعاصرة أن لا يقف موقف المتفرج فيما يحاك به، ويعمل ضده، بل لا بد من الانطلاق الذي تحاسر بسبب ما ذكر من العوامل، واليقظة الفكرية التي تثبت فاعلية العقل المسلم عنصر مهم في المعركة مع الغزو الفكري، ومع العلمانية والليبرالية، واليهودية الصليبية، ولقد فشل كل هؤلاء في محاولاتهم لتغييب دور العقل المسلم نتيجةً لسببين كما يرى الدكتور طه جابر العلواني، أولى هذه الأسباب: طبيعة العقلية المسلمة نفسها التي أفضلت ذلك المشروع، وثانيها: هو عدم التفات هؤلاء إلى أهمية توظيف المصطلحات الإسلامية والتراثية التوظيف المناسب (٣).

إن اعتماد المناهج الفكرية الحديثة واحداً من مصادر البناء الفكري للعقل المسلم، يعطي العقل الفاعلية والتجديد في الاستمرار، وتحديد وجهة الدور الذي يمكن أن يلعبه في المساحات والمسافات المفرغة في الحياة، وعلى وجه الخصوص في بناء عقلية الجيل المسلم الذي تتركز عليه المسؤولية المستقبلية، والنهوض الحضاري القادم، وبذلك يكون المسلم قد أدى دوراً إيجابياً في الاتجاه الصحيح، وهو ما دعا إليه منهج القرآن في العلم والنهوض والتجديد، وأسلمة

(١) سورة الأنفال: ٣٧

(٢) تفسير الطبري (ج ١٣ - ص ٥٣٤).

(٣) انظر: إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، العلواني، طه جابر، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩١م)

ص ٢١-١٩.

الأفكار، وبناء الجيل.

إن دور العقل المسلم في مواجهة التحديات المعاصرة ينبع من منطلقات المنهجية الإسلامية التي تشكله، وتوجهه نحو فهم ماهية الحياة والإحياء والكون وما يدور في فلكه، والكائنات وطريقة التعامل معها، "هذه المنطلقات هي منطلق الوجدانية، والاستخلاف، والمسؤولية، وهذه المنطلقات الثلاثة تشكل الخطوط الأساسية للعقل المسلم، وأي خارطة لا تنطلق من هذه المنطلقات لا تجد في الضمير المسلم، والإرادة المسلمة طاقة للحركة ولا مبرراً للإنجاز"^(١). هذه المنهجية التي تعتمد القرآن الكريم مصدرها الرئيس كفيلة بحماية الدور المرموق للعقل المسلم، والعمل على تجذير هذا الدور في بيئات العطاء الفكري، والنمو الحضاري للمؤمنين.

دور العقل هو إنتاج معارف وإبداعات سلبها الزمن الظهور والبروز، لا لغرض عرضها أو الاستعراض بها، إنما لإظهار عظمة الدور الذي يمكن للعقل المسلم أن يلعبه، والإفادة من ذلك في ساحات المعرفة، والتجديد والابتكار، ولعل ذلك يبرز في ما يحتاجه الواقع اليوم من الأبحاث النظرية والتطبيقية التي تلامس هموم الناس وتحل قضايا الفكر والعقيدة، وفيما تحتاجه الجامعات من الرؤى والتصورات التي تبنى عليها ثقافة الجيل، وفيما تحتاجه مؤسسات الأبحاث من التطوير والدعم والعطاء، وفيما تحتاجه المساجد ودور العبادة والتعليم ومحاضن القرآن الكريم من تجديد في الوسائل والأساليب القديمة، كل هذه المجالات وغيرها تمثل بيئة خصبة للدور المطلوب من العقل المسلم لمواجهة تداعيات الأزمة الفكرية التي تعيشها الأمة، وبالعامل الدؤوب للعقل تقف كل عجلات التثبيط عاجزة. والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) انظر كتاب أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أبو سليمان، مرجع سابق، ص ١٢٧ وما بعدها.

المبحث الرابع علاقة القرآن بالعقل والفكر

المطلب الأول: العلاقة بين القرآن والعقل:

العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، بل يشهد له ويؤيده لأن المصدر واحد فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل، ومن المحال أن يُرسل إليه ما يُفسده".
العقل الصريح هو الواضح الذي يتعامل مع الأسباب بوضوح، ويتعرف على مدارك اليقين، ولا يختلف عليه اثنان.
النقل الصحيح يتمثل في القرآن، وما صحَّ عن نبينا: بمعنى "يشهد له ويؤيده" أن العقل يشهد لصحة النقل ويؤيده.

وإذا دققنا في هذه العبارة ستجد أنها منطقية جداً وسليمة جداً، فالعقل خلقه الله سبحانه وتعالى، وهو العليم بكيفية هذا العقل، لأنه تابع للروح، والإنسان لا يعلم كيفية عقله ولا يعلم كيفية روحه التي بين جنبيه، فالعقل والروح في داخل الإنسان وذاته ويعجز عن التعرف على كيفية روحه وكيفية عقله، فالذي خلق الإنسان وسوّاه وصنعه هو الذي وضع هذا العقل في قلبه، فأُنزل إليه نظاماً يسير عليه، فمن المحال أن الذي يصنع صنعة يُرسل إليها منهجاً يُفسدها، والإنسان لا يقبل ذلك على نفسه، فمثلاً المصانع التي تُنتج الأجهزة الكهربائية تضع مع كل جهاز دليل التشغيل، ودليل التشغيل عبارة عن نظام منقول ممن صنع هذا الجهاز يقول لك فيه: عليك أن تلتزم بنظام التشغيل حتى لا تفسد الصنعة، ونضمن لك سلامة الجهاز لمدة عام مثلاً، فإذا التزم أحدٌ بهذا النظام هل تفسد الصنعة!؟

ولذلك نقول: لا يمكن على الإطلاق أن يتعارض النقل الصحيح مع العقل الصريح، فالعقل الصريح غريزة وضعها الله في قلوب الممتحنين من عباده، فأُنزل نقلاً منقولاً من الله إلى جبريل ونقله جبريل إلى رسول الله، ونقله رسول الله إلينا، وتأكدنا فعلاً أنه نقل صحيح، إما من خلال القرآن أو ما صحَّ عن نبينا، فطالما أن القضية كذلك، فأعقل الناس الذي يطلب السلامة لنفسه والسلامة لهذه الآلة الموجودة داخل البدن والسلامة للبدن والسلامة للأمة كلها هو الذي يلتزم بكتاب الله وبسنة رسوله، فالإنسان إذا صنع صنعة لا يُرسل معها دليلاً يُفسد الصنعة، ولو فعل ذلك لعدَّ ذلك عيباً، فإذا كان ذلك فيما بين البشر، فكيف بخالق البشر الذي صنعهم وعدَّلهم وجعلهم في هذه الهيئة القويمة أن يُنزل منهجاً من السماء يلتزم به الإنسان

فتفشل الصنعة؟!!

إذاً، من يقول بأن التزامه بالشرع يؤدي إلى الرجعية أو ما شابه ذلك، هذا لا يفهم نفسه ولا يفهم عقله ولا يفهم شيئاً في الحياة على الإطلاق، ولكنه تربى على أن ما يراه بعقله هو الصواب، والحقيقة ليست كذلك، بل العقل يقول أن الحماية تكون في ما نزل من عند الله، ولذلك كان من المحال أن يضل الإنسان أو يشقى أو يعيش معيشة ضنكاً إذا اتبع هداية الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأِمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١)، قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: " كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، والعقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول.

أي: ليس في العقل الصريح ما يخالف النقل الصحيح، ويقول أيضاً: " من قال بموجب نصوص القرآن والسنة أمكنه أن يناظر الفلاسفة مناظرة عقلية يقطعهم بها ويتبين له أن العقل الصريح مطابق للسمع الصحيح.

ومن قال بموجب نصوص القرآن والسنة: يعني التزم بما ورد في القرآن والسنة نصاً. ولاحظ أن ابن تيمية رحمه الله تعالى ذكر هنا " السمع " بدلاً من " النقل "، فالسمع أو النقل أو الخبر أو الوحي كل ذلك معناه واحد وهو ما جاءنا عن الله في الكتاب أو في السنة. وقال أيضاً: " العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضاً " (٢).

فما نزل على النبي لا يخالف حقيقة ما نزل على عيسى وعلى موسى وعلى سائر الأنبياء، لماذا؟

لأن المصدر واحد، فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل.

ثم قال رحمه الله تعالى: " لكن كثيراً من الناس يظن تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا

(١) سورة طه: ١٢٣

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، باب هل العبد مجبور أم لا، (ج٧ - ص ٦٦٥).

في الكتاب، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِيُشَاقِقِ بَعِيدٍ﴾ (١) يعني بذلك اليهود والنصارى. اختلفوا في كتاب الله، فكفرت اليهود بما قص الله فيه من قصص عيسى ابن مريم وأمه، وصدقت النصارى ببعض ذلك، وكفروا ببعضه، وكفروا جميعاً بما أنزل الله فيه من الأمر بتصديق محمد ﷺ. فقال لنبيه محمد ﷺ: إن هؤلاء الذين اختلفوا فيما أنزلت إليك يا محمد لفي منازعة ومفارقة للحق بعيدة من الرشد والصواب (٢).

وسبب الاختلاف أنهم قدموا عقولهم على المنقول، وبدؤوا يؤخرون كتاب الله، ولا يمكن أن الله سبحانه وتعالى يُنزل إلينا كلاماً ونظاماً ودستوراً لنسير عليه ونلتزم به ثم إذا التزم الإنسان به يفسد، بل الفساد في عكسه، بل أغلب الذين كفروا بالله سبب كفرهم أهواؤهم وعقولهم، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣)، يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ أيها المؤمنون بعد إيمانكم بالله وبرسوله، فترتدوا على أعقابكم ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني: حجج الله عليكم التي أنزلها في كتابه على نبيه محمد ﷺ ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ حجة أخرى عليكم الله، مع أي كتابه، يدعوكم جميع ذلك إلى الحق، ويبصركم الهدى والرشاد، وينهاكم عن الغي والضلال؟ يقول لهم تعالى ذكره: فما وجه عذركم عند ربكم في جحودكم نبوة نبيكم، وارتدادكم على أعقابكم، ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم، إن أنتم راجعتم ذلك وكفرتم، وفيه هذه الحجج الواضحة والآيات البينة على خطأ فعلكم ذلك إن فعلتموه (٤)، والاعتصام بالله هو الاعتصام بالكتاب والسنة، وإذا تركت الكتاب والسنة فلا تأمن على نفسك، والإنسان قد يصل بسبب بعده عن الله إلى الكفر والضلال، والتعامل مع الحق سبحانه وتعالى من قِبَلِ الحق الواجب من عباده إليه، وهو حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فلو شاء الله تعالى لألزمنا قهراً، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ (٥) إلا يأتي ربه يوم القيامة عبداً له، ذليلاً خاضعاً، مقراً له بالعبودية، لا نسب بينه وبينه (٦)، فأنت عبداً لله شئت أم أبيت، ولكن لأنك في دنيا ابتلاء

(١) سورة البقرة: ١٧٦

(٢) تفسير الطبري (ج ٣ - ص ٣٣٦).

(٣) سورة آل عمران: ١٠١

(٤) تفسير الطبري (ج ٦ - ص ٦١).

(٥) سورة مريم: ٩٣

(٦) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ٢٦١).

واختبار ترك الله لك مجالاً في مسألة اختيار الكفر أو الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (١) فترك الله تعالى لك الخيار حتى تتحمل المسؤولية، فأنزل الله تعالى لك هداية لتلتزم بها، فإن أبيت فتحمّل المسؤولية، ولكن من حق العبودية وما أوجب الله عليك أن تلتزم بالأوامر الشرعية إلزاماً، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لألزمك بها إلزاماً، ولكن القضية أن الله تعالى كما أنه قدير هو أيضاً حكيم، له الحكمة البالغة وله الحجة البالغة على خلقه، خلق الدنيا للابتلاء، والابتلاء يترتب عليه الجزاء في الجنة أو في النار.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢) ثم أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فاكتموا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأبأؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً (٣).

فما أنزل الله هو النقل، وما ألفوا عليه آباءهم مصدره العقل، كما فعل كفار قريش الذين جحدوا رسول الله ورأوا بعقولهم أن المصلحة في أن تبقى قريش على ما هي عليه فيرتفع السادة ويبقى العبيد أذلاء، فنظروا إلى مصلحة ضيقة، في حين أنهم لو كانوا استجابوا لرسول الله واستجابوا للنقل واتبعوا رسول الله لسادوا الأمم.

فإذا نظرت بالعقل ستجد أن الكمال في النقل وفي إتباعه، وهذا ستجده كثيراً في كتاب الله، وقال تعالى في شأن من وصل إلى قمة الكفر الذين يقولون لغيرهم: اتبعوا سبيلنا وستحيون في رعدٍ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤) كونوا على مثل ما نحن عليه من التكذيب بالبعث بعد الممات وجحود

(١) سورة الإنسان: ٣

(٢) سورة البقرة: ١٧٠

(٣) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٨١).

(٤) سورة العنكبوت: ١٢

الثواب والعقاب على الأعمال ﴿وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾ يقول: قالوا فإنكم إن اتبعتم سبيلنا في ذلك، فبعثتم من بعد الممات، وجوزيتم على الأعمال، فإننا نتحمل آثام خطاياكم حينئذ(١).

فهؤلاء يقودون أنفسهم بأهوائهم وعقولهم، وسبيل الحق سبحانه وتعالى يتمثل في النقل، الذي فيه الهداية والكمال، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمَحْمِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢) وللنظر إلى ما حدث من المتكلمين في قضية الأسماء والصفات، يظل الواحد منهم سنين طويلة ويصنف عشرات الكتب حتى يقول للناس بأن نصوص الشرع ظاهرها باطل، فاصرفوها عن ظاهرها، أولوا أو فوضوا أو عطلوا، وفي النهاية يقول: نهاية إقدام العقول عقاب وأكثر سعي العالمين ضلال، وأرواحنا في وحشة من جسمنا وغاية دنيانا أذى ووبال ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا ثم يقول: " لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٣)، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (٤)، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (٥)، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (٦).

وكذلك قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) قال الرجل الذي جاء من أقصى المدينة لقومه: يا قوم اتبعوا المرسلين الذين أرسلهم الله إليكم، واقبلوا منهم ما أتوكم به(٨)، فاتباع المرسلين هو إتباع للنقل لا للعقل، ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٩) فالذي يتبع النقل على هداية، وأما الذي يتبع العقل فإنه إن كان على هداية في جزء فهو على ضلال في أكثر الأجزاء، ولذلك نقول: لا يمكن أبداً أن يتعارض العقل الصريح مع النقل الصحيح.

(١) تفسير الطبري (ج ٢٠ - ص ١٥).

(٢) العنكبوت: ١٢.

(٣) سورة طه: ٥.

(٤) سورة فاطر: ١٠.

(٥) سورة الشورى: ١١.

(٦) سورة طه: ١١٠.

(٧) سورة يس: ٢٠.

(٨) تفسير الطبري (ج ٢٠ - ص ٥٠٥).

(٩) سورة يس: ٢١.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (١) قال ابن جريج: أخبرني خالد أنه سمع مجاهدا يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ قال: الباطل: الشيطان. وأما المؤمنون فكفرنا عنهم سيئاتهم، وأصلحنا لهم حالهم بأنهم اتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم، وهو محمد ﷺ، وما جاءهم به من عند ربه من النور والبرهان (٢)، فسمى المنقول حقاً، وسمى إتباع العقول والأهواء باطلاً لأنه غير معصوم، فعدم الرغبة في أن تكون تابعاً للنقل يعني أنك لا ترغب في الإسلام ولا ترغب في إتباع النبي ﷺ، وهذا معناه كفر والعياذ بالله، ونحن نضرب أمثلة لبيان الفرق بين مذهب الباطل ومذهب الحق، فأهل الكفر تدفعهم المصلحة والأهواء فيظنون بالخطأ العقلي أن المصلحة تكون في كذا وكذا، في حين أن المصلحة الحقيقية التي أنزلها الحق سبحانه وتعالى إلينا تتمثل في إتباع الرسل والأنبياء لأن هذا فيه الكمال.

وربنا سبحانه وتعالى مدح من اتبع طريقة الرسل والأنبياء فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ (٣) كل هؤلاء يتبعون المنقول، لأن آدم نزل كأول رسول جاء بهداية من الله، وربنا سبحانه وتعالى وضع له شرائعاً وأحكاماً يسير عليها هو وذريته من بعده، وجاء من بعده نوح وإبراهيم وإسرائيل (يعقوب) وأولاد يعقوب (بنو إسرائيل)، وممن هدى الله واجتنبى من المؤمنين ﴿إِذَا نُنَادَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبِكِيًا﴾ فهم يدركون فيها الحكمة.

ولذلك نقول بأن أجمل شيء في العقيدة أن تدرك حكمة الله في الأشياء وتؤمن بطلاقة القدرة، فتشعر بأن الشيء وضعه الله سبحانه وتعالى في موضعه ولحكمة أرادها، ويوم أن تصل إلى هذا الشعور ستشعر بنور في قلبك تميز به بين أشياء لا يستطيعها غيرك، وساعتها على الإنسان أن يحمد ربه على هذه النعمة، فأكبر نعمة يصل إليها الإنسان هي نعمة الإيمان التي يتلمس فيها الحكمة ويفعل الشيء وهو سعيد بفعله، سعيد بقربه من ربه، سعيد بلذة الإيمان وهو يسجد لله، وهذا الإحساس نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يديمه علينا وأن يوفقنا إليه وأن نموت عليه.

(١) سورة محمد: ٣

(٢) تفسير الطبري (ج ٢٢ - ص ١٥٣).

(٣) سورة مريم: ٥٨

ثم قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عِيَابًا﴾ (١). فإذا لا يُضيق أحد الصلاة بحجة أنها تعوق عن العمل، بل على الإنسان أن ينظر كيف عبد النبي الله، ومكّن الله تعالى له ومكّن لأمته، فالأسباب خلقها الله سبحانه وتعالى.

فإذا أراد الإنسان أن يستشير أحداً لفعل شيء، فإنه يبحث عمّن يدلّه من البشر، فماذا إن كان الدليل ورد في التنزيل من عند رب العباد على رسول الله؟! وماذا لو حدث تعارض بين العقل والنقل؟

نرجع للعبارة المأخوذة من كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "العقل الصريح لا يُعارض النقل الصحيح، بل يشهد له ويؤيده لأن المصدر واحد، فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل، ومن المحال أن يُرسل إليه ما يُفسده، وإذا حدث تعارض بين العقل والنقل فذلك لسببين، لا ثالث لهما، إما أن النقل لم يثبت وإما أن العقل لم يفهم النقل" (٢).

فلا يمكن أن يتعارض العقل الصريح مع النقل الصحيح، وضرربنا مثلاً لذلك بقياس الأولى، وهو أن هذا لا يفعله إنسان، أن يصنع صنعة ويضع نظاماً ودليلاً لتشغيلها فتفسد، فكيف بالحق سبحانه وتعالى؟!، من باب أولى إذا أنزل نظاماً لتوجيه صنعته يأخذ بالإنسان إلى آخرته وجنته لا يُمكن أن يتعارض عقل الإنسان مع هذا النظام المتمثل في النقل الصحيح الثابت.

ولو حدث تعارض بين العقل والنقل، فهذا لسببين اثنين:

عدم ثبوت النقل والمرجعية في عدم ثبوت النقل إلى علم الحديث، وليس إلى العقل، فلا يقول أحد: إذا، أسمع الحديث فأحكم عليه بالصحة أو بالضعف عن طريق العقل.

نقول: لا ولكن إذا جاء حديث تعارض مع العقل، فالواجب أن أتأكد أولاً عن طريق علم الحديث أن هذا الحديث صحيح، فأرجع إلى قواعد المحدثين، وهل هو منقول برواية العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة؟ فإن كان، ننتقل إلى السبب الثاني.

عدم فهم العقل للنقل، السبب الأول في حدوث التعارض بين العقل والنقل أن النقل لم يثبت والإنسان بعقله يستطيع أن يدرك أشياء يشعر بها أنه يستحيل أن يكون الرسول قال مثل هذا الكلام، ولذلك نقول بأنه من الأهمية بمكان أن يستطيع طالب العلم أن يُميز بين الحديث الصحيح

(١) سورة مريم: ٥٩

(٢) موقع أرشيف ملتقى أهل الحديث، باب العلاقة بين العقل والنقل (ج ٦٦ - ص ٨٢) موقع أهل الحديث.

والحديث الضعيف، وتعريف الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة، ولكن قد تجد حديثاً يشتمل على مجازفات شديدة جداً، ومن أمثلة ذلك: حديث: «(من قال لا إله إلا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً، له سبعون ألف لسان، ولكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون الله له)»^(١)، فالإنسان عندما يسمع هذا الحديث يشعر بأن هذه مجازفات، وأغلب من يصنع هذه الأحاديث غلاة الصوفية، ويقولون: نحن لا نكذب على الرسول، وإنما نكذب له حتى نحبيب الناس في دينه.

نقول قد تواتر عن النبي ﷺ أنه قال: «(من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)»^(٢)، فالكلام الذي تقولونه إن كان خبراً فيطلب التصديق، فتكون عقيدة مبنية على خبر كاذب، وقد جعلتم هذا الكلام وحياً، وهو ليس بوحى.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " أمثال هذه المجازفات الباردة لا يخلو حال واضعها من أحد أمرين:

(١) إما أن يكون في غاية الجهل والحمق .

(٢) وإما أن يكون زنديقاً .

قد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «(ماء زمزم لما شرب له)»^(٣)، وماء زمزم فيه خاصية عجز الأطباء عن تحليلها، والذي يشرب منها يشعر بشبع وريٍّ وهي سبب في الشفاء، فيقول الأطباء " فيها خصائص عديدة ومعادن عجيبة لا نعلم أصلها.

وحديث: (البانجان شفاء من كل داء)، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " قَبَّحَ اللهُ من وضع ذلك، فإن هذا لو قاله بعض جهلة الأطباء لسخر منه الناس؟، فكيف يكون كلاماً نبوياً؟!، فهذا أيضاً يُعارض العقل، والسبب أنه ليس من كلام رسول الله.

وأما بالنسبة لنا كدعاة على منهج أهل السنة والجماعة علينا أن نحافظ على سنة رسول الله ﷺ، على الأقل لا ننقل إلا الصحيح، وإلا سيتعارض العقل مع النقل، وقد يستخدم أحد هذا في الطعن على السنة، كما حدث ممن أنكر الشفاعة وقال بأنها وساطة ومحسوبة والتي رواها

(١) قال ابن كثير في تفسير القرآن (ج ٣- ص ٢٧٦) غريب جداً، قال ابن القيم حديث مكذوب .

(٢) الراوي: عبدالله بن عباس. المحدث: ابن حجر العسقلاني المصدر: تخريج مشكاة المصابيح (ص ١- ص ١٥٨)، خلاصة حكم المحدث: (حسن كما قال في المقدمة).

(٣) الراوي: جابر بن عبدالله المحدث: الألباني المصدر: إرواء الغليل (ص ٤- ص ٣٢٠) خلاصة حكم المحدث: إسناده ورجاله ثقات رجال الصحيح غير معاذ بن نجدة، قال الألباني وأما الراوي عنه أحمد بن إسحاق بن شيبان البغدادي فلم أعرفه فهو علة هذه الطريق عندي.

كتاب التاريخ والسير كالبخاري ومسلم، فأمثال هؤلاء لأنهم لا يفهمون العلاقة بين العقل والنقل يشككون في الثوابت.

السبب الثاني: في حدوث التعارض بين العقل والنقل أن العقل لم يفهم النقل:

إن قال قائل: قلتم بأن التعارض سببه عدم ثبوت النقل، فماذا لو كانت آيات في القرآن بينها تعارض؟

نقول له: لا ليس بينها تعارض، وإنما العيب في عقلك أنت، فلا تتعجل، ولا تُقدِّم عقلك على كتاب الله، لأن الذي أنزل هذا الكلام قال في شأنه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١) والذي أنزله العليم الحكيم الخبير، ولا يُمكن أن يُنزل كلاماً إلى البشر يتعارض مع عقولهم، فالمصدر واحد فالذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل.

فالسبب الثاني في حدوث التعارض بين العقل والنقل هو أن العقل لم يفهم النقل، ومن أمثلة ذلك يقول قائل: هل يصح أن تقول بأن الله سبحانه وتعالى على العرش بمقتضى قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) وفي السماء بمقتضى قوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٣)، وفي الآفاق وفي كل مكان بمقتضى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٤)؟ نقول: هذا ليس بتعارض، ولذلك جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه الثلاثة في آية واحدة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٥)، فمعنى في السماء أنه على العرش، فبعد السماء السابعة الماء، وبعد الماء العرش، وفوق العرش رب العالمين، والله من فوق عرشه يسمع السر وأخفى في سائر خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٦)، فالله فوق عرشه، وهو في السماء وهو معنا أينما كنا، ولكن الإشكال في أنهم يتخيلون الله على أنه شخص، وبسبب هذا التشبيه الذي يأتي إلى أذهانهم ينكرون النصوص.

(١) سورة فصلت: ٤٢

(٢) سورة طه: ٥

(٣) سورة الملك: ١٦

(٤) سورة الحديد: ٤

(٥) سورة الحديد: ٤

(٦) سورة آل عمران: ٥

وانظر إلى كلام أبي الحسن الأشعري^(١) -الذي تُنسب إليه طائفة الأشعرية- في كتاب الإبانة: "فإن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ ، قيل له: إن الله يستوي على عرشه استواءً يليق به" ، فلم يقل رحمه الله : "استولى" ، بل قال بأن من يقولون بأن استوى تعني "استولى" جهمية وحرورية ومعتزلة.

وقال رحمه الله: فالسماوات فوق العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات قال: ﴿ءَأَمْنُم مِّن فِي السَّمَاءِ﴾ لأنه مستوٍ على العرش الذي فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء والعرش أعلى السماوات".

فأعلى سماء فوقنا العرش ، وفوق السماء السابعة ماء ، وفوق الماء العرش ، والله فوق العرش .

فإن قال قائل: ما شكل العرش؟

نقول: لا نعلم ، فحتى نعلم بذلك يلزم أمران، إما أن نراه بأعيننا، وهذا لم يحدث، وقد قال النبي ﷺ ((تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت))^(٢).

فالشيء لا يُعرف إلا برؤيته أو برؤية مثيله، ولا يوجد مثل لعرش الله سبحانه وتعالى، ولا يوجد مثل لله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣) فهناك كيفية يعلمها الله سبحانه وتعالى، أما نحن فلا نعلم الكيفية، ولكن نؤمن بها، فهناك كيفية لاستواء الله جل جلاله يعلمها هو ولا نعلمها نحن.

ثم قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى: " وليس إذا قال: ﴿ءَأَمْنُم مِّن فِي السَّمَاءِ﴾ يعني جميع السماوات وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات، ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾^(٤)، ولم يُرد أن القمر يملأهن جميعاً وأنه فيهن جميعاً، ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء لأن الله تعالى مستو على العرش الذي هو فوق السماوات فلولا أن الله عز وجل على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو

(١) أبو الحسن الأشعري، (٢٦٠ هـ - ٣٢٤ هـ) هو المنظر الأول لمواقف أهل السنة ومؤسس المذهب المعروف باسمه، بعد أن انشق عن المعتزلة إثر خلاف بينه وبين شيخه. كان يريد أن يقيم مذهباً وسطاً يجمع بين منهج المعتزلة العقلاني والفكر السني المعتمد على الرواية والحديث. (البداية والنهاية (١١/ ١٩٩)).

(٢) صحيح مسلم شرح النووي ، باب ذكر بن صياد (ج ١٨ - ص ٥٦) صححه الألباني - في صحيح الجامع - الصفحة أو الرقم: ٢٩٦٣.

(٣) سورة الشورى: ١١

(٤) سورة نوح: ١٦

العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض".

فهذا مثال للتعارض بين العقل والنقل سببه أن العقل لم يفهم النقل، فإذا حدث هذا، على الإنسان أن ينسب الخطأ إلى نفسه ويُقدِّس كلام الله ولا يتجرأ عليه، ويسأل أهل العلم، فهو بذلك قد اتقى الله بأن ردَّ العيب إلى نفسه ونزَّه كلام ربه، والله تعالى قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، فيفهم في هذه الحالة ما أشكل عليه، وأما لو تجرأ وقدمَّ عقله على كتاب ربه فلن يفهم وسيزداد في الضلالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ (١) قل - أيها الرسول - لهم: من كان ضالا عن الحق غير متبع طريق الهدى، فالله يمهلُه ويملي له في ضلاله، حتى إذا رأى - يقينا - ما توعَّده الله به: إما العذاب العاجل في الدنيا، وإما قيام الساعة، فسيعلم - حينئذ - مَنْ هو شر مكاناً ومستقراً، وأضعف قوة وجنذاً (٢). ومثال ذلك أيضاً تشكيك بعض أتباع المستشرقين من الإسلاميين أساتذة الجامعات وشيوخ الفضائيات في حديث الذباب الذي رواه البخاري بسنده حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان بن بلال، قال: حدثني عتبة بن مسلم، قال: أخبرني عبيد بن حنين، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه، يقول: قال النبي ﷺ: «إِذَا وَقَعَ الذَّبَابُ فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمَسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ، فَإِنْ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ وَالْآخَرَى شِفَاءٌ» (٣)، فأخذوا يطعنون في هذا الحديث ويقولون: " إن العقل لا يقبل هذا "، حتى أثبت الطب الحديث أن هذا حق فصدقوا بهذا الحديث.

نقول: طالما أنه حديث ثابت على قواعد أهل الحديث فهو حديث صحيح والذي فيه حق، وكون العلم يعجز عن اكتشاف ذلك، فالعيب في عقل الإنسان، وليس في كلام النبي ﷺ. فهذا الحديث من معجزات النبي الطبية التي يجب أن يسجلها له تاريخ الطب بأحرف ذهبية، فالذباب عليه بكتيريا في أحد جناحيه، ومضادات هذه البكتيريا تتكون في الجناح الآخر، ونحن نعلم أنه إذا أصاب البدن فيروسات فإن أفضل علاج له هو المضادات التي يفرزها الجسم لمقاومة هذه الفيروسات، وهذا هو أنجح علاج وإلا ينتشر المرض، فالذباب نفسه يفرز مادة مضادة قاتلة للبكتيريا الموجودة فيه، فمن الذي علم النبي هذا الكلام؟! فهذا وحى نزل من السماء.

(١) سورة مريم: ٧٥

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣١٠).

(٣) صحيح البخاري باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم (ج ٤ - ص ١٣٠ - رقم ٣٣٢٠).

وهذا الذباب نعمة من الله تعالى، فهو مقياس لعامل النظافة، فإذا وقع عدد قليل من الذباب على جسم الإنسان فإنها تنقل ميكروبات خفيفة، وعندما تصل هذه الميكروبات إلى الجسم يقوم بعمل حماية تلقائية، فتتعرف كرات الدم البيضاء على الميكروبات، حتى إذا هجم ميكروب بهذه النوعية بعد ذلك، يكون الجسم مستعداً له، فهذا تطعيم تلقائي من قبل الحق، فانظر إلى الحكمة، فالله سبحانه وتعالى يحمي الإنسان بمثل هذه الأشياء، وأما إن هجم الذباب على الإنسان فتكاثرت الميكروبات عليه حتى غلبت كرات الدم البيضاء، حينئذ يُصاب الإنسان بالمرض، وفي هذه الحالة يكون الإنسان هو المتسبب في هذا لأنه لم يحرص على النظافة، فالله سبحانه وتعالى لا يفعل فعلاً إلا وهو خير يعود عليك.

المطلب الثاني: العلاقة بين القرآن والفكر:

إن العلاقة بين القرآن والفكر قوية فقد جاء القرآن يخاطب العقول ويدعو للفكر والتأمل، فالدين الذي لا فكر معه هو الوثنية والتجسيد والتعديد، بل إن إعمال الفكر هو الطريق للراقي الإيماني قال سبحانه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١) وهذا احتجاج من الله تعالى ذكره على قائل ذلك، وعلى سائر خلقه، بأنه المدبر المصرف الأشياء والمسخر ما أحب، وأن الإغناء والإفقار إليه وبيده، فقال جل ثناؤه: تدبروا أيها الناس واعتبروا، ففيما أنشأته فخلقته من السموات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقبته بينه من الليل والنهار فجعلتهما يختلفان ويتعقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في ذا راحة لأجسادكم معتبر ومدكر، وآيات وعظات، فمن كان منكم ذا لب وعقل، يعلم أن من نسبني إلى أي فقير وهو غني كاذب مفتر، فإن ذلك كله بيدي ألقبه وأصرفه، ولو أبطلت ذلك لهلكتم، فكيف ينسب إلى فقر من كان كل ما به عيش ما في السموات والأرض بيده وإليه؟ أم كيف يكون غنيا من كان رزقه بيد غيره، إذا شاء رزقه، وإذا شاء حرمه؟ فاعتبروا يا أولي الأبواب (٢).

كما أن الإسلام يخاطب العقول، ويعتمد عليها في فهم الدين، وعماراة الدنيا، وهو يدعو إلى العلم والتفوق فيه، والأخذ بأحدث أساليبه، والنزول على حكمه في كل المجالات، يعتبر التفكير عبادة، ولا يرى أي تعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح، فالعقل - كما قرر علماء الاسلام - هو أساس النقل، إذ به ثبت وجود الله تعالى، وثبتت النبوة.

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:- يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل، أو أنه بحسب الإنسان أن يكون صافي الروح نبيل الخلق صادق المشاعر ليتم دينه ويكتمل يقينه، مهما كان عقله بعد ذلك، وذلك خطأ! فإن الإسلام يريد أولاً عقلاً سليماً وفكراً مستقيماً، فما قيمة امرئٍ مُشَوَّشِ الذهن سقيم التفكير (٣)؟

إن صحة النظر إلى الأمور ودقة الحكم على الأشياء تجيء أولاً، ثم تجيء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك. وعندما بدأت الدعوة إلى الإسلام أهاب القرآن بالناس أن ينفضوا عنهم ما

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) تفسير الطبري (ج ٧ - ص ٤٧٣).

(٣) من استشارة العقل في ميزان الإسلام.

وَرَثُوا مِنْ خُرَافَةٍ، وَأَنْ يَعِيدُوا الْيَقِظَةَ إِلَى عَقُولِهِمُ الْمَغْيِبَةَ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفَىٰ وَقُرْدَىٰ ثُمَّ تَنْفَكُوا﴾ (١) قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: إنما أعظم أيها القوم بوحدة وهي طاعة الله (٢).

والحق أني لم أقرأ كتابًا منسوبيًا إلى السماء احتقى بالنظر العقلي وخطَّ على ضوئه معالم الإيمان مثلما فعل القرآن الكريم، إنه يخاطب الإنسان هكذا:

- ﴿الَّذِينَ تَرَأَىٰ فِي السَّمَاءِ أَنْزَالَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (٣).
- ﴿الَّذِينَ تَرَأَىٰ فِي السَّمَاءِ سَحَابًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤).
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (٥).
- ﴿الَّذِينَ تَرَأَىٰ فِي السَّمَاءِ سُحَابًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَمِمَّا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ سِحَابٍ مِثْلِ بَرَقٍ فَاصْبِرْ لَهُ مِنْ رِيحِهِ وَيُصْرَفُهُ عَنْ مَنِّ شَاءَ وَيُصْرَفُهُ عَنْ مَنِّ شَاءَ يُكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٦).

لعمري ما وجد العقل من بدء الخلق إلى يوم الناس هذا كتابًا يعترف به ويجلو بريقه ويُمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل!

كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن، حتى جاء القرآن الكريم، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة، وقضايا تعتمد على البرهان، سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة، أو كما يعبرون في عصرنا بـ (المادة وما وراء المادة).

وانضم العلماء بالدين إلى الملائكة المقربين في الشهادة بوحدانية الله وعدالته، كما جاء في

الآية ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٧) هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص

(١) سورة سبأ: ٤٦

(٢) تفسير الطبري (ج ٢٠ - ص ٤١٧).

(٣) سورة الحج: ٦٣

(٤) سورة الحج: ٦٥

(٥) سورة الفرقان: ٤٥

(٦) سورة النور: ٤٣

(٧) سورة آل عمران: ١٨

الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم^(١).

وبدهي أن العلم هنا ليس العلم النظري الجاف، لا، إنه علم صادق مطابق للواقع، يُمهّد لما نسميه "العاطفة العاقلة" ثم نتشبت به ونتعصب له، فلا نرخص قيمته ولا نتنازل عنه، إنها خيانة أن نتخفف من الحق عند ثقل الأعباء، أو نستدير له إذا أرهقنا الأعداء!

وفي القرآن الكريم نماذج كثيرة للتعريف بالحق ولفت البصائر إليه، للنظر هذا النموذج: يقول الله تعالى معرفاً نفسه لعباده: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ

الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٢)

والله الذي أحدث لكم أيها المكذبون بالبعث بعد الممات السمع الذي تسمعون به، والأبصار التي تبصرون بها، والأفئدة التي تفقهون بها، فكيف يتعذر على من أنشأ ذلك ابتداء إعادته بعد عدمه وفقده، وهو الذي يوجد ذلك كله إذا شاء ويفنيه إذا أراد ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول: تشكرون

أيها المكذبون خير الله من عطائكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً، والقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ والله الذي خلقكم في الأرض وإليه تحشرون من بعد مماتكم، ثم تبعثون من قبوركم إلى موقف الحساب، والقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ

الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: والله الذي ﴿يُحْيِي﴾ خلقه يقول: يجعلهم أحياء بعد أن كانوا نطفاً أمواتاً، بنفخ الروح فيها بعد التارات التي تأتي عليها، ﴿وَيُمِيتُ﴾ يقول: ويميتهم بعد أن أحياهم ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول: وهو الذي جعل الليل والنهار مختلفين، كما يقال في الكلام: لك المن والفضل، بمعنى: إنك تمن وتفضل. وقوله: ﴿

أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفلا تعقلون أيها الناس، أن الذي فعل هذه الأفعال ابتداء من غير أصل، لا

يمتنع عليه إحياء الأموات بعد فنائهم، وإنشاء ما شاء إعدامه بعد إنشائه^(٣).

هذه إنارة للعقل لا يجوز أن يضل بعدها الطريق، ومنهج القرآن في الحديث عن الله جدير بالاحترام كله، إنه يضع أصابع الإنسان على ما حوله ثم يقول له: فكر! أظن الشمس عقدت

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ١٢٤).

(٢) سورة المؤمنون: ٧٨-٨٠.

(٣) تفسير الطبري (ج ١٩ - ص ٦٢).

اتفاقاً مع الأرض لتعاقب الليل والنهار؟

أتظن كليهما حددت المدار الذي يخصها ووضعت عقوبة لمن يتجاوزها؟

إن هذه الأجرام السابحة في الفضاء لا تعقل شيئاً، وإنما تديرها حكمة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

وبعد استعراض للكون تناول عرشه وفرشه جاء هذا التقرير الحاكم: ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ

لَكَذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ

اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ (١) ما الأمر كما يزعم هؤلاء

المشركون بالله، من أن الملائكة بنات الله، وأن الآلهة والأصنام آلهة دون الله ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم

بِالْحَقِّ﴾ اليقين، وهو الدين الذي ابتعث الله به نبيه ﷺ، وذلك الإسلام، ولا يعبد شيء سوى الله؛

لأنه لا إله غيره ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ يقول: وإن المشركين لكاذبون فيما يضيفون إلى الله،

وينحلونه من الولد والشريك، وقوله: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ يقول تعالى ذكره: ما لله من ولد، ولا

كان معه في القديم، ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته، ولو كان معه في القديم أو عند

خلقه الأشياء من تصلح عبادته ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ﴾ يقول: ﴿إِذَا﴾ لاعتزل كل إله منهم

﴿بِمَا خَلَقَ﴾ من شيء، فانفرد به، ولتغالبا، فلعلنا بعضهم على بعض، وغلب القوي منهم

الضعيف؛ لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان

الله ما أبلغها من حجة وأجزها، لمن عقل وتدبر. وقوله: ﴿إِذَا لَذَّهَبَ﴾ جواب لمحذوف، وهو:

لو كان معه إله، إذن لذهب كل إله بما خلق، اجترئ بدلالة ما ذكر عليه عنه. وقوله: ﴿سُبْحَانَ

اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول تعالى ذكره؛ تنزيهاً لله عما يصفه به هؤلاء المشركون من أن له

ولداً، وعما قالوه من أن له شريكاً، أو أن معه في القدم إلهاً يعبد تبارك وتعالى (٢).

هذه عقيدة التوحيد، وتلك أسانيد العقلية، تتابعت في سياق صريح قاطع يثبت لله كل

كمال وينزهه عن كل نقص، ويسند إليه المدائح التي تتبغى له وتليق بمجده! حسناً، فهل وقف

الأمر عند هذا التقرير المدعوم ببراهينه؟

لا، لقد جاء بعده تيار عاطفي يدفع إلى البراءة من كل شرك وجهل، ويخوف من عواقب

(١) سورة المؤمنون: ٩٠-٩٢

(٢) تفسير الطبري (ج ١٩ - ص ٦٦).

هذا الانحدار، جاء هذا التيار في صورة استعادة من صاحب الرسالة أن يلحقه رشاش من الغضب الماحق الذي سينزل بالشاردين المعاندين، وغضب الجبار محذور، ومن شمائل العبودية أن نتوقاه وننأى عن أسبابه: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرِيَنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ (١) قل يا محمد: رب إن تريني في هؤلاء المشركين ما تعدهم من عذابك، فلا تهلكني بما تهلكهم به، ونجني من عذابك وسخطك، فلا تجعلني في القوم المشركين، ولكن اجعلني ممن رضيت عنه من أوليائك. وإنا يا محمد على أن نريك في هؤلاء المشركين ما نعدهم من تعجيل العذاب لهم، لقادرون، فلا يحزنك تكذيبهم إياك بما نعدهم به، وإنما نؤخر ذلك ليبليغ الكتاب أجله (٢).

والغريب أنه بعد تمزيق الحجب دون الحقيقة، وبعد مواجهة البشر بما يحملهم عليها حملاً يقول الله لنبيه ﷺ: تَمَهَّلْ، وَتَذَرَّعْ بِالْحَلْمِ، وَقَابِلْ بِإِحْسَانٍ مِنْ يُسِفُ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٣) ادفع يا محمد بالخلة التي هي أحسن، وذلك الإغضاء والصفح عن جهلة المشركين والصبر على أذاهم، وذلك أمره إياه قبل أمره بحربهم، وعنى بالسيئة: أذى المشركين إياه وتكذيبهم له فيما أتاهم به من عند الله، يقول له تعالى ذكره: اصبر على ما تلقى منهم في ذات الله (٤).

هذا نموذج من عشرات تتبني عليها السور في القرآن النازل بمكة والنازل بالمدينة على سواء، والغريب أن النموذج هنا من سورة مكية، والمستشرقون يرون أن القرآن المكي يعتمد على العاطفة أكثر مما يعتمد على الفكر، فهل لديهم ما يوصف بأنه فكر أو عاطفة؟ إن ما لديهم فراغ، ولا يوجد كتاب بنى الإيمان على البرهان إلا هذا القرآن، إن التفكير فريضة إسلامية كما يقول الأستاذ العقاد!

ومجال التفكير هو في العالم المادي، هنا يستطيع الإنسان أن يلاحظ ويستنتج ويتابع التجارب ويكرر الفروض، ويصل آخر الأمر إلى ما يفيد في دينه ودنياه، وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم عندما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ *

(١) سورة المؤمنون: ٩٣-٩٥

(٢) تفسير الطبري (ج ١٩ - ص ٦٧).

(٣) سورة المؤمنون: ٩٦-٩٧

(٤) تفسير الطبري (ج ١٩ - ص ٦٨).

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾ وهذا احتجاج من الله تعالى ذكره على قائل ذلك، وعلى سائر خلقه،
بأنه المدبر المصرف الأشياء والمسخر ما أحب، وأن الإغناء والإفكار إليه وبيده، فقال جل
ثناؤه: تدبروا أيها الناس واعتبروا، ففيما أنشأته فخلقته من السموات والأرض لمعاشكم وأقواتكم
وأرزاقكم، وفيما عقبته بينه من الليل والنهار فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في
هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا راحة لأجسادكم معتبر ومدكر، وآيات وعظات. فمن كان منكم
ذا لب وعقل يعلم أن من نسبني إلى أي فقير وهو غني كاذب مفتر، فإن ذلك كله بيدي أظفري
وأصرفه، ولو أبطلت ذلك لهلكتم، فكيف ينسب إلى فقر من كان كل ما به عيش ما في
السموات والأرض بيده وإليه؟ أم كيف يكون غنيا من كان رزقه بيد غيره، إذا شاء رزقه، وإذا
شاء حرمه؟ فاعتبروا يا أولي الألباب (٢).

أولو الألباب هنا يتفكرون في خلق العالم، ويستنتجون من قوانينه المطردة ونظامه المتناسق
أنه مخلوق لرب حكيم، فلا عبث ولا فوضى.

وفي أول السورة نفسها ورد ذكر أولي الألباب على نحو آخر، إنهم لا يحاولون اكتتاه
الذات العليا، ولا يخوضون فيما يصعب دركُه من شؤونها، إنني شخصياً "أشعر" بأن الله مَلِكٌ
مستو على عرشه، لا يَبْدُ شيء عن سلطانه، ولا يبعُد أمر عن حكمه! لكن كيف ذلك؟ لا أدري!
أنا لا أدري علاقة روعي بجسدي، فكيف أدري استواء الله على عرشه!
الأفضل أن أتجاوز ذلك إلى غيره على نحو ما قيل: إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى
ما تستطيع.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ؕ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣) وما يعلم وقت قيام

الساعة، وانقضاء مدة أكل محمد وأمه، وما هو كائن، إلا الله، دون من سواه من البشر الذين
أملوا إدراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة، وأما الراسخون في العلم فيقولون:
"آمننا به، كل من عند ربنا" لا يعلمون ذلك، ولكن فضل علمهم في ذلك على غيرهم، العلم بأن
الله هو العالم بذلك دون من سواه من خلقه (١).

(١) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١

(٢) تفسير الطبري (ج ٧ - ص ٤٧٤).

(٣) سورة آل عمران: ٧.

(١) تفسير الطبري (ج ٦ - ص ٢٠١).

على أن هذا التسليم ليس جواز مرور للخرافة أو قبولاً للمتناقضات! وكما قيل: ما يعزُّ على العقل فهمه شيءٌ، وما يحكُّم العقلُ باستحالته شيءٌ آخر! وقد حارب القرآن الأوهام، وكم يعيش الناس صرعى أوهام!

وحارب الظنون، وكم من ظنون توارثها البشر وجعلوا منها عقائد مقدسة! وما كانت يومٌ وُجِدَتْ إلا شائعاتٍ لا أساس لها ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (١).

ومن هنا نهى الله - سبحانه وتعالى - أن نتبع ما لا نعلم وأن نتأثر بما لا أصل له، لقد وهب لنا الفكر والحواس لنستخدمها في تبين الحق، وسوف يسألنا عن طريقة استخدامنا لتلك المواهب: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٢).

ومن معالم الجماعة المسلمة أنها تحترم المنطق وتسلم باليقينيات وتخضع لسطوة العلم! وقد مضى هذا المنهج إلى غايته وهو يُحارب الشرك ويؤسس التوحيد، فتري الحملة على المشركين معللة بأنهم يتبعون ما لا دليل عليه! قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣) ومن يدع مع المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له معبودا آخر، لا حجة له بما يقول، ويعمل من ذلك ولا بينة (٤).

بل إن ذلك يُراعى عند قصص الأولين وذكر أسباب الخروج على الضالين المستبدين، فقد جاء على السنة الفنية أهل الكهف: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ (٥) بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلا إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم (٦)، والحق أن أثر القرآن الكريم في الفكر الإنساني عميق، إنه هو الذي أقام الإيمان على المنطق ورفع راية العقل! تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كالب والنبهي، ولا

(١) سورة يونس: ٣٦

(٢) سورة الإسراء: ٣٦

(٣) سورة المؤمنون: ١١٧

(٤) تفسير الطبري (ج ١٩ - ص ٨٤).

(٥) سورة الكهف: ١٥

(٦) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤٧٢).

أسماء التفكير والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل، ولا أن الدين موجه إليه، وقائم به وعليه. أما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة، وأما ذكر (أولي الألباب) ففي بضع عشرة مرة، وأما كلمة (أولي النهي) أي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه كما ذكرت سابقا.

أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله، وكون المخاطبين والذين يفهمونها ويهتدون بها العقلاء، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشينته وحكمته ورحمته.

وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان في الأرض، من أن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه، وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر، وأعتقهم من هذا الرق، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين، ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤوسهم فحرموها على أنفسهم، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم.

فالإسلام دين العلم والحكمة فقد ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها، فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا القرآن: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (١) ابن عباس: يقول: لا تقل، وقال العوفي عنه: لا ترم أحدا بما ليس لك به علم، وقال محمد بن الحنفية: يعني شهادة الزور، وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله (٢)، ومنه قوله في العلم المأثور في التاريخ: ﴿أَتْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُوا مِن عَلِيمٍ﴾ (٣) أتوني بكتاب منزل ﴿مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن ﴿أَوْ أَثَرُوا﴾ بقية ﴿مِّن عَلِيمٍ﴾ يدل على صحة ما تعبدون، وما تزعمون (٤)، ومنه قوله تعالى في علوم البشر المادية: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْفَىٰ اللَّهُ وَعَدَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (١) أي: بحكم الله في كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل. أكثر الناس ليس

(١) سورة الإسراء: ٣٦

(٢) تفسير بن كثير (ج ٥ - ص ٧٥).

(٣) سورة الأحقاف: ٤

(٤) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٦١٦).

(١) سورة الروم: ٦-٧

لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكيا في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي، وقال ابن عباس في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال^(١).

وقوله فيها دون العلم الروحي: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيةها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها، وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه^(٣).

وقوله في العلم العقلي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^(٤) ومن الناس من يخاصم في توحيد الله وإفراده بالألوهة بغير علم منه بما يخاصم به ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقول: وبغير بيان معه لما يقول ولا برهان، ﴿وَلَا كِتَابٍ﴾ يقول: وبغير كتاب من الله أتاه لصحة ما يقول، ﴿مُنِيرٍ﴾ يقول ينير عن حجته. وإنما يقول ما يقول من الجهل ظنا منه وحسابنا^(٥)، فالظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظري، بدليل مقابله بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين.

وقوله في العلم الطبيعي: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُومُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) ومن دلائل القدرة الربانية: خلق السموات وارتفاعها بغير عمد، وخلق

(١) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ٣٠٥).

(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

(٣) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤٦٦).

(٤) سورة الحج: ٨.

(٥) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ٥٧٢).

(١) سورة الروم: ٢٢.

الأرض مع اتساعها وامتدادها، واختلاف لغاتكم وتباين ألوانكم، إن في هذا لَعِبْرَةٌ لِّكُلِّ ذِي عِلْمٍ وبصيرة^(١) بكسر اللام أي علماء الكون، ومثله قوله بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر، واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢) إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر^(٣)، فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها.

وعظم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تغلوه عظمة أخرى ففي قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٤) والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان^(٥).

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم والبرهان أن قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾^(٦) إنما حرم ربي الفواحش والشرك به، أن تعبدوا مع الله إلها غيره ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يقول: حرم ربكم عليكم أن تجعلوا معه في عبادته شركاً لشيء لم يجعل لكم في إشراككم إياه في عبادته حجة ولا برهاناً، وهو "السلطان" ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾، يقول: وأن تقولوا إن الله أمركم بالتعري والتجرد للطواف بالبيت، وحرم عليكم أكل هذه الأنعام التي حرمتها وسيتموها وجعلتموها وسائل وحوامي، وغير ذلك مما لا تعلمون أن الله حرمه، أو أمر به، أو أباحه، فتضيفوا إلى الله تحريمه وحظره والأمر به، فإن ذلك هو الذي حرمه الله عليكم دون ما تزعمون أن الله حرمه، أو تقولون إن الله أمركم به، جهلاً منكم بحقيقة ما تقولون وتضيفونه إلى الله^(١).

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٠٦).

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

(٣) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ٥٤٤).

(٤) سورة المجادلة: ١١.

(٥) تفسير السعدي (ج ١ ص ٨٤٦).

(٦) سورة الأعراف: ٣٣.

(١) تفسير الطبري (ج ١٢ - ص ٤٠٤).

قلت وقد ذكر الله تعالى العقل في القرآن في معرض المدح لأهله في مواضع يطول عددها وهو جدير بالمدح الكامل إذ به عرف الحق سبحانه، ومعرفته تعالى أكمل الفضائل وبه أيضا زجر النفس عن الهوى الموقع لها في شقاوة الأبد وحلول دار الجحيم والجدب لها إلى الخوف المفضي بها إلى سعادة الأبد والفلاح المخلد لها في دار النعيم حيث يقول الله العظيم ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (١) فأما من عتا على ربه، وعصاه واستكبر عن عبادته. وآثر متاع الحياة الدنيا على كرامة الآخرة، وما أعد الله فيها لأولياؤه، فعمل للدنيا، وسعى لها، وترك العمل للآخرة ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ يقول: فإن نار الله التي اسمها الجحيم، هي منزله ومأواه، ومصيره الذي يصير إليه يوم القيامة (٢).

قلت ومما يدل أيضا على أن العقل سبب النجاة من المحذور أنه لا يفكر في عواقب الأمور ويخاف من تقلب الدهور إلا عاقل حذور بالهموم مغمور وأما غير العاقل فهو سأل ساه لاه غافل.

(١) سورة النازعات: ٤١

(٢) تفسير الطبري (ج ٢٤ - ص ٢١٢).

المطلب الثالث : العلاقة بين العقل والفكر

التفكر يقود إلى المعرفة: معنى ذلك أن توجيه العقل للتفكر في خلق الله والاعتبار بأحداث الحياة، وربطها به سبحانه، هو الطريق الأساسي للمعرفة: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (١) أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا (٢).

والمتدبر لآيات القرآن يجدها في مواضع كثيرة تحت الناس على الانتفاع بالآيات والرسائل الإلهية والاعتبار بها؛ لأنها الطريق الأكيد لمعرفة الله عز وجل ومن ثم عبوديته ..

تأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأَخْلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣) إن في السموات السبع اللاتي منهن نزول الغيث، والأرض التي منها خروج الخلق أيها الناس ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: لأدلة وحجج للمصدقين بالحجج إذا تبينوها ورأوها. وفي خلق الله إياكم أيها الناس، وخلق ما تفرق في الأرض من دابة تدب عليها من غير جنسكم ﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: حجج وأدلة لقوم يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرون بها، ويعلمون صحتها (٤).

وفي مقابل الحث القرآني على الانتفاع بالآيات والاستدلال من خلالها على أسماء الله وصفاته، نجد الترهيب الشديد لمن كذب بهذه الآيات أو غفل عنها ولم يعتبر بها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ (٥) وأي الناس أظلم لنفسه ممن وعظه الله بحججه، وآي كتابه، ورسله، ثم أعرض عن ذلك كله، فلم يتعظ بمواعظه، ولكنه استكبر عنها. وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ يقول: إنا من الذين اكتسبوا الآثام، واجترحوا السيئات منتقمون (٦).

(١) سورة غافر: ٨١

(٢) تفسير بن كثير (ج ٧ - ص ١٥٩).

(٣) سورة الجاثية: ٦

(٤) تفسير الطبري (ج ٢٢ - ص ٦٠).

(٥) سورة السجدة: ٢٢

(٦) تفسير الطبري (ج ٢٠ - ص ١٩٣).

وما أكثر الآيات التي يغفل عنها الناس: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١) (يخبر تعالى عن (غفلة) أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات (٢).
خلق الله الإنسان وركب فيه العقل، وأمره أن يستخدم هذا العقل في طاعة الله تعالى وأن يفكر في مخلوقاته.

وقد نبه القرآن الكريم إلى أهمية العقل في آيات كثيرة، وكان يصف الكفار بأنهم لا يعقلون ولا يفقهون، وكان ينبه إلى أن آياته لا يستفيد منها إلا أولو النهى والألباب وهي العقول السليمة.

ولا أعني بهذا الفصل ما عناه المعتزلة من إسناد كل شيء إلى العقل حتى جعلوا العقل حاكمًا على الشرع مقدمًا عليه وقالوا بالتحسين والتفويض العقليين، بل جعلوا التوحيد والثواب عليه والعقاب على تركه ثابت بالعقل (٣).

كما أنني لا أعني بهذا الفصل ما عناه أرباب الكلام من الإتيان بالمسائل المعقدة من الفلسفة اليونانية، لأن القرآن منزّه عن مثل ما وصلت إليه الفلسفة اليونانية من الطرق الجدلية العقيمة والسفسطة الذميمة.

وإنما عنيت بهذا الفصل إبراز الأدلة السمعية التي نبهت العقل وأيقظته بكل بساطة ووضوح وبعد عن الجدل العقيم، والتي سلكت بالعقل أقرب الطرق وأيسرها لبيان حقيقة وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة لا شريك له.

وأما من تنكر للعقل وأهمله وجعل دلالة القرآن سمعية خبرية لم ينبه فيها على الأدلة العقلية، فهو مخطئ كذلك أشد الخطأ، وفي هذا موافقة للمتجهمين على أدلة القرآن من الفلاسفة

(١) سورة يوسف: ١٠٥

(٢) تفسير بن كثير (ج ٤ - ص ٤١٨).

(٣) انظر مدارج السالكين لابن القيم (٤٨٨/٣).

الذين يقولون بأنها أدلة تعرف بالخبر المجرد دون استناد إلى العقل الصحيح، فليس في القرآن أدلة عقلية على رأيه لأنه يقدر في الدلائل العقلية مطلقاً معتبراً أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه المتكلمون وأن القرآن إنما يدل على الخبر فقط. والسبب الذي أوقع هؤلاء في هذا الفهم ظنهم أن كون الدليل شرعياً يقابل بكونه عقلياً، وهذا خطأ واضح، فالدليل الشرعي يقابله البدعي، والدليل الشرعي قد يكون سمعياً وقد يكون عقلياً^(١).

وكل دليل سمعي جاء في القرآن وإنما يكون تدبره وفهمه والتفكير فيه بالعقل، فالأدلة الكونية مثلاً هي أدلة سمعية ولكن النظر في السماوات ونجومها والأرض وجبالها والتنظيم الدقيق بين أجزاء الكون لا يكون إلا بالعقل. وكذلك الأمثال المضروبة في القرآن هي أدلة سمعية، وللعقل دور كبير في ترتيب المقدمات والنتائج والاتعاظ بما جرى للأقوام السابقين والنظر في آثارهم الباقية. وكذلك عندما يذكر القرآن في آياته بنعم الله على الإنسان ووجوب شكر المنعم وتوحيده وعبادته، فهي آيات سمعية، لكن بغير العقل لا نستطيع التفكير في عظمة هذه النعم وكثرتها، والعقل مقر بأن الإنسان لم ينعم على نفسه بهذه النعم؛ لأنه يفرق بين المنعم والمنعم عليه. وبهذا يتبين أن أدلة القرآن كلها سمعية عقلية، سمعية: لورودها في القرآن، وعقلية: لأن للعقل قدرة على التفكير فيها والنظر والاعتبار إذا سلك المسلك الصحيح لانقضاء الفرق بين نتيجة العقل الصريح والمنقول الصحيح.

(١) انظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١١٦/١-١١٧ والفتاوى ٢٩٦/٣ و١٣٧/١٤ والنبوات ص ٤٨ وانظر مدارج السالكين ٤٨٨/٣-

المبحث الخامس

دلالات لفظ العقل في القرآن أثرها في توجيه الأفكار وحمايتها

المطلب الأول : دلالات حجية العقل :

إن موضوع حجية العقل من وجهة نظر الإسلام ثابت في مقامه، ولم يتردد علماء الإسلام من الابتداء إلى الآن - باستثناء قليل منهم - في سندية العقل، واعتبروه أحد المنابع الأربعة (الأصلية):

١- الدعوة إلى التعقل من قبل القرآن:

علينا أن نستخرج دلالات حجية العقل من القرآن نفسه. لقد صادق القرآن من جهات مختلفة - وأؤكد خاصة على الجهات المختلفة على حجية العقل، وقد أشير إلى مورد واحد فقط من ستين إلى سبعين آية من القرآن إلى هذه المسألة وهي: إننا عرضنا هذا الموضوع لتعقلوا (وتتدبروا) فيه.

وعلى سبيل المثال اذكر نموذجاً، لإحدى التعبيرات العجيبة للقرآن، يقول القرآن: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١)، وأوضح أن غرض القرآن من الصم والبكم، ليس الصم والبكم العضوي، بل، الغرض منهما هم الأشخاص الذين لا يريدون أن يستمعوا الحقيقة، أو أنهم يسمعونها ولا يعترفون بألسنتهم. فالأذن التي تعجز عن سماع الحقائق وتستعد فقط لسماع المهملات والأراجيف أن هذه الأذن صماء من وجهة نظر القرآن، واللسان الذي يستخدم فقط في بث الأراجيف، يعتبر لساناً أبكما حسب رأي القرآن. ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ هم الذين لا ينتفعون من أفكارهم، يعتبر القرآن مثل هؤلاء الأشخاص - الذين لا يحق أن يطلق عليهم اسم "الإنسان" بالحيوانات ويخاطبهم بالبهائم.

وفي آية أخرى، يبحث ضمن عرض مسألة توحيدية، حول التوحيد الأفعالي والتوحيد الفاعلي، بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢)، وبعد عرض هذه المسألة الغامضة، التي لا يستطيع كل عقل أن يدركها ويتحملها، وأنها تهز الإنسان حقيقة، يقول تعالى تنمة الآية: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(١) سورة الأنفال: ٢٢

(٢) سورة يونس: ١٠٠

- في هاتين الآيتين اللتين ذكرتهما بعنوان المثال، يدعو القرآن إلى التعقل بالدلالة المطابقية كما في اصطلاح المنطقيين. وهناك آيات كثيرة أخرى يصادق القرآن على حجية العقل فيها بالدلالة الإلزامية (إذا دل وجود أمر على أمر آخر، تطلق عليه أسم الدلالة، وللدلالة نوعان - الدلالة المطابقية: أي أن يدل اللفظ على تماما معناه، مثل أن نقول: سيارة ونقصد جميع أجزائها.

- **الدلالة التضمنية:** أي أن يدل اللفظ على جزء من معناه، مثل أن نقول: هنا توجد السيارة، ونفهم منها أن ماكنة السيارة موجودة أيضا.

- **الدلالة الإلزامية:** حيث يدل اللفظ فيها على موضوع غير معناه (الظاهري) مثل: أن نسمع اسم (حاتم) ويخطر على بالنا الجود والسخاء.

وبعبارة أخرى: يقول أفوالا لا يمكن أبدا قبولها، إلا بعد قبول حجية العقل مثلا يطلب من الخصم استدلالا عقليا: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ...﴾ (١) أي هاتوا بينتكم (٢) يريد أن يوضح بالدلالة الإلزامية هذه الحقيقة، وهي أن العقل حجة وسند، أو أنه يرتب قياسا منطقيًا لإثبات وحدة واجب الوجود، بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٣) لو كان في السماوات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له (فسدتا) يقول: لفسد أهل السماوات والأرض ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٤) يقول جل ثناؤه: فتنزیه لله وتبرئة له مما يفتری به علیه هؤلاء المشركون به من الكذب (٥).

هنا يرتب القرآن قضية شرطية، يستثني فيها المقدم ولا يذكر التالي، ووقع كل هذا التأكيد على العقل، يريد القرآن أن يبطل ادعاء بعض الأديان، التي تقول بأن الأيمان أجنبي عن العقل، ولا بد لمن يريد الإیمان أن يعطل فكره، ويشغل قلبه فقط لكي ينفذ فيه نور الله.

٢- الاستفادة من نظام العلة والمعلول:

الدليل الآخر الذي يثبت أن القرآن يعتقد بأصالة العقل، هو أنه يذكر المسائل في علاقاتها العلية والمعلولية. إن علاقة العلة والمعلول وأصل العلية أساس للتفكرات العقلية، والقرآن

(١) سورة البقرة: ١١١

(٢) تفسير الطبري (ج ٢ - ص ٥١٠).

(٣) سورة الأنبياء: ٢٢

(٤) سورة الأنبياء: ٢٢

(٥) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ٤٢٥).

يحترمها ويستعملها، وبالرغم من أن القرآن يتكلم باسم الله، والله هو الخالق لنظام العلة والمعلول، وبالطبع فإن الحديث يدور حول ما وراء الطبيعة، ويعتبر نظام العلة العلية ما دونها، بالرغم من كل ذلك لا ينسى القرآن هذا الموضوع، وهو أن يذكر شيئاً عن نظام السبب والمسبب في العالم، ويعتبر الحوادث والوقائع مقهورة لهذا النظام.

وعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١) من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها (٢).

يريد أن يقول بأنه : لا شك أن كل المصائر بإرادة الله، ولكن الله لم يفرض المصير على البشر من ما وراء اختيار البشر وإرادتهم وأعمالهم، ولا يعمل عملاً عبثاً، بل إن للمصائر نظاماً أيضاً، وأن الله لا يغير مصير أي مجتمع عبثاً، وبدون وجه، إلا أن يغيروا بأنفسهم فيما يرتبط بهم، مثل الأنظمة الأخلاقية والاجتماعية وكل ما يتعلق بواجباتهم الفردية.

ومن طرف آخر يرغب القرآن المسلمين بمطالعة أحوال وأخبار الأمم السالفة، لكي يعتبروا منها. وطبيعي أنه لو كانت قصص الأقوام والأمم والأنظمة على أساس عبث وكانت مصادفة، وإذا كانت المصائر تفرض من الأعلى إلى الأسفل، فلم يكن هناك معنى للمطالعة وأخذ العبرة. يريد القرآن بهذا التأكيد أن يذكر، بأن هناك أنظمة موحدة، تحكم مصائر الأمم، وبهذا الترتيب لو تشابهت ظروف مجتمع ما مع ظروف مجتمع آخر، فإن مصير ذلك المجتمع يكون في انتظار المجتمع الآخر، وإن قبول الأنظمة بالدلالة الإلزامية، في كل هذه المواضيع، يؤيد نظام العلية وقبول العلاقة العلية يعني قبول حجية العقل.

٣- فلسفة الأحكام:

من الدلائل الأخرى لحجية العقل من وجهة نظر القرآن، هو أن القرآن يذكر فلسفة للأحكام والقوانين، ويعني هذا الأمر: أن الحكم الصادر معلول لهذه المصلحة، يقول علماء الأصول: بأن المصالح والمفاسد، تقع في مجموعة علل الأحكام، مثلاً يقول القرآن في آية: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (٣) وفي آية أخرى يذكر فلسفتها: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

(١) سورة الرعد: ١١

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤١٤).

(٣) سورة الأنعام: ٧٢

(١) يذكر الأثر الروحي للصلاة، وأنها كيف ترفع الإنسان، ويسبب هذا الاعتلاء ينزجر الإنسان وينصرف عن الفواحش والآثام.

وعندما يذكر القرآن الصوم ويأمر به، يتبع ذلك بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ (٢) وهكذا في سائر الأحكام، مثل الزكاة والجهاد و...، حيث يوضح في كل منها من الناحيتين الفردية والاجتماعية.

وبهذا الترتيب: فإن القرآن يمنح الأحكام السماوية جانبا دنيويا وارضيا، بالرغم من أنها ما ورائية (ما وراء الطبيعة)، ويطلب من الإنسان أن يتدبر فيها ليتضح له واقع الأمر، ولا يتصور أن هذه الأحكام مجرد مجموعة من رموز تفوق فكر الإنسان.

٤- النضال مع انحرافات العقل:

والدليل الآخر الذي يدل على أصالة العقل لدى القرآن - وأوضح من الدلائل السابقة - هو نضال القرآن مع أعداء العقل. لتوضيح هذا الموضوع لا بد من ذكر مقدمة:

يتعرض فكر الإنسان وعقله إلى الخطأ في كثير من الموارد. هذا الموضوع شائع ورائج عندنا جميعا، ولا ينحصر ذلك بالعقل، بل أن الحواس والأحاسيس ترتكب الخطأ أيضا، فمثلا ذكروا عشرات الأخطاء لحاسة البصر. وبالنسبة للعقل، ففي كثير من الأحيان يرتب الإنسان استدلالاً، ويحصل على نتيجة بناء عليه، وبعد ذلك يرى أحيانا أن الاستدلال كان خطأ من الأساس.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: هل يجب تعطيل القوة الفكرية بسبب بعض الأعمال الخاطئة للعقل؟

وفي جواب هذا السؤال: كان السفسطائيون (٣) يقولون بعدم جواز الاعتماد على العقل، وإن الاستدلال أساسا على عبث.

وفي هذا المجال: رد الفلاسفة على أهل السفسطائية ردودا قوية، ومن ضمنها أن سائر الحواس أيضا تخطئ مثل العقل، ولكن أحدا لم يحكم بعدم الاستفادة منها. وبما أن ترك العقل غير ممكن، لذلك اضطر المفكرون أن يعزموا على إيجاد حل لسد طرق الخطأ.

(١) سورة العنكبوت: ٤٥

(٢) سورة البقرة: ١٨٣

(٣) السفسطائيين هم جماعة من اليونان كانت لديهم قدره فائقة على التلاعب بالألفاظ اللغوية واثبات صحة القضايا المتناقضة في وقت واحد وجعل الحق باطل والباطل حق وذلك من خلال معرفتهم الشديدة بجميع مفردات اللغة والتلاعب بها.

وفي البحث حول هذا الموضوع، لاحظوا أن كل استدلال ينقسم إلى قسمين: المادة والصورة، تماما مثل بناء استخدم فيه مواد البناء، كالإسمنت والحديد والجص (المادة) وأتخذ في النهاية شكلا خاصا (الصورة)، ولكي يكون البناء محكما جيدا من كل النواحي، لا بد من استخدام مواد مناسبة في بنائه، ولا بد أن تكون خارطته صحيحة دون نقص، وفي الاستدلال أيضا لا بد أن تكون مادته وصورته صحيحتين.

وللبحث والتحقيق حول صورة الاستدلال وجد المنطق الأرسطي أو المنطق الصوري. وكان واجب المنطق الصوري أن يعين صحة أو عدم صحة صورة الاستدلال، وأن يساعد العقل كي لا يتعرض للخطأ في صورة الاستدلال (من الأخطاء التي تعرض لها العلم منذ عدة قرون، وأصبح منشأ فهم خاطئ للكثير هو تصور البعض بأن وظيفة منطق أرسطو، هي تعيين صحة أو عدم صحة مادة الاستدلال أيضا، وبما أن منطق أرسطو لم يستطع ذلك حكموا بعدم فائدة اللجوء إليه. ومع الأسف، فإن هذا الخطأ يتكرر كثيرا في عصرنا أيضا.

المطلب الثاني: دلالة العقل في القرآن وأثرها في حماية الأفكار:

فالقرآن الكريم هو أساس حماية الفكر ومنطلق الاعتدال والتوسط، يدعو إلى ذلك بآياته وأحكامه وأخلاقه، والأمن الفكري مطلب لتربية الأجيال والناشئة في عصر الانفتاح والعولمة والتمدن والحضارة وانفتاح الشرق على الغرب، فالأمن الفكري إذا تحقق في الأمة يكون مصدر عزها وتطورها ونموها حضارياً وثقافياً، بل إن تحقيق الأمن الفكري يعد سياجاً قوياً وحصناً منيعاً لحماية المجتمع عامة والشباب خاصة من أي فكر دخيل أو هدام.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (١) أي عدولاً وخياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، ووسطاً بين الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى وبين من جفا عنهم كاليهود، وسطاً في الشريعة لا تشديدات لليهود وأخبارهم ولا تهاون النصارى (٢)، فلذلك كانوا "أمة وسطاً" كاملين معتدلين ليكونوا شهداء على الناس «بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر الأديان ولا يحكم عليهم غيرهم»، روي عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: (كنا عند النبي ﷺ فخط خطأ وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده على الخط الأوسط فقال: هذا سبيل الله ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣).

وكذا قوله تعالى في فاتحة الكتاب العزيز ﴿أَمِدْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٤) فهي صريحة في تحديد المنهج الوسط البعيد عن الغلو والتطرف؛ ذلك أنها بينت أن هذا الصراط هو صراط الذين أنعم الله عليهم. قال الطبري: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع العرب.

والقرآن الكريم حمى الفكر وثبت أسس الأمن الفكري عن طريق الملامح التالية:
القرآن الكريم نقى عقل المسلم من الخرافة، والسحر، والشعوذة، والوهم، وادعاء علم الغيب، وذلك حماية للعقل كي لا تسيطر عليه الخرافات والأوهام التي يهذى بها أهل الشعوذة

(١) سورة البقرة: ١٤٣

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٧٠).

(٣) سورة الأنعام: ١٥٣

(٤) سورة الفاتحة: ٦

والدجل ومن نحا نحوهم، ودعا القرآن الكريم إلى استخدام العقل للوصول إلى الإيمان بالله والتمسك بمنهجه عقيدة وشريعة قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (١) قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به (٢)، والقرآن الكريم لا يرضى للمسلم أن يكون إمعة يأخذ برأي غيره أو ينقاد بغير تفكير ولا تبين، بل الواجب أن ينظر ويفكر ويتفقه حتى يحقق الاعتدال في التفكير عملاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣) قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك، السائلينك الآيات على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا، أيها القوم، ماذا في السموات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله، من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحبها = وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها، وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها، فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم موعظة ومعتبرا، ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: وما تغني الحجج والبرهان والرسائل المنذرة عبادة الله عقابه، عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى لهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار، لا يؤمنون بشيء من ذلك ولا يصدقون به (٤).

فالقرآن الكريم دعا إلى تنقية العقل من الأحكام المبنية على الظنون والتخمينات، فالظن في الإسلام لا يغني عن الحق شيئاً. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٥) أي: لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» (٦).

كما حذر القرآن من إتباع الهوى لأنه يحول بين الشخص وبين الوصول للمعرفة الصحيحة

(١) سورة يس: ٦١

(٢) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ٥٨٤).

(٣) سورة يونس: ١٠١

(٤) تفسير الطبري (ج ١٥ - ص ٢١٥).

(٥) سورة النجم: ٢٨

(٦) تفسير بن كثير (ج ٧ - ص ٤٥٩)، والحديث في صحيح البخاري برقم (٥١٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله

عنه.

قال: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾^(١) يقول تعالى ذكره: ولو عمل الرب تعالى ذكره بما يهوى هؤلاء المشركون وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور والصحيح من التدبير والفاسد، فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثار أكثرهم الباطل على الحق، لم تقر السموات والأرض ومن فيهن من خلق الله، لأن ذلك قام بالحق^(١).

فالمسلمون يعيشون في زمن انفتحت فيه الدنيا على مصراعيها؛ وصرنا نعيش في عالم يجتمع في غرفة واحدة، فالقنوات الفضائية دخلت البيوت، والمواقع الإلكترونية استقطبتها أروقة الدور والعمل، فصار المرء يتلقى آراء عديدة، وتوجهات متغايرة، تجعله يتابعها وهو في غرفته ليل نهار.

وفي خضم هذه التحديات والاختلافات؛ يجدر بالمسلم، أن تكون لديه رؤية ناضجة في مواجهة هذه التحديات، فإن فيها الحق والباطل، والصواب والخطأ، ومن المهم أن يكون لدينا طرق واضحة للتعامل مع هذه التحديات والاختلافات، فمواجهتنا لهذه التحديات الثقافية تتطلب منا قوة عقديّة، وركائز ثابتة، تأخذنا لبر الأمان، وشاطئ النجاة.

ولا بدّ لسائل أن يقول: وكيف نحصن أنفسنا وفكرنا من الداخل، خشية أن يضلنا ما هو زائغ عن المنهج القويم، وما الأسس والأصول التي تكون لدينا حصانة شرعيّة، نستطيع — بإذن الله — بعدها أن نردّ الغلط إذا أوردت الشبهات، وخصوصاً في ظلّ ما يمارس الآن من الحرب الإعلاميّة الغازية للأفكار والعقول المسلمة؟

ومما يمكن تحصين النفس به وحماية الفكر من خلاله حث القرآن على مراعاة العقل في حماية الفكر الإنساني من الانحراف والضلال، هذا وقد أتى العقل بدلالات ومعاني شتى في القرآن موجّهة وحامية للفكر عن الانحراف.

فقد أتى العقل يحمل دلالات مشتركة لابد فيها من مراعاة السياق القرآني، ومجمل تلك المعاني تدور حول العقل بمعنى القوة " المتهيئة " لقبول العلوم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) سورة المؤمنون: ٧١

(١) تفسير الطبري (ج ١٩ - ص ٥٧).

يَعْقُلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ ﴿١﴾ وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتزلعون منه (٢) وهذه القوة هي التي يحصل بها التميز بين الحسن والقبيح، وكذلك يكون بها العلم بصفات الأشياء من حيث الكمال والنقصان، ويسمى العقل قلبا كما يسمى القلب عقلا، قال الحق سبحانه: ﴿وَطِيعَ عَلِيٍّ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١) ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣) إن في إهلاكنا القرون التي أهلكتها من قبل قريش ﴿لَذِكْرًا﴾ يتذكر بها ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يعني: لمن كان له عقل من هذه الأمة، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم، خوفا من أن يحل بهم مثل الذي حل بهم من العذاب (٤).

وقد ورد في أحاديث رسول الله ﷺ ما يؤكد هذا المعنى ((واعقل عقل قلبك)) (٥)، ((وليعقل قلبك)) (٦) وذكر الفراء أيضا أنه جائز في العربية أن تقول: ما لك قلب، وما قلبك معك؛ تقول ما عقلك معك، وأين ذهب قلبك؟ أين ذهب عقلك؟.

وعلى هذا المعنى فإن الفعل المتهیی لتلقي الأفكار وقبول العلم لابد أن يكون محميا في تلقي هذه العلوم والأفكار لمنهج القرآن وإلا فإن مجرد التهيء لتلقي العلوم والأفكار بالفعل المجرد بدون وحي عاصم قد يوقع المرء في ضلالات وانحرافات نشاهد كثيرا منها في العالم

(١) سورة العنكبوت: ٤٣

(٢) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ٢٧٩).

(١) سورة التوبة: ٨٧

(٢) تفسير بن كثير (ج ٤ - ص ١٩٦).

(٣) سورة ق: ٣٧

(٤) تفسير الطبري (ج ٢٢ - ص ٣٧٢).

(٥) المستدرک علی الصحیحین للحاکم، باب تعبير الرويا (ج ٤ - ص ٤٣٥ - رقم ٨١٨٨)

(٦) الراوي: أبو قلابة عبد الله بن زيد المحدث: ابن كثير - المصدر: تفسير القرآن - الصفحة أو الرقم: ١٩٧/٤ خلاصة حكم المحدث: مرسل.

أبو قلابة (١٠٤ هـ): عبد الله بن زيد بن عمرو، ويقال ابن عامر، الإمام شيخ الإسلام أبو قلابة الجرّمي البصري. روى عن أنس بن مالك الأنصاري وعبد الله بن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان والنعمان بن بشير وثابت بن الضحاک، وآخرين. وعنه جملة منهم: أيوب السختياني وحسان بن عطية وحמיד الطويل ويحيى بن أبي كثير. قال حماد بن زيد: سمعت أيوب ذكر أبا قلابة فقال: كان والله من الفقهاء ذوي الألباب. عن أيوب قال: وجدت أعلم الناس بالقضاء أشدهم منه فرارا، وأشدهم منه فرقا، وما أدركت بهذا المصير رجلا كان أعلم بالقضاء من أبي قلابة. وعن أبي خشيئة صاحب الزيادة: ذكر أبو قلابة عند محمد بن سيرين، فقال: ذاك أخي حقا. توفي سنة أربع ومائة. (البداية والنهاية (٩/ ٢٤٠).

المعاصر بسبب الابتعاد عن وحي القرآن.

ومن دلالات العقل أيضا التثبت في الأمور، يقول الرسول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (١) نزل به ملك كريم أمين وهو جبريل، عليه السلام، ذو مكانة عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد، سالما من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له (٢).

ومنها قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٣) يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون -في نفس الأمر- كاذبا أو مخطئا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عن إتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال (٤)، وخاصة في الأمور التي لا يستطيع العقل بمفرده أن يصل فيها إلى نتائج قطعية ثبوتاً أو نفيًا.

ومن دلالات العقل في القرآن بأن جعله نوراً يهدي به الناس وطالبهم باستعماله والتحاكم إليه وسماء نورا في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥) هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا، أي: في الضلالة، هالكا حائرا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: يهتدي (به) كيف يسلك، وكيف يتصرف به. والنور هو: القرآن، كما رواه العوفي وابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السدي: الإسلام. والكل صحيح. ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي﴾ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إِن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك

(١) سورة الشعراء: ١٩٤

(٢) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ١٦٢).

(٣) سورة الحجرات: ٦

(٤) تفسير بن كثير (ج ٧ - ص ٣٧٠).

(٥) سورة الأنعام: ١٢٢

النور اهتدى ومن أخطأه ضل)» (١) كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١) يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك (٢) وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٣) أفمن يمشي منكسًا على وجهه لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، أشد استقامة على الطريق وأهدى، أمَّن يمشي مستويًا منتصب القمة سالمًا على طريق واضح لا اعوجاج فيه؟ وهذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن (٤).

وحين يجادل القرآن الماديين والدهريين وأرباب الملل والنحل إنما يجادلهم بالبرهان ويدعوهم إلى إمعان النظر والفكر، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰٔقِلُونَ﴾ (٥) فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججه لرسله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم. فوصفهم ربنا جل ثناؤه بأنهم: ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبر صحة (نبوة) الرسل، وبطول الكفر. وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون، من الشرك بالله، وتكذيب رسله؛ فوصفهم الله بتركهم أعمالها في الحق، بأنهم لا يبصرون بها (٦).

وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، آيات كتاب الله، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم

(١) تفسير بن كثير (ج ٣ - ص ٣٣٠).

(١) سورة البقرة: ٢٥٧.

(٢) تفسير بن كثير (ج ١ - ص ٦٨٥).

(٣) سورة الملك: ٢٢.

(٤) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٦٣).

(٥) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٦) تفسير الطبري (ج ١٣ - ص ٢٧٨).

يعرضون عنها، ويقولون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١) أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، ف ﴿وَالْغَوَافِيهِ﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكنوا - مع قدرتكم - أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، هذا لسان حالهم، ولسان مقالهم، في الإعراض عن هذا القرآن، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿تَعْلَمُونَ﴾ وهذه شهادة من الأعداء، وأوضح الحق، ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلبون، فإن الحق، غالب غير مغلوب، يعرف هذا، أصحاب الحق وأعداؤه (١).

وقد حمل القرآن على المقلدين الذين يعطلون عقولهم ولا يستعملونها، فقال في موضع ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢) إن شر ما دب على الأرض من خلق الله عند الله الذين يسمون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكصون عنه إن نطقوا به، الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيته، فيستعملوا بهما أبدانهم (٣).

وذلك نظير وصف الله إياهم في موضع آخر بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا آلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤) يقول: أفأنت يا محمد، تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلى أدلتك وحججك، فلا يوفقون للتصديق بك أبصاراً، لو كانوا عمياً يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك، ولا يقدر عليه أحد سواي، فكذلك لا تقدر على أن تبصرهم سبيل الرشاد أنت ولا أحد غيري، لأن ذلك بيدي وإلي.

وهذا من الله تعالى ذكره تسلياً لنبيه ﷺ عن جماعة ممن كفر به من قومه وأدبر عنه فكذب، وتعزية له عنهم، وأمر برفع طمعه من إنابتهم إلى الإيمان بالله (٥).

(١) سورة فصلت: ٢٦

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٧٤٨).

(٢) سورة الأنفال: ٢٢

(٣) تفسير الطبري (ج ١٣ - ص ٤٥٩).

(٤) سورة يونس: ٤٣

(٥) تفسير الطبري (ج ١٥ - ص ٩٦).

وهذا ما وجه القرآن به لحماية الفكر في تقليد المخاطبين بأسلافهم في عوائدهم وعاداتهم التي لا يهتدون إلى مواقع الصواب فيها فقال تعالى: ﴿قَلْ أَوَلَمْ يَتَّخِذُوا مِمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا آيَاتٍ مُّبِينًا قُلُوبًا غَافِلِينَ﴾ (١) أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله (٢).

فهنا خاطبهم القرآن باستعمال عقولهم للموازنة بين الأفكار التي ورثوها والأفكار التي تعرض عليهم ليستخلصوا أوجه الهدى والصواب إلى أي الجانبين تميل.

(١) سورة الزخرف: ٢٤

(٢) تفسير بن كثير (ج ٧ - ص ٢٢٤).

إِفْصِيحُ السَّرَائِعِ

منهج القرآن في حماية الأفكار وبيان مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: منهج القرآن في حماية الأفكار بالأدلة الفطرية النفسية.
- المبحث الثاني: منهج القرآن في حماية الأفكار بالأدلة العقلية.
- المبحث الثالث: بيان مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام.
- المبحث الرابع: الفرق بين علماء الفلاسفة وعلماء الكلام ومنهج القرآن في حماية الأفكار.

الفصل الرابع

منهج القرآن في حماية الأفكار وبيان

مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول

منهج القرآن في حماية الأفكار بالأدلة الفطرية النفسية

المطلب الأول: دلالة الفطرة:

الفطرة في اللغة: فعلها ثلاثي وهو فطر، والحالة منه: الفطرة كالجلسة، وهي بمعنى الخلق. قال ابن فارس عن أصل هذه الكلمة (أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه، ومنه الفطرة: وهي الخلق)^(١).

الفطرة تعني: الابتداء والاختراع، ولا خلاف بين هذه المعاني الثلاثة، الخلق، والابتداء، والاختراع، قال ابن عباس، رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأت حفرها. وذكر أبو العباس أنه سمع ابن الأعرابي^(٢) يقول: أنا أول من فطر هذا أي ابتدأه. والفطرة، بالكسر: الخلق^(٣).

(١) مجمل اللغة لابن فارس المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م (ج ١ - ص ٧٢٣).

ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب. قرأ عليه البديع الهمداني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها، وإليها نسبته. من تصانيفه (مقاييس اللغة - ط) ستة أجزاء، و(المجمل - خ) طبع منه جزء صغير، و(الصاحبي - ط) في علم العربية، ألفه لخزانة الصاحب ابن عباد، و(جامع التأويل) في تفسير القرآن، أربع مجلدات، و(النيروز - ط) في نوادر المخطوطات، و(الإتياع والمزاوجة - ط) و(الحماسة المحدثه) و(الفصيح) و(تمام الفصيح) و(متخير الألفاظ - ط) و(ذم الخطأ في الشعر - ط) و(اللامات - ط) و(أوجز السير لخير البشر - ط) في ٨ صفحات، و(كتاب الثلاثة - خ) في الكلمات المكونة من ثلاثة حروف متماثلة، وله شعر حسن. (معجم الأدباء ٤: ٨٠ وانباء الرواة ١: ٩٢).

(٢) محمد بن زياد بن الأعرابي (٢٣١ هـ) محمد بن زياد، أبو عبد الله مولى بني هاشم، المعروف بابن الأعرابي. ولد بالكوفة سنة خمسين ومائة. أخذ عن أبي معاوية الضرير، والمفضل الضبي، والقاسم بن معن، والكسائي. وأخذ عنه إبراهيم الحربي، وعثمان الدارمي، وثلعب، وقال الأزهرى: ابن الأعرابي صالح، زاهد ورع صدوق، حفظ ما لم يحفظه غيره. وله مصنفات كثيرة أدبية، وتاريخ القبائل، وكان صاحب سنة واتباع. توفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين. سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٨٧ - ٦٨٨).

(٣) لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن علي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ - ج ٥ - ص ٥٦.

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ آلَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(١) لا تبديل لخلق الله؛ قال: نصبه على الفعل، وقال أبو الهيثم: الفطرة الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه؛ قال وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾^(٢)؛ أي خلقتني؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣)(٤).

وقال الشيخ السعدي رحمه الله في تعريفها: (هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها وعلى محبة الخير وإيثاره وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب إليه).

ودليل الفطرة راسخ في نفوس البشر إلا ما غير منها، والدليل إذا كان راسخاً في النفس بكونه قوياً لا يحتاج الشخص معه إلى استدلال، ولهذا فهو أصل لكل الأدلة الأخرى الدالة على الإقرار بوجود الرب سبحانه، فهي مؤيدة له ومثبتة للإقرار، ولتقرير أصل هذا الدليل إليك بعض الأدلة على ذلك:

لجوء الإنسان وفزعه إلى خالقه سبحانه عند الشدة والحاجة، سواء كان هذا الإنسان موحداً أو مشركاً عند الشدة والحاجة.

فإن البشر جميعاً يشعرون بحاجتهم وفقدهم، وهذا الشعور أمر ضروري فطري، إذ الفقر وصف ذاتي لهم، فإذا ألمت بالإنسان - حتى المشرك - مصيبة قد تؤدي به إلى الهلاك فزع إلى خالقه سبحانه والتجأ إليه وحده واستغنى به ولم يستغن عنه، وشعور هذا الإنسان بحاجته وفقده إلى ربه تابع لشعوره بوجوده وإقراره، فإنه لا يتصور أن يشعر الإنسان بحاجته وفقده إلى خالقه إلا إذا شعر بوجوده، وإذا كان شعوره بحاجته وفقده إلى ربه أمراً ضرورياً لا يمكنه دفعه، فشعوره بالإقرار به أولى أن يكون ضرورياً.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ

(١) سورة الروم: ٣٠

(٢) سورة الشعراء: ٧٨

(٣) سورة يس: ٢٢

(٤) لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ (ج ٥ - ص ٥٦).

بن منظور: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب (لسان العرب): الإمام اللغوي الحجة. من نسل رويغ بن ثابت الأنصاري. ولد بمصر (وقيل: في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم ولي القضاء في طرابلس. وعاد إلى مصر فتوفي فيها، وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره. الأعلام للزركشي (ج ٧ - ص ١٠٨)

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿١﴾ (١) وإذا مس الإنسان بلاء في جسده من مرض، أو عاهة، أو شدة في معيشتة، وجهد وضيق ﴿دَعَارِيَهُ﴾ يقول: استعاث بربه الذي خلقه من شدة ذلك، ورجب إليه في كشف ما نزل به من شدة ذلك. وقوله: ﴿مُذِيبًا إِلَيْهِ﴾ يقول: تائباً إليه مما كان من قبل ذلك عليه من الكفر به، وإشراك الآلهة والأوثان به في عبادته، راجعاً إلى طاعته (٢).

فرجوع الإنسان وإنابته إلى ربه عند الشدائد دليل على أنه يقر بفطرته بخالقه وربّه سبحانه، وهكذا كل إنسان إذا رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف افتقاره إلى البارئ سبحانه في تكوينه في رحم أمه وحفظه له، وعرف كذلك افتقاره إليه في بقائه وتقلبه في أحواله كلها، وتبقى هذه المعرفة في نفسه قوية لأن الحاجة استلزمته، فتكون أوضح من الأدلة الكلية مثل افتقار كل حادث إلى محدث.

وقد تقدم ذكر الأدلة على أن أول ما يكلف به المكلف: عبادة الله جل وعلا ومما يؤكد تلك الحقيقة هو أن الله تعالى نص على محل النزاع بين الرسل وأقوامهم بقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٣) أي أنهم يولون مدبرين عند طلب عبادة الله وحده دون غيره، ويوضحه كذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (٤) أي: إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرْتُمْ﴾ به واشمأزت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور، ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلْتُمْ﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل وبوأكم هذا المقييل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة (٥). وعلى هذا يكون تقرير هذه الحجة بأمرين:

الأول: لو لم يكن الإقرار بالله تعالى وبربوبيته فطرياً لدعاهم إليه أولاً - إذ الأمر بتوحيده في عبادته فرع الإقرار به وبربوبيته فيكون بعده.

(١) سورة الزمر: ٨

(٢) تفسير الطبري (ج ٢١ - ص ٢٦٢).

(٣) سورة الإسراء: ٤٦

(٤) سورة غافر: ١٢

(٥) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٧٣٣).

الثاني: لو لم يكن الإقرار بالله تعالى وبربوبيته فطرياً لساغ لمعارضتي الرسل عند دعوتهم لهم بقول الله تعالى: **فَاعْبُدُونِ** أن يقولوا: نحن لم نعرفه أصلاً فكيف يأمرنا، فلما لم يحدث ذلك دل على أن المعرفة كانت مستقرة في فطرهم.

ويؤيده الدليل الثالث الذي سيأتي ذكره إن شاء الله. ولم يعرف من ينكر وجوده من أقوام الرسل إلا ما كان من فرعون، ومع هذا فإنكاره كان تظاهراً ولم يكن باطناً كما قال تعالى: ﴿ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَجْبُورًا** ﴾ (١) قال لقد علمت أي يا فرعون ما أنزل هؤلاء أي الآيات التسع إلا رب السموات والأرض بصائر أي بيّنات مكشوفات لا سحر ولا تخيل. ولكنك معاند مكابر، ومثله ﴿ **وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (٢) والبصائر جمع بصيرة بمعنى مبصرة أي بيّنة. أو المراد الحجج بجعلها كأنها بصائر العقول وتكون بمعنى عبرة ﴿ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَجْبُورًا** ﴾ هالكا (٣).

٢) إلزام المشركين بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية:

ووجه الدلالة: إن المشركين لو لم يكونوا مقرين بربوبية الله تعالى لما قرره به، ولهذا كانت تقول الرسل لأقوامهم: ﴿ **قَالَتْ رَسُولُهُمْ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ (٤) الاستفهام إنكاري توبيخي لإنكار الواقع، فقد وقع الشك منهم كما تدل الآية السابقة، وهو حيرة أهل الظلام إذا رأوا النور تحيروا بين باطل ألفوه، وحق جاء إليهم هاديا فارتابوا. وقدم الجار والمجرور ﴿ **فِي اللَّهِ شَكٌّ** ﴾ لأهمية الشك في الله أو لغرابة أن يكون ثمة شك في الله تعالى، وهو الذي فطر السموات والأرض، أنشأهما إنشاء، وفطرهما فطرا، أيكون في وجوده شك، وقد قامت الأدلة وتوافرت البراهين من الوجود بكل أطرافه (٥).

قال ابن تيمية: "فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين، وهذا يبين أنهم

(١) سورة الإسراء: ١٠٢

(٢) سورة النمل: ١٤

(٣) محاسن التأويل المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ (ج ٦ - ص ٥١٩)

(٤) سورة إبراهيم: ١٠

(٥) زهرة التفاسير (ج ٨ - ص ٣٩٩٩).

مفطورون على الإقرار".

والأدلة القاضية بصحة هذا التفسير كثيرة منها:

أولاً: ورود روايات لهذا الحديث تفسر الفطرة منها قوله ﷺ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، وَوَكَيْعٌ، وَمَحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، وَابْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((لَيْسَ مَوْلُودٌ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ)) وَقَالَ وَكَيْعٌ، مَرَّةً: " عَلَى الْمِلَّةِ " (١).

ثانياً: إن الصحابة فهموا من الحديث أن المراد بالفطرة: الإسلام، ولذلك سألوا الرسول ﷺ عقب ذلك عن أطفال المشركين لوجود ما يغير تلك الفطرة السليمة وإلا لما سألوا عنهم وأيضاً فإن أبا هريرة - رضي الله عنه - تلا قوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ خَلْقًا كَثِيرًا﴾ (٢) عقب هذا الحديث. مما يدل أنه فهم أن المراد من الفطرة: الإسلام.

ثالثاً: إن هذا الحديث يؤيده ظاهر القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (٣) فقد عم الله كل الناس بهذه الفطرة في قوله النَّاسَ وَأَضَافَهَا إِلَيْهِ إِضَافَةً مَدْحٍ لَا إِضَافَةَ ذَمٍّ لِأَنَّهَا مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْفِعْلُ أَقْرَهُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّ إِقَامَةَ الْوَجْهِ لِلدِّينِ حَنِيفًا هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وتفسير الآية بهذا المعنى منقول عن عامة السلف.

رابعاً: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: ((إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)) (٤) والحنيفية: الإسلام.

خامساً: لم يذكر النبي ﷺ لموجب الفطرة ومقتضاها شرطاً، بل ذكر ما يمنع موجبها حيث قال: ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه)) (١)

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، (ج ١٢ ص ٤١٢).

(٢) سورة الروم: ٣٠

(٣) سورة الروم: ٣٠

(٤) صحيح مسلم (ج ١٧ - ص ١٩٦، رقم ٢٨٦٥). ورواه الترمذي عن أنس.

(١) رواه البخاري (ج ٣/ص ٢١٨) في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وباب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم (ج ٤/ص ٢٠٤٧-٢٠٤٨/ح ٢٦٥٨) في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

ومع ذلك لم يذكر عند تغييرها بمؤثر خارجي: أو يسلمانه، مما يدل على أن المراد بالفطرة معرفة الله والإقرار به، بمعنى أن ذلك هو مقتضى فطرتهم، وأن حصولها لا يتوقف على وجود شرط وإنما على انتفاء الموانع.

(٣) برهان عقلي:

وهو أنه إذا فرض جدلاً أن معرفة الله تعالى نظرية وطلب إقامة الأدلة على الإقرار به وبربوبيته، فإنه لا بد من وجود علوم ضرورية فطرية أولية تنتهي إليها العلوم النظرية، ولا يمكن إثباتها بعلوم نظرية كذلك لما يلزم من الدور القبلي والتسلسل في المؤثرات، وهذه العلوم الضرورية شرط وجودها صحة الفطرة وسلامتها، فبالفطرة السليمة مع حسن النظر يحصل المطلوب من العلم.

ويوضح هذا أن الذي يستدل لإثبات الرب سبحانه لا بد أن ينقدح في نفسه أن الدليل الذي يستدل به هو بعينه يؤدي إلى مطلوبه الذي شعر به أولاً، فهاهنا أمران: الشعور بمطلوبه، والدليل المؤدي إليه، وبهذا يتضح أنه لولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق لما قام نظر ولا استدلال، والحقيقة المطلوبة هنا: معرفة وجود الله، ويوضحه كذلك: أن مجرد التعليم والتحضيض لا يحصل به العلم والإرادة لولا وجود قوة في النفس قابلة لذلك التعليم وتلك الإرادة، فإن البهائم والجمادات لو علمت وحضضت بوسائل تعليمية كالتالي لبني آدم لما حصل لها ما يحصل لبني آدم مع أن الوسائل متفقة، مما يدل على أن القوابل مختلفة، والقابل هو مقتضى الفطرة.

هذا وإن من فضل الله ورحمته أن فطر كل إنسان على توحيده وابتغاء وجهه بحيث يكون ذلك أصلاً يولد عليه كل مولود وهذا هو معنى حديث الفطرة، فالفطرة هي الإسلام الذي أصله توحيد الله بالإرادة والمحبة، وأما الأديان المحرفة فهي مخالفة للفطرة، وانحراف عن الأصل الذي هو الإسلام ولهذا فإن القلب لا يمكن أن يطمئن ويستقر إلا إلى ما فطره الله عليه من إرادته ومحبته وحده وكل إرادة ومحبة لغير الله فهي عذاب وصرف للفطرة عن أصلها، مهما يكن المراد المحبوب وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: ((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش))^(١) مع أنه دعاء بالتعاسة والانتكاس لمن كان عبداً للدينار فإنه أيضاً تقرير لواقع حاصل، وهو أن كل

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (ج٦ - ص٨١).

من كان معبوده المال فلا بد أن يكون حاله من تعاسة إلى تعاسة، ومن انتكاس إلى انتكاس، لمخالفته لحقيقة فطرته بحب الله وإرادة وجهه وحده.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١).

وذهب طائفة من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما في حديث الأسود بن سريع (٢) من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك الرسول ﷺ فاشتد عليه ثم قال: «ما بال قوم يتناولون الذرية» فقال رجل يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها» (٣).

قال الحسن: ولقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (٤) قالوا ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم من ظُهُورِهِمْ ولم يقل من ظهره ذُرِّيَّتَهُمْ أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ (٥) وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ وقال تعالى: ﴿كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (٦) ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ (٧) أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا، قال الشهادة تكون تارة بالقول وتارة تكون حالا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا﴾

(١) سورة الأعراف: ١٧٢

(٢) الأسود بن سريع التميمي (٦٢ هـ / - ٦٨١ م) صحابي، شاعر، فارس شجاع، شارك في عدة غزوات مع الرسول وقد روي عنه قوله (غزوت مع الرسول أربع غزوات) وشارك في الفتوحات الإسلامية ومنها فتوح العراق والشام وهو أول من قص في مسجد البصرة، قال ابن حجر لما قتل عثمان بن عفان ركب الأسود سفينة وحمل معه أهله وعياله فانطلق فما روي بعد. (معجم الصحابة البيهقي مكتبة دار البيان ج ١ - ص ١٧٥).

(٣) رواه أحمد (٤ / ٢٤) (١٦٣٤٦) واللفظ له، والدارمي (٢ / ٢٩٤)، والحاكم (٢ / ١٣٤). وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٨ / ٢٨٩): مشهور ثابت. وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٥ / ٣١٦): رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير والأوسط .. وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح. وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٤٠٢): وهو كما قال - أي: الحاكم والذهبي.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٢

(٥) سورة الأنعام: ١٦٥

(٦) سورة الأنعام: ١٣٣

(٧) سورة الأنعام: ١٣٠

مَسْجِدَ اللَّهِ شَهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴿١﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٢) كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال كقوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَأَلْتُمُوهُ﴾ (٣).

وقال ابن تيمية رحمه الله في معرض كلامه على إقرار الناس بفطرهم على وجود الخالق سبحانه وتعالى: ولهذا كان أكثر الناس على أن الإقرار بالصانع ضروري فطري وذلك أن اضطرار النفوس إلى ذلك أعظم من اضطرارها إلى ما لا تتعلق به حاجتها ألا ترى أن الناس يعرفون من أحوال من تتعلق به منافعهم ومضارهم كولاية أمورهم ومماليكهم وأصدقائهم وأعدائهم ما لا يعلمونه من أحوال من لا يرجونه ولا يخافونه ولا شيء أحوج إلى شيء من المخلوق إلى خالقه فهم يحتاجون إليه من جهة ربوبيته إذ كان هو الذي خلقهم وهو الذي يأتيهم بالمنافع ويدفع عنهم المضار: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ (٤) قال الفراء: (ما) بمعنى الجزاء. والباء في ﴿يَكُمُ﴾ متعلقة بفعل مضمر، تقديره: وما يكن بكم. ﴿مِنْ نِعْمَةٍ﴾ أي صحة جسم وسعة رزق وولد فمن الله. وقيل: المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي السقم والبلاء والقحط. ﴿فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ أي تضجون بالدعاء (٥). وهكذا من استعراض ما مر تبين لنا كيف أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها كافية لحمايتهم من أي انحراف فكري في الاعتقاد بالله والإقرار به، فإذا وجد المؤثر الخارجي على هذه الفطرة انحرف الفكر يمينا ويسره.

(١) سورة التوبة: ١٧

(٢) سورة العاديات: ٧

(٣) سورة إبراهيم: ٣٤

(٤) سورة النحل: ٥٣

(٥) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، (ج ١٠ - ص ١١٥).

المطلب الثاني: المنهج الفطري أو الوجداني في حماية الأفكار:

يقول الأستاذ محمد المبارك^(١): (القرآن يخاطب الإنسان ويثيره عن طريق منفعه ومصالحه وحاجاته وملذاته، وعن طريق قضايا ومشكلاته؛ ليحرك تطلّعه وقلقه إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة ومصيره البعيد، ويجعله بذلك متهيئاً للتفكير في الله، ومستعداً لقبول نتائج المنطق السليم مع منفعتة)^(٢).

وليس الوجدان هو الإحساس أو صفة من صفاته؛ ولكنّه وعاء الشعور بما ينشأ عن إدراك المعاني.

والقرآن الكريم يثير الوجدان بطريقته الجميلة المعجزة، ويزيل الغشاوة التي ترين على القلب وتجعل الحسّ يتبدّل، ويَعْرِضُ آيات الله في الكون في صورة حيّة ينفعل بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة. وحين ينفعل بها الوجدان ويتأثر، ويتحرك الخيال لتتبع المشهد المعروض وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات، عندئذٍ يوجّهه (أي القرآن الكريم) إلى أنّ وراء هذه المشاهد كلّها قدرة الله المعجزة، وأنّ صانعها وبارئها هو الله، سبحانه وتعالى؛ فينبغي إذن عبادة ذلك الإله القادر، والتوجّه إليه وحده بالعبادة دون سواه؛ والتلقّي عنه في كل أمر من الأمور.

مجالات المنهج الفطري في تقرير الألوهية:

بهذه الطريقة الوجدانية الحية يتحدث القرآن الكريم عن الكون بضخامته ودقته المعجزة؛ وعن ظاهرة الموت والحياة، وعن إجراء الرزق، والأحداث، وقدرة الله التي لا تُحَدُّ، وعن علم الله الشامل للغيب؛ كل ذلك بطريقة فذة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلّها كأنه يراها ويلاحظها لأول مرة؛ فينفعل بها وجدانه ويستيقظ لحقيقة الألوهية:

(١) ففي آيات الله الكونية:

يعرض لنا القرآن الكريم جانباً منها بطريقة تصويرية أخذة، ويرسم لها صورة شاملة متكاملة، ويطوف بنا في مجالات رحبة كثيرة، ثم يخلص إلى النتيجة والتوجيه والقناعة

(١) هو العالم الوزير، والمفكر الداعية: محمد بن عبد القادر بن محمد المبارك الحسني، ولد في دمشق سنة ١٣٣١هـ - ١٩١٢م، ونشأ في رعاية العلامة اللغوي عبد القادر المبارك، وأصل أسرته من الجزائر، هاجر منها والد جدّه إثر الاحتلال الفرنسي سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م)، وقد درس العلوم الدينية، وتابع دراسته النظامية بدمشق وبتانويتها سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م)، كما قرأ على علماء الشام، وبخاصة العلامة الشيخ بدر الدين الحسني، ثم درس الحقوق والآداب بجامعة دمشق، وتخرج فيها سنة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م. (شبكة النور موقع في الانترنت).

(٢) انظر العقيدة في القرآن الكريم، محمد المبارك: (ص ٨١).

الوجدانية، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾ (١).

إن في ذلك أي المذكور من نزول الماء وحصول المنافع الكثيرة به ﴿لآيَةً﴾ أي علامة واضحة على وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي مقتضية لعبادته وترك عبادة غيره. ولكن ﴿لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ﴾ فيتعطون (٢).

٢) وفي ظاهرة الحياة والموت:

يتحدث القرآن الكريم كثيراً عن أصل الحياة وظهورها، وعن ظاهرة الموت بعد الحياة؛ ليهزَّ الوجدان بهذه الظاهرة المعجزة التي كثيراً ما يمرُّ الإنسان بها دون أن يلتفت إليها؛ أو دون أن يعطيها حقها من الاهتمام؛ مع أنها جديرة أن تبعث في نفسه هذا التساؤل: من الذي خلق الحياة في هذه الخلية الحية؟ وعندما تموت هذه الخلية: من الذي سلبها هذه الحياة؟ ولماذا لا تستمر هذه الحياة؟... إلخ.

وهنا يجيء جواب الفطرة ومنهج الفطرة في القرآن؛ ليزيل الغشاوة عن النفوس، ويتحدث عن الموت والحياة حديثاً يهزُّ الوجدان فيصحو من تبلده، ويتيقظ لحقيقة الألوهية والربوبية التي يرجع إليها الموت والحياة؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاً مَا فَطَّرْتُمْ تَفْكَهُونَ * إِنَّا الْمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتنعاً لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٣). أم من هذا الذي يطعمكم ويسقيكم، ويأتي بأقواتكم إن أمسك بكم رزقه الذي يرزقه عنكم. وقوله: ﴿بَلْ لَجَأُوا فِي عُتُوِّ وَنُفُورٍ﴾ (٤) يقول: بل تمادوا في طغيان ونفور عن الحق واستكبار (٥).

٣) وفي الرزق بأنواعه وألوانه:

(١) سورة النحل: ١١

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (ج ٣ - ص ١٠٣).

(٣) سورة الواقعة: ٦٣-٧٤

(٤) سورة الملك: ٢١

(٥) تفسير القرطبي (ج ٢٣ - ص ٥١٤).

وهو من أشد الأمور التي تربط القلب بالله سبحانه وتحرك الفطرة والوجدان؛ إذ يذكرنا الله تعالى في كتابه الكريم بأنه سبحانه هو الذي يُفيضه على الإنسان دائماً، فقد تكفل الله تعالى للإنسان بكل ما يحتاجه؛ من طعام وشراب وملبس ومسكن وهواء، ومن تسخير لكل الموجودات كي ينتفع بها الإنسان، وجعلها تسير على نظام يتفق مع حياة الناس وحاجاتهم.

ويعرض القرآن الكريم موضوع الرزق بطريقة توقظ الفطرة وتحرك الوجدان لمعرفة الله تعالى ولمعرفة أنه سبحانه المتفرد بهذا الرزق والعطاء، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن الأرزاق كلها من عند الله، وأن الإنسان مهما بذل من جهد فهو لا ينشئها في الحقيقة، وإنما يعمل فيها بسنة الله ومشيئته، ولكن المنشئ والخالق هو الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَأَنْتُمْ

تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَتَعَالَى الْمُتَّقِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (١) وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضرورتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدر أن يحصوها، فضلاً عن شكرها، وأداء حقها، فقررهم بمنته، فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكماله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره (٢).

فإذا كان الأمر كله لله تعالى في إنبات الزرع، وإنزال الماء من المزن، وتيسير النار والوقود... فإن في هذا كله تذكرة وتبصرة؛ ثم ينتهي السياق حين يهز الوجدان بذلك العرض كله بدعوة الإنسان، وهو في حالة تأثره وانفعاله الوجداني هذه، أن يسبح باسم ربه العظيم الذي أفاض عليه كل تلك الأرزاق والخيرات، والنعم الظاهرة والباطنة.

٤) وتجري الأحداث حول الإنسان وفي خاصة نفسه من مولده إلى مماته:

بعضها أحداثٌ كونية: كالليل والنهار وتعاقبهما المستمر، وطلوع الشمس وغروبها، وطلوع القمر وتدرج أوجهه من أول الشهر حتى يكون بدرًا؛ ثم يتضاءل حتى يختفي، والسحاب والمطر والرعد والبرق، وتعاقب الفصول، وبعضها أحداثٌ من محيط البشر: من ميلاد

(١) سورة الواقعة: ٦٣-٧٤

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٨٣٥).

وموت، وصحة وضعف، وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة، وغنى وفقر، وعز وذل.

وفي ختام هذه الفقرة حسبنا أن نؤكد أن القرآن الكريم يلفت النظر إلى خصائص الفطرة والمواقف العلمية التي تعيد إليها نقاءها وصفاءها باعتبار أن هذا كله يصلح منهجياً إلى اعتبار الفطرة قاعدة من قواعد أخرى، فيتكون منها جميعاً منهج خاص يتميز به الإسلام حين يصطنعه منهجاً لبناء العقيدة الصحيحة في نفوس الأفراد والجماعات.

المطلب الثالث : القرآن يتوجه بالخطاب إلى المشاعر :

إن القرآن الكريم يخاطب في الإنسان قلبه ووجدانه حتى يثير تلك الفطرة الكامنة فيه، وحتى لا يكون خطابه جافاً مجرداً متجهاً للعقل المجرد. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الميزة معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي وأن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(١) أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله، عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾. قال العوفي: عن ابن عباس: أي لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه، لتصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله. فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع^(٢).

ولما كان القرآن يحمل بين طياته وألفاظه قوة التأثير الذاتي، أمر الله تعالى بإجارة المشركين، قال تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾^(٣) وإن استجارك أحد من المشركين، وطلب جوارك وحمايتك، فاقبل جواره حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويتفهم معانيه، ويقف على أسراره العالية فإن الإنسان إذا خرج من بيئة العناد والضلال قد يشرح الله صدره للإسلام، ثم أبلغه مكان آمنه، وأوصله للدار التي يأمن فيها إن أسلم أو لم يسلم، ثم قاتله إن استوجب حاله القتال من غير غدر ولا خيانة.

وهذا من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الرسول الأعظم ﷺ. وتنبه للمسلمين جميعاً أن يعملوا على نشر الدين ومبادئه حتى يسمعها أولئك الذين لا يعرفون عن محاسن الدين الإسلامي شيئاً، أي: الأمر بالإجارة وحسن المعاملة. وتوصيله إلى مكان آمنه ودار إقامته بسبب أنهم قوم جهلة بحقيقة الدين، ولا يعلمون عنه إلا معلومات مشوشة خاطئة كما يعلم الغربيون عن ديننا من المعلومات التي تعلموها على أيدي رجال دينهم، وللأسف الشديد إذا أراد الواحد منهم أن يعرف شيئاً عن الإسلام حكم عليه بأعمال أهله، ويا له من حكم قاس!! فإننا مسلمون

(١) سورة الحشر: ٢١

(٢) تفسير بن كثير (ج ٨ - ص ٧٩).

(٣) سورة التوبة: ٦

بالوراثة والنسب لا بالعمل والخلق^(١).

بسبب هذه القوة الذاتية كان مشركو العرب يوصي بعضهم بعضا بعدم سماع القرآن حتى لا يتأثروا به ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِیةُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) أي: تواصلوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره، ﴿وَالْغَوَافِیةُ﴾ أي: إذا تلي لا تسمعوا له. كما قال مجاهد: ﴿وَالْغَوَافِیةُ﴾ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَالْغَوَافِیةُ﴾ عيبوه. وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن^(٣).

ولتحريك المشاعر وانفعالها سلك القرآن مسالك شتى منها:

- ١- توجيه المشاعر إلى التأمل في الكون والحياة: ذلك أن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق، وأن هذا الكون الفسيح القائم على الدقة والانتظام لا يمكن أن يوجد إلا بقدره فائقة وعلم تام، والإنسان المتبدل لا تلفت نظره السماء الكائنة فوقه، ولا الأرض الساكنة تحته، لذا يخاطب القرآن المشاعر ويوجهها إلى هذه الآيات كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي يُخْلِقُ لَكُمْ فِيهَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٤) إن في خلق السموات والأرض على غير مثال سابق، وفي تعاقب الليل والنهار، واختلافهما طولاً وقصراً لدلائل وبراهين عظيمة على وحدانية الله لأصحاب العقول السليمة^(٥).
- ٢- التذكير بالنعم وأن الله هو رازق الإنسان: فالإنسان مقر بأنه لم يخلق من هذه النعم شيئاً، مع أنه أكبر المستفيدين منها، بل جعلت لأجله، غير أن الإنسان بحكم الإلف والاعتیاد تبلد حسه، فنسي الله الخالق، لذلك يذكره الله تعالى بهذه النعم التي لا تحصى، ومن أعظمها الماء والهواء.
- ٣- تذكير الإنسان بخلقه وأصله: إن الإنسان هو أكرم خلق الله تعالى لما ميزه به من عقل

(١) التفسير الواضح (ج ١ - ص ٨٥٦).

(٢) سورة فصلت: ٢٦.

(٣) تفسير بن كثير (ج ٧ - ص ١٧٤).

(٤) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٥) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٧٥).

وإدراك، وهذا الإنسان قد أوجده الله تعالى بعد أن لم يكن شيئاً قال تعالى ﴿هَلْ أَتَى عَلَى
الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا﴾^(١) يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته
وضعفه، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي أخلاط، والمشج والمشيج، الشيء المختلط
بعضه في بعض، وقوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي نختبره كقوله جل جلاله: ﴿لِيَبْلُوكُم أَيُّكُم
أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢)، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي جعلنا له سمعا وبصرا يتمكن بهما من
الطاعة والمعصية^(٣).

فهذا الإنسان بعد أن خلقه الله تعالى أحس بأنه قد استغنى عن خالقه، فطغى وألهته شواغله
وأهواؤه عن ربه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ﴾^(٤)
يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرب على مساخطه أتهاونا منك في
حقوقه؟ أم احتقارا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه^(٥).

لذلك نجد أن الله تعالى يخاطب الإنسان بالنظر في نفسه، ويتفكر في الحكم والآيات الكامنة
فيه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا
النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾^(٦) ولقد خلقنا آدم
من طين مأخوذ من جميع الأرض. ثم خلقنا بنيه متناسلين من نطفة: هي مني الرجال تخرج
من أصلابهم، فتستقر متمكنة في أرحام النساء، خلقنا النطفة علقة أي: دمًا أحمر، فخلقنا العلقة
بعد أربعين يومًا مضغة أي: قطعة لحم قدر ما يُمضغ، فخلقنا المضغة اللينة عظامًا، فكسونا
العظام لحمًا، ثم أنشأناه خلقًا آخر بنفخ الروح فيه، فتبارك الله، الذي أحسن كل شيء خلقه^(١).

(١) سورة الإنسان: ١-٢

(٢) سورة هود: ٧

(٣) مختصر تفسير بن كثير (ج ٢ - ص ٥٨٠).

(٤) سورة الانفطار: ٦-٧

(٥) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٩٤).

(٦) سورة المؤمنون: ١٢-١٦

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٣٤٢).

وقد جاء العلم الحديث ببيان وصدق ذلك كله.

التذكير بالموت والحياة: يوجه الله تعالى خطابه إلى البشر مذكرا إياهم بأنه هو الذي خلقهم وبث فيهم الروح. ذلك السر المعجز في بقائهم، وأنهم لا يملكون شيئا من ذلك. كما يذكرهم بالموت وأنه لا مفر لأحد منه. وفي هذا إثارة للمشاعر حتى تتساءل: من أنا؟ ومن أين أتيت؟ ولماذا أتيت؟ وأين سأمضي؟ وما مصيري؟ هذه الأسئلة الكبرى التي يبحث لها كل إنسان عن جواب، قد أجاب عليها القران بقوله: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (١). ﴿تَبَارَكَ﴾: تعاضم وتعالى ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ بيده ملك الدنيا والآخرة وسلطانها نافذ فيهما أمره وقضاؤه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه من فعله مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يقول: ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع (٢).

كانت المجتمعات البشرية قد اعتزى تصورها لله الخالق انحراف كبير سببه التحريف الذي حدث للديانات السابقة مما فتح الباب أمام الانحرافات والتخيلات الفاسدة في العقيدة الإلهية، فأصبح الناس بين طرفي نقيض:

الطرف الأول: قوم غلوا بعقولهم فجعلوا إلههم صورة خيالية تجريدية لا محل لها من الواقع فكان الإله عندهم صورة ذهنية مجردة.

الطرف الثاني: قوم فرطوا في إلههم فشبهوه بالمخلوق، ووصفوه بصفات المخلوق من حيث التعدد واتخاذ الولد والتجسيد، وكونه يعتريه ما يعتري البشر من الآفات والنقائص، وأنه يمكن أن يخفى عليه شيء من الخلق.

(١) سورة الملك: ١-٢

(٢) تفسير الطبري (ج ٢٣ - ص ٥٠٥).

المبحث الثاني

منهج القرآن في حماية الأفكار بالأدلة العقلية

المطلب الأول: المنهج العقلي :

إنَّ المنهج العقلي الذي يسلكه القرآن الكريم في بيان العقيدة وخرسها في النفوس يأتي متسقاً مع المنهج الفطري ومتكاملاً معه؛ ولذلك فإنَّ القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على مجرد الخبر عن وجود الله تعالى ووحدانيته وسائر أركان العقيدة، وإنما أقام البراهين العقلية التي بها تُعَلَّم العلوم الإلهية؛ فكان منهجه ومنهج جميع الأنبياء عليهم السلام الجمع بين الأدلة العقلية والسمعية (الشرعية)^(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحُسْن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دلَّ عليها القرآن وهدى الناس إليها؛ فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقه... فإن هذا يعلمه الناس كلُّهم بعقولهم، فهو إذن عقليٌّ؛ لأنه بالعقل تُعَلَّم صحته، وهو شرعيٌّ أيضاً)^(٢).

والإسلام ينوّه تنويهاً كبيراً بالعقل ويُعلي من مكانته وقيمته؛ ونجد شاهداً على ذلك في الآيات القرآنية التي تنزلت بشأنه؛ فالعقل هو هبة الله للإنسان، ولذلك جعله الله تعالى سبباً للتكليف ومناطقاً للمسؤولية؛ وحثَّ على استعماله فيما خلق له (أي العقل) وفي المجال الذي يستطيعه، ورسم له المنهج الصحيح للعمل والتفكير، وأحال عليه في القضايا الكبرى الرئيسية: كمعرفة الله تعالى ووحدانيته، وصحة النبوة، والبعث بعد الموت؛ فإنَّ إدراك هذه القضايا إدراكاً كلياً عاماً إنما يكون بالعقل. وإن كان هذا لا يعني أن نجعل العقل حاكماً على مقررات الدين؛ فإنَّ العقل من شأنه أن يتلقى عن الوحي، وأن يفهم ويدرك؛ فإنَّ للعقول حداً تنتهي إليه لا سبيل لها إلى مجاوزته.

مجالات المنهج العقلي في تقرير الألوهية:

والقرآن الكريم يخاطب العقل ويُقنع الإنسان بالمنطق السهل المؤثر في النفس بأسلوب حي جذاب؛ حيث يوجّه نظره إلى آيات الله في الكون والرزق والحياة والموت والأحداث الجارية كما سبق الحديث عنها في المنهج الفطري الوجداني، ولكنه مرة أخرى يعرض لها؛ وبأسلوب

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (ج ٩/ ص ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) انظر: النبوات، لابن تيمية: (ص ٤٨).

ومنهج عقلي يؤدي في النهاية إلى الغاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الألوهية وما يتفرع عنها من حقائق وقضايا الإيمان والعقيدة:

١) ففي مجال الألوهية:

يعرض القرآن الكريم آيات القدر والخلق، ومظاهر الموت والحياة، فيقول الله سبحانه: ﴿مَنْ خَلَقَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُمْ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * مَنْ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (١)(٢).

وقد تقدمت هذه الآيات الكريمة في المنهج الفطري؛ وهي كذلك مثالاً على المنهج العقلي؛ لما فيها من أسلوب منطقي يتصف بالحيوية؛ لما فيها من الأسئلة الموجهة إلى المخاطب والإجابة عنها إلى أن يصل إلى النتيجة المطلوبة التي بدئ بها لإيراد الدليل عليها، مع تعدد الأمثلة المأخوذة من حياة الإنسان وما يحيط به.

ولو تأمل الإنسان بعقله وفكره آيات الله الماثرة في الأرض وفي النفس والآفاق، لأيقن بأن وراء هذه الآيات قدرة الله تعالى وأنها دليل على وحدانيته، فتجب طاعته، والالتزام بأمره ونهيه، وخلع ما يُعبد من دونه من الأنداد والشركاء. قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣).

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ عبر للموقنين ذا ساروا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات. ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيات، إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً إلى أن نفخ فيها الروح. وقال عطاء عن ابن عباس: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع. وقال ابن الزبير (٤): يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين. ﴿أَفَلَا﴾

(١) سورة الواقعة: ٥٧-٦٢

(٢) وقد تقدم تفسيرها في المنهج الفطري.

(٣) سورة الذاريات: ٢٠-٢١

(٤) عبد الله بن الزبير (٧٣ هـ) عبد الله بن الزبير بن العوام، كنيته أبو بكر وأبو خبيب، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكان أول مولود في الإسلام للمهاجرين بالمدينة. وهو أحد العبادة، وأحد الشجعان من الصحابة، وكان فارس قریش في زمانه وله مواقف مشهودة، شهد اليرموك وهو مراهق وفتح المغرب وغزو القسطنطينية. كان لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة. بوبع بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين وحكم على الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان وبعض الشام، قتل ابن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين رحمه الله. (البداية والنهاية (٨) / ٣٣٢ - ٣٤٥).

يُصِرُّونَ ﴿١﴾ (قال مقاتل) أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث (١).

وبالأسلوب العقلي المنطقي تأتي أدلة الوجدانية، كقوله تعالى: ﴿أرأيتُمْ أُولَئِكَ لَمَّا خَسَفَ الْقَمَرُ أَرَأَيْتُمْ أَن كَسَفَهُ الْقَمَرُ أَرَأَيْتُمْ أَن كَسَفَهُ الْقَمَرُ أَرَأَيْتُمْ أَن كَسَفَهُ الْقَمَرُ﴾ (٢) أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرُونَ على شيء من ذلك. فكيف جعلوا الله ندا وعبودها معه، ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات الأرض، فقال ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أي: في السماء والأرض، ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَاهُ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٣) وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون إن له ولدا أو شريكا، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزهه عن الذي يفترون ويفكرون علوا كبيرا (٤).

والبراهين العقلية في القرآن ذات طريقة حيّة وبأسلوب يمكن أن تفهمه الخاصة والعامة؛ كلٌّ بقدر طاقته.

٢) وفي مجال النبوات أيضاً:

يخاطب القرآن الكريم العقل، ويوجهه إلى معرفة صدق النبي ومصدر القرآن، وأنه هو الوحي المنزّه عن الخطأ والاختلاف، فيقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٥) اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم، وكان كل ذلك لأجل أنهم ما كانوا يعتقدون كون الرسول محقا في ادعاء الرسالة صادقا فيه، بل كانوا يعتقدون أنه مفتر متخرص، فلا جرم أمرهم الله تعالى بالنظر والتفكر في الدلائل على صحة نبوته. فقال: أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فاحتج تعالى بالقرآن على صحة نبوته وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: التدبير والتدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها، ومنه قوله:

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: حقه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م (ج ٧ - ص ٣٧٥).

(٢) سورة الأنبياء: ٢١-٢٢

(٣) سورة المؤمنون: ٩١

(٤) تفسير بن كثير (ج ٥ - ص ٣٣٧).

(٥) سورة النساء: ٨٢

إلام تدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها، ويقال في فصيح الكلام: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، أي لو عرفت في صدر أمري ما عرفت من عاقبته.

المسألة الثانية: اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى احتج بالقرآن على صحة نبوة محمد ﷺ، إذ لو تحمل الآية على ذلك لم يبق لها تعلق بما قبلها البتة، والعلماء قالوا: دلالة القرآن على صدق محمد ﷺ من ثلاثة أوجه: أحدها: فصاحته. وثانيها: اشتماله على الإخبار عن الغيوب. والثالث: سلامته عن الاختلاف، وهذا هو المذكور في هذه الآية (١).

فسلامة القرآن من الاختلاف والتناقض، مع سلامته في الأسلوب الذي يجري على منهج واحد، دليل عقلي على أنه من عند الله تعالى؛ فلو كان من عند غير الله لظهر فيه ذلك التفاوت.

٣ - وفي السمعيات:

يقيم القرآن الكريم الدليل العقلي على البعث والحساب؛ فإن العقل يمنع أن تكون الحياة عبثاً؛ وأن يُترك الإنسان سدىً دون تكليف ولا محاسبة ولا جزاء يفرق فيه بين المؤمن والكافر، وبين التقي والعاصي الفاجر، فيقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَعَنُ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ مُمِحِّي الْمَوْتِ﴾ (٢) أيظنُّ هذا الإنسان المنكر للبعث أن يُترك هملاً لا يؤمر ولا يُنهى، ولا يحاسب ولا يعاقب؟ ألم يك هذا الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يراق ويصب في الأرحام، ثم صار قطعة من دم جامد، فخلقه الله بقدرته وسوى صورته في أحسن تقويم؟ فجعل من هذا الإنسان الصنفين: الذكر والأنثى، أليس ذلك الإله الخالق لهذه الأشياء بقادر على إعادة الخلق بعد فنائهم؟ بلى إنه - سبحانه وتعالى - لقادر على ذلك (٣).

والذي ينبغي أن نلمح إليه في آخر كلامنا عن المنهج العقلي: أن الإسلام بين للعقل الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه حين يريد النظر في مسألة بعينها؛ والطرائق مختلفة والأساليب متعددة؛ ولكل مسألة من المسائل ما يناسبها من طرائق النظر وأساليب الفكر.

فإذا كان موضوع النظر هو مسائل الألوهية، فإن العقل أمامه طريقان:

أحدهما: أن ينظر في الكون ويتأمله ليستنتج من ذلك أن له موجدًا، ثم ينظر في تناسق هذا

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ، (ج ١٠ - ص ١٥١).

(٢) سورة القيامة: ٣٦-٤٠

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٧٨).

الكون وانسجامه ليعلم أن موجدَه واحد عالم حكيم خبير.

والطريق الثاني: أن ينصت إلى هذا الإله الذي آمن به حينما يتحدث عما يجب وعما يجوز وما يستحيل على هذا الإله من أسماء وصفات.

أما حين يكون الحديث في مجال النبوة - مثلاً - فإن الإسلام يوجه العقلَ وجَهَةً أُخْرَى، فيطالبه بالنظر في إثبات دعوى النبوة من جهات ثلاث:

الأولى: النظر في تاريخ مدعي النبوة.

والثانية: فيما جاء به هذا النبي ﷺ من العقائد والشرائع.

والثالثة: أن ينظر فيما ادَّعاه من الخوارق والمعجزات^(١).

وأخيراً: فإن هناك توازناً واتساقاً بين هذا المنهج العقلي والمنهج الفطري السابق؛ وهذا أيضاً يمكن أن يكون منهجاً آخر؛ فنقول: إن القرآن يسلك منهجاً عقلياً ووجدانياً في الوقت نفسه لبيان حقائق العقيدة والإيمان.

بعد هذه اللمحات السريعة، يحسن أن نختم هذه المقالة بكلمات عن مميزات المنهج القرآني في عرض العقيدة الإسلامية:

إن هذا المنهج يتميز:

أولاً: بكونه يعرض (الحقيقة) كما هي في عالم الواقع، بالأسلوب الذي يكشف كل زواياها وكل جوانبها وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها، وهو مع هذا الشمول لا يعقد هذه الحقيقة ولا يلفها بالضباب، بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها.

وثانياً: بكونه مبرراً من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات العلمية والتأملات الفلسفية؛ فهو لا يُفرد كل جانب من جوانب الكل الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية؛ وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يستحيل مجاراته أو تقليده.

وثالثاً: بكونه مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقها، يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها مساحته، التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله؛ وهو الميزان، كما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي.

ورابعاً: بتلك الحيوية الدافقة الموحية، مع الدقة والتقريب والتحديد الحاسم؛ وهي تمنح هذه

(١) انظر: عقيدتنا وصلبها بالكون، د. طه الدسوقي: (ص ١١٠ - ١١٣).

الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير. ثم هي في الوقت ذاته تُعَرِّضُ في دقة عجيبة، وتحديد حاسم؛ ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة^(١).

٢ - إن القرآن الكريم ومعهُ السُّنة النبوية هو مصدر هذه العقيدة الذي يتفق مع الفطرة والعقل: وفيه الغناء والكفاية، وهو الهداية والنور، وهو في الوقت ذاته سبب الهداية إلى أقوم طريق في العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع، ولا يجوز أن نحمله على الآراء والمقررات البشرية القابلة للصواب والخطأ، بل ينبغي أن يكون هو المهيم عليها المصحح لأخطائها والمقوم لمنهجها، ويكون فهمه وتفسيره قائماً على مناهج فهم النصوص في اللغة التي نزل بها مع البيان المعصوم من النبي ﷺ.

٣ - ويحسُن في هذا المقام التأكيد على: وجوب دراسة مباحث العقيدة والإيمان وما يتصل بها دراسة موضوعية من القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، بطريقة تتناسب مع المخاطبين في هذا العصر من حيث طريقتهم في التفكير وأسلوبهم في التعبير، مع المحافظة على المفاهيم الإسلامية، دون انتقاص أو تحريف.

ولذلك ينبغي أن نشير أيضاً إلى القضايا الفكرية والعقدية التي تطفو على الساحة اليوم، ومن ثمَّ دراستها بأسلوب يتفق مع روح العصر، ويستفيد من مقررات العلوم القطعية ونتائجها، دون مجافاة لروح النصوص الشرعية الصريحة الصحيحة؛ إذ إن صحيح المنقول يتفق مع صريح المعقول.

ولعل هذا المقام يتسع لتوصية أخرى تتصل بالاهتمام بالتراث الإسلامي الذي خلفه لنا علماء السلف - رحمهم الله تعالى - في باب العقيدة والإيمان، مما كتبه تحت عنوان: (الفقه الأكبر) أو (الشريعة) أو (العقيدة) أو (التوحيد) قبل أن يتأثر هذا العلم بالمؤثرات الأجنبية التي أثرت في (علم الكلام).

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتاب: مقومات التصور الإسلامي: سيد قطب (ص ٦٥ / ٦٨).

المطلب الثاني : منهج القرآن في بناء العقلية العلمية :

لقد كان شاغلَ المسلمِين وهمَّهم منذ فجر الإسلام فَهْمُ ما جاء به كتاب الله بَعْد أن آمنوا به عن عِلْم وبصيرة، عن طريق البراهين التي تبدأ بالحسّ، وتنتهي بالاقْتِناع، وبين الحسّ والاقْتِناع مجالات رحبة تتسع لحظوظ المفكرين من العقل وأساليب التناول ومُعْطيات المواهب. والمعرفة الحقّة يجب أن تبدأ بالمحسوس، وقدرة العقل على الاستكناه، وسلطانه المتّزن هو الذي يبسر له الانتقال في هدوء وسكينة إلى غير المحسوس، وذلك ما اتّخذَه الإسلام منهجاً وسبيلاً للوصول إلى الغاية؛ فكان المرفقاً الآمن الذي اطمأنّ إليه ضمير المسلمين في فجر الإسلام.

فالقرآن قد جاء بمنهج رائع في استخدامه الأدلّة العقلية والبرهانية في عرض مسائل العقيدة، "يستطيع من يتدبّر أيّ القرآن الكريم أن يتبيّن أنه قد تضمّن منهجاً واضحاً للبرهنة العقلية على أمّهات مسائل العقيدة، تلك حقيقة يؤكدها جمهور علماء المسلمين" (١).
لقد اتّسمت العقيدة الإسلامية بأنّها ملائمة للفطرة والعقل معاً، فليس بها مُعمّيات كغيرها من العقائد، بل هي واضحة وضوح الشمس، وباستحضارها وفهْم مقاصدها يعيش المسلم في سعادة لا تُدانيها سعادة؛ ولذلك نجد الأمراض النَّفسية أبعد ما تكون عن أواسط المتديّنين المتّصلين برَبِّهم، فما أحوَجنا إلى النظر والتدبّر في آيات القرآن الكريم لمعرفة ذلك؛ "لأنّه ما من قضية عقديّة ساقها القرآن الكريم إلّا قرّنها بدليل صدّقها وبرهان يقينها القطعي في دلالتّه، فيجب على كلِّ باحثٍ ألا يغفل عن التنبية إلى ما يحتويه النصُّ القرآني من برهان عقلي يتّصل بالموضوع الذي يتحدّث عنه، ونخصّ هنا ما يتّصل بموضوع الإيمان بالغيبات ودلائلها؛ لأنّ هذا الجانب كان وما زال مثارَ جدلٍ بين الفكر الديني والفكر الفلسفي" (٢).

ولذلك؛ خلق الله الإنسان وأودع فيه غريزة حبّ الاستطلاع لكي يَسْتَكْنِه بعقله النيّر العبرة الضخمة التي تنظّم وتسير هذا الكون العجيب والأفق الرَّحيب، وخلق الإنسان وفق قواعد ونظّم، وليس بعشوائية وارتجال، ولا غرو إذاً أن يرتبط خلق الإنسان بالعلم، والعلم بخلق الإنسان، كما ورد في أوائل السورة المكيّة، وأول ما أنزل من القرآن قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

(١) "مسائل العقيدة ودلائلها بين البرهنة القرآنيّة والاستدلال الكلامي د. السيد رزق الحجر" (ص ٧٣)، دار الثقافة للتوزيع والنشر، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) "تأمّلات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين"، د. محمد السيد الجاليند: دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٩م.

أَلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾ (١) كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال: اقرأ وربك الأكرم أي: افعل ما أمرت به من القراءة، وجملة وربك الأكرم مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله: ((ها أنا بقارئ))، يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وهو أمي، فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم.

قال الكلبي (٢): يعني الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم، وقيل: إنه أمره بالقراءة أولاً لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأول أولى الذي علم بالقلم أي: علم الإنسان الخط بالقلم، فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب، قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم.

قال قتادة: القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا، وسمي قلماً لأنه يقلم، أي: يقطع، علم الإنسان ما لم يعلم هذه الجملة بدل اشتمال من التي قبلها، أي: علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها (٣).

فَلَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ -جَلَّتْ قَدْرَتُهُ- الْكُونَ وَالْإِنْسَانَ، وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ وَالْأَهْمَهُ التَّفَكِيرَ؛ لِيَبْحَثَ وَلِيَطْمئنَّ قَلْبُهُ؛ فَإِنَّ "مَكَانَ الْإِنْسَانَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ أَشْرَفُ مَكَانٍ لَهُ فِي مِيزَانِ الْعَقِيدَةِ وَفِي مِيزَانِ الْفِكْرِ، وَفِي مِيزَانِ الْخَلِيقَةِ الَّذِي تُوزَنُ بِهِ طَبَائِعُ الْكَائِنِ بَيْنَ عَامَّةِ الْكَائِنَاتِ" (٤)، وقد وضع

(١) سورة العلق: ١-٥

(٢) الكلبي بشر بن عمرو، أبو النضر الكلبي الكوفي الأخباري العلامة، (الوفاة: ١٤١ - ١٥٠هـ) صاحب التفسير. روى عن: الشعبي، وأبي صالح باذام، وأصبغ بن نباتة، وطائفة. وعنه: ابنه هشام ابن الكلبي، صاحب النسب، وشعبة، وابن المبارك، وأبو معاوية، وابن فضيل، ويزيد بن هارون، وسعد بن الصلت، وطائفة سواهم. وقد اتهم بالأخوين: الكذب والرفض، وهو آية في التفسير، واسع العلم على ضعفه. قال زيد بن الحريش: سمعت أبا معاوية يقول: سمعت الكلبي يقول: حفظت ما لم يحفظ أحد، ونسيت ما لم ينس أحد، حفظت القرآن في ستة أيام أو سبعة، وروى عباس عن يحيى قال: الكلبي ليس بشيء. قلت: موت الكلبي على رأس الخمسين ومائة، وقيل أنه مات سنة ست وأربعين ومائة. (ميزان الاعتدال: ٣ / ٥٥٦ - ٥٥٩).

(٣) فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ. (ج ٥ - ص ٥٧١).

(٤) "الإنسان في القرآن" عباس محمود العقاد: ص ٢٠، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م.

العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م): عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد: إمام في الأدب، مصري، من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع. أصله من دمياط، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى، وكان أحدهم يعمل في (عقادة) الحرير. فعرف بالعقاد. وأقام أبوه (صرافاً) في أسنا فتزوج بكردية من أسوان. وولد عباس في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية. وشغف بالمطالعة. وسعى للرزق فكان موظفاً بالسكة الحديدية

أمام بصره وبصيرته وحسّه ووجدانه آياتِ القدرةِ الإلهية؛ ليتفكّر فيها ويتبصّر، ويعتبر ويتدبّر، وهذا كان من دواعي التطوّر العلمي على مرّ العصور وتعاقب الدهور، في حياة البشرية جمعاء.

إنّ التطور برُمته -ومن خلال مراحل متعاقبة- يجدر اعتباره عملية واحدة، إلّا أنّها تتبدّل على مدى الزّمن، الأمر الذي قاد إلى تطوّر كبير ومذهل في كافّة ميادين العلوم؛ تبياناً لما ورد في قوله - تعالى - من سورة العلق: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

"إنّ الطريق إلى سيادة الحق - في مجال العقيدة - إنّما يبدأ حسب التوجيه القرآني بالتأمّل في الواقع المحسوس ضمن المخلوقات الإلهية التي تتجلّى فيها حكمة الصّانع الحكيم العليم، وهو ما أكّدت عليه جملة كثيرة من الآيات، مثل قول الله -تعالى-: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه. ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السموات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبرار وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كن، فيكون (٣).

فمنهج القرآن في غرس العقيدة امتاز بأنه "يستخدم أساليب إقناعية متنوّعة، يوظّف التاريخ والواقع المحسوس والأدلة العقلية البسيطة، ويلجأ إلى مخاطبة الفطرة الإنسانية، ويستبدل بأسلوب التلقين والإدراك العقلي الرياضي البارد - أسلوب التربية واستثارة الوجدان والحماسة التي تحرك دواعي الإيمان وتثبت العقيدة واليقين، وذلك فضلاً عن المعالجة العمليّة الواقعية

وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلماً في بعض المدارس الأهلية. وانقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف، وأقبل الناس على ما ينشر. تعلم الإنكليزية في صباه وأجدها ثم ألم بالألمانية والفرنسية وظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن أخرج في خلالها من تصنيفه ٨٣ كتاباً، في أنواع مختلفة من الأدب الرفيع، (الأعلام للزركشي (ج ٣ - ص ٢٦٦).

(١) سبق تفسيرها.

(٢) سورة العنكبوت: ٢٠

(٣) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ٢٧٠).

التي لم يفوت القرآنُ الفرصَ السانحة لاستغلالها والحديث عن حقائق الإيمان من خلال تفاعله معها" (١).

إنَّ القرآنَ الكريمَ خاطبَ الإنسانَ كَكلِّ، الذي يتكوَّن من الرُّوح، والجسد، والعقل، فقد اهتمَّ القرآنُ بتنمية قدرة الإنسان في النَّظر والتأمُّل والتفكُّر والتدبُّر؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهِّله لحملِ أعباءِ رسالة الإسلام والدَّعوة إلى الله، وهذا مطلب قرآني أصيل.

ولذلك وضع القرآن الكريم منهجًا للتربية العقلية، ومن أهم نقاط هذا المنهج:

(١) تجريد العقل من المسلّمات المبنية على الظنِّ والتخمين، أو التبعية والتقليد.
(٢) إلزام العقل بالتحريِّ والتثبت.

(٣) دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون.

(٤) دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله.

(٥) دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري؛ ليتعظ الناظر

في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.

وفي عصرنا الذي نعيشه، وفي غضون عشرات قليلة من السنين، وبالقياس إلى

تاريخ البشرية الممتدِّ، وصلت المكتشفات العلميَّة المتعلقة بالكون في آفاقه، وفي أنفس مخلوقاته ما لم تصل إليه من قبل (٢).

الإسلام وتطوير العلوم والبحث العلمي:

تضمَّنت آياتٌ عديدة مكِّيَّة ومدنيَّة، وكذلك أحاديثُ للرَّسول ﷺ أهميَّة العِلم والتفكُّر وفضل

العلماء في الدُّنيا والدين، وأنَّهم ورثة الأنبياء؛ تقديرًا لدورهم وإجلالًا لعطائهم لخير البشرية وتقدُّم الأمم، وتفقُّههم في أمور دينهم ودنياهم.

ولم يقتصر الإسلام على الاهتمام بتطوير العلوم الشرعية فحسب، بل كان للعلوم

النافعة والساطعة أهميَّة واهتمام بالغ في الإسلام؛ فالقرآن والسنة النبوية خطاب موجَّه إلى جميع

الخلق؛ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، فتعاليم الإسلام صالحة لجميع الأزمنة، محتوية لجميع

الأحكام التي تهتمُّ البشرية قاطبة، شارحة للقضايا الشرعية (الدينية) والسياسية، والاجتماعية،

والاقتصادية، والعلمية، والأدبيَّة، والطبيَّة، والكونية... إلخ.

(١) مقدِّمة في أصول العقيدة الإسلامية" د. محمد سلامة أبو خليفة، (ص ١٢١ - ١٢٢)، دار الهانئ للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٧م.

(٢) "عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم" د. محمد السيد راضي جبريل: (ج ١/ص ٩٩).

لذا؛ اهتم المسلمون الأوائل بالبحث العلمي، وأولوه عناية فائقة؛ لكونه تحقيقاً لتوجيهات الله - عزَّ وجلَّ - للمؤمنين بالتفكير والتدبر في آيات الله المختلفة في الكون والنفس والأطر الاجتماعية... إلخ، فكان جهدهم في هذا المجال مفتاحاً لتقدم العلوم وتطورها في شتى مجالات العلم والمعرفة، وانطلقت أبحاثهم من منطلقات إسلامية عظيمة، أسسها مبنية على عظمة الله - عزَّ وجلَّ - وقدرته، وأنه خلق الإنسان وسخر له كل شيء؛ ليكون عبداً لله يسعى لمرضاته، ثم لخدمة أمته الإسلامية.

يقول الدكتور موريس بوكاي (١): "وتناولت القرآن كله منتهياً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية الواضحة في النص العربي الأصيل للقرآن، ومطابقة هذا النص غير المترجم للمفاهيم العلمية التي نملكها اليوم عن نفس الظواهر الكونية التي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يعرفها أو يمتلك منها أدنى فكرة، أول ما يثير الدهشة في رُوح من يواجه القرآن أول مرة هو ثراء الموضوعات العلمية" (٢).

(١) موريس بوكاي: إنه شامة فرنسا ورمزها الوضاء، فلقد ولد من أبوين فرنسيين، وترعرع كما ترعرع أهله في الديانة النصرانية، ولما أنهى تعليمه الثانوي انخرط طالباً في كلية الطب في جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب، وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهراً جراح عرفته فرنسا الحديثة، وكان سبب إسلامه جثة فرعون عندما فحصها ووجد فيها أشياء معجزة وهي موجودة في القرآن الكريم (معجم الفلاسفة موقع انترنت).
(٢) "التوراة والإنجيل والقرآن بمقاييس العلم الحديث" د. موريس بوكاي: (ص ١٤٤)، ترجمة علي الجوهري، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦م.

المطلب الثالث: المنهج العقلي في القرآن الكريم لتحسين الفكر من الانحراف:

إن الإسلام كما يحرص على إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإنه يحرص كذلك على تحسين أبنائه من الزيغ والانحراف، والحفاظ عليهم من الاعتداءات الحسية والمعنوية، وللقرآن منهجه المتميز في هذا المجال وأذكر حلولاً خاصة لجميع فئات المجتمع وحلول خاصة بأهل العلم والفكر والقيادة—

أولاً:— حلول عامة لجميع فئات المجتمع:

الحلول المذكورة في ثنايا هذه السطور تعم جميع شرائح المجتمع، المثقف وغير المثقف، والعالم والأمي، وهي على النحو التالي:

١- التعلق بالله — عزٌّ وجل — والاستعانة والاستعاذة به، وسؤاله الهداية والثبات والممات على دين الإسلام من غير تبديل ولا تغيير، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة وقدوة، فقد كان يسأل ربّه الهداية، وكان كثيراً ما يسأله الثبات على هذا الدين، وعدم تقلب قلبه عن منهج الإسلام، ويستعيز به من أن يضلّ أو يُضلّ، كما كان — عليه السلام — يستعيز من الفتن ما ظهر منها وما بطن، فالدعاء الملازم لذلك والانطراح على عتبة العبوديّة، وملازمة القرع لأبواب السماء بـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (١) إذا اجتمعت هذه كلّها، فلاشكّ أنّ رحمة سبحانه سابقة لغضبه وعقابه، ومحال أن يتعلق العبد برّبّه حقّ التعلّق، ويعرض عنه الله — سبحانه وبحمده — وهو الكريم الوهاب.

٢- الثّقة واليقين بالله ووعده وحكمه وأوامره، والشعور بالمسؤوليّة عن حفظ الدين من شبّهات المغرضين، وعدم خلطه بالباطل، أو لبسه إياه، ومن ثمّ الصبر على مكائد المنفّذين والمسوّغين للشبّهات، فإنّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَإَيُّضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ (٢) وقد قال الإمام ابن تيميّة رحمه الله: (بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين) (٣) وممّا يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٤) أي: علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى،

(١) سورة آل عمران: ٨

(٢) سورة آل عمران: ١٢٠

(٣) مجموع الفتاوى: (٣/٣٥٨)، ويُنسب هذا القول للإمام سفيان الثوري — رحمه الله —

(٤) سورة السجدة: ٢٤

فالكتاب الذي أنزل إليهم، هدى، والمؤمنون به منهم، على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم^(١).

٣- الثقة واليقين بالله ووعده وحكمه وأوامره وإرجاع المسائل المشككة إليهم ليحلّوها ويوضّحوا ما أبهم على صاحبها، فلا يستعجل في قبول فكرة أطلقها من لا يؤمن فكره، ولا يبقى تلك الشبهة في صدره حتى تعظم، بل ينبغي عليه أن يضبط نفسه بالرجوع للراسخين من أهل العلم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) وذلك لأنّ هذا العلم دين يدين به العبد لربه ويلقاه به إذا مات عليه، ولهذا قال الإمام محمد بن سيرين^(٣) - رحمه الله -: (إنّ هذا العلم دين؛ فانظروا عمّن تأخذون دينكم)^(٤).

البناء الذاتي عبر معرفة مصادر التلقي الخاصة بمنهج أهل السنة والجماعة، ومناهج الاستدلال الصحيحة، وملء القلب بنور الوحي من الكتاب والسنة، مع ملازمة إجماع أهل السنة والجماعة، فإنّ هذه المصادر عاصمة من قاصمة الوقوع في الخطأ والانحراف والزلل، وسبب أكيد لسدّ باب الشبهات المظلمات، وذلك - بعونه تعالى - مساعدٌ لحماية العقل المسلم من مضلات الفتن.

قال أبو عثمان النيسابوري: (من أمرّ السنّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمرّ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾^(٥) (٦).

ومن ذلك إرجاع المجلد إلى المبيّن، والمطلق إلى المقيد، والمؤول إلى الظاهر، والجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض، بالرجوع لكتب أهل العلم، واستقاء معاني الألفاظ من العلماء الربانيين، وكذا برد المتشابه إلى المحكم، وقد روت عائشة - رضي الله عنها - أنّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٦٥٦).

(٢) سورة النحل: ٤٣.

(٣) محمد بن سيرين شيخ الإسلام أبو بكر الأنصاري مولى أنس بن مالك إمام وقته ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان. أدرك محمد ثلاثين صحابياً، قال بكر بن عبد الله المزني: من أراد أن ينظر إلى أروع من أدركنا فليُنظر إلى محمد بن سيرين. كان يتجر فإذا ارتاب في شيء تركه. من أقواله: إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذونه. مات سنة عشر ومائة بعد موت الحسن البصري بمائة يوم وله سبع وسبعون سنة. (الفقيه والمتفقه) (١/ ٤٦٦).

(٤) أخرجه مسلم في مقدّمة صحيحه (١/ ١٤٤).

(٥) سورة النور: ٥٤.

(٦) مجموع الفتاوى: (٢٤١/١٤).

رَبِّنَا وَمَا يَدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ ثم قال - ﷺ -: ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سَمَى اللهُ؛ فاحذروهم)) (٢).

٤) التعلق بكتاب الله قراءة وفقهاً وتدبراً وعملاً، ولو أقبل الخلق على كتاب الله وانتهجوا منهجه، لأجارهم - سبحانه - من الفتن، فالقرآن شفاء لما في الصدور، ومن يعرض عنه فسيصيبه من العذاب بقدر ابتعاده عنه ﴿وَأَلُو أَسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنُقِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يَعْزِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (٣) أي وأوحى إلي أن لو استقام هؤلاء المشركون من كفار قريش استقاموا على الإيمان والتوحيد والطاعة لله ولرسوله - وهم يشكون القحط- ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ فتكثر أموالهم وتتسع أرزاقهم، ﴿لِنُقِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنخبرهم في ذلك الخير الكثير أيشكرون أم يكفرون؟ ثم إن شكروا زادهم، وإن كفروا سلبهم وعذبهم (٤).

ورضي الله عن ابن عباس إذ قال: (من قرأ القرآن فاتبع ما فيه هداه الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة الحساب) (٥) كما أن هناك آثاراً كثيرة وردت عن السلف بأنه من ابتغى الهدى من غير كتاب الله، فإن الله سيضله، وقد جاء عن نبيينا محمد ﷺ أنه قال: ((إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً)) (٦) وأخبر ﷺ حين كان يخطب بصحابته الكرام في حجة الوداع قائلاً لهم: ((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به. كتاب الله)) (٧).

٥) دراسة تاريخ الأمم، والحوادث الزمنية السابقة، فإن ذلك تتكون لدى المرء حصيلة تراكمية معرفية، وتحقق من خلالها ثمرات عديدة منها: معرفة السنن الربانية، ومعرفة الحقائق الهامة

(١) سورة آل عمران: ٧

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٧٤٥٤)، ومسلم برقم: (٢٦٦٥).

(٣) سورة الجن: ١٦-١٧

(٤) أيسر التفاسير للجزائري (ج ٥ - ٤٥٢).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: (٦٠٣٣).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٦٥/١٢) وصححه الألباني في الصحيحة (٧١٣).

أبو بكر بن أبي شيبة (٢٣٥ هـ) عبد الله بن محمد بن القاضي أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن خواستي الإمام العلم، سيد الحفاظ وصاحب الكتب الكبار 'المسند' و'المصنف' و'التفسير' أبو بكر العبيسي مولاهم الكوفي. روى عن شريك بن عبد الله النخعي وعن حماد بن أسامة وحفص بن غياث وجرير بن عبد الحميد وابن عيينة وعدة. روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وإبراهيم الحربي وأحمد بن حنبل وأبو يعلى الموصلي وطائفة. قال يحيى الحماني: أولاد ابن أبي شيبة من أهل العلم، كانوا يزاحموننا عند كل محدث. وقال أحمد العجلي: كان ثقة حافظاً للحديث. وقال أبو زرعة: ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن أبي شيبة. توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين. (ميزان الاعتدال ٤٩٠ / ٢) والبداية والنهاية (١٠ / ٣٢٨).

(٧) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث جابر بن عبد الله، برقم: (١٢١٨).

في حياة البشريّة، كما أنّ دراسة التاريخ تعطي حصانة ضدّ الخرافات والبدع والضلالات التي هي من أسباب الهزيمة والخذلان، والتاريخ كذلك يساعد على فهم الحاضر وتحليله^(١)، وكل هذا مفيد لتحسين المرء من شبهات أهل الزيغ والكيد المعاصر.

٦) اكتساب مهارات التفكير المتنوعة المنضبطة بالمنهج الإسلامي، والتي تعود الذهن على طريقة التحليل للعبارات والكلمات والمناهج، فتعطي للمرء دفعة حيويّة واعتزازاً بمنهجه، وتجعل عقله وقلبه لا يعتمد في أخذه ونهله من شتى المعارف والعلوم إلاّ على ضوء الدليل والحجّة والبرهان، وليس لمجرد محاكاة الآخرين، أو تقليدهم، أو تسلط بعضهم على بعض؛ لكي يأخذوا بمنهجهم أو فكرهم دون بيّنة، ولهذا فإنّ الشخص المحصّن يرفض ما يسمّى بـ: (الدوجمائيّة) أي: تسلط الأفكار والآراء غير الصحيحة.

ثانياً: حلول خاصة بأهل العلم والفكر والقيادة:

فيما يلي ذكر الحلول التي تخص أهل العلم والفكر والقيادة والتربية، حيث إنني رغبت بأن تكون لهم كلمة تخصّهم، من باب الاقتراح والتذكير (والذكرى تنفع المؤمنين)، وهي على النحو الآتي:

تنقية الثقافات ممّا يعتريها من خلل، أو تشويش، فزمننا زمن الانفجار المعرفي والذي جعل الكم الهائل من المعرفة والمعلومات متاحة لنا في كل وقت، ومن المؤكّد أنّها تحوي الغث والسمين، ووظيفة المسلم حيال ذلك أن ينقي المعلومات من مصدرها، ويقدمها بصورة جيدة سلسلة خالية من العيوب والنقائص، وهذا ما نحتاجه في زمن الاتصال الفكري = أن يكون هناك علاج للثقافة الوافدة إلينا وتمييز طبيها من خبيثها، فثقافة الأرض لكلّ الأرض، ومن المهمّ الانفتاح عليها بشروط وضوابط، والدور المناط بأهل العلم والفكر المؤصّلين والمتقدّمين هو التنقية والتصفية لجميع الثقافات وإدخال الحسن منها إلى دائرة المحيط الإسلامي واستبعاد رديئها.

لقد كان يقول غاندي: (يجب عليّ أن أفتح نوافذ بيتي؛ لكي تهبّ عليها رياح كل الثقافات؛ بشرط ألاّ تقتلني من جذوري)^(٢) فإذا كان هذا قول لرجل كافر بالإسلام ويدين بالهندوسيّة؛ ومع هذا فإنّه محافظ على جذوره وثوابته التي يراها صحيحة، فما البال بالمسلم الذي يتلقّى نور

(١) بتصريف من: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، لمحمد صامل السلمي، (ص ١٥ - ٣٢).

(٢) تعليم التفكير، لمحمود طافش، (ص ٥٠).

الوحي من كتاب الله وسنة رسوله ومصطفاه ﷺ إنَّ الجدير به المحافظة على هويته والبعد أيّما بعد عن الانمحاق بالمشاريع التي تستلب فكره وثقافته، شعر أم لم يشعر!
ومن جميل ما اطّلت عليه من كلام للشيخ المفسر محمد الأمين الشنقيطي – رحمه الله – يتحدث عن هذا الصدد، فيقول: (إنَّ الموقف من الحضارة الغربيّة ينحصر في أربعة أقسام لا خامس لها:

الأول: ترك الحضارة نافعها وضارها.

الثاني: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثالث: أخذ ضارها دون نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

ف نجد الثلاثة الأولى باطلة بلا شك، وواحداً فيها صحيحاً بلا شك، وهو الأخير^(١).

وبلغة فكرية موضوعية يقول المفكر والباحث التربوي ماجد عرسان الكيلاني: (لا يُسمح للمسلمين بفتح الأبواب والنوافذ على مصاريعها لأي تيار غريب، وإنّما الواجب أن يجري من خلال المختصين المسلمين الذين يتلقون الأفكار والعقائد والثقافات الوافدة من خارج ثم يدرسونها ويحلونها ويهضمونها ويسمحون لما يتلاءم مع روح الإسلام منها)^(٢).

(٢) العناية بعلم مصطلح الحديث وأصوله؛ فإنَّ له دور كبير في (جعل العقل المسلم ينتقل من عقل خرافي يتبع الظنون والأوهام إلى عقل علمي يتبع الحجّة والبرهان، ومن عقل مقلّد تابع إلى عقل متحرر مستقل، ومن عقل راكد إلى عقل متحرك، ومن عقل مدّع متطاول إلى عقل متواضع، يعرف حدّه فيقف عنده)^(٣).

(٣) معرفة مقاصد الشريعة، ومرامي الدين الإسلامي، لأنها تمنح المسلم قوّة منهجية كبيرة، ولقاحاً ضدّ الانحرافات، و(معرفة المقاصد تعطي المسلم مناعة كافية، وخاصة في وقتنا الحاضر – ضدّ الغزو الفكري والعقدي، والتيارات المستورة، والمبادئ البرّاقة والدعوات الهدّمة، التي يستتر أصحابها وراء دعايات كاذبة، وشعارات خادعة، ويبدلون جهدهم لإخفاء محاسن الشريعة وتشويه معالمها، والافتراء عليها، وإصاق الشبه والأضاليل بها والتمويه

(١) أضواء البيان: (٤/٣٨٢).

(٢) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، (ص ١٩٨).

(٣) يتصرف من : السنة مصدرّاً للمعرفة والحضارة، للدكتور يوسف القرضاوي، (ص ٢٠٥).

على السذج والبسطاء وأنصاف المتعلمين بالطلاء الخادع والمكر المكشوف^(١).

٤) إذا شعر المرء أو غلب على ظنه بأنه قد يفتن في دينه ؛ فلا ينبغي له قراءة كتب أهل الهوى والزيغ، ولو قصد بذلك الرد عليهم، ومناقشة شبههم، لأن درء المفسد والانحرافات عن هذا المرء مقدّمة على جلب المصالح في الذب عن هذا الدين، بل ينأى المسلم بنفسه عن الشبهات، ولا يجعلها متهافة على قبولها، ويجعل نفسه مطمئنة إلى الاستيقان بعظمة هذا الدين، وثبات أصوله، فيخلى قلبه ونفسه من متابعة الشبهات، ولا يجعلها لاقطة لأي تشكيك في دين الإسلام، وقد قيل: من اتقى الشبهات سلم قلبه من الشتات، ومن تأمل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٢) فلما عدلوا وجاروا عن قصد السبيل أزاع الله قلوبهم: يقول: أمال الله قلوبهم عنه^(٣).

وقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرْ فَتَكْفُرْ أَنْفُسُكُمْ وَتَرْتَبِّصُمْ وَارْتَبِّصْتُمْ﴾^(٤) أي: شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿وَعَزَّزْتُكُمُ الْأَمَانَةَ﴾ الباطلة، حيث تمنيتم أن تتالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة. ﴿وَعَزَّزْتُكُمُ بِاللَّهِ الْعَزُورُ﴾ وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأنتم به، ووثقتم بوعدده، وصدقتم خبره^(٥).

علم أن بعض النفوس تتطير على منافذ الشبهات والضلالات – عياداً بالله – وحين بلغ عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – أن رجلاً يقال له: صبيغ بن عسل قدم المدينة وكان يسأل عن متشابه القرآن، بعث إليه عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه وجلس قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ. قال عمر: وأنا عبد الله عمر، وأوماً عليه، فجعل يضربه بتلك العراجين؛ فما زال يضربه حتى شجه، وجعل الدم يسيل عن وجهه، قال: حسبك يا أمير المؤمنين! فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي^(٦).

(١) مقطع من مقاصد الشريعة عند ابن تيمية : ليوسف محمد أحمد البدوي (ص ١٠٣).

(٢) سورة الصف: ٥

(٣) تفسير الطبري (٢٣ – ص ٣٥٨).

(٤) سورة الحديد: ١٤

(٥) تفسير السعدي (ج ١ – ص ٨٣٩).

(٦) أخرجه الأجرى في الشريعة: ٧٥، واللالكائي بسنده في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤ / ٧٠٣) وقد صحّح ابن حجر إحدى روايات هذا الأثر في الإصابة (١٦٩/٥) كما ذكره محقق كتاب اللالكائي.

أبو بكر الأجرى (٣٦٠ هـ): أبو بكر الأجرى محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الأجرى الإمام المحدث القدوة شيخ الحرم الشريف. مصنف كتاب 'الشريعة' سمع أبا مسلم الكجي وجعفر بن محمد الفريابي ومحمد بن صالح العكبري وغيرهم. حدث عنه عبد الرحمن بن عمر بن النحاس.

لقد حدّثتنا كتب التاريخ أنّ عمران بن حطّان، كان من رجال أهل السنّة والجماعة، بل كان لديه شيء من العلم، ولكنّ قلبه عشق امرأة من الداعيات لمنهج الخوارج، وهي الفرقة التي أخبرنا - عليه الصلاة والسلام - أنّها تمرق من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة - عياداً بالله - وظنّ عمران بن حطّان برويته المبدئيّة أنّه يستطيع أن يصرف زوجه عن ذلك الرأي (المتطرف).

فعمران حين تزوجها وعلق قلبه بها، استطاعت زوجه أن تؤثر عليه، وتقلب فكره ليكون فيما بعد، زعيماً من زعماء الخوارج، وقائداً من قاداتهم، وذلك لضعفه تجاه زوجه، واستيلاء الشبهة على قلبه، فكان ما كان! ولهذا قال عنه ابن حجر العسقلاني: (تزوج عمران امرأة من الخوارج ليردها عن مذهبها فذهبت به)^(١).

التربية للنشء بما يرضي الله، والتحاور معه بتبيين فساد شبهات أهل الزيغ والهوى، مع قوّة الإقناع، وأدب الحوار، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي هي أول عمليّة في التربية؛ بتربيتهم على العقيدة الصحيحة، وحماية ذواتهم من العبث الفكري، وبناء الشخصية الإسلاميّة التي لا تؤثر فيها تيّارات التشكيك، وإرسالهم إلى المربّين الثقات لتربيتهم على أصول ديننا، وإنّ من مهام التربية الجادّة عدم تسليم الأبناء إلى الأماكن الموبوءة بالشبهات، فإنّ ذلك خيانة وغش للرعيّة، وفي الحديث الذي رواه معقل بن يسار المزني - رضي الله عنه - في مرضه الذي مات فيه: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من عبد يسترعيه الله رعيّة يموت يوم يموت وهو غاش لرعيّته إلّا حرمّ الله عليه الجنّة))^(٢) وأحد لفظي البخاري: ((ما من مسلم يسترعيه الله رعيّة فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنّة)).

وما أجمل ما قاله أيوب السخيتاني^(٣) - رحمه الله - : ((إنّ من سعادة الحدث والأعجمي، أن يوفّقهما الله لعالم من أهل السنّة))^(٤)، ليكون أهل التربية معينين لهم على تقوية عقيدتهم، ودرء عبث غزاة الأفكار والعقول عنها، مع التحذير الملازم لهم بخطر الأخذ عن غير أهل السنّة،

والمقرئ أبو الحسن الحمامي وأبو نعيم الحافظ. وكان صدوقاً خيراً عبداً صاحب سنة واتباع. قال الخطيب: كان ديناً ثقة. وقال السيوطي: كان عالماً عاملاً، صاحب سنة، ديناً، ثقة. وثناء الأئمة عليه أكثر. توفي سنة ستين وثلاثمائة. (البداية والنهاية (١١/ ٢٨٨) وطبقات الحفاظ (٣٧٩)).

(١) تهذيب التهذيب: (١١٤/٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (رقم ١٢٥/٢٢٧،١).

(٣) أيوب السخيتاني (١٣١ هـ) أيوب بن أبي تميمّة كيسان السخيتاني أبو بكر البصري الإمام الحافظ أحد الأعلام، سيد العلماء الغزوي مولاهم الأدمي.

مات في الطاعون سنة إحدى وثلاثين ومائة. حلية الأولياء (٣/ ٣ - ١٤).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة للالكائي (٦٠/١).

وإن استطعنا منعهم من ذلك فهو الأحسن، إلا أن المنع لا بد أن يكون بإقناع لهم، وقد يكون منعهم متعذراً في هذا الزمن، لأنهم قد يمنعون فتأثيرهم ردة فعل تجعلهم يصرون على ما سيطالعونه أو يسمعون، ولكن الأسلوب التربوي يرجح أن يناقش الأب أو المربي ذلك الشاب ويبين له أوجه الخطأ التي وقع بها أهل الضلال، فلا منع مطلق، ولا إباحة مطلقة، بل إكسابهم مناعة فكرية وفق ضوابط وتحذير ودعم تربوي.

وقد يقول قائل: إن منهج جمع من السلف الصالح منع الناس من سماع البدع والشبهات؛ وحقاً فإن ذلك الأفضل ولا شك، ولكن السلف الصالح في ذاك الزمن كانت قاعدته هي الإسلام وقيمه ومبادئه، وكان الأمر إليهم وبيدهم، وأما الآن ليس لنا من قوة الإسلام ما كان، فإن الناس في هذا الزمن للفتنة أقرب منهم للإسلام، وتربيتهم الآن تكون بقوة الكلمة الحقّة التي تصنع المنهج، وتفتح المخاطب.

إنها حكمة في الأمور وتربية تستدعي التأمل والنظر في المآلات ﴿وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(١) ومن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذي هو القرآن، فما له هداية ما. وهذا في مقابلة قوله تعالى في مثل المؤمنين ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) والجملة تقرير للتمثيل قبل، وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم، إذ لم يجاهدوا لنيل ذلك^(٣)، فمن الضروري أن نبني جيلاً محصناً — بإذن الله — من لقاءات الشبهات، وطعم الشكوك، ليكونوا على قوة في دينهم تجاه الهجمات الشرسة التي يواجهها أهل الإسلام من أعدائه.

(١) سورة النور: ٤٠

(٢) سورة النور: ٣٥

(٣) محاسن التأويل (ج ٧ - ص ٣٩٣).

المبحث الثالث

بيان مناهج الفلاسفة وعلماء الكلام

المطلب الأول : تعريف الفلسفة وبيان منهجهم :

الفلسفة : كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني فيلوسوفيا، بمعنى محبة الحكمة أو طلب المعرفة. وهي بشكل عام، تشير إلى نشاط إنساني قديم جدا يتعلق بممارسة نظرية أو عملية عرفت بشكل أو آخر في مختلف المجتمعات والثقافات البشرية منذ أقدم العصور^(١).

توصف الفلسفة أحيانا بأنها "التفكير في التفكير"، أي التفكير في طبيعة التفكير والتأمل والتدبر، كما تعرف الفلسفة بأنها محاولة الإجابة عن الأسئلة الأساسية التي يطرحها الوجود والكون^(٢). وكان فيثاغورس (٥٧٢ - ٤٩٧ ق.م) أول حكيم وصف نفسه من القدماء بأنه فيلسوف، وعرفّ الفلاسفة بأنهم الباحثون عن الحقيقة بتأمل الأشياء، فجعل حب الحكمة هو البحث عن الحقيقة، وجعل الحكمة هي المعرفة القائمة على التأمل. شهدت الفلسفة تطورات عديدة مهمة، فمن الإغريق الذين أسسوا قواعد الفلسفة الأساسية كعلم يحاول بناء نظرة شمولية للكون ضمن إطار النظرة الواقعية، إلى الفلاسفة المسلمين الذين تفاعلوا مع الإرث اليوناني دامجين إياه مع التجربة ومحولين الفلسفة الواقعية إلى فلسفة أسمية، إلى فلسفة العلم والتجربة في عصر النهضة ثم الفلسفات الوجودية والإنسانية ومذاهب الحداثة وما بعد الحداثة والعدمية.

الفلسفة الحديثة:

حسب التقليد التحليلي في أمريكا الشمالية والمملكة المتحدة، تنحو الفلسفة إلى أن تكون تقنية بحتة تركز على المنطق والتحليل المفهومي. وبالتالي فإن مواضيع اهتماماتها تشمل نظرية المعرفة، والأخلاق، طبيعة اللغة، طبيعة العقل . هناك ثقافات واتجاهات أخرى ترى أن الفلسفة دراسة الفن والعلوم، فتكون نظرية عامة ودليل حياة شامل. وبهذا الفهم، تصبح الفلسفة مهمة بتحديد طريقة الحياة المثالية وليست محاولة لفهم الحياة. في حين يعتبر المنحى التحليلي الفلسفة شيئاً عملياً تجب ممارستها، كما تعتبرها اتجاهات أخرى أساس المعرفة الذي يجب إتقانه وفهمه جيداً.

(١) انظر المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية. أ. د محمد إبراهيم الفيومي ضمن أبحاث ندوة (نحو فلسفة إسلامية معاصرة) ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق (ص ١٢٤ - ١٢٦).

منهج الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة:

ظلت الفلسفة منذ عصر اليونان، إلى عصر الرومان، إلى العصر الإسلامي، متأثرة كل التأثر بتعاليم أفلاطون وأرسطو، وخاصة أرسطو.

واعتقد الناس أن ما جاء به أرسطو هو الحق، وما بحث فيه، فهو مجال البحث، وما تركه فهو مجال الترك، وبذلك أجلسوه على عرش يشبه عرش الألوهية، حتى أنه لو قام البرهان المحسوس على فساد زعمه، شكوا في عقولهم، دون عقل أرسطو. فقد حكوا أن أرسطو قال: إن الشيء الثقيل والخفيف إذا ألقيا من مكان عال نزلا في زمان واحد، والتجربة تدل على أن الشيء الثقيل ينزل قبل الشيء الخفيف، ومع ذلك صدق الناس ما قال أرسطو وكذبوا عقولهم.

فإن قلنا إن أرسطو شل عقول الناس قروناً طويلة، لم نكن بعيدين عن الصواب. وقد بحث أرسطو في كل الأشياء: من نبات، وحيوان، وأرض، وسماء والإلهيات، ونفوس كلية، ونفوس بشرية، وأخلاق، واجتماع، وغير ذلك، ولكن المكانة الأولى كانت لما بعد الطبيعة، لأنها متصلة بالأديان، والأديان لها تأثير كبير في النفوس. فكان الفلاسفة يمرون مر الكرام على النبات والحيوان والطبيعة، ثم يضعون أكبر اهتماماتهم فيما بعد الطبيعة، فعل ذلك الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، والقديس توما النصراني وغيرهم.

وبحث أرسطو فيما بعد الطبيعة في أشياء كثيرة، من أهمها: هل المادة قديمة أو حادثة. وذهب أنها قديمة، كما بحث في: كيف صدر العالم عن الله، وكيف تطور، كما بحث في النفس الإنسانية، وهل تخلد بعد الموت، وإن كانت تخلد فهل الذي يخلد هو النفس الكلية، أو النفوس الفردية؟ وذهب إلى أن الذي يخلد هو النفس الكلية. وإذا كان كذلك، فما معنى الثواب والعقاب، وأن كل إنسان يجازى بعمله، وإلى أمثال ذلك من المباحث التي تعرض لها الدين أيضاً، فمن أهم أسس الدين خلق الله للعالم، وأنه هو وحده الأزلي الأبدي، وأن النفس الفردية تبعث بعد الموت، وتجازى على عملها. وقد ذهب في هذا فلاسفة المسلمين إلى ثلاثة أقسام: قسم كابن سينا وابن رشد وإخوان الصفاء حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة والدين، كما فعل ابن رشد في تأليفه كتاب (فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال) فقالوا إن الدين صحيح، والفلسفة صحيحة، فيجب أن نوفق بينها، وقسم كالغزالي ندد بالفلسفة وأنكرها، وقال إن تعاليم الدين هي الصحيحة، وتعاليم الفلسفة خطأ في خطأ، وألف في ذلك كتابه (تهافت الفلاسفة) وقسم قالوا إن التوفيق بين الدين والفلسفة خطأ، وأن الدين صحيح، والفلسفة صحيحة، ولكن لكل منها

منطقة نفوذ، لا يصح أن يعتدي أحدهما على الآخر. فالعقل يتبع الدين في مجال الدين، والفلسفة في مجال الفلسفة، فما أتى به الدين في البعث والنشر واليوم الآخر، وخلق العالم يؤخذ قضية مسلمة متى اعتنق الإنسان الدين، وما أتت به الفلسفة من طبيعيات وكيمائيات ومنطق ونحو ذلك يفهم ويبحث وينسق.

آراء بعض العلماء في الفلسفة:

لقد واجه عدد من علماء المسلمين النداءات والافتراءات الفلسفية على الإسلام بالتصدي لها قولاً وعملاً، موضحين بأن لا أساس لها في الإسلام، وأنها يونانية المولد، غريبة المنشأ، وعقيدة من رضي بغير الإسلام ديناً ومنهاجاً، وكشفوا مغازيها وعوارها بعد فحص وتمحيص، ولم يقتنعوا بقشورها، ومن أولئك الذين عرفوا حقيقة الفلسفة:

شيخ الإسلام ابن تيمية: فلقد تصدى ابن تيمية للمتفلسفين الذين تكلموا في النبوة واعتقدوا أنها مكتسبة بالتعلم وخاضوا في مواضع إلهية وتعبدية كثيرة، فخاض شيخ الإسلام معركة ضارية بما تعلمه من الكتاب والسنة، فرد عليهم وأدحض حججهم "وأن العدول عن منهج الأنبياء إلى منهج الفلاسفة عمل مخالف للفطرة ومناقض لمقتضيات المعرفة العقلية، والحقائق العلمية والفكرية والذوقية والنفسية. ثم إنهم (أي الفلاسفة) بمثل هذه الطرق الفاسدة يريدون خروج الناس عما فطروا عليه من المعارف اليقينية والبراهين العقلية، وما جاءت به من الأخبار الإلهية عن الله تعالى واليوم الآخر؛ وذلك أن طرق الفلاسفة تقضي في النهاية إلى التحلل من الالتزام الخلقى؛ لأنهم يذكرون أن العبادات هدفها إصلاح أخلاق النفس لتستعد للعلم الذي به يتحقق كمال النفس أو الإصلاح المدني والسياسي، (يقول الفلاسفة: فإذا ما تحقق ذلك فلا تكون ثمة حاجة إليها (العبادات)، وهذه النتيجة تعتبر مخالفة صريحة لمقتضيات الفطرة والعقل فضلاً عن الحقائق الدينية والشرعية^(١).

يقول ابن تيمية "إن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بني آدم حشواً وقولاً للباطل، وتكذيباً للحق في مسائلهم ودلائلهم، لا يكاد - والله أعلم - تخلو لهم مسألة واحدة عن ذلك"^(٢).

ابن قيم الجوزية: لقد تصدى ابن قيم الجوزية للانحرافات الفلسفية التي منها: أن كل إنسان يمكن أن يصل إلى النبوة عن طريق الرياضة والمجاهدة، ومحاولتهم التوفيق بين الدين والفلسفة

(١) النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبد الله عفيفي، ط (١)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٩٨٨، ص (١٦٦).

(٢) نقض المنطق، ابن تيمية، ص (٢٤).

"فيرى ابن قيم الجوزية أن الفلاسفة مهما تعللوا بالألفاظ التي توهم خلاف ما يعتقدون فإن أمرهم مكشوف، وفي حقيقة الأمر لا مبدأ عندهم ولا معاد ولا صانع ولا نبوة ولا كتب نزلت من السماء، ولا ملائكته نزلت بالوحي من الله" (١).

"ويكفيك دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله ما نرى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٢) يعني: أفلا يتفكرون في القرآن، والتدبر هو النظر في آخر الأمر، ودبر كل شيء آخره. ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي تفاوتاً وتناقضاً كثيراً، قاله ابن عباس، وقيل: لوجدوا فيه أي: في الإخبار عن الغيب بما كان وبما يكون اختلافاً كثيراً، أفلا يتفكرون فيه فيعرفوا -بعدم التناقض فيه وصدق ما يخبر -أنه كلام الله تعالى لأن ما لا يكون من عند الله لا يخلو عن تناقض واختلاف (٣).

وهذا يدل على أن ما كان من عنده سبحانه لا يختلف، وأن المختلف فيه والمتناقض ليس من عنده وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار ديناً يداين به ويحكم به على الله ورسوله، سبحانه هذا بهتان عظيم! (٤).

فالاجتهادات التي تصدر عن هذه الفلسفة هي باطلة تماماً، وهي في تقدير الإسلام اجتهادات قابلة للصواب والخطأ، وليست لها صفة الحقائق الثابتة أو العمومية، ومن ثم فيجب عدم تطويع الإسلام لأي مذهب فلسفي باسم التحديث، وأن محاولة التوفيق بين العقيدة الإسلامية والفلسفات هي محاولة فاشلة، وقد فشلت في التجربة الأولى (العصر العباسي) وانهارت وتصدعت؛ لأنها حاولت الجمع بين متناقضين (٥).

طريقة الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود:

يتبع الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود طريقة الإمكان والوجوب، فيقولون بأن كل ما كان ممكن الوجود والعدم لم يوجد منذ الأزل؛ لأنه يعلم بالضرورة أن حالة الإمكان المحض -أي العدم- سابقة على مرحلة الوجود الفعلي لهذا الممكن، فلما كان كل موجود نراه ممكناً، فقد

(١) ابن قيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، عبد الله محمد جار النبي، ص (٤٦٨).

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) تفسير البغوي (ج ٢ - ص ٢٥٤).

(٤) الفوائد، ابن القيم الجوزية، تحقيق عبد السلام شاهين، ط (١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص (١٠٥).

(٥) أسلمت المناهج والعلوم، دار الاعتصام، أنور الجندي، القاهرة، ١٩٨٦، ص (١٦٢).

وجب أن تكون حالة العدم والإمكان المحض سابقة لجميع الموجودات، وعليه فإن الممكن لا يوجد كائناً غيره علوياً أو سفلياً، ولما كانت حالة العدم وإمكان الوجود السابق لجميع الموجودات فقد وجب أن يكون موجوداً سابقاً لحالة العدم هذه، ووجوده واجب وهو الإله.

وبعضهم يقول بأننا إذا نظرنا إلى الموجودات من حولنا فإننا نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن، وأشياء تتعدم بعد وجودها، وهذه الأشياء لا تخرج عن كونها مستحيلة الوجود أو ممكنة أو واجبة، والقول باستحالتها باطل لأنها موجودة، ووجوب وجودها باطل كذلك لأن الواجب لا يعدم، فبقي أنها ممكنة الوجود، والممكن محتاج إلى سبب لوجوده، وهذا السبب لن يكون عين الشيء الممكن ولا جزؤه لاستلزام تقدم الشيء على نفسه، فوجب أن يكون هناك سبب وراء الممكنات كلها وهو واجب بنفسه يمنح الممكنات وجودها، وهذا الواجب الوجود هو: الله.

وبعض الفلاسفة يسلك للتدليل على واجب الوجود طريقاً آخر فيقول: كل ممكن فهو معلول قطعاً، والمعلول لا بد له من علة أولى لا يتطرق إليها الإمكان ويجب وجودها بنفسها، وهذه العلة الأولى هي: الإله^(١).

ونلاحظ أن كل هذا الاستدلالات على وجود الله عند الفلاسفة مرجعها إلى الإمكان والوجوب وملخصها: أن الموجود إما أن يكون واجباً أو ممكناً، والممكن محتاج إلى مؤثر واجب وإلا لزم الدور والتسلسل فثبت أن الممكن وجوده بغيره، والواجب وجوده بذاته وهو السبب الأول لجميع الممكنات الموجودة والعلة الأولى لكل المعلولات.

ويجب أن نلاحظ هنا أن الفلاسفة إذا قالوا بإمكان الموجودات -والعالم كله ممكن الوجود- فإنما يعنون أن لهذا العالم مادة قديمة أزلية وجودها متقدم على وجود العالم وهي ما يسمونها الهيولي، هذه الهيولي معلولة عن العلة الأولى بشكل حدوث ذاتي، وهي تتحرك للتشبه بهذه العلة، فالعلة أولى لغيرها وهي أمرة للفلك بالتحرك للتشبه بها كما يتحرك العاشق نحو المعشوق، وحدثه عنها حدوث ذاتي لا حدوث زمني.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والمعنى الثالث الذي أحدثه الملاحدة كابن سينا وأمثاله قالوا: نقول العالم محدث أي معلول لعلة قديمة أزلية أوجبه فلم يزل معها، وسموا هذا الحدوث الذاتي وغيره الحدوث الزمني، والتعبير بلفظ الحدوث عن هذا المعنى لا يعرف عن أحد من أهل اللغات لا العرب ولا غيرهم إلا من هؤلاء الذين ابتدعوا لهذا اللفظ هذا المعنى، والقول بأن العالم محدث بهذا المعنى فقط ليس في قول أحد من الأنبياء ولا أتباعهم ولا أمة من الأمم العظيمة..".

(١) انظر رسالة التوحيد لمحمد عبده (ص ١٨-٢١) ونظرية التكليف د. عبد الكريم عثمان (ص ١٥٦).

المطلب الثاني: تعريف أهل الكلام وبيان منهجهم:

من المعلوم أن علم الكلام الإسلامي كان أسبق في نشأته من الفلسفة المشائية الإسلامية، فقد بدأ ظهور الفكر الكلامي في البيئة الإسلامية منذ فترة مبكرة من تاريخ الإسلام، وعرفت المدارس الكلامية، قبل أن يُعرف الفلاسفة الإسلاميون، وقبل أن تتحدد مذاهبهم، بل خاض المتكلمون الإسلاميون في كثير من القضايا التي تكلم فيها الفلاسفة فيما بعد^(١)، وقد استطاع المتكلمون المسلمون أن يقدموا مناهج خاصة بهم في علم الكلام قبل انتشار الفلسفة، ولم يظلموا خياراً حتى سقطوا في تقليد المنهج الجدلي الأرسطي، كما أن حركة الجدل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى كان لها أثر واضح في مسيرة علم الكلام الإسلامي^(٢).

ومن الضروري في هذا المقام التمييز بين: الدين الإسلامي، والفكر الإسلامي، وفلسفة الإسلاميين، ولابد من هذا التصنيف لتحديد موضع الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية من الدين الإسلامي، فالدين إلهي لا تغيير فيه ولا تبديل، وليس هو من قبيل الفكر العقلي، ولا نتيجة جهد بشري، وهذا أهم ما يميز الدين الإسلامي عن الفكر والفلسفة الإنسانيين، أما الفكر الإسلامي فإنه نشأ نشأة طبيعية منذ حياة النبي ﷺ وتأثر في تطوره بحركة المجتمع الإسلامي نفسه، أما الفلسفة الإسلامية فقد تميزت عن الفكر الإسلامي بما أحدثته من قضايا جديدة، لم تكن نتاج المجتمع الإسلامي تحديداً^(٣).

ويعتبر كثير من الباحثين أن علم الكلام هو الفلسفة الإسلامية الخالصة، وأن المتكلمين هم فلاسفة الإسلام الحقيقيون^(٤)، ففي علم الكلام نلتقى بنظريات دقيقة ومذاهب محكمة هي من صميم البحث الفلسفي، ولا تقل دقة وعمقا عن مذاهب المشائين ونظرياتهم^(٥)، وإن كان يقف في المقابل اتجاه - ينتمي في جذوره للغزالي من جهة ولابن رشد من جهة أخرى - يرى أن المتكلمين اتبعوا منهجا فلسفيا أقل وضوحا وقوة، ووجه أصحاب هذا الاتجاه نقدا لاذعا لمناهج المتكلمين لأنه كان منهج جدل، لا منهج برهان، ولذا فهو لا يصلح - بحسب وجهة نظرهم -

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية، أ/د محمد الأنور السنهوتي، أ/د عبد الحميد مدكور (بالاشتراك)، (ص ٩١ - ٩٢) بتصريف يسير.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، راجع: أ/د النشار، (٧٠/١، ٨٠ - ٨٢).

(٣) راجع: ملاحظات حول المدرسة الفلسفية في الإسلام، أ/د محمد إبراهيم الفيومي، (ص ٢٧-٣٨).

(٤) راجع: دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، أ/د يحيى هويدي، (ص ٧). أ/د النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (١/٨٤). أ/د يمني

طريف الخولي، من منظور فلسفة العلوم: الطبيعيات في علم الكلام من الماضي إلى المستقبل، (ص ٢٢ - ٢٣).

(٥) دراسات في الفلسفة الإسلامية، أ/د محمد الأنور السنهوتي، أ/د عبد الحميد مدكور (بالاشتراك)، (ص ١٠٩).

لا للعلماء ولا للعامّة(١).

بل إن أبا حيان التوحيدي يرى أن علم الكلام إنما هو باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتبسيح، والإحالة والتصحيح، والإيجاب والتجوز، والاعتدال والتعجيز، والتعديل والتجوير، والتوحيد والتكفير، والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق يتفرد العقل به، وجليل يفزع إلى كتاب الله تعالى فيه، ثم التفاوت في ذلك بين المتحلين به على مقاديرهم في البحث والتنقيح(٢)، ولا تخفى النزعة المعتزلية الواضحة في هذا الموقف، لكنه يدل على مدى ما وصلت إليه الحركة العقلية الكلامية في الفلسفة الإسلامية.

(ولقد فطن بعض الدارسين من المستشرقين إلى أهمية علم الكلام، وذلك مثل رينان(٣) الذي ذهب إلى القول بأن الحركة الفلسفية الحقيقية ينبغي أن تلتبس عند فرق المتكلمين... كما قرر أيضا أن مذاهب كمذاهب المعتزلة والأشعرية لا يمكن أن تكون إلا ثمار بديعة من ثمار العقل العربي(٤)).

ومن هنا دعا د/ بدوى إلى إعادة التأريخ للفلسفة الإسلامية الكلامية في ضوء الذخائر الهائلة التي اكتشفت ونشرت، لأن ما نشر في الفترة الأخيرة يكفي لوضع دراسة شاملة هي بمثابة موازنة عامة لتقدير هذه الأصول(٥).

وسنجد العديد من القضايا التي كانت مظهرا لهذه الحركة الجدلية كقضية النسخ، والبداء، والنبوة... ونحو ذلك من القضايا التي شكلت هذه الحركة، ومثلت أجزاء من المصنّفات الكلامية.

ويبين ابن عربي(٦) أثر حركة الجدل مع الخصوم على علم الكلام بقوله: «علماء علم

(١) في نقد مدارس علم الكلام (مقدمة تحقيقه مناهج الأدلة في عقائد الملة)، أ/د محمود قاسم، (ص ٩).

(٢) رسالة في العلوم، أبو حيان التوحيدي، (ص ٢١ - ٢٢).

(٣) رينان: مؤرخ ومستشرق وناقد فرنساوى كبير ييعتبر من أعظم رواد حركة الاستشراق، و رمز من رموز فرنسا السيكولارية. ألف سنة ١٨٥٢ "رساله عن" ابن رشد والرشدية " (ص ١١٦ - ١٢١)، كما أكده بوضوح في موضع سابق (ص ١٠٦). اهتم بالدين من الناحية التاريخيه مش من الناحية اللاهوتيه. و طالب بنقد المصادر الدينيه نقد تاريخى علمى و التمييز بين العناصر التاريخيه الحقيقيه والعناصر الأسطوريه الخرافيه الموجوده فى الكتاب المقدس فانقلبت الكنيسه عليه. من اشهر كتبه " تاريخ نشأة المسيحيه.

(٤) علم الكلام وبعض مشكلاته، أ/د التفتازاني، (ص: ب).

(٥) تصديره لكتابه مذاهب الإسلاميين، أ/د بدوى، (صفحاته دون ترقيم).

(٦) بن عربي سعد الدين ابن عربي: محمد بن محمد بن علي بن العربي الطائي الحاتمي، سعد الدين ابن الشيخ محيي الدين ابن العربي، الأديب الشاعر؛ ولد بملطية في رمضان سنة ثمان عشرة وستمائة، سمع الحديث ودرس، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور؛ وتوفي بدمشق سنة ست وثمانين وستمائة، ودفن عند قبر أبيه بسفح قاسيون في تربة بني الزكي. (البداية والنهاية ١٣: ٢١٢).

الكلام ما وضعوه و صنفوا فيه ما صنّفوا ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله، وإنما وضعوه رادعا للخصوم»(١).

ونستطيع القول بأن علم الكلام وأصول الفقه هما الناحية الأصيلة للفكر الإسلامي(٢)، فعلم الكلام هو النتاج العقلي الخالص للمسلمين، ومهما صادف من مؤثرات خارجية لكنه - فيما يرى الدكتور النشار - بقي في جوهره إسلاميا بحثا حتى القرن الخامس، وبعد هذا شابهته عناصر يونانية، ومزج بالعلوم الفلسفية(٣).

وهذه فكرة جوهرية يمكن من خلالها نقد مصنّفات علم الكلام، ولكن يبدو أنه بقي أيضا في جوهره إسلاميا حتى بعد القرن الخامس، وإن اختلفت اللغة والمصطلحات.

تعريف علم الكلام وأغراضه(٤): (العلم الباحث في الأحكام الاعتقادية هو العلم المعروف باسم علم الكلام... والعلم الباحث في الأحكام العملية على اختلافها فهو علم الشرائع والأحكام أو علم الفقه)(٥).

وله عدة تعريفات بحسب توجه كل عالم وموقفه الكلامي، وسوف نذكر هنا بعض التعريفات التي يظهر بها مدى تأثير هذا التعريف أو ذلك في منهج التصنيف الكلامي، فمن ذلك:

١- تعريفه بأنه: (شرعا بمعنى الفن المدون: علم يبحث فيه عن إثبات العقائد الدينية المكتسب من أدلتها اليقينية، وبغير معنى الفن المدون: أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا. وقيل: إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات)(٦).

والعقائد الدينية هي الأحكام الشرعية التي يجب اعتقادها شرعا، ولا يقصد بها إلا ذلك،

(١) الفتوحات، لابن عربي، (٣٥/١).

(٢) راجع: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الشيخ مصطفى عبد الرازق (ص ٢٦-٢٧). - أ/د النشار، (٤٧/١).

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، أ/د النشار، (٥٤/١).

(٤) للتوسع بخصوص تعريفات علم الكلام راجع: ترتيب العلوم، ساجقلي زاده، (ص ١٤٣ - ١٤٩). للؤلؤ المنظوم في مبادئ العلوم، - محمد عليان المرزوقي الشافعي، (ص ٢٢٢ - ٢٣٨).

(٥) علم الكلام وبعض مشكلاته، (ص ٣ - ٤).

(٦) شرح السنوسية، الباجوري، (ص ٩).

الباجوري ١١٩٨ - ١٢٧٧ هـ = ١٧٨٤ - ١٨٦٠ م) إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري: شيخ الجامع الأزهر. من فقهاء الشافعية. نسبته إلى الباجور (من قرى المنوفية، بمصر) ولد ونشأ فيها، وتعلم في الأزهر، وكتب حواشي كثيرة منها (حاشية على مختصر السنوسي - ط) في المنطق، و(التحفة الخيرية - ط) حاشية على الشنشورية في الفرائض، و(تحفة المرید على جوهر التوحيد - ط) و(تحقيق المقام - ط) حاشية على كفاية العوام للفضالي، في علم الكلام، و(حاشية على أم البراهين والعقائد للسنوسي - ط)، وغير ذلك. تقلد مشيخة الأزهر سنة ١٢٦٣ هـ واستمر إلى أن توفي بالقاهرة. (معجم المطبوعات ٥٠٧ وإيضاح المكنون ١: ٢٤٤).

بخلاف الأحكام الشرعية العملية مثلا والتي يقصد بها العمل بمقتضاها ومحلها علم الفقه. وهذا التعريف كما ترى لا ينطبق إلا على علم الكلام عند المتقدمين، لأنه لا يشمل العلم بالقضايا التي هي وسائل لإثبات العقائد، لأنها ليست عقائد دينية بذلك المعنى؛ لأنه لا يجب اعتقادها، ولا تؤخذ من الشرع، إذ يمكن إثبات العقائد بالأدلة السمعية فحسب^(١). فمنهج التصنيف الكلامي بناء على هذا التعريف لن يشمل المسائل العقلية التي هي وسائل لإثبات العقائد، والتي اشتهرت عند المتأخرين بالمقدمات والأمور العامة، كما أنه لن يشمل شبه المخالفين، إنما سيقصر فحسب على ذلك العقائد بأدلتها اليقينية.

٢- وقد يُعرّف بأنه: (علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبهه)^(٢)، ومع اقتراب هذا التعريف من التعريف الأول إلا أنه أضاف إلى منهج التصنيف في علم الكلام تناول الشبه الكلامية ودفعها، وهو ما لم يتناوله منهج التصنيف الكلامي المبنى على التعريف الأول.

٣- وعرفه آخرون بأنه: (علم يبحث فيه على قانون الإسلام عن ذات الله تعالى وصفاته وأحواله الممكنات في المبدأ والمعاد، أو علم يعرف به أحوال الواجب وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد وأفعاله تعالى وأحكامه في الدنيا والآخرة على قانون الإسلام. فيبحث عن ذاته تعالى بأنه موجود قديم مخالف للحوادث، وعن صفاته من حيث إنها واجبة للذات أو جائزة، قديمة أو حادثة كصفات الأفعال، إلى غير ذلك من التقسيمات. والمراد بأحوال الواجب: ما يعم صفاته الثبوتية كالوجود والسلبية كالقدم، وأفعاله في الدنيا كإحداث العالم وفي الآخرة كالحشر، وأحكامه فيهما أيضا كوجوب بعث الرسل والثواب والعقاب، والمراد بأحوال الممكنات أحوالها التي تلحقها من حيث بدؤها وإعادتها واحتياجها إلى الواجب بذاته، والمراد بقانون الإسلام: القواعد التي تنبني عليها الأحكام الشرعية، مثل كون القديم الأول مؤثرا بالاختيار، وكون الواحد تصدر عنه الكثرة... ويجوز أن يراد بقانون الإسلام الكتاب والسنة، فالمعنى أنه يجب أن يكون البحث عن تلك الأحوال مطابقا لما يستفاد من الشرع الشريف، بحيث لو أدى العقل إلى ما يخالفه لا يكون مقبولا، وهذان التعريفان منطبقان على كلام المتأخرين)^(٣)، وأثرهما على منهج التصنيف الكلامي واضح للغاية، وفي ضوءهما يتسع هذا

(١) راجع: اللؤلؤ المنظوم في مبادئ العلوم، محمد عليان المرزوقي الشافعي، (ص ٢٢٣ - ٢٢٥).

(٢) اللؤلؤ المنظوم في مبادئ العلوم، محمد عليان المرزوقي الشافعي، (ص ٢٢٦).

(٣) المرجع السابق

المنهج ليشمل كل المباحث الكلامية التي تم استقدامها من الفلسفة، ليبيدي المتكلمون آرائهم بناء على قانون الإسلام.

ويمكن استخلاص أغراض علم الكلام من جملة التعريفات التي قدمها علماء الكلام، وذلك فيما يلي:

(١) إثبات العقائد الدينية بإيراد البراهين على صحتها، والدفاع عنها ضد شبهات المخالفين.

(٢) تحقيق الإيمان الجازم بالله تعالى ورسوله بالاستناد إلى الأدلة القاطعة والبراهين الجلية.

(٣) الفصل بين الحجة والشبهة، والتمييز بين السنة الماثورة والبدعة المحدثه.

(٤) إرشاد المسترشد بإيضاح الحجة له، وإفحام المعاند بإقامة الحجة عليه.

(٥) بناء العلوم الشرعية عليه بوصفه أساسا ومصدرا عطاء لها.

(٦) تحصيل السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة، وتلك هي الغاية النهائية لعلم الكلام^(١).

ب- موضوع علم الكلام:

موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية، كبदन الإنسان لعلم الطب، فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض، وكالكلمات لعلم النحو فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء، أما مسائل أي علم فهي: المطالب التي يبرهن عليها في العلم، ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها^(٢).

لكن السؤال: ألا توجد نظرية معرفة كلامية عامة تشملهم جميعا؟

لقد حاول الإجابة على هذا السؤال بعض كبار الباحثين، واستطاع بالفعل تقديم نظرية معرفة كلامية عامة، متناولا خلال عرضه لكثير من التفاصيل والخلافي الكلامي، وسنعرض للخطوط العريضة لهذه النظرية، وبقدر ما يحتاجه البحث:

(١) تقوم نظرية المعرفة الكلامية العامة على النظر العقلي الذي هو طريق للعلم أو الظن،

من ثم لا بد من تصحيح طريق هذا النظر، وينقسم العلم عندهم إلى ضروري ونظري،

وقد اختلف المتكلمون حول طريقة إفادة النظر للعلم هل ذلك بالعادة كما تقول الأشعرية

أو بالتوليد كما تقول المعتزلة أو بغير ذلك من الوجوه التي ذهب إليها المتكلمون. ثم

(١) مقدمة في الفلسفة العامة، أ/د محمد الأتور السنهوتي، (ص ٢٤٠ - ٢٤١)، وفي كتابه أيضا مدخل نقدي إلى علم الكلام، (ص ٢٠ - ٢٦) باختصار.

(٢) كتاب التعريفات، للجرجاني، (ص ١٨٧، ٢١٢).

اختلفوا بعد إفادته للعلم إلى أي درجة يفيدته إلى درجة الظن أم اليقين.

(٢) كما تناولوا في بحثهم حكم النظر، وهل هو واجب أم لا، وما هو طريق وجوبه بالشرع أم بالعقل، لينقلوا بعد ذلك إلى تناول أداة المعرفة (العقل وأنواعه)، وطرقها (المعرف طريق للتصور - والدليل طريق للتصديق)، وهذه هي الطرق الصحيحة عند المتأخرين، حيث ضعفوا طرق المعرفة الأخرى التي قال بها متقدمو المتكلمين (ما لا دليل عليه يجب نفيه - قياس الغائب على الشاهد - الإلزامات - التمسك بالأدلة النقلية في المباحث العقلية التي يطلب فيها اليقين).

(٣) أما ميدان المعرفة الكلامية عندهم فيضيق ويتسع بحسب مذاهبهم في موضوع علم الكلام، هل هو إثبات العقائد، أم دفع الشبهات، أم الوجود... على ما تناولناه في موضعه.

(٤) وهم خلال تناولهم لنظرية المعرفة يتطرقون إلى الكلام عن إمكانها ومذاهب الناس في ذلك، بين من ينكر إمكان المعرفة الحسية، أو ينكر إمكان المعرفة البديهية، ومن ينكرهما معاً، كما أنكر آخرون إفادة النظر للعلم في الإلهيات، كما يتطرقون إلى الكلام عن طبيعتها وأنواعها كالمعرفة الأولية البديهية، والمعرفة الحسية والعقلية... إلى غير ذلك من المسائل التي تشكل في مجموعها نظرية المعرفة الكلامية^(١).

(٥) ومن البين أن نظرية المعرفة ستؤثر تأثيراً مباشراً في منهج التصنيف الكلامي، وأول أثر لها هو تقديم عرضها في أول التصنيف الكلامي نظراً لأهميتها، وهو ما سنجدده محل اتفاق عند المدارس الثلاثة (المعتزلة - الأشعرية - الماتريدية)، إذ تعتبر نظرية المعرفة الأساس الذي سينبني عليه المذهب الكلامي كله. ثم تتعدد آثارها على مدى المذهب كله من حيث طريقة الاستدلال، ومجال البحث الكلامي... إلخ، ومع تنوع نظرية المعرفة تتنوع آثارها لتنتج لنا مناهج تصنيف متنوعة بتنوعها.

(١) اعتمدنا في هذا العرض المجوز على أ/د يحيى هاشم حسن فرغل، في دراسته الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية، والذي قدم عرضاً كاملاً ومفصلاً ونقدياً لنظرية المعرفة عند المتكلمين (ص ١٣٧-٢٨٨)، ثم خطا بالبحث خطوة أخرى - بعد أن نقد نظرية المعرفة الكلامية - باقتراح نظرية معرفة أخرى تعتمد على القرآن الكريم والأصول الشرعية، وتسقط الموقف الكلامي العقلي المعتاد من حساباتها (ص ٢٨٩ - ٤٠٩)، وهي محاولة فريدة وجديرة بالتشغيل والتفعيل والتواصل معها والبناء عليها.

المطلب الثالث : أوجه الشبه والافتراق بين منهج الفلاسفة والمتكلمين:

أوجه التوافق بين الفلاسفة والمتكلمين:

وافق المتكلمين الفلاسفة في "نظرية المعرفة" وإن كانوا خالفوهم في الطريق، فقد سلك الفلاسفة طريقاً آخر هو طريق الإمكان والوجوب، فقد قسموا العالم إلى ممكن وواجب بدلاً من قديم وحادث، قال ابن سينا^(١): "ما حقه في نفسه الإمكان فليس يصير موجوداً من ذاته، فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه من حيث هو ممكن، فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته، فوجود كل ممكن هو من غيره"^(٢)، ثم قال: "إما أن يتسلسل ذلك إلى غير نهاية فيكون كل واحد من آحاد السلسلة ممكن في ذاته، والجملة متعلقة بها، فتكون غير واجبة أيضاً وتجب بغيرها"^(٣).

ففي الفقرة الأولى أشار إلى أن الممكن لا يوجد إلا لعلة تغايره، وتقريره إن الممكن إما أن تحتاج ذاته في أن تكون موجودة إلى غيرها أو لا تحتاج، والثاني باطل لاستحالة الترجيح بلا مرجح. إذن الأول حق.

وفي الفقرة الثانية يريد إثبات واجب الوجود لذاته، وتقرير الكلام بعد ثبوت احتياج الممكن إلى الغير - أن ذلك الغير إما واجب وإما ممكن، والكلام في ذلك الممكن كالكلام في الممكن الأول، فأما أن ينتهي إلى واجب أو يدور^(٤) أو يتسلسل^(٥) إلى غير نهاية فتبين أن سلسلة الممكنات - على فرض وجودها - محتاجة إلى شيء خارج عنها^(٦)، وهذه الطريقة كما هو ظاهر هي عقلية نظرية جدلية، ومبنية على مقدمات منطقية أعقد وأطول من مقدمات المتكلمين

(١) ابن سينا الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا: ما أعلمه روى شيئا من العلم ولو روى لما حلت الرواية عنه لأنه فلسفي النحلة ضال لا رضي الله عنه. وذكر من تصانيفه شيئا كثيرا منها لسان العرب عشر مجلدات وكتاب المبدأ والمعاد وغير ذلك وهي تنيف على مئة مجلد. ثم ولي الوزارة مرتين لشمس الدولة بهمدان ثم حبس في ولاية ابنه تاج الملك بالقلعة ثم قصد علاء الدولة همذان وأخذها ثم أطلق ورحل إلى علاء الدولة فبالغ في إكرامه. ومات بهمدان في يوم الجمعة في رمضان سنة ٤٢٨ وله ثمان وخمسون سنة. (لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (ج ٣ - ص ١٧٦).

(٢) الإشارات والتنبيهات، لابن سينا (٣/ ٢٠ - ٢١) .

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الدور: هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه، فإذا قيل إن ممكناً هو (أ) متوقف وجوده على ممكن آخر هو (ب) ثم قيل إن (ب) الذي يتوقف وجود (أ) عليه متوقف في وجوده على (أ) آل الأمر إلى أن (أ) متوقف في وجوده على نفسه. ومعنى توقف وجوده على نفسه أن وجوده من ذاته ووجود الممكن من ذاته مستحيل كما هو الفرض. انظر: سليمان دنيا: مقدمة الإشارات (١/ ٣١) والجرجاني: التعريفات (ص: ٩٤).

(٥) التسلسل: هو ترتيب أمور غير متناهية وأقسامه أربعة. انظر: سليمان دنيا: مقدمة الإشارات (١/ ٣٣) وما بعدها، والجرجاني: التعريفات (ص: ٤٩).

(٦) شرح الإشارات حاشية الإشارات والتنبيهات، الطوسي - وانظر: مقدمة الإشارات: سليمان دنيا (١/ ٢٨) وما بعدها.

في مسألة "حدوث العالم" وهي مع ذلك أشد فساداً منها وأسوأ لازماً^(١).
يتبع الفلاسفة في الاستدلال على واجب الوجود طريقة الإمكان والوجوب، فيقولون بأن كل ما كان ممكن الوجود والعدم لم يوجد منذ الأزل؛ لأنه يعلم بالضرورة أن حالة الإمكان المحض -أي العدم- سابقة على مرحلة الوجود الفعلي لهذا الممكن، فلما كان كل موجود نراه ممكناً، فقد وجب أن تكون حالة العدم والإمكان المحض سابقة لجميع الموجودات، وعليه فإن الممكن لا يوجد كائناً غيره علوياً أو سفلياً، ولما كانت حالة العدم وإمكان الوجود السابق لجميع الموجودات فقد وجب أن يكون موجوداً سابقاً لحالة العدم هذه، ووجوده واجب وهو الإله.
وبعضهم يقول بأننا إذا نظرنا إلى الموجودات من حولنا فإننا نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن، وأشياء تنعدم بعد وجودها، وهذه الأشياء لا تخرج عن كونها مستحيلة الوجود أو ممكنة أو واجبة، والقول باستحالتها باطل لأنها موجودة، ووجوب وجودها باطل كذلك لأن الواجب لا يعدم، فبقي أنها ممكنة الوجود، والممكن محتاج إلى سبب لوجوده، وهذا السبب لن يكون عين الشيء الممكن ولا جزأه لاستلزام تقدم الشيء على نفسه، فوجب أن يكون هناك سبب وراء الممكنات كلها وهو واجب بنفسه يمنح الممكنات وجودها، وهذا الواجب الوجود هو: الله.
وبعض الفلاسفة يسلك للتدليل على واجب الوجود طريقاً آخر فيقول: كل ممكن فهو معلول قطعاً، والمعلول لا بد له من علة أولى لا يتطرق إليها الإمكان ويجب وجودها بنفسها، وهذه العلة الأولى هي: الإله^(٢).

ونلاحظ أن كل هذا الاستدلالات على وجود الله عند الفلاسفة مرجعها إلى الإمكان والوجوب وملخصها: أن الموجود إما أن يكون واجباً أو ممكناً، والممكن محتاج إلى مؤثر واجب وإلا لزم الدور والتسلسل فثبت أن الممكن وجوده بغيره، والواجب وجوده بذاته وهو السبب الأول لجميع الممكنات الموجودة والعلة الأولى لكل المعلولات.
ويجب أن نلاحظ هنا أن الفلاسفة إذا قالوا بإمكان الموجودات - والعالم كله ممكن الوجود- فإنما يعنون أن لهذا العالم مادة قديمة أزلية وجودها متقدم على وجود العالم وهي ما يسمونها الهيولي، هذه الهيولي معلولة عن العلة الأولى بشكل حدوث ذاتي، وهي تتحرك للتشبه بهذه العلة، فالعلة أولى لغيرها وهي آمرة للفلك بالتحرك للتشبه بها كما يتحرك العاشق نحو

(١) وانظر لتفصيل نقد هذه الطريقة: درء التعارض ابن تيمية: (١/ ٨) وما بعدها، والنبوات (ص: ٧٣-٨٤)، ومنهاج السنة (١/ ٩٦) ط. جامعة الإمام، الأولى، ١٤٠٦هـ، ت: رشاد سالم.

(٢) انظر رسالة التوحيد لمحمد عبده (ص١٨-٢١) ونظرية التكليف د. عبد الكريم عثمان ص١٥٦.

المعشوق، وحدوثه عنها حدوث ذاتي لا حدوث زمني.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والمعنى الثالث الذي أحدثه الملاحدة كابن سينا وأمثاله قالوا: نقول العالم محدث أي معلوم لعلة قديمة أزلية أوجبته فلم يزل معها، وسموا هذا الحدوث الذاتي وغيره الحدوث الزمني، والتعبير بلفظ الحدوث عن هذا المعنى لا يعرف عن أحد من أهل اللغات لا العرب ولا غيرهم إلا من هؤلاء الذين ابتدعوا لهذا اللفظ هذا المعنى، والقول بأن العالم محدث بهذا المعنى فقط ليس في قول أحد من الأنبياء ولا أتباعهم ولا أمة من الأمم العظيمة"^(١).

إن المسألة فطرية في الحقيقة، وإن إقامة الأنبياء والحكماء الحجج عليها هي لإصلاح فطرة من عرضت لهم الشبه فيها، كما تعرض في غيرها من الأمور الفطرية والضرورية.. لذلك قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) أي: وهو ممّا لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره.

قال ابن كثير: هذا يحتمل معنيين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به. فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض - أي الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق - فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما. فلا بدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرد به العبادة له، شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى^(٣).

فأشار أولاً إلى أن الإيمان به أمر ثابت في الفطرة لا موضع للشك فيه، ثم ذكر بعض صنعه الدال على قدرته وانفراده بالتأثير والتدبير وهو كونه فاطر السماوات والأرض، أي: شق وفصل بعضها من بعض"^(٤).

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج ١/ص ٧٢) وانظر (ص ٦٩-٧٠) وانظر تاريخ الفلسفة العربية د. جميل صليبا. ص ٢٢٣.

(٢) سورة إبراهيم: ١٠

(٣) محاسن التأويل (ج ٦ - ص ٣٠٤)

(٤) مجلة المنار (٧/ ١٣٩).

المنهج الثاني: منهج الفلاسفة الذين رفضوا الاحتكام إلى الشرع، وأصروا على أن يضربوا في ببداء شاسعة من غير دليل فضلوا وأضلوا، لقد غفل هؤلاء على أن العقل لا يستطيع أن يخوض في هذه الميادين بنفسه؛ لأنها قضايا غيبية، لا تدخل في نطاق قدرات العقول البشرية.

ولذلك فإن الفلاسفة كانوا أعدى أعداء الرسل، وقد تأثر كثير من المنتسبين إلى الإسلام بهؤلاء الفلاسفة، فاحتكموا إلى الموازين والمقاييس العقلية التي أخذوها من أولئك الفلاسفة، وعارضوا بها الشرع، وحكموها في الشرع، وردوا بها كثيرا من الأحكام الشرعية بحجة: أن الأدلة العقلية يقينية، والأدلة الشرعية كثير منها ظني الثبوت، ظني الدلالة، أو ظني الثبوت، وإن كان قطعي الدلالة، أو ظني الدلالة وإن كان قطعي الثبوت.

فرد هؤلاء أحاديث الآحاد في العقيدة، ومنهم من ردها في العقيدة والأحكام، ومنهم من لم يأخذ بنصوص الكتاب؛ لكونها ظنية الدلالة، ويمكننا أن نسمي هذا المذهب "المذهب الفلسفي الكلامي"، وهذا الفريق من الناس أكثر الناس اختلافا وتناقضا، وقد حذر العلماء الجهابذة من مغبة السير في هذا الطريق، وبعض سالكيه تراجع عنه جزئيا أو كليا بعد أن عرفوا ما فيه من اعوجاج، والطريق الأول: طريق الرسل، وهو طريق سهل قصير مأمون العواقب.

أما هذا فإن سالكيه لا يصلون إليه إلا بعد أن يقتحموا لجة البحر الخضم؛ فمنهم من أوجب الشك أولا، ومنهم من أوجب النظر، أو القصد إلى النظر، ومنهم الذين نادوا بتعلم الرياضيات، والطبيعيات، ومنهم من قال: نبدأ بالمنطق ثم الطبيعيات والرياضيات، وهي علوم لا يتقنها إلا الخاصة؛ فكيف يتيسر لعوام الناس تعلمها؟

إن الوحي عندنا أساس، والعلم السماوي هو نور العقل، والعلم السماوي يعرفنا بربنا وأنفسنا والكون من حولنا، ولسنا بحاجة إلى مقاييس الفلاسفة وموازن المتكلمين.

قيل لابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: كيف عرفت ربك؟ قال: "عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي" وصدق والله؛ اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا.

وإذا كان العقل يستضيء بنور الوحي؛ فإن الوحي السماوي قد حوى الأدلة العقلية الباهرة، وألزم العقل بالنظر في ملكوت السموات والأرض، والتفكير في ذلك في قدرة العقل ومؤنته، وهذا التفكير يؤكد الإيمان ويقويه، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

* إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا

وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾ (١) لِلَّهِ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ يَمْلِكُ أَمْرَهُمْ. وهو على كل شيء قدير، فهو يقدر على عقابهم
لآيات دالة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته لأولي الأبواب للذين يفتحون
بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من
عجائب الفطر.

وفي النصائح الصغار: املاً عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب،
متفكراً في قدرة مقدرها، متدبراً حكمة مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين
النظر: وعن ابن عمر رضى الله عنهما: قلت لعائشة رضى الله عنها: ((أخبريني بأعجب ما
رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت، ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في
لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال: يا عائشة، هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟
فقلت: يا رسول الله، إني لأحب قربك وأحب هواك، قد أذنت لك. فقام إلى قربة من ماء في
البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلى، فقرأ من القرآن فجعل يبكي حتى بلغ
الدموع حقويه، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت
دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي فقال له: يا رسول الله، أتبكي
وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ((يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً)). ثم قال:
((ومالي لا أبكى وقد أنزل الله على في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾)) ثم قال:
((ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)). وروى: ((ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها)).

ومحل على جنوبيهم نصب على الحال عطفاً على ما قبله، كأنه قيل: قياماً وقعوداً
ومضطجعين ويتفكرون في خلق السموات والأرض وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام
وإبداع صنعتها وما دبر فيها بما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه على عظم شأن الصانع
وكبرياء سلطانه (٢).

(١) سورة آل عمران: ١٨٩-١٩١

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار
الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ (ج ١ - ص ٤٥٤).

المبحث الرابع

الفرق بين علماء الفلاسفة وعلماء الكلام ومنهج القرآن في حماية الأفكار

المطلب الأول : طريقة الفلاسفة :

قد اعترف كثير من الفلاسفة بأنهم لا يصلون في العلم الإلهي إلى اليقين وإنما يتكلمون فيه بالأولى والأحرى، فكان هذا الاعتراف شهادة على أنفسهم أن طريقتهم لا تفيد علمًا ولا تقييم دليلاً على واجب الوجود، وقد اعترف الرازي بعد استعراضه لأدلة القائلين بقدم العالم والقائلين بحدوثه أنه لم يترجح عنده شيء، وعليه يجوز حدوث كل قائم بنفسه أو قدم كل حادث^(١) وقد ذم الغزالي طريقتهم أكثر من طريقة المتكلمين معترفاً أنه لم يحصل له مقصوده منها؛ لأن كلامهم في الإلهيات تخميني نظري لا يقيني وقد كان الخسرو شاهي يقول: "والله ما أدري ما أعتقد"^(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الإلهيات فكلياتهم فيها أفسد من كليات الطبيعة وغالب كلامهم ظنون كاذبة فضلاً عن أن تكون قضايا صادقة يؤلف منها البرهان، ولهذا حدثونا عن فاضل زمانه في المنطق وهو الخونجي صاحب "كشف أسرار المنطق" و"الموجز" وغيرهما أنه قال عند الموت: "أموت وما عرفت شيئاً إلا علمي بأن الممكن يفتقر إلى المؤثر، ثم قال: "الافتقار وصف سلبي فأنا أموت وما عرفت شيئاً"^(٣).

امتيازات طريقة الفلاسفة السابقة بميزات وهي:

١- اجواز أن يكون الممكن قديماً:

على طريقة الفلاسفة يجوز أن يكون الممكن قديماً لقولهم بقدم مادة العالم عليه، وبزعمهم أن الفلك واجب بنفسه وأن حركته إنما هي للتشبه بعقله الغائية، معتبرين أن الله سبب وعلّة أولى لغيره والعلّة مماثلة للمعلول، وبالتالي أدى بهم قولهم هذا للقول بقدم العالم وأزليته، ومن هذه النقطة انبثقت معظم آرائهم التي كفّروهم بها أهل السنة.

وقد بين أبو حامد الغزالي كفرهم في عدة مسائل منها قولهم بقدم العالم وأزليته وإنكارهم علم الله بالجزئيات، وإنكارهم المعاد، كما أنه فسقهم وبدعهم في مسائل كثيرة مستنداً بذلك على

(١) انظر الفتاوى، لابن تيمية (ج١٣/ص١٦٨) وتلبيس الجهمية (ج١/ص١٣٠ و ج٢/ص٤٧٨).

(٢) انظر الفتاوى، لابن تيمية (ج٩/ص٢٢٨).

(٣) الفتاوى، لابن تيمية (ج٩/ص١١٣) وانظر الرد على المنطقيين ص١١٤.

فساد طريقتهم في الاستدلال وأنهم لم يستطيعوا إقامة دليل صحيح على وحدانية الله تعالى؛ لأنهم قالوا بنظرية الفيض والتكثر ويعنون بها: أن الله صدر عنه العقل الأول وهذا صدر عنه العقل الثاني وهكذا إلى العقل العاشر الذي هو العقل الفعال في عالمنا. وهذا المسلك هو ما يسمونه بالطريق التصاعدي حيث يبحثون الأمور الطبيعية ثم يصعدون منها إلى الأفلاك ثم إلى العقول العشرة ثم إلى واجب الوجود^(١).

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية فساد طريقهم هذه وأنهم بزعمهم صدور العقل والنفس عن الله أشد كفرًا ممن نسب له البنين فيقول: "والذين قالوا إن العقول والنفس صدرت عنه، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم فإن أولئك لم يكونوا يجعلون شيئاً من البنين والبنات مبدعة لكل ما سواه، وهؤلاء يجعلون أحد البنين وهو "العقل" أبداع كل ما سواه ويجعلون "العقل" كالذكر و"النفس" كالأنثى وهذا ما صرحوا به، وكانت العرب تقر بأنه خلق السماوات والأرض وأحدثهما بعد أن لم تكونوا ولم تكونا، يقولون إنها قديمة أزلية معه لم تزل معه"^(٢).

ب- طريقته تناقض التوحيد:

مذهب أرسطو ومن تأثر به أن الإله الكامل المطلق لا يعقل إلا ذاته ويتنزه عن الإرادة والعمل وعلم الكليات والجزئيات التي هي من علم عقول البشر، وقد أمعن كثير من الفلاسفة في التنزيه حتى جعلوا كل صفات الإله سُلُوبًا محضة، وأنكروا صفة الوجود لمقابلتها للعدم واشترك الموجودات جميعها في صفة الوجود، لذلك وجود الرب عندهم وجود مطلق وهو غير مباين للعالم ولا يشار إليه، وما قالوه ليس له حقيقة في الخارج إلا في الأذهان، وهو غاية الكفر "فتوحيد هؤلاء هو غاية الإلحاد والتعطيل والجحد والكفر، وفروع هذا التوحيد إنكار ذات الرب والقول بقدوم الأفلاك وأن الله لا يبعث من في القبور وأن النبوة مكتسبة وأنها حرفة من الحرف كالولاية والسياسة، وأن الله لا يعلم عدد الأفلاك ولا الكواكب ولا يعلم شيئاً من الموجودات المعينة البتة وأنه لا يقدر على قلب شيء من أعيان العالم ولا شق الأفلاك ولا خرقها وأنه لا حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي ولا جنة ولا نار، فهذا توحيد هؤلاء"^(٣)، هذا

(١) انظر المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي (ص ٤٣-٥٠) والرد على المنطقيين، لابن تيمية ص ١٩٥.

(٢) الرد على المنطقيين، لابن تيمية ص ٢١٩ وص ١٤٩ وانظر الفتاوى، لابن تيمية (ج ٢/ص ٢١-٢٣ وج ١٢/ص ١٤٠-١٥٥).

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم (ج ٣/ص ٤٤٧) وانظر الفتاوى، لابن تيمية (ج ٤/ص ٥٨ وج ١٣/ص ١٤٩-١٥٢) والنبوات، لابن تيمية ص ٢٨٦ والرد على المنطقيين، لابن تيمية ص ٢١٤ وص ٣١٤ وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج ٢/ص ٢٥٥) والدين الخالص (ج ١/ص ٩٦ وغاية الأمانى (ج ١/ص ٤٨٣) ودعوة التوحيد للهراس ص ٢٨٨.

كله كفر بقدرة الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ج- طريقتهم غير عملية وليس لها رسالة في الأرض:

طريقة الفلاسفة ذهنية مجردة لا تفيد العمل وليس لها رسالة في الأرض؛ لأنها تحصر العقل ضمن مفاهيم معينة ومقررات سابقة من صنع الفكر البشري وتحاول تطبيق هذه المفاهيم على العقيدة، ولا يعنيتها بعد ذلك أمن الناس أو لم يؤمنوا، وسالكوها يبحثون في الإلهيات بحثاً مجرداً منتظرين ما يؤدي إليه البرهان ولا يهتمهم ماذا تكون النتيجة.

إن هذه الطريقة لا تعدو أن تكون بحثاً عقلياً صرفاً ورياضة ذهنية ليس بينها وبين واقع الحياة صلة، ولا تطلب عملاً معيناً من أتباعها كعبادة الله تعالى لأنها لا تؤمن بجنة أو نار، ولذلك كانت هذه الطريقة لا توصل إلى التوحيد الحق، ومن ادعاه من الفلاسفة فتوحيده ناقص، بل المشركون أقروا بتوحيد الربوبية، وهؤلاء نسبوا الخلق إلى العقل الأول^(١).

د- طريقتهم التبس فيها الحق بالباطل:

طريقة الفلاسفة لا تفرق بين الحق والباطل، وأهل الفلسفة أعظم الناس افتراقاً واختلافاً مع دعوى كل منهم أن الذي يقوله حق مقطوع به قام عليه البرهان، وقد ذم السلف الصالح رضي الله عنهم هذه الطريقة وحذروا منها، وأما سالكوها فمنهم من ندم لسلوها بعد أن خاض لجهتها وكشف مآسيها وعرف كفرها، وبعضهم حاول التوفيق بينها وبين الدين، وهؤلاء خطرهم أعظم وجرمهم أكبر؛ لأن هذه المحاولة لم تفد الإسلام، وفيها تمويه على المسلمين حتى لا يعرفوا الفكر الإغريقي على حقيقته الكاذبة، وذلك بشرحهم العقيدة الإسلامية شرحاً فلسفياً وإمالة الفكر الإغريقي نحو العقيدة لصهر الطرفين في بوتقة واحدة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وحيئنذ فيمتنع أن تكون طريقتهم مميزة للحق من الباطل والصدق من الكذب باعتبار ما هو الأمر عليه في نفسه، ويمتنع أن تكون منفعتها مشتركة بين الأدميين بخلاف طريقة الأنبياء فإنهم أخبروا بالقضايا الصادقة التي تفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب، فكل ما ناقض الصدق فهو كذب وكل ما ناقض الحق فهو باطل، فلهذا جعل الله ما أنزله من الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأنزل أيضاً الميزان وهو ما يوزن به ويعرف به الحق من الباطل، ولكل حق ميزان يوزن به، بخلاف ما فعله الفلاسفة المنطقيون، فإنهم لا يمكن أن يكون هادياً للحق ولا مفرقاً بين الحق والباطل ولا هو ميزان

(١) انظر الفتاوى (ج٩/ص٣٤).

يعرف به الحق من الباطل" (١).

هـ- طريقتهم لا تفيد علماً ولا عملاً:

يسلك الفلاسفة في طريقتهم أقيسة عديدة كلها لا تليق بحق الله تعالى مثل قياس التمثيل والاستقراء والشمول، لأن القياس التمثيلي الذي يستدل فيه بأحد الجزأين على الآخر، والقياس الاستقرائي الذي يستدل فيه الجزئي على الكلي والقياس الشمولي الذي يستدل فيه بالكلي على الجزئي، كلها لا تدل إلا على قدر مشترك ولا تدل على شيء معين، والله تعالى لا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها أو يستوي فيها الأصل والفرع، لذلك كانت هذه الأقيسة المستعملة أضعف الطرق لأنها لا تثبت إلا وجوداً واجباً بقضايا كلية لا تدل على الله بعينه، إذ إن الكلي لا يمنع تصويره من وقوع الشركة فيه، والعلم بالصانع ليس موقوفاً على هذه الأقيسة بل بالآيات الدالة على معين لا شركة فيه (٢).

(١) الرد على المنطقيين ص ٤٧٢ وانظر الفتاوى (ج ٩/ص ٢٠٧ - ص ٢٢٦-٢٣٥)، وتلبس الجهمية (ج ٢/ص ٤٧٨).

(٢) انظر الفتاوى (ج ٩/ص ١٣٩ - ١٤٢ - ص ١٣٥) والرد على المنطقيين (ص ١٣٨ - ١٥٩) وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول

(ج ١/ص ١٤) وتلبس الجهمية (ج ٢/ص ٤٧٤).

المطلب الثاني: طريقة المتكلمين:

ينقسم المتكلمون إلى طوائف عديدة ومذاهب متباينة، ولكل طائفة آراؤها الخاصة بها. فغرضي هو تناول موضوع مشترك بين المتكلمين جميعاً، ألا وهو استدلالهم على وجود الله بحدوث الأعراض، ورأيت أولاً أن أعرض طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الله كما وردت عندهم: ثم أعرض ثانياً أهم مميزات هذه الطريقة والتي تتلخص فيما يلي:

(١) جعل المتكلمون هدفهم الأول هو إثبات توحيد الربوبية معتمدين في ذلك على دليل التمانع. قال الله تعالى (لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا) هذه الاية عند بعض المتكلمين تدل على دليل التمانع، قال ابن القيم رحمه الله (دليل التمانع على التوحيد وهو أنه: يستحيل أن يكون للعالم فاعلان مستقلان بالفعل؛ فإن استقلال كل منهما ينفي استقلال الآخر، فاستقلالهما يمنع استقلالهما). (١).

(٢) تقديمهم العقل على الشرع وجنوحهم إلى التأويل وإيجابهم النظر.

(٣) طريقتهم متعبة طويلة لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية الجافة.

(٤) بعد طريقتهم عن التوحيد الحقيقي المبعوث به الرسل.

(٥) طريقتهم غير عملية ولا تدخل الناس في دين الله؛ لعدم مناسبتها لجميع الناس، ولا اعتمادها على ألفاظ مستوردة من الأمم الأخرى.

أولاً: عرض طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الله

طريقة المتكلمين في إثبات الخالق هي الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأجسام، ولا يُستدل على حدوث الأجسام إلا بحدوث الأعراض، فهم لا يستدلون بحدوث ذات الأشياء وأعيانها من السحاب والمطر والحيوان والنبات، إنما يستدلون بحدوث الأعراض لأن الأجسام عندهم مكونة من الجواهر الفردة والله إنما يحدث تأليفها وتركيبها، فإذا أثبتوا أن الأعراض القائمة بالأجسام حادثة قالوا بأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحادث إما أن يكون مقارناً له أو متأخراً عنه، وما قارن الحادث أو تأخر عنه فهو حادث مثله (٢).

مما سبق نستطيع أن نجمل دليل المتكلمين بالنقاط التالية:

(١) إن في الأجسام أعراضاً كالحركة والسكون والاجتماع والافتراق يجوز عليها العدم

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢٠٣/٥).

(٢) انظر الفتاوى (ج١٢/ص١٤٠ - ١٥٠ - ص٢١٢) وانظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج١/ص١٨٦-١٨٨).

والبطلان، والقديم لا يجوز عليه العدم والبطلان.

(٢) إن الأعراض تشتمل على المختلف والمتماثل والمتضاد، والقديم لا يصح اشتماله على ذلك.

(٣) إن الأعراض تتجدد على الأجسام، وهذا التجدد هو الحدوث، إذن فالأعراض حادثة.

(٤) إن الأعراض الحادثة لا تقوم إلا بالأجسام، فالأجسام حادثة مثلها، وعليه فالعالم كله حادث.

(٥) إن العالم لا يحدث نفسه، ولا يصح الدور والتسلسل، فيثبت بذلك أنه لا بد من محدث قديم لهذا العالم وهو الله تعالى^(١).

وأرى ضرب مثال يوضح استدلال المتكلمين على حدوث الأجسام بحدوث الأعراض، وهو مثال خلق الإنسان. فإن المتكلمين لا يجعلون خلق الإنسان نفسه دليلاً على الله تعالى كما في آيات القرآن، بل جعلوا خلق الإنسان مستدلاً عليه وأخذوا يقيمون الأدلة على أن الإنسان مخلوق عن طريق استدلالهم بحدوث أعراض النطفة، فيقولون بأن الإنسان وغيره مكون من جواهر فردة، وخلق الإنسان وغيره إنما هو إحداث أعراض في تلك الجواهر المنفردة بجمعها وتفريقها، وليس هو إحداث عين الإنسان أو عين الأجسام الأخرى، وبما أن النطفة لم تخل عن اجتماع وافتراق وهما عرّضان حادثان فلم يخل الإنسان إذن من الحوادث، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها فثبت أن الإنسان مخلوق، وبما أنه لم يخلق نفسه فثبت أن له خالقاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لكن هؤلاء الذين استدلوا بخلق الإنسان فرضوا ذلك في الإنسان ظناً أن هذه طريقة القرآن وطولوا في ذلك ودققوا، حتى استدلوا على كون عين الإنسان وجواهره مخلوق لظنهم أن المعلوم بالحس وبديهة العقل إنما هو حدوث أعراض لا حدوث جواهر، وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب والمطر والزرع والثمر والإنسان والحيوان فإنما يحدث فيه أعراضاً وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفريقها.

وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة ولا بضرورة العقل، وإنما يعلم ذلك إذا استدل كما استدلوا فقالوا: هذه أعراض حادثة في جواهر وتلك الجواهر لم تخل من الأعراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض، ثم قالوا: وما لم يخل من الحوادث فهو حادث.

(١) انظر نظرية التكليف د. عبد الكريم عثمان (ص ١٥٦-١٦١).

ولهذا كانت هذه الطريقة باطلة عقلاً وشرعاً وهي مكابرة للعقل؛ فإن كون الإنسان مخلوقاً محدثاً كائناً بعد أن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس، وكل واحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد أن لم يكن وأن عينة حدثت، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾^(١) يقول تعالى ذكره وليس خلق ما وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك، وعقم زوجتك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك، فأنشأتك بشرا سويا من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهب لك من الولد، ولم تك شيئا، فكذلك أخلق لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقر، مع عتيك ووهن عظامك، واشتعال شيب رأسك^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٣) يستدل تعالى بالبداة على الإعادة، يعني أنه، تعالى (قد) خلق الإنسان ولم يك شيئا، أفلا يعيده وقد صار شيئا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^(٤) (٥)، وفي الصحيح: "يقول الله تعالى: كذنبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذبيه إياي فقلوه: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما آذاه إياي فقلوه: إن لي ولدا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد* ولم يكن له* كفوا أحد"^(٦) ليس هذا مما يستدل عليه، فإنه أبين وأوضح مما يستدل به عليه لو كان صحيحا، فكيف إذا كان باطلا"^(٧).

فهذه الطريقة التي سلكها المتكلمون كانت سببا في ضلالهم وانحرافهم عن المنهج السوي، وقد زادوا في تعنتهم عندما قرروا أن سلوكهم هذا الطريق موافق لطريقة القرآن الكريم، وقد أخطئوا في تقريرهم هذا؛ لأن طريقة القرآن الاستدلال على الله تعالى ووحدانيته بنفس آياته التي يستلزم العلم بها العلم به تعالى كاستلزام العلم بالشعاع العلم بالشمس من غير احتجاج إلى قياس كلي يقال فيه: وكل محدث فلا بد له من محدث، أو كل ممكن فلا بد له من مرجح أو كل حركة فلا بد لها من علة غائية أو فاعلية، ومن غير احتياج إلى القول بأن سبب الافتقار إلى الصانع هل هو الحدوث أو الإمكان؟ فأخطئوا في ذلك؛ لأن افتقار المخلوق وصف ذاتي له ولا

(١) سورة مريم: ٩

(٢) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ١٥١).

(٣) سورة مريم: ٦٧

(٤) سورة الروم: ٢٧

(٥) سبق تفسيرها

(٦) تفسير بن كثير (ج ٥ - ص ٢٥١).

(٧) الفتاوى (ج ١٦/ص ٢٦٩) وانظر مجموعة تفسير شيخ الإسلام (ص ٢٠٨).

علة لذلك إلا كونه مخلوقاً، ولا يقال: علة هذا الافتقار هي الحدوث أو الإمكان، فكل إنسان يعلم فقر نفسه وحاجتها إلى خالقها من غير قول الحدوث أو الإمكان، وافتقار المخلوق للخالق ليس بحاجة أن يستدل عليه بقياس كلي كقولهم: كل ممكن لا بد له من موجب أو كل محدث لا بد له من محدث، فكأنهم ساقوا الأدلة وأتعبوا أنفسهم للاستدلال على أمر بدهي فطري لا يحتاج كل هذا العناء، فبالفطرة يعلم الإنسان فقره للخالق، وإن لم يخطر بباله وصف الإمكان أو الحدوث، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(١)، فلما سمعها جبير بن مطعم^(٢) والنبي يقرأ بها في المغرب أحس بفؤاده قد تصدع من غير استدلال بقياسات المتكلمين^(٣).

ثانياً: تقديمهم العقل على الشرع وجنوحهم إلى التأويل وإيجابهم النظر:

يمتاز منهج المتكلمين بتقديمهم فيه العقل على الشرع وتحكيمه في أمور لا يملك الحكم فيها، وخوضه فيما وراء المادة، ويوجبون النظر ويقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم وأن النظر يوجب العلم، ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للذين استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام، وهو دليل مبتدع في الشرع وباطل في العقل، وإذا استدلوا بالقرآن فإنما يستدلون به من جهة إخباره لا من جهة دلالاته، ولا يذكرون في كتبهم أن القرآن قد دل على الوجدانية بالأدلة العقلية، وبهذا نرى أن اعتماد المتكلمين في براهينهم على العقل والتأويل - كان مظهرًا بارزًا لطريقتهم وسببًا أساسيًا في نشوء الخلافات الكلامية مما لم يعرفه الصحابة في عصر الرسول ﷺ^(٤).

وأما بالنسبة لإيجابهم النظر فليست هي طريقة السلف ولا وافقهم عليها أحد منهم؛ لأن الإقرار بالصانع فطري حتى عند أعظم الأمم شركاً، وقد ذمهم السلف لهذا الإيجاب، وبينوا أن أول ما أوجب الله على عباده هي الشهادة، وليس من الرسل أحد قال لقومه: إنكم مأمورون أولاً بطلب معرفة الخالق فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه؛ لأن الله تعالى لم يكلف الإنسان أولاً بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة؛ إذ إن قلوب الخلق تعرفه وتقر به، وقد أوضح

(١) سورة الطور: ٣٥

(٢) قصة جبير وردت في الصحيحين عن الزهري انظر فتح الباري (ج ٨ حديث رقم ٤٨٥٤).

(٣) انظر الفتاوى (ج ٩/ص ٢١١) ومجموعة تفسير شيخ الإسلام ص ٢١١ والنبوات (ص ٤١-٥٣ و ص ١٧٦).

(٤) انظر الفتاوى (ج ٤/ص ٥٨) و (ج ١٩/ص ١٥٩-١٦٠)، وضحي الإسلام لأحمد أمين (ج ٣/ص ١٦).

ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وكان دائماً يستشهد بحديث معاذ بن جبل (١) رضي الله عنه عندما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن وقال له: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله»، ومثل ذلك جميع الرسل أول ما افتتحوا به دعوتهم: توحيد الله والأمر بعبادته، ووضح كذلك أن أول من أنكر معرفة الله الفطرية هم أهل الكلام (٢).

ثالثاً: طريقتهم طويلة متعبة:

لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية الجافة، ومما امتازت به طريقة المتكلمين أنها طويلة متعبة فيها تكلف شديد لاعتمادها على الجدل والاستدلالات المنطقية المبنية على المقدمات والنتائج التي تبعد عن المقصود.

واعتماد المتكلمين في براهينهم على الجدل المنطقي خطأ من وجهين هما:

(١) أنهم جعلوا المسلم بحاجة لتعلم المنطق حتى يستطيع إقامة الدليل على وجود الله.

(٢) أنهم ظنوا أن من لا يعرف المنطق عاجز عن البرهنة على صحة عقائده.

وقد هاجم طريقتهم هذه شيخ الإسلام ابن تيمية في معظم كتبه مبيناً أن المتكلمين بجدلهم الكلامي هدفوا للغلبة على بعضهم البعض، ولم يقصدوا بيان الحق، وكان كلامهم مجالاً كبيراً للصراع والخلافات.

وقد عاب طريقتهم كذلك الغزالي والباقلاني والجويني؛ لأنهم رأوا أنها غير مجدية في إثبات العقائد والدفاع عنها وأنها لا تخرج عن كونها وسيلة للرياضات الذهنية والدرية العقلية ولا صلة لها بالقلب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه الطرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل والمقاصد: أما المقاصد: فإن حاصلها - بعد التعب الكثير والسلامة - خير قليل، فهي لحمٌ جملٌ غثٌ على رأس جبلٍ وعُرٌّ لا سهلٌ فيرتقى ولا سمينٌ فينتقل، ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا.

(١) معاذ بن جبل (١٨ هـ): معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي البصري، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام وفيه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ" شهد العقبة شاباً أمرد وشهد المشاهد كلها. وكان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم "خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأبي، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة". وصح عن عمر قوله: من أراد الفقه، فليأت معاذ بن جبل. وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة ثمانٍ عشرة رضي الله عنه. (الإصابة (٦/ ١٣٦-١٣٨) وحمية الأولياء (١/ ٢٢٨-٢٤٤).

(٢) انظر الفتاوى (ج٢/ص٢٣) و(ج٥/ص٥٤) و(ج١٦/ص٣٢٨-٣٣٢) وتبلييس الجهمية (ج٢/ص٤٧٣) والتنبيهات السنوية ص١١١.

وأما الوسائل: فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات ينقطع السالكون فيها كثيرًا قبل الوصول^(١).

رابعاً: بُعد طريقتهم عن التوحيد الحقيقي المبعوث به الرسل:

ومن مميزات طريقة المتكلمين بعدها عن توحيد الألوهية والأسماء والصفات؛ لاكتفائهم بتوحيد الربوبية، ولأن بعض طوائفهم يفسرون التوحيد بما يستلزم نفي الصفات، فجعلوا وجود الله وجوداً مطلقاً لا يوصف بوحدة ولا كثرة، وإثبات الصفات تعدد وكثرة، وهم يدرجون في توحيدهم نفي علو الله على خلقه ومباينته لهم وعلمه وقدرته وسائر صفاته؛ لأن إثبات ذلك مناقض لاعتقادهم بأن الله لا صفة له.

وبعض طوائف المتكلمين تتوسع في النفي المفصل حتى سلبوا عن الله النقيضين فقالوا: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل؛ لأن الإثبات -بزعمهم- تشبيه له بالموجودات، وما قالوه يُعلم فساده ضرورة؛ لأن إثبات ذات معطلة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج، وفيه غاية التعطيل، والله تعالى يخبر في كتابه أنه حي قيوم عليم حكيم سميع بصير يكلم ويرضى ويغضب^(٢).

خامساً: طريقتهم غير عملية ولا تناسب جميع الناس، لاعتمادها على ألفاظ مستوردة:

ومما تمتاز به طريقة المتكلمين أنها غير عملية ولا تناسب جميع فئات الناس فاعتمادها على المنطق اليوناني بأقيسته وقضاياه الجزئية والكلية لم يجعلها طريقاً لدخول الناس في دين الله؛ لأن المنطق اليوناني ذهني مجرد لا ينفذ إلى أعماق النفس، بل إن مباحث علم الكلام بدت غريبة غربة كاملة عن الإسلام ومنهجه وأسلوب الدعوة إلى عقيدته الصافية، لما خلط المتكلمون بين المصطلحات اليونانية ومبادئ العقيدة الإسلامية وأسلوب عرضها ووسائل الدفاع عنها، فلم يفرقوا بين عقيدة خالدة وبين أسلوب زمني عارض قابل للتغيير والتبديل، حتى صارت بين العقيدة النظرية في علم الكلام وبين العقيدة الحية الواقعة في القرآن هوةً بعيدة. لقد بحث المتكلمون في مسائل العقيدة وهم يحملون أفكاراً ومقررات غير إسلامية، وأخذوا يطبقونها على العقيدة ومسائلها، كمسألة الذات والصفات وغيرها من المسائل التي لم ترد في القرآن ولا اعتنى بها الجيل الأول.

(١) الفتاوى (ج ٢- ص ٢٢) و(ج ٤- ص ٥٠) وانظر مجموعة التفسير (ص ٢٠٩-٢١٣) وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج ١- ص ١١٣) و(ج ٢- ص ٢٥٣).

(٢) الفتاوى (ج ٢- ص ٢٢) و(ج ٤- ص ٥٠) وانظر مجموعة التفسير (ص ٢٠٩-٢١٣) وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج ١- ص ١١٣) و(ج ٢- ص ٢٥٣).

ولو أن المتكلمين عرضوا أدلة القرآن مكتفين ببيانها وتوضيح القصد منها، لكان ذلك أنفع وأبعد عن التكلف والتعقيد، وأسلم من دخول الألفاظ الغريبة، وأبعد عن الخلاف فيما بينهم، وأقرب للإقناع^(١).

إن طريقة المتكلمين تؤدي للشك والحيرة لأنها مخالفة للفطرة الإنسانية ولطريقة القرآن الكريم والرسول أجمعين، وقد ذم السلف الصالح هذه الطريقة لكنهم لم يذموا جنس الكلام والاستدلال والنظر الذي أمر الله به رسوله ﷺ والمؤمنين، بل ذموا الكلام الباطل المخالف للكتاب والسنة.

وقد خفي بطلان هذه الطريقة على كثير من سالكيها حتى اعتقدوا أنها طريقة موافقة للشرع والعقل، وأن عيبها أنها طويلة متعبة خطيرة فقط لكنها صحيحة في نفسها، فلما انتهت بهم إلى الشك والحيرة علموا بطلانها شرعاً وعقلاً، فعضوا أصابع الندم مصرحين بأنها لم تشف داءهم ولم تذهب حيرتهم، ولم يشك أحد منهم أن مثل ذلك حصل لغيره من سالكيها^(٢). وقد صرح ابن واصل الحموي بشكّه عندما قال: "أستلقي على قفائي وأضع المُلحَقَةَ على نصف وجهي ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء"^(٣).

وكان أبو المعالي الجويني يقول: لقد جُلَّتْ أهل الإسلام جولة وعلومهم وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره فأموت على دين العجائز ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، فالويل لابن الجويني^(٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا تجد أبا حامد مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف -ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجوع إلى طريقة أهل الحديث ومات وهو يشتغل في صحيح البخاري"^(١).

(١) انظر موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج/١ ص ٦١-٦٣ و ١٨١) ومدارج السالكين (ج/٣ ص ٤٣٧) وضحى الإسلام (ج/٣ ص ٩).

(٢) انظر الفتاوى (ج/٣ ص ٤٧) وتلبيس الجهمية (ج/١ ص ١٣٢) والنبوات ص ٤١ و ص ٣٠٤-٣٠٧.

(٣) انظر الفتاوى (ج/٤ ص ٢٠٩).

(٤) تلبيس إبليس، لابن القيم ص ٨٢.

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج/١ ص ٩٣) وانظر (ص ٢٣-٢٤ و ص ٩٧ و ص ١٤٠) والنبوات ص ٥٢.

وأما السلف الصالح فأنكروا صحة هذه الطريقة في نفسها وعابوها لاشتمالها على كلام باطل، فذموا علم الكلام والمتكلمين، كقولهم: "من طلب الدين بالكلام تزندق"، وقول الشافعي (١): "لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام"، وقول الإمام أحمد: "لا يفلح صاحب كلام أبداً، علماء الكلام زنادقة"، وقول أبي الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: "أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت" (٢).

(١) الشافعي (٢) (٢٠٤ هـ) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبد الله القرشي ثم المطلبي الشافعي المكي الغزي المولد نسيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وابن عمه. ثبت في الحديث، حافظ لما وعى، عديم الغلط موصوف بالإنقان، متين الديانة. ارتحل إلى المدينة، فأخذ عن الإمام مالك وإبراهيم بن أبي يحيى وعبد العزيز الدراوردي. وحدث عنه الحميدي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأحمد بن حنبل وسليمان وغيرهم. وصنف التصانيف، ودون العلم، ورد على الأئمة متبعا للأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبعد صيته، وتكاثر عليه الطلبة، توفي سنة أربع ومائتين. (حلية الأولياء: ٦٣/٩ - ١٦١ - سير أعلام النبلاء ٥/١٠).

(٢) انظر هذه الأقوال في الفتاوى لابن تيمية (ج ٦/ص ٢٤٣) وأعلام الموقعين، لابن القيم (ج ٤/ص ٢٤٨) وتلبس إبليس (ص ٨٢).

المطلب الثالث : طريقة القرآن الكريم:

إنني أعترف بالعجز والتقصير في بحثي لمميزات طريقة القرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم كلام الله، وفيه من نواحي الإعجاز وأساليب المخاطبة والدعوة لتوحيد الله والرد على المشركين ما يكون مثلي عاجزاً عن الخوض في هذا البحث وإيفائه حقه، وخاصة أن الكتابة فيه لا تنتهي.

وعلمي في هذا الفصل هو الإشارة إلى سمات بارزة في طريقة القرآن الكريم وهو يخاطب المشركين وسائر أصناف الكفرة لردهم عن كفرهم ودعوتهم إلى التوحيد. وقد ظهر لنا فيما سبق أن القرآن الكريم في عرض أدلته على الوحدانية نهجاً منهجاً واضحاً مميزاً قريباً لأفهام السامعين، مبتعداً عن المسالك الخفية معتمداً على توجيه نظر الإنسان إلى الكون بما فيه مشيراً لدليلي الخلق والعناية، وعلى ضرب الأمثال المختلفة لبيان نور التوحيد وظلمة الشرك، وعلى القصص القرآنية لبيان نصر الله للموحدين وتدميره للكافرين، وعلى التذكير بنعم الله التي تستوجب إفراد المنعم بالوحدانية والعبادة، وعلى الأدلة العقلية التي تأخذ بالألباب.

هذه الطريقة القرآنية في تقرير عقيدة التوحيد لها مميزات هي موضوع هذا الفصل وهي كما جاءت مرتبة فيه:

ضم الأدلة لبعضها البعض والاستدلال بها جماعياً.

- ١) الرد على جميع المخالفين.
- ٢) مناسبتها لجميع فئات الناس.
- ٣) أنها طريقة عملية لا تكتفي بمجرد النظريات والتقارير.
- ٤) تنفي الشكوك والشبهات لإتيانها بمعانٍ صحيحة ثابتة.
- ٥) أنها أصل كل الطرق الصحيحة.

وفيما يلي البيان:

مميزات طريقة القرآن الكريم:

١- ضم بعض الأدلة إلى بعضها والاستدلال بها كلها:

من مميزات طريقة القرآن الكريم في دعوته للتوحيد أن يضم الأدلة لبعضها البعض، فنجد في الآية الواحدة أو في عدد من الآيات المتتابعة عدداً من الأدلة، كلها تدل على مدلول واحد - وهو التوحيد- ولا شك أن هذا الأمر يعطي الدليل قوة ويزيد المدلول تأكيداً، وهذه الميزة مفقودة

من طريقتي المتكلمين والفلاسفة.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِلَهًا وَحَدُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة، فمن الله، وأن أحدا من المخلوقين، لا ينفع أحدا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

ففي هذه الآية، إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع (جميع) النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

ثم ذكر الأدلة التفصيلية أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة، آيات أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها، وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر، والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد (٢).

فهذه الآية بعد أن قررت الوجدانية في الآية التي قبلها، ذكرت عدداً من الأدلة الكونية، كل

(١) سورة البقرة: ١٦٣-١٦٤

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٧٨).

منها يدل على وحدانية الله.

ومثال آخر من قوله تعالى في سورة النحل: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (١) إلى قوله تعالى ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢) ففي هذه الآيات من سورة النحل بعد أن بيّن تعالى إرسال رسله بالتوحيد.

دلل على وحدانيته بخلق السموات والأرض وخلق الإنسان من نطفة، وخلق الأنعام وما فيها من المنافع للإنسان، ثم ذكر إنزال المطر للشرب وسقي النبات، وذكر آية الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وما فيها من العظمة والنعمة، ثم ذكر البحر والسنن التي تمخره وما فيه من اللحم والحلي، ثم ذكر الأرض ورواسيها وطرقها، ونبه تعالى إلى دليل الخلق مجملًا بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) تقرير يقتضي الرد على من عبد غير الله، وإنما عبر عنهم بمن لأن فيهم من يعقل ومن لا يعقل، أو مشاكلة لقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (٤) ذكر من أول السورة إلى هنا أنواعا من مخلوقاته تعالى على وجه الاستدلال بها على وحدانيته، ولذلك أعقبها بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ وفيها أيضا تعداد لنعمة على خلقه، ولذلك أعقبها بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥): أي يغفر لكم التقصير في شكر نعمه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٦) نفى عن الأصنام صفات الربوبية، وأثبت لهم أضرارها، وهي أنهم مخلوقون غير خالقين، وغير أحياء، وغير عالمين بوقت البعث، فلما قام البرهان على بطلان ربوبيتهم أثبت الربوبية لله وحده فقال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ﴿أَمْ مَوْتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ (٧) أي لم تكن لهم حياة قط ولا تكون، وذلك أغرق في موتها ممن تقدّمت له حياة ثم مات، ثم يعقب موته حياة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير في يشعرون: للأصنام وفي:

(١) سورة النحل: ٢

(٢) سورة النحل: ٢٢

(٣) سورة النحل: ١٧

(٤) سورة النحل: ١٨

(٥) سورة النحل: ١٨

(٦) سورة النحل: ٢٠

(٧) سورة النحل: ٢١

يبعثون للكفار الذين عبدوهم، وقيل: إن الضميرين للكفار قلوبهم مُنكرةً أي تتكر وحدانية الله عز وجل لا جرمَ أي لا بد ولا شك، وقيل إن لا نفي لما تقدم، وجرم معناه وجب، أو حق، وأن فاعلة بجرم أساطيرُ الأوّلين أي ما سطره الأولون، وكان النضر بن الحارث قد اتخذ كتاب تواريخ، وكان يقول: إنما يحدث محمد بأساطير الأولين^(١).

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ﴾^(٢) إلى قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ كُفِرُوهَا وَكَرَّهُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٣). ذكر العدد مع أن المحدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أو إيماء بأن الاثنينية تنافي الألوهية كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات وحدانية دون الإلهية، أو للتبني على أن الوحدة من لوازم الإلهية. ﴿فَأَتَى فَارَهُبُونَ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فايأي فارهبون لا غير. ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤) خلقاً وملكاً. ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة. ﴿وَاصِبًا﴾ لازماً لما تقرر من أنه الإله وحده والحقيق بأن يرهب منه. وقيل واصباً من الوصب أي وله الدين ذا كلفة. وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تُنْفِقُونَ﴾ ولا ضار سواه كما لا نافع غيره^(٥).

ففي هذه الآيات نص سبحانه وتعالى على وحدانية ثم ذكر دليل النوائب، وأنه لا كاشف للبلاء في البر والبحر غيره، والتجاء المشركين له وحده في النوائب، ثم ذكر دليل المثل الأعلى وكراهية المشركين للأنثى، ثم ذكر المطر وإحياءه للأرض، ثم نعمة الأنعام واللبين السائغ للشاربين، ثم ذكر نعمة الثمرات.. واستخراج النحل منها عسلاً، ثم ضرب لهم مثلاً بعدم إشراك السادة عبيدهم في رزقهم، وذكرهم بنعمة الأزواج والأولاد، ثم نبه على عبادة المشركين لما لا يملك لهم رزقاً، ثم ضرب مثلاً لنفسه تعالى ولما يعبد من دونه ونبه على

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، المؤلف: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبى الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ (ج ١ - ص ٤٢٢).

(٢) سورة النحل: ٥١

(٣) سورة النحل: ٨٣

(٤) سورة النحل: ٥٢

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ (ج ٣ - ص ٢٢٩).

خلق الإنسان وتسخير الطير ونعمة السكن وما يؤخذ من الأنعام، وفي آخر الآيات يقول تعالى:

﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١) (٢)، كَذَلِكَ كَاتِمَاتُ هَذِهِ النِّعْمِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ. يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ أَي تَنْظُرُونَ فِي نِعْمَةِ فَتُؤْمِنُونَ بِهِ وَتَتَقَادُونَ لِحُكْمِهِ. وَقُرْئِ "تُسْلِمُونَ" مِنْ السَّلَامَةِ أَي تَشْكُرُونَ فَتُسَلِّمُونَ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ تَنْظُرُونَ فِيهَا فَتُسَلِّمُونَ مِنَ الشَّرْكِ. وَقِيلَ "تُسْلِمُونَ" مِنْ الْجِرَاحِ بِلِبْسِ الدَّرُوعِ (٣).

فانظر كيف سيق عدد من الأدلة للتأكيد على حقيقة وحدانية الله منبهاً على هذه الحقيقة في بدء الآيات وختامها؛ لأن ذلك هو الهدف الرئيسي من كل هذه الأدلة. هذه بضعة أمثلة - وهي قليل من كثير - تبين طريقة القرآن في ذكر عدد من الأدلة في الآية أو في المقطع الواحد من الآيات، وبحيث تؤكد كلها مدلولاً واحداً هو وحدانية الله تعالى ووجوب إفراده بالعبادة.

٢- الرد على جميع المخالفين:

من طريقة القرآن الكريم أنه يرد على جميع مخالفيه دون الاقتصار على بعضهم، فنجده يرد في دعوته للتوحيد على عباد الأصنام وعباد المسيح وعباد الملائكة وعبدة النجوم وعلى من ينسبون الولد إلى الله وعلى من يؤلهون البشر، إنه لا يقتصر في رده على فئة دون فئة. يقول تعالى في الرد على عبدة الأصنام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤) ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور، إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع، وإما لكونه نافعا في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة، وإما لكونه نافعا في المستقبل كمن يخدم غيره متوقفاً منه أمراً في المستقبل، وإما لكونه خائفاً منه. فقال إبراهيم: إنما تعبدون من دون الله أوثاناً إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها

(١) سورة النحل: ٨١-٨٣

(٢) النحل: ٨١ - ٨٣.

(٣) المرجع السابق أنوار التنزيل (ج ٣ - ص ٢٣٦).

(٤) سورة العنكبوت: ١٧

أوثانا لا شرف لها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ

وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١) إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المال، وهذا لأن النفع، إما في الوجود، وإما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتحتونها، ولا نفع في البقاء لأن ذلك بالرزق، وليس منهم ذلك، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال: فابتغوا عند الله الرزق فقوله: الله إشارة إلى ستحقاق عبوديته لذاته وقوله: الرزق إشارة إلى حصول النفع منه عاجلا وآجلا (٢).

وقال تعالى في الرد على من ألّه المسيح وعبده: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ

ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ ۖ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ (٣) يقول تعالى حاكما بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزهه وتقدس علوا كبيرا.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في

المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ۖ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٤) ولم يقل: أنا الله، ولا ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي

عَبْدُ اللَّهِ ۖ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٥).

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، أمرهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك

له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ ۖ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ ۗ أَيُّ: فيعبد

معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرّم عليه الجنة (٦).

وقال تعالى في الرد على عباد الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَذَا الَّذِينَ كَانُوا

(١) سورة العنكبوت: ١٧

(٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ (ج ٢٥ - ص ٣٩).

(٣) سورة المائدة: ٧٢

(٤) سورة مريم: ٣٠

(٥) سورة مريم: ٣٦

(٦) تفسير بن كثير (ج ٣ - ص ١٥٧).

يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ويوم نحشر هؤلاء الكفار بالله جميعا، ثم نقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا؟ فنتبرأ منهم الملائكة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ ربنا؛ تنزيها لك وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء من الشركاء والأنداد ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ لا نتخذ وليا دونك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ (٢).

وقال تعالى في رده على عبدة الكواكب: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣) ذكر تعالى أن ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿أَيُّلُ وَالنَّهَارُ﴾ هذا بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمه، وسكون الخلق فيه. ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (٤) اللذان لا تستقيم معاش العباد، ولا أبدانهم، ولا أبدان حيواناتهم، إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده. ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي: اعبدوه وحده، لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه، من المخلوقات، وإن كبر، جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه، تبارك وتعالى. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له (٥).

وقال تعالى في الرد على من زعم له الولد: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَكَ هُوَ الْعَنِيُّ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بَدَأَ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦) قال هؤلاء المشركون بالله من قومك، يا محمد: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وذلك قولهم: "الملائكة بنات الله". يقول الله منزها نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لله عما قالوا وادعوا على ربهم ﴿هُوَ الْعَنِيُّ﴾ يقول: الله غني عن خلقه جميعا، فلا حاجة به إلى ولد، لأن الولد إنما يطلبه من يطلبه، ليكون عوناً له في حياته وذكراً له بعد وفاته، والله عن كل ذلك

(١) سورة سبأ: ٤٠-٤١

(٢) تفسير الطبري (ج ٢٠ - ص ٤١٤).

(٣) سورة فصلت: ٣٧

(٤) سورة فصلت: ٣٧

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٧٥٠).

(٦) سورة يونس: ٦٨

غني، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا يبيد فيكون به حاجة إلى خلف بعده ﴿لَهُ﴾
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿ يقول تعالى ذكره: لله ما في السموات وما في الأرض ملكا،
 والملائكة عباده وملكه، فكيف يكون عبد الرجل وملكه له ولدا؟ يقول: أفلا تعقلون أيها القوم
 خطأ ما تقولون؟ ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ يقول ما عندكم أيها القوم، أتقولون وتدعون
 من أن الملائكة بنات الله، من حجة تحتجون بها وهي السلطان أتقولون على الله قولا لا
 تعلمون حقيقته وصحته، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه، جهلا منكم بما تقولون، بغير
 حجة ولا برهان (١).

وهكذا نجد أن القرآن الكريم لم يترك طائفة من الطوائف المنحرفة عن التوحيد إلا رد
 عليها الرد الكافي المقنع لمن أراد الحق وتجرد عن الهوى.
 وهذا الأسلوب لا يوجد عند المتكلمين والفلاسفة؛ لأن المتكلمين جعلوا هدفهم خصومة
 الفلاسفة الملحدين والرد على بعض الآراء الفلسفية البعيدة عن الإسلام.
 وأما الفلاسفة فلم يكن هدفهم الدعوة إلى التوحيد أصلاً، فلم يخاصموا المشركين ولم يردوا
 على طوائفهم؛ لأن نفس كلامهم في الإلهيات فيه الشرك والتعطيل.

٣ - مناسبتها لجميع فئات الناس:

سلك القرآن الكريم في الاستدلال على عقيدة التوحيد والإقناع بها مسلكاً سهلاً واضحاً
 يستفيد منه جميع الناس على اختلاف مداركهم، ويفهم كل منهم أدلة القرآن حسب طاقته من
 التفكير.

إنه منهج يوافق العامة وفيه ما يناسب الخاصة، ولئن كان علماء النفس والاجتماع يقررون
 أن اختلاف مستويات الناس يوجب الحكمة في مخاطبتهم وإيصال المعلومات إليهم لجذبهم إلى
 المبدأ، فإن القرآن الكريم قد سبقهم في ذلك وإيراده عملياً في ثنايا آياته؛ لأن البشر تختلف
 طبائعهم وتباين نزعاتهم، فكان يخاطب جميع الناس بحسب طبائعهم الفطرية وميولهم
 واستعداداتهم، ولذلك كان منهج القرآن أقوى حجة وأشد إقناعاً من أي منهج بشري؛ لأن
 طبيعة القرآن لا تعبر عن نفسية بشرية ولا تمثل اتجاهاً بشرياً معيناً ولا هي متأثرة
 بمؤثرات زمنية عارضة، إنها طريقة القرآن الذي جاء لرد الناس إلى توحيد الله على اختلاف
 طبائعهم وميولهم، لذلك كانت طريقة مناسبة لكل أحد، إنها الطريقة الوحيدة البريئة من الأهواء

(١) تفسير الطبري (ج ١٥ - ص ١٤٦).

والرغبات البشرية وليست محدودة بحدود العقل البشري كما هو الحال في غيرها من الطرق.

إننا لن نجد في غير طريقة القرآن ما يعلم الجاهل وينبه الغافل ويرضي نهم العالم، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١) لَقَدْ خَلَقْنَا ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي ابتدأنا خلقه ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ أي خلاصة ﴿مِنْ طِينٍ﴾ أي تراب خط بماء فصار نباتا فأكله إنسان فصار دما ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ أي بأن خلقناه منها، أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية ﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي مستقر، وهو رحم المرأة الذي نقل إليه ﴿مَكِينٍ﴾ أي متمكن لا يمج ما فيه، ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدّم الجامد ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي قطعة لحم بقدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ أي بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن، على هيئات وأوضاع مخصوصة، تقتضيها الحكمة ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أي جعلناه محيطا بها ساترا لها كاللباس ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي بتمييز أعضائه وتصويره، وجعله في أحسن تقويم ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي تعاضم قدرة وحكمة وتصرفا ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي المقدرين (٢).

هذا الدليل على وحدانية الله تعالى يناسب جميع الناس، إنه يناسب العامي ويفهم منه أن الله ينبيه لمبدأ خلقه وأن الله هو وحده الذي خلق النطفة وحفظها، فيؤمن بالله، ويناسب عالم التشريح والطبيب الذي يقرأ عن تطور النطفة والتحويلات التي تمر عليها وكيفية اتحاد المائين وكيفية التغذية للجنين.. وهكذا، فيؤمن بالله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا الدليل وهو خلق الإنسان من علق يشترك فيه جميع الناس، فإن الناس هم المستدلون وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية.. وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه ويذكره كلما تذكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه" (٣).

وقد وازن الغزالي بكتابه "إلجام العوام" بين أدلة القرآن وأدلة المتكلمين فاعتبر أدلة القرآن

(١) سورة المؤمنون: ١٢-١٤

(٢) محاسن التأويل (ج ٧ - ص ٢٨٤).

(٣) الفتاوى (ج ١/ص ٢٦٢).

كالغذاء والماء الذي ينتفع به كل الناس، وأما أدلة المتكلمين فهي الدواء الضار الذي ينتفع به أحاد الناس ويتضرر به الكثيرون، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن تنوع أساليب الدعوة في القرآن: "فما كان جهة تصديقه عامًّا للناس أمكن ذكر جهة التصديق به كآيات الربوبية المعلومة بالإحساس دائماً، وما كان جهة تصديقه متنوعاً أحيل كل قوم على الطريق التي يصدقون بها"^(١).

وهذه بعض الأمثلة التوضيحية:

أ- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾^(٢) هذه ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْأَرْضَ﴾ التي تعيشون عليها، تضم على ظهرها ﴿أَحْيَاءَ﴾ لا يحصون، وفي بطنها ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ لا يحصرون، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ جبالا ثوابت عاليات؛ لئلا تضرب بكم، ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً﴾ عذبا سائغا^(٣).

هذه الآيات تلفت نظر الإنسان إلى دليلي الخلق والعناية ويفهم منها العربي في الصحراء أن الأرض تحفظه على ظهرها حياً وفي بطنها ميتاً، وأن الجبال تحفظ الأرض من التصدع، وهو فهم يتناسب مع علمه ويؤدي الغاية المقصودة من التدبير والعظمة.

وجاء العلماء المختصون اليوم ليتحدثوا لنا عن الجاذبية التي تحفظ الإنسان على سطح الأرض، ويتلاعب بهم ولا يستقرون في مكان، ويتحدث لنا العلماء عن الجبال وعجائبها واختلاف ألوانها وما تحويه من معادن، وكيف أن رواسي كل شيء من تحته إلا الجبال، فإنها رواسي الأرض من فوقها ليكون فيها من المنافع ما لا يعلمه إلا الله، وهذا الفهم العلمي يتناسب مع آيات القرآن ولا ينافيها ويؤدي المقصود من العظة والاعتبار ويظهر النعمة بشكل أوضح.

ب- قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمُ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَّعْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي﴾ توقدون، أنتم أوجدتم شجرتها التي تقذح منها النار، أم نحن الموجودون لها؟ نحن جعلنا ناركم التي توقدون تذكيراً لكم بنار جهنم ومنفعة للمسافرين^(١).

(١) الفتاوى (ج ٢/ص ٤٨).

(٢) سورة المرسلات: ٢٥-٢٧.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٨١).

(٤) سورة الواقعة: ٧١-٧٣.

(١) المرجع السابق (ج ١ - ص ٥٣٦).

إن الأمي يفهم من هذه الآيات أن الله خلق الشجر الأخضر بقدرته وجعل فيه قابلية للاحتراق لنستفيد منه في الطبخ والتدفئة والاستضاءة ولولا تسخير الله، لذلك ما استفدنا منه، فيجب شكره وعبادته.

وإن العلماء ليحدثونا اليوم عن الطاقة المخزونة في الأرض بشكل فحم حجري أو نפט، والتي ترجع بأصلها إلى الأشجار المدفونة، وإمكانية توليد صور أخرى من النار كالكهرباء التي تستعمل فيما تستعمل به النار تماماً، هذا الفهم لا يتنافى مع الآية، بل ويجلي النعمة على الناس بشكل أوضح مما يوجب عليهم الاعتراف بوحدانية المنعم وعبادته.

إن القرآن الكريم وهو ينبه الناس إلى أدلته على وحدانية الله، جاء بأسلوب صياغة وألفاظ تتفق مع قدرات عقول الناس جميعاً على الفهم والاعتبار، إنه يبتعد عن التعبيرات والمصطلحات الضيقة التي لا يفهمها إلا فئة قليلة من الناس، وليس معنى هذا أن أدلة القرآن يفهمها الناس بلا تدبر؛ ولكن المعنى أن القدر المشترك من الفهم لدليل من أدلة القرآن يتساوى فيه جميع الناس مع بقاء المجال مفتوحاً أمام الخاصة والعلماء للتبحر في الدليل بما لا يناقض طريقة القرآن.

هذا الأمر لا يوجد في أدلة المتكلمين والفلاسفة الذين عقّدوا هذه الأدلة على الناس، وحصروا العلم بطريقتهم ومنهجهم البشري، وقد يفهم من كلامهم غير ما يفهمه الآخر. طريقة القرآن عملية لا تكتفي بمجرد النظريات والتقارير.

إن القرآن لا يكتفي بمجرد إقراره للوحدانية ومحاربتة للشرك، بل يطلب من المهتدين أعمالاً وتكاليف بمجرد الإقرار بوحدانية الله، ولذلك نجد فيه طلب عبادة الله بصيغتي أمر ونهي وهما قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (١) ﴿الْأَنْعَبُوا لِلَّهِ﴾ (٢) أن الله تعالى أحكم القرآن وفصل آياته تفصيلاً، وأقام فيه الدلائل القاطعة على أنه الخالق لتعبوده وحده ولا تشركوا به شيئاً (٣).

ونجد الربط الكامل في آيات القرآن بين العقيدة والعمل، وهذه الصفة لا توجد في المناهج الوضعية التي تهدف إلى مجرد التصديق والإقناع والانتصار على الخصم، وطريقة القرآن لا تكتفي بذلك، بل تطلب لازم الإيمان والتصديق وهو العمل والعبادة؛ لأن النفس لا تكمل بالعلم وحده إن لم يتبعه العمل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن قياس الأولى في القرآن وما يؤدي

(١) سورة هود: ٥٠

(٢) سورة هود: ٢

(٣) زهرة التفاسير (ج ٧ - ص ٣٦٦).

إليه من العمل والعبادة:

"ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القرآن من هذا الباب كما يذكر في دلائل ربوبيته وإلهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وإمكان المعاد وغير ذلك من المطالب العالية السنية والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم وأعظم ما تكمل به النفوس من المعارف، وإن كان كمالها لا بد فيه من كمال علمها وقصدها جميعاً، فلا بد من عبادة الله وحده المتضمنة لمعرفته ومحبته والذل له"^(١).

وبهذا يتضح أن طرق المناطقة لو كانت صحيحة فهي علم ناقص؛ لاكتفائها بمجرد الإقرار الذي هو توحيد الربوبية، يقول شيخ الإسلام: "الوجه الثاني في مفارقة الطريقة القرآنية الكلامية: أن الله أمر بعبادته التي هي كمال النفوس وصلاحتها وغايتها ونهايتها ولم يقتصر على مجرد الإقرار به كما هو غاية الطريقة الكلامية، وفلا وافقوا في الوسائل ولا في المقاصد، فإن الوسيلة القرآنية قد أشرنا إلى أنها موصلة إلى عين المقصود وتلك قياسية لا توصل إلا إلى نوع المقصود لا إلى عينه.. وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم به والعمل له، فجمع بين قوتي الإنسان العلمية والعملية.. والطريقة الكلامية إنما تفيد مجرد الإقرار والاعتراف بوجوده، وهذا إذا حصل من غير عبادة وإنابة كان وبالاً على صاحبه وشقاء له... والطريقة النبوية القرآنية السنية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين"^(٢).

٤- طريقة القرآن تنفي الشكوك والشبهات لإتيانها بمعانٍ صحيحة ثابتة

إن طريقة القرآن تنفي كل شبهة وغش حول العقيدة؛ لأنها تفصل فصلاً تاماً بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، والقرآن عندما يستدل على وجود الله ووحدانيته بخلق الإنسان يستدل بحدوث الإنسان نفسه وأن عينه مخلوقة والله وحده هو الخالق.

أما طريقة المتكلمين فالاستدلال عندهم بحدوث الأعراض، والخلق عندهم عبارة عن جمع وتفريق لجواهر الإنسان المنفردة التي لا تتجزأ وهي قديمة بنفسها والحادث هو أعراضها، وبسلوكهم هذا الطريق أثرت الشبه وتوسعوا في البحث حتى لم تعد طريقتهم ترد شبهة وليس فيها معنى صحيحاً ثابتاً.

وأما طريقة الفلاسفة فهي أكثر إثارة للشبه ومعانيها كلها محتملة لأكثر من معنى^(١).

(١) الرد على المنطقيين ص ١٥٠ وانظر الفتاوى ٤١/٢.

(٢) الفتاوى (ج ٢/ص ١٢) وانظر الرد على المنطقيين ص ١٤٤ والتفسير القيم ص ٥٩٧.

(١) انظر مجموعة تفسير شيخ الإسلام (ص ٢٠٧-٢٠٨) وضحى الإسلام (ج ٣/ص ١٥).

وكما قلنا في خلق الإنسان نقول في الكون كله، فالقرآن عندما ينبه إلى دليل الخلق في الكون يعني بذلك حدوث الكون ذاته، لا حدوث أعراضه، فقولنا السماء مبدعة مخلوقة: نعني بذلك على طريقة القرآن أن الله خلق ذاتها مباشرة، وهكذا كل شيء مخلوق فالله أحدث عينه، أي خلقه وأحدثه بعد أن لم يكن، وليس الحدوث فقط للأعراض ولا هو صدور للعلّة عن معلولها، والله وحده هو المختص بالقدم وليس قديم غيره لا العالم ولا مادته ولا جواهره^(١). وبهذا يتضح الفرق بين طريقة القرآن الكريم بمعانيها الثابتة الصحيحة -مثل الحدوث الذي مثلنا به- الموصلة لليقين النافية للشكوك والشبه، وبين غيرها من الطرق المحتملة لعدة معانٍ المورثة الجالبة للشبه والشكوك.

٥- طريقة القرآن أصل كل الطرق الصحيحة:

إن المتأمل لطريقتي الفلاسفة والمتكلمين وطريقة القرآن الكريم يجد أن طريقة القرآن أصل كل الطرق الصحيحة وتأتي في أصول الدين وفروعه بأكمل المناهج، فترك الاستدلال على المقدمات الضرورية لأنها في حكم البدائنه العقلية، وإنما تحتج بها على أنها مسلمة، وهذه هي الطريقة الصحيحة بخلاف ما يدعيه الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية، وهم يستدلون على المقدمات الضرورية البديهية ومن ثم يحتجون بها. وعدم سلوك القرآن الكريم لطريقة الفلاسفة والمتكلمين في المقدمات والنتائج، لا يعني أن طريقته ليست برهانية، لأن طريقة القرآن حذف المقدمة الظاهرة والاكتفاء باستقرارها في الفطر، فجاءت أدلة القرآن كلها قوة وحيوية وهي بنفس الوقت أدلة برهانية^(٢).

انظر مثلاً إلى دليل خلق الإنسان الوارد في القرآن بأساليب متعددة، ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣) تريقون في أرحام نسائكم. يعني إذا كنتم لا تؤمنون بأن الله تعالى هو خالقكم من ماء مهين، وتعتقدون أن خلقكم تأتي على مقتضى الطبيعة البشرية: تمنون فتجبون. إذا اعتقدتم هذا؛ فما قولكم في المنى المتسبب في خلقكم ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ بأنفسكم، وتصنعون ما فيه من الحيوانات والجراثيم التي يتكون منها الجنين ﴿أَمْ نَحْنُ

(١) انظر الفتاوى (ج٢- ص١٢، ص ٢٦٠) والرد على المنطقيين (ص ٣٨١) وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (ج١- ص ٧١، ص ١٤١) وإغاثة اللهفان (ج١- ص ٤٤-٤٥).

(٢) انظر الفتاوى (ج٢- ص ٤١)، (ج ٢٩٩/٦)، (ج ٢٢٥/٩)، (ج ١٩- ص ١٦٤-١٦٥، ص ٢٣١) والرد على المنطقيين ص ٣٢١ وشرح الطحاوية ص ٣١.

(٣) سورة الواقعة: ٥٨-٥٩

الْخَالِقُونَ ﴿١﴾ له، المدبرون لآثاره؟ ألا ترون أن كثيراً منكم يمنون فلا ينتجون، ويحاولون إيجاد الولد من مظانه الطبيعية فلا يستطيعون؛ إلا إذا أراد خالق الخلق أجمعين ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١). يقول تعالى ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ عَاقِبًا﴾ (٢) فتبارك الله رب العالمين (٣).

أن هذا الدليل وارد بشكل سؤال موجه إلى المشركين وهو معتمد على مقدمة بديهية هي: أن الإنسان مخلوق، لكنه لم يذكرها ولم يستدل عليها؛ لأن ذكرها لا يزيد الدليل قوة، إنما استدل بها والإجابة عن هذا السؤال موجودة في ذهن كل مستمع، وما دام أنه مخلوق ولم يخلق نفسه فخالقه يستحق أن يفرد بالألوهية. والمتكلمين يستدلون على هذه المقدمة الظاهرة وهي كون الإنسان مخلوقاً، ومن ثم يدعون أن أدلتهم برهانية، وأن أدلة القرآن إقناعية لحذفه المقدمة الظاهرة البديهية.

وانظر كذلك لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (٤) لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله سبحانه وتعالى تدبر شؤونهما، لاختل نظامهما، فتنزّه الله رب العرش، وتقدس عما يصفه الجاحدون الكافرون، من الكذب والافتراء وكل نقص (٥).

فلو قال: وبما أنهما لم تفسدا إذن فليس فيهما آلهة إلا الله لكان ذلك غير مناسب، فترك القرآن لهذه المقدمة اعتماداً على استقرارها في الفطر أبلغ وأشد تأثيراً.

وقد تنوعت الأساليب التي يعرض القرآن بها أدلته، وهذا التنوع له فائدة كبيرة في تقرير الحقيقة وتأكيداها وإقناع المدعوين بها؛ لأن بعض الناس قد يؤثر فيه أسلوب أكثر من أسلوب آخر غيره، وقد يقتنع إنسان بأسلوب، ويقتنع غيره بأسلوب آخر.

(١) سورة المؤمنون: ١٤

(٢) سورة الشورى: ٤٩-٥٠

(٣) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٦٦٣).

(٤) سورة الأنبياء: ٢٢

(٥) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٠٤).

وهكذا.. يقول د. محمد عبد الله دراز (١) متحدثاً عن اختلاف وسائل الاقتناع عند الناس: "ولا جرمَ أنه من أجل هذا الاختلاف في وسائل الاقتناع عند الناس تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله وصرفت فيه الآيات تصريفاً بليغاً حتى إن الذي يستعرض أساليب الهداية القرآنية إلى عقيدة الألوهية يجدها قد أحاطت بأطراف هذا المسلك، وأشبعت تلك النزعات جميعاً بل ربما زادت في كل منهج عناصر جديدة لم يفتن إليها الباحثون المذكورون" (٢).

(١) ولد العلامة محمد عبد الله دراز بقرية محلة دياي إحدى قرى دلتا مصر بمحافظة كفر الشيخ حالياً في الثامن من نوفمبر ١٨٩٤م لأسرة علمية عريقة؛ فوالده الشيخ عبد الله دراز الفقيه اللغوي المعروف الذي قدم شروحا لكتاب الموافقات للشاطبي، والذي عهد إليه الإمام محمد عبده بمهمة الإشراف على المعهد الأزهرى الجديد بالإسكندرية اطمئنانا إلى علمه وكفاءته. (الموسوعة الحرة موقع في الانترنت).

(٢) كتاب الدين، د. محمد عبد الله دراز (ص ١٧٦).

إِفْضَاكُ الْخَامِسِينَ

مآور المؤسسات العلمفة فف الترففة

الفكرفة الإسلامفة

وففه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: بفر المنهج التربوف الفكري فف القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: بفر منهج الرسول ﷺ التربوف.
- المبحث الثالث: لا إكراه فف الدين.

الفصل الخامس

دور المؤسسات العلمية في التربية الفكرية الإسلامية

ويشمل أربعة مباحث:

المبحث الأول

بيان المنهج التربوي الفكري في القرآن الكريم.

المطلب الأول: تعريف المنهج التربوي الفكري في القرآن:

المنهج في اللغة:

يقول ابن منظور^(١): نهج طريق نهج: بين واضح، وهو النهج، وطرق نهجه، وسبيل منهج: كنهج. ومنهج الطريق: وضحه، والمنهاج كالمنهج وفي التنزيل ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(٢) وأنهج الطريق: وضح واستبان وصار نهجاً واضحاً بيناً، والمنهاج: الطريق الواضح، واستنهج الطريق: صار نهجاً، ونهجت الطريق: أبنته وأوضحته، ويقال عمل على ما نهجت هلك، ونهجت الطريق: سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان، أي يسلك مسلكه. والنهج: الطريق المستقيم^(٣).

وفي مختار الصحاح: المنهاج: الطريق الواضح ونهج الطريق أبانه وأوضحه ونهجه أيضاً سلكه^(٤).

المنهج في الاصطلاح:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يقول ابن كثير: المنهاج هو الطريق الواضح السهل^(٥). ويقول الأصفهاني: نهج: النهج الطريق الواضح ونهج الأمر وأنهج وضح ومنهج

(١) محمد بن منظور (٧٥٠ هـ): محمد بن عبيد الله بن محمد بن يوسف بن منظور القيسي أبو بكر المالقي وأصله من إشبيلية. قرأ على الأستاذ أبي محمد بن السداد الباهلي، وسمع على مالك بن المرحل وأبي عبد الله بن الأديب وأبي عبد الله بن رشد وأبي العباس بن خميس وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأقفهري الفارسي وغيرهم. ولي قضاء طرابلس وكان صدرا رئيسا فاضلا في الأدب، مليح الإنشاء، كان عارفا بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة. وكانت وفاته في صفر سنة خمسين وسبعمئة. والأعلام (٦/ ٢٦٠).

(٢) سورة المائدة: ٤٨

(٣) لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف - ط ١ - بدون سنة نشر - (ص. ٤٥٥٤ - ٤٥٥٥).

(٤) مختار الصحاح - محمد بن بكر الرازي - المطبعة الكلية - ط ١ - ١٣٢٩ هـ - (ص. ٧٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم - الحافظ أبي الفداء اسماعيل ابن كثير القرشي المشقي - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٧ هـ - الطبعة الأولى - المجلد الثاني - ص (٦٩).

الطريق ومنهاجه، ومنه قولهم: نهج الثوب وأنهج بان فيه أثر البلى وقد أنهجه البلى (١). وفي سنن ابن ماجه قال رأيت كأن رجلاً أتاني فقال لي انطلق فذهبت معه فسلك بي في منهج عظيم فعرضت على طريق على يساري فأردت أن أسلكها فقال إنك لست من أهلها ثم عرضت على طريق عن يميني فسلكتها حتى إذا انتهيت، إلى جبل زلق فأخذ بيدي فزجل بي فإذا أنا على ذروته فلم ألتصق ولم أتماسك وإذا عمود من حديد في ذروته حلقة من ذهب فأخذ بيدي فزجل بي حتى أخذت بالعروة فقال استمسكت قلت نعم فضرب العمود برجله فاستمسكت بالعروة فقال قصصتها على النبي ﷺ فقال له ﷺ: رأيت خيراً أما المنهج العظيم فالمحشر وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار ولست من أهلها وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة، إلى آخر الحديث (٢).

وقال العباس ؓ (والله ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً) (٣). ويتضح مما سبق أن المنهج: هو الطريق الواضح، والمنهجية هي الطريقة الواضحة بالأسلوب المتبع المحدد.

التربية في اللغة:

تتضمن التربية دلالات لغوية متعددة، تركز جميعها على ما ينبغي أن تتضمنه العملية التربوية من أنشطة.

(١) الإصلاح: ربا الشيء إذا أصلحه والإصلاح قد لا يقتضي الزيادة وإنما التعديل والتصحيح.

(٢) النماء: ربا الشيء يربو ربواً ورباءً: بمعنى زاد ونما.

(٣) نشأ وترعرع: ربي يربي، على وزن خفي يخفي: أي نشأ وترعرع.

(٤) ساسه وتولى أمره: ربيت القوم: أي سستهم: أي كنت فوقهم.

(٥) التعليم: الرباني من الرب، بمعنى التربية، والرباني: الراسخ في العلم أو الذي يطلب بعلمه وجه الله تعالى (١).

(١) المفردات في غريب القرآن - أبي القاسم الحسين الأصفهاني - تحقيق محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - لبنان - بدون تاريخ ص ٥٠٩.

(٢) المسند الجامع باب عاصم بن عدي (ج ٨ - ص ٣٣١). إهداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجه - صفاء الضوي العدوي - دار البيقن - ١٤٢٠هـ - ص ٢٥٩/٢٥٨.

(٣) سنن الدارمي تحقيق حسين سليم الداراني - دار المغني - الرياض - ط ١ - ١٤٢١ هـ - ص ٢٢٠ / ٢٢١.

(١) لسان العرب - ابن منظور - دار المعارف - ط ١ - بدون سنة نشر - (ص ١٥٧٢ - ١٥٧٤).

التربية في الاصطلاح:

يقول الراغب الأصفهاني^(١): الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام^(٢)، وقال البيضاوي: الرب في الأصل اللغوي بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً^(٣).

ولقد أورد عبد الحميد الزنتاني عدد من آراء علماء المسلمين في هذا المجال حيث إن الإمام الغزالي يركز في آرائه التربوية على أن الهدف الأسمى للتربية: " هو التقرب لله تعالى والاستعداد للحياة الأخروية ولذلك دعا إلى تربية الصبيان تربية دينية وخلقية قوامها النقشف والزهد في الملذات حتى البريئة منها "

ويرى ابن سينا في تعريفه للتربية: " أنها وسيلة إعداد الناشئ للدين والدنيا في آن واحد وتكوينه عقلياً وخلقياً وجعله قادر على اكتساب صناعة تتناسب ميوله وطبيعته وتمكنه من كسب عيشه ". أما ابن خلدون^(٤) فقد أكد في آرائه التربوية على " ضرورة العناية بتنمية عقل المتعلم ومراعاة استعداداته العقلية "^(٥).

علم "التربية " يعني توجيه المتربص (المتعلم) بأفضل طريقة نحو التحصيل المعرفي، وعرفها بعضهم بأنها عملية صناعة الإنسان، أو تحصيل للمعرفة وتوريث للقيم كما هي توجيه للتفكير وتهذيب للسلوك، وتطلق التربية على كل عملية أو مجهود أو نشاط يؤثر في قوة الإنسان أو تكوينه .

والمفهوم الشامل للتربية يرى بأنها هي الوسيلة التي تساعد الإنسان على بقاءه واستمراره بقاء قيمه وعاداته ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

فيما يرى البعض أن التربية تأخذ منظورا دينيا ويعتبره البعض عملية هدفها هو الحصول على الإنسان السوي المعتدل كما أقرت بذلك كل الديانات السماوية.

أما أحدث التعاريف المتداولة في معظم الكتابات عن التربية فهي: "عملية التكيف أو التفاعل بين الفرد وبيئته التي يعيش فيها وعملية التكيف أو التفاعل هذه تعني تكيف مع البيئة

(١) سبق ترجمته .

(٢) المفردات في غريب القرآن - أبي القاسم الحسين الأصفهاني - تحقيق محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - لبنان - بدون تاريخ ص . ١٨٤ .

(٣) أصول التربية الإسلامية - خالد حامد الحازمي - دار الزمان - المدينة المنورة - ط٢ - ١٤٣٠هـ - ص ١٩٠ - ٢٠٠ .

(٤) يزيد بن خلدون بن جابر الخولاني الموصلي. (الوفاة: ٢٨١ - ٢٩٠ هـ) روى عن: غسان بن الربيع، وأبي هاشم محمد بن علي، وجماعة. وعنه:

يزيد بن محمد في تاريخه وقال: مات سنة ثمان وثمانين. (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي ج ١١ - ص ٦٩٧).

(٥) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية - عبد الحميد الصيد الزنتاني، الدار العربية ليبيبا ١٩٩٣م - ط٢ - ص ٢٤٠ .

الاجتماعية ومظاهرها وهي عملية طويلة الأمد ولا نهاية لها إلا بانتهاء الحياة".
ويتضح مما سبق أن التربية هي " تنشئة الإنسان وإصلاحه شيئاً فشيئاً بالتدرج في
تشكيل الشخصية السوية المتكاملة في جميع جوانبها الروحية والعقلية والوجدانية والخلقية
والاجتماعية والجسمية".

تعريف الفكر لغة:

جاءت مادة "فكر" في "لسان العرب" بمعنى إعمال الخاطر في الشيء^(١)، وفي "المعجم
الوسيط"^(٢): الفِكرُ مقلوبٌ عن الفك، لكن يستعمل الفِكرُ في الأمور المعنويّة، وهو فِكرُ الأمور
وبحثها للوصول إلى حقيقتها.

وجاء عند ابن فارس: "فَكَرَ؛ الفاء والكاف والراء: تردّد القلب في الشيء، يقال: تفكّر،
إذا ردّد قلبه معتبراً، ورجل فِكِيرٌ: كثير الفكر"^(٣).

وقد وردت مادة (فكر) في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعاً^(٤)، ولكنها بصيغة
الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرُ وَقَدَّرَ﴾^(٥) أي فكر فيما أنزل على
عبده محمد ﷺ من القرآن، وقدر فيما يقول فيه^(٦)، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٧) أفلا
تتفكرون في آيات الله؛ لتبصروا الحق فتؤمنوا به^(٨).

أما من الناحية الاصطلاحية:

فكما ورد عند ابن منظور: "إعمال الخاطر في الشيء"، فقد ورد عند الرّاعب الأصفهاني
بأنّه: "قوة مطردة للعلم إلى معلوم، وجولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون
الحيوان، ولا يمكن أن يُقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب"^(١).

(١) لسان العرب، ابن منظور: مادة (فكر).

(٢) انظر المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، طبعة المكتبة الإسلامية إستانبول، تركيا، الطبعة الثانية (بدون تاريخ)، الجزء الثاني مادة (فكر).
ص ٦٩٨.

(٣) مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، عن دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩١م، مادة (فكر)، الجزء الرابع ص ٤٤٦.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، انظر: محمد فؤاد عبدالباقى، عن المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، (بدون تاريخ)، مادة (فكر)، ص ٥٢٥.

(٥) سورة المدثر: ١٨.

(٦) تفسير الطبري (ج ٢٤ - ص ٢٣).

(٧) سورة الأنعام: ٥٠.

(٨) التفسير الميسر (ج ١ - ص ١٣٣).

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني مادة (فكر) بتحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، دار العلم بدمشق،
والدار الشامية ببيروت، ص ٨٣، ٦٤٣.

وقد جاء في "المعجم الوسيط" "فكر" بمعنى: إعمال العقل في الشيء، وترتيب ما يعلم ليصل به إلى مجهول^(١)، أو: "إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول"^(٢)، كما عرفه طه جابر العلواني بأنه: "اسم لعملية تردّد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلباً أو روحاً أو ذهنًا، بالنظر والتدبّر لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومّة، أو الوصول إلى الأحكام، أو النسب بين الأشياء"^(٣).

فالفكر إمّا أن يراد به الكيفيّة التي يدرك بها الإنسان حقائق الأمور التي أعمل فيها عقله، فيكون الفكر عندئذٍ بمثابة الأداة أو الآليّة في عمليّة التفكير، وما يلحق بها من طاقات وقوى وملكات عقليّة ونفسيّة.

وإمّا أن يراد به ما نتج عن ذلك من تصوّرات وأحكام ورؤى حول القضايا المطروحة، ثمّ تتسع دائرة مفهوم الفكر أو تضيق تبعاً لمنطلقات المحدّد لمفهوم الفكر، فإذا اتسع مفهوم الفكر اشتمل على الموروث الفكري للإنسان في جميع ميادين المعرفة والعلوم على الصّعيد النظري، على أنّ هناك من يدخل العلوم التجريبيّة والتطبيقيّة داخل مفهوم الفكر، فيشتمل على النشاط الإنساني بعامّة بما يخرج مفهوم الفكر عن الفكر ليشتمل على مفهوم الثقافة بل الحضارة أيضًا. وقد تضيق دائرة مفهوم الفكر حتّى تنحصر في مجرد النظر العقلي في أمر ما، فيكون الفكر عندئذٍ منسوبًا إلى مبدأ، أو مذهب، أو طائفة، أو أمّة، أو عصر، أو دين.

فالمعنى الكيفي للفكر المتمثّل في حركة الذّهن للانتقال من المعلوم إلى المجهول، ونحو ذلك من التعبيرات المختلفة التي تؤدّي المعنى نفسه - هو ما استخدمه الأقدمون مثل: (ابن سينا) و(الرازي) و(ابن خلدون)، ولخصّها (الجرجاني) في تعريفاته بقوله: "الفكر ترتيب أمور معلومة لتؤدّي إلى مجهول".

(١) ينظر: المعجم الوسيط، الجزء الثاني ص ٦٩٨.

(٢) المصدر السابق ص ٦٩٨.

(٣) الأزمة الفكرية، طه جابر العلواني: ص ٢٧.

المطلب الثاني: المصادر الرئيسية في صياغة المنهج التربوي الفكري الإسلامي :

مصادر المنهج التربوي الفكري الإسلامي:

أولاً: الوحي:

بناءً على ما جاء في مفهوم الفكر الإسلامي فإنه ينطلق من الإسلام كمرجع موجّه، يحكم بكلّيات الفكر وجزئياته؛ لذلك فإنّ الوحي بشقيه (الكتاب والسنة) يعتبر المصدر الرئيس للفكر الإسلامي؛ حيث يحدّد الرؤية الكليّة النهائيّة للإنسان المسلم، وما يتفرّع عنها من أبعاد تربويّة واجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة وغيرها، وقد أجاب الفكر الإسلامي في مختلف عصوره عن إشكالات عدّة في المجالات المذكورة، تمثّلت في جملة العلوم التي ما فتئت تتبلور وتتأصل بداية من القرن الثاني للهجرة، كالفقه وعلوم الحديث وعلم الكلام وغيرها من العلوم.

ثانياً: الكون:

غير أنّ الفكر الإسلامي لا يشمل الإنتاج الذي يتناول الإسلام كموضوع للمعرفة فقط، بل هو كل إنتاج ينطلق من الإسلام كمرجعيّة تحدّد له رؤيته الكليّة للكون والإنسان والحياة؛ لذلك فالكون هو المصدر الثاني للفكر الإسلامي، وقد جاء القرآن الكريم يتحدث عن الكون في الكثير من آياته، بل إنّ الآيات التي تحدّث الله فيها عن الكون أكبر وأكثر من آيات الأحكام. والكون في الرؤية الكونية التوحيدية يشمل الكون الطبيعي (سنن الآفاق)، وذلك بمعرفة القوانين الكونية الطبيعيّة في السموات والأرض والحيوان والنبات والإنسان لاستخراج آيات الله فيه، ومعرفة سننها التي تسيّرُها وتسخيرها في إعمار الأرض لتحقيق خلافة الإنسان. والكون الإنساني سنن الأنفس، وذلك بدراسة قوانين المجتمعات الإنسانيّة، وسنن قيام الحضارات وأفولها، وتدخل فيها الخبرة الإنسانيّة وما أنتجته في التّاريخ والاجتماعيّات والإنسانيّات بما يتوافق فيها مع الرؤية التوحيدية؛ يقول تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١) سنري هؤلاء المكذبين، ما أنزلنا على محمد عبدنا من الذكر، آياتنا في الآفاق (٢).

غير أنّه ينبغي أن نشير هنا إلى ضرورة التّفريق بين ما يعتبر مصدراً في الفكر الإسلامي، وما يعتبر رافداً، فالكون الإنساني يعتبر مصدراً للفكر الإسلامي لمعرفة سنن الأنفس

(١) سورة فصلت: ٥٣

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢١ - ص ٤٩٣).

(الاجتماعية والنفسية) بما هي قوانين وضعها الله تعالى في الأفراد والأمم والمجتمعات، أما الخبرات الإنسانية وما أنتجته من فكر، بغض النظر عن اختلاف ملله ومذاهبه، فيعتبر رافداً من روافد الفكر الإسلامي، يؤخذ منه ويرد بما يخدم أهدافه، ويتوافق مع الرؤية التوحيدية. وإذا أمعنا النظر في الفكر الإسلامي برمته بما فيه من علوم إسلامية وآراء فكرية وغيرها، فإنما نشأت من هذين المصدرين: الوحي والكون.

وسائل المعرفة في الفكر الإسلامي:

إذا نظرنا في الفكر الإسلامي فنسجد أن المعرفة تفتح على مجالين واسعين، هما عالم الغيب وعالم الشهادة، عكس الفكر الغربي الذي يقتصر على الجانب المادي من عالم الشهادة، وهو ما بينه تعالى في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾^(١) فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشاق إليها ولا النار تخافها وتخشاها ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة^(٢).

وبالنظر إلى هذين المجالين المتداخلين يتوسل الفكر الإسلامي إلى المعرفة بثلاث وسائل تتساوى في الأهمية، وهي: العقل والقلب والحواس.

العقل: اختلف العلماء والمفكرون في تعريف العقل؛ فمنهم من أنكر وجود شيء مستقل بهذا الاسم، وجعله هو والعلم اسمين لمسمى واحد^(٣)، ومنهم من جعله رديف القلب^(٤)، ومنهم من أسهب في الحديث عنه بطريقة تبين حدوده، وقسمه إلى أقسام عدة، وبين وظيفة كل قسم^(٥)، غير أننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم فلن نجد كلمة "عقل" كمصدر، وإنما جاءت في صيغ فعلية

(١) سورة الروم: ٧

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٦٣٦).

(٣) آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، عمار طالبي، الشركة الوطنية، الجزائر، ج ١، ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) رسائل أبي حامد الغزالي، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، مصر، وينظر كذلك: ابن منظور، لسان العرب، مادة "عقل".

(٥) تراث الإسلام، شاخت وبوزورت، ترجمة حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص ٢٠٩.

متعددة، مثل: "تعقلون"، و"يعقلون"، و"عقلوه"، و"يعقلها"، و"نعقل"، وهو ما يدل على أن العقل ليس مصدرًا قائمًا بذاته، وإنما هو عملية تعقل يقوم بها الإنسان؛ ليربط بين الدال والمدلول، والأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، وغيرها من العمليات الوظيفية في الأشياء المجردة منها والمحسوسة للوصول إلى فكر يسير به في حياته، ويسير به شؤونه.

فالعقل - إذاً - وسيلة أو آلية في إنتاج الفكر عمومًا، وفي الفكر الإسلامي العقل وسيلة للتدبر في الوحي لاستخلاص مقاصده وعلومه، والتأمل في الكون لمعرفة قوانينه ونواميسه، فعمل العقل وفق هذا المنظور يكون في مجمله في الأمور المجردة.

القلب: لا يقصد بالقلب هنا ذلك العضو الحي الذي يقع في الجانب الأيسر من القفص الصدري، والذي يقوم بضخ الدم في جسم الإنسان، وإنما أقصد تلك اللطيفة الربانية - حسب تعبير الغزالي أبي حامد - التي يشعر بها الإنسان، وهو محل التصديق والإيمان، وعلى اعتبار أن الفكر الإسلامي يفتح على عالم الغيب، بل إن اعتبار الوحي والكون كمصدرين له ينبني على التصديق بالغيب والإيمان به، وهو توحيد الله باعتباره منزل الوحي وخالق الكون، وذلك لا يكون إلا بالقلب محل التصديق والإيمان؛ لذا نجد المولى - عز وجل - يُسبق لفظ الغيب بالإيمان ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(١)؛ يصدقون تصديقًا جازمًا بكل ما هو غيب لا يدرك بالحواس كالرب تبارك وتعالى ذاتًا وصفاتٍ، والملائكة والبعث، والجنة ونعيمها والنار وعذابها^(٢).

فالقلب - إذاً - هو وسيلة من وسائل الإدراك والمعرفة في الفكر الإسلامي، وهو من الأهمية بمكان حيث لا يمكن استبداله بالعقل ولا بغيره، فعمل القلب وفقًا لهذا يكون في الأمور الوجدانية.

الحواس: وهي جمع حاسة، وهي الوسائل التي ندرك بها الأمور المادية، كالأذن التي تقوم بوظيفة السمع، والعين التي تقوم بوظيفة البصر، والأنف الذي يقوم بوظيفة الشم، وغيرها من الحواس التي نتواصل بها مع عالمنا الخارجي.

وقد بين المولى - عز وجل - هذه الوسائل في كتابه قائلاً: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٣) أي لا تتبعه في قول أو فعل، تسنده إلى سمع أو

(١) سورة البقرة: ٣

(٢) أيسر التفاسير لأبو بكر الجزائري (ج ١ - ص ٢٠) .

(٣) سورة الإسراء: ٣٦

بصر أو عقل. من (قفا أثره) إذا تبعه. قال الزمخشري: والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم. ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولا ظاهرا، لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، انتهى^(١). فالسمع والبصر (الحواس)، والفؤاد (القلب والعقل)، هي وسائل العلم والمعرفة.

هناك صعوبات تحول دون التطبيق الكامل للمنهج التربوي الفكري الإسلامي العلمي في العلوم الاجتماعية والسلوكية منها:

- (١) أن الظواهر الاجتماعية تتصف بأنها أكثر تعقداً وتشابكاً منها في العلوم الطبيعية.
 - (٢) صعوبة ضبط الظواهر الاجتماعية تجريبياً، وقياسها قياساً موضوعياً.
 - (٣) صعوبة ملاحظة الظواهر الاجتماعية بدرجة عالية من الدقة، وصعوبة إخضاعها لضبط، كالضبط الموجود في الظواهر الطبيعية والتجارب العلمية؛ لأن البشر يتغيرون في أشخاصهم وسلوكهم واستجاباتهم للمؤثرات المختلفة.
- استحالة إجراء التجارب في الدراسات الاجتماعية وصولاً إلى قوانين اجتماعية تتميز بالدقة؛ لأن الموضوعية المطلقة صعبة التحقيق إلى حد كبير في هذه الدراسات.
- كل ذلك يحتم علينا إذا أردنا أن نؤسس لمنهج سليم – لا يكون مجرد نظرية غير قابلة للتطبيق، أو إذا طُبِّق يكون ضرره أكثر من نفعه – أن يكون المصدر الأساس لإعطاء منهج ناجح للتربية هو الوحي بكل ما لهذه الكلمة من معنى، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢)، ألا يعلم السر والجهر، من خلق الأشياء، والخلق يستلزم العلم، وقيل: معنى الآية: ألا يعلم الله من خلقه، وهو بهذه المثابة فـ (من) مفعول، والعائد مقدر^(٣).
- ومظهر الوحي الإلهي عبارة عن: (القرآن، السنة)، ولا يعني ذلك الاستغناء عن التجربة البشرية، بل الإسلام أقرّ بعض السير المتبعة؛ فعن أمير المؤمنين: "الأمر بالتجربة، والأعمال بالخبرة"، وعنه أيضاً: "العقل حفظ التجارب"، وقال أيضاً: "لولا التجارب عميت المذاهب، وفي التجارب علم مستأنف".

(١) محاسن التأويل (ج ٦ – ص ٤٦٠).

(٢) سورة الملك: ١٤.

(٣) محاسن التأويل (ج ٩ – ص ٢٩١).

المنهج التربويّ الفكري في القرآن:

مرة أخرى أكرّر ما قلته من أن القرآن إنما جاء ليتدبره الناس، فيصبحوا عبيدا لله بالطوع والاختيار، كما خلقهم عبيدا له بالفطرة والإجبار.

ومن أجل هذا، كان لا بدّ أن ينهج بالناس نهجا تربويا في كل ما يأتيهم به من أخبار وآيات وعظات وأحكام. ومن أجل هذا كان هذا الكتاب أعظم مصدر للتربية الفكرية إلى جانب أنه أعظم كتاب يقدّم للإنسان حقائق الكون كله. فما هو منهجه التربويّ الفكري، وما هو أسلوبه في ذلك! ..

المظهر الأول: أنه صبغ كل المواضيع التي طرقها وعالجها، بصبغة الهدى والموعظة والإرشاد.

فلم ينسق هذه المواضيع والأبحاث على أساس وحدات منفصلة ومستقلة عن بعضها، كما هو شأن عامّة الكتب والمؤلفات المعهودة، إذ هي بذلك لا تؤدي عملها التربوي المقصود في نفس الإنسان، وإنما بثّ في جميعها شرايين التوجيه والنصح والهداية، فصيّر لها بذلك وحدة كاملة متضامّة تعمل عملا واحدا وتسير بالإنسان نحو غاية لا تختلف. ولا داعي إلى أن نأتي لك بالأمثلة على ذلك، فقد ذكرنا هذا البحث فيما مضى.

المظهر الثاني: ما ذكرناه من التدرّج في الأحكام وكيفية أخذ الناس بها، فالقرآن كما قد علمت لم يصبّ أحكامه وفرائضه في حياة الناس دفعة واحدة، لكنه سعى بهم إليها على مراحل وفي خطوات رتب بعضها على بعض ومهدّت السابقة منها لللاحقة. وذلك كما قد علمت من دعوته الناس إلى العقيدة الصحيحة أولا، ثم إلى الإصلاح النفسي والاجتماعي ثانيا، وكما قد علمت من تدرجه في تحويل الناس عن عوائدهم وفواحشهم التي تعودوا عليها.

المظهر الثالث: السير بالناس، في كل ما يلزم به من الأحكام، نحو السهولة واليسر؛ وإقناعهم بأن كل ما قد يتصورونه قيودا، ليس إلا أسسا لا بدّ منها لسعادتهم ولصلاح معاشهم ومعادهم، فهو يقول مثلا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَئِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) أي: فلماذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله في حق من شرع الله يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة

(١) سورة المائدة: ٦

والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة (١).

ويلفت نظرهم إلى أن الشريعة الإسلامية إنما تحمل إليهم في طيبتها سر الحياة السعيدة للفرد والجماعة فيقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم وهو مؤمن: يقول: وهو مصدق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعب، ولم يعظم فيها نصبه ولم يتكدر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها (٣).

المظهر الرابع: أنه يضع المتأمل في آياته في حالة وسطى بين الخوف من عذاب الله تعالى، ورجاء رحمته وعفوه؛ وذلك كي لا يسيطر عليه من الرهبة والخوف ما يجعله في يأس من سعة عفوه، فيمضي بذلك في الطريق التي يشتهيها لاعتقاده بعدم الجدوى من الحذر والاستقامة، ولكي لا يفيض قلبه أملاً بمعاني الرحمة والمغفرة وحدها، فلا يجد بذلك ما يصدّه عن ارتكاب أي منكر والانحراف إلى أي زلل.

والقرآن يربي النفس البشرية هذه التربية الفكرية بإتباع أسلوبين:

الأول: أنه حينما يصف الكفرة والمشركين الذين استحقوا عذاب الله ونكاله يصفهم بأسوأ أعمالهم وأحط ما انتهوا إليه من الخصال، حتى إذا تفكرت في حالهم رجعت إلى نفسك فقلت: أحمد الله على أنني لست منهم ولم أبلغ مبلغهم في السوء والانحراف. وحينما يصف المؤمنين الذين استحقوا ثواب الله ورضوانه، يصفهم أيضا بأسمى خصالهم وأفضل أعمالهم حتى إذا تأملت في حالهم، عدت إلى نفسك تقول في تألم وأسف: أين عملي من أعمالهم وأين تقصيري من سمو درجاتهم. وبذلك تجد ذاتك في حالة وسطى بين الرجاء في عفو الله والخوف من عذابه.

ولنضرب مثلا لتجلية هذا المظهر التربوي الفكري في كتاب الله عز وجل. انظر إلى

(١) تفسير القرآن العظيم (ج ٣ - ص ٦٠).

(٢) سورة النحل: ٩٧.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن (ج ١٧ - ص ٢٩١ - ٢٩٢).

هذه الآيات وهي تصف الأسباب التي أدت إلى شقاء صنف من الناس يوم القيامة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالَوا لَنْ نُرْكَبَ مِنْ الْمُصَلِّينَ * وَلَنْ نَكُ نُطْعِمَ الْمُسْكِينِ * وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَافِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (١) كل نفس بما كسبت من أعمال الشر والسوء محبوسة مرهونة بكسبها، لا تفكُّ حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات، إلا المسلمين المخلصين أصحاب اليمين الذين فكوا رقابهم بالطاعة، هم في جنات لا يُدرَك وصفها، يسأل بعضهم بعضاً عن الكافرين الذين أجرموا في حق أنفسهم: ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيها؟ قال المجرمون: لم نكن من المصلين في الدنيا، ولم نكن نتصدق ونحسن إلى الفقراء والمساكين، وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة، وكنا نكذب بيوم الحساب والجزاء، حتى جاءنا الموت، ونحن في تلك الضلالات والمنكرات (٢).

فأنت إذا سمعت هذه الأوصاف حمدت الله على أنك لست منهم مهما كنت مخطئاً ومقصراً.

ثم انظر إلى هذه الآيات الأخرى وهي تصف الأسباب التي بها يسعد الناس في حياة خالدة يوم القيامة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (٣) (٤)

بالحلم والسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله. وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القول، أجابوهم بالمعروف من القول، والسادق من الخطاب. والذين يدعون الله أن يصرف عنهم عقابه وعذابه حذرا منه ووجلا. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يقول: إن عذاب جهنم كان غراما ملحا دائما لازما غير مفارق من عذب به من الكفار، ومهلكا له (٥).

فأنت إذا تأملت هذه الأوصاف، تضاعلت نفسك أمامك، وتبدت لك منها مظاهر التخلف

(١) سورة المدثر: ٣٨-٤٦

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥٧٦).

(٣) سورة الفرقان: ٦٣-٦٥

(٤) الفرقان: ٦٣ و ٦٤ و ٦٥.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (ج ١٩ - ص ٢٩٥ - ٢٩٦).

والتقصير .

ومن هاتين النظرتين يتولد الخوف والرجاء ويتمازجان في حياة الإنسان؛ ويتولد منهما معنى يدفعه في سبيل معتدل يجمع فيها بين الوفاء بحق نفسه وحق الله عزّ وجلّ.

الثاني: أنك لا تجد آية في كتاب الله فيها الحديث عن الجنة ونعيمها وعن الصالحين وما أعدّ الله لهم من المثوبة، إلا وتجد من بعدها آية فيها الحديث عن النار وهولها وعن الكافرين وما أعدّ الله لهم من العقوبة. ولا تكاد تجد في القرآن آية أو آيات قد انفردت بوصف الشدّة أو الرخاء دون أن يكون إلى جانبها آية أو آيات فيها وصف الطرف الآخر. والحكمة من ذلك أن لا يرهب الإنسان رهبة تقذف به إلى اليأس، ولا يرغب رغبة تغريه بالعقود والكسل.

وقس على هذه الأمثلة كل ما في القرآن من آيات الوعد والوعيد ووصف الجنة والنار، لا بدّ أن تجد الحديث عن كلّ منهما معادلا ومقارنا للحديث عن الآخر، ولا يمكن أن تعثر على أيّ شذوذ في ذلك. وهذه الظاهرة، من أدق مظاهر المنهج التربوي الفكري وأهمها في كتاب الله عزّ وجلّ إذ هي التي تضع الإنسان في مستوى العبودية لله عزّ وجلّ، حيث تشدّه إليه رغبة ورهبة بآن واحد؛ وهي النهاية التي ينبغي أن ينتهي إليها العبد بالنسبة لربه جلّ جلاله. وقد نبّه إليها أبو بكر الصديق^(١) رضي الله عنه، خلال وصيته العظيمة لعمر بن الخطاب أثناء مرض موته.

(١) أمير المؤمنين أبو بكر الصديق (١٣ هـ) عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي التيمي، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رسول الله ﷺ، أمه أم الخير، سلمى بنت صخر. ولد بعد الفيل بستين وستة أشهر. كان أول من آمن من الرجال، لقب بعتيق. أنفق أمواله على النبي ﷺ وفي سبيل الله، قال رسول الله ﷺ: "ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر" وقال ﷺ: "لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر، أول خليفة بعد رسول الله ﷺ. أم المسلمين في مرض موت رسول الله ﷺ. شهد له النبي ﷺ على التعيين بالجنة. صحب النبي ﷺ سنة قبل البعثة وسبق إلى الإيمان به واستمر معه طول إقامته بمكة، ورافقه في الهجرة، وفي الغار وفي المشاهد كلها، وكانت الراية معه يوم تبوك. كانت خلافته رضي الله عنه سنتين. قاتل أهل الردة الذين منعوا الزكاة. وقال: "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة" (٤). توفي رضي الله عنه في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة للهجرة. (الإصابة ٤/ ١٦٩ - ١٧٥).

المطلب الثالث: أهمية منهج التربية الفكرية في القرآن الكريم

١- تحقيق شرع الله سبحانه وتعالى:

حيث نجد أن منهج التربية في القرآن الكريم يعتني عناية خاصة في تحقيق شرع الله سبحانه وتعالى، حيث أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان لعبادته وبين الحلال والحرام، والخير والشر، والجنة والنار، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١) قال ابن كثير: أي مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه وارتكب ما عنه زجره ونهاه (٢).

فهذا بيان تحقيق شرع الله عز وجل الذي جاء في القرآن الكريم.

٢- تحقيق الجانب التعبدى:

لاشك أنه من خلال المنهج التربوي للقرآن الكريم سيتحقق الجانب التعبدى لله عز وجل وذلك لأن المنهج مستمد في الأصل من القرآن الكريم الذي أمر فيه عز وجل عباده بالعبادة الخالصة لوجهه الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٣) ويقول ابن كثير: أن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، وهو خالقهم ورازقهم (٤).

٣- تستمد قوتها من مصادرها:

من المعلوم أن هناك العديد من أنواع التربية في جميع بقاع الأرض، ولكن لا تعتمد هذه الأنواع على مصادر واحدة ولا تتشابه في مصادرها، فبعض أنواع التربية قامت على آراء المفكرين وبعضها قامت على متطلبات دنيوية فقط، فهنا موطن الضعف للتربية التي تنتهج مناهج موضوعية لآراء البشر حيث إن أي كلام من كلام البشر إنما يكون انعكاساً لشخصية

(١) سورة الحشر: ٧

(٢) تفسير القرآن العظيم - الحافظ أبي الفداء اسماعيل ابن كثير (ج ٤ - ص ٣٦٠).

(٣) سورة الذاريات: ٥٦

(٤) تفسير القرآن العظيم - الحافظ أبي الفداء اسماعيل ابن كثير (ج ٤ - ص ٢٥٥).

قائلة، وعلمه ومزاجه ونفسيته، وكل كلام يحمل صفة وروح قائلة، لأنه أثر من آثاره. ولكن المنهج التربوي في القرآن يستمد قوته تلقائياً من مصادره القوية وهي القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبينا محمد ﷺ وتعد الله سبحانه وتعالى بحفظه حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١) ويقول الصابوني: أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن، نصونه عن الزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكول إلى أهلها^(٢).

ويعجز أي إنسان أن يأتي بمثل هذا القرآن حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾^(٣) ويقول الصابوني: أي وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن المعجز في بيانه وتشريعه ونظمه الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي فأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن في البلاغة والفصاحة والبيان^(٤).

٤ - قد يحقق النهضة العلمية الشاملة لو طبق:

يسعى المنهج التربوي في القرآن الكريم للنهضة العلمية الشاملة في شتى المجالات المعرفية والعلمية والاقتصادية والمهنية. ولا ريب أنه بتمسكنا بالمنهج التربوي في القرآن الكريم سنحقق النهضة العلمية الشاملة ونعود من جديد بالنهوض بهذه الأمة ونكون الرواد في شتى المجالات كما كان أسلافنا، ويقول ابن قيم الجوزية في سياق النص الذي يقول فيه: وكمال الإنسان إنما يتم بهذين النوعين: همة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه، (أي العلم والإرادة) فإن مراتب السعادة والفلاح، إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما^(٥).

أهمية التربية الفكرية:

يعتبر التفكير هدفاً تربوياً يسعى القائمون على المؤسسات التربوية تنميته لدى الناشئة؛ وذلك أنه يصقل عقولهم، وينمو بها نحو الاستخدام الأمثل للفرصة المتاحة المباحة في أي مجال من مجالات الحياة النافعة.

(١) سورة الحجر: ٩

(٢) صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم - بيروت - ١٤٠٢هـ - (ج ٢ - ص ١٠٦)

(٣) سورة البقرة: ٢٣

(٤) صفوة التفاسير (ج ١ - ص ٤٢).

(٥) مفتاح دار السعادة - ابن القيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ - (ص ٤٨).

والقدرات العقلية عديدة ومتنوعة عند الإنسان مثل: (القدرة على الإدراك، والقدرة على التذكر، والقدرة على التخيل، والقدرة على الاستنباط والاستنتاج، والقدرة على التحليل، والقدرة على التركيب، والقدرة على الاستقراء، والقدرة على التكيف، والقدرة اللغوية والقدرة الكتابية، والقدرة العددية أو الحسابية، والقدرة العملية، والقدرة الفنية أو الجمالية ونحوها)^(١).

فهذه القدرات في تنوعها تحتاج إلى تمتيتها لدى الأفراد من خلال جوانب التعليم والمعرفة المتعددة، ومنها جانب اللغة العربية وعلومها المختلفة التي تقدر ذهن المتعلم، وتنمي فيه قدرات عقلية متنوعة، كسعه الخيال وخصوبته، وفهم مرامي الكلام وتأويله ولحنه ومغازيه، وإدراك الحكمة والتمثل بها قولاً وعملاً؛ ولذلك ربط بين الرأي والأدب.

ف قيل: (الرأي والأدب زوج، لا يكمل الرأي بغير الأدب، ولا يكمل الأدب إلا بالرأي)^(٢)؛ وذلك أن الأدب هو الوسيلة في التعبير الموضحة لمقدار العقل، والذي يؤكد ذلك الموقف من غلام وفد أهل الحجاز عندما جاءوا مبايعين للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتقدم الغلام للكلام، فقال عمر: يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استجاد له الاختيار^(٣). فزين الغلام فكره بمنطقه اللغوي، ولو كان عي اللسان لما ازدان فكره بلسانه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بيان أهمية اللغة في التربية العقلية: "تعلموا العربية فإنها تثبت العقول، وتزيد في المروءة"^(٤).

وقال: "وعليكم بالفقه في الدين، وحسن العبادة، والتفهم في العربية"^(٥). فاللغة هي الجسر الذي يصل بين الحياة والفكر، تسبق وجود الأشياء أحياناً، وتلحقها أحياناً أخرى، فالفكرة التي تجول في الذهن مجردة تنتقل إلى شيء يتحقق وجوده وبعد أن يوجد الشيء ينتقل

(١) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، عبد الحميد الصيد الزنتاني، (ص ٤١٩).

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع، ص (٣٧).

عبدُ اللهِ بنُ المُقَفِّعِ (الوفاة: ١٤١ - ١٥٠هـ) أَحَدُ الْمَشْهُورِينَ بِالْكَتَابَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالنَّرْسَلِ وَالْبِرَاعَةِ، وَكَانَ فَارِسِيًّا مَجُوسِيًّا فَأَسْلَمَ عَلَى يَدِ عَيْسَى بْنِ عَلِيٍّ عَمِّ السَّقَّاحِ وَهُوَ كَهْلٌ، ثُمَّ كَتَبَ لَهُ وَاخْتَصَّ بِهِ. وَمِنْ كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفِّعِ قَالَ: شَرِبْتُ مِنَ الْخُطْبِ رِيًّا، وَلَمْ أُضْبِطْ لَهَا رَوِيًّا، فَعَاظَتْ ثُمَّ فَاضَتْ، فَلَا هِيَ نِظَامًا، وَلَا هِيَ غَيْرُهَا كَلَامًا. وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: صَنَّفَ ابْنُ الْمُقَفِّعِ "الدَّرَّةَ الْيَتِيمَةَ" الَّتِي لَمْ يُصَنَّفْ مِثْلَهَا فِي فَنِّهَا، وَقَدْ سُئِلَ: مَنْ أَدَبَكَ؟ قَالَ: نَفْسِي، كُنْتُ إِذَا رَأَيْتُ مِنْ غَيْرِي حُسْنًا أَنْبَيْتُهُ، وَإِذَا رَأَيْتُ قَبِيحًا أَبَيْتُهُ. (البداية والنهاية ١٠ / ٩٦، لسان الميزان ٣ / ٣٦٦).

(٣) زهرة الآداب، أبو إسحاق الفيرواني، (ج ١ - ص ٤٠).

(٤) تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، ص (٢٢٢).

(٥) المرجع السابق (٢٢٢).

إلى أذهان الآخرين بطريق اللغة^(١).

النمو الفكري:

يعتبر الجانب الفكري أحد المطالب التربوية التي تسعى المنشآت التربوية لترسيخها وبنائها وتتميتها في الناشئة، حيث (تعد عملية التفكير كعملية عقلية عليا من أهم وظائف العقل البشري التي تمكنه من الفهم والإدراك، والتمييز والمعرفة والاستيعاب والاستنباط والاستنتاج، وإصدار الأحكام الصائبة).

ويعتبر سعة الخيال قدرة ذهنية فكرية متقدمة ذلك (أنه العملية العقلية التي تقوم في جوهرها على إنشاء علاقات جديدة بين الخبرات السابقة، بحيث تنظمها في صور وأشكال لا خبرة للفرد بها من قبل)^(٢).

فهي عملية عقلية تستعين بالتذكر في استرجاع الصور العقلية المختلفة ثم تمضي لتؤلف منها تنظيمات جديدة تصل الفرد بماضيه، وتمتد به إلى حاضره، وتستطرد به إلى مستقبله.

(١) فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص (١٤).

(٢) الأسس النفسية للنمو، فؤاد اليهي السيد، ص (١٦١).

المطلب الرابع: معجزة القرآن التربوية والنفسية

رسالة الإسلام جاءت متناسبة مع احتياجات النفس الإنسانية فكأنها مطلة على كل زوايا هذه النفس وأبعادها - كيف لا - والله سبحانه قد خلقها ووضع لها قوانينها المناسبة لها في القرآن فهي الدواء الطبيعي للأمراض النفسية مهما بلغت من حدتها ومضاعفاتها ولا يمكن أن تتوفر حالة الاطمئنان بالشكل التام إلا بذكر الرحمن سبحانه، وهو القائل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا الْحُلُمَ إِنَّهُمْ كَانُوا خَائِفِينَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعْلَمِينَ﴾ (١) أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراسها ولذاتها. وقيل حقيق بها وحري أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألد للقلوب ولا أشهى ولا أهدى من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له، يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله، ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك (٢).

وعلى هذا الضوء نلاحظ أن الأسس التربوية في القرآن الكريم هي الوحيدة التي تكفل سعادة الإنسان والمجتمع لأن القرآن يدرك ما يجري في النفس الإنسانية من حالات مرضية أسبابها ومسبباتها ونتائجها فيبدأ بمعالجة الأسباب الرئيسية لهذه الأمراض فيقلع جذور الفساد من الأساس حيث قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٣) يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع اطلاعه أنه يعلم خائنة الأعين وهي العين تسترق النظر إلى المحارم، ويعلم ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ أي وما تكتمه صدور العباد وما تضره من خير وشر، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقاً ومن نوقش الحساب عذب (٤).

ويعلم أن الإنسان ظلم جهول حيث حمل أمانة السماء: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٥) معناه: إن الله عرض عرض طاعته وفرائضه على السموات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت، وإن ضيعت عوقبت، فأبت حملها شفا منها أن لا تقوم بالواجب عليها، وحملها آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ

(١) سورة الرعد: ٢٨

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤١٧).

(٣) سورة غافر: ١٩

(٤) أيسر التفاسير (ج ٤ - ص ٥٢٣).

(٥) سورة الأحزاب: ٧٢

ظُلُومًا ﴿لِنَفْسِهِ﴾ ﴿جَهُولًا﴾ بالذي فيه الحظ له (١).

فلذلك حينما يشرع هذا التشريع المقدس يأتي مطابقاً لمصلحة الإنسان ولا يمكن أن نشك في هذه الحقيقة التي بات كثير من الناس لا يعونها بالشكل التام إثر تخلف معين أو لتأثير الإعلام المعادي للإسلام والمسألة لا تحتاج إلى تفكير هائل مع ما وصلت إليه البشرية من التقدم التكنيكي والصناعة المتطورة لتذليل الصعاب إلا أننا نشاهد التذوق الحقيقي للسعادة والراحة القلبية لا تحققها الرسائل المتقدمة وإنما لا بد من معالجات روحية ونفسية لإنقاذ الإنسان من الأزمات الخطيرة التي تحيطه من كل جانب والتي قد تؤدي بحياته أحياناً.

فالتقدم العلمي لا يحقق للإنسان احتياجاته النفسية فهو لا يوفر العقيدة القلبية والربط الروحي مع حقائق الوجود بل يوفر التفسير الظاهري للموجودات في الحياة فالعلم يكشف عن دقة الكون والإبداع الهائل في تصويره وهندسته وقوانينه من المجرات إلى الذرات من الحيوانات إلى الحشرات وفي داخل الإنسان أعظم الأجهزة العاملة تؤدي أعمالها بالشكل المناسب بينما القرآن الكريم بل الإيمان به يوفر حالة الربط الروحي بين الإنسان والمبدع للكون فيملاً هذا الفراغ بالحب والأمل فنعبده ونتقرب إليه ونخاف من عقابه بل نخاف من يوم الحساب ذلك اليوم العسير حيث المحكمة الكبرى تقام على الإنسان وحينذاك تشهد على أعمالنا أيدينا وأرجلنا. ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) أي فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون من قول أو فعل، إذ ينطقها الله بقدرته، فتخبر كل جراحة بما صدر منها من أفاعيل صاحبها (٣).

فهذه القيم المقدسة لا يعطينا إياها العلم إضافة إلى أن العلم لا يدعي الكمال بل النظريات تتحول إلى عمليات والعمليات في تطور مستمر وفي كل يوم اكتشاف جديد واختراع جديد أما القرآن فهو المنهج التربوي والعقائدي الثابت إنه في قمة الكمال لا يطرأ عليه التغيير أو التبديل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٤) أَحْكَامَهُ وَقَرَأْتُهُ فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَهَا حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بِإِكْمَالِهِ وَقِيلَ بِدُخُولِ مَكَّةَ آمِنِينَ ﴿وَرَضِيتُ﴾

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ج ٢٠ - ص ٣٣٦).

(٢) سورة النور: ٢٤

(٣) تفسير المراغي (ج ١٩ - ص ٩٠).

(٤) سورة المائدة: ٣

أَيَّ اخْتَرْتُ ﴿لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١).

فإذن هنالك حاجة نفسية للقرآن الكريم أو للعقيدة بشكل عام وعلى ما تذهب إليه البحوث السايكولوجية المتطورة من أن هنالك فراغاً في مخ الإنسان لا يملأ إلا بالتربية الروحية والتعلق الوجداني بقوة كبرى تسندنا لأننا ضعفاء ويظهر ضعفنا جلياً حين المرض أو حين يلوح علينا شبح الموت المخيف فلما لم تجد البشرية ذلك الدين القيم تلجأ إلى الخرافات وعبادة الدنيا أو الأصنام كما كان سابقاً أو عبادة البقر كما عند البعض محاولة يائسة لملاء الفراغ الذهني بالمعتقدات السخيفة خوفاً من حالة الضياع القاتلة وأظن أننا لا نحتاج إلى أدلة في هذا الحديث وخاصة حينما نرى البلدان العلمية في أوروبا بالذات فإلى جانب التطور التكنولوجي هنالك الضياع المر القاتل الذي يعاني منه المجتمع وبالذات الشباب وفي كل يوم ومضة جديدة تكتسح الشارع الأوروبي حتى غدا البعض لا يفارق المرأة ليل نهار يعمل في تصفيف شعره وترتيب ملابسه وجلده وحذائه وأظفاره بشكل لم يفعله المجنون حتى رأيت في إحدى البلدان الأوروبية إن بعض شباب (اليانك) قد حلق شعر رأسه من كل جانب بالموس عدا المنطقة العليا من الرأس فجعل الشعر منها طويلاً وملوناً كألوان الطيف الشمسي وقد وضع عليه نوعاً من الزيت الخاص له بريق معين حينما تراه كأنك ترى عشاءً للعصافير وبالفعل يستطيع أن يخدع بعض العصافير لتقف على رأسه في الحدايق العامة وبفنية متعبة حينذاك يمتلئ هذا المسكين أو هذه المسكينة سعادةً نفسية وفرحاً كبيراً فينتعش ويضحك ويبتسم لروحه المعذبة وحينما يسأل عن هذه الأعمال يجيب لتحقيق نشوة السعادة الروحية لديه !!.

هذا وإضافة إلى ملء هذا الفراغ الروحي نلاحظ أن التربية الإسلامية لا تسمح للعقد النفسية أن تنمو في المناخ الملائم حيث يهيب الإسلام مناخات مضادة للعقد النفسية فيحطها دون أن ينميها لكيلا تتحول إلى حالة مرضية عسيرة كمرض الحسد والحقد والتكبر والغيبة والخوف وحب السيطرة والانتقام والغرور وبقية الأمراض النفسية.

هذا السر التربوي يسحب الصواعق النارية من بارود النفس ويمسك صمام الأمان لإيجاد حالة التوازن في النفس والمجتمع دون أن تنمو الحالة السلبية في داخل الإنسان وليرتفع بدوره عن الظلم الاجتماعي وفي حالة الكوارث الطبيعية يفسرها التفسير الهادئ المقبول بدلاً من التفسير السلبي المريض الذي يدفع أعراض المرض النفسي بالظهور.

(١) تفسير الجلالين (ج ١ - ص ١٣٦).

ومن روائع المعجزة الخالدة من الناحية التربوية أننا نلاحظ هذا المنهج الفريد قد أحاط الإنسان من كل جانب فهو يهتم بالإنسان قبل انعقاد نطفته وإلى أن يخرج من رحم أمه طفلاً ومنذ الوهلة الأولى يضع القرآن الكريم والإسلام بشكل عام أسساً تربوية له وكلما كبر الإنسان تنمو معه هذه الأسس التربوية كي تحيط حياته تماماً في بلوغه وشبابه ونضوجه وحتى يهرم ويموت ويدفن تلاحقه التعاليم الدينية وهو على صخرة المغتسل حيث الغسل والصلاة والدفن وبعد الدفن أيضاً هنالك مراسيم تقام مباشرةً وهنالك مراسيم وخيرات طويلة الأمد وكما هذا الاهتمام التربوي للفرد يكون للمجتمع كذلك فلذلك يقول القرآن الحكيم:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(١) إن رسول الله ﷺ إنما

يدعوهم إلى ما يحييهم.. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة.. إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والاحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء^(٢)..

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرير "الإنسان" وتكرمه بصورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفاً متساوين في مواجهتها لا يتحكم فرد في شعب، ولا طبقة في أمة، ولا جنس في جنس، ولا قوم في قوم.. ولكنهم ينطلقون كلهم أحراراً متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد.

ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان، العليم بما خلق هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء.

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم، والثقة بدينهم وبربهم، والانطلاق في "الأرض" كلها لتحرير "الإنسان" بجملته وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله، فاستلبها منه الطغاة! ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، لتقرير ألوهية الله سبحانه - في الأرض وفي حياة الناس وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة

(١) سورة الأنفال: ٢٤

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢

هـ (ج ٣ - ص ١٤٩٥).

ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله - سبحانه - وحاكميته وسلطانه حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده وعندئذ يكون الدين كله لله. حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة(١).

فالتربية القرآنية تخلق في الإنسان (بوليسياً داخلياً كما يقول الأوربيون حينما يقيمون النجاح الإسلامي في التربية. ومن ثم نلاحظ أن الإسلام يدفع بالمسلمين لإنشاء الأخوة الإنسانية وعلى أوسع دوائرها ضمن قوانين عادلة تحكم السلوك والعلاقات والأخوة الإسلامية ويدفع الإسلام إلى التغاضي والتجاوز عن كثير من الأمور التي تسبب تعكير الصفو الاجتماعي يقول الإمام علي في رسالته لوالي مصر: (لا تكن عليهم سبعا ضارياً فالناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

وجاء في القرآن الحكيم: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٢) يا أيها الناس إنا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فلا تفاضل بينكم في النسب، وجعلناكم بالتناسل شعوباً وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضاً، إن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له. إن الله عليم بالمتقين، خبير بهم(٣).

ومن ناحية أخرى يأتي القرآن الكريم بالأسس الأخلاقية لكي لا يتيه الإنسان في بحر الغرور والعجب بماله وجماله أو منزلته الاجتماعية بل يذكره دائماً بالموت والفناء. ﴿أَيُّنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ (٤) أي: أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم(٥). ويقول النبي ﷺ: «أكثروا من ذكر هادم اللذات. فقيل: يا رسول الله فما هادم اللذات؟ قال: الموت، فإن أكيس المؤمنين أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم له استعداداً»(٦).

وإن الدنيا عاقبتها الزوال والقرآن يدفع بالإنسان نحو أعمال الخير والصدقات والسلوك المعتدل رهبة ورغبة. وهكذا في داخل الأسرة والمجتمع والعلاقة بين الأبوين والزوجين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ - ج ٣ - ص ١٤٩٥.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٣) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٥١٧).

(٤) سورة النساء: ٧٨.

(٥) تفسير بن كثير (ج ٢ - ص ٣٦٠).

(٦) أخرجه أحمد "٢٩٢/٢ - ٢٩٣" والترمذي "٤٧٩/٤" كتاب الزهد: باب ما جاء في ذكر الموت، حديث "٣٣٠٧" والنسائي "٤/٤" كتاب الجنائز: باب كثرة ذكر الموت، حديث "١٨٢٤" وابن ماجه "١٤٢٢/٢" كتاب الزهد: باب ذكر الموت، حديث "٤٢٥٨" وابن حبان "٢٥٥٩، ٢٥٦٠، ٢٥٦١.

والعمل الخارجي مع الناس: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١).

وقانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمان لاستقامة التربية الاجتماعية وإيجاد جهاز المراقبة الاجتماعية الهادفة لنشر الخير والصلاح وللعلم إن حديث المعجزة التربوية والنفسية حديث شيق وما أوردناه يلائم هذه الرسالة والحق أن في المسألة كلام كثير وتفصيلات أكثر.

وبالمناسبة أنقل نصاً لبرناردشو (المفكر المعروف): إذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين (الدين الإسلامي) إنه دين التعاون والسلام والعدالة في ظل شريعة متمدنة محكمة لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا سمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبداً وقد ألفت كتاباً في محمد ولكنه صودر لخروجه عن تقاليد الإنكليز.

(١) سورة آل عمران: ١١٠

المبحث الثاني

بيان منهج الرسول ﷺ التربوي

المطلب الأول: منهجه ﷺ في التعليم؛

إنَّ منهج الرسول الكريم في تبليغ أصحابه لا يتعدَّى منهج القرآن العظيم، إذ كان الرسول مُبلِّغًا لكتاب الله تعالى، مُبَيِّنًا أحكامه، مُوضِّحًا آياته، وقد نزل القرآن الكريم مُنْجَمًا عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة، والرسول الكريم يبلغ قومه، ومن حوله، ويفصل تعاليم الإسلام، ويطبِّق أحكام القرآن، فكان معلمًا وحاكمًا وقاضيًا ومفتيًا وقائدًا طيلة حياته - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، فكل ما يتعلق بِالْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ في جميع شؤونها، دقيقها وعظيمها، وكل ما يتناول الفرد والجماعة في مختلف نوحى حياتهم، مما لم يرد في القرآن فهو من السُّنَّةِ، العملية أو القولية أو التقريرية، ومن ثَمَّ نجد بين يدينا أحكامًا وآدابًا وعبادات وقربات شرعتْ وَطُبِّقَتْ وَسُنَّتْ خلال ربع قرن.

فلم توضع السُّنَّةُ دفعة واحدة كمجموعة من الشرائع الوضعية، أو الأحكام الخلقية، التي يملئها بعض الحكماء والوعاظ، وإنما شرعتْ لتربية الأُمَّة دينيًا واجتماعيًا وخلقياً وسياسياً، في السلم والحرب، في الرخاء والعسر، وتتناول النواحي العلمية والعملية، فلم يكن من السهل أن ينقلب الناس آنئذٍ فجأة، ويتحولوا بين عشية وضحاها عن تعاليمهم القديمة، وديانتهم.

لقد تدرَّج القرآن الكريم في انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة، ومحاربة المنكرات التي كان عليها الناس في الجاهلية، وثبت بالتدرج أيضًا العقائد الصحيحة، والعبادات، والأحكام، ودعا إلى الآداب السامية والأخلاق الفاضلة، وشجع الذين التفوا حول الرسول ﷺ على الصبر والثبات وفي هذا كله كان الرسول الكريم يُبَيِّنُ الْقُرْآنَ، ويفتي الناس، ويفصل بين الخصوم ويقم الحدود، وَيُطَبِّقُ تعاليم القرآن، وكل ذلك سُنَّةً، وسنتناول الآن منهج الرسول الكريم - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، في ذلك كله، مُتَوَخِّينَ الْإِجَازَ، وإنَّ لدراسة أسلوبه ومنهجه لأثرًا بعيدًا في تثبيت سنن الرسول ﷺ ولولا ذلك لم نتعرَّضْ لدراسته.

كان الرسول ﷺ قد اتخذ دار الأرقم مقرًّا له ولأصحابه حين كانت الدعوة سرية، فيلتف حوله المسلمون الأوائل بعيدًا عن المشركين يتذكرون كتاب الله، وهو يُعَلِّمُهُمْ مبادئ الإسلام، ويحفظهم ما ينتزل عليه من القرآن، وبعد ذلك أصبح منزل الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -

في مكة ندوة المسلمين، ومعهدهم الذي يتلقون فيه القرآن الكريم، وينهلون من الحديث الشريف على يدي رسول الله ﷺ.

ولا شك في أن الصحابة كانوا يستظهرون آيات القرآن، ويتدارسونها فيما بينهم، في بيوتهم وفي حوانيتهم، في المدينة وفي البداء، لينثبوا ما سمعوا من رسول الله ﷺ. وقد يتذكرون تفسير ما تلقوه، وما تفسيره إلا شرح رسول الله ﷺ وهو الحديث. فحفظ حديث رسول الله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كان متمشياً جنباً إلى جنب مع حفظ القرآن العظيم من الأيام الأولى لظهور الإسلام. وقصة إسلام عمر تثبت أن المسلمين كانوا يقرأون القرآن في بيوتهم، ويتفقهون في الدين ...

ثم أصبح المسجد فيما بعد - المكان المعهود للعمل والفتوى والقضاء، إلى جانب العبادة وإقامة الشعائر الدينية، وعرض أمور العامة على المسلمين.

ومع هذا لم يقتصر تبليغ الرسول - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - على مكان محدود ولا على مناسبة معينة، فقد كان يُسْتَفْتَى في الطريق فيفتي، وَيُسْأَلُ في المناسبات فيجيب، يُبَلِّغُ الأحكام في كل فرصة تسنح له، وفي كل مكان يتسع لذلك: في حله وترحاله، في سلمه وحره. وإلى جانب هذا كانت له مجالس علمية كثيرة يتخول فيها أصحابه بالموعظة، فإذا جلس جلس إليه أصحابه حلقاً حلقاً^(١). ويقول أنس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: "إِنَّمَا كَانُوا إِذَا صَلُّوا الغَدَاةَ قَعَدُوا حلقاً حلقاً، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَعَلَّمُونَ الْفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ"^(٢) ومن تاريخ الصحابة وحياتهم العلمية تعلم أن الرسول الكريم لم يكن يرضى على مسلم بالعلم، وأنه كان يكثر مجالسة أصحابه يعلمهم وَيُرَكِّبُهُمْ. وسيظهر لنا ذلك من البحث.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٣)، قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا)^(٤) فقد كان - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يخشى أن يمل أصحابه فَيَتَخَوَّلَهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ بين وقت وآخر، لأن الاستمرار في تعليمهم وتوجيههم، يدخل الملل إلى نفوسهم، فتقل الفائدة، فمن الحكمة سلوك هذا الطريق في التعليم، وهو الطريق الذي تعتمده المؤسسات التربوية في

(١) انظر "مجمع الزوائد": ص ١٣٢ ج ١. وإن كان في بعض رجالهما مقال فإن الطرق الكثيرة التي روي بها تؤيد الاستشهاد بهما.

(٢) انظر "مجمع الزوائد": ص ١٣٢ ج ١. وإن كان في بعض رجالهما مقال فإن الطرق الكثيرة التي روي بها تؤيد الاستشهاد بهما.

(٣) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب، أبو عبد الرحمن الهذلي (المتوفى: ٣٢ هـ): حليف بني زهرة، وأمه أم عبد هذيلة أيضاً. كان من السابقين الأولين، شهد بدرًا والمشاهد كلها، وكان صاحب نعل النبي ﷺ، فكان إذا خلعها حملها أو شالها. وكان يدخل على النبي ﷺ ويخدمه ويلزمه. وتلقن من في رسول الله ﷺ سبعين سورة. توفى بالمدينة، وكان قديمها فمرض أياماً ودفن بالبيع، وله ثلاث وستون سنة، في أواخر السنة (الإصابة: ٧ / ٢٠٩).

(٤) "فتح الباري": ص ١٧٢ و ١٧٣ ج ١ و "مسند الإمام أحمد": ص ٢٠٢ حديث ٣٨٥١ ج ٥.

مناهجها التعليمية، وهي خير طريقة لتثبيت ما يتلقاه الطالب من المعلومات.

وكان ﷺ يخاطب الناس على قدر عقولهم، فإنَّ الكلام الذي لا يبلغ عقول السامعين ولا يفهمونه قد يكون فتنة لهم، فيأتي بغير المقصود منه.

لقد كان الرسول الكريم يخاطب حضوره بما يدركونه، يفهم البدوي الجافي بما يناسب جفائه وقسوته، ويفهم الحضري بما يلائم حياته وبيئته، وكما أنه كان يراعي تفاوت المدارك، وانتباه أصحابه وقدرهم الفطرية والمكتسبة، فتكفي منه الإشارة إلى الألمي الذكي، واللحمة العابرة إلى الحافظ المجيد. من ذلك: مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ (١) قَالَ: ((جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَوَلَدَتُ غُلَامًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا أُلْوَانُهَا؟. قَالَ: حُمْرٌ. قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟. قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوْرِقًا. قَالَ: فَأَتَانِي أَتَاهَا ذَلِكَ؟. قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعُهُ عِرْقٌ. قَالَ: هَذَا عَسَى أَنْ نَزَعَهُ عِرْقٌ)) (٢).

ومن ذلك أَنَّ فتي من قريش أتى النبي ﷺ فقال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِي الزَّانَا، فَأَقْبِلِ الْقَوْمَ عَلَيْهِ وَزَجِرُوهُ فَقَالُوا: مَهْ مَه!! فقال: "اذنُه، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا". فقال: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ". قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ". قَالَ: "أَفْتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟". قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِابْنَاتِهِمْ" - ثم ذكر له رسول الله أخته وعمته وخالته، وفي ذلك يقول الفتى مقالته: "لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ" - قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ". قَالَ (الرَّوَايُ): فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ)) (٣).

لقد اتبع رسول الله ﷺ أسلوبًا جعل الفتى يدرك أثر الزنا في المجتمع، وكيف أنَّ الناس جميعًا لا يرضونه لأنفسهم وأهلهم كما أنه لا يرضاه هو لذويه، مما حمله على الاقتناع بالإقلاع عنه، وخير الأمور ما كان الدافع إليه من قرارة النفس.

وكان يخاطب القوم بلغتهم ولهجتهم، ومن هذا ما رواه الخطيب البغدادي بسنده عن عاصم الأشعري قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((لَيْسَ مِنْ أَمِيرٍ مُصِيَامٍ فِي امْسَافِرٍ)). أَرَادَ

(١) أبو هريرة (٥٨ هـ): الإمام الفقيه، المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ أبو هريرة بن عامر الدوسي اليماني، سيد الحفاظ، الأثبات عبد الرحمن بن صخر، حمل عن النبي ﷺ علما كثيرا طيبا مباركا فيه، ولم يلحق في كثرتة، وحمل عن أبي بكر وعمر وأسامة وعائشة وغيرهم. وحدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين. صحب النبي ﷺ أربعة أعوام. وقد ولي أبو هريرة البحرين لعمر. توفي رضي الله عنه سنة ثمان وخمسين للهجرة. الإصابة (٧/ ٤٢٥ - ٤٤٥).

(٢) صحيح مسلم: (ص ١١٣٧) من الحديثين ١٨ و ٢٠ ج ٢. الأورق الذي فيه سواد ليس بصاف، والمراد بالعرق هنا الأصل من النسب.

(٣) "مجمع الزوائد": ص ١٢٩ ج ١ عن أبي أمامة الباهلي، رجاله رجال الصحيح وقد رواه الطبراني في "الكبير".

لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ وَهَذِهِ لُغَةٌ الْأَشْعَرِيِّينَ يَقْلِبُونَ اللَّامَ مِيمًا (١). و«كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ ثَلَاثًا لِكَيْ يُفْهَمَ عَنْهُ» (٢)، وَإِذَا تَكَلَّمَ فَصَلَّاءٌ يُبَيِّنُهُ، فَيَحْفَظُهُ مِنْهُ مَنْ سَمِعَهُ (٣)، وَعَنْ عَائِشَةَ «أَنَّهُ ﷺ لَا يَسْرُدُ الْكَلَامَ كَسَرِدِكُمْ، وَلَكِنْ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فَصَلَّ يَحْفَظُهُ مَنْ سَمِعَهُ» (٤). وفي رواية: «إِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا، لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لِأَحْصَاءِهِ» (٥).

ويظهر أنه كان من عادة رسول الله ﷺ أن يعيد كلامه ويكرره على السامعين حتى يدركوه جميعًا فلا يفوت أحدهم بعضه فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - «كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا، حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا» (٦). ولا يفهم من حديث أنس هذا أنه كان يفعل ذلك دائمًا بل بقدر ما تقتضيه الحاجة.

فمن جميع ما سبق يتبين لنا أنه ﷺ كان يبين للناس الأحكام جيدًا حتى لا يبقى لسامع سؤال، ولا لسائل مشكل يقف عنده. حتى إنه كان يجيب السائل بأكثر مما سأله (٨).

(١) "الكفاية": ص ١٨٣ وقد أخرجه الإمام أحمد. وأخرج الشيخان ومالك وأبو داود والنسائي ((لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ)) تيسير الوصول": ص ٣١٢ ج ٢.

(٢) "مجمع الزوائد": ص ١٢٩ ج ١ عن أبي أمامة رواه الطبراني في "الكبير" بإسناد حسن وأخرج البخاري نحوه عن أنس، انظر "صحيح البخاري بحاشية السندي": ص ٢٩ ج ١.

(٣) كتاب "تسمية ما ورد به الخطيب": ص ٢٩ ج ١ رواه عن عروة عن عائشة، مخطوطة المكتبة الظاهرية، دمشق. مجموع (١٨).

(٤) "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع": ص ٩٦: ب، و"فتح الباري": ص ٣٩٠ ج ٧ القسم الأول من الحديث.

(٥) صحيح البخاري، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (ج ٤ - ص ١٩٠).

(٦) صحيح البخاري، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه (ج ١ - ص ٣٠).

(٧) "فتح الباري": ص ١٩٨ و ١٩٩ ج ١، ولعل المراد بالسلام هنا سلام الاستئذان في الدخول.

(٨) انظر في ذلك "فتح الباري": ص ٢٤١ ج ١. باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله.

المطلب الثاني: تميز وظيفة المنهج النبوي ومقصده

حينما نتكلم عن المنهاج النبوي فإننا نتكلم عن مصطلح قرآني بامتياز ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(١) أي: طريقا واضحا في الدين، تجرون عليه^(٢)، ولو أنه اقتحم بقوة مجال

التداول في العصر الحاضر باعتباره الناظم والمحدد لمجالات وطرق التفكير العقلاني،

والمنهاج النبوي الذي رسم معالمه الوحي الرباني، وحدد وظائفه ومقاصده محمد صلي الله عليه

وسلم باعتباره المبلغ عن الله ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾^(٣) أي: وحي من الله يوحى إليه^(٤).

ويتميز عن غيره من المناهج بسمات ثلاث هي:

أولا: مرجعيته الربانية التي هي سر شموليته وتكامله وانسجامه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ

لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يقول تعالى أمرا عباده بتدبر القرآن، وناهيا لهم عن الإعراض عنه،

وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا

تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ لو كان مفتعلا مختلفا، كما

يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي:

اضطرابا وتضادا كثيرا. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله^(٥).

ثانيا: تحقيقه لمصالح العباد الآجلة والعاجلة فالله هو ولي المؤمنين ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي

(١) سورة المائدة: ٤٨

(٢) محاسن التأويل (ج ٤ - ص ١٥٧).

(٣) سورة النجم: ٤

(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي (ج ٧ - ص ٤٠٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ج ٢ - ص ٣٦٤).

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ﴿١﴾ أي تقول لهم الملائكة الذين تنزل عليهم بالبشارة "نحن أولياؤكم" قال قال مجاهد: أي نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة. وقال السدي: أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى، والله ولي المؤمنين ومولاهم.

ثالثا: صلاحيته لكل زمان ومكان لمرونة قواعده، وشمولية مقاصده، وشرف ونبل وسائله، ويعني المنهاج النبوي ما يطلق عليه في المصطلح القرآني "الصراط المستقيم" وفي المصطلح النبوي "المحجة البيضاء"، ونظرا لما تتميز به ملامح العبقرية في هذا المنهاج، وصلاحيته لتتقية السلوك الإنساني من شوائب التعصب والتحجر، وغوائل الانفلات والتحلل، ولما تتميز به من طرافة وجدة ورسانة وتأصيل.

وبما أن معرفة حقيقة المنهاج النبوي لا تتم إلا من خلال استيعاب وظائفه ومقاصده، ونظرا لتشعب الموضوع وعمق واتساع مجالاته فسأشير إلى بعض النقاط الدالة من وظائف ومقاصد المنهاج النبوي فما هي هذه الوظائف؟ إن من أهم هذه الوظائف:

أولا: تهيئة المسلم لاقتحام العقبة قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (٢) أي فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العقبة فياأمن! والاقترام: الرمي بالنفس في شي من غير روية (٣)، وأفلق وفاز من اجتازها متحديا سلطان الجسد، وما تميل إليه النفس من لذات ومتع غالبا ما تغوي من أخذ إلى الأرض واتبع هواه، واقتحمها الذين ءامنوا وعملوا

(١) سورة فصلت: ٣١

(٢) سورة البلد: ١١

(٣) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (ج ٢٠ - ص ٦٦).

الصالحات وقليل ما هم.

ثانياً: تجسيد القيم الخلقية في سلوك عملي، فقد بعدت الشقة، ما بين الدين والتدين، وقد تنبه لهذا الواقع عبد الله بن عمر حين لاحظ أن البعض يقرأ القرآن "ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدرى ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه فينثره نثر الدقل".^(١)

ثالثاً: التخلق بخلق الصبر والتواصي به وبالحق فعباد الرحمن نالوا الجزاء السني والمقام العلي بالصبر ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٢) وتحية الملائكة لهم كانت بسبب الصبر يعنى أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم. أو يحيى بعضهم بعضاً ويسلم عليه أو يعطون التبقيّة والتخليد مع السلامة عن كل آفة^(٣). كما جاء في آية أخرى: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾^(٤) وهذا يتضمن معنى الإيناس بإقراء السلام، فأقراء السلام في ذاته إيناس، وفيه مع ذلك بث الاطمئنان وطيب الإقامة، وذلك بسبب الصبر، أي بسبب صبركم في الجهاد، وصبركم على الطاعات وتجنب الشهوات، وصبركم على تحمل المكاره، وصبركم على البعد عن الأجابة^(٥).

رابعاً: تحرير المسلم من عجمة اللسان والعقل والقلب لأن هذه العجمة تمنعه من

(١) سنن البيهقي الكبرى، جماع أبواب صلاة الإمام وصفة الأئمة باب البيان أنه إنما قيل يؤمهم أقرؤهم إن من مضى من الأئمة كانوا يسلمون كباراً فيتلقهون قيل أن يقرأوا مع القراءة رقم الحديث (٥٠٧٣).

البيهقي (٤٥٨ هـ): الإمام الحافظ، العلامة، أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى أبو بكر البيهقي، شيخ خراسان وصاحب التصانيف. وبيهق هي قرى مجتمعة بنواحي نيسابور على عشرين فرسخاً منها. ولد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. سمع من أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي وأبي عبد الله الحاكم وأبي عبد الرحمن السلمي وخلق سواهم. وروى عنه أبو إسماعيل الأنصاري بالإجازة، وأبو زكريا بن مندة الحافظ، وأبو عبد الله الفراوي، وطائفة سواهم. توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، ودفن ببيهق. (البداية والنهاية (١٢) / ١٠٠).

(٢) سورة الفرقان: ٧٥

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (ج ٣ - ص ٢٩٧).

(٤) سورة الرعد: ٢٤

(٥) زهرة التفاسير (ج ٨ - ص ٣٩٣٨).

استيعاب الخطاب الشرعي واستجلاء مكامن عبقريته، ومظاهره الجمالية الفريدة فلا مجال لاستيعاب النص القرآني إلا من خلال معرفة اللغة العربية، وقد استحضر قول أبي عمر بن العلاء لعمر بن عبيد^(١): "ويحك يا عمرو من العجمة أتيت".

خامساً: تحقيق معاني الإيمان في القلوب وشعب الإيمان في السلوك من خلال بناء المؤمن فـــــــ"الشاهد بالقسط القائم لله، هو المؤمن القوي الأمين الثابت في رباطه لا يتزعزع عن خط سيره مهما كانت العقبات، هو المجاهد الذي لا ينكشف عن الصف إن هرب الناس، ولا يققع له بالشنان"^(٢)، هو الذي يتولى المؤمنين، ولا تكون الموالاتة إلا عن حب، كما لا تكون المعاداة إلا عن بغض، قال تعالى ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾^(٣) أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والفرقان والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالاتة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبى وما أنزل إليه ﴿ولكن كثيرا منهم فاسقون﴾^(٤) أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لأيات وحيه وتنزيله^(٤).

تتعدد المقاصد الشرعية في نظرية المنهاج النبوي،، وجلي أن أي مقاصد شرعية لا بد أن تنصدرها الكليات التي اتفقت عليها الشرائع وهي: حفظ "الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، المبني حفظها وجوداً في جلب المصالح وتكثيرها؛ فكل طاعة ترجع إليها،

(١) عمرو بن عبيد: بن باب. مولى لبني تميم. ويكنى أبا عثمان. معتزلي صاحب رأي ليس بشيء في الحديث. وكان كثير الحديث عن الحسن وغيره. وتوفي سنة أربع وأربعين ومائة ودفن بمران على ليل من مكة طريق البصرة. (الإبانة (٢/ ٣٤٦٧/ ٤٦٥).

(٢) المنهاج النبوي صفحة ٤٥.

(٣) سورة المائدة: ٨١

(٤) تفسير القرآن العظيم (ج ٣ - ص ١٦٥).

وعدمًا في درء المفساد وتقليلها؛ فكل مخالفة خارجة عنها، وذلك في أصنافها الثلاثة:

"الضروريات"، و"الحاجيات"، و"التحسينيات.... وأجمع آية لها في كتاب الله تعالى قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ أَي فِيمَا نَزَلَهُ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ بِالْعَدْلِ وَهُوَ الْقِسْطُ

والتسوية في الحقوق فيما بينكم. وترك الظلم وإيصال كل ذي حق حقه وَالْإِحْسَانِ أَي التفضيل

بأن يقابل الخير بأكثر منه، والشر بأن يعفو عنه وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ أَي إعطاء القرابة ما

يحتاجون إليه وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ أَي عما فحش من الذنوب وأفرط قبحها كالزنى وَالْمُنْكَرِ أَي

كل ما أنكره الشرع وَالْبَغْيِ أَي العدوان على الناس يَعِظُكُمْ أَي بما يأمركم وينهاكم لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ أَي تَتَعَطَّوْنَ بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، فَتَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى (٢).

ويقول الشاطبي (٣) إن الكليات "هي: الضروريات، والحاجيات، والتحسينات، وما هو

مكمل لها و متمم لأطرافها، وهي أصول الشريعة، وقد قام البرهان القطعي على اعتبارها،

وسائر الفروع مستندة إليها" (٤) والمقاصد الجزئية المندرجة تحت هذه الكليات وجدت ما تستحق

من دراسة وتمحيص في كتب الشيخ ورسائله ومن هذه المقاصد:

• تعبيد الإنسان لله رب العالمين وتحريره من سيطرة النزعة المادية التي فشلت في تحقيق

(١) سورة النحل: ٩٠

(٢) محاسن التأويل (ج ٦ - ص ٤٠٢).

(٣) الشاطبي القاسم بن فيرّه (٥٩٠ هـ): الشيخ الإمام، سيد القراء، أبو محمد وأبو القاسم القاسم بن فيرّه بن خلف بن أحمد الرعيني الأندلسي الشاطبي،

الضريير، المقرئ، ناظم الشاطبية وغيرها. ولد في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. سمع من السلفي، وقرأ ببلده بالسبع على أبي عبد الله بن أبي

العاص النفري، وارتحل إلى بلنسية، فقرأ على أبي الحسن بن هذيل. تصدر للإقراء بمصر، فعظم شأنه، وبعد صيته، وانتهت إليه الرئاسة في الإقراء.

توفي رحمه الله بمصر في جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة. (البداية والنهاية (١٣/ ١١ - ١٢).

(٤) الموافقات - (١ / ١٠٨).

الأمن والطمأنينة فالمجتمع المادي يعاني الفراغ القاتل والخواء الروحي، والمقصد الأسمى للمسلم أن تكون حياته ومماته لله رب العالمين ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى (٢).

• تحرير العقل والإرادة فما لم يتحرر العقل من إسهاره لا سبيل إلى تحقيق القومة، وبناء الجماعة المسلمة المتماسكة، وتحرير العقل المسلم من آثار الغزو المترسبة فينا " ضروري لنعلم أن تخلفنا في العلوم والصناعات والقوة وضروريات الحياة ناتج عن تخلفنا عن الإسلام وتخلفنا عن القرآن. لا العكس.. " (٣) لنعود إلي فضاء الوحدة الجامعة في دولة عتيقة لا شرقية ولا غربية، تعيش بالإسلام وللإسلام.

• عمران العدل والإحسان: فدوحة العدل في الإسلام وارفة الظلال يعيش في مرحمتها المسلم وغيره بكرامة وعدل، وهي المرحمة التي جعلت عمر رضي الله يقول لما مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد: "ما أنصفناك أن كنا أخذنا منك الجزية في شيبتك، ثم ضيعناك في كبرك" ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه (٤) وجعله يقول حين أوتي بمال كثير من الجزية: "إني لأظنكم قد أهلكتم الناس، قالوا: لا والله ما أخذنا إلا

(١) سورة الأنعام: ١٦٢

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٢٨٢).

(٣) محنة العقل المسلم ياسين صفحة ١٢٣.

(٤) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - (٤ / ٤٩٨).

عفوا صفوا، قال: بلا سوط ولا نوط؟^(١) قالوا: نعم، قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي، ولا في سلطاني^(٢).

• التحرر من وصمة الجاهلية الحديثة والجاهلية وردت في القرآن الكريم مرتبطة بالعصبية والحمية، وهي مشتقة من الجهل، ولها دالتان مختلفتان ذكرهما الشيخ هما: أولاً الجهل الذي هو ضد المعرفة، فهذه الجاهلية لا تعرف الله تعالى، والجهل ضد الحلم وهو العنف و"من سمات الجاهلية تفضيل الرأي البشري على الوحي، والزيغ عن الشريعة الإسلامية والمنهاج، إلى شرعة المصالح ومنهاج الشهوة، وابتغاء الفتنة"^(٣) والمنهاج النبوي هو الذي يحرر الإنسان ويعصمه من أن يظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، ويعصمه من حكم الجاهلية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٤) يريد هؤلاء اليهود أن تحكم بينهم بما تعارف عليه المشركون عبدة الأوثان من الضلالات والجهالات؟! لا يكون ذلك ولا يليق أبداً ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن أن حكم الله هو الحق؟^(٥).

• إخضاع واقع المجتمع المسلم لمقتضيات النص الشرعي، مع التفريق بين التحريف والانحراف: فقد أخطأ كثير من الدارسين الذين قاموا بإسقاط واقع المسيحيين ومنهج الكنيسة في التعامل مع المستجدات على واقع المسلمين، وفاتهم أن ما يعاني منه

(١) في تاج العروس - (١ / ٥٠٢٥) بلا سوط ولا نوط أي بلا ضرب ولا تعليق. وانتأط به الشيء: تعلق.

(٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - (٤ / ٤٩٨).

(٣) الإسلام والقومية العثمانية ص ١٦٥.

(٤) سورة المائدة: ٥٠.

(٥) التفسير الميسر (ج ١ - ص ١١٦).

المسيحيون هو التحريف الذي أصاب النص المقدس لديهم، أما المسلمون فإنهم يعانون من الانحراف الناشئ عن الهزات العنيفة التي عرقتهم بكلكلها، فعاشوا قرونا عديدة تحت رحمة ملك عضوض صادر حقوقهم وحررياتهم ولم يراع فيهم إلا ولا ذمة، وأمام تغول الملك العاض وتخاذل النخب المسلمة ضاع حاضر ومستقبل أمة الإسلام في أتون صراع غير متكافئ، أهدرت فيه الحقوق وعطلت القدرات بل شلت ملكات الأمة في الخلق والإبداع .

المطلب الثالث: نماذج من حياة النبي ﷺ في التربية الفكرية

ولما كانت التربية الفكرية لا تكتمل إلا بالقدوة الحسنة من المعلم والمربي، فقد ضرب - عليه الصلاة والسلام - أروع الأمثلة على ذلك، فقد كان كما قالت أمّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : "خلقه القرآن" .. وسمع أهل المدينة مرة صوتاً مفرعاً، فخرجوا يستطلعون الأمر، فإذ برسول الله ﷺ يستقبلهم قادماً من جهة الصوت، وهو على فرس عري - بلا سرج - يقول لهم مطمئناً: ((لن تراعوا، لن تراعوا))، وهو بذلك يضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والفروسية والإقدام.. وهكذا ينبغي أن يكون المربي سباقاً مبادراً.. ولو ذهبنا نستقصي سيرته في هذا الشأن، لطل بنا المقام، لكن لعلّ ما ذكرته يكون كافياً في بيان حرصه - عليه الصلاة والسلام - على التربية، وأنها لا تنفك عن التعليم.

إن هذا التحول الكبير والنجاح العظيم الذي حققه ﷺ في صناعة الأمم والأجيال حتى ارتفعت الأمة من السفوح إلى قمم الجبال كان نتيجة منهج تربوي تعليمي دعوي فكري رصين، له معالمه وسماته، وهو بلسم ودواء أصيل لما نزل بالأمة من انحدار وانكسار وذلة وهوان، فعلى الدعاة وأهل التربية والتعليم أن يتأملوا منهج النبي ﷺ، وطريقته في تربيته وتعليمه ودعوته، ويدرسوا هذا المنهج دراسة متأنية متفحصة لتحديد معالمه واستنباط سماته وخصائصه فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

كَيْفَ كَانَ الصَّحَابَةُ يَتَلَقَّوْنَ الْأَفْكَارَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟:

ومن الأمثلة: موقف الرسول ﷺ مع الشاب الذي استأذنه للزنا جُملاً من المعاني والعبر التي تلفت انتباه كل ذي لب، لكي يتقمص تلك الدرر والخطوات التي تجعل المرء برتبة سامية في تفكيره وعلاجه للمشكلات الطارئة، التي تطرأ على الناصح أو الراعي كما طرأ موقف هذا الشاب مع الرسول ﷺ ومن معه!

فرق بين موقف الرسول وأساليبه وخطواته مع الشاب وبين موقف من كان في حضرة هذا الموقف الذين اكتفوا بالزجر ليس إلا!

عن أبي أمامه قال: ((إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ.. فقال: يا رسول الله! ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه .. وقالوا مه مه! فقال: أدنه، فدنا منه قريباً، قال: فجلس. قال أتحبّه لأملك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمّاتهم. قال أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله! جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال أتحبّه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال أتحبّه لعمتك؟ قال: لا والله،

جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال أتُحِبُّه لخالتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم! اغفر ذنبيه، وطهر قلبه، وحسن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء))^(١).

أولاً: لتأمل رحابة صدر الرسول ﷺ، حيث أن هذا الذي يريد المعصية ذهب بنفسه لمحمد ﷺ لكي يستأذنه ويخبره بما يكن صدره، وهذه همسة لمن يقوم على توعية الناس، ومن ولّاه الله رعيّة استرعاه الله عليها! (لماذا الابن أو البنت لا يلجئون للأب أو الأم عند الوقوع في الذنب أو الخطأ؟ لماذا بعض أئمة المساجد والخطباء والناصحين لا يبادر إليهم الناس لعلاج مشاكلهم الخاصة والبحث عن تجاوز أخطائهم التي يقعون فيها؟ لماذا الطلاب أو الطالبات يشعرون في بعض الأحيان بالحوار المنيع بينهم وبين المعلمين والمعلمات؟) ..

أسئلة كثيرة ينبغي أن نطرحها على أنفسنا من أجل أن نتمتع برحابة الصدر التي تجعلنا نتعاون على تجاوز أخطاء من هم بحاجة إلينا بشكل مباشر! التكلف.. التصنع.. الكبر.. الخلق السيئ.. قلة الفقه في التعامل مع المخطئ.. القسوة.. عبوس الوجه.. الفضاضة.. التفرد.. يصنع الفجوة بين المصلح ومريد الصلاح !!

ثانياً: جاء الشاب إلى الرسول ﷺ وهمُّه الوحيد أن يقضي شهوته في كل وقت، حيث كسر حاجز الحياء عندما طلب الإذن من رسول الله في حضرة من كان جالساً مع محمد ﷺ، وهذا يفيدنا بأن الشاب مهما ساءت إرادته وقُبْح فعله فإنه يتميز بجوانب أخرى تجعل المرء يتوازن في التعامل معه ومراعاة شعوره عند خطأه، وما موقف الرسول مع شارب الخمر الذي تكرر مجيئه على الرسول ببعيد عنا حينما قال لا تسبوه، فو الذي نفسي بيده إنه يحب الله ورسوله، فهذا الشاب ما جاء إلى رسول الله إلا لشدة خوفه من المعصية ولذلك قال: ائذن لي في الزنا!

ثالثاً: تأمل كيف حكم الرسول عواطفه وعقله في تعامله مع المخطئ، على الرغم من ردة فعل القوم حينما زجروه، وهذا يشير إلى أن المصلح لا يتأثر بالجو المحيط عند حصول الخطأ لكي لا يقع في أخطاء عدة، بل يتأنى ويدرس حالة المخطئ من جميع الجوانب، ومع زجر القوم لهذا الشاب يصمت الرسول ﷺ ويشير إليه (أدنه) أي أقرب مني!

(١) أخرجه أحمد ٢٥٦/٥ (٢٢٥٦٤) إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح. حريز: هو ابن عثمان الرّحبي، وسليم بن عامر: هو الكلاعي الخبائري. وأخرجه الطبراني في "الكبير" (٧٦٧٩) من طريق أبي اليمان الحكم بن نافع، عن حريز بن عثمان، بهذا الإسناد. وصححه الألباني.

رابعاً: تصور موقف هذا الشاب مع الجو الذي يعج بالزجر من الحاضرين، ثم تصور موقفه حينما دعاه الرسول للقرب منه! قرّبهُ ﷺ ليشعره بالأمان! قرّبهُ ﷺ لكي يضمد جراح الزجر ويبعده عن ضجيجهِ! قرّبهُ ﷺ لكي يبلغه الرسالة والنصح بالتي هي أحسن! هذا هو الحبيب يشير إلينا أن نهى المخطئ تهيئة نفسية لكي يقبل الصواب، لأن بعض المرابين لا يفقه أساليب جذب المخطئ التي تجعله يقلع عن خطأه! وحال بعض بني البشر حينما يقابلون المخطئ يهجون الصراخ والسباب والضرب قبل التفاهم والحوار، وهذا دأب العاجزين الذين يستنقلون صاحب الخطأ عند خطأه، إنه لا يذهب عن مخيلتي بعض معلمينا الذين واجهوا الطلاب حال حصول الخطأ بالعبوس والفضاضة والضرب والشدة والجر! ولا يغيب عن ذهني بعض الناصحين الذين يستغلون المخطئ لأغراضهم الذاتية، وإضعاف شوكتهم بالنظرات المتكلفة! أسلوب تقريب الرسول للمخطئ أسلوب تربوي يحوي جملاً من العبر والمعاني التي ينبغي أن يسلكه كل مربي مع المخطئ ..

خامساً: وضع حبيبنا ﷺ يده على صدره حينما دعا له، وهذا يشير إلى معجزته ﷺ بشفاء الشاب مباشرة حينما وضع يده على صدره، ومع ذلك فإن وضع يده على صدره تعتبر لمسة نفسية تشفي الرغبة التي كانت تتحدث بها نفسه عن هذه الجريمة، وهذه من الوسائل التي استخدمها محمد عليه الصلاة والسلام في تضميد جراح هذا الشاب وغيره، حتى أن الرسول ضم الحسن على صدره بعد ما قال له اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه كما في صحيح مسلم، وأصاب سعد بن أبي وقاص بعد الفتح مرض شديد، فعاده النبي فدعا له ووضع يده على صدره وقال: اللهم اشف سعداً! قال سعد في أواخر حياته: فو الله ما زلت أجد برد يده عليه الصلاة والسلام علي صدري حتى اليوم!

سادساً: لعلنا لا حظنا استخدام الرسول ﷺ لأسلوب الإقناع الذي يعتبر هو القوة الخفية أثناء التوجيه، وعندما تتأمل حال الرسول في الحديث تجد بأنه نهج أسلوباً من أساليب الإقناع (قال أتعبه لأملك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال أفتعبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله! جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال أفتعبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال أتعبه لعمتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال أتعبه لخالتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم .

سابعاً: حرص الرسول أن يبتهل إلى الله بصلاح هذا الشاب، فقال: اللهم اغفر ذنبه،

وظهر قلبه، وحصن فرجه !

ونلاحظ من هذا الموقف وهذا الدعاء، هو سماع الشاب لهذه الدعوات، فلا شك بأنك عندما تسمع أحدا يدعو لك، أن هذا مؤشراً لمحبتك وقبولك من لدن الآخر، فماذا نتصور حينما يسمع منا المخطئ بالدعوات الزاكيات الطيبات !!
أخيراً: فقه الرسول ﷺ بحال المخطئ فقد أوجز وأبلغ في وقت يسير، حيث لم يتكلف ذكر الأدلة الموجودة في القرآن، ولم يذكر العقوبة المترتبة على ذلك، ولم يحصل التوبيخ أو التحذير، بل عالج ذلك بكلمات يسيرات بأساليب راقية جعلت هذا الشاب يخرج من عند الرسول والزنا أبغض شيء لديه !

لنتأمل تعدد وسائل اهتمام محمد ﷺ بهذا الشاب في هذا الموقف القصير .. طلب قربه!
أجلسه بجواره! حدثه بالكلمة الطيبة! هز عاطفته! أفنعه! ألان كلمته! وضع يده عليه! دعا له!
مثال آخر:

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: نَا أَبُو الرَّبِيعِ الزَّهْرَانِيُّ، قَالَ: نَا مُحَمَّدُ بْنُ خَازِمِ بْنِ أَبِي مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرِ، قَالَ: نَا شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَبِي: «كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟» قَالَ: سَبْعَةً، سِتٌّ فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ، قَالَ: فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغَبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، فَقَالَ: يَا حُصَيْنُ، أَمَا إِنَّكَ إِنْ أَسَلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ. قَالَ: فَلَمَّا أَسَلَمَ حُصَيْنٌ، أَتَى النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدَّتَنِي، قَالَ: فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»، لَمْ يَرَوْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ شَبِيبِ بْنِ شَيْبَةَ إِلَّا أَبُو مُعَاوِيَةَ (١).

نعم هذا هو المنهج القويم في الحوار والأخلاق المحمدية.. أن رسولنا ﷺ يعلمنا أسلوباً من أساليب الجدل والتي هي أحسن والحوار الهادئ والمنطقي.

فلم يبدأ الرسول ﷺ بقوله: لم تعبد ستة في الأرض وواحدا في السماء من الآلهة؟ أخبرني يا حصين ألسنت رجلا عاقلا؟ ألا تفكر؟ ولكن سأله عن عدد آلهته فأجاب عن حقيقة أمره وما يعبد من الآلهة.

فتابع النبي ﷺ توجيهه الحكيم فما قيمة الإله إذا لم تخشاه وترجوه، وهل يبقى لعبادته قيمة تذكر أو مدلول يستفاد منه، فما فائدة الآلهة الستة التي في الأرض إذا كانوا لا يغنون ولا

(١) أخرجه الترمذي في الجامع بشرحه تحفة الأحوذني/ أبواب الدعوات/ باب "٧٠" حديث ٣٥٥٠، ٩/٤٥٤-٤٥٥.

يسمنون من جوع؟ أليس أله واحد تخشاه خيرا من عشرات لا يساؤون شيئا، فحقيقة العبادة هنا تبدو جلية للعيان.

أن الذي يدعي عبادة الله سبحانه وتعالى ثم يفعل كل ما يخالف روح هذه العبادة من الطاعة والالتزام فستبقى العبودية هذه دعوى تحتاج إلى الدليل، والدليل هنا بقدر خشيتك ورهبتك ورغبتك في هذا الإله سبحانه.

لقد اعترف حصين أنه يعبد إلها حقيقيا واحدا فهو الذي في السماء رغبة ورهبة (أمل ورجاء وخوف) أما الستة الباقية فما هي إلا إتباع ذميم لعادات موروثه من الآباء والأجداد. فالحصين مقتنع بوحدانية الله وأنه هو المستحق للعبادة الحقه فإذا كانت الخطوة الثانية من النبي ﷺ وهو؟ أن يعرض على حصين الإسلام الذي يقول بأن الله واحد لا شريك له.

فأقتنع الحصين بهذا فأسلم بفضل الله سبحانه وتعالى ومن ثم بفضل طريقة الرسول في الإقناع، وهي التي علينا أن ننتبه إليها جيدا عندما نواجه في عصرنا هذا بعضا من أهل زماننا لعلاجهم بهذا الأسلوب الراقى دون إثارة العصبية التي تؤدي إلى أن يمسك كل طرف برأيه ويدافع عنه.

ثم انظر إلى الخطوة الأخيرة والمساعدة على الاستمرار على الهداية في قوله ﷺ للحصين: (قل اللهم الهمني رشدي، وقتني شر نفسي)

لماذا هذا الدعاء بالذات؟ أن فيه الهام من الله بأخذ يد حصين إلى طريق الرشاد وحتى لا يعود القهقري الى الوراء واما شر نفسه فلأن النفس أمارة بالسوء فهذه شياطين الأنس والجان تزين له ما كان فيه من الشرك.

المبحث الثالث لا إكراه في الدين

وسأستعرض بعضاً منه توطئة لأبراز دور العلماء والمؤسسات في التربية الفكرية وهذه التوطئة مهمة لأنها تبين معنى الإكراه في الدين من عدم الإكراه في الدين.

المطلب الأول: تعريف الإكراه في الدين:

الإكراه هو حمل الغير على قول أو فعل لا يريد من طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك^(١).

أما الدين فالمراد بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد^(٢) أي الألف واللام في كلمة (الدين) للعهد الذهني وهي (الـ) التي يكون مصحوبها معهوداً ذهنياً، فينصرف الفكر إليه بمجرد النطق به، مثل "حضر الرجل"، وكأن يكون بينك وبين مخاطبك عهداً برجل معين أي الرجل المعهود ذهنياً بينك وبين من تخاطبه.

مثال آخر: جاء الطالب إذا كان بينك وبين المخاطب عهد في طالب معين فإنه لا ينصرف الذهن إلا إليه أي الطالب المعهود ذهنياً بينك وبين من تخاطبه.

و"الدين" يتضمن معنى الخضوع والذل. يقال: دنته فدان أي: ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين لله أي: يعبد الله ويطيعه، ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له^(٣).

والدين هو جميع ما شرعه الله من الأحكام أو اسم لجميع ما يعبد به الله^(٤)، وسمي دين الله ديناً؛ لأننا مدينين لله بحقوق يلزمنا القيام بها لنظهر بذلك عبوديتنا وإذعاننا لمليكننا.

والدين يطلق في اللغة على عدة معاني منها الطريقة والمذهب والملة والعادة والشأن والخضوع والقهر والجزاء والحساب فيوم الدين يوم القيامة يوم الجزاء على الأعمال، ويقال: ما زال ذلك ديني وديني، أي دأبي وعادتي ويقال: دنتهم فدانوا أي قهرتهم فأطاعوا وفي المثل المشهور كما تدين تدان أي كما تعمل تجزي^(٥).

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي ٥٨٨/١.

(٢) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي ٥٨٨/١.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٥٢.

(٤) القاموس الفقهي د. سعدي أبو حبيب ص ١٣٣.

(٥) يراجع مجمل اللغة لابن فارس ولسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي مادة دان.

مخالفة الحق لا تكون إلا عن جهل أو هوى:

قول الله سبحانه تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدَّبَتِ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (١) قال ابن عاشور: " وَنَفْيُ الْإِكْرَاهِ خَبْرٌ فِي مَعْنَى النَّهْيِ، وَالْمُرَادُ نَفْيُ أَسْبَابِ الْإِكْرَاهِ فِي حُكْمِ الْإِسْلَامِ، أَي لَمْ تُكْرَهُوا أَحَدًا عَلَى إِتْبَاعِ الْإِسْلَامِ قَسْرًا، وَجِيءَ بِنَفْيِ الْجِنْسِ لِقَصْدِ الْعُمُومِ نَصًّا، وَهِيَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى إِبْطَالِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ بِسَائِرِ أَنْوَاعِهِ" (٢).

وقال سيد قطب رحمه الله: "والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ نفي الجنس كما يقول النحويون.. أي نفي جنس الإكراه. نفي كونه ابتداء. فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع. وليس مجرد نهى عن مزاولته والنهي في صورة النفي - والنفي للجنس - أعمق إيقاعاً وأكد دلالة".

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)(٤) صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لو شاء إيمان جميع أهل الأرض لآمنوا كلهم جميعاً، وهو دليل واضح على أن كفرهم واقع بمشيئته الكونية القدرية، وبين ذلك أيضاً في آيات كثيرة (٥)، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٦) أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) التحرير والتوير لابن عاشور ٢٦/٣.

(٣) سورة يونس: ٩٩.

(٤) في ظلال القرآن ٢٩١/١.

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

محمد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣ هـ) الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ولقبه آبا بتشديد الباء من الإباء. ولد عام خمس وعشرين وثلاثمائة وألف للهجرة بشنقيط، من أعمال دولة موريتانيا، وتعلم بها على يد مشايخ عصره منهم: الشيخ أحمد بن محمد المختار والعلامة أحمد بن عمر والفقهاء محمد بن زيدان والعلامة الكبير أحمد فال. حج سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف للهجرة، واستقر مدرسا في كلية الشريعة واللغة العربية في الرياض، وأخيرا في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية. كان رحمه الله يتمتع بأخلاق ومزايا فاضلة أكسبته الثقة والاحترام في أوساط أولي الأمر وكبار أهل العلم، وكان أدبيا ضليعا. تلقى العلم على يديه أفواج لا يحصون من طلاب العلم ومن أبرزهم: الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ عبد المحسن العباد والشيخ محمد بن صالح العثيمين والشيخ صالح الفوزان والشيخ محمد عطية سالم والشيخ محمد أمان الجامي وغيرهم كثير. (إتحاف النبلاء بسير العلماء (١/ ١١٧ - ١٤٧) والمستدرك على معجم المؤلفين (٦٠٧).

(٦) سورة الكهف: ٢٩.

كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال كانت المرأة تكون مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله - عز وجل -: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدَّبَيْنَ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾ قال أبو داود المقلات التي لا يعيش لها ولد) فالآية الكريمة نزلت عند إجلاء بني النضير لما نقضوا عهدهم وذلك في السنة الرابعة للهجرة أي في ظل قوة المسلمين وبعد فرض الجهاد بسنوات.

ولم يثبت أن النبي ﷺ أكره أحدا على الدين بل ثبت عكس ذلك، وهو أن بعض الأنصار أراد أن يكره ولده على الإسلام فنهاه النبي ﷺ عن ذلك(٢).

والعقائد لا تغرس بالإكراه، ولكن تغرس بالعلم والإقناع، وذلك أمر معروف في تاريخ البشرية فكم من أناس استخدموا القوة لإجبار الناس على اعتقاد باطل فلم تنفع القوة وتاريخ النصرانية مليء بذلك وتاريخ الشيعوية مليء بذلك.

ولم يثبت أن المسلمين في عصر من العصور أكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام، ولو كان المسلمون أجبروا غيرهم على الدخول في الإسلام ودخلوا الإسلام مكرهين فكيف يثبتوا على الإسلام بعد زوال الإكراه عنهم؟! فثبتتهم عن الإسلام رغم زوال الإكراه عنهم لدليل على أنهم دخلوه برضاهم لا مغصوبين، وأن المسلمين لم يجبروهم على الدخول في الإسلام. ولو كان دخول الإسلام بالإكراه لما ترك المسلمون أحداً على غير الإسلام ولأدخلوهم فيه كراهية أو قتلوا من يأبى دخوله، وهذا لم يحدث، ولو حدث لنقل لتوافر الدواعي على نقله. ومن المعلوم أن البلاد التي فتحها الإسلام رجع بعض هذه البلاد للكفر مرة أخرى، ومع ذلك من أسلم لم يرجع للكفر مرة أخرى (في الغالب) بل حارب الكفار وكان في صفوف المسلمين، وهذا دليل على أنهم دخلوه برضاهم لا مغصوبين، وأن المسلمين لم يجبروهم على الدخول في الإسلام، ولكن من أرتد فعليه أحكام الردة.

وقال الشيخ المراغي: "والمسلمون إنما يقاتلون لحرية دينهم ولا يكرهون عليه أحدا من دونهم".

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ - ص ٤٧٥).

(٢) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص ٣٣٧.

وقال ابن جبرين^(١): "يحرم إكراه اليهود والنصارى والمجوس على تغيير أديانهم، قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾".

لماذا لا يكره الإنسان على الدخول في الإسلام؟

دلت الآية الكريمة أن السبب في النهي عن إكراه الناس على دخول دين الإسلام هو وضوح الدين وظهوره فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي: لظهور أدلة الدين وبراهينه فلا يكره إنسان على أن يعتنق الإسلام وإنما يعتنقه الإنسان بإرادته واختياره^(٢).

ولو دخل الناس في الإسلام بالإكراه لخذلوا الإسلام ونصروا أعداء الإسلام في أي فرصة تلوح لهم. ودخول الإسلام أجلّ نعمة للإنسان، وعبادة الإنسان لله أشرف شيء يفعله، والنعمة لا تُفرض بالقوة، بل تعطى لمن يستحقها والنفوس الطيبة تسارع إلى النعم الجليلة والأعمال الشريفة.

وقال الزحيلي: "اعتناق الإسلام ينبغي أن يكون عن اقتناع قلبي واختيار حر، لا سلطان فيه للسيف أو الإكراه من أحد، وذلك حتى تظل العقيدة قائمة في القلب على الدوام، فإن فرضت بالإرغام والسطوة، سهل زوالها وضاعت الحكمة من قبولها"^(٣).

وقال الشيخ أبو زهرة^(٤) - رحمه الله - : "الله سبحانه وتعالى ينهى عن الإكراه في الدين، وحمل الناس عليه بقوة السيف حتى لا يكثر النفاق والمنافقون. وكثرة المنافقين، وإن كثر عدد المسلمين في الظاهر، تفسد جماعتهم في الحقيقة والواقع"^(٥).

الإكراه في الإسلام على الدين والعقيدة منفي من عدة جهات:

(١) بن جبرين: عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم بن فهد بن حمد بن جبرين من آل رشيد من قبيلة بني زيد، ولد عام (١٣٥٣ هـ الموافق ١٩٣٣ - ١٣ يوليو ٢٠٠٩) في إحدى قرى القويحية، وتوفي في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض يوم الاثنين ٢٠ رجب ١٤٣٠ هـ عن عمر يقارب ٧٧ سنة بعد أن عانى من المرض.

(٢) حصول المأمول بشرح ثلاثة الأصول للفرزان ص ٢٠٤.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته ٦٢٠٩/٨.

(٣) تفسير المراعي ٢٠٨/٩.

(٤) أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ = ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م) محمد بن أحمد أبو زهرة: أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. مولده بمدينة المحلة الكبرى وتربى بالجامع الأحمدى وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي (١٩١٦ - ١٩٢٥) وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية ثلاث سنوات، وعلم في المدارس الثانوية سنتين ونصفاً. وبدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين (١٩٣٣) وعين أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في الجامعة (١٩٣٥) وعضواً للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. وكان وكيلاً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية وأصدر من تأليفه أكثر من ٤٠ كتاباً، وكانت وفاته بالقاهرة. الأعلام للزركشي (ج ٦ - ص ٢٥).

(٥) زهرة التفاسير ٩٤٨/٢.

الأولى: أن من آمن مكرها، فإن إيمانه لا ينفعه ولا أثر له في الآخرة، فلا بد في الإيمان أن يكون عن قناعة واعتقاد صادق واطمئنان قلب.

وقد جاء في القرآن الكريم: عن فرعون حين أدركه الغرق أنه أعلن الإيمان والتصديق بالله ربا ومعبودا، ولكن ذلك لم ينفعه ﴿حَتَّىٰ إِذَا دُرِّكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَإِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١)(٢) أي تؤمن وتسلم لتنجو من الغرق وقد عصيت قبل أي كفرت بالله من قبل الغرق وكنت من المفسدين أي الضلال والإضلال، والظلم والعتو (٣).

وجاء في حكاية قوم آخرين: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۗ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٤) أي: عاينوا وقوع العذاب بهم، وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة (٥). بل التوبة من الذنوب والمعاصي لا تكون مقبولة إلا إذا كانت عن اختيار وعزم صادق.

الثانية: وظيفة الرسل والدعاة من بعدهم مقصورة على البلاغ وإيصال الحق إلى الناس، وليسوا مسئولين عن هدايتهم واعتناقهم للدين واعتقادهم الحق، فالمهمة هي البلاغ والإرشاد والمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الاهتداء والإيمان فليس إلى الرسل ولا الدعاة.

وهذا يؤكد جانبا من جوانب الحرية ألا وهو تحرر الإنسان من كل رقابة بينه وبين خالقه، فالعلاقة مباشرة بين الإنسان وربّه من غير واسطة أو تدخل من أحد مهما كانت منزلته، سواء أكان ملكا أو نبيا أو غير ذلك.

ومما يؤكد ذلك في القرآن الكريم ما جاء في حق محمد ﷺ ﴿فَذَكِّرْنَا إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٦) يقول: إنما أرسلتك إليهم مذكرا لتذكرهم نعمتي عندهم، وتعرفهم اللازم لهم، وتعظهم. وقوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ يقول: لست عليهم بمسلط، ولا أنت بجبار تحملهم على

(١) سورة يونس: ٩٠-٩١

(٢) تسهيل العقيدة الإسلامية لابن جبرين ص ٦٠٢.

(٣) محاسن التأويل (ج ٦ - ص ٥٨).

(٤) سورة غافر: ٨٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم (ج ٧ - ص ١٦٠).

(٦) سورة العاشية: ٢١-٢٢

ما تريد. يقول: كلهم إلي، ودعهم وحكمي فيهم^(١).

الثالثة: واقع غير المسلمين في بلاد المسلمين: عاش الذميون وغيرهم في كنف الدولة الإسلامية دون أن يتعرض أحد لعقائدهم ودياناتهم، بل لقد جاء في الكتاب الذي كتبه النبي محمد ﷺ في أول قدومه المدينة ليرسم به منهاجها ودستورها في التعامل: «ومن تبغنا من يهود فإنه له النصر والأسوة. . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم»^(٢)، وأفرهم على دينهم وأموالهم كما كان الحال مشابها مع نصارى نجران.

وصحابة الرسول من بعده ساروا على طريقه في معاملة غير المسلمين، فكان من أقوال خليفته أبي بكر رضي الله عنه لبعض قواده: " أنتم سوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ".

ومن وصايا الخليفة الثاني عمر: " أوصي بأهل الذمة خيرا أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم ".

ومن أقوال علي الخليفة الرابع: "من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا"^(٣).

وتاريخ الإسلام الطويل شاهد على أن الشريعة وأهلها قد كفّلوا لأتباع الأديان الذين يعيشون في ظل الإسلام البقاء على عقائدهم ودياناتهم، ولم يرغب أحد على اعتناق الإسلام. ومعلوم لدى القاضي والداني أن هذا لم يكن موقف ضعف من دولة الإسلام، بل كان هذا هو مبدأها حتى حين كانت في أوج قوتها أمة فتيّة قادرة، ولو أرادت أن تفرض على الأفراد عقيدتها بالقوة القاهرة لكان ذلك في مقدورها، لكنها لم تفعل.

الرابعة: المسلم إذا تزوج كتابية، فإنه لا يلزمها بالتخلي عن دينها والدخول في الإسلام، بل لها الحق الكامل في البقاء على ديانتها وحقوق الزوجية محفوظة لها كاملة.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (ج ٢٤ - ص ٣٨٩).

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ وتاريخ ابن كثير ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣) راجع نصب الراية ٣ / ٣٨١.

المطلب الثاني: (لا إكراه في الدين) ليست للتخيار مجرد بل للتهديد إن اختار المرء الكفر على الإيمان :

كون الإنسان لا يجبر على الدخول في الدين الحق ليس معنى هذا أن تخييره مجرد بل إن اختار الإنسان الكفر عن الإيمان استحق ما توعد به الله الكفار من العذاب فليس معنى حرية الاختيار أن يفعل الإنسان الحرام أو أن يكفر وأمثال هذا كثير.

مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُلْقِي فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) أي إن الذين يميلون عن الحق في حجنا تكذيبا بها وجحودا لها - نحن بهم عالمون لا يخفون علينا، ونحن لهم بالمرصاد إذا وردوا علينا، وسنجازيهم بما يستحقون ولا يخفى ما في ذلك من شديد الوعيد كما يقول الملك المهيب: إن الذين يمتازونني في ملكي أعرفهم ولا شك، فهو يريد تهديدهم وإلقاء الرعب في قلوبهم (٢).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِرِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ

الذَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) أي قل أيها الرسول: يا قوم اعملوا على طريقتهم فإني عامل على طريقتي التي شرعها لي ربي جل وعلا فسوف تعلمون - عند حلول النقمة بكم - من الذي تكون له العاقبة الحسنة؟ إنه لا يفوز برضوان الله تعالى والجنة من تجاوز حده وظلم، فأشرك مع الله غيره (٤).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْكٰفِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذٰلِكَ هُوَ

الْخَسِرَانُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) أي: فاعبدوا أنتم - أيها المشركون - ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام وغير ذلك من مخلوقاته، فلا يضرني ذلك شيئاً. وهذا تهديد ووعد لمن عبد غير الله، وأشرك معه غيره (٦).

ومن أمثلة الواقع أنك تقول لابنك أنت حر في أن تذاكر أو لا تذاكر لكن إن لم تنجح في الامتحان سأعاقبك، أو أهمل دروسك وسترى عاقبة ذلك أو أمض وقتك في اللعب واللهو فسوف ترى عاقبة ذلك.

(١) سورة فصلت: ٤٠

(٢) تفسير المراغي ١٣٧/٢٤.

(٣) سورة الأنعام: ١٣٥

(٤) التفسير الميسر ص ١٤٥.

(٥) سورة الزمر: ١٥

(٦) التفسير الميسر ص ٤٦٠.

والذي قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هو الذي قال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن سَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن سَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (١) وقل لهؤلاء الغافلين: ما جئتكم به هو الحق من ربكم، فمن أراد منكم أن يصدق ويعمل به، فليفعل فهو خير له، ومن أراد أن يجحد فليفعل، فما ظلم إلا نفسه. إنا أعتدنا للكافرين ناراً شديدة أحاط بهم سورها، وإن يستغيث هؤلاء الكفار في النار بطلب الماء من شدة العطش، يُوت لهم بماء كالزيت العكر شديد الحرارة يشوي وجوههم. قُبِحَ هذا الشراب الذي لا يروي ظمأهم بل يزيده، وقُبِحَت النار منزلاً لهم ومقاماً. وفي هذا وعيد وتهديد شديد لمن أعرض عن الحق، فلم يؤمن برسالة محمد ﷺ، ولم يعمل بمقتضاها (٢).

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ لا يستلزم نفي جهاد الطلب:

زعم البعض أن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ينفي جهاد الطلب، وبعض المغرضين زعم أن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يتعارض مع تشريع الجهاد، وهذه فرية يغني فسادها عن إفسادها فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ليس معناه عدم جهاد الكافرين وعدم قتال الكافرين وسبب نزول الآية يجلي ذلك ويوضحه.

وقد قال ابن عباس - رضي الله عنه - "كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله - عز وجل - : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٣) فالآية نزلت في النهي عن الإكراه على الدخول في الإسلام، ولا علاقة لها بجهاد الكفار أو عدم جهادهم.

والذي نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هو الذي نزل عليه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤) (٥) وهو الذي نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٦).

(١) سورة الكهف: ٢٩

(٢) التفسير الميسر ص ٢٩٧.

(٣) رواه أبو داود في سننه أبي داود حديث رقم ٢٦٨٢ قال الألباني صحيح.

(٤) سورة البقرة: ١٩٣

(٥) تفسيرها في الصفحة التالية.

(٦) سورة التحريم: ٩

والذي نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ هو الذي قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(١).

والذي نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قد جاهد الكفار بنفسه وجاهد الصحابة معه وبعدهما مات جاهد الصحابة وفتحوا البلاد.

وقال السعدي - رحمه الله: "ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده إتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر"^(٢).

وقتل الكفار ليس الغرض منه إجبارهم على الإسلام لكن قتال الكفار وسيلة لتبليغ الإسلام عند وجود من يحول بين الناس ودعوة الإسلام إذ لا يمكن نشر الإسلام في كافة أنحاء العالم، مع وجود الطّغاة والقتلة الذين يسعون للسيطرة على العالم لأجل أطماعهم الفاسدة، ولذلك نجد النصوص الشرعية تذكر لفظ الجهاد أو القتال، والجهاد والقتال إنما يكون بين جيشين جيش الإسلام وجيش الكفار، ولا يكون جيش بلا أمير، والأمير يكون إما رئيس الدولة الكافرة أو مكلف من قبله.

"فالقتال لم يشرع لفرض منهج، إنما شرع ليفرض حرية اختيار المنهج، بدليل قول الحق:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وعلى ذلك فالإسلام لا يفرض الدين، ولكنه جاء ليفرض حرية الاختيار في الدين، فالقوى التي تعوق اختيار الفرد لدينه، يقف الإسلام أمامها لترفع تسلطها عن الذين تبسط سلطانها عليهم ثم يترك الناس أحراراً يعتقدون ما يشاءون، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام بالسيف، ظل فيها بعض القوم على دياناتهم. فلو أن القتال شرع لفرض دين لما وجدنا في بلد مفتوح بالسيف واحداً على غير دين الإسلام"^(٣).

ومن حق جميع الناس أن يبلغ إليهم الإسلام، وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال. ولذلك من حكم جهاد الكفار إزالة الحواجز التي تعيق وصول الدعوة إلى

(١) رواه البخاري في صحيحه ١٤/١ حديث رقم ٢٥ باب: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ورواه مسلم في صحيحه ٥٣/١ حديث رقم ٢٢ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، واللفظ للبخاري.

(٢) تفسير السعدي ص ١١٠.

(٣) تفسير الشعراوي ٤/٢٥١٢.

الناس لإنقاذهم من النار، والجهاد والقتال لا يكون إلا بعد دعوة وإنذار فكون المسلمون يقاتلون أي أن دولة الكفر رفضت الدعوة وأبت وصول الحق للناس فكان لابد من القتال لردع الظلم ونشر الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأي حق أعظم من حق الله على العباد أن يعبدوه وأي منكر أعظم من الكفر والشرك وأي جرم أعظم من منع نشر دين الله في الأرض أي أن قتال الكفار من باب استخدام القوة عند تعذر الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فجهاد المسلمين يعتبر قوة تدافع عن الدين الحق بالحق لله الحق قوة تعرض الإسلام وإن كلفها ذلك الوقت والحياة والمال.

إن الإسلام لم يكره فرداً على تغيير عقيدته، كما فعلت الصليبية على مدار التاريخ في الأندلس قديماً وزنجبار حديثاً، لتكرههم على التنصر وأحياناً لا تقبل منهم حتى التنصر فتبيدهم لأنهم مسلمون" (١).

ومن حكم جهاد الكفار حماية من دخل في الإسلام من أن يؤدي من قبل الذين كفروا الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَسُوا فَلَا تُعَدُّونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢) ولو جاهد المسلمون لشاع الأمان في البلاد وبين العباد؛ لأن رهبة العدو من المسلمين لا تجعله يتجرأ على خوض معارك لا يقدر عليها؛ ولن يعيش العالم في أمان إلا إذا سادته الإسلام.

وقال الشعراوي - رحمه الله: "السيف ما جاء إلا ليحمي اختيار المختار، فلي أنْ أعرض ديني، وأنْ أعلنه وأشرحه، فإنْ منعوني من هذه فلهم السيف، وإنْ تركوني أعلن عن ديني فهم أحرار، يؤمنون أو لا يؤمنون.

إن آمنوا فأهلاً وسهلاً، وإن لم يؤمنوا فهم أهل ذمة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ويدفعون الجزية نظير ما يتمتعون به في بلادنا، وعليهم ما علينا، وما نُقدِّمه لهم من خدمات، وإلا فكيف نفرض على المؤمنين الزكاة ونترك هؤلاء لا يقدمون شيئاً؟

لذلك نرى الكثيرين من أعداء الإسلام يعترضون على مسألة دفع الجزية، ويرون أن الإسلام فُرض بقوة السيف، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً، فما فرضنا عليكم الجزية إلا لأننا تركناكم تعيشون معنا على دينكم، ولو أرغمناكم على الإسلام ما كان عليكم الجزية" (٣).

(١) الموالاتة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ٦١٠/٢.

(٢) سورة البقرة: ١٩٣.

(٣) تفسير الشعراوي ١١٢٠٨/١٨.

ومن حكم جهاد الكفار أن يظهر دين الإسلام فوق كل الشرائع والأديان الأخرى ويكون للإسلام السيادة فيحكم الأرض ويسود العدل قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١).

ومن حكم جهاد الكفار تقوية شوكة الدولة الإسلامية فلا يلين لها جانب، ولا يستطيع أحد أن ينال من عزتها وكرامتها ويحمى من فيها إذ كره الكفار للإسلام وأهله تجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقرّ لهم قرار، إلا بإيذاء الإسلام وأهله والنيل من مقدساته، والقوة حقّ مشروع لردع الظالمين العابثين ولرهب من يريد إيذاء الإسلام وأهله ولحماية من تحت سلطة الإسلام ولحماية أهل الإسلام قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقِنُّونَكُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَكُم مِّنَ دِينِكُمْ أَوْ يَكُونُوا لَكُمْ رُجُومًا﴾ (٢).

وأعداء الإسلام منذ توقف الفتوحات الإسلامية وهم يحاربون الإسلام والمسلمين ابتداء من الحروب الصليبية ثم الاستعمار والاحتلال، والجرائم البشعة مثل مذبحة دير ياسين ومذبحة صبرا وشاتيلا ومذبحة بحر البقر.

وقال الشيخ المراغي: "و ما غلب المسلمون في العصور الأخيرة وذهب أكثر ملكهم إلا لأنهم تركوا الاهتداء بهدى دينهم وتركوا الاستعداد المادي والحربي الذي طلبه الله بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (٣) وانكلوا على خوارق العادات وقراءة الأحاديث والدعوات، وذلك ما لم يشرعه الله ولم يعمل به رسوله - إلى أنهم تركوا العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح، وأنفقوا أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف في شهواتهم.

وعلى العكس من ذلك اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام فاستعدوا للحرب واتبعوا سنن الله في العمران فرجحت كفتهم، والله الأمر.

وما مكن الله لسلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرهما من البلاد إلا لما أصاب أهلها من الشرك وفساد العقائد في الآداب ومساوي الأخلاق والعادات والانغماس في الشهوات وإتباع سلطان البدع والخرافات - فجاء الإسلام وأزال كل هذا واستبدل التوحيد

(١) سورة الصف: ٩

(٢) سورة البقرة: ٢١٧

(٣) سورة الأنفال: ٦٠

والفضائل بها، ومن ثم نصر الله أهله على الأمم كلها.

ولما أضع جمهرة المسلمين هذه الفضائل واتبعوا سنن من قبلهم في إتباع البدع والردائل وقد حذرهم الإسلام من ذلك، ثم قصرُوا في الاستعداد المادي والحربي للنصر في الحرب عاد الغلب عليهم لغيرهم ومكن لسواهم في الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١) أي الصالحون لاستعمارها والانتفاع بما أودع فيها من كنوز وخيرات^(٢).

والخلاصة أن عدم الإكراه على الدخول في الإسلام لا يستلزم عدم القتال والجهاد؛ لأن حرية اختيار الدين لا تعني عدم الحاجة لإبلاغ الدين، وحرية اختيار الدين لا تعني عدم نشر الدين، وحرية اختيار الدين لا تعني عدم حماية الدين وأهله من أعدائه.

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ لا يستلزم حرية الردة وعدم عقوبة المرتد

زعم البعض أن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ينفي حد الردة، وبعض المغرضين زعم أن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يتعارض مع حد الردة، وهذه فرية يغني فسادها عن إفسادها فحرية اختيار الدين ليس معناها حرية الردة وحرية الخروج من الدين وحرية التلاعب بالدين.

وكما ثبت عندنا آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ثبت عندنا قول النبي ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(٣)، وإذا كان الإنسان له الحق في اختيار دين الإسلام فالإسلام الذي اختاره اشترط عليه عدم جواز الخروج منه وأن عقوبة الخروج عنه القتل.

ومن أراد أن يدخل في الإسلام فعليه أن يعرف قبل دخوله أنه سيكلف بتكاليف وسيلتزم بعهد إذا خالفه عرض نفسه للعقاب، كما أنه في قوانين الدول إذا طلب شخص الجنسية من دولة ما من الدول وومنها فإنه بقدر ما يحظى بمزايا تلك الجنسية لا بد وأن يتحمل تبعات ويلتزم بقوانين تلك الدولة، ومن خالف عوقب، ولا يقال بأن له مطلق العنان والحرية في أن يفعل ما يشاء.

وقال الشعراوي - رحمه الله - "من حكمة الإسلام أن يعلن حكم الردة لمن أراد أن

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥

(٢) تفسير المراغي ٢٠٨/٩ - ٢٠٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه ٦١/٤ حديث رقم ٣٠١٧.

يؤمن، نقول له قف قبل أن تدخل الإسلام، اعلم أنك إن تراجعته عنه وارتدت قتلناك، وهذا الحكم يضع العقبة أمام الراغب في الإسلام حتى يفكر أولاً، ولا يقدم عليه إلا على بصيرة وبيئة^(١).

والردة عدوان على المجتمع كله ففيها إشاعة الفساد وأي فساد أعظم من الكفر بالله والردة فيها شق عصى الدولة الإسلامية وتحريض على الخروج منها أي تحريض على هدم المجتمع الإسلامي والردة عدوان على نفس المرتد لذلك شرع الإسلام قتل المرتد بعد الاستتابة لإصلاح الفرد، ولحماية المجتمع الإسلامي وصيانة نظامه من الانهدام. وإن الواحد منا ليتعجب إذا كان هناك عقوبات في القوانين الوضعية كخيانة الدولة تستحق الإعدام فلما يعترض على الشرع أنه جعل الردة عقوبة تستحق الإعدام أدين الله أهون من خيانة الدولة ما لهؤلاء كيف يحكمون!!؟.

(١) تفسير الشعراوي ١٨ / ١١٢٠٩.

المبحث الرابع

دور المؤسسات العلمية وعلماء المسلمين في التربية الفكرية

المطلب الأول: تاريخ العلم عند المسلمين ومكانة العلماء

لقد فجر الإسلام تاريخاً نسب إليه في العصر الوسيط، واهتم المؤرخون بتتبع حركات الفتوح الإسلامية التي وصلت إلى حدود الهند شرقاً وإلى جنوب فرنسا غرباً، على أن التاريخ الإسلامي ليس فتحاً عسكرياً فحسب بل هو إلى جانب ذلك حضارة متسعة باتساع الفتوح فيما بين الشرق والغرب^(١).

فالإسلام الذي نادى بالتوحيد استطاع أن يشعر ذلك العالم المشتت الأطراف بوحدته، وأن يجعل هذه البيئة المترامية الأطراف تشعر بأنها تكون حضارة واحدة يربطها سمط واحد؛ وعن الإسلام نشأت الحضارة العربية؛ ومن الحضارة العربية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مختلف القوميات والجنسيات: سريان يون وفُرس وصابئة ومسيحيون ويونانيون وأقباط وعبرانيون وأتراك وذييون، ولكن بلسان عربي وفي ظل الدين الحنيف^(٢).

ومن هذا المزيج الإنساني كان الفكر الإسلامي إنسانياً أكثر منه إسلامياً !

والحقيقة أن نسبة هذا الفكر للإسلام نسبة تفتقر للدقة العلمية، فالإسلام منهج إلهي محدد بكتاب سماوي معجز، ومطلوب من المسلمين جميعاً أن يسيروا في حياتهم الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية وفق ذلك التوجيه القرآني، إلا أن المفروض شيء، والواقع شيء آخر. وكما حدث بعض الانحراف عن المنهج الإسلامي السياسي بحيث وقعت حروب بين المسلمين، فقد كان الفكر الإسلامي مرتبطاً بترائهم القومي قبل الفتح، أكثر منه ارتباطاً بالقرآن والسنة.

وساعد على هذه السقطة أن المسلمين نظروا للقرآن بصفته معجزة موجهة للعرب فقط، فهو معجز للعرب فقط، ونسوا أن القرآن معجز للإنس والجن في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وأن نهايات العلوم قد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم، كما أن منهجه العلمي التجريبي لم ترق إلى نظيره أي اجتهادات إنسانية؛ ولا أدل على ذلك من أن عصرنا العلمي

(١) تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية (كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر)، أحمد صبحي منصور، (المقدمة، ص أ)، دون ذكر الطباعة والتاريخ.

(٢) مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ ((مجلة المنهل السعودية، أحمد سعيد الدمرداش)) الحلقة الأولى، العدد ٤٥٠، جمادى الأولى، سنة ١٤٠٧ هـ، ص. ١٢٣.

الراهن لا يستطيع أن يخالف ما جاء في القرآن الكريم من حقائق علمية! ولو اتخذ المفكرون الأوائل من القرآن الكريم رائداً، لوفروا على أنفسهم وعلى الإنسانية قروناً من البحث والرقص على أنغام السابقين من اليونان والهنود.

إسلامنا دين العلم والمعرفة

لقد كان أول أثر من آثار القرآن في الفكر الإنساني اهتمامه الواسع بالعلم. قال الله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١) فهذا هو أول خطاب إلهي إلى النبي ﷺ، وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم^(٢)، لأنه شعار دين الإسلام؛ ذلك بأن العلم أساس التقدم والتعاون، وتبادل الخبرات والمنفعة. وقد كانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف!

تأمل القرآن الكريم وتدبر آياته، تجده يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون وأحداث الماضي، ولقد اشتمل القرآن على ست وثلاثين ومئتين وستة آلاف آية، منها خمسون وسبعمئة آية كونية وعلمية احتوت أصولاً وحقائق تتصل بعلوم الفلك.

مسيرة المؤسسات العلمية عند المسلمين عبر التاريخ:

لقد كان النبي ﷺ يشجع طلاب العلم ويرحب بهم، فرحاً بهم وبما يراه ﷺ من حفاوة الملائكة بهم وحبهم لهم، ويعلن ذلك في صراحة حينما أتاه صفوان بن عبال المرادي - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله! جئت أطلب العلم. فقال: ((مرحباً بطالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب)). (رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد).

ويؤكد رسول الله ﷺ على المسلمين طلب العلم بأسلوب آخر من أساليب الترغيب المحبب الذي اختص به رسول الله ﷺ وهو لا يقول إلا حقاً، فيقول لأبي ذر الغفاري - رضي الله عنه: ((يا أبا ذر! لأن تغدو، فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي ألف ركعة))^(٣). (رواه ابن ماجة بإسناد حسن)^(٤).

لذا، فإن من أعظم الواجبات على المسلمين أن يكلفوا جماعة منهم للتحقق في الدين قال

(١) سورة العلق: ١

(٢) المرجع نفسه (المقدمة: ص أ، ب بتصريف).

(٣) دعوة الإسلام إلى العلم ((مجلة المنهل، أحمد عبد الرحيم السايح)) العدد ٤٥٣، شعبان ١٤٠٧ هـ، ص ١٨ - ١٩ بتصريف.

(٤) لمزيد من التفصيل، راجع: كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ ((مجلة الهداية البحرينية، لطفي نصر)) العدد ١١٣، رجب ١٤٠٧ هـ، ص ٣٨ - ٤١.

تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١).

يقول المراغي: وفي الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيها بالمقدار الذي تصلح به حالهم، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرف عليها. والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامي المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع واجباً عينياً على كل شخص (٢).

وإذا كان نشر العلم من أهم الفروض الإسلامية، فإن من كتم علماً أوجب الله سبحانه وتعالى بيانه للناس فإنه يستحق الطرد من رحمة الله ويلجم يوم القيامة بلجام من نار. ففي الأثر: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ ((من علم علماً فكتمه: أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)) (٣).

أرأيت إلى هذه الدعوة الصريحة الملحة لإزالة "الأمية" من المسلمين بواسطة المتعلمين حيال إخوانهم في الدين، فما تجد ديناً دعا إلى العلم والتعلم بكل الأساليب كما دعا الإسلام أبناءه ومريديه؛ ذلك لأن العلم هو سبيل الخير والرشاد والسعادة في الدنيا والآخرة (٤).
مما أفاد الإسلام به العلم:

لم يكن الإسلام ديناً بالمعنى التقليدي للدين، وإنما هو نظام جديد لا يكتفي بمعالجة القضايا التي عالجتها الأديان من قبله من تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فحسب أو تنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه في داخل مجموعة صغيرة، وإنما نراه يلجأ إلى العقل ليحرك به الوعي

(١) سورة التوبة: ١٢٢

(٢) تفسير المراغي، ج ١١، ص ٤٨.

(٣) إحياء علوم الدين (١/١٨) قال الحافظ العراقي في تخريج "الإحياء" ١ / ١٨: الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: حديث حسن. الحافظ العراقي (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ = ١٣٢٥ - ١٤٠٤ م)، عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي: بحاتة، من كبار حفاظ الحديث. أصله من الكرد، ومولده في رازان (من أعمال إربل) تحول صغيراً مع أبيه إلى مصر، فتعلم ونبغ فيها. وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين، وعاد إلى مصر، فتوفي في القاهرة. (الأعلام للزركشي ج ٣ - ص ٣٤٥).

(٤) كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ (مجلة الهداية، لطفي نصر) العدد ١١٣، رجب ١٤٠٧ هـ، ص ٤١ وما بعدها.

الذاتي للفرد ويدفع به إلى الاستقلال في الرأي^(١)؛ لذا نجد أن الإسلام قد سلك في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته مسلماً يثير العقل، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢).

هذا الضرب من الآيات الكريمة فيه بعث العقل على النظر في الكون؛ وقد كان لذلك أثره في نمو الحياة العقلية^(٣) حيث إن مجال استعمال العقل في الإسلام فسيح وعميق عمق الآيات التي خلقها الله في الأرض وفي السماء ودعا الإنسان إلى التفكير فيه^(٤).

ولقد ظلت العناية بالعلم والعلماء هكذا منذ فجر الدعوة الإسلامية، حتى كان عصر الدولة الأموية. فقد كان خلفاء هذه الدولة يعدون أنفسهم حماة للعلم ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزاً تنبع منه الثقافة والعرفان... بدأت بعصر معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول ثم خالد بن يزيد بن معاوية المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند العرب، وازدهرت في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك.

ونشطت حركة الترجمة نشاطاً واسعاً في عصر الرشيد والمأمون، وراسل المأمون ملك الروم وأرسل إليه جماعة من العلماء للحصول على الكتب النادرة من علوم الأوائل. واجتمعت في عاصمة الخلافة العباسية مؤسسه علمية فيها أهم كتب الفلاسفة والعلماء من الأغرقة في مختلف الفروع من طب ورياضيات وفلكيات... وطائفة من الكتب العلمية والحكمية الفارسية والهندية والسريانية... فتسنى لطلاب المعرفة والعلم في العالم العربي أن يهضموا في سنوات قليلة ما أنفق اليونان وسواهم القرون في إنشائه...

وقد كانت الكتب تهدي إلى الخلفاء على سبيل الاسترضاء. ولكن هارون الرشيد لما فتح عمورية وأنقرة، حمل معه إلى بغداد كل ما وجد فيها من المخطوطات واقتدى به ابنه المأمون. وكان العلماء - حينئذ - يلحون في طلب المخطوطات بلا هوادة. وقد حدثنا حنين بن إسحاق عن مخطوط عرف باسم "في البرهان" بقوله: "إنني بحثت عنه بحثاً دقيقاً وجبت في طلبه أرجاء العراق وفلسطين ومصر... إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، لكنني لم أظفر إلا بما

(٤) مسيرة الفكر العلمي العربي عبر التاريخ (أحمد الدمرداش، مجلة المنهل، العدد، ٤٥٠، جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ - (الحلقة الأولى)، ص ١٢٣ - ١٢٤. بتصرف.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٥

(٣) عبد الرحمن البهلول، ((الإسلام دين العلم والمعرفة))، مجلة منبر الإسلام القاهرة، العدد ٢٧، السنة ٤٥، رجب ١٤٠٧ هـ، ص ٧٢ - ٧٣. بتصرف.

(٤) أحمد صبحي، تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، ص ٨. بتصرف يسير.

يقرب من نصفه في دمشق".

وفي غضون حكم المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م)، وصلت الجهود الثقافية الجديدة والمؤسسات العلمية قمتها. فلقد كان المأمون من مفاخر الدولة العباسية علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً. ولقد وجه عنايته للعلم وأكرم العلماء وأعلى مجالسهم، وانصرفت همته أيما انصراف إلى نقل العلوم والصناعات من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، حيث عد ذلك من أكد أعماله وأنبأ أغراضه، رغبة في رفع شأن أمته وإعزاز جانبها. كما أنشأ الخليفة المأمون في بغداد سنة ٨٣٠ هـ معهداً رسمياً للترجمة مجهزاً بمكتبة أطلق عليه اسم "بيت الحكمة". فكان هذا المعهد - من وجوه كثيرة - أعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد الفتح الإسكندري والتي أسست في القرن الثالث قبل الميلاد^(١).

وفي عهد المأمون نبغ علماء كثيرون وحكماء وبلغاء وكتاب، ممن كانوا فخر الزمان وحلية الدهر، وعلى كتبهم ومؤلفاتهم - في مختلف العلوم والفنون - شيد الأوربيون حضارتهم الماثلة أمامنا الآن^(٢)، وفي حدود سنة ٨٥٦ م جدد المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد.

وقد استفادت مجالس العلم من التطور العلمي والترجمة اللذين كانا طابع ذلك العصر. ولما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد، انتقل مركز الثقل إلى الممالك والدويلات الشبيهة بالمستقلة. فالديلم كانت لهم مجالس علم، ثم السلاجقة، ثم الغزنويون والساسانيون.

ومن هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات أبي الفضل جعفر في عشرينيات القرن الرابع الهجري، ومجلس أبي عبد الله الحسين بن سعدان في سبعينيات القرن نفسه. وكان مجلسه حافلاً بجلّة العلماء والأدباء، وكان يباهي بمجلسه بأمثال أبي حيان وابن مسكويه وأبي الوفاء، ثم مجلس السلاجقة وكان يتصدره الوزير الطغراني العالم الشاعر، ومجلس رابع كان يزدان بأمثال البيروني والفردوسي.

وقد بدأت هذه "الصالونات" أو الجمعيات العلمية في القصور المصرية منذ ظهرت الدولة الطولونية. وكانت دار الحكمة قد أنشئت بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله عام ٣٩٥ هـ على غرار بيت الحكمة في بغداد. وقد حملت إليه الكتب من خزائن القصور وحمل إليها من

(١) مسيرة الفكر العلمي (مجلة المنهل، الدمرداش) عدد رجب ١٤٠٧ هـ (الحلقة الثالثة)، ص ١٣٨ - ١٣٩. بتصرف.

(٢) الإسلام دين العلم والمعرفة، مجلة منبر الإسلام، عبد الرحمن البهلول، عدد رجب ١٤٠٧ هـ، ص ٧٥. بتصرف.

خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد الملوك قط، وأجريت الأرزاق على من فيها من العلماء والفقهاء والأطباء !

ومن أشهر العلماء في العصر الفاطمي الطبيب ابن بطلان وعالم البصريات ابن الهيثم^(١): استدعى الحاكم بأمر الله الأول من سوريا، والآخر من العراق. وفي تاريخ العلم عند المسلمين ستة يوضعون على القمة في قيادة الحركة العلمية وريادتها وبناء المؤسسات العلمية هم: المأمون، ونظام الملك، ونور الدين زنكي، والحاكم بأمر الله، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان أولغ بيك في سمرقند.

ارتبطت هذه الأسماء ارتباطاً وثيقاً. فالأول أنشأ بيت الحكمة، والثاني أسس المدارس النظامية، والثالث كان راعياً للعلوم في سوريا، والرابع أنشأ دار الحكمة في القاهرة وجلب العلماء والمخطوطات لها من الأرجاء كافة وأنشأ مرصد المقطم بإشراف ابن يونس الفلكي، والخامس حمى التراث العلمي من غوغاء التتار، والسادس هو مؤسس النهضة العلمية في الدولة التيمورية ونبغ في عصره جمشيد غياث الدين الكاشي وقاضي زادة رمى وشرع في تأسيس مرصد المراغة.

ولقد حث الإسلام المسلمين على طلب العلم، والتفقه في الدين، والبحث الدقيق في كل مجالاته وفنونه وفروعه، وأن يتحملوا المشاق في سبيل تحصيله وتعلمه، وأن يبذلوا كل طاقاتهم وقدراتهم في طلب المزيد منه.

مكانة العلماء:

رفع الله عز وجل العلماء في مكانة سامقة ترنوا إليها أبصار المسلمين وأفئدتهم، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٢) معنى الآية أنه يرفع الذين آمنوا على من لم يؤمن درجات ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله بإيمانه درجات ثم رفعه بعلمه درجات^(٣).

وقد بين الرسول ﷺ علو منزلة العلماء حتى على العباد من الأمة، وبين كذلك كيف

(١) بن الهيثم: أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم (354 هـ—965 م/430—1040 م) (عالم موسوعي مسلم قدم إسهامات كبيرة في الرياضيات والبصريات والفيزياء وعلم الفلك والهندسة وطب العيون والفلسفة العلمية والإدراك البصري والعلوم بصفة عامة بتجاربه التي أجراها مستخدماً المنهج العلمي، وله العديد من المؤلفات والمكتشفات العلمية التي أكدها العلم الحديث. (الأعلام للذهبي ج ٨ - ص ٣٥٩).

(٢) سورة المجادلة: ١١

(٣) فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠ هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ (ج ٥ - ص ٢٢٦).

يرحم الله عز وجل وتدعو الملائكة والناس جميعاً حتى الحيوانات والحشرات للعالم الذي يعلم الناس، فقال ﷺ: «فَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُرْهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»^(١).

ولهذه المكانة السامقة التي وضع الله عز وجل ورسوله ﷺ فيها العلماء يلود المسلمون دائماً بهم في الملمات ويستترشدون بأقوالهم علها تتقدم؛ لذا علينا ان نتساءل: ما دور العلماء إذن في المحن؟ وهل قاموا بها فعلاً أم لا؟ إننا نرى أن أول واجب على العلماء القيام به هو تعريف الحكام بما يجب أن يقوموا به، وما يجب أن يكونوا عليه، وإرشادهم إلى ما فيه صلاح الأمة؛ فإن الله عز وجل يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن، وإن الحاكم مسئول أمام الله عز وجل يوم القيامة عن رعيته كلها، «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...»^(٢).

وينبغي أن لا يهتم العالم بما قد يصيبه من أذى نتيجة صدعه بالحق، فكل الناس مبتلى، وهذا هو ابتلاء العلماء، وإن لم يثبت العلماء ويقولوا الحق، فمن يصدع به إذن؟! ولا يفوتنا التذكير بما حدث للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عندما جأ بالحق في فتنة خلق القرآن، وظلَّ يتحمل التعذيب نتيجة ذلك ما يقرب من سبعة عشر عاماً، حتى نصر الله الحق على يديه بإذنه تعالى. لقد حفظت الأمة له هذا الجميل، فلقبته بإمام أهل السنة والجماعة، ولكن فضل ربك خير وأبقى..

وكذلك نتذكر بكل الفخر والإعزاز مواقف سلطان العلماء العز بن عبد السلام^(٣) مع

(١) وهو في "سنن أبي داود": (٤ / ٥٧ - ٥٨، ح ٣٦٤١)، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم. و"سنن الترمذي": (٥ / ٤٨ - ٤٩، ح ٢٦٨٢)، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. و"سنن الدارمي": (١ / ٨٣، ح ٣٤٩) مقدمة. والحديث قال فيه الترمذي: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل وإنما يروى عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ وهذا أصح. وأخرجه ابن حبان في "صحيحه": (١ / ١٥١ - ١٥٢، ح ٨٨). وحسنه الألباني. انظر: "صحيح الترغيب والترهيب": (١ / ١٠٥، ح ٦٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز (٢ / ٩٠١)، ومسلم (٣ / ١٤٥٩)، انظر فتح الباري: (٣ / ١٥١).

(٣) العز بن عبد السلام (٦٦٠ هـ) الشيخ عز الدين بن عبد السلام أبو محمد السلمي الدمشقي الشافعي، شيخ المذهب، ومفيد أهله، ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسائة. وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد. ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنف التصانيف المفيدة. توفي رحمه الله بمصر في جمادى الأولى سنة ستين وستمائة، وحضر جنازته الخاص العام. البداية (١٣ / ٢٣٥ - ٢٣٦) وطبقات الشافعية (٥ / ٨٠).

الملك الصالح إسماعيل في دمشق، والصالح نجم الدين أيوب في مصر. ومن أدوار العلماء المهمة في مثل هذه المحن، إرشاد المسلمين إلى ما يجب عليهم نحو إخوانهم، فالأخوة الإسلامية هي من شعائر هذا الدين، ولا يجوز لمسلم أن يترك نصرة أخيه المسلم حين يحتاجه، وكيفية تفعيل هذه الأخوة في هذه المواقف لا بد أن يدلي فيها العلماء بدلوهم. كما ينبغي أن يوضح العلماء الحقائق لعموم المسلمين.

ويعتبر المعلم عامل أساسي في نجاح العملية التعليمية، وهو من أهم عناصر هذه العملية، فالتعليم لا يتم بغير معلم، ونحن بحاجة للمعلم الصالح الذي هو المربي وحامل الرسالة التي هي من أقدس وأشرف الرسائل، فهو صانع الحضارة وناقل لثقافة المجتمع ومشارك في إعداد طفل اليوم رجل المستقبل، ليكون مواطناً صالحاً يعرف ماله وما عليه، فالى المربي الأمين يسلم الوالدان بثقة واطمئنان فلذات أكبادهم، وبأمل عريض مرتقب تلقى الأوطان إلى هذا المربي بمستقبل ناشئها، فبقدر ما يكون هذا المربي أهلاً للأمانة وبقدر ما يبذل من علمه وفنه وأخلاقه في إعداد النشء للحياة، نضمن مستقبل البلاد وازدهارها.

إنها رسالة مقدسة، والمعلم هو صاحب هذه الرسالة التي تتطلب منه أن يتمسك بأخلاقها ليعزز التماسه لها فيضحي من أجل ما تنطوي عليه هذه الرسالة من قيم ومبادئ إنسانية وخلقية واجتماعية.

تتطلب مهنة المعلم شخصية متميزة في سلوكها ومظهرها ونفوذها وثقافتها فهو قدوة الطالب في حديثه وتصرفه وملبسه وما يلم به من علم وثقافة وتقع على كاهله مسئولية كبيرة وفي صلاحه صلاح العملية التعليمية برمتها.

ولقد كان لعلماء التربية المسلمين الأوائل نظرة خاصة للمعلم وحددوا له سمات وخصائص تعرفنا عليها من خلال المتون التي وردت في كتبهم وعلماء التربية الحديثة من عرب وأجانب تحدثوا الكثير عن المعلم ولكنه ليس بجدير عما آلت إليه التربية الإسلامية الأصيلة التي كان لها قصب السبق في الاهتمام بالمعلم والمتعلم.

ورسول الله ﷺ هو المعلم الأول الذي رباه الله رب العالمين على فكر الإسلام وصقله بخلق الإسلام حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) وإنك يا محمد لعلی أدب عظیم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه^(٢).

فالتربية الإسلامية لها قصب السبق في الاهتمام ليس بالمعلم فقط بل أيضاً في المتعلم حيث اهتمت بحاجاته وميوله وخصائصه وما يناسبه من منهاج وطرائق وأساليب لتحقيق له التكامل المنشود منه إنساناً صالحاً مؤمناً بربه معتزلاً بدينه نافعاً لأمتة ولمجتمعه.

(١) سورة القلم: ٤

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (ج ٢٣ - ص ٥٢٨).

المطلب الثاني: دور العلماء والدعاة في مواجهة الفتن

بداية لا بد من التأكيد على أنه يصعب الفصل بالمعنى الدقيق بين دور العلماء والدعاة وبين دور المجتمع في مواجهة الفتن، فالعلماء ومعهم الدعاة وطلاب العلم جزء من المجتمع، والمجتمع هو وعاء يضم كافة المكونات، لكن يمكن التركيز على أهم الأمور التي ينفرد العلماء والدعاة بتحمل مسؤولية القيام بها لحفظ المجتمع من الفتن من هذه الأمور :

١- نشر فقه التعامل مع الفتن، وذلك بـ :

أ - الحث على التمسك بالكتاب والسنة. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي»^(١) وقال ﷺ: «إنها ستكون فتنة، قالوا: وما نضع يا رسول الله، قال: ترجعون إلى أمركم الأول»^(٢).

وعن العرياض بن سارية^(٣) رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: «عليكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، وسترون من بعدي اختلافاً شديداً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضواً عليها بالنواجذ، وإياكم والأموال المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة»^(٤).

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: (طريق النجاة من الفتن هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما روي ذلك عن علي رضي الله عنهم مرفوعاً: تكون فتن: قيل: ما المخرج يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم»^(٥). وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه قال: لما وقع من أمر عثمان ما كان وتكلم الناس في أمره أتيت أبي بن كعب^(٥) فقلت: أبا المنذر ما المخرج؟ قال: كتاب الله).

(١) صحيح مسلم برقم (١٧١٥).

(٢) المعجم الكبير للطبراني، باب بسر بن سعيد عن أبي واقد (ج٣ - ص٤٣ - رقم ٦٩).

(٣) العرياض بن سارية السلمي، يكنى أبا نجيح كان من أهل الصفة سكن الشام، ومات بها سنة خمس وسبعين. وقيل: بل مات في فتنة ابن الزبير. روى عنه من الصحابة أبو رهم وأبو أمامة. وروى عنه جماعة من تابعي أهل الشام. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب القرطبي ج٣ - ص١٢٣٨).

(٤) أبو داود: السنن ٢٠٠/٤، وأحمد: المسند ١٢٦/٤، وإسناده صحيح. الترمذي: السنن ٤٤/٥، والحديث أخرجه الدارمي: السنن ٤٤/١، وابن ماجه: المقدمة ١٥/١، وصححه الألباني: «صحيح سنن الترمذي رقم: ٢١٥٧، وابن ماجه رقم: ٢٨٢٩».

(٥) أبي بن كعب (١٩ هـ) بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجي البديري أبو المنذر ويكنى أيضا أبا الطفيل سيد القراء. شهد بدرًا والمشاهد. وجمع القرآن في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وعرض على النبي - صلى الله عليه وسلم - وحفظ عنه علما مباركا وكان رأسا في العلم والعمل. كان من أصحاب العقبة الثانية، وكان عمر يسميه سيد المسلمين. أخرج الأئمة أحاديثه في صحاحهم، وعده مسروق في الستة من أصحاب الفتيا. مات سنة تسع عشرة، وقيل اثنتين وعشرين، وقيل سنة ثلاثين. (الإصابة في تمييز الصحابة ج١/ ٢٧ - ٢٨)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه: (إذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم).

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى: (فكل أنواع الفتن لا سبيل للتخلص منها والنجاة منها إلا بالتفقه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة منهج سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنه ومن سلك سبيلهم من أئمة الإسلام ودعاة الهدى).

ب - اعتزال الفتن وأهلها، وقد أخبر الله تعالى عن فتية الكهف أنهم اعتزلوا قومهم لما رأوهم على الكفر، فقال ﴿وَإِذْ أَعْرَزْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَى الْكَهْفِ﴾^(١) أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضا بأبدانكم^(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «(إنها ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأً أو معاذاً فليعذ به)»^(٣). وقوله من تشرف لها تستشرفه، أي: من انتصب إليها وخاض فيها قابلته بشرها وأهلكته وصرعته.

إن من إلقاء النفس إلى التهلكة التعرض للفتن واستشرافها سواء كانت فتن شهوات أو فتن شبهات، والله تعالى قد حذر من ذلك فقال ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «(إنها ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها)». قال النووي رحمه الله تعالى: معناه: بيان عظيم خطرها والحث على تجنبها والهرب منها ومن التشبث في شيء منها وأن شرها وفتنتها يكون على حسب التعلق بها. وقال أبو الدرداء^(٤) رضي الله عنه: لا تقربوا الفتنة إذا حميت ولا تعرضوا لها إذا عرضت واضربوا أهلها إذا أقبلت. وقال محمد بن الحنفية: اتقوا هذه الفتن فإنها لا يستشرف لها أحد إلا استبقته.

(١) سورة الكهف: ١٦

(٢) تفسير القرآن العظيم (ج ٥ - ص ١٤٢).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الفتن باب التعرف في الفتنة (ج ١٣ - ص ٤٠).

(٤) أبو الدرداء (٣٢ هـ): غويمر بن زيد بن قيس، قاضي دمشق الإمام القدوة صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبو الدرداء، حكيم هذه الأمة، وسيد القراء بدمشق. روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عدة أحاديث. آخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين سلمان الفارسي. وهو معدود فيمن جمع القرآن في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . أسلم أبو الدرداء يوم بدر ثم شهد أحدا. مات أبو الدرداء رضي الله عنه عام اثنتين وثلاثين للهجرة. (الإصابة (٤/ ٧٤٧ - ٧٤٨).

ج - التعوذ منها: عن زيد بن ثابت^(١) رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال: "من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟" فقال رجل: أنا، قال "فمتى مات هؤلاء؟"، قال: ماتوا في الإشراف، فقال: «إن هذه الأمة تبلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: "تعوذوا بالله من عذاب النار"، قالوا نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: "تعوذوا بالله من عذاب القبر" فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، فقال: "تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن"، قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: "تعوذوا بالله من فتنة الدجال"، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة» فذكر الحديث وفيه قوله تعالى "يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب علي، وإن أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون"^(٣).

د - الفرار من الفتن: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن». رواه البخاري. وعن أبي بردة قال: دخلت على محمد بن مسلمة فقال: إن رسول الله ﷺ قال: "إنها ستكون فتنة وفرقة واختلاف، فإذا كان كذلك فأت بسيفك أهدأ فاضربه حتى ينقطع، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة، أو منية قاضية"^(٤). رواه مسلم، ولما قتل عثمان رضي الله عنه خرج سلمة بن الكوع من المدينة إلى الربذة وتزوج هناك امرأة وولدت له أولاداً فلم يزل بالربذة حتى قبل أن يموت بليال نزل المدينة. رواه البخاري

(١) زيد بن ثابت (٤٥ هـ) زيد بن ثابت بن الضحاك، أبو سعيد وأبو خارجه الأنصاري الخزرجي النجاري المدني الصحابي، كاتب الوحي للنبي ﷺ. حدث عن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان. وروى عنه أبو هريرة وابن عمر وابن عباس وأنس ابن مالك وسهل بن سعد وأبو أمامة بن سهل وخلق كثير. وعن سليمان بن يسار قال: ما كان عمر وعثمان يقدمان على زيد أحداً في الفرائض والفتوى والقراءة والقضاء. وعن سعيد بن المسيب قال: شهدت جنازة زيد بن ثابت، فلما دلي في قبره، قال ابن عباس: من سره أن يعلم كيف ذهاب العلم فهكذا ذهاب العلم، والله لقد دفن اليوم علم كثير. توفي رضي الله عنه سنة خمس وأربعين وهو ابن ست وخمسين. (سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٦ - ٤٤١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب صفة الجنة (٤ / ٢١٩٩ - ٢٢٠٠).

(٣) صحيح سنن الترمذي: ٩/٣. ورقمه: ٢٥٨٠، ٢٥٨١.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن باب التثبت في الفتنة (ج ٢ - ص ١٣١٠) تحقيق الألباني: صحيح، الروض النضير (٨٥١)، الصحيحة (١٣٨٠).

ومسلم .

هـ - الإكثار من العمل الصالح. قال ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم»

(١).

قال العلامة ابن عثيمين^(٢) يرحمه الله: وفي هذا الحديث المبارك رغب النبي ﷺ بالمبادرة والمشاركة للأعمال الصالحة قبل الموانع منها والمعوقات عنها، وقبل اشتغال الإنسان بخاصة نفسه، أو اشتغاله بفتنة عامة، وما أجل وأعظم وصية الله ووصية رسول الله ﷺ فمعنى قوله عليه الصلاة والسلام: "بادروا بالأعمال سبعا" أي: سابقوا وقوع الفتن بالاشتغال بالأعمال الصالحة، واهتموا بها قبل حلول الفتن، وقبل المعوقات. أ.هـ

والعبادة زمن الفتن كهجرة إلى النبي ﷺ. عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «(العبادة في الهرج كهجرة إلي)»^(٣). والمراد بالهرج هنا: الفتنة واختلاط أمور الناس. وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ولا يتفرغ لها إلا قليل من الناس .

٢- ومن مسؤولية العلماء والدعاة لدرء الفتن عن المجتمع: التمعن والنظر في عواقب الأمور.

فالفتننة إذا أقبلت عرفها العلماء، وإذا أدبرت عرفتها العامة. إن القول أو الفعل زمن الفتنة يجب أن يكون بحذر وبعد تأمل وتفكر في مآلاته وربما بلغ القول أناساً لم تدركه عقولهم فكان لهم فتنة. فبعض العلماء يفتي العامة بمسائل قد تكون فتنة لهم وربما فتحت أبواباً من الشر كبيرة، كفتوى حل السحر بسحر مثله وما شابه من الفتاوى.

ليس كل ما يعلم يقال إذ للأقوال والأعمال في الفتن حساسية خاصة، ولهذا يجب الحذر والتأني، فلا ينبغي قول أو فعل كل ما يبدو حسناً. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، أما أحدهما فبثنته وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا الحلقوم. رواه البخاري. قال أهل العلم: قول أبي هريرة (لقطع هذا الحلقوم) يعني أنه كتم أحاديث الفتن والأحاديث التي

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي - كتاب الإيمان - باب الحض على المبادرة بالأعمال (ج ٢ - ص ١٣٣).

(٢) ابن عثيمين: أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهبي التميمي (٢٩ مارس ١٩٢٩ - ١١ يناير ٢٠٠١). ولد في ليلة ٢٧ رمضان عام ١٣٤٧ هـ، في عنيزة إحدى مدن السعودية، فقد كان والده يعمل في التجارة بين الرياض وعنيزة، ثم استقر في عنيزة وعمل قبل وفاته بدار الأيتام بعنيزة. تعلم القرآن على يد جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان الدامغ ثم تعلم الكتابة وشيئاً من الأدب والحساب والتحق بإحدى المدارس وحفظ القرآن عن ظهر قلب في سن مبكرة، وكذا مختصرات المتنون في الحديث والفقه. بعد دراسة التوحيد والفقه والنحو جلس في حلقة عبد الرحمن السعدي فدرس عليه في التفسير والحديث والتوحيد والفقه وأصوله والفرائض والنحو. الأعلام للزركشي (ج ٦ - ص ٢٤٥).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب الفتن - باب فضل العبادة في الهرج (ج ١٨ - ص ٨٨).

في بني أمية، وهو قال هذا الكلام في زمن اجتماع الناس على معاوية رضي الله عنه . مع أن الأحاديث حق وقالها رسول الله ﷺ، ولكن أبو هريرة آثر كتمها حفاظاً على جماعة المسلمين من التفرق والتناحر، ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة(١) .

فقد يفهم الناس الأمور بفهم خاطئ ويبنون عليه اعتقادات وتصرفات، لا تكون عواقبها حميدة، ولهذا كان السلف يعملون بذلك كثيراً. فالإمام أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة كره التحديث بأحاديث الغرائب، والإمام مالك رحمه الله كره التحديث بأحاديث فيها ذكر لبعض الصفات. وكان هذا منهم رحمهم الله لأنهم أحبوا السلامة في الفتن.

يقول الشاطبي رحمه الله مبيناً الضابط في عرض المسائل الشرعية: "وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحّت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤدّ ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها... أما إن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية"(٢).

ويقول الإمام الذهبي رحمه الله: "ينبغي للمسلم أن يستعيذ من الفتن، ولا يشغب بذكر غريب المذاهب لا في الأصول ولا في الفروع، فما رأيت الحركة في ذلك تحصل خيراً، بل تثير شراً وعداوة ومقتاً للصلحاء والعباد من الفريقين"(٣).

٣- ومن مسؤولية العلماء والدعاة لتحصين المجتمع من الفتن: مناصحة ولاة الأمر ببيان مواطن الفتن التي تهدد المجتمع، قال ﷺ: «(الدين النصيحة)»، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"(٤).

إن ما ميّز أهل السنة والجماعة عن أهل البدعة والفرقة: أنهم ينصحون لمن ولّاه الله أمرهم ويكثرون الدعاء له، حتى ولو رأوا ما يكرهون، فإنهم يكثرون الدعاء وينصحون نصح من لا يريد جزاء ولا شكوراً. والمناصحة لا تكون علانية على الملأ: قال عياض بن غنم

(١) صحيح مسلم (ج ١ - ص ١١).

(٢) الموافقات ٤ / ١٩١ يتصرف يسير.

(٣) نزهة الفضلاء: ١٥٣٨/٤.

(٤) وأخرجه أيضاً أحمد ٢ / ٢٩٧، والترمذي (١٩٢٦) من طريق ابن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، وقال الترمذي: حسن. وأخرجه النسائي ٧ / ١٥٧ في البيعة: باب النصيحة للامام.

لهشام بن حكيم رضي الله عنهما: ألم تسمع قول رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبِدِّه علانية، ولكن ليأخذ بيده، ثم ليخلُ به فإن قبل منه فذاك، وإلا فإنه أدى الذي عليه» (١).

٤- ومن مسؤوليات العلماء والدعاة الهامة لتحسين المجتمع: تحذير المجتمع من فتنتي التكفير والتغريب، وبيان خطرهما على المجتمع، ومن ذلك:

- أن كلا الفريقين يعمل على زعزعة الأمن الفكري، وذلك بمحاولة إسقاط العلماء وتهميشهم، لإدراكهم أن العلماء هم صمام الأمان الذي يحبط ويفشل ما يخططون له من إفساد وتغريب وقتل وتخريب. وإذا أسقط العلماء خلت الساحة أمامهم لبحث أفكارهم وسمومهم. فالتغريبون يتهمون العلماء بالتخلف والتشدد وعدم مواكبة العصر، والتكفيريون يتهمونهم بأنهم علماء سلطة، وزبانية الظلمة، يفتنون الحكام وفق ما يشتهون، لا يفقهون الواقع، علماء حيض ونفاس، علماء الأوراق الصفراء وحسب، منافقون، مدهنون، يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل. ومن ذلك:

- أن كليهما يضر بالمجتمع، من حيث ادعى الحرص على مصالحته وإصلاحه، فالطرح التغريبي الإفسادي بدعوته إلى تنحية الشريعة وتحجيم الدعوة والدعاة والترويج لسفور المرأة والاختلاط وما صاحب ذلك من تحول سلبي في بعض وسائل الإعلام، وانتشار المعاصي والمنكرات، له أثر كبير في زعزعة استقرار المجتمع مما يفسد على الناس دينهم ودنياهم ويعطل مصالحهم، كما أن التغريبين يهددون وحدة المجتمع واستقراره من خلال التحريض على العنف واستفزاز بعض المتحمسين بمهاجمة تحكيم الشريعة والدعوة.

أما التكفيريون فإنهم يكفرون المجتمع، دون النظر إلى شروط التكفير وموانعه. وجعلوا الوطن دار حرب فاستهدفوا رجال الأمن والمفاصل الاقتصادية والمواقع الإستراتيجية لشبهه وحجج قامت في عقولهم جعلتهم يسترخسون الأرواح ويستبيحون الأموال، دون أن يلتفتوا لتحذير أهل العلم والفقهاء من ذلك، ولو أن أحدهم سئل عن حكم شرعي جزئي لنصح السائل بسؤال أهل العلم الموثوقين في دينهم المعروفين بعلمهم وأمانتهم!

وهذا اضطراب عجيب؛! تساهل في الدماء والأرواح، مقابل تحرر ودقة زائدة في المسائل الفرعية الجزئية. قال النبي ﷺ فيهم وفي أمثالهم: «سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان

(١) أحمد (٣/ ٤٠٣ - ٤٠٤)، وقال الألباني في تعليقه على كتاب (السنن) (٢/ ٥٠٧، ٥٠٨، ١٠٩٦): إسناده صحيح.

سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»^(١).

- كلا الفريقين لا ولاء حقيقي له. فلا ولاء لولادة الأمر ولا ولاء للوطن، بل الولاء لجهات خارجية تستخدمهم من حيث شعروا أم لم يشعروا، فهم أدوات لهدم الدار فوق رؤوسهم ورؤوس إخوانهم من المسلمين .

- وكلا الفريقين ينفر الناس من التدين. فالتغريبون يهاجمون الملتزمين والمتدينين بحجة أنهم متزمتون لا يواكبون روح العصر ولا يسايرون ركب الحضارة، وأن الدين هو سبب التخلف.

ويأتي التكفيريون بأفعالهم الدموية لينفروا الناس أيضاً بالإيحاء أن الدين لا يعرف لغة سوى القتل والتفجير .

ولقد تم ترتيب هذه المسؤوليات كالتالي:

١- مسؤولية التربية الإيمانية ومطالبها: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، البعث، الحساب، الجنة والنار، وأركان الإسلام، ومبادئ الشريعة الإسلامية، وتقع مسؤوليتها على دروس التربية الإسلامية في المدارس والمساجد.

٢- مسؤولية التربية الخلقية ومطالبها: تخليق الأولاد منذ الصغر على الصدق، الأمانة، الاستقامة، الإيثار، احترام الكبير، احترام الجار، وغيرها من القيم الإسلامية السامية، وتنزيه الألسن عن السباب ومحاربة ظواهر الكذب، السرقة، الميوعة والانحلال.

٣- مسؤولية التربية الجسمية ومطالبها: أن ينفق الآباء على أولادهم وأن يتبعوا القواعد الصحية في الأكل والمشرب والنوم، ومعالجة المرض بالتداوي، وألعاب الفروسية، وممارسة الرياضة، تعويدهم على حيادة الجد والرجولة، ومحاربة ظواهر التدخين والمسكرات، المخدرات، الزنا واللواط، وتقع مسؤوليتها على الأسرة والمدرسة والمسجد ووسائل الإعلام من صحف ومجلات وتلفزيون.

٤- مسؤولية التربية العقلية ومطالبها: تعليم العلوم الدينية والشرعية والحياتية، والعلوم العقلية كالحساب والتاريخ والكيمياء والفيزياء، تحديث المدارس لتشمل مرافق تخدم هذه العلوم.

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، ٢ / ٧٤٦ رقمه (١٠٦٦) . تحقيق الألباني: حسن صحيح، ابن ماجه (١٦٨).

٥- مسؤولية التربية النفسية ومطالبها: تنمية القيم الإيجابية التي تساعد على خلق المواطن الصالح مثل الجرأة، الصراحة، الشجاعة، حب الخير للآخرين، الانضباط عند الغضب، تحرير الأولاد من مظاهر الخجل، الخوف، الشعور بالنقص وظاهرة الحسد.. إلخ.

٦- مسؤولية التربية المهنية ومطالبها: التوسع في إنشاء المدارس المهنية مثل الزراعية، التجارية، الصناعية والتكنولوجية لمواجهة تحديات العصر وحاجات المجتمع، كذلك إجراء اختبارات القدرات والمهارات والاستعدادات والميول، وقد أصبح للتوجيه الفني والمهني أسسه وقواعده كعلم مستقل يلبي مطالب الفرد وحاجات المجتمع ويوجهها الوجهة الصحيحة.

مهما يكن من أمر، ومهما يكن من اختلاف بين المذاهب التربوية فهناك حقيقة أن الإسلام وحده هو القوة المنسقة والمقربة بين أفكار المربين الإسلاميين، وأن الإسلام وحده هو المسئول عن التشابه العظيم الذي كاد أن يكون تطابقاً في الأهداف التي توخوها وفي طرق التعلم التي مارسوها.

وعلينا أن نكون حذرين من أولئك الذين يحملون معاول الهدم، ويضربون بها أسس حضارتنا تحت شعارات مكافحة الأصولية والعنصرية، بل وما يدعون إنه إرهاباً، ويمارسون أبشع ألوان العنصرية والاضطهاد باسم الديمقراطية والعولمة وحقوق المرأة التي أعطتها الإسلام أكثر بكثير مما يدعون أنهم أعطوه لها.

الخوف كل الخوف من أولئك المتنطعين الذين يتغنون بالحضارة الغربية ورموزها، ولا يرون إلا حضارة البعد عن القيم والمشاعر. وإن سألت من هؤلاء؟ نقول: قال رسول الله ﷺ ((هم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. فقالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك))^(١) وأنت على هذا العمل، معرض عن كل ما يفسد عليك دينك الذي هو رأس مالك، صابر على تلك المعاطب والمهالك.

(١) البخاري- باب الفتح (ج ٦ - ص ٣٦٠٦) واللفظ له. ومسلم (١٨٤٧).

قول النووي في شرح هذا الحديث "دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها فذفوه فيها": قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال آخر، كالخوارج والقرامطة وأصحاب المحنة، وفي الحديث هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي" (١).

- فالتربية الإسلامية عملية إعداد للإنسان بتثقيفه ورعايته وإصلاح شأنه وتعهده.

- يجب مراعاة التدرج والتكرار في التدريس، لا بد من دراسة نفسية الأطفال ومعرفة

درجة استعدادهم. "ابن خلدون"

- يجب مراعاة الفروق الفردية بين الأفراد في التعليم ومسايرة ميول الصبي وتوجيهه

إلى الصناعة أو المهنة التي تتفق مع ميوله. "ابن سينا"

- التعليم للجميع البنين والبنات، لأن المؤمنين والمؤمنات مكلفون جميعاً حسب نص

القرآن. "القاسبي"

- العدل بين الصبيان وعدم التمييز بينهم الفقير والغني، الأمير والأجير في قاعات

الدروس. "ابن سحنون"

- لا يكتسب المتعلم شيئاً لا يفهمه، مطالعة ساعة خير من تكرار شهر. "الطوسي"

- لقد كان دين محمد موضع تقدير سام، لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة، وأنه الدين

الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة، أرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الإنسانية،

وأن رجلاً على شاكلته لو تولى زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله (٢).

(١) شرح مسلم النووي (١٢/٢٣٧).

(٢) المصدر: مجلة الوعي - العدد ٥١٩.

المطلب الثالث: ضرورة التربية الفكرية للفرد المسلم:

التربية الفكرية عملية ضرورية لكل من الفرد والمجتمع معا فضرورتها للإنسان الفرد تكون للمحافظة على جنسه وتوجيه غرائزه وتنظيم عواطفه وتنمية ميوله بما يتناسب وثقافة المجتمع الذي يعيش فيه والتربية ضرورية لمواجهة الحياة ومتطلباتها وتنظيم السلوكيات العامة في المجتمع من أجل العيش بين الجماعة عيشة ملائمة .

وتظهر ضرورة التربية الفكرية للفرد بأن التراث الثقافي لا ينتقل من جيل إلى جيل بالوراثة ولكنها تكتسب نتيجة للعيش بين الجماعة وإن التربية ضرورية للطفل الصغير لكي يتعايش مع مجتمعه كما أن الحياة البشرية كثيرة التعقيد والتبدل وتحتاج إلى إضافة وتطوير وهذه العملية يقوم بها الكبار من أجل تكيف الصغار مع الحياة المحيطة وتمشيا مع متطلبات العصور على مر الأيام.

أما حاجة المجتمع للتربية الفكرية فتظهر من خلال الاحتفاظ بالتراث الثقافي ونقله إلى الأجيال الناشئة بواسطة التربية وكذلك تعزيز التراث الثقافي وذلك من خلال تنقيته من العيوب التي علفت به والتربية هنا قادرة على إصلاح هذا التراث من عيوبه القديمة وبهذا الإصلاح مع المحافظة على الأصول.

التعلم هو عملية تلقي المعرفة، والقيم والمهارات من خلال الدراسة أو الخبرات أو التعليم مما قد يؤدي إلى تغيير دائم في السلوك، تغيير قابل للقياس وانتقائي بحيث يعيد توجيه الفرد الإنساني ويعيد تشكيل بنية تفكيره العقلية .

ويري أبو حامد الغزالي " إن صناعة التعليم هي أشرف الصناعات التي يستطيع الإنسان أن يحترفها وإن الغرض من التربية هي الفضيلة والتقرب إلى الله " .

يجب أن تتصف الأهداف التربوية الفكرية ببعض الخصائص الجوهرية، وهي:

١- أن تكون الأهداف التربوية متفقة مع الطبيعة الإنسانية مراعية لحاجاتها قابلة لإطلاق قدراتها الإبداعية.

٢- أن تحدد أهداف التربية العلاقة بين الفرد والمجتمع ثم بينه وبين التراث الاجتماعي من عقائد، وقيم وعادات وتقاليد ومشكلات.

٣- أن تلبى هذه الأهداف حاجات المجتمع الحاضرة وتعالج مشكلاته.

٤- أن تكون مرنة قابلة للتغيير حسب ما يتطلبه التطور الجاري والمعارف المتجددة.

٥- أن ترشد الأهداف العاملين في التربية إلى ما يجب أن يعملوه، وأن تساعد على

تحديد الطرق اللازمة في التربية والتعليم، والأدوات اللازمة لقياس نتائج العملية التربوية وتقويمها.

٦- أن توضع هذه الأهداف نوع المعارف والمهارات، والمواقف، والاتجاهات والعادات التي يراد تنميتها في شخصية المتعلم.

٧- أن تكون هذه الأهداف شاملة متكاملة في ضوء العلاقات، التي تحدد نشأة الإنسان ومصيره وعلاقتها بالكون، والإنسان والحياة من حوله.

حاجة النظم والمؤسسات التربوية في الأقطار العربية، والإسلامية إلى أهداف تربوية فكرية إسلامية:

والسبب الذي يجعل البحث في أهداف التربية الفكرية الإسلامية أمراً هاماً هو أن هناك ضرورة ملحة إلى بلورة أهداف تربوية محددة تتصف بالأصالة والمعاصرة سواء. فما زالت النظم والمؤسسات التربوية القائمة في الأقطار العربية، والإسلامية تعاني في هذا المجال من أمرين اثنين:

الأمر الأول: إن النظم والمؤسسات التربوية التي أنشئت في هذه الأقطار على النمط الأوروبي والأمريكي ما زالت مغتربة ثقافياً وتربوياً في هاتين القارتين. وهي في هذا الاغتراب، والتقليد تحتفظ دائماً بفجوة تربوية واسعة بينها، وبين النظم التي تقلدها. وهذا أمر كامن في طبيعة التقليد نفسه إذ لا يمكن للمقلد أن يلحق بمن يقلده، أو يتساوى معه مادياً ونفسياً وعقائياً. ففي الوقت الحاضر - مثلاً- تراجع الدوائر التربوية في أمريكا وأوروبا تراث أمثال ديوي وسكندر وفرويد مراجعة جذرية شجاعة، ولكن المؤسسات التربوية في الأقطار العربية والإسلامية ما زالت تعتمد على الترجمات، التي نقلت عن هذا التراث قبل عشرين سنة أو ثلاثين أو أكثر بكثير. ولعل المثال التالي يقدم نموذجاً واضحاً للفجوة التربوية المشار إليها بين كلا النوعين من المؤسسات. ففي عام ١٩٥٨ وضع فيليب هـ. فينكس كتابه - فلسفة التربية- متأثراً بالمثالية القديمة، وفي عام ١٩٨٢ نشرت ترجمته دار النهضة العربية بالقاهرة بعد أن قدمت له بأنه عمل تربوي جديد يلبي حاجة الطلبات المتزايدة من الباحثين، والدارسين ويسد ثغرة تربوية هامة.

والإحساس بهذه الفجوة المعرفية دفع بعض الجامعات العربية إلى استعمال اللغات الأجنبية مباشرة في التدريس رغم ما في ذلك من أخطار الانصهار الثقافي، والاضطراب

الاجتماعي.

ويرتبط الأمر الثاني بالأول ارتباطا وثيقا، وهو أن المؤسسات والإدارات التربوية القائمة في الأقطار العربية، والإسلامية تلقن هذه الأهداف التربوية المستوردة تلقينا يشبه تلقين النصوص المقدسة، ويتجاهل الظروف الاجتماعية والعلمية والمرحلة الحضارية، التي صاحبت هذه الأهداف في مواطن نشأتها. وهي تهمل تحليل الدوافع التي رافقت استيراد هذه الأهداف، والنتائج التي تولدت عن هذا الاستيراد، ولا تدري شيئا عن المراجعات الجارية لهذه الأهداف عند أهلها وواضعيها.

لقد حاولت القوى الاستعمارية من خلال المدارس تدريب المستعمرين - بفتح الميم - على القيام بالأدوار، التي تناسب المستعمر - بكسر الميم. وحين انحسر الاستعمار، وتحللت ظاهرة الأمبراطوريات بعد الحرب العالمية الثانية ظلت الأنظمة التربوية في الأقطار، التي تخلصت من الاستعمار كما كانت عليه إلى حد كبير، ولم يصبها التغيير بعد الاستقلال. فالمنهاج ولغة التعليم وفي بعض الأحوال جنسية المعلمين أنفسهم، ظلت كما كانت في عهد الاستعمار. كما أن العلاقات الثقافية بين المستعمر - بكسر الميم - والمستعمر - بفتح الميم - هي من جوانب كثيرة أقوى مما كانت عليه خلال الإدارة الاستعمارية الاجتماعية لأبناء هذه الأقطار. فمع أن التعليم انتشر على أثر الاستقلال من السيطرة الاستعمارية، إلا أنه سار على نفس النمط السابق، وصارت أهدافه تركز على إيجاد متعلمين ذوي مهارات عالية لخدمة مصالح الأقطار الصناعية المتقدمة من خلال التأكيد على التدريب العلمي، والمهني في العلوم الاجتماعية وإدارة الأعمال، وبناء نظم التعليم؛ ليخدم ذلك كله أهداف الشركات الدولية في الأقطار المتقدمة، التي أرادت الأقطار النامية أسواقا لمصنوعاتها، ومصدرا للمواد الخام اللازمة لهذه الصناعات.

ويضيف - كارنوي - إن الجهود التي بذلت لتطوير التعليم في أقطار العالم الثالث لم تمنح هذه الأقطار القدرة على التحول إلى الطور الصناعي، والرأسمالي وإنما أفرزت نتائج وثمرات أهمها:

انتشار البطالة بين الخريجين - بما فيهم خريجي الجامعات - وعدم قدرتهم على ممارسة أي عمل إذا لم يتيسر لهم عملا في الأدوار التي حددها لهم التعليم الجديد.

أصبح المحور الأساسي للحياة الاجتماعية في الأقطار النامية، هو الاغتراب الثقافي. ويتمثل هذا الاغتراب في استعارة هذه الأقطار للقيم، وأنماط الحياة السائدة في الدول الصناعية

المتقدمة بدل تطوير القيم المحلية وأنماط الحياة الأصلية.

ازدواج شخصية الفرد الذي يذهب للدراسة في الأكاديميات الأوروبية والأمريكية، ازدواجية في اللغات، وازدواجية في الثقافة لا يستطيع التخلص منها طوال حياته، وتنتهي به إلى الدمار الثقافي.

تشويه شخصية الشعوب في الأقطار النامية، وإيقاؤها ضحية الاغتراب الثقافي والتمزق الاجتماعي، وإشاعة قيم المستعمرين ولغاتهم على حساب القيم المحلية واللغة المحلية، وإهمال الثقافة القومية إلا ما يدعم الأقلية الحاكمة التي تقوم بدور الوسيط بين الشعوب المحلية والأقطار الصناعية.

أفرزت نظم التعليم التي تأثرت بالدول الاستعمارية نخبة حاكمة تقوم بدور الوكلاء، والوسطاء بين هذه الدول، وبين الشعوب المحكومة من قبل هذه النخبة وتسهل التعامل بين الطرفين، وتبقى شعوبها في حالة اعتماد مستمر من الناحية الاقتصادية، والثقافية على الدول المذكورة.

والواقع أنه لا يجوز التسليم بتقارير أمثال - مارتن كارنوي- هذه حول - التربية والاستعمار الثقافي- على علاتها بحيث يفهم منها وجوب الانغلاق التربوي والثقافي. وإنما يجب تناولها بوعي وعلى أساس اعتبارها إحدى المعلومات المساعدة على كيفية التفاعل الثقافي مع الآخرين. إن شهود التيارات الثقافية من خلال الاطلاع على ثقافات العالم، ودراسة اللغات الأجنبية هو أمر لا بد منه للمشاركة في الحضارة العالمية، وحمل الرسالة ومقتضيات التنمية والتقدم.

ولكن موضع الحساسية في هذا التفاعل الثقافي يتمثل في أمور ثلاثة، هي فيمن يتم اختيارهم للقيام بهذا الشهود الثقافي، وفي أي مرحلة من العمر يوجهون للقيام بهذه الوظيفة، وفي أي مكان يتم إعدادهم للقيام بهذا الشهود.

أما عن الأمر الأول وهو اصطفاء الذين يوجهون لشهود ما يجري في العالم في ميادين الفكر التربوية والعلم، فلا بد أن يجري هذا الاختيار طبقاً لمقاييس علمية دقيقة تقيس الذكاء والقدرات العالية، وأن يتم الاختيار من أولئك الذين لهم إحساس عميق بما يجري في العالم، ولهم انتماء قوي، وشغف بالبحث والاطلاع، ولهم قدرة قوية على هضم ما يشهدهونه وعلى تحليله وتقويمه، وكيفية التعامل معه والاستفادة منه. ولا بد - بعد أن يجري إعدادهم- أن يهيأ

لهم مؤسسات العمل الجماعي، وفرص التواصل مع من لهم علاقة.

ولكن الذي حدث - وما زال يحدث- هو إرسال عناصر لا قدرات عالية لديها، وإنما يجري اختيارهم - أو الأغلبية الساحقة منهم- طبقاً لمقاييس ذاتية من الانتماءات المحلية، والعائلية، والعلاقات الشخصية. وحين يذهبون هناك يعجزون عن القيام بما يتطلبه البحث والدراسة، ويفشلون في هضم الظواهر العلمية، والاجتماعية الجارية حولهم، ولذلك فإما أن ينغمسوا في أماكن اللهو والمتعة، والتسوق ثم يعودون بهالة زائفة من التعالم والغرور الثقافي، والتباهي بالألقاب العلمية وإشاعة الاغتراب الثقافي، والاجتماعي كما أشار إليه - مارتن كارنوي، وإما - إن كانوا من العناصر التي تم إقفالها مسبقاً بعوامل التعصب والجمود- أن لا يشهدوا من الغرب إلا العينات التي ترسبت من المؤسسات العلمية، والاجتماعية إلى أماكن نفيات المجتمع من البارات، وأماكن الانحراف بعد أن استنفذت قدراتها، ثم يعودون ليصوروا المجتمعات الغربية كسمتودعات للانهيارات الأخلاقية، والأزمات الاجتماعية، والأمراض النفسية والعقلية، وليمنوا شعوبهم بقرب انهيار الحضارة الغربية القائمة كمقدمة للتخلص من النفوذ الغربي.

وأما عن الأمر الثاني وهو العمر الذي يتم خلاله إعداد من يجري اختيارهم لشهود التيارات العالمية في ميادين التربية والعلم والثقافة، فلعل المناسب أن يكون ذلك في مرحلة ما بعد الخامسة والعشرين أو الثلاثين، أي في مرحلة الدراسات العليا، وبعد أن تظهر على الدارس شارات النضج الفكري والاجتماعي والقدرة على التفاعل مع الثقافات الأخرى باستقلال وانفتاح.

وأما عن الأمر الثالث وهو المكان الذي يجري فيه عملية الإعداد، فلا بد أن يكون - أساساً- في البلد الأصلي الذي ينتمي إليه الدارس لا خارجه شريطة أن يصحب ذلك فترات من السير في الأرض لينظر كيف بدأ خلق الظواهر الحضارية التي يقوم بدراستها والتخصص بها.

إن الأمة الواعية تستطيع استيراد الخبراء والخبرات من خارج وتدفع لها الثمن مهما غلا، ثم تهضمها داخل إطارها الثقافي والاجتماعي بدل أن تقذف بأبنائها بسن مبكرة جدا ليتم هضمهم في معاهد التربية الأجنبية داخل الأطارات الثقافية والاجتماعية هناك.

ولو أننا نظرنا في خارطة الثقافة والتربوية للكرة الأرضية، لوجدنا أن كل أمة تتولى تربية أبنائها، وإعدادهم علمياً داخل إطارها الثقافي والاجتماعي، وتستورد لهم كل ما يجري من

نشاطات ثقافية وعلمية، حتى إذا نضجوا واشتدت أعوادهم لم تخش عليهم أن يتفاعلوا مع الآخرين في كل مكان على الأرض.

ولكن العالم الثالث - ومنه الأقطار العربية والإسلامية - هو وحده الذي يقذف بأبنائه، أو يسمح بنهبهم تحت ستار المساعدات الثقافية، ليجري تشكيل شخصياتهم في بيئات غريبة بعيدة، وليعانوا فيما بعد من الاغتراب الثقافي والاجتماعي!!

ويلحق بهذه الملاحظات أن الأمة يجب أن تتولى تخطيط نظم التربية فيها، وتحديد فلسفتها وأهدافها، لا أن تتركها إلى أقلية من البيروقراطية التربوية التي تتلاعب بتشكيل أجيال الأمة طبقاً للأهواء الحزبية، والمصالح الشخصية والولاءات الثقافية المغترفة المضطربة. ولعله من المفيد أن نلاحظ أنه لم يكن في الولايات المتحدة الأميركية وزارة للتربية، والتعليم إلا في السنوات الأخيرة حيث ينحصر عملها تقريبا في رعاية التكنولوجيا والعلم أمام ضغط التنافس الدولي في هذا الميدان.

أما الجانب الاجتماعي والإنساني، فإن الأميركيين أنفسهم يخططون لمستقبل أجيالهم من خلال مجالس التربية، ومؤسساتها المنتخبة في الولايات المختلفة، والتي تتولى الإشراف المباشر على تنفيذ البرامج ومراقبة البيروقراطية التربوية خطوة بخطوة.

وأما عن الأمر الثاني الذي يبرز الحاجة إلى أهداف تربوية محددة للنظم والمؤسسات التربوية في الأقطار العربية والإسلامية، فهو إن النظم والمؤسسات التربوية التي انحدرت عن الطراز الإسلامي القديم ما زالت غائبة كلية عن مفهوم الأهداف التربوية، وعن علاقته بالعمل التربوي، ومناهجه، وتطبيقاته، ونتائجه. وكل ما في الأمر أن لديها -هدفاً واحداً- غير مكتوب يكمن في منطقة الشعور ولما يصعد إلى منطقة الوعي ليناقد ويحلل. وخلاصة هذا الهدف أن وظيفة التربية هي نقل تراث الآباء إلى الأبناء دونما تطوير، أو تبديل أو مراعاة لحاجات المستقبل الذي سيعيشونه، أو الحاجات المتجددة والظروف المتطورة، يصدق عليهم قوله تعالى:

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (١).

بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على طريقة ومذهب ودين، وإنا على آثار آباءنا فيما كانوا عليه متبعون لهم، ومقتدون بهم (٢).

وبسبب هذا المفهوم ظلت موضوعات الدراسة المقدمة للناشئة تقتصر في محتوياتها

(١) سورة الزخرف: ٢٢

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٩٠).

على "فقه" القدماء دون تمييز بين حاجات هؤلاء القدماء، وبين حاجات الناشئة المعاصرين، ودون مقارنة بين المشكلات التي واجهها القدماء والمجتمعات التي عاشوا فيها، وبين المشكلات التي يواجهها الناشئة المعاصرون والمجتمعات التي يعيشون بها، وهي لا تدرس باعتبارها منجزات تاريخية شككت الماضي ولها أثرها في الحاضر، وإنما باعتبارها معجزات حضارية لبث حاجات الماضين وما زالت تلبي حاجات المعاصرين، وتوفر لهم عوامل التفوق والغلبة والتميز على الآخرين من معاصريهم في الأمم الأخرى.

ولا شك أن تخلف المفاهيم التربوية في المعاهد، والمؤسسات الإسلامية وغياب مفاهيم الأهداف والمناهج، وغيرها من تنظيماتها وأنشطتها، هما المسئولان عن استمرار الازدواجية في نظم التربية القائمة، وعن استمرار النتائج السلبية.

المطلب الرابع: أسس المنهج التربوي الفكري الذي ينبغي أن تتبناه المؤسسات العلمية في نشر الفكر:

المنهج التربوي هو الطريق الذي سلكه القرآن بالمسلم إلى إتباع مبادئه والتمسك بأحكامه، وأما المبادئ التربوية في تلك الأحكام والنظم والقيم التي أرساها ودعا إليها، مما يقوم على تهذيب الفرد وترقيته في الخلق والسلوك، كأحكام الحلال الحرام والقيم الأخلاقية المختلفة التي دعا إليها القرآن.

فعندما نقول: " المنهج التربوي الفكري " إنما نعني الأسلوب والطريقة ومظاهر الافتتان فيهما، ولا نعني شيئاً من هذه القيم أو الأحكام بحال.

ثم إننا نقصد المنهج التربوي الفكري الذي تمتاز به صياغة القرآن خاصة، لا الذي يتسم به الإسلام عموماً. إذ الإسلام — من حيث هو دين — يعتبر في مجموعة منهاجاً تربوياً فكرياً للذات الإنسانية، المتمثلة في كل من النفس والجسد والعقل، لتصعيدها إلى مستواها الفطر الأصيل.

ثم إن المنهج القرآني الذي هو موضوع حديثنا في هذه الرسالة، يتفرع إلى شعب وفروع وأقسام جزئية كثيرة، يطول بنا الشرح لو دخلنا في تفصيلها وتحليل كل منها، وإنما نأخذ بالاعتبار أسسه ودعائمه الكلية الكبرى، وندرس كلا منها دراسة وافية، تكشف عن مدى أهميتها في نطاق التربية العامة، وعن مدى حاجة المربين في شتى ميادين التربية للاهتمام بها والاعتماد عليها.

وسيقودنا التنبه إلى هذه الأسس الهامة، إلى متابعة الدراسة والبحث، ثم إلى استخلاص قيم منهجية جديدة رائعة فيه، كان ينبغي لعلماء التربية أن يتنبهوا إليها، منذ أن نالت ما نالته من الأهمية على صعيد التربية والتعليم بشتى أنواعهما ومراحلهما.

فهذا هو الذي نقصده بدراسة " المنهج التربوي في القرآن " في هذه العجالة الصغيرة. وبناء على ذلك، فإن الأسس التي يقوم عليها المنهج القرآني في التربية لا يتجاوز الأسس الثلاثة التالية:

(١) المحاكمة العقلية .

(٢) العبرة والتاريخ .

(٣) الإثارة الوجدانية .

وحيث أن المهم في بحثنا هذا هو الفكر والعقل فإننا سنقتصر في الحديث على المحاكمات العقلية دون التعرض للأساسين الآخرين في المنهج التربوي القرآني .
فجميع ما قد نراه في القرآن من الأساليب التربوية – على اختلافها – إنما ينبثق عن واحد من هذه الأسس الثلاثة، ويدور على محوره، ويسير وفق مقتضياته، وهي أسس منفصلة عن بعضها، ولكنها تشكل في مجموعها السلم الذي لا بد منه لترقية النفس والعقل صعوداً إلى المستوى العلوي الكريم الذي تظل الفطر الإنسانية الأصيلة نزاعة إليه .
فالعقل وحده لا يكتسب ثقة النفس ما لم يدعمه شاهد من الواقع الذي يصدقه وذلك هو التاريخ بأحداثه وعبره . وهو حتى بعد أن ينال من النفس هذه الثقة لا يستحوذ عليها بالقيادة والتوجيه، ما لم يجند له جيش من العواطف والأشواق، وتلك هي الإثارة الوجدانية
فإذا تضافرت هذه العوامل الثلاثة في ذات الإنسان، واتجهت به إلى سبيل ما، لم يقم أمامها أي عائق، ولم يحجزها عن الوصول إلى الغاية أي حاجز .
وما تخلف إنسان عن الاصطباغ بحقيقة ما وحيل دون التشبث التام بها، إلا لأن بعض هذه العوامل لم يعمل عمله المطلوب في خدمة هذه الحقيقة والكشف عنها وتيسير السبيل إليها .
فلننظر إذا، كيف يسخر القرآن كلا من هذه الأسس أو العوامل الثلاثة في سبيل تربية الإنسان وسوقه في طريق السعادة والرشاد .

المحاكمة العقلية:

تتألف بنية " المحاكمة العقلية " في القرآن، من ثلاثة جوانب :

الأول: تعريف الإنسان بذاته .

الثاني: اختيار أسلوب صالح لمدارك جميع الناس .

الثالث: الاعتماد على المناقشة والحوار .

فلنحلل كلا من هذه الجوانب الثلاثة على حدة .

الجانب الأول: تعريف الإنسان بذاته قبل كل شيء . فقد بدأ القرآن خطابه إلى الناس

بتوجيههم إلى النظر والتأمل نشأته وتكاثره .

تجد ذلك واضحاً في أول الآيات القرآنية نزولاً، كما تجده في أولى صفحات القرآن

كتابة وترتيباً . فقد كانت أولى الآيات القرآنية نزولاً، تعريفاً بالإنسان وجوهره، وهي قوله

تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١)
(٢) فأنت ترى أن الله عز وجل لم ينبه الإنسان إلى ربوبية الله وحدانيته إلا من حيث أرشده إلى ذاته وأصل تكوينه ونشأته.

وكانت الصفحات الأولى من سورة البقرة – وهي أول القرآن ترتيباً في بعض المصاحف – تعريفاً بأصناف الإنسان في هذه الحياة الدنيا، من مؤمنين وجاحدين ومنافقين، ثم تنبيهاً إلى قصة نشأته، وتكاثره، ومصيره، ثم أنه يكرر التنبيه إلى هذه القصة، كلما دعت الحاجة، أي كلما اقتضى الأمر تنبيهه إلى شيء من دلائل الكون أو وقائع الأمم، برهاناً على وجود الخالق عز وجل، وعلى وحدانيته، وعلى اليوم الآخر وما يتعلق به من أمور وأحداث .
ولهذه البداء التمهيدية أهمية تربوية كبرى. ذلك لأن جميع المعارف التي يكتسبها الإنسان إنما هي فرع لمعرفة سابقة، هي معرفته لذاته، وبدون أن تتوفر هذه المعرفة الأولى لا يمكن أن يحرز الإنسان أي ميزان سليم للمعارف الفرعية الأخرى، فلولا إيمانك بالقلب ووظيفته، ما آمنت بشيء من مقولاته وأحكامه، ولولا معرفتك لتركيبك النفسي والجسمي، لما عرفت شيئاً من حقائق الكون التي تطرف من حولك، ولما أدركت أي علاقة مما بينك وبينها. وهكذا .. فبمقدار ما تكون معرفتك لذاتك دقيقة وسليمة، فان معرفتك لحقائق الكون ووظائفه تكون دقيقة وسليمة.

وبالمقابل، فان الذي لم يتوفر بعد على معرفة دقيقة لذاته وحدود إمكاناته، لا يمكنه أن يتوفر على معرفة إلهوية الله له، ولا على عقيدة صحيحة عن قصة هذا الكون ومجراه ونهايته، ذلك لأن ثقة الباحث بنفسه وذاته تعتبر ينبوع ثقته وإيمانه بما تقدم له هذه الذات من نظريات وأحكام. فإذا فقد الباحث هذه الثقة بنفسه وعقله، أو كانت على وجه خادع غير سليم، فقد الثقة أيضاً بكل ما قد توحى إليه به نفسه من معارف ومعلومات، أو تقبلها مغلوطة خادعة لا تعتمد على أساس صادق وسليم.

وانظر!! فانه ما جحد الجاحدون بالله، ولا أقاموا لأنفسهم عروش الربوبية الزائفة في الأرض، إلا لأن أعينهم ظلت تزيغ فيما حولهم، دون أن تصحو ساعة واحدة للتأمل والنظر — بصدق — في أنفسهم.

(١) سورة العلق: ١-٥

(٢) سبق تفسيرها.

فمن أجل هذه الحقيقة ومدى أهميتها، يبدأ القرآن في محاكمته العقلية للمنكرين بلفت أنظارهم إلى أنفسهم وإلى قصة وجودهم، حتى إذا استرعى أذهانهم ذلك، أخذ يحدثهم عن وجود الله ووحدانيته وعبودية الإنسان له.

تأمل هذه الظاهرة في الآيات التالية:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (١) تنبيهه

للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البداية فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ المنى؛ يخرج دفقا من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يعني: صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها. إنه على رجوع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة (٢).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْتَقَدُّ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَدَّبُ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (٣) يا أيها الناس إن كنتم في شك من أن الله يحيي الموتى فإننا خلقنا أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة، هي المنى يقذفه الرجل في رحم المرأة، فيتحول بقدرة الله إلى علقة، وهي الدم الأحمر الغليظ، ثم إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ، فتكون تارة مخلقة، أي تامة الخلق تنتهي إلى خروج الجنين حياً، وغير تامة الخلق تارة أخرى، فتسقط لغير تمام؛ لنبيين لكم تمام قدرتنا بتصريف أطوار الخلق، ونبقي في الأرحام ما نشاء، وهو المخلوق إلى وقت ولادته، وتكتمل الأطوار بولادة الأجنة أطفالاً صغاراً تكبر حتى تبلغ الأشد، وهو وقت الشباب والقوة واكتمال العقل، وبعض الأطفال قد يموت قبل ذلك، وبعضهم يكبر حتى يبلغ سن الهرم وضعف العقل؛ فلا يعلم هذا المعمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك. وترى الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات تتفتح عنه، وارتفعت وزادت

(١) سورة الطارق: ٤-٧

(٢) تفسير القرآن العظيم (ج ٨ - ص ٣٧٦).

(٣) سورة الحج: ٥

لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يسر الناظرين^(١). فأنت إذا تأملت هذه الآيات وأمثالها، وجدتها تأتي في معرض التنبيه إلى حقيقة هذا الكون، وانسياقه في خضوع ونظام لتدبير آله واحد يعنو له العام كله بالدينونة والخضوع. فهي تأتي تمهيداً بين يدي كشف هذه الحقيقة أمام العقل الإنساني. وأنت إذا تأملت، وجدت أن القرآن لا يحفل بتحليل شيء من مظاهر الكون بتفصيل ودقة واهتمام، ولا يتحدث بأساليب مختلفة عن نشأته وكيفية تطوره كما يفعل ذلك عند حديثه عن الإنسان.

وحكمة ذلك أن تعريف الإنسان بحقيقته وأصل نشأته، هو السبيل التربوي الذي لا بديل عنه، لإقناع عقله بالحقيقة التي تركز عليها نشأة هذا الوجود من حيث هو. الجانب الثاني: اختيار أسلوب صالح لجميع الناس على اختلاف بيئاتهم وثقافتهم وأزمانهم. فليس من سبيل لشد الناس إلى المبدأ المطلوب، إذا كان أسلوب الدعوة والتعليم صالحاً لفئة منهم دون أخرى.

وانه لأشق شرط من شرائط المنهج التربوي الذي يراد سلوكه مع جمهرة مختلطة من الناس، وما يخفق أكثر الدعاة – من ناحية المنهج والأسلوب – إلا لعدم سيطرتهم على طريقة من القول والبيان تأتي على قدر إفهام جميع السامعين أو المتعلمين. ولذلك فقد تمثل في هذا الجانب أعظم مظهر من مظاهر القرن!.. إذ جاءت صياغة هذا الكتاب العجيب على قدر الطاقة الإدراكية، لدى كل طائفة منهم، دون أن يتسبب عن ذلك أي خلل في الإفهام ولا أي تضارب بين المفاهيم.

ولسنا نعني بهذا أنهم جميعاً يستطيعون – إذا أرادوا – فهمه بدون تبصير ولا تعليم، بل القدر المشترك من معرفة القواعد اللغوية والأساليب العربية شيء لا بد منه، ولكن الناس جميعاً يتساوون في فهم ما يفيدهم من القرآن على اختلاف ثقافتهم، بعد اجتياز هذا القدر المشترك الذي لا بد منه من المعرفة والتعلم، انظر إلى قوله تعالى، وهو يلفت أنظار الناس إلى روع الإبداع الإلهي في خلق الكون وتنظيمه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسٍ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً قُرَاتًا﴾^(٢) أي تك فت الناس أحياء على ظهرها، وأمواتاً في بطنها. والكفت: الجمع والضم،

(١) التفسير الميسر (ج ١ – ص ٣٣٢).

(٢) سورة المرسلات: ٢٥-٢٧.

﴿رُؤسِي شَمِخْتِ وَأَسْفَيْنَا مَاءَ فُرَاتًا﴾ جبلاً ثوابت، طوالاً شواهاق ﴿مَاءَ فُرَاتًا﴾ عذباً. يقال: فرت الماء؛ إذا عذب (١).

وتأمل في بكلمة ﴿كفأتا﴾ التي هي بمعنى الجذب والضم، وعليه قول الشاعر:

كرام حين تنكفت الأفاعي *** إلى أحجارهن من الصقيع

لقد جاء وصف الأرض بهذه الكلمة على قدر ما يمكن أن يفهمه الأعرابي في البادية. فقد أدرك منها أن الأرض له كالوعاء تحفظ ما فيها وتحميها وتحرسها، وهو إدراك صحيح، فان الأرض كذلك، ثم جاء هذا الوصف ذاته على قد فهم المختصين المتعمقين في دراسات الأرض والأفلاك، حتى فهم من ذلك ثابت بن قره (٢٢١ - ٢٢٨) أن الإنسان إنما يستقر على الأرض بقوة خفية تجذبه إليها وإلا لما أمكنه الاستقرار من فوقها، وهو نفس القوة التي تسمى اليوم بالجاذبية. وليس من كلمة تستوعب سلم هذه المعاني التي تبدأ بفهم الإعرابي في البادية، وتنتهي بما يفهمه علماء هذا العصر، كما تستوعبه كلمة "كفأتا"!!..

وانظر إلى قوله تعالى وهو يلفت النظر إلى جانب آخر من صفة الأرض أيضاً:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾ (٢) بسطها وكانت مخلوقة قبل السماء من غير

دحو ﴿أَخْرَجَ﴾ حال بإضمار قد أي مخرجا ﴿مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير عيونها ﴿وَمَرْعَهَا﴾ ما ترعاه النعم

من الشجر والعشب وما يأكله الناس من الأقوات والثمار وإطلاق المرعى عليه استعارة (٣).

فان كلمة "دحاها" تأتي في العربية بمعنى بسط، وبمعنى عظم، وبمعنى دور أو كور، كما نص على ذلك في شرح القاموس المحيط. وكلها معان صادقة منطبقة على الأرض، فهي منبسطة وعظيمة ومكورة، فأما الإعرابي الذي يعيش في البادية فيفهم منها الأول والثاني، وأما الفلكي المتعمق فيفهم منها المعاني الثلاثة، وليس بينها أي تضارب كما هو واضح.

وانظر إلى قوله عز وجل وهو يصف الشمس والقمر بأبرز يختص به كل منهما:

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سُرُبًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٤) وهي الشمس المنيرة، التي هي

كالسراج في الوجود ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي: مضيئاً مشرقاً بنور آخر ونوع وفن آخر، غير نور

(١) أوضح التفاسير (ج ١ - ص ٧٢٧).

(٢) سورة النازعات: ٣١.

(٣) تفسير الجلالين (ج ١ - ص ٧٩٠).

(٤) سورة الفرقان: ٦١.

الشمس (١).

والى قوله أيضاً فيهما: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (٢) يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبهها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرا، ثم يتزايد نوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر (٣).

والى قوله أيضاً في الموضوع نفسه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (٤) أي: فاوت بينهما في الاستتارة فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى ينتهى ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام (٥). فأنت ترى أنه وصف الشمس في الآيات الثلاث بكونها سراجاً أو ضياءً، والقمر بكونه نوراً أو منيراً وهو وصف دقيق ينطوي على معانٍ مختلفة تتوزع على أصناف الناس حسب ثقافتهم، ومدى إمكان الفهم لديهم، وهي جميعها معانٍ ثابتة لكل منهما. فأما الأعراب من الناس فيفهمون من هذين الوصفين أوسع قدر مشترك بينهما وهو الضياء المطلق. إذ السراج والنور يلتقيان على هذا المعنى المشترك العام. وأما عامة المتقفين من الناس فيدركون من هذين الوصفين – بالإضافة المعنى المشترك بينهما – أن الشمس تنفث مع الضياء حرارة أيضاً، وأن القمر يعطي ضياء لا حرارة فيه. إذ الشيء لا يطلق عليه اسم السراج إلا إذا كان يشع بالحرارة.

وأما علماء الفلك أو عامة المدركين لطبيعة كل من الشمس والقمر، فيفهمون من هذين الوصفين – إذا كانوا على علم باللغة العربية وفقها – أن الآية ناطقة بأن ضياء الشمس يسطع من داخلها وضياء القمر ينعكس إليه من جرم آخر مقابل له. لأن ذلك هو الفرق اللغوي الدقيق

(١) تفسير القرآن العظيم (ج ٦ – ص ١٢١).

(٢) سورة يونس: ٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم (ج ٤ – ص ٢٤٨).

(٤) سورة نوح: ١٥-١٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم (ج ٨ – ص ٢٣٣).

بين الكلمتين. فأنت تصف الغرفة بأنها منيرة أو مضيئة ولا تصفها بأنها سراج، إذ أن ضياء الغرفة إنما ينعكس إليها من المصباح المضيء في داخلها، والسراج إنما ينبثق ضياؤه من داخله .

وقد قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ بعد أن بين وصف كل من الشمس والقمر: وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها).

والشواهد على هذا الجانب التربوي العجيب في كتاب الله تعالى كثيرة جداً، ومن المفيد أن نسوق عليه مزيداً من الأمثلة، لو لا أنه يخرجنا عن نطاق الموضوع الذي التزمنا الانضباط به وعلى كل فحسبك أن تعلم بأن القرآن إذ يحاكم العقول إلى حقائق الكون أو وقائع الأمور فإنما يختار أسلوباً وصياغة وألفاظاً تتفق مع قدرات هذه العقول وإمكاناتها في الإحاطة والفهم، دون أن ينشأ عن ذلك أي تضارب في المفهوم أو المعاني المختلفة.

ومن مقتضيات هذه الحكمة التربوية، أن الصياغة القرآنية جاءت – فيما يتعلق بالمعلومات الكونية – بعيدة عن التعبيرات العلمية الضيقة، إذ لولا ذلك لكان خطاب القرآن غير صالح إلا لفئة قليلة من الناس .

ومن مقتضياتها أيضاً أن الصياغة القرآنية جاءت في هذه الأبحاث ذاتها مثيرة للنظر والبحث، أكثر من أن تلزم الناس بالإيمان بها بمجرد اخباراته الغيبية عنها، إذ لو قامت صياغتها على هذا الإلزام، لكان مقتضاه وجوب التصديق بهذه القضايا العلمية، طبقاً لما أخبر به القرآن، أي دون الاعتماد في شيء من ذلك على وسائل التجربة والمشاهدة التي هي الوسائل الطبيعية الأصلية للوصول إلى حقائق علمية عن الكون، وقد كرم الله لعقل البشري عن ذلك.

ولذلك تراه يقول: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها، وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده، المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام^(٢).

(١) سورة يونس: ١٠١

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ – ص ٣٧٤).

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١) أي أفلا تنظرون نظر من يعتبر في اختلاف الألسنة والألوان، والتفاوت في العقول والأفهام، واختلاف الأعضاء، وتعدد وظائف كل منها على وجه يحار فيه اللب، ويدهش منه العقل (٢).

وعندما تزداد الآيات القرآنية قرباً إلى البحث في حقائق العلوم ودقائق الكون، لا تزيد على أن تقرر مبدأ التناسق ودقة النظام والتدبير في أجزائه وتكوينها، أو أن تصف منها المظاهر السطحية البارزة التي تخضع لإحدى حواس النظر أو السمع أو اللمس، أو أن تربط بينها وبين أسباب حياة الإنسان وتوضح مدى أهميتها لاستجابة حاجاته ومدى تطابقها لطبيعة حياته .

فهو يقول مثلاً: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣) أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحد إلا الله، فخرائنها بيده يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة، ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ﴾ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره، ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ فلا يزيد على ما قدره الله ولا ينقص منه (٤).

أما أن تتجاوز الآيات ذلك كله إلى التحليل العلمي للأشياء وبيان كيفية تركيبها وتآلف أجزائها، فذلك ما لا تعثر عليه في كتاب الله تعالى، إلا أن يأتي شيء من ذلك في سياق بحث تاريخي يراد به بيان أحداث وقعت وبين كيفية وقوعها.

والحكمة التربوية من ذلك أن لا يحمل العقل حملاً على أن يستيقن حقائق علمية تتعلق بأمر حسية، عن طريق اخبارات غيبية، ودون الاعتماد على منهاج النظر والحس أو التجربة والمشاهدة. إذ هو – جل جلاله – لو شرح لك معنى قوله (مد الأرض) أو (يغشي الليل والنهار) شرحاً علمياً دقيقاً، لألزمك الاعتقاد بضمون ذلك الشرح، غيبياً، قبل أن تكشفه بوسائل بحثك ونظرك. وقد كرم الله جل جلاله العقل الإنساني – كما قلنا – عن مثل هذه الالتزامات الغيبية، في أمور تتوافر إليها سبل النظر والحس.

وأنت تعلم أن من أعظم الأخطاء التربوية، أن يكون أمام تلميذك سبيل طبيعي مباشر

(١) سورة الذاريات: ٢١

(٢) تفسير المراغي (ج ٢٦ – ص ١٨٠).

(٣) سورة الحجر: ٢١

(٤) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ج ١ – ص ٤٣٠).

إلى لمس الحقيقة العلمية بجهد الحسي، ثم تثنيه عنها بما تفرض عليه من الفهم من مركز السيطرة والإجبار.

وليس لك أن تقول: فلماذا أخبرنا الله بدقة عن كثير من الغيبات التي لم نرها ولم نحس بها كالملائكة الجان وصفاتهم والجنة والنار وأحوالهما، حتى اقتضانا ذلك أن نؤمن بذلك كله طبقاً لما أخبر، ودون الاعتماد في شيء منه على مداركنا وإحساساتنا؟ أجل .. ليس ذلك أن تقول هذا، لأن هذه الأمور التي أخبر عنها ووصفها على وجه الدقة، لا دخل لها بالقضايا المحسوسة الواقعة تحت مجهر التجربة والمشاهدة. فليس لك من سبيل إلى العلم بها إلا سبيل الإخبار القطعي ممن لا خلف ولا كذب في إخباره. ولو أنه جل جلاله لفت نظرك إلى البحث في الملائكة ودفعك إلى إدراك حقيقتهم، لما أوصلك النظر والفكر إلى شيء مهما طال بك النظر والبحث، لأنك لا تملك من وسائل إحساسك ومشاهدتك ما يوصلك إلى أي علم عنهم، فكان لا بد من الاعتماد فيه على الخبر الصادق المجرد.

الجانب الثالث: الاعتماد على المناقشة والحوار، وللقرآن في ذلك أسلوب رائع عجيب، فهو إذ يناقش ويحاو، يثير النظر إلى الأدلة ويعرض لها ويدع ثمارها ونتائجها مكشوفة في تضاعيف الكلام، دون أي نص على هذه النتائج، بل يترك الربط والاستنتاج للسامع المتأمل!..وتلك هي فائدة الأسلوب الحوارى القائم على السؤال والنقاش، فالغرض منه سوق التلميذ في الطريق العلمي المطلوب بالسرعة ذاتها التي يسير بها المربي أو المعلم. إذ أن من أخطر آفات السرد والإلقاء المجرد، أن يسير المعلم في إلقائه وسرده أشواطاً إلى النتيجة العلمية المطلوبة بينما لا يزال السامع واقفاً حيث هو، أو يسير متخلفاً عنه في متاهات متعثرة لا تفيد علماً ولا تكسب فهماً، وعندما يكون النقاش والحوار قائمين على هذا الغرض، فإن تصريح المناقش المربي بنتائج الأدلة وثمراتها (أثناء النقاش) يذهب يجدوا عمله التربوي كله.

وربما جاء الأسلوب الحوارى لتحقيق فائدة أخرى، هي الكشف عن عناد المعاند، ومعرفته للحق الذي يتظاهر بجهله. فان المناقشة تحركه وتلجئه إلهاءً إلى الكشف عن خبيثة أمره وباطن ما في نفسه، ولا يتحقق هذا الغرض أيضاً إلا بإثارة النظر في الأدلة واعتصارها عن طريق النقاش والحوار، حتى تتبدى من خلالها النتائج دون أي نص عليها من المربي المناقش.

انظر إلى هذه الآيات التي جاءت في أواخر سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ

أَصْطَفَيْنَا لَأَلَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا حَذَائِقَ

ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمُ أَنْ تُبَيِّنُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خُلَفَاءَ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ فَلَيْلًا مَّا نَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾.

انه أسلوب حوارى كما ترى، يقوم على إثارة الأسئلة المنبهة للعقل والمحركة للفكر، ولا تجد أي جواب صريح على سؤال منها، وإنما تجد بدلاً من الجواب لفت النظر إلى حيث يتسنى للفكر أن يدرك الجواب الصحيح ويتنبه له.

انه يسأل، ويلج في السؤال وطلب الجواب .. ولكنه سرعان ما يضرب عن السؤال وطلب الجواب معاً ليلفت النظر إلى أساس المشكلة في الأمر: أنهم يعدلون بالله غيره سلفاً، وإنهم لا يريدون أن يعلموا شيئاً عن حقائق الكون وما فيه من طوايا الأدلة الرهيبية على وجود الله ووحدانيته، وإنهم لا يريدون أن يتذكروا نشأتهم الأولى وتدرجهم في الخلق. ولو أنهم تذكروا ..

وعلموا .. وأنصفوا .. لعلموا الجواب على كل هذه الأسئلة، ولأقروا مؤمنين صاغرين. ويأتي قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ﴾، بدلاً عن الجواب الذي كان منتظراً منهم، فالعذر في سكوتهم عن الإجابة على السؤال الأول المتعلق بخالق السموات والأرض ومنزل المطر من السحاب أنهم يعدلون بالله عز وجل غيره من المخلوقات، والعذر في سكوتهم عن الإجابة على السؤال المتعلق بجاعل الأرض قراراً وخالق الجبار رواسي في أنحاءها أنهم لا يحاولون أن يعلموا شيئاً من دقائق الكون وخفاياه. والعذر في سكوتهم عن الإجابة على السؤال المتعلق بمن يجيب المضطر عندما يتجه إليه مخلصاً في الضراعة والدعاء أنهم قلما يتذكرون مثل هذه الساعات التي تمر في حياتهم .. وهكذا.

إن هذا الأسلوب الحوارى يكشف عن عناد المشركين، ثم يزحزحهم عن مواقفهم العنادية هذه، ويضعف فيهم طاقة التشكيك والتجاهل! .. وبذلك يكونون مادة تربية لغيرهم إن

أصروا على كفرهم مع ذلك، أو يكون هذا الحار مادة تربية لهم أنفسهم إذا تنبهوا إلى دلائل الإيمان وضرورة الإنصاف .

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى وهو يناقش الكافرين في مكان آخر: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سَمْعٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (١).

لقد عرض في هذه الآيات وما يليها إلى الاحتمالات المتصورة في سبب جحود الكافرين، فرد كل منها بأسلوب فريد !..لم ينف الاحتمالات بعبارات سلبية جازمة، فمثل هذا النفي لا يفيد المخاصم أكثر من أن يزيده صلابة وعناداً، ولكنه ناقشها بما يكشف عن زيفها، وترك التصريح بالزيف لعقل السامع وفكره. وضمن مناقشة كل احتمال من هذه الاحتمالات، قاعدة من القواعد المنطقية التي يهتدي بها العقل إلى الحقيقة ويميزها عن ملاساتها، ولكنه لم يقم دعائم النقاش على القاعدة بصياغتها القانونية كما هي العادة، وإنما أقامها على روحها وعلى نويها الفكري الذي تتفهمه سائر العقول .

أن الاحتمال الأول هو أن يكون رسول الله ﷺ قد تقول على الله هذا القرآن، وإذا فمن اليسير عليهم أن يفعلوا مثله، فليقولوا هم أيضاً على الله قرآناً في مثل بلاغته وأسلوبه فان هم فعلوا ذلك أمكن لدعواهم أن تكون صحيحة.

والاحتمال الثاني أن يكونوا عند أنفسهم مخلوقين بغير خالق، فهم ظهروا في الوجود هكذا بدون شيء !. . وإثارة هذا الاحتمال بهذا الأسلوب القرآني تلفت النظر بطريقة مشففة ساخرة إلى ما يوجد في تضاعيفه من دعوى رجحان الشيء بدون مرجح، وهي من أبرز صور المحالات التي يجمع كاف العقلاء على امتناعها ز إذا لا يمكن لأمر ما أن يطرأ عليه الوجود بعد انعدام إلا لسبب رجح فيه هذا الطروء، وبدون هذا السبب لا يتحول المعدوم عن حاله إطلاقاً، لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه .

والاحتمال الثالث أن يكونوا — في وهم أنفسهم — هم الذين تولوا إيجاد أنفسهم، وإثارة هذا احتمال، بالأسلوب الذين تراه، تلفت النظر بطريقة ساخرة أيضاً، إلى ما يوجد في تضاعيفه

(١) سورة الطور: ٣٣-٣٨

من دعوى صحة الدور الذي هو أيضاً من أبرز صور الحالات عند جميع العقلاء. والدور هو أن يتوقف الشيء في وجوده على نفسه بحيث يكون هو العلة والمعلول بآن واحد! .. وهو كما ترى أمر ظاهر البطلان.

فانظر كيف حاكم الأسلوب الحوارى في القرآن جماعة الكافرين، إلى قانون بطلان الدور وبطلان الرجحان بدون مرجح، ليسقط بذلك دعواهم! .. فعل ذلك كله بدون أن يسلك بهم أي مسلك تعليمي أو أن يلقتهم علم أي مجهول أو يلزمهم بأي نتيجة أو قرار. وإنما أثار أفكارهم إلى موازين المنطق والعلم، وتركهم بين ذلك كله، وقد لبسوا زي الجهل أو التجاهل والتعامي.

وابرز ما يلفت النظر في ذلك أنه اعتمد في نقاشه على محور القواعد المنطقية والفكرية، دون أن يتقيد بصياغاتها واصطلاحاتها المعروفة، حتى لا تفوت فائدة المعرفة والفهم على أي فئة من الناس مهما كانت ثقافتهم وعلومهم، ما داموا ينزعون إلى قدر مشترك من التأمل وحرية النظر والفكر .

وهذا المعنى الذي يقرره الأسلوب الحوارى ببساطة يدركها – كما رأيت – كل عاقل متدبر، هو نفس المعنى الذي يطيل فيه علماء العقيدة والفلسفة تحت عنوان الاصطلاحات العلمية الخاصة، كالعلة الغائية، ونظام الحكمة والتدبير. إلا أنه هناك معنى مغلق لا يكاد يفهمه إلا علماء ذلك الشأن وحده، وهو هنا معنى مفتوح واضح لا يقف دونه أي إدراك أو فهم، وإنما سهل واتضح بها بهذا الشكل، بفضل الأسلوب الحوارى الذي جاء تعبيراً عنه.

والحديث في تطبيقات هذا الأسلوب التربوي كما جاء في القرآن، حديث طويل. وانه لحديث شائق مفيد. ولكن ليس هنا مجال بسطه وتفصيله.

غير أنني الفت نظر المهتمين بالتربية ومذاهبها إلى هذا الجانب، وأدعوهم إلى دراسته دراسة مسهبة واعية، فلسوف يعثرون على ما هم بأمر الحاجة إلى معرفته والتبصر به من الطرائق التربوية الفكرية الحديثة المفيدة .

إِفْصَالُ السَّائِلَاتِ الْأَفْكَارِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَذَاهِبِ الْهَادِمَةِ

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: تعريف الخلاف والاختلاف وأقسامه.
- المبحث الثاني: أدب الاختلاف في الإسلام.
- المبحث الثالث: أسباب غزو المذاهب الهدامة لبلاد المسلمين.
- المبحث الرابع: دور المذاهب الفكرية المعاصرة لحماية العقل المسلم.

الفصل السادس

الأفكار بين الإسلام والمذاهب الهدامة

المبحث الأول

تعريف الخلاف والاختلاف وأقسامه

المطلب الأول: الخلاف في اللغة:

لغةً: مصدر خالف، كما أن الاختلاف مصدر اختلف، والخلاف هو: المضادة، وقد خالفه مخالفة وخلافاً، وتخالف الأمران واختلفاً، لم يتفقا، وكل ما لم يتساو فقد تخالف واختلف، قال سبحانه: ﴿وَالنَّحْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾ (١) (٢) أي حال كونه مختلفاً أكله في الطعم والجودة والرداءة (٣).

إذاً: الخلاف والاختلاف في اللغة: ضد الاتفاق، وهو أعم من الضد، قال الراغب الأصفهاني: "الخلاف: أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين" (٤).
فمثلاً: السواد والبياض ضدان ومختلفان، أما الحمرة والخضرة فمختلفان وليسوا ضدين، والخلاف أعم من الضدية؛ لأنه يحمل معنى الضدية، ومعنى المغايرة مع عدم الضدية (٥).
إذاً: فمعنى الخلاف والاختلاف هو المضادة والمعارضة وعدم المماثلة، وهذا المعنى هو الذي جاء في نصوص القرآن الكريم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: "ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض، لا يراد به مجرد عدم التماثل، كما هو اصطلاح كثير من النظار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٦) أي: لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: اضطراباً وتضاداً كثيراً. أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله (١)، وقوله: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا قَمِيَّتَهُمْ مَنْ ءَامَنَ﴾

(١) سورة الأنعام: ١٤١

(٢) انظر: لسان العرب: ابن منظور، (١٨١/٤-١٩٢).

(٣) فتح القدير محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت (٢ج - ص ١٩٢).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ط ٢، دار القلم، دمشق، سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م: (ص ٢٩٤).

(٥) أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، عوامه، محمد، دار البشائر، بيروت، ط ٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م: (ص ٨).

(٦) سورة النساء: ٨٢

(١) تفسير ابن كثير (ج ٢ - ص ٣٦٤).

وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ^(١) (٢) ولكن اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل، فاقْتتلوا من بعد ما جاءتهم
البيانات من عند ربهم بتحريم الاقتتال والاختلاف^(٣).

ثانياً: الخلاف في الاصطلاح

الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو قوله، ولما
كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع، استعير ذلك للمنازعة والمجادلة، قال
تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾^(٤) فاختلف المختلفون في عيسى، فصاروا أحزاباً متفرقين من
بين قومه^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٦) (٧) اختلف أهل التأويل في "الاختلاف" الذي
وصف الله الناس أنهم لا يزالون به. فقال بعضهم: هو الاختلاف في الأديان = فتأويل ذلك على
مذهب هؤلاء: ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتى، من بين يهوديٍ ونصرانيٍّ،
ومجوسي، وقال قائلو هذه المقالة: استثنى الله من ذلك من رحمهم، وهم أهل الإيمان^(٨).
وعليه فيكون الخلاف والاختلاف في الاصطلاح هو: "أن يذهب كل واحد إلى خلاف ما
ذهب إليه الآخر"^(٩). أو هو: "منازعة تجري بين المتعارضين؛ لتحقيق حق أو لإبطال
باطل"^(١٠).

والمسائل الخلافية في الأحكام الشرعية هي: "المسائل الفقهية التي لم ينفق عليها من يعتد
بخلافه من العلماء"^(١١).

فيمكن القول بأن الخلاف والاختلاف يراد به مطلق المغايرة، في القول، أو الرأي، أو
الحالة، أو الموقف.

وقد فرق بعض العلماء بين الخلاف وبين الاختلاف في الاصطلاح، من أربعة وجوه

(١) سورة البقرة: ٢٥٣

(٢) الفتاوى: ابن تيمية، (١٣/١٩-٢٠).

(٣) تفسير الطبري (ج ٥ - ص ٣٨١).

(٤) سورة مريم: ٣٧

(٥) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ١٩٧).

(٦) سورة هود: ١١٨

(٧) مفردات القرآن: الراغب الأصفهاني، (ص ٢٩٤).

(٨) تفسير الطبري (ج ١٥ - ص ٥٣١).

(٩) انظر: المصباح المنير في غريب شرح الوجيز. الفيومي، أحمد بن محمد، المكتبة العلمية، بيروت: (ص ١٧٩).

(١٠) التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد، ط الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م: (ص ١٣٥).

(١١) معجم لغة الفقهاء: (ص ١٩٨).

ذكرها أبو البقاء الكفوي في كلياته، وهي أن^(١):

١- (الاختلاف): ما اتحد فيه القصد، واختلف في الوصول إليه، و(الخلاف): يختلف فيه القصد مع الطريق الموصل إليه.

٢- (الاختلاف): ما يستند إلى دليل، بينما (الخلاف): لا يستند إلى دليل^(٢).

٣- (الاختلاف): من آثار الرحمة، بينما (الخلاف): من آثار البدعة.

٤- (الاختلاف): لو حكم به القاضي لا يجوز فسخه من غيره، بينما (الخلاف): يجوز فسخه. وخلاصة قوله: إنه إذا جرى الخلاف فيما يسوغ سمي اختلافاً، وإن جرى فيما لا يسوغ سمي خلافاً.

والتفرقة بين الخلاف والاختلاف بهذا الاصطلاح الذي ذكره أبو البقاء الكفوي وغيره، لا تستند إلى دليل لغوي، ولا إلى اصطلاح فقهي.

فالخلاف والاختلاف في اللغة ضد الاتفاق، فهما بمعنى واحد، ومادتهما واحدة.

قال المناوي^(٣) - رحمه الله -: "الاختلاف افتعال من الخلف، وهو ما يقع من افتراق بعد اجتماع في أمر من الأمور"^(٤).

أما في الاصطلاح الفقهي والعلمي فالذي يستقرئ استخدام علماء وفقهاء المسلمين لهذين اللفظين، يجد أن عامتهم لا يفرقون بينهما عند الاستخدام، وإن كانوا يفرقون بين المسائل التي يسوغ فيها الخلاف مما لا يسوغ فيها، مع اختلاف تعبيراتهم عن هذه التفرقة.

لكن قد يوجد فرق دقيق بين اللفظين من جهة الاستعمال؛ فكل منهما يستعمل باعتبار معين في حال المختلفين، وإن كان معناهما العام واحد، يبين ذلك محمد الروكي بقوله: "والملاحظ في استعمال الفقهاء أنهم لا يفرقون بين الخلاف والاختلاف؛ لأن معناهما العام واحد، وإنما وضعت كل واحدة من الكلمتين للدلالة على هذا المعنى العام من جهة اعتبار معين، وبيان ذلك: أننا إذا استعملنا كلمة (خالف) كان ذلك دالاً على أن طرفاً من الفقهاء - شخص أو أكثر - جاء باجتهاد

(١) الكليات، الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م: (ص ٦١).

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين على الدر المختار: (٣٣١/٤).

(٣) المناوي: هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين. المشهور بالمناوي. ولد سنة: ٩٥٢هـ وتوفي سنة: ١٠٣١هـ. عاش في القاهرة، وتوفي بها. من كبار العلماء بالدين والفنون. انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، فمرض وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستلم منه تأليفه. له تأليف كثيرة، منها: شرح على تائبة ابن الفارض، شرح المشاهد لابن عربي، حاشية على شرح المنهاج للجلال المحلي، شرح على الازهرية، والجواهر المضيئة في الاحكام السلطانية (الأعلام للزركشي ج ٦ - ص ٢٠٤).

(٤) فيض القدير، المناوي، عبد الرؤوف، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ: (٢٠٩/١).

مغاير لاجتهاد الآخرين، بغض النظر عن هؤلاء الآخرين، هل اجتهادهم واحد أو متباين... لكن إذا نظرنا إلى طرفين من أطراف الخلاف، أو إلى أطرافه كافة؛ فإننا نسمي ما ينشأ عنهم من آراء متغايرة اختلافاً... ويؤكد هذا التفريق اللفظي الدقيق استعمال القرآن الكريم لمادة الخلاف والاختلاف، فقد قال الله تعالى - على لسان شعيب - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتَهُكُمْ عَنْهُ﴾ (١) أي: لا أنهاكم عن شيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم (٢)، فلما كان السياق هنا مرتبطاً بطرف واحد من أطراف الخلاف، عبر بكلمة (أخالف).

لكن حينما يكون السياق مرتبطاً بكافة أطراف الخلاف، يعبر حينئذ بكلمة (اختلف) كقوله - تعالى -: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ (٣) (٤). إذاً: فالتعبير بكلمة (الخلاف) مرتبط باعتبار معين، والتعبير بكلمة (الاختلاف) مرتبط باعتبار آخر معين، والاعتباران معاً يكونان صورة واحدة، هي المعنى العام للخلاف والاختلاف، ولهذا لا تجد فرقاً بينهما في استعمال الفقهاء (٥).

أقسام الخلاف من حيث الدوافع:

١ - خلاف املاه الهوى: قد يكون الخلاف وليد رغبات نفسية لتحقيق غرض ذاتي أو امر شخصي وقد يكون الدافع للخلاف رغبة للتظاهر بالفهم أو العلم أو الفقه (٦). وهذا النوع من الخلاف مذموم بكل اشكاله ومختلف صوره لان حظ الهوى فيه غلب الحرص على تحري الحق والهوى لا يأتي بخير فهو مطية الشيطان الى الكفر، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (١) يا معشر يهود بني إسرائيل، لقد آتينا موسى التوراة، وتابعنا من بعده بالرسول إليكم، وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجج، إذ بعثناه إليكم، وقويناه بروح القدس، وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم تجبراً استكباراً إمامكم إبليس، فكذبتم بعضاً منهم. وقتلتم بعضاً. فهذا فعلكم أبداً برسلي (٢).

(١) سورة هود: ٨٨

(٢) تفسير بن كثير (ج ٤ - ص ٣٤٤).

(٣) سورة مريم: ٣٧

(٤) سبق تفسيرها.

(٥) نظرية التعقيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، محمد الروكي، ط. منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط: الأولى ١٤١٤هـ:

(١٧٩/١ - ١٨٠).

(٦) ذكرت العلاج لهذه المشكلة في المبحث الثاني (آداب الاختلاف في الاسلام ص ٤٤٩).

(١) سورة البقرة: ٨٧

(٢) تفسير الطبري (ج ٢ - ص ٣٢٤).

والهوى ضد العلم ونقيضه وغريم الحق ورديف الفساد، وسبيل الضلال ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١) يقول ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله (٢).

٢ - خلاف املاه الحق: قد يقع الخلاف دون ان يكون للنفس فيه حظ او للهوى عليه سلطان فهذا خلاف أملاه الحق، ودفع اليه العلم واقتضاه العقل، ورفضه الايمان، فمخالفة أهل الايمان لأهل الكفر والشرك والنفاق خلاف وواجب لا يمكن لمؤمن مسلم أن يتخلى عنه، أو يدعو لإزالته لأنه خلاف سداه الايمان ولحمته الحق.

وكذلك اختلاف المسلم مع اهل العقائد الكافرة والملحدة، كاليهودية والنصرانية والوثنية والشيعية، ولكن الاختلاف مع أهل تلك الملل وهذه العقائد لا يمنع من الدعوة الى ازالة اسبابه بدخول الناس في دين الله افواجها وتخليهم عن دواعي الخلاف من الكفر والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق والالحاد والبدع والترويج للعقائد الهدامة.

٣ - خلاف يتردد بين المدح والذم: ولا يتمحض لاحدهما، وهو خلاف في أمور فرعية تتردد أحكامها بين احتمالات متعددة يترجح بعضها على بعضها الآخر بمرجحات وأسباب ومن أمثلة هذا التقسيم: اختلاف العلماء في انتقاض الوضوء من الدم الخارج من الجرح، والقيء المتعمد، واختلافهم في حكم القراءة خلف الإمام وقراءة البسمة قبل الفاتحة والجهر بـ "أمين" وغير ذلك من أمثلة تضيق عن الحصر وهذا النوع من الاختلاف مزلة الأقدام، إذ يمكن فيه أن يلتبس الهوى بالتقوى، والعلم بالظن والراجح بالمرجوح والمردود بالمقبول ولا سبيل إلى تحاشي الوقوع في تلك المزالق إلا باتباع قواعد يحتكم إليها في الاختلاف، وضوابط تنظمه، وآداب تهيمن عليه، والآ تحول إلى شقاق وتنازع وفشل، وهبط المختلفان فيه عن مقام التقوى إلى درك الهوى، وسادت الفوضى، وذر الشيطان قرن.

رأي العلماء في الاختلاف:

ومع ما تقدم فان العلماء قد حذروا من الاختلاف بكل أنواعه وأكدوا على وجوب اجتنابه.

(١) سورة ص: ٢٦

(٢) تفسير الطبري (ج ٢١ - ص ١٨٩).

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "الخلاف شر"^(١) وقال السبكي رحمه الله: (... إن الرحمة تقتضي عدم الاختلاف، قال تعالى ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا فَمِنْهُمْ مَنْ اٰمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾^(٢) (٣) وكذا السنة: قال عليه الصلاة والسلام: ((إنما هلكت بنو إسرائيل بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم))^(٥)، والآيات والاحاديث في ذلك كثيرة، هذا وقد أدرج السبكي رحمه الله تحت النوع الثالث من الاختلاف (الذي يتردد بين المدح والذم) أقساما ثلاثة، فقال: "... والاختلاف على ثلاثة أقسام، احدها في الأصول، وهو المشار إليه في القرآن، ولاشك: انه بدعة وضلال. والثاني في الآراء والحروب هو حرام أيضا لما فيه من تضييع المصالح، والثالث في الفروع، كالاختلاف في الحل والحرمة ونحوهما"^(٦).

والذي قطع به أن الاتفاق فيه أي: في الثالث خير من الاختلاف.

كما نبه رحمه الله إلى كلام ابن حزم في ذم الاختلاف في ذلك أيضا إذ لم يجعل ابن حزم رحمه الله شيئا من الاختلاف رحمة، بل اعتبره كله عذابا.

ويكفي لمعرفة أضرار الاختلاف وخطورته أن نبي الله هارون عليه السلام عد الاختلاف أكبر خطرا، واشد ضررا من عبادة الأوثان. فحين صنع السامري لقومه عجلا من الذهب وقال لهم: ﴿هٰذَا آلَٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾^(١) التزم جانب الصمت وبقي ينتظر أخاه موسى عليه السلام، ولما وصل موسى ورأى القوم عاكفين على العجل وجه أشد اللوم إلى أخيه، فما كان عذر أخيه إلا أن قال: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْمِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرٰءِيْلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾^(٢) قال: خشيت أن يتبعني بعضهم ويتخلف بعضهم. وقال آخرون: بل معنى ذلك: خشيت أن نقتل فيقتل بعضنا بعضا^(٣). فجعل من خوف الفرقة والاختلاف بين قومه عذرا له في عدم التشديد في الإنكار، ومقاومة القوم والانفصال عنهم حين لا ينفع الإنكار!!.

(١) انظر ((تأويل مختلف الحديث)) لابن قتيبة ص ٢٢ و((العواصم من القواصم)) ص ٧٨. وراجع ((المحصول)) (٢ق ٤٨٠/١) .

(٢) سورة البقرة: ٢٥٣

(٣) سبق تفسيرها.

(٤) البقرة ٢٥٣، سبق تفسيرها.

(٥) والحديث بتمامه من طريق أبي هريرة ((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعونه)) رواه أحمد في مسنده ومسلم والنسائي وابن ماجه على ما في الفتح الكبير (١٢٠/٢) والإحكام (٥/٦٦).

(٦) أنظر الإبهام (ج ٣ - ص ١٣) .

(١) سورة طه: ٨٨

(٢) سورة طه: ٩٤

(٣) تفسير الطبري (ج ١٥ - ص ٣٦٠).

المطلب الثاني : حكم الخلاف :

يأتي حكم الله على جهتين، ومن خلال التفرقة بين حكم الله الشرعي وبين حكمه القدري، أي: بين إرادة الله للخلاف في تقديره وتكوينه، وبين إرادته له في دينه وشرعه- يتجلى لنا الحكم الشرعي في الخلاف، ونخلص إلى ما يلي:

- ١- أن الخلاف أمر قدري حتمي، أَرَادَهُ اللهُ فَلَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِهِ.
 - ٢- أن الخلاف شر وعذاب، نهى الله عنه وذمه في شرعه، فلا بد من اجتنابه.
 - ٣- أن الخلاف وقع بين الصحابة وأئمة الهدى عرضاً لا قصداً.
- وإليك بيان كل مسألة من هذه المسائل الثلاث:

أولاً: الخلاف أَرَادَهُ اللهُ قَدْرًا:

لقد قدر الله سبحانه الاختلاف على بني آدم، وجعل ذلك من لوازم خلقهم، يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(١). وقد اختلف السلف في تفسير هذه الآية على أقوال عدة، أولها: ما صححه ابن جرير الطبري وابن كثير - رحمهما الله- وهو أن الله خلق الناس للاختلاف بالشقاء والسعادة، إلا من رحم الله من المؤمنين، الذين اتبعوا الرسل وما جاءوا به من الدين؛ فإنهم وإن اختلفوا فإن اختلافهم لا يعود عليهم بضر.

قال ابن جرير -رحمه الله-: "وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم، على أديان وملل وأهواء شتى، ﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾^(٢) فآمن بالله وصدق رسله؛ فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسله، وما جاءهم من عند الله"^(٣).

وأخرج أيضاً بسنده عن الحسن البصري -رحمه الله- أنه قال: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٤) قال: "أما أهل الرحمة؛ فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم"^(٥).

وقال ابن كثير -رحمه الله-: "أي: ولا يزال الخلاف بين الناس في أديانهم، واعتقادات مللهم

(١) سورة هود: ١١٨-١١٩

(٢) سورة هود: ١١٩

(٣) جامع البيان: ابن جرير، (١٢/١٤٢-١٤٣).

(٤) سورة هود: ١١٩

(٥) جامع البيان: ابن جرير، (ج ١٢- ص ١٤٤).

ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم" (١).

وقد بين النبي ﷺ أن الخلاف واقع في هذه الأمة لا محالة؛ ولذا قال ﷺ لحذيفة بن اليمان (٢) - رضي الله عنه - يحذره من فرق الضلال: "فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة؛ حتى يدركك الموت وأنت على ذلك" (٣).

وقوله ﷺ: "فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ" (٤).

قال ابن رجب (٥) - رحمه الله -: "هذا إخبار منه ﷺ بما وقع في أمته بعده، من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه، وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافق لما روي عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة، وأنها كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهي ما كان عليه وأصحابه؛ ولذلك في هذا الحديث أمر عند الافتراق والاختلاف بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، والسنة هي الطريق المسلوك؛ فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة" (٦).

وعلق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - على حديث: "ستفترق أمتي... (٧) بقوله: "وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه، يشير إلى أن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعها في الأمة" (٨).

(١) تفسير القرآن العظيم: بن كثير، (ج ٢ - ص ٦١٠).

(٢) حذيفة بن اليمان (٣٦ هـ) حذيفة بن اليمان حنبل بن جابر (واليمان لقب أبيه) يكنى أبا عبد الله، أسلم هو وأبوه وأرادا شهود بدر فصدما المشركون، وشهدا أحدا والخندق وما بعدها. كان من كبار أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم، وهو معروف بصاحب سر رسول الله - صلى الله عليه وسلم، آخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين حذيفة وعمار. مات رضي الله عنه بالمدائن سنة ست وثلاثين. (الإصابة ٤٤ / ٢ - ٤٥). (٣) سبق تخريجه. ص (٣٧).

(٤) أبو داود في سننه: (٦١٠/٢) برقم (٤٦٠٧) وأحمد في المسند: (١٢٦/٤) برقم (١٧١٨٢) وكلاهما من حديث العرياض بن سارية.

(٥) ابن رجب: هو الإمام الحافظ العلامة زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلامي البغدادي الدمشقي الحنبلي أبو الفرج الشهير بابن رجب، (٧٣٦ هـ - ٧٩٥ هـ). ولد سنة ٧٣٦ هـ في بغداد من عائلة علمية عريقة في العلم والامامة في الدين، ثم قدم إلى دمشق من بغداد وهو صغير سنة ٧٤٤ هـ، وأجازته ابن النقيب والنووي، وسمع بمكة على الفخر عثمان بن يوسف واشتغل بسماع الحديث باعته والده وحدث عن محمد بن الخباز وإبراهيم ابن داود العطار وأبي الحرم محمد بن القلانسي وسمع بمصر من صدر الدين أبي الفتح الميدومي ومن جماعة من أصحاب ابن البخاري، فأتيح له تحصيل العلم على أكابر أهل عصره في العلم ونبغ فيه وعلا شأنه في علم الحديث وبلغ درجة الامامة في فنونه، بل في اعماقها وأجلها، وهو علم الاسناد وفي العلل، حتى قصده طلاب العلم، وأما في الفقه فقد برع فيه حتى صار من أعلام المذهب الحنبلي، ويشهد في ذلك كتاب، توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة وقيل: مات سنة أربع وخمسين. (الأعلام للزركشي ج ٣ - ص ٢٩٥).

(٦) جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ: (ص ٢٦٣).

(٧) سبق تخريجه (ص ٣٧).

(٨) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٩ هـ (ص ٣١، ٣٢).

والاختلاف من هذه الوجهة لا يخرج عن سائر المخالفات والمعاصي، التي تقع من ابن آدم دون أن يمكنه السلامة منها؛ لما خلقه الله فيه من طبع وعادة.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "لا بد أن تقع الذنوب من هذه الأمة، ولا بد أن يختلفوا؛ فإن هذا من لوازم الطبع البشري، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك" (١).

وقال ابن القيم -رحمه الله- عن الاختلاف: "فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية" (٢).

وقال الشاطبي -رحمه الله-: "فتأملوا -رحمكم الله- كيف صار الاتفاق محالاً في العادة" (٣).

وقال ابن حزم (٤) -رحمه الله-: "الله تعالى -نص على أن الاختلاف شقاق، وأنه بغي، ونهى عنه وعن التنازع والتفرق في الدين، وأوعد على الاختلاف بالعذاب العظيم، وبذهاب الريح، وأخبر أن الاختلاف تفرق عن سبيل الله، ومن عاج عن سبيل الله فقد وقع في سبيل الشيطان، قال تعالى: ﴿وَدَّبَّيْنِ الرَّشْدِ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٥)، وقد نص على أن الاختلاف ليس من عنده، معنى ذلك: أنه تعالى لم يرض به، وإنما أرادته تعالى إرادة كون، كما أراد كون الكفر وسائر المعاصي" (٦).

فإنه -سبحانه وتعالى- قدر علينا الخلاف كما قدر علينا سائر المعاصي، وتقدير المعاصي علينا لا يبرر تعاطينا لها، ولا يسوغها بحال؛ فكذاك الخلاف لا يجوز لنا قصده، بحجة أنه مقدر علينا، وإن كان لا بد أن يقع منا.

كما لا يجوز أن نتخذ من إخبار رسول الله ﷺ بوقوع الخلاف ذريعة لقصده أو للرضا به؛ فإن النبي ﷺ بين ذلك إقامة للحجة علينا، وتحذيراً من الوقوع فيه؛ ليهلك عن بينة من هلك، وينجو من شاء الله له النجاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- مبيناً علة إخبار النبي ﷺ بوقوع الافتراق في أمته:

(١) الفتاوى: ابن تيمية، (ج٤- ص١٥٠-١٥١).

(٢) الصواعق المرسلية: ابن القيم، (ج٢- ص٥١٩).

(٣) الاعتصام: الشاطبي، (ج١- ص٤٧٠).

(٤) علي بن حزم الأندلسي (٣٠ رمضان ٣٨٤ هـ / ٧ نوفمبر ٩٩٤م. قرطبة - ٢٨ شعبان ٤٥٦ هـ / ١٥ أغسطس ١٠٦٤م)، يعد من أكبر علماء الأندلس وأكبر علماء الإسلام تصنيفاً وتالياً بعد الطبري، وهو إمام حافظ. فقيه ظاهري، ومجدد القول به، بل محيي المذهب بعد زواله في الشرق. ومتكلم، أديب، وشاعر، وناقد محلل، بل وصفه البعض بالفيلسوف. وزير سياسي لبني أمية، سلك طريق نبذ التقليد وتحرير الأتباع. قامت عليه جماعة من المالكية وشرد عن وطنه. توفي في منزله في أرض أبويه منت ليشم المعروفة بمونتيخار حالياً، وهي عزبة قريبة من ولبة. (البداية والنهاية (١٢/ ٩٨).

(٥) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٦) الإحكام: ابن حزم، (ج٥- ص٦٥).

"كان يحذر أمته؛ لينجو من شاء الله له السلامة" (١).

فعلينا أن نفرق بين إرادة الله القدريّة للخلاف، وبين إرادته الشرعية له؛ فإن إرادة الله للخلاف قدراً لا يستلزم إرادته له شرعاً، ولا ريب أن الله لا يقدر لعباده شيئاً إلا لحكمة علمناها أو جهلناها، ومما يظهر من حكمة تقدير الله للخلاف، أن يحرص العبد المكلف على تحري الصواب، ويبدل الجهد لموافقة الحق، مع مراقبة الله تعالى سبحانه في طلب انجلاء الحق في مواقع النزاع؛ تعظيماً لله ولحرماته" (٢).

ثانياً: الخلاف نهى الله عنه شرعاً:

الخلاف في دين الله وشريعته مذموم، ومن له أدنى معرفة بنصوص الكتاب والسنة يجد تواردها على ذم الفرقة والاختلاف، والدعوة إلى الجماعة والاتتلاف، وقد تناول السلف والعلماء هذه النصوص بالبيان والتوضيح، داعين الأمة إلى الجماعة ومحذرينها من الفرقة، وآثارهم وأقوالهم في ذلك تُعجز الباحث عن حصرها، مما يؤكد أن نبذ الفرقة والاختلاف فريضة شرعية، بل من أهم فرائض الدين، ودلالات العقل، وتؤكد الضرورة الواقعية لذلك.

فضلاً عن كون قصد الاختلاف مخالفة للشرع، ومعصية للرب سبحانه؛ فإن من حكّم العقل، ونظر في مواقع الناس، يجد أن الخلاف غالباً ما يؤول إلى الفرقة والتنازع، والتباغض والتدابير، والبغي والاعتداء، وغيرها من شُرور الخلاف التي لا تتقضي، ولا تخفى على ذي لب؛ ولذا كثرت الآثار عن السلف الصالح من التحذير منه، وبيان آثاره.

فعن عبد الرحمن بن يزيد رضي الله عنه - قال: "صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه - بمنى أربع ركعات، فقل ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه - فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين، ثم تفرقت بكم الطرق، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان" (٣).

لكن عبد الله رضي الله عنه - صلى في منى خلف عثمان أربعاً، فقل له: عتبت على

(١) انظر: اقتضاء الصراط (١/١٢٧). وذكر هذا القول في التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٠/٥) تفسير (فردوه إلى الله والرسول).

(٢) انظر: ابن عاشور، المصدر نفسه (١/٩٧٤).

(٣) البخاري في صحيحه: (٥٩٧/٢) برقم (١٥٧٤) ومسلم في صحيحه: (٤٨٣/١) برقم (٦٩٥).

عثمان ثم صليت أربعاً؟! قال: الخلاف شر^(١).

وأخرج ابن جرير - رحمه الله - بسنده عن قتادة - رحمه الله - قال: "إياكم والفرقة فإنها هلكة"^(٢). وقال المقبلي - رحمه الله -^(٣): "وأي فتنة أشد من الخلاف؛ بل هو أصل الفتن، نسأل الله السلامة"^(٤).

وكما أن الاختلاف يتسبب في جلب كثير من الشرور على الأمة؛ فإنه أيضاً يتسبب في الحرمان من كثير من الخير ويفوته عليها، حَدَّثَنِي وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: سَمِعْتُ يُونُسَ، يُحَدِّثُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٥)، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْوَفَاةُ قَالَ: «هَلُمَّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ» ((فِي الْبَيْتِ رَجُلٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ، وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ. قَالَ: فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ، فَاخْتَصَمُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَوْ قَالَ: قَرَّبُوا يَكْتُبُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالْاِخْتِلَافَ، وَغَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: " قَوْمُوا عَنِّي ". فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ الرِّزْيَةَ كُلَّ الرِّزْيَةِ، مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ، مِنْ اِخْتِلَافِهِمْ وَلِغَطِهِمْ "^(٦).

قال ابن حجر - رحمه الله -: "أي أن الاختلاف كان سبباً لترك كتابة الكتاب، وفي الحديث دليل على جواز كتابة العلم، وعلى أن الاختلاف قد يكون سبباً في حرمان الخير، كما وقع في قصة الرجلين اللذين تخاصما فرُفع تعيين ليلة القدر بسبب ذلك"^(٧).

(١) أبو داود في سننه: (٦٠٢/١) برقم (١٩٦٠).

(٢) جامع البيان: ابن جرير، (١٦/٢٥).

(٣) المقبلي، صالح بن مهدي بن علي بن عبد الله بن سليمان المقبلي الربيعي، الصنعاني، ثم المكي، ولد سنة (١٠٤٧هـ) في قرية المقبل من أعمال كوكبان، برع في جميع علوم الكتاب والسنة، وحقق الأصولين والعربية والمعاني والبيان، والحديث، والتفسير، وفاق في جميع ذلك، خلغ ربة التقليد وعمل بما تقتضيه الأدلة. له من المؤلفات: حاشية على البحر الزخار المسماة بالمنار، ونجاح الطالب على مختصر ابن الحاجب، والإتحاف لطلبة الكشاف. وتوفي سنة (١١٠٨هـ). انظر: الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت: (٢٨٩/١) وما بعدها). (الأعلام للزركشي ج ٣ - ص ١٩٧).

(٤) العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ، المقبلي، صالح بن مهدي، مكتبة دار البيان: (ص ٤٨٦).

(٥) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسِ الْبَحْرِيُّ أَبُو الْعَبَّاسِ الْهَاشِمِيُّ حَبْرُ الْأُمَّةِ، وَقَفِيهُ الْعَصْرُ، وَإِمَامُ التَّفْسِيرِ، أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللَّهِ، ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ شَيْبَةَ بْنِ هَاشِمٍ، مَوْلِدُهُ: بِشَعْبِ بَنِي هَاشِمٍ، قَبْلَ عَامِ الْهِجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ. صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، وَحَدَّثَ عَنْهُ بِجُمْلَةٍ صَالِحَةٍ. وَفِي (التَّهْدِيبِ) مِنَ الرِّوَاةِ عَنْهُ: مَائَتَانِ، سِوَى ثَلَاثَةِ أَنْفُسٍ. انْتَقَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَعَ أَبِيهِ إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ سَنَةَ الْفَتْحِ، وَقَدْ أَسْلَمَ قَبْلَ ذَلِكَ. (أسد الغابة ٣ / ٢٩٠).

(٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل، باب مسند عبدالله بن عباس (ج ٥ - ص ١٣٥ - رقم ٢٩٩٠)، ورواه البخاري في صحيحه: (٢١٤٦/٥) برقم (٥٣٤٥).

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ: (٢٥٣/١).

الشرعية العلمية والعملية، وكل واحد منهم يسوغ لصاحبه اجتهاده، من غير لوم ولا تعنيف لمن خالفه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وقد اختلف الصحابة في مسائل وتنازعا فيها، على إقرار الفريق الآخر على العمل باجتهادهم، كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء والسياسة، وغير ذلك" (١).

فكان ذلك منهم اتفاقاً على تسويغ تباين الاجتهاد في فروع الشريعة، ووقوع الخلاف فيها. ولا ريب أن الصحابة لا يلحقهم ذم الاختلاف ووعيد الفرقة؛ لأنهم ما قصدوا الاختلاف ولا سعوا إليه، بل تحروا الحق، وبذلوا جهدهم للوصول إليه؛ فأصابوا وأخطأوا؛ ففاز بعضهم بأجرين، وبعضهم بأجر واحد، وكانوا -رضي الله عنهم- متى ما ظهر لأحدهم خطؤه ومخالفته للحق، رجع عنه ووافق الصواب.

فخلاف الصحابة -رضي الله عنهم- كان عرضاً لا قصداً، وهكذا اختلف من سلك مسلكهم من أئمة الدين وعلماء المسلمين.

قال ابن حزم -رحمه الله-: "فإن قال قائل: إن الصحابة قد اختلفوا وهم أفاضل الناس! أفيلحقهم هذا الذم؟ قيل -وبالله التوفيق-: كلا، ما يلحق أولئك شيء من هذا؛ لأن كل امرئ منهم تحرى سبيل الله ووجه الحق؛ فالمخطئ منهم مأجور أجراً واحداً لنيته الجميلة في إرادة الخير، وقد رفع عنهم الإثم في خطئهم؛ لأنهم لم يتعمدوه ولا قصدوه ولا استهانوا بطلبهم، والمصيب منهم مأجور أجرين، وهكذا كل مسلم إلى يوم القيامة، فيما خفي عليه من الدين ولم يبلغه، وإنما الذم المذكور والوعيد الموصوف لمن ترك التعلق بحبل الله تعالى -الذي هو القرآن وكلام النبي ﷺ بعد بلوغ النص إليه، وقيام الحجة عليه، وتعلق بفلان وفلان، مقلداً عامداً للاختلاف، داعياً إلى عصبية وحمية الجاهلية، قاصداً للفرقة، متحرياً في دعواه برد القرآن وكلام النبي ﷺ؛ فهؤلاء المختلفون المذمومون.

وطبقة أخرى، وهم: قوم بلغت بهم رقة الدين وقلة التقوى، إلى طلب ما وافق أهواءهم، من قول كل قائل؛ فهم يأخذون ما كان رخصة من قول كل عالم، مقلدين غير طالبيين ما أوجبه النص عن الله -تعالى- وعن رسوله ﷺ (٢).

وقال أيضاً: "وإذا صح الاختلاف بين الصحابة -رضي الله عنهم- فلا يجوز أن يحرم على

(١) المصدر السابق: (١٢٢/١٩).

(٢) الإحكام: ابن حزم، (ج٥ - ص٦٧-٦٨).

من بعدهم ما حل لهم من النظر، وأن يمنعوا من الاجتهاد الذي أداهم إلى الاختلاف في تلك المسألة، إذا أدى إنساناً بعدهم دليل إلى ما أدى إليه دليل بعض الصحابة" (١).

فما وقع بين الصحابة من الاختلاف في المسائل الشرعية، وما وقع بين غيرهم من المجتهدين، لا بد منه لوجود الظنيات في الشريعة، والتي تكون مجالاً لتباين الأنظار واختلاف المدارك، "فإن الله -تعالى- حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار، ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظائر أن النظريات لا يمكن الاتفاق عليها عادة، فالظنيات عريضة الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات؛ فذلك لا يضر هذا الاختلاف" (٢).

وهذه الظنيات وجدت في الشريعة لا ليقصدها الخلاف، وإنما لتكون مجالاً لاستفراغ الوسع وبذل الجهد في طلب مقصد الشارع، واتباع الحق، ابتلاءً للمجتهدين، وإذا وقع الخلاف بينهم؛ فإنما هو لتفاوت أفهامهم، وقوى إدراكهم وسعة علومهم في طلب الحق، لا لأنهم قصدوه أو أرادوه. قال ابن القيم -رحمه الله-: "ووقع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه؛ لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعداوتهم، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، فكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله، لم يضر ذلك الاختلاف؛ فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحداً، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة، لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافاً لا يضر، كما تقدم من اختلاف الصحابة؛ فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله، والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله، والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة، وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة" (٣).

والله - سبحانه وتعالى - لعلمه أن الاختلاف واقع بين الناس، أشرع لهم أصل يرجع فيه إليه، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (٤) (٥) فهو خطاب عام للولادة والرعية، فمتى حصل خلاف في أمر من أمور الدين والدنيا وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة

(١) النبذة الكافية في أحكام أصول الدين، بن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الظاهري، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ: (ص ٢١).

(٢) الاعتصام: الشاطبي، (ج٢- ص ١٦٨).

(٣) الصواعق المرسلية: ابن القيم، (ج٢- ص ٥١٩).

(٤) سورة النساء: ٥٩.

(٥) انظر: الاعتصام: الشاطبي، (ج٢- ص ١٤٥).

رسول الله ﷺ فيما حكما فيه وجب قبوله حلواً كان أو مرأاً^(١)، ومتى ما رجع العلماء إلى هذا الأصل عند اختلافهم، كان ما صدر عنهم من اجتهاد توسعة على الأمة، وما آل إليه اختلافهم من توسعة يكون رحمة بالأمة، وإن كان نفس الخلاف شر وعذاب لا خير فيه ولا رحمة. وما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «(اختلاف أمي رحمة)» فهذا لا يثبت عنه ﷺ، بل هو حديث موضوع مكذوب.

قال الألباني^(٢) -رحمه الله-: "لا أصل له، ولقد اجتهد المحدثون في أن يققوا له على سند فلم يوفقوا؛ حتى قال السيوطي في الجامع الصغير: ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا، وهذا بعيد عندي؛ إذ يلزم منه أنه ضاع على الأمة بعض أحاديثه ﷺ، وهذا ما لا يليق بمسلم اعتقاده، ونقل المناوي^(٣) عن السبكي^(٤) أنه قال: وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع"^(٥).

وكيف لمثل هذا الكلام أن يكون حديثاً لرسول الله ﷺ ومعناه ظاهر الفساد؟ ومناقض لقوله ﷺ: «(الجماعة رحمة والفرقة عذاب)»^(٦)! بل هو مناقض لقول رب العزة -سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِيَشْتَقِقَ بَعِيدٌ﴾^(٧) قال ابن حزم -رحمه الله-: "وهذا من أفسد قول يكون؛ لأنه لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطاً، وهذا ما لا يقوله مسلم؛ لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف، وليس إلا رحمة أو سخط، وأما الحديث المذكور فباطل مكذوب، من توليد أهل الفسق"^(٨).

(١) أيسر التفاسير للجزائري (ج ١ - ص ٤٩٧).

(٢) محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠ هـ) الشيخ المحدث، علامة الشام أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الألباني. ولد الشيخ في مدينة أشقودرة، عاصمة ألبانيا سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة الموافق لعام أربع عشرة وتسعمائة وألف ميلادي، في أسرة فقيرة متدينة يغلب عليها الطابع العلمي، وكان والده فقيهاً حنفياً من أهل العلم. وبعد تولي "أحمد زوغو" الحكم في ألبانيا حولها إلى بلاد علمانية، فقرر الشيخ نوح رحمه الله الهجرة بأسرته إلى بلاد الشام فراراً بدينه. (موسوعة مواقف السلف في العقيدة المغراوي ج ١٠ - ص ٣٦٨).

(٣) ضياء الدين محمد بن إبراهيم المناوي. ولد بمنية القائد، سنة خمس وخمسين وستمائة، وأخذ عن ابن الرفعة والأصبهاني والبهاء بن النحاس، ودرس بالشافعي، وشرح التنبيه. مات في رمضان سنة ست وأربعين وسبعمائة (شذرات الذهب ٦: ١٥).

(٤) أبو الفتح السبكي تقي الدين محمد بن عبد اللطيف. كان فقيهاً أصولياً، أدبياً شاعراً، تفقه على قريبه العلامة تقي الدين السبكي. وألف تاريخاً. مات في ذي القعدة سنة أربع وأربعين وسبعمائة (شذرات الذهب ٦: ١٤١).

(٥) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: الألباني، محمد ناصر الدين، (ج ١ - ص ٧٦) رقم (٥٧).

(٦) سبق تخريجه. ص (٣٧).

(٧) سورة البقرة: ١٧٦

(٨) الإحكام في أصول الأحكام ابن حزم: (ج ٥ - ص ٦٤).

وقال المزني^(١) -رحمه الله-: "ولو كان الاختلاف رحمة، لكان الاجتماع عذاباً؛ لأن العذاب خلاف الرحمة"^(٢). ويقول المقبلي -رحمه الله-: "والعجب ممن يقول "الاختلاف رحمة"، مع بيان الكتاب والسنة في غير موضع أنه عذاب وبلاء على هذه الأمة"^(٣).

ويقول عبد الكريم زيدان^(٤): "الاتلاف والاتفاق خير من الاختلاف قطعاً، حتى في المسائل الاجتهادية السائغ الاختلاف فيها، فلا يجوز الحرص على الاختلاف، والرغبة فيه، وإن كان سائغاً؛ لأن معنى ذلك جواز تعمده ووقوعه، ومعنى ذلك جواز مخالفة مقتضى الدليل الشرعي؛ حتى يحصل الخلاف، وهذا باطل قطعاً، وأيضاً فإن من شروط الاختلاف السائغ، تجريد القصد للوصول إلى الحق والصواب، وهذا لا يتفق مع الرغبة في وقوعه"^(٥).

وأما ما جاء عن بعض السلف من أن الخلاف فيه سعة على الأمة، كقول عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: "ما يسرني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة"^(٦).

وقول القاسم بن محمد -رحمه الله-: "لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيراً منه قد عمل عمله"^(٧).

فلا تتطلق السعة والرحمة إلى ذات الاختلاف، وإنما إلى غاية ومرامي الاختلاف، وهو أن جواز الاجتهاد في الفروع للوصول إلى مراد الشارع كان سعة ورحمة؛ إذ لما جاز لهم الاجتهاد في ظنيات دلالة النصوص، أو عند عدم النص فيما يعرض لهم من حوادث، وجاز لهم

(١) المزني إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني، توفي (٢٦٤)، صاحب الإمام الشافعي. من أهل مصر، كان زاهدا عالما مجتهدا قويا الحجة. وهو إمام الشافعيين. من كتبه (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) و(المختصر - خ) والترغيب في العلم، نسبته إلى مزينة (من مضر)، قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي. وقال في قوة حجته: لو ناظر الشيطان لغلبيه! (١٧٥ - ٢٦٤ هـ = ٧٩١ - ٨٧٨ م نقلا عن: الأعلام للزركلي. وكتب المصنف بالموقع مختصر المزني، شرح السنة للمزني، السنن المأثورة للشافعي. طبقات الشافعيين لابن كثير (ج ١ - ص ١٢٢).

(٢) انظر: البحر المحیط، الزركشي، محمد بن بهادر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م: (٣/٥٨٦).

(٣) العلم الشامخ: المقبلي، (ص ٤٨٥).

(٤) د. عبد الكريم زيدان بهيج العاني المراقب العام السابق لجامعة الإخوان المسلمين في العراق، وأحد علماء أهل السنة في العراق، وأحد علماء أصول الفقه والشريعة الإسلامية. ولد ببغداد سنة ١٩١٧م ونشأ فيها وتدرج. تعلم قراءة القرآن الكريم في مكاتب تعليم القرآن الأهلية. رحل إلى العمل في اليمن وعمل في العديد من جامعاتها. (الموسوعة الحرة موقع في الانترنت).

(٥) الوجيز في أصول الفقه: (ص ٣٣٨).

(٦) فيض القدير: المناوي، (١/٢٠٩).

(٧) جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر، (ج ٢ - ص ٨٠).

ابن عبد البر (٤٦٣ هـ): الإمام، شيخ الإسلام، حافظ المغرب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي. ولد سنة ثمان وستين وثلاثمائة. حدث عن خلف بن القاسم وعبد الوارث بن سفيان وعبد الله بن محمد بن عبد المؤمن وسعيد بن نصر، وعدة. وحدث عنه أبو محمد بن حزم، والحافظ أبو عبد الله الحميدي، وأبو علي الغساني. (البداية والنهاية (١٢/ ١١١)).

العمل بما أوصلهم إليه اجتهادهم؛ جاز ذلك لمن بعدهم؛ فكان في ذلك توسعة على الأمة ورحمة بها، وإلا لضاق على العلماء ومن يسألهم كثير من الأحكام.

أما ذات الخلاف الذي وقع بينهم، فليس فيه توسعة، وإنما هو خطأ وصواب، وإن كانوا يُعذرون فيه ولا يؤثمون بسببه؛ لأنهم لم يقصدوه ولا تعمدوه؛ لذا قال ابن القاسم -رحمه الله-: "سمعت مالكا والليث يقولان في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ليس كما قال ناس: فيه توسعة، ليس كذلك، إنما هو حق وصواب".

فالتوسعة كانت من فتحهم باب الاجتهاد، أو في العمل بما أدى إليه اجتهادهم، لا في ذات الخلاف بينهم.

قال الشاطبي -رحمه الله-: "ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد، وجواز الاختلاف فيه؛ لأنهم لو لم يفتحوه، لكان المجتهدون في ضيق؛ فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروع فيهم، فكان فتح باب للأمة؛ للدخول في هذه الرحمة".

وقال أيضاً: "فيحمل أن يكون من جهة فتح باب الاجتهاد، وأن مسائل الاجتهاد قد جعل الله منها سعة بتوسعة مجال الاجتهاد لا غير ذلك.

قال القاضي إسماعيل: إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ توسعة في اجتهاد الرأي، فأما أن يكون توسعة أن يقول الإنسان بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه فلا، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا، قال ابن عبد البر: كلام إسماعيل هذا حسن جداً".

إذن فالسعة والرحمة تكمن في فتح باب الاجتهاد، وعمل المجتهد بما أدى إليه اجتهاده، وتقليد الناس له في ذلك؛ ظناً منهم أنهم أخذوا بالراجح، وإن كان في ذاته مرجوحاً، فيكون في خفاء الحكم الشرعي عنهم رحمة بهم، وتوسعة عليهم؛ لما في ظهوره من الشدة والتضييق عليهم.

يقول ابن تيمية -رحمه الله-: "والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض إلى شر عظيم، من خفاء الحكم، ولهذا صنف رجل كتاباً سماه (كتاب الاختلاف)؛ فقال أحمد: (سمه كتاب السعة) وإن الحق في نفس الأمر واحد، وقد يكون من رحمة الله ببعض الناس خفاؤه؛ لما في ظهوره من الشدة عليه، ويكون من باب قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَسَوْكُمْ﴾ (١)

(١) سورة المائدة: ١٠١

هذا تأديب من الله (تعالى) لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا ﴿عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ مما لا فائدة لهم في السؤال والتتقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها(١).

والخلاف وإن كان في ذاته شر، إلا أنه متى ما كان المختلفون يرجعون فيه إلى الكتاب والسنة ويقصدون الحق، ويجتهدون في تحصيله؛ فإنهم يدخلون في من قال الله فيهم: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢) فوق (الله) الذي آمنوا وهم أهل الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ المصدقين به وبما جاء به أنه من عند الله لما اختلف الذين أوتوا الكتاب فيه(٣).

قال ابن القيم -رحمه الله-: "فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبه ويواليه؛ فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق؛ فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلاً وأقومهم قيلاً. وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلفوا باختلاف رحمة وهدى، يقر بعضهم بعضاً عليه، ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم، بالتناظر والتشاور، وإعمالهم الرأي، وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى درك الصواب؛ فيأتي كل بما قدحه زناد فكره، وأدركته قوة بصيرته، فإذا قوبل بين الآراء المختلفة والأقوال المتباينة، وعرضت على الحاكم الذي لا يجور، وهو كتاب الله وسنة رسوله، وتجرد الناظر عن التعصب والحمية، واستفرغ وسعه، وقصد طاعة الله ورسوله، فقل أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال، وما هو أقرب إليه، والخطأ وما هو أقرب إليه؛ فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب وما هو أقرب إليه، والخطأ وما هو أقرب إليه، ومراتب القرب والبعد متفاوتة. وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة ولا افتراقاً في الكلمة، ولا تبديداً للشمل؛ فإن الصحابة -رضي الله عنهم- اختلفوا في مسائل كثيرة... فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة، ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كان كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقوى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة، والمصافاة والموالاتة، من غير أن يضر

(١) تفسير بن كثير (ج ٣ - ص ٢٠٣).

(٢) سورة البقرة: ٢١٣.

(٣) تفسير الطبري (ج ٤ - ص ٢٨٣).

بعضهم لبعض ضغناً، ولا ينطوي له على معتبة ولا ذم، بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له، ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه.

فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر، وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه الحق".

وخلاصة القول: إن الخلاف ذاته لا يمكن أن يكون رحمة؛ إذ لو كان رحمة لكان مطلوباً شرعاً، ويلزم من ذلك قصده وتعمده، ومعنى ذلك جواز مخالفة مقتضى الدليل الشرعي؛ حتى يحصل الخلاف، وهذا باطل قطعاً، فالائتلاف والوفاق من المعروف الذي يجب الأمر به، والخلاف والفرقة من المنكر الذي يجب النهي عنه.

المطلب الثالث: الأمر بالائتلاف والاجتماع والنهي عن الاختلاف والفرقة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة" (١).

وهذا الذم للخلاف يشمل الخلاف في أصول الدين وفروعه، أما الخلاف في أصول الدين الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع؛ فقد اتفقت كلمة علماء المسلمين على أن قصد الخلاف فيها محرم مذموم، وأنه من التفرق الذي نهى الله -عز وجل- ورسوله ﷺ عنه، وليس لأحد الخروج عنها أو المخالفة فيها.

يقول تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٢) أي اجعلوا هذا الدين وهو دين التوحيد والإخلاص لله قائماً دائماً مستمراً، واحفظوه من أن يقع فيه زيغ أو اضطراب، ولا تتفرقوا فيه، بأن تأنوا ببعض وتتركوا بعضاً، أو بأن يأتي بعض منكم بهذه الأصول التي شرعت لكم ويتركها بعض آخر. والنهي إنما هو عن التفرق في أصول الشرائع، أما التفاصيل فلم يتحد فيها الأنبياء (٣).

فكل خلاف يقصد في الأصول مذموم، ويتعلق به الوعيد، ويشذ بصاحبه عن الجماعة، ويؤدي به إلى الهلكة؛ لأن وجه الحق مقطوع بصوابه، والآخر مقطوع بخطئه، وقد يكون هذا الخطأ كفراً أو بدعة أو فسقاً.

وهذا النوع من الخلاف في الحقيقة ليس بخلاف، ولا يعتد به مهما كان صاحبه الذي صدر منه.

وذكر العلماء لهذا النوع من الخلاف، إنما هو للتنبيه عليه، وعلى ما فيه، لا لاعتباره، قال الشاطبي -رحمه الله-: "قأما المخالف للقطعي فلا إشكال في اطراحه، ولكن العلماء ربما ذكروه للتنبيه عليه، وعلى ما فيه لا للاعتداد به".

أما الخلاف في فروع الدين، فإنه عند بعض العلماء غير مذموم؛ لقصرهم ذم التفرق والاختلاف الذي وردت به النصوص الشرعية على الخلاف في الأصول، والتفرق فيها. وأما الخلاف في فروع الشريعة وجزئياتها، فإن الذم عندهم لا يشملها ولا يتناولها، إلا إذا

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية، باب حكم الانتساب إلى إمام من الأئمة (ج ٣ - ص ٤٢١).

(٢) سورة الشورى: ١٣.

(٣) تفسير المراغي (ج ٢٥ - ص ٢٥).

اقترن به بغي أو تفرق، أو صدر من غير أهل العلم.

قال ابن العربي -رحمه الله-: "التفرق المنهي عنه يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: التفرق في العقائد لقوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١)(٢).

الثاني: الحسد والتقاطع قال ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً».

الثالث: ترك التخطئة في الفروع والتبري فيها، وليمض كل أحد على اجتهاده؛ فإن الكل بحبل الله معتم، وبدليله عامل؛ وقد قال ﷺ: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»؛ فمنهم من حضرت العصر فأخرها حتى بلغ بني قريظة؛ أخذاً بظاهر قول النبي ﷺ، ومنهم من قال: لم يرد هذا منا، يعني: وإنما أراد الاستعجال، فلم يعنف -عليه السلام- واحداً منهم.

والحكمة في ذلك: أن الاختلاف والتفرق المنهي عنه، إنما هو المؤدي إلى الفتنة والتعصب، وتشتيت الجماعة، فأما الاختلاف في الفروع؛ فهو من محاسن الشريعة، فعن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن بسر بن سعيد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (٣).

وقال الآمدي -رحمه الله-: "فيجب حمل ما ورد من ذم الاختلاف والنهي عنه على الاختلاف في التوحيد والإيمان بالله ورسوله، والقيام بنصرته، وفيما المطلوب فيه القطع دون الظن، والاختلاف بعد الوفاق، واختلاف العامة، ومن ليس له أهلية النظر والاجتهاد، وبالجملة: كل ما لا يجوز فيه الاختلاف جمعاً بين الأدلة بأقصى الإمكان".

وقال الجصاص -رحمه الله- في قوله تعالى "وَلَا تَفَرَّقُوا" (٤): "وفي ذلك دليل على أن

التفرق المذموم المنهي عنه في الآية، هو في أصول الدين والإسلام، لا في فروعهم".

(١) سورة الشورى: ١٣

(٢) سبق تفسيرها.

(٣) أخرجه البخارى (٤٣٨/٤) ومسلم (١٣١/٥) وأبو داود (٣٥٧٤) وابن ماجه (٢٣١٤) والدارقطنى (٥١٤) والبيهقى (١١٨/١٠ - ١١٩) وأحمد

(٢٠٤/٤ و ١٩٨/٤)

(٤) آل عمران: ١٠٣.

وقال ابن عابدين^(١) -رحمه الله-: "الاختلاف بين المجتهدين في الفروع -لا مطلق الاختلاف- من آثار الرحمة؛ فإن اختلافهم توسعة للناس، فمهما كان الاختلاف أكثر كانت الرحمة أوفر". وقد خالفهم كثير من العلماء في ذلك، وذهبوا إلى أن أي اختلاف مذموم، سواء كان في الأصول أو الفروع، وأن الذم الذي جاءت به النصوص الشرعية، يشمل الخلاف في النوعين على حد سواء.

قال ابن حزم -رحمه الله-: "قال قوم: هذا مما يسع فيه الاختلاف... وهذا باطل، والاختلاف لا يسع البتة، ولا يجوز، وإنما الفرض علينا اتباع ما جاء به القرآن عن الله -تعالى- الذي شرع لنا دين الإسلام، وما صح عن رسول الله ﷺ، الذي أمره الله تعالى ببيان الدين". وقال الشاطبي -رحمه الله-: "الاختلاف منفي عن الشريعة بإطلاق؛ لأنها الحاكمة بين المختلفين؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَنزَعُكَ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢) إذ رد النزاع إلى الشريعة، فلو كانت الشريعة تقتضي الخلاف لم يكن في الرد إليها فائدة".

وقال الشوكاني -رحمه الله-: "قيل وهذا النهي عن التفرق والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية، وأما المسائل الفرعية الاجتهادية، فالاختلاف فيها جائز، وما زال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين في أحكام الحوادث، وفيه نظر؛ فإنه ما زال في تلك العصور المنكر للاختلاف موجوداً، وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر، ليس بصواب، فالمسائل الشرعية متساوية الأقدام في انتسابها إلى الشرع". ويقول المقبلي -رحمه الله-: "فعليك أيها الناظر! ألا تصغي إلى قولهم: (العبرة بالعقائد، أما الفروع فأمرها سهل)، ولكن تعلم أن الخلاف كله شر، وتزن نفسك بميزان الصحابة رضوان الله عليهم، والذي يعلم السهل من الحزن، هو الذي شرع الشرائع، ووصى بترك الخلاف في الدين، ومسمى الدين لا يخص عقائدهم هذه، وتسميتهم الأصول والفروع مجرد اصطلاح، يتوصل به إلى كيفية الاستدلال، لا إلى الإغراء على الخلاف، وتهوين أمره".

وهذا الخلاف بين العلماء في ذم الخلاف في الفروع مبني على مذهبي المصوبة والمخطئة في مسائل الاختلاف، ولكي نصل إلى الصواب في حكم الخلاف في الفروع لا بد من تحرير

(١) ابن عابدين (٠٠٠ - ١٣٠٦ هـ = ٠٠٠ - ١٨٨٩ م) محمد بن محمد أمين بن عمر، علاء الدين، ابن عابدين: فقيه حنفي كوالده، من علماء دمشق. كان من أعضاء الجمعية العمومية لجمع (المجلة الشرعية) بالأستانة، فأقام ثلاث سنوات. وعاد إلى بلده فأكمل حاشية أبيه (رد المحتار - ط) بكتاب سماه (قرة عيون الأختار لتكملة رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار - ط) جزآن. وتوفي بدمشق. (الأعلام للزركشي (ج ٧ - ص ٧٥).

(٢) سورة النساء: ٥٩.

هذه المسألة وتحقيق الصواب فيها وهي:

أي إذا ساع الاجتهاد في مسألة ما؛ فهل أن المصيب للحق فيها واحد وما عداه مخطئ؟ أم أن كل المختلفين فيها على الصواب والحق فيها متعدد؟

ولبيان وجه الحق في ذلك، لا بد من تحقيق معنى الإصابة في كلامهم.

فإن كان المراد بالإصابة: إصابة الأجر والثواب، أو أن الحق الواجب على المجتهد فعله هو ما وصل إليه، فهذا كله حق، وبهذا المعنى يكون كل مجتهد مصيباً، ويكون الخلاف على هذا المراد خلافاً لفظياً.

أما إن قصدوا بالإصابة: أن حكم الله في المسألة متعدد، وهو ما أدى إليه اجتهاد كل مجتهد، أي: أن الحق في الأقوال المتنافية غير واحد بل متعدد؛ فهذا فيه نزاع حقيقي، وللناس فيها ثلاثة مذاهب:

فذهبت بعض الطوائف أن المصيب واحد في كل مسألة أصلية أو فرعية، وكل ما سوى المصيب آثم؛ لأنه مخطئ، والخطأ والإثم عندهم متلازمان، وهذا قول بشر المريسي، وكثير من معتزلة البغداديين.

وذهب بعضهم إلى أن المصيب واحد في المسائل الأصولية، وكذلك الفرعية التي عليها دليل قطعي، أما العملية التي ليس عليها دليل قاطع، فليس لله فيها حكم في الباطن، وحكم الله في حق كل مجتهد ما أدى إليه اجتهاده.

وهم كالأولين عندهم الإثم والخطأ متلازمان، وأن كل مخطئ آثم، لكن خالفوهم في المسائل الاجتهادية؛ فقالوا: ليس فيها قاطع، وهذا القول قول كثير من الفقهاء أتباع المذاهب الأربعة، وأبي الهذيل العلاف، ومن اتبعه كالجبائي وابنه، وهو المشهور عن القدرية والمعتزلة، وهو أشهر قولي الأشعري، وهو اختيار القاضي الباقلاني، وأبي حامد الغزالي، وأبي بكر بن العربي، وغيرهم.

فكل مجتهد عند هؤلاء في المسائل العملية الاجتهادية مصيب ظاهراً وباطناً، والمخطئ في المسائل القطعية علمية أو عملية مذموم آثم.

وذهب آخرون إلى أن المصيب واحد، وأن الحق لا يتعدد، وأنه لا إثم على المخطئ من المجتهدين من هذه الأمة، لا في الأصول ولا في الفروع.

وهذا هو قول الجمهور، وهو القول المعروف عن الصحابة والتابعين، وأئمة الدين، كالثوري وداود بن علي، والأئمة الأربعة، وجمهور أتباعهم.

فَعِنْدَهُمْ حَكْمُ اللَّهِ فِي الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَخْتَلِفُ، قَدْ يَصِيبُهُ الْمَجْتَهِدُ وَقَدْ يَخْطِئُهُ، وَإِنْ كَانَ الْمَخْطِئُ مَعْذُورًا فِي خَطْئِهِ، مَأْجُورًا عَلَى اجْتِهَادِهِ، سِوَاهُ كَانَ ذَلِكَ فِي مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ أَوْ عَمَلِيَّةٍ، أَسْوَاقِيَّةٍ أَوْ فِرْعَوِيَّةٍ، وَهَذَا الْمَذْهَبُ هُوَ مَا يَعْرِفُ عِنْدَ الْأَصُولِيِّينَ بِمَذْهَبِ الْمَخْطِئَةِ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ الْأَدْلَةُ الشَّرْعِيَّةُ الْكَثِيرَةُ وَالْجَلِيَّةُ مِنْهَا: - قَوْلُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١) أَي: لَوْ كَانَ مَفْعَلًا مَخْتَلَفًا، كَمَا يَقُولُهُ مِنْ يَقُولُهُ مِنْ جَهْلَةِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِنِهِمْ ﴿لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أَي: اضْطِرَابًا وَتَضَادًا كَثِيرًا. أَي: وَهَذَا سَالِمٌ مِنَ الْاِخْتِلَافِ، فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (٢).

فَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الشَّرْعَ الْمَنْزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَنْزَهُ عَنِ الْاِخْتِلَافِ، وَفِرْعُوعُ الشَّرِيعَةِ مِمَّا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ فَلَا يَكُونُ فِيهَا اخْتِلَافٌ.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَعْلَقًا عَلَى الْآيَةِ: "فَنَفَى أَنْ يَقَعَ فِيهِ الْاِخْتِلَافُ الْبِتَّةَ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ مَا يَقْتَضِي قَوْلَيْنِ مَخْتَلَفَيْنِ، لَمْ يَصْدُقْ عَلَيْهِ هَذَا الْكَلَامُ". - وَقَوْلُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣) فَإِنْ اِخْتَلَفْتُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ: أَنْتُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ، أَوْ أَنْتُمْ وَوَلَاةُ أَمْرِكُمْ، فَاسْتَجْرْتُمْ فِيهِ "فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ"، يَعْنِي بِذَلِكَ: فَارْتَادُوا مَعْرِفَةَ حُكْمِ ذَلِكَ الَّذِي اسْتَجْرْتُمْ بَيْنَكُمْ، أَوْ أَنْتُمْ وَأَوْلُو أَمْرِكُمْ فِيهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، يَعْنِي بِذَلِكَ: مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَاتَّبِعُوا مَا وَجَدْتُمْ وَأَمَا قَوْلُهُ: "وَالرَّسُولِ"، فَإِنَّهُ يَقُولُ: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ سَبِيلًا فَارْتَادُوا مَعْرِفَةَ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ عِنْدِ الرَّسُولِ إِنْ كَانَ حَيًّا، وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا فَمِنْ سُنَّتِهِ "إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"، يَقُولُ: افْعَلُوا ذَلِكَ إِنْ كُنْتُمْ تَصَدِّقُونَ بِاللَّهِ "وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"، يَعْنِي: بِالْمَعَادِ الَّذِي فِيهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ. فَلَكُمْ مِنَ اللَّهِ الْجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ فَلَكُمْ الْأَلِيمَ مِنَ الْعِقَابِ (٤).

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ فِي الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - جَعَلَ شَرِيعَتَهُ هِيَ الْحَاكِمَةَ بَيْنَ الْمَخْتَلِفِينَ فِي الْفِرْعُوعِ وَفِي غَيْرِهَا؛ فَإِذَا نَفَسَ الشَّرِيعَةُ تَقْتَضِي الْخِلَافِ؛ فَإِنْ رَدَّ الْمُتَنَازِعِينَ إِلَيْهَا يَكُونُ عِبْثًا؛ لِأَنَّ مَا يَقْتَضِي الْخِلَافَ لَا يَرْفَعُ الْخِلَافَ وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا.

(١) سورة النساء: ٨٢

(٢) تفسير بن كثير (ج ٢ - ص ٣٦٤).

(٣) سورة النساء: ٥٩

(٤) تفسير الطبري (ج ٨ - ص ٥٠٤).

قال المزني -رحمه الله- في كتاب ذم التقليد: "وقد ذم الله الاختلاف في غير ما آية، ولو كان من دينه ما ذمه، ولو كان التنازع من حكمه ما رده إلى كتابه وسنة نبيه، ولا أمر بامضاء الاختلاف على ما هما به، وقد حذر رسول الله ﷺ أمته من الفرقة، وأمرها بلزوم الجماعة".

- ومن الأدلة على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (١) وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث، شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيب عنا علمه وقوله ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ يقول: ففهمنا القضية في ذلك ﴿سُلَيْمَانَ﴾ دون داود، ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يقول: وكلهم من داود وسليمان والرسول الذين ذكرهم في أول هذه السورة آتينا حكما وهو النبوة، وعلماء: يعني وعلماء بأحكام الله (٢). حيث خص الله سليمان -عليه الصلاة والسلام- بإصابة الحكم في هذه المسألة دون داود؛ فدل على أن الحق واحد فقط، ولو كان كل منهما مصيباً، لما كان لتخصيص سليمان بفهم الحكم أي مناسبة.

- ومن أدلة السنة على ذلك: أنه كان من وصيته ﷺ لأمرأه جيشه: ((وإذا حاصرت أهل حصن فسألوكم أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك)).

فهذا الحديث يدل على أن الله في كل مسألة حكماً، قد يصيبه المجتهد وقد يخطئه.

قال ابن الأمير الصنعاني (٣) -رحمه الله- في شرحه للحديث: "وهو دليل على أن الحق في مسائل الاجتهاد مع واحد، وليس كل مجتهد مصيباً للحق".

- ومثله قوله ﷺ: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد)).

حيث بين النبي ﷺ أن المجتهد في الحق قد يصيب الحق وقد يخطئه؛ فدل على أن حكم الله

(١) سورة الأنبياء: ٧٨-٧٩

(٢) تفسير الطبري (ج ١٨ - ص ٤٧٥).

(٣) الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني (١٠٩٩ هـ - ١١٨٢ هـ / ١٦٨٧ - ١٧٦٨) مؤرخ وشاعر ومصنف من أهل صنعاء. هو أحد أئمة اليمن المتأخرين والذين يعدوا في المجتهدين القلائل المتحررين المتبعين للدليل من الكتاب والسنة جنباً إلى صالح المقبلي والحسن الجلال والشوكاني. وُلد بمدينة كحلان قرب صنعاء. ثم انتقل إلى صنعاء وله إحدى عشرة سنة فنشأ بها. له مصنفات كثيرة، بلغت نحو مائة مصنف. منها: سبيل السلام، شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني؛ توضيح الأفكار شرح تنقيح الأنظار؛ اليواقيت في المواقيت؛ شرح الجامع الصغير للسيوطي؛ إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد؛ الروض النضير. مات بصنعاء. (الأعلام ٣٨/٦) والبيدر الطالع (١٣٣/٢ - ١٣٩).

في المسألة المختلف فيها اختلاف تضاد حكم واحد، من أصابه أعطي أجرين، ومن أخطأه أعطي أجراً واحداً؛ لبذله الجهد في الوصول إلى الصواب، وإن كان لم يدركه.

- ومما يدل أيضاً على ذلك: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَرَعَرَةَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ (١) عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّ أَنَسًا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ (٢) فَأُرْسِلَ إِلَيْهِ فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا بَلَغَ قَرِيبًا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ((قَوْمُوا إِلَى خَيْرِكُمْ أَوْ سَيِّدِكُمْ)) فَقَالَ يَا سَعْدُ إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ قَالَ فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مَقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ قَالَ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ أَوْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ (٣).
وفي رواية للترمذي: فقال رسول الله ﷺ: "أصبت حكم الله فيهم".

فقول النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه: ((أصبت حكم الله أو حكمت بملك))؛ يدل على أن الله في المسألة الواحدة حكماً، قد يصيبه المجتهد وقد يخطئه.
وعلى هذا المعنى تدل آثار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، حين كانوا يجتهدون في المسائل التي يسألون عنها من ذلك:

- أن أبا بكر - رضي الله عنه - سئل عن الكلاله فقال: "إني سأقول فيها برأيي؛ فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان،: أراه ما خلا الوالد والولد"، فلما استخلف عمر قال: "إني لأستحيي من الله أن أرد شيئاً قاله أبو بكر".

- وابن مسعود - رضي الله عنه - أتى في رجل تزوج امرأة، فمات قبل أن يدخل بها، ولم يسم لها صداقاً؛ فاختلفوا إليه في ذلك شهراً أو قريباً من شهر، فقالوا: لا بد أن تقول فيها، قال: أقضي أن لها صداق امرأة من نساءها لا وكس ولا شطط، ولها الميراث وعليها العدة؛ فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان من ذلك".

فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يعلمون أن اجتهادهم قد يصيب حكم الله وقد يخطئه؛ ولذا كانوا ينسبون الخطأ إلى أنفسهم والشيطان، ويبرئون حكم الله من ذلك، كما أن رجوع

(١) أبو أمامة بن سهل بن حنيف الأنصاري: الأوسي، المدني، الفقيه، المعمر، الحجة. اسمه: أسعد باسم جده لأمه، النقيب السيد، أسعد بن زرار. ولد: في حياة النبي ﷺ ورآه فيما قيل. اتفقوا على وفاته في سنة مائة. (التاريخ الكبير (١/ ٢/ ٦٣)).

(٢) سعد بن معاذ (٥ هـ) سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، أبو عمرو الأنصاري الأوسي الأشهلي البصري. أسلم على يد مصعب بن عمير. قال ابن إسحاق: لما أسلم وقف على قومه، فقال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا فضلاً، وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلامكم علي حرام، رجالكم ونساؤكم حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما بقي في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وأسلموا. قال ابن إسحاق: آخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين سعد وأبي عبيدة بن الجراح. رمي رضي الله عنه يوم الخندق بسهم فعاش بعد ذلك شهراً ثم انتقض جرحه فمات منه، وذلك سنة خمس للهجرة. (أسد الغابة (٢/ ٤٦١ - ٤٦٤)).

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، باب منقبة أسيد بن الخضير (ج ١٦ - ص ٢٦٩ - رقم ٤٠٨٣).

بعضهم إلى قول بعض في المسألة، دليل كذلك على ما قرر.

فالشافعي - رحمه الله - فرق بين إصابة الاجتهاد التي يؤجر عليها المجتهدون، وبين إصابة الحق الذي يؤجر عليه من أصابه دون غيره، وعليه فإن: "الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها، وإن كثر الاختلاف، كما أنها في أصولها كذلك، ولا يصح فيه غير ذلك".
مع التنبيه هنا إلى تباين العلماء والطوائف الإسلامية في تحديد الأصول من الفروع. فالمسلمون مجمعون على أن شرائع وفرائض الدين، تتفاوت تفاوتاً يجعل بعضها أجل وأعظم وأوجب من بعض، ابتداء من قول: (لا إله إلا الله)، إلى (إمطة الأذى عن الطريق). ومهما تباينت آراء الطوائف الإسلامية في تحديد الأصول من الفروع، إلا أن ثمة قدر مجمع عليه بين الجميع يسمى (أصول الدين)، وما سوى ذلك فهم مختلفون في الاعتبار الذي تنقسم لأجله مسائل الدين إلى أصول وفروع.

فما هي الأصول من الفروع؟

عند النظر في اختلاف العلماء في ما يفرق به بين الأصول والفروع، نجد أن أقرب الفوارق إلى الصواب، يمكن به تحديد الفارق الذي به تحدد الأصول من الفروع، يكون باعتبار دليلها من جهة قطعيتها وظنيتها.

فتكون الأصول ذات الأدلة القطعية، وتكون الفروع ذات الأدلة الظنية، سواء كانت مسائل علمية أو عملية.

يقول الشاطبي - رحمه الله -: "إن الأصول والقواعد إنما تثبت بالقطعيات ضرورية كانت أو نظرية، عقلية أو سمعية، وأما الفروع فيكفي فيها مجرد الظن".

وقال الشيرازي - رحمه الله -: "إن الفروع ليس عليها أدلة قاطعة ... بخلاف الأصول فإن عليها أدلة قاطعة".

مع التنبيه إلى أن هذا التفريق غير جامع ولا مانع؛ لأن كون المسألة قطعية أو ظنية هو أمر إضافي، بالنسبة إلى علم المجتهد في المسألة، وعليه فقد يخطئ العالم في مسألة قطعية، فيخطئ فيها، ولا يؤثم ما دام أن كلامه فيها بناه على أصول الاجتهاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: "وقول الله تعالى - في القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (١) قال الله: قد فعلت، ولم يفرق بين الخطأ القطعي والظني، بل لا يجزم بأنه

(١) سورة البقرة: ٢٨٦

خطأ إلا إذا كان أخطأ قطعاً.

قالوا -أي: أهل الحق-: فمن قال: إن المخطئ في مسألة قطعية أو ظنية يَأْتَمُّ؛ فقد خالف الكتاب والسنة والإجماع القديم، قالوا: وأيضاً فكون المسألة قطعية أو ظنية هو أمر إضافي، بحسب حال المعتقدين، ليس هو وصفاً للقول في نفسه؛ فإن الإنسان قد يقطع بأشياء علمها بالضرورة أو بالنقل المعلوم صدقه عنده، وغيره لا يعرف ذلك لا قطعاً ولا ظناً، فالقطع والظن يكون بحسب ما وصل إلى الإنسان من الأدلة، وبحسب قدرته على الاستدلال.

والناس يختلفون في هذا وهذا، فكون المسألة قطعية أو ظنية ليس هو صفة ملازمة للقول المتنازع فيه، حتى يقال: كل من خالفه قد خالف القطعي، بل هو صفة لحال الناظر المستدل المعتقد، وهذا مما يختلف فيه الناس؛ فعلم أن هذا الفرق -أي: بين الأصول والفروع- لا يطرد ولا ينعكس".

وبين -رحمه الله- في موطن آخر إلى أن صواب ما يفرق به بين الأصول والفروع في المسائل الشرعية هو جلها من دقها، سواء كانت علمية أو عملية، وقال -رحمه الله-: "الحق: أن الجليل من كل واحد من الصنفين -أي: المسائل الخبرية والعملية- مسائل أصول والدقيق فيها مسائل فروع".

قصد الخلاف منهي عنه شرعاً، سواء كان ذلك في الأصول أو الفروع؛ لأن الاختلاف والتفريق في الدين الذي نهى الله عنه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، لم يفرق فيه بين أصول الدين وفروعه.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ^(١)، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا مُوسَى، وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ لَهُمَا: «يَسْرًا وَلَا تُعْسِرًا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا وَتَطَوَّعًا»^(٢).

فحضهم ﷺ "على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف"، دون تفرقة بين أصول الدين وفروعه، وقد كان معلوماً لديه ﷺ، ولديهما -أيضاً- أنهما سيعلمان الدين أصوله وفروعه. وعليه فلا فرق بين مسائل الأصول والفروع من جهة ذم الاختلاف فيها، وإن كان الخلاف

(١) أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري، الفقيه، العلامة، قاضي الكوفة. وكان من أوعية العلم، حجة باتفاق، اسمه عامر - فيما قيل - وولي قضاء الكوفة بعد شريح مدة، ثم عزله الحجاج، وولى أخاه؛ أبا بكر بن أبي موسى. قال أبو نعيم: مات أبو بردة سنة أربع ومائة. وقال الواقدي: مات سنة ثلاث ومائة. (البداية والنهاية ٩ / ٢٣١).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، باب حديث أبو موسى الأشعري (ج ٣٢ - ص ٥١٨ - رقم ١٩٧٤٢).

في الأصول أبلغ ذمًا، وأكثر فرقة منه في الفروع، أي أن حرمة الاختلاف في الفروع لا تكون كحرمة الاختلاف في الأصول؛ فالحرمة الثانية أشد وأغلظ من الحرمة الأولى.

قال الشافعي -رحمه الله- رداً على من قال: فإنني أجد أهل العلم قديماً وحديثاً مختلفين في بعض أمورهم فهل يسعهم ذلك؟ قال: فقلت له: الاختلاف من وجهين أحدهما محرم، ولا أقول ذلك في الآخر، قال: فما الاختلاف المحرم؟ قلت: كل ما أقام الله به الحجة في كتابه، أو على لسان نبيه منصوصاً بياناً، لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه، وما كان يحتمل التأويل، ويدل قياساً، فذهب المتأول أو القاييس إلى معنى يحتمله الخبر أو القياس، وإن خالفه فيه غيره، لم أقل: إنه يضيق عليه ضيق الخلاف في المنصوص".

فيلحظ من كلام الشافعي -رحمه الله- تضييقه الخلاف في الفروع، وإن لم يكن كالتضييق في الخلاف في الأصول، وقد فهم المزمي ذلك، وهو تلميز الشافعي الأدنى فقال معلقاً: "فظاهر قوله أنه ضيق الخلاف كتضييقه في المنصوص".

وخلاصة القول في حكم الشرع في الخلاف

- أن الخلاف وإن أَرَادَهُ اللهُ قَدْرًا كَسَائِرِ الذُّنُوبِ - إلا أنه نهى عنه شرعاً؛ لأنه شر وعذاب. - أن التوسعة والرحمة في الاجتهاد المأذون به شرعاً، لا في الخلاف المنهي عنه شرعاً المحرم قصده، سواء كان في الأصول أو الفروع.

- وأن الخلاف إذا كان عن اجتهاد لا يذم، ولا يآثم صاحبه، سواء كان في الأصول أو الفروع، وإن خُطئ في اجتهاده.

- أن الخلاف الذي وقع فيه الصحابة وأئمة العلم -رضي الله عنهم- ما طلبوه ولا رغبوا فيه -أي: ما وقعوا فيه قصداً- وإنما وقعوا فيه عرضاً.

- مع التنبيه إلى أن أدلة الشريعة لا تتعارض، ولا تتناقض في نفسها ولا مع بعضها، وما يظهر من خلاف أو تعارض بينها، فلا يرجع إلى ذات النصوص، وإنما هو بحسب ما يظهر للمجتهد في تلك النصوص، أما نصوص الشرع فلا يجوز أن يكون الاختلاف فيها، أو مقصوداً بها، مع نهى الشارع عنه وذمه له.

المبحث الثاني أدب الاختلاف في الإسلام

المطلب الأول: آداب ينبغي مراعاتها عند الخلاف:

ثمة آداب ينبغي على علماء المسلمين وعامتهم مراعاتها والقيام بحق المخالف فيها، ومنها: إحسان الظن بالعلماء وأن لا يعتقد أنهم تعمدوا ترك الحق الذي بان له - وقد يكون هو المخطئ -، وعليه فلا يعتقد هلكتهم في خلافهم له، بل يلتمس لهم العذر في ذلك. قال ﷺ: ((إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فأخطأ فله أجر)) (١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يُرد منها، وإما لرأي رأوه، وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (٢). وفي الصحيح قال: ((قد فعلت)) (٣) (٤).

ومنه قول علي رضي الله عنه لعمر بن طلحة بن عبيد الله، وكان بينه وبين طلحة خلاف يوم الجمل: (إني لأرجو أن يجعلني الله وإياك في الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٥) (٦) (٧) فتبقى قلوبهم سالمة من كل دغل وحسد متصافية متحابية.

قال يحيى بن سعيد الأنصاري "ما برح أولو الفتوى يختلفون، فيحل هذا ويحرم هذا، فلا يرى المحرم أن المحل هلك لتحليله، ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه" (٨).

أن لا يؤدي الخلاف إلى جفوة وفتنة بين المختلفين، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام: "كانوا يتناظرون في المسائل العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين، ولو كان كلما

(١) البخاري (ح ٧٣٥٢، ومسلم ح ١٧١٦).

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) مسلم ح ١٢٦.

(٤) الفتاوى ١٩٢٨٦.

(٥) سورة الحجر: ٤٧.

(٦) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٤٣١).

(٧) رواه الحاكم (ح ٥٦١٣)، والبيهقي في السنن (ح ١٦٤٩١).

(٨) جامع بيان العلم (ج ٢ - ص ٨٠).

اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة^(١)، ويقول "فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ"^(٢).

ويقول يونس الصديقي^(٣): "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا ولقيته فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة".

قال الذهبي: "هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون"^(٤). وقال محمد بن أحمد الفنجاري: "كان لابن سلام مصنفات في كل باب من العلم، وكان بينه وبين أبي حفص أحمد بن حفص الفقيه مودة وأخوة مع تخالفهما في المذهب"^(٥).

أن لا يُنكر على المجتهد في اجتهاده وعمله بهذا الاجتهاد، ولا يمنع هذا من إقامة الحجة عليه أو المحاوره معه للخروج من الخلاف والوصول إلى الحق، بل هو الأولى، إذ مازال السلف يرد بعضهم على بعض في مسائل الفقه والفروع من المعتقد، وهذا من النصيحة للمسلمين.

وقد نقل عن كثير من السلف عدم الإنكار في مسائل الخلاف إذا كان للاجتهاد فيها مساع. يقول سفيان: إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنتهه^(٦)، وروى عنه الخطيب أيضاً أنه قال: ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحداً عنه من إخواني أن يأخذ به^(٧).

ويقول أحمد فيما يرويه عنه ابن مفلح: لا ينبغي للفقهاء أن يحمل الناس على مذهب ولا يشدد عليهم. ويقول ابن مفلح: لا إنكار على من اجتهد فيما يسوغ منه خلاف في الفروع^(٨). قال النووي: "ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصاً أو

(١) الفتاوى: (ج٤ - ص ١٧٢-١٧٣).

(٢) الاستقامة (ج١ - ص ٣١).

(٣) يونس الصديقي يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص بن خباب الصديقي أبو موسى المصري، أحد أصحاب الشافعي روى عن أشهب، وابن وهب، والشافعي، والوليد ابن مسلم، وجماعة، وعنه: مسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابنه أحمد بن يونس، وبقي بن مخلد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وكان يوتقه، ويرفع من شأنه، توفي غداة يوم الاثنين ليومين مضياً من ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين، وكان مولده في ذي الحجة سنة سبعين ومائة، (طبقات الشافعي ج ١ - ص ١٦٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج١٠ - ص ١٦-١٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (ج١٠ - ص ٦٣٠).

(٦) الفقيه والمتفقه (ج٢ - ص ٦٩).

(٧) الفقيه المتفقه (ج٢ - ص ٦٩).

(٨) الآداب الشرعية (ج١ - ص ١٨٦).

إجماعاً أو قياساً جلياً^(١).

وسئل القاسم بن محمد عن القراءة خلف الإمام فيما لم يجهر به فقال: إن قرأت فلك في رجال من أصحاب محمد رسول الله ﷺ أسوة، وإذا لم تقرأ فلك في رجال من أصحاب رسول الله أسوة^(٢).

وعبر الفقهاء عن هذا بقاعدتهم التي تقول: الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد^(٣).

عن أنس قال: (إنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ كنا نساfer، فمننا الصائم ومننا المفطر، ومننا المتم ومننا المقصر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم، ولا المقصر على المتم، ولا المتم على المقصر)^(٤).

العمل على رفع الخلاف بالوسائل الشرعية: - الخلاف شر، وينبغي على المسلمين العمل على رفعه، طلباً للحق، وحفظاً لوحدة المسلمين، وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٥) ^(٦)، فقولنا بأن الخلاف في المسألة سائغ لا يمنع من تحري الحق، والمحاورة والمناظرة بين أهل العلم للوصول إلى مراد الشرع في المسألة. ولأجل هذا دونت مئات الكتب التي تتحدث في مواطن الاختلاف وموارد النزاع.

وفي الحوار ينبغي على المسلم أن يتواضع لإخوانه، وأن يلتزم طلب الحق في حوارهم كما علمنا الله بقوله في مجادلتنا للكافرين: ﴿وإنَّا أوليآكم لعلَّ هدى أو في ضلالٍ مبين﴾^(٧). وينبغي أن يكون جداله معهم بالتي هي أحسن فقد قال الله في جدال أهل الكتاب: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، وقال في حق غيرهم: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾^(٢) قال القرطبي: "وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً،

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (ج ٢- ص ٢٤).

(٢) التمهيد، ابن عبد البر (ج ١١- ص ٥٤).

(٣) الأشباه والنظائر، ابن نجيم (ص ١٠٥).

(٤) لبيهقي في السنن (ح ٥٢٢٥).

(٥) سورة النساء: ٥٩.

(٦) سبق تفسيرها.

(٧) سورة سبأ: ٢٤.

(١) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٢) سورة البقرة: ٨٣.

ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر والسني والمبتدع من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه. ثم قال: فيدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي^(١).

وكلام القرطبي لا يمنع ولا يرفع ما ذكره العلماء في هجر المبتدع أو الفاسق، فذلك أيضاً من وسائل الدعوة التي قد تردع عن الفسق والبدعة.

٦- معالجة جذور الازمة الفكرية التي اورثتنا الخلاف والتآكل الداخلي، وإيقاظ البعد الإيماني في نفوس المسلمين بعد أن كاد يغيب عن حكم علاقاتنا وتوجيهها الوجهة الصحيحة بسبب من الفهم المعوج والممارسات المخطئة ومن ضغوط المجتمعات غير الإسلامية، ذلك أن حضور البعد الإيماني وتحقق الفهم السليم هو الضمانة الحقيقية لشرعية علاقاتنا، والملاذ الأخير لتصفية خلافاتنا ونزع أغلال قلوبنا. فقد يكون نصيبنا من العلم والمعرفة ليس بالقليل. لكن المشكلة التي نعاني منها اليوم أننا افتقدنا الموجه الصحيح والمؤشر الضروري الذي يمنحنا السلامة ويكسبنا الصواب لهذا العلم وتلك المعرفة، أننا اكتسبنا المعرفة وافتقدنا خلقها، وامتلكنا الوسيلة وضيعنا الهدف والغاية، وما أكثر ما فوتت علينا خلافاتنا حول مندوب أو مباح امر مفروضاً أو واجباً، لقد اتقنا فن الاختلاف وافتقدنا آدابه والالتزام بأخلاقياته، فكان أن سقطنا فريسة التآكل الداخلي والتنازع الذي أورثنا هذه الحياة الفاشلة وادى إلى ذهاب الريح، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُكْفَرُوا بِمَا كَفَرُوا وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا أُمَّةٌ مِمَّنْ أَنْزَلْنَا لَهُ الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَ وَالْغُرُوبَ﴾ (٢) (٣).

ولقد حذرنا الله تعالى من السقوط في علل أهل الأديان السابقة، وقص علينا تاريخهم للعبارة والحذر، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٤) ولا تكونوا من المشركين وأهل الأهواء والبدع الذين بدلوا دينهم، وغيره، فأخذوا بعضه، وتركوا بعضه تبعاً لأهوائهم، فصاروا فرقاً وأحزاباً، يتشيعون لرؤسائهم وأحزابهم وآرائهم، يعين بعضهم بعضاً على الباطل، كل حزب بما لديهم فرحون مسرورون، يحكمون لأنفسهم بأنهم على الحق وغيرهم على الباطل^(١).

(١) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن (ج ٢- ص ١٦).

(٢) سورة الأنفال: ٤٦

(٣) سبق تفسيرها.

(٤) سورة الروم: ٣١-٣٢

(١) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٤٠٧).

واعتبر الاختلاف الذي يسبب الافتراق والتمزق ابتعادا عن أي هدي للنبوة أو انتساب لرسولها ﷺ حين قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(١). ذلك أن أهل الكتاب لم يؤتوا من قلة علم وضالة معرفة، وإنما كان هلاكهم لانهم وظفوا ما عندهم من علوم ومعارف للبغي بينهم، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيِّنًا يبينهم﴾^(٢) أي وما خرج أهل الكتاب من الإسلام الذي جاء به أنبيأؤهم على نحو ما فصلناه آنفا، وصاروا مذاهب وشيعة يقتتلون في الدين - والدين واحد لا مجال فيه للاختلاف والاقنتال إلا بسبب البغي وتجاوز الحدود من الرؤساء، ولولا بغيهم ونصرهم مذهبها على مذهب وتضليلهم من خالفهم بتفسيرهم نصوص الدين بالرأي والهوى وتأويل بعضه أو تحريفه لما حدث هذا الاختلاف^(٣).

فهل ورثنا علل أهل الكتاب بدل أن نرث الكتاب؟ وهل ورثنا البغي بدل أن نرث العلم والمعرفة وملتزم بأخلاقهما؟ أن الاختلاف والبغي وتفريق الدين من علل أهل الكتاب التي كانت سببا في هلاكهم ونسخ أديانهم وبقاء قصصهم وسائل إيضاح للدرس والعبرة لمن ورثوا الكتاب والنبوة، ذلك انه لا سبيل للاستبدال والنسخ في عالم المسلمين، وهم أصحاب الرسالة الخاتمة، وإنما هي الأمراض التي لا تقضي على الجسم نهائيا، فإما أن تستمر فتعيش الأمة حالة الوهن الذائب، وإما أن تعالج فيكون التصويب، وتكون المعافاة، ويكون النهوض وإيقاف التآكل الداخلي، وهذا من خصائص الرسالة الخاتمة.

إن ما يعانيه عالم المسلمين اليوم لا يخرج عن أن يكون إعراضا للمشكلة الثقافية وخطا في البنية الفكرية التي يعيشها العقل المسلم، وآثارا للضرورة الأخلاقية التي يعاني منها السلوك المسلم، وما من سبيل إلى خروج إلا بمعالجة جذور الأزمة الفكرية وتصويب الفهم وإعادة صياغة السلوك الخلقي، كضمانة ضرورية، والا كنا كالذي يضرب في حديد بارد، ولاشك أن الاختلاف في وجهات النظر وتقدير الأشياء والحكم عليها امر فطري طبيعي، له علاقة بالفروق الفردية إلى حد بعيد، إذ يستحيل بناء الحياة وقيام شبكة العلاقات الاجتماعية بين الناس أصحاب القدرات الواحدة والنمطية الواحدة، ذلك أن الأعمال الذهنية والعملية تتطلب مهارات متفاوتة،

(١) سورة الأنعام: ١٥٩

(٢) سورة آل عمران: ١٩

(٣) تفسير المراغي (ج ٣ - ص ١٢٠).

وكان حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون بين الناس بفروقهم الفردية سواء أكانت خلقية أم مكتسبة بين الأعمال في الحياة تواعد والتقاء، وكل ميسر لما خلق له، وعلى ذلك فالناس مختلفون، والمؤمنون درجات، فمنهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات.. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١) (٢).

وهنا نقول: إن الاختلاف بوجهات النظر بدل أن يكون ظاهرة صحة تغني العقل المسلم بخصوصية في الرأي، والاطلاع على عدد من وجهات النظر، ورؤية الأمور من أبعادها وزواياها كلها، وإضافة عقول إلى عقل، انقلب عند مسلم عصر التخلف إلى وسيلة للتآكل الداخلي والإنهاك، وفرصة للاقتتال، حتى كاد الأمر أن يصل ببعض المختلفين إلى حد التصفية الجسدية، وإلى الاستتصار والتقوي بأعداء الدين على صاحب الرأي المخالف، ولهذا في التاريخ القريب والبعيد شواهد، فكثيرا ما يعجز الإنسان عن النظرة الكلية السوية للأمور، والرؤية الشاملة للأبعاد المتعددة فيقع وراء جزئية يضخمها ويكبرها حتى تستغرقه إلى درجة لا يمكن معها أن يرى شيئا آخر، أو إنسانا يرى رأيا آخر، وقد تصل به إلى أن يرى بمقاييسات محزنة أعداء الدين اقرب إليه من المخالفين له بالرأي من المسلمين الذين يلتقون معه على أصول العقيدة نفسها.

ولعل مرد معظم اختلافاتنا اليوم إلى عوج في الفهم تورثه علل النفوس من الكبر والعجب بالرأي، والطواف حول الذات والافتتان بها، واعتقاد أن الصواب والزعامة وبناء الكيان إنما يكون باتهام الآخرين بالحق وبالباطل، الأمر الذي قد يتطور حتى يصل إلى فجور في الخصومة والعياذ بالله تعالى.

أنا قلما ننظر إلى الداخل، لان الانشغال بعيوب الناس، والتشهير بها، والإسقاط عليها، لم يدع لنا فرصة التأمل في بنائنا الداخلي، والأثر يقول: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» (١).

لقد اختلف السلف الصالح رضوان الله عليهم، لكن اختلافهم في الرأي لم يكن سببا لافتراقهم، انهم اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا، لان وحدة القلوب كانت اكبر من أن ينال منها شيء،

(١) سورة هود: ١١٨.

(٢) سبق تفسيرها .

(١) ورواه البزار بإسناد آخر عن أنس كما في المجمع (١٠/ ٢٢٨ - ٢٢٩). وضعفه الألباني (٨/ ٢٩٩).

انهم تخلصوا من العلل النفسية وان أصيب بعضهم بخطأ الجوارح، وكان الرجل الذي بشر الرسول ﷺ الصحابة بطلعته عليهم واخبرهم انه من أهل الجنة، هو الذي استتكهوا أمره وعمله فتبين انه لا ينام وفي قلبه غل على مسلم ... أما نحن اليوم فمصيبتنا في نفوسنا وقلوبنا، لذلك فان معظم مظاهر التوحد والدعوة إليه والانتصار له إنما هي عبارة عن مخادعة للنفس، ومظاهر خارجية قد لا نختلف فيها كثيرا عن غيرنا.

فالعالم الإسلامي بعد أن كان دولة واحدة تدين بالمشروعية العليا لكتاب الله تعالى وسنة رسوله أصبح اليوم سبعا وثمانين دويلة أو يزيد، والاختلافات بينهم لا يعلم مداها إلا الله، وكلها ترفع شعارات الوحدة، بل قد توجد ضمن الدولة الواحدة كيانات عدة. وليس واقع بعض العاملين للإسلام اليوم الذين تناط بهم مهمة الإنقاذ احسن حالا من مؤسساتهم الرسمية ... إن ازمتنا أزمة فكر، ومشكلتنا في عدم صدق الانتماء، والأمة المسلمة عندما سلم لها عالم أفكارها، وكانت المشروعية العليا الأساسية في حياتها للكتاب والسنة استطاعت أن تحمل رسالة وتقيم حضارة على الرغم من شظف العيش وقسوة الظروف المادية، فكان مع العسر يسر ... ذلك أن الحيدة عن الكتاب والسنة موقع في التنازع والفشل، قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَزَعُوا أَنفُسَكُمُوهَا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا﴾ (١)(٢).

لقد أوقف الإسلام التشردم والتآكل الداخلي ووجه العرب وجهة الاله الواحد الحق والغنى الآلهة المزيفة حيث كان لكل قبيلة الهها الذي تتجه إليه. أما المسلمون اليوم في مواقعهم الكثيرة فانهم لا يشكون من قلة المادة وتوفر الأشياء، ومع ذلك انقلبوا إلى أمة مستهلكة على مستوى الأفكار والأشياء معا لانهم افتقدوا المعاني الجامعة والقواسم المشتركة، وغابت عنهم المشروعية الكبرى في حياتهم، وأصاب الخلل بنيتهم الفكرية.

من هنا نقول: لابد من إعادة الصياغة، وإعادة الترتيب المفقود لفكر المسلم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالرجوع إلى كتب الأصول، حيث وضع علماءنا الضوابط والقواعد للمقايسة والاستنتاج لضبط الرأي وضمان مساره، واقتران العلم عندهم بأخلاقه ... وتنمية الدراسات التي تؤكد وحدة الأمة وقواسمها المشتركة، والمنهج التربوي الذي يسلمها بأخلاق المعرفة، وإبراز النقاط الجامعة واعتبار فترات الرفض والخروج وكتب الخلافات حالات مرضية لا يعتد بها.

(١) سورة الأنفال: ٤٦

(٢) الانفال: ٤٦ سيق تفسيرها ص ١٦.

وان من اخطر ما أصيبت به هذه الأمة في الآونة الأخيرة مرض "الاختلاف والمخالفة"... الاختلاف في كل شيء، وعلى كل شيء، حتى شمل العقائد والأفكار والتصورات والآراء إلى جانب الأذواق والتصرفات والسلوك والأخلاق، وتعدى الاختلاف كل ذلك حتى بلغ أساليب الفقه، وفروض العبادات وكأن كل ما لدى هذه الأمة من أوامر ونواه يحثها على الاختلاف أو يدفعها إليه والأمر عكس ذلك تماما، فان كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما حرصا على شيء بعد التوحيد حرصهما على تأكيد وحدة الأمة، ونبذ الاختلاف بين أبنائها، ومعالجة كل ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقة بين المسلمين، أو يחדش اخوه المؤمنين، ولعل مبادئ الإسلام ما نددت بشيء بعد الإشراف بالله تنديدها باختلاف الأمة، وما حضت على امر بعد الإيمان بالله حضها على الوحدة والائتلاف بين المسلمين. وأوامر الله ورسوله واضحة في دعوتها لإيجاد الأمة التي تكون كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه أصابه الوهن كله.

ولكن رسالة الإسلام مع ذلك رسالة واقعية تتعامل مع الإنسان على ما هو عليه، وخالق الإنسان تبارك وتعالى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، فقد وهب لعباده عقولا ومقدرات متباينة من شأنها أن تؤدي إلى اختلاف في نظرتهم وأفكارهم ومواقفهم من كثير من الأشياء، ولذلك فان الإسلام يتسع إلى تلك الاختلافات كلها التي لا تهدد وحدة الأمة، فيكفي أن تتفق الآراء، وتلتقي التصورات، وتتوحد المواقف إزاء القضايا الكبرى والقواعد الأساسية، أما ما عداها من أمور فرعية، وقضايا ثانوية مما يساعد اختلاف الرأي فيها على الجروح نحو الأفضل والأمثل فلا ضير فيه على أن يكون لهذا الاختلاف ضوابط وحدوده، وقواعده وآدابه، والا يؤثر على وحدة فكر الأمة ومواقفها من القضايا الأساسية الكبرى. فما حقيقة الاختلاف؟ وما الحدود التي لا يجوز تجاوزها فيه؟ وما أسبابه؟ وما القدر المسموح به منه؟ وما ضوابطه وآدابه؟ وما السبيل للتخلص من سلبياته؟

ونظرا لتعدد جوانب هذا الموضوع فقد تنوعت مصادره فله جانب منطقي جدلي تكفلت

ببحثه الكتب المنطقية الخاصة بآداب البحث والمناظرة^(١).

(١) وهناك منظومة لزين الدين المرصفي المتوفى سنة (١٣٠٠ هـ) نظم فيها جملة آداب البحث والمناظرة كما ان لـ: طاش كبرى زاده المتوفى سنة (٩٦٨ هـ) وصاحب الكتاب المعروف في تصنيف العلوم المسمى بـ ((مفتاح السعادة)) منظومة في هامة في هذا الفن، بين فيها حقيقة المناظرة وآدابها وحصرها بتسعة، كما بين ما يطلب من السائل والمعلل من الآداب أثناء المناظرة، وهناك كتاب الفه السيد محمد الأمين الشنقيطي الجكني في هذا الموضوع لطالبة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

المطلب الثاني: تاريخ الاختلاف وتطوره:

اختلاف الصحابة في عهد رسول الله ﷺ:

لم يكن في عهد رسول الله ﷺ ما يمكن أن يؤدي إلى الاختلاف بالمعنى الذي ذكرناه ذلك لان رسول الله ﷺ مرجع الجميع باتفاق ومردهم في كل أمر يحزبهم، ومفزعهم في كل شأن، وهاديتهم من كل حيرة، فاذا اختلف الصحابة رضوان الله عليهم في شيء ردوه إليه عليه الصلاة والسلام فبين لهم وجه الحق فيه، وأوضح لهم سبيل الهداية، وأما الذين ينزل بهم من الأمور مالا يستطيعون رده إلى رسول الله ﷺ لبعدهم عن المدينة المنورة، فكان يقع بينهم الاختلاف كاختلاف في تفسير ما يعرفونه من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ وتطبيقه على ما نابهم من أحداث وقد لا يجدون في ذلك نصا فتختلف اجتهاداتهم ... هؤلاء اذا عادوا إلى المدينة، والتقوا برسول الله ﷺ عرضوا عليه ما فهموه من النصوص التي بين أيديهم أو ما اجتهدوا فيه من القضايا فإما أن يقرهم على ذلك فيصبح جزءا من سنته ﷺ وإما أن يبين لهم وجه الحق والصواب فيطمئنون لحكمه ﷺ ويأخذون به ويرتفع الخلاف، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، أي: ديار بني قريظة.

وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم^(١) وظاهر من هذا الحديث الشريف أن الصحابة رضوان الله عليهم انقسموا إلى فريقين في موقفهم من أداء صلاة العصر: فريق أخذ بظاهر اللفظ (كما يقول المناطقة) أوم بما يسميه أصوليو الحنفية بـ "عبارة النص". وفريق استنبط من النص معنى خصه به.

وتصويب رسول الله ﷺ للفريقين دليل على مشروعية كل من المذهبين.

فالمسلم إذا، له أن يأخذ بظاهر النص وله أن يستنبط من المعاني ما يحتمله النص ويمكن التدايل عليه ولا لوم على من بذل جهده وكان مؤهلا لهذا النوع من الجهد. فالفريق الثاني من الصحابة رضوان الله عليهم فهموا أن رسول الله ﷺ إنما أراد أن يأمرهم بالمبالغة في الإسراع ولذلك اعتبروا أن أداءهم الصلاة قبل الوصول إلى بني قريظة لا ينافي أمر رسول الله ﷺ

(١) انظر صحيح البخاري بهامش شرحه فتح الباري (٣١٣/٧)، وإرشاد الساري والعييني (٢٥٤/٨) ومتمن البخاري (٤٧/٥) في كتاب المغازي ويستحسن مراجعته في باب صلاة الخوف، ومسلما في (كتاب الصلاة).

بالصلاة في بني قريظة ما دامت الصلاة لن تؤخرهم عن الوصول.
ومن الطريف أن ابن القيم رحمه الله أورد اختلاف الفقهاء في تصويب أي من الفريقين،
وبيان الأفضل من فعل كل منهما، فمن قال: أن الأفضل فعل من صلى في الطريق فحاز قصب
السبق في أداء الصلاة في وقتها وتلبية أمر رسول الله ﷺ ومن قائل: أن الأفضل فعل من أخرها
ليليها في بني قريظة(١).

قلت: وما دام رسول الله ﷺ لم يعنف واحدا منهما فكان على الفقهاء رحمهم الله أن يسعهم
ذلك من سنة رسول الله ﷺ وألا يخوضوا في أمر قد تولى، عليه الصلاة والسلام، حسمه
والانتهاه منه.

ب- ومن أمثله كذلك ما أخرجه أبو داود والحاكم من حديث عمرو بن العاص رضي الله
عنه، قال: (احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك،
فتمت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: (يا عمرو صليت بأصحابك
وأنت جنب؟)) فأخبرته بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢) فضحك رسول
الله ﷺ (لم يقل شيئا)) أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه. ويدخل في ذلك الإلقاء
بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك(٣).

ج - ابن مسعود وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما على كثرة التشابه بين منهجهما
الفقهي أوصل ابن القيم المسائل التي اختلفوا فيها إلى مائة مسألة منها:
- ابن مسعود كان ينهى عن وضع اليدين على الركب في الركوع ويأمر بالإطباق وعكسه
عمر.

اختلفا في الرجل زنا بامرأة ثم تزوجها فيرى ابن مسعود أنهما لا زالا يزنيان حتى ينفصلا
ويخالفه عمر(٤).

ومع ذلك انظر ثنائهما على بعضهما. يقول عمر عن ابن مسعود: (كنيف ملئ فقهاً أو علماً
آثرت به أهل القادسية)(٥). ويقول ابن مسعود عن عمر: (كان للإسلام حصناً حصيناً يدخل

(١) في كتابه ((إعلام الموقعين)).

(٢) سورة النساء: ٢٩.

(٣) تفسير السعدي (ج ١ - ص ١٧٥).

(٤) إعلام الموقعين (ج ٢ - ص ٢٣٧).

(٥) سير أعلام النبلاء (ج ١ - ص ٤٩١).

الناس فيه ولا يخرجون، فلما أصيب عمر انتلم الحصن(١).

- واختلف الصحابة في توريث الإخوة مع وجود الجد، فكان زيد وعلي وابن مسعود لا يرونه، وأما ابن عباس فيخالفهم ويقول: (ألا يتقي الله زيد يجعل ابن الابن ابناً، ولا يجعل أب الأب أباً) وقال: (لوددت أني وهؤلاء الذين يخالفونني في الفريضة نجتمع فنضع أيدينا على الركن ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)(٢).

ورغم هذه الثقة العارمة برأيه فإنه ذات يوم رأى زيدا على دابته فأخذ بخطامها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال زيد: أرني يدك، فأخرج ابن عباس يده فقبلها زيد وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ(٣). ولما دفن زيد قال ابن عباس: (هكذا ذهب العلم، لقد دفن اليوم علم كثير)(٤).

- ووقع بين الصحابة خلاف أوقع بينهم قتلاً وقتالاً، لكنه لم يمنع من ورود بعض صور محمودة منها:

- ١- خلو قلوبهم من الغل، ومنه قول مروان بن الحكم (ما رأيت أحداً أكرم غلبة من علي، ما هو إلا أن ولينا يوم الجمل ونادى منادٍ: ولا يذف (يجهز) على جريح)(٥).
- ٢- ونال أحدهم من عائشة رضي الله عنها يوم الجمل وسمعه عمار فقال: (اسكت مقبوحاً منبوحاً، أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ، أشهد أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة)(٦).
- ٣- ولما قتل ابن خيري رجلاً وجده مع زوجته، رفع الأمر إلى معاوية فأشكل ذلك عليه فكتب إلى أبي موسى أن يسأل له علياً فكتب إليه علي بالجواب(٧).
- ٤- ولما وصف ضرار بن حمزة الكناني علياً بين يدي معاوية: بكى معاوية وجعل ينشف دموعه بكمه، ويقول لمادح علي رضي الله عنه: كذا كان أبو الحسن رحمه الله(٨).
- رغم الخلاف الشديد بين أهل الرأي والحديث يقول شعبة عند وفاة أبي حنيفة (لقد ذهب

(١) المستدرک (ج٤٥٢٢).

(٢) مصنف عبد الرزاق (ج١٩٠٢٤).

(٣) تقبيل اليد، أبو بكر المقرئ ص (٩٥).

(٤) البيهقي في السنن (ج٦- ص٢١١)، الحاكم (ج٥٨١٠).

(٥) رواه البيهقي في السنن (ج١٦٥٢٣).

(٦) الترمذي (ج٣٨٨٨).

(٧) الموطأ (ج١٤٤٧).

(٨) الاستيعاب (ج٤- ص١٦٩٧).

معه فقه الكوفة، تفضل الله عليه وعلينا برحمته). ويقول الشافعي: "الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة" (١).

- وكذا قيل لأحمد: إن كان الإمام خرج منه الدم ولم يتوضأ هل يصلي خلفه؟ قال: كيف لا أصلي خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب (٢).

- وصلى الشافعي الصبح في مسجد أبي حنيفة الصبح فلم يقنت ولم يجهر ببسم الله تأدباً مع أبي حنيفة رحمهما الله (٣). قال القرطبي: "كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرأون البسمة لا سراً ولا جهراً وصلى أبو يوسف خلف الرشيد وقد احتجم وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ فصلى خلفه أبو يوسف ولم يعد" (٤).

- ويتحدث الذهبي عن ابن خزيمة (٥) وتأوله حديث الصورة فيقول: "فليُعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا وكفوا وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوحيه لاتباع الحق أهدرناه وبدعناه لقل من يسلم من الأئمة معنا" (٦).

- يقول الذهبي (٧) في ترجمة قتادة: "وكان يرى القدر نسأل الله العفو ومع هذا فما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده ولا يسأل عما يفعل، ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثرت صوابه وعلم تحريره للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه

(١) سير أعلام النبلاء (ج ٦ - ص ٤٠٣).

(٢) الفتاوى (ج ٢٠ - ص ٣٦٤).

(٣) طبقات الحنفية (ج ١ - ص ٤٣٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (ج ٢٣ - ص ٣٧٥).

(٥) محمد بن خزيمة (٣١١ هـ) محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة، الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة أبو بكر السلمي النيسابوري الشافعي. ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين بنيسابور، ونشأ بها، وطلب الحديث منذ حداثة سنه. وحدث عنه البخاري ومسلم في غير الصحيحين، وأبو حاتم البستي وأحمد بن المبارك المستملي. ومصنفاته تزيد على مائة وأربعين كتاباً سوى المسائل، والمسائل المصنفة أكثر من مائة جزء، قال: وله فقه حديث بريرة في ثلاثة أجزاء. توفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة. (البداية والنهاية (١١ / ١٤٩)).

(٦) سير أعلام النبلاء (ج ١ - ص ٣٧٤).

(٧) الذهبي (٦٧٣ هـ - ٧٤٨ هـ) = (١٢٧٤م - ١٣٤٨م) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، شمس الدين، أبو عبد الله، الذهبي محدث العصر، الإمام الحافظ. وطلب الحديث وهو ابن ثمان عشرة. وله التصانيف الجزيلة في الحديث، وأسماء الرجال؛ قرأ القرآن، وأقرأه بالروايات، وقد بلغت مؤلفاته التاريخية وحدها نحو مائتي كتاباً، بعضها مجلدات ضخمة. والإمام الذهبي من العلماء الذين دخلوا ميدان التاريخ من باب الحديث النبوي وعلومه، وظهر ذلك في عنايته الفائقة بالتراجم التي صارت أساس كثير من كتبه ومحور تفكيره التاريخي. (طبقات الشافعية للسبكي (٥ / ٢١٦)).

واتباعه يغفر له زلله ولا نضله ونطرحه وننسى محاسنه، ولا نفتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك" (١).

- يقول الإمام أحمد بن حنبل: "لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً" (٢).

ويقول: "ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن مندة (٣) ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق وهو أرحم الراحمين فنعوذ بالله من الهوى والفضاظة" (٤).

ويقول الذهبي في تعليقه على اختلاف الناس في أبي حامد الغزالي بين مباح وذام: "ما زال العلماء يختلفون ويتكلم العالم في العالم باجتهاده، وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور، وإلى الله ترجع الأمور" (٥).

تحذير النبي ﷺ أصحابه من الاختلاف:

كان رسول الله ﷺ يدرك أن بقاء هذه الأمة رهين بتآلف القلوب التي التقت على الحب في الله، وإن حثفها في تناحر قلوبها لذلك كان عليه الصلاة والسلام يحذر من أن يذر الخلاف قرنه فيقول: «(لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)» (٦). وكان كرام الصحابة رضوان الله عليهم يرون أن الخلاف لا يأتي بخير كما في قول ابن مسعود رضي الله عنه: "الخلاف شر".

لذلك كان رسول الله ﷺ يجتث بذرة الخلاف قبل أن تتنامى ... عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال: «(إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)» (٧).

وعن النزال بن سبرة قال: سمعت عبد الله بن مسعود قال سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من

(١) سير أعلام النبلاء (ج ٥ - ص ٢٧١).

(٢) سير أعلام النبلاء (ج ١١ - ص ٣٧١).

(٣) محمد بن منته (٣٠١ هـ) الإمام الحافظ محمد بن يحيى بن منته، أبو عبد الله العبدوي الأصبهاني، جد صاحب التصانيف الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق. ولد في حدود العشرين ومائتين في حياة جدهم منته. وقال عنه ابن خلكان: كان أحد الحفاظ النقات، وهم أهل بيت كبير، خرج منه جماعة من العلماء. وقال الذهبي: كان من أوعية العلم. توفي في رجب سنة إحدى وثلاثمائة. (سير أعلام النبلاء ١٨٨ / ١٤ - ١٩٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج ١٤ - ص ٤٠).

(٥) سير أعلام (ج ٩ - ص ٣٢٢).

(٦) أخرجه البخاري على ما في الجامع الصغير (ج ٢ - ص ٤٩٤).

(٧) راجع الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (ج ٥ - ص ٦٦).

رسول الله ﷺ خلفها فأخذت بيده فأتيت به رسول الله ﷺ فقال: "كلاهما محسن" قال شعبة: أظنه قال: «لا تختلفوا فان من قبلكم اختلفوا فهلكوا» (١).

فهنا يعلم الرسول ﷺ الصحابة ومن يأتي بعدهم عواقب الاختلاف ويحذرهم منه، وكان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة رضوان الله عليهم أديا هاما من آداب الاختلاف في قراءة القرآن خاصة، فيقول في الحديث الصحيح: «اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فاذا اختلفتم فيه فقوموا» (٢).

فيندبهم عليه الصلاة والسلام للقيام عن القرآن العظيم اذا اختلفوا في بعض احرف القراءة أو في المعاني المرادة من الآيات الكريمة حتى تهدأ النفوس والقلوب والخواطر، وتتنفى دواعي الحدة في الجدل المؤدية إلى المنازعة والشقاق، أما اذا ائتلفت القلوب وسيطرت الرغبة المخلصة في الفهم فعليهم أن يواصلوا القراءة والتدبر والتفكير في آيات الكتاب. ونرى كذلك أن القرآن الكريم كان أحيانا يتولى التنبيه على "أدب الاختلاف" حين يقع بين الصحابة رضوان الله عليهم، فعن عبد الله بن الزبير قال: "كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.. رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار احدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخر بالقعقاع بن معبد بن زرارة، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافاك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (٣)

الآية قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه" (٤).

معالم أدب الاختلاف في عصر النبوة:

نستطيع على ضوء ما سبق أن نلخص معالم "أدب الاختلاف" في هذا العصر بما يلي:

١ - كان الصحابة رضوان الله عليهم يحاولون ألا يختلفوا ما أمكن فلم يكونوا يكثر من المسائل والتفريعات (٥) بل يعالجون ما يقع من النوازل في ظلال هدي الرسول ﷺ ومعالجة

(١) راجع الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، وينظر صحيح البخاري ((باب كراهية الاختلاف)) (ج١٣-ص٢٨٩) وباب ((نزل القرآن على سبعة أحرف)) (ج٩-ص٣٦٢٢).

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد في السند، والنسائي على ما في الجامع الصغير (ج١-ص٨٦) والفتح الكبير (ج١-ص٢١٨).

(٣) سورة الحجرات: ٢.

(٤) الحديث عند البخاري فانظر بهامش شرحه الفتح (ج٨-ص٦٦ و٤٥٤) و(ج١٣-ص٢٣٥).

(٥) تحسن مراجعة فتح الباري (ج١٣-ص٢١٩-٢٢٨).

الأمر الواقع عادة لا تتيح فرصة كبيرة للجدل فضلا عن التنازع والشقاق.

٢ - اذا وقع الاختلاف رغم محاولات تحاشيه سارعوا في ردّ الأمر المختلف فيه إلى كتاب الله والى رسوله ﷺ وسرعان ما يرتفع الخلاف.

٣ - سرعة خضوعهم والتزامهم بحكم الله ورسوله وتسليمهم التام الكامل به.

٤ - تصويب رسول الله ﷺ للمختلفين في كثير من الأمور التي تحتل التأويل، ولدى كل منهم شعور بأن ما ذهب إليه اخوه يحتمل الصواب كالذي يراه لنفسه، وهذا الشعور كفيل بالحفاظ على احترام كل من المختلفين لأخيه، والبعد عن التعصب للرأي.

٥ - الالتزام بالتقوى وتجنب الهوى، وذلك من شأنه أن يجعل الحقيقة وحدها هدف المختلفين حيث لا يهم أي منهما أن تظهر الحقيقة على لسانه أو على لسان أخيه.

٦ - التزامهم بأداب الإسلام من انتقاء أطيب الكلم وتجنب الألفاظ الجارحة بين المختلفين مع حسن استماع كل منهما للآخر.

٧ - تنزههم عن المماراة ما أمكن وبذلهم أقصى أنواع الجهد في موضوع البحث مما يعطي لرأي كل من المختلفين صفة الجد والاحترام من الطرف الآخر ويدفع المخالف لقلبه أو محاولة تقديم الرأي الأفضل منه.

تلك هي ابرز معالم "أدب الاختلاف" التي يمكن إيرادها.. استخلصناها من وقائع الاختلاف التي ظهرت في عصر الرسالة.

سمات أدب الاختلاف في عهد الخلافة الراشدة:

من خلال استعراضنا لقضايا الاختلاف نلاحظ أن الهوى لم يكن مطية أحد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وأن الخلافات التي أفرزت تلك الآداب لم يكن الدافع إليها غير تحري الحق، وهذا غيظ من فيض من معالم الاختلاف بين الصحابة بعد عهد الرسالة وانقطاع الوحي:

١ - كانوا يتحاشون الاختلاف، وهم يجدون عنه مندوحة، فهم يحرصون الحرص كله على عدمه.

٢ - وحين يكون للخلاف أسباب تبرره من مثل وصول سنة في الأمر لأحدهم لم تصل للآخر، أو اختلافهم في فهم النص، أو في لفظة كانوا واقفين عند الحدود يسارعون للاستجابة للحق، والاعتراف بالخطأ دون أي شعور بالغضاضة، كما كانوا شديدي الاحترام لأهل العلم والفضل والفقهاء منهم، لا يجاوز أحد منهم قدر نفسه، ولا يغمط حق أخيه، وكل منهم يرى أن

الرأي مشترك، وأن الحق يمكن أن يكون فيما ذهب إليه، وهذا هو الراجح عنده، ويمكن أن يكون الحق فيما ذهب إليه أخوه، وذلك هو المرجوح، ولا مانع يمنع أن يكون ما ظنه راجحاً هو المرجوح، ولا شيء يمنع أن يكون ما ظنه مرجوحاً هو الراجح.

٣ - كانت أخوة الإسلام بينهم أصلاً من أصول الإسلام الهامة التي لا قيام للإسلام دونها، وهي فوق الخلاف أو الوفاق في المسائل الاجتهادية.

٤ - لم تكن المسائل الاعتقادية مما يجري فيه الخلاف، فالخلافات لم تكن تتجاوز مسائل الفروع.

٥ - كان الصحابة رضوان الله عليهم قبل خلافة عثمان رضي الله عنه منحصرين في المدينة، وقليل منهم في مكة، لا يغادرون إلاً لجهاد أو نحوه، ثم يعودون فيسهل اجتماعهم، ويتحقق إجماعهم في كثير من الأمور.

٦ - كان القراء والفقهاء بارزين ظاهرين كالقيادات السياسية، وكل له مكانته المعروفة التي لا ينازعه فيها منازع، كما أن لكل شهرته في الجانب الفقهي الذي يتقنه، مع وضوح طرائقهم ومناهجهم في الاستنباط وعليها فبينهم ما يشبه الاتفاق الضمني.

٧ - كانت نظرتهم إلى استدراقات بعضهم على بعض أنها معونة يقدمها المستدرک منهم لأخيه وليست عيباً أو نقداً.

المطلب الثالث: أسباب الاختلاف وتطوره:

أسباب الاختلاف من عهد النبوة حتى عهد الفقهاء:

إذا سلمنا أن الاختلاف في القضايا الفكرية التي منها القضايا الفقهية أمر طبيعي لما فطر عليه الناس من تباين في عقولهم وأفهامهم ومداركهم وجب أن نقر بأن الاختلاف في عهد النبوة والخلافة الراشدة بين عديد من الصحابة كان أمراً واقعاً تشهد له جملة من الأحداث، وليس في نفيه ما يخدم هذا الدين، كما أننا لا نرى في بيانه مساساً بمثالية هذه الدعوة، وصدق نية أولئك الرجال الذين كانوا يختلفون، بل يمكن القول: إن في ذكر هذه الاختلافات بياناً لواقعية هذا الدين، فهو يتعامل مع الناس على أنهم بشر، تتنازعهم عوامل مختلفة مما فطر الله تعالى خلقه عليه ولكن الذي تطمئن إليه النفس المؤمنة أن ذلك الاختلاف لم ينشأ عن ضعف في العقيدة، أو شك في صدق ما يدعو إليه رسول الله ﷺ بل كان تحري الحق والرغبة في إصابة قصد الشارع من الأحكام هي بغية جميع المختلفين.

ولما كان الرسول ﷺ مصدر تلك الأحكام لم يكن عمر الخلاف يمتد لا طول من الطرق المؤدية إلى رسول الله ﷺ وقد رأينا من خلال الأحداث التي مرت أن أسباب الاختلاف في مجموعها لم تكن تخرج عن تباين في فهم النص لأسباب لغوية أو اجتهادية، وذلك في تفسير ما بين أيديهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم تكن هذه الأسباب لتخفي وراءها أية نوايا تحاول إنماء بذرة الخلاف التي كان المنافقون يحرصون على تعهدها.

لذلك سرعان ما كانت هذه الاختلافات تضحل بقاء الرسول ﷺ أو الاحتكام إلى نص أدركه بعضهم وغاب عن الآخرين لأن غاية ذي الفطرة السليمة نشدان الحق حينما وجد. من الطبيعي إن تنتقل بعض الأسباب الموضوعية للاختلاف من عصر لآخر حيث يصعب وضع حواجز تحصر خلفها أسباب الاختلاف من عصر لآخر حيث يصعب وضع حواجز تحصر خلفها أسباب الاختلاف في كل عصر، ولكن هناك أمور كانت تستجد على الساحة الإسلامية، نتجت عنها أسباب وعوامل تزكي روح الاختلاف.

فمنذ مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه تعرضت الأمصار الإسلامية لهزات عنيفة أفرزت بعض الأحداث التي أدخلت إلى دائرة الاختلاف أموراً كانت خارجها ربما أدت إلى انطواء أهل كل بلد أو مصر على ما وصلهم من سنة رسول الله ﷺ خوف الوضع والدس كما أشرنا من قبل.

وظهرت مدرستا الكوفة والبصرة كهيئة خصبة لتفاعل الأفكار السياسية وتعددت الفرق المختلفة كالخوارج والشيعة والمرجئة^(١) وظهرت المعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل الأهواء والبدع.

وتعددت المناهج العقلية والفكرية بتعدد تلك الفرق وأصبح لكل فرقة منطلقات وقواعد تنطلق منها في تعاملها مع نصوص الشارع وفي تفسيرها للمصادر الشرعية، وفي مواقفها من القضايا المختلفة التي استجدت وبدأت الحاجة تظهر إلى وضع الضوابط والقيود وتحديد المناهج وطرق استنباط أحكام الوقائع من الوحي الإلهي، وتحديد ما يجوز الاختلاف فيه وما لا يجوز.

ولعل من فضل الله تعالى أن جعل الجانب الفقهي في دائرة ما يجوز فيه الاختلاف وذلك لأن "الفقه" عبارة عن معرفة الفقيه حكم الواقعة من دليل من الأدلة التفصيلية الجزئية التي نصبها الشارع للدلالة على أحكامه من آيات الكتاب، وأحاديث رسول الله ﷺ وقد يصيب الفقيه حكم الشارع أو يوافق وقد لا يوافق ذلك ولكنه في الحالتين غير مطالب بأكثر من أن يبذل أقصى طاقته العقلية والذهنية للوصول إلى حكم، فإن لم يكن ما وصل إليه حكم الشارع فهو أقرب ما يكون إليه في حقيقته وغاياته وآثاره، ولذلك كان الاختلاف أمراً مشروعاً وذلك لتوفر امرين فيه:

الأول: أن لكل من المختلفين دليلاً يصح الاحتجاج به، فما لم يكن له دليل يحتج به سقط ولم يعتبر أصلاً.

الثاني: ألا يؤدي الأخذ بالمذهب المخالف إلى محال أو باطل فإن كان ذلك بطل منذ البداية، ولم يسع لأحد القول به بحال، وبهذين الأمرين يغير "الاختلاف" "الخلافاً".

فالاختلاف ما توافر فيه الشرطان المذكوران، وهو مظهر من مظاهر النظر العقلي والاجتهاد وأسبابه منهجية موضوعية في الغالب.

أما الخلاف فهو الذي يفقد الشرطين أو أحدهما، وهو مظهر من مظاهر التشنج والهوى والعناد، وليس له من سبب يمت إلى الموضوعية.

حالة الأمة في الأحقاب الأخيرة

(١) المرجئة: هم الذين ينسب إليهم القول بالإرجاء في الإيمان والإرجاء في اللغة: التأخير، وأما في الإصلاح: فهو تأخير العمل عن الإيمان. وذلك أنهم يقولون بأن المعصية مع الإيمان لا تضر كما لا تنفع الطاعة مع الكفر وهذا خلاف ما عليه أهل القبلة، قد انقسموا إلى فرق خمس، انظر لمعرفة فرقهم ومقالاتهم: التبصير في الدين (٩٧) واعتقادات الفرق للرازي (١٠٧ وما بعدها) والمواقف لعصدي الدين الإيجي (٤٢٧ المتن وحده).

كانت تلك حالة الأمة التي غفت في أحضان التقليد، ونامت على أحلام ماضٍ مجيد، فمنذ وقوع الفصام النكد بين أولي الأمر ومصادر التشريع لهذه الأمة والناس حيارى تتقاذفهم الأهواء، وعلماء الأمة في شغل عنهم، كل بما يشغله ويرى أنه الأسلم، حتى إن من يطلع على تراث الأمة يكاد لا يصدق أن هذا الخلف الجامد المتحجر من ذلك السلف الحي المستنير؛ ولما قامت النهضة الأوروبية الحديثة، والأمة على تلك الحال، وجد الأوروبيون أمامهم أمة لم يبق من مقوماتها الحقيقية شيء يذكر:

فالعقيدة خاملة، وإيمان الكثيرين مزعزع، واليقين لم يعد يقينا، والسلوك منحرف، والاستقامة معدومة، والفكر جامد، والاجتهاد معطل، والفقهاء مفقود، والبدع قائمة، والسنة نائمة، والوعي غائب، حتى لكأن الأمة ليست هي، وحالة كهذه قد أغرت الذين كانوا يتربصون بالأمة، فاغتنم الغربيون هذه الفرصة واحتلوا البلاد وامتلكوا أزمة العباد، وقضوا على البقية الباقية من مقومات شخصية الأمة حتى وصل الحال إلى ما نحن فيه اليوم، من هوان واستكانة، وغدت مقالاتنا بأيدي أعدائنا يقررون مصائرنا، فنلتمس عندهم الحل لمشاكلنا وجدناها بأنفسنا، وشكلناها بأيدينا.

وخلال ذلك حاولت الأمة بما بقي لها من صباغة الحياة أن تنهض من كبوتها، وتستقبل من عثرتها، فباءت كل محاولاتها بفشل ذريع، لأنها أخطأت السبل المؤدية إلى النجاح وخالفت سنة الله، فقد قامت تلك المحاولات من منطلق تقليد الأجنبي والتبعية للمحتل حتى ازدادت أحوالها سوءا وبدأ الجيل الجديد من الأمة يتطلع إلى الحل السليم، ويبحث عن البلسم الشافي، فبدأت فئات لا بأس بها من أبناء الأمة تدرك "أن آخر هذه الأمة لن يصلح إلا بما صلح به أولها" فاتجهوا نحو الإسلام ينهلون من عذب معينه، وظهر ما اصطاح على تسميته "الصحة الإسلامية" وما كان لأعداء الإسلام على اختلاف نحلهم أن يخلوا الساحة لهذه الدعوة المباركة، وما أكثر الأسلحة التي يستخدمونها لمحاربتنا وبعض أبناء جلدتنا الذين يعيشون بين ظهرانينا من تلك الأسلحة حيث لم ير بعضهم بأسا في أن يكونوا معاول هدم بأيدي أعداء الأمة، وقد تمثل ذلك في أجهزة كثيرة تحاول الكيد للعصبة المؤمنة، وتحول بينها وبنى تمهيد السبيل لاستئناف الحياة الإسلامية، مستعملة شتى الأسلحة، ناصبة بوجه هذه الصحة أخطر التحديات، فإذا بهذه الصحة المباركة تواجه التحدي المقيت "الاختلاف" فيما تواجه من تحديات هائلة، وكانت التحديات الأخرى كافية لاستنزاف جهد العاملين المخلصين به "الاختلاف" فإذا بكثير من

الجهود تنفتت على هذه الصخرة المقيتة، فبدأنا نرى شبابا ينتسبون إلى السلفية، وآخرون ينتسبون إلى أهل الحديث، وفريقا ينتسبون إلى المذهبية، وآخرين يدعون اللا مذهبية، وبين هؤلاء وأولئك تتبادل الاتهامات المختلفة من التكفير والتفسيق والنسبة إلى البدعة والانحراف والعمالة والتجسس ونحو ذلك، مما لا يليق بمسلم أن ينسب أخاه إليه بحال، فضلا عن أن يعلنه للناس بكل ما لديه من وسائل غافلين أو متغافلين عن أن ما يتعرض له الإسلام من محاولات استئصال أخطر على الأمة من تلك الاختلافات، وإذا كان للأئمة المجتهدين أسباب اختلاف تبرر اختلافهم، وتخفف منها، وتساعد على وضعها ضمن ضوابط الاختلاف، فإن أرباب الاختلاف من المعاصرين لا يملكون سببا واحدا من أسباب الاختلاف المعقولة، فهم ليسوا بمجتهدين، وكلهم مقلدون بمن فيهم أولئك الذين يرفعون أصواتهم عاليا بنذ التقليد ونفيه عن أنفسهم، وأنهم يأخذون الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة دون تقليد، وهم في الحقيقة يعكفون على بعض كتب الحديث، ويقلدون كاتبها في كل ما يقولون في الحديث ودرجه ورجاله ويتابعونهم في كل ما يستتبطونه من تلك الكتب أو ينقلونه من الفقهاء، وكثير منهم ينسب لنفسه العلم بالرجال ومعرفة مراتب الجرح والتعديل وتاريخ الرجال، وهو في ذلك لا يعدو أن يكون قد درس كتابا من كتب القوم في هذا الموضوع أو ذاك فأباح لنفسه أن يعتلي منبر الاجتهاد، وحق له أن يتعالى على العباد، وحري بمن نال نصيبا من العلم أن ينهاء علمه أن يكون من الجاهلين، وأن يترفع عن توزيع الألقاب واتهام الناس، ويدرك خطورة ما يتعرض له عقيدة الأمة فيعمل على الذب عنها، ويحرص على جميع القلوب، ومادام الجميع يقلدون ويأخذون عن أئمتهم أقوالهم على اختلافهم وإن زعموا غير ذلك فلا أقل من أن يلتزموا بأداب الاختلاف التي عاش في كنفها كرام الأئمة من السلف.

لقد كان المؤمنون المخلصون يؤملون أن تنطلق هذه الصحوة الخيرة لتردم ما أحدثته الأفكار الكافرة والملحدة، والعقائد الزائفة المنحرفة من هوة سحيقة في كيان هذه الأمة التي اجتالت الشياطين عقول وأفئدة الكثير من أبنائها، وتطهر قلوبهم من ذلك الزيغ لتحل محله العقيدة الإسلامية الصحيحة، ثم تنطلق برسالة الله إلى هذا العالم الفسيح فتعلو كلمة الله في الأرض. ولكن ما يحز في النفس أن يعمل بعض أبناء المسلمين على تحطيم أجنحة الصحوة وتكبيها بقيود الخلاف غير المنضبط حول ما يسحق من الأمور وما لا يستحق، الأمر الذي شغل المسلمين بأنفسهم، وبدد الكثير من طاقاتهم، وخلط أمامهم الأشياء خطأ عجيبا جعلهم لا يفرقون بين الهنات والهيئات وعظائم الأمور، وبين سيرها وجليها، فكيف يمكن لقوم هذا

شأنهم أن يعالجوا قضاياهم حسب أهميتها وأن يرتبوا الأمور بشكل يجعلهم قادرين على استئناف مسيرة الحياة الإسلامية؟

إن إثارة الخلاف بين المسلمين، أو تنمية أسبابه خيانة عظمى لأهداف الإسلام، وتدمير لهذه الصحوه المعاصرة التي أحييت الأمل في النفوس، وتعويق لمسيرة الإسلام، وتشثتيت لجهود العاملين المخلصين لا يرضي الله جلّ شأنه، ولذلك فإن من أكثر وأهم واجبات المسلمين اليوم عامة والدعاة منهم خاصة بعد الإيمان بالله تعالى: العمل على توحيد فصائل حملة الإسلام ودعاته، والقضاء على كل عوامل الخلاف بينهم، فإن كان لا محالة فليكن في أضيق الحدود، وضمن آداب سلفنا الصالح، ولا يمنع اختلاف الآراء من التقاء القلوب لاستئناف الحياة الإسلامية الكريمة ما دامت النية خالصة لوجه الله تعالى، وعندها فلن يعدموا التوفيق والتأييد من الله.

أسباب الاختلاف اليوم:

من المسلم به أن أسباب الاختلاف تتباين بين الأعصار، وإن كان كل عصر يورث الأعصار التالية بعض أسبابه، وإن من أبرز وأهم أسباب الاختلاف اليوم بين المسلمين: الجهل بالإسلام، أو العلم الناقص به.

كانت الحالة العلمية في بلاد المسلمين قبل دخول المستعمر الكافر إليها ما وصفنا، أما بعد دخوله ديار الإسلام فقد ازداد الأمر سوءاً، فقد عرف المحتلون أين يكمن فضل هذه الأمة، فوجهوا اهتمامهم إلى وضع برامج التعليم وبناء مؤسساته بالطريقة التي تضمن لهم عقول المسلمين وتغيير أفكارهم حتى تصبح مهياً لقبول الأوضاع والأفكار العالمية الجديدة ومحاولة الانسجام معها، زعما من المستعمرين الكفرة أن في تقبل المسلمين للواقع الجديد دفعا لهم في مدارج الرقي والتقدم قياسا على البلاد الأوربية التي لم تخط خطوتها الجادة نحو مدارج الحضارة إلا بعد أن تمردت على الأحكام الدينية، وتحررت من ربة الكنيسة، وأن الدين أي دين بزعمهم ليس إلقيدا يحول دون انطلاق الإنسان نحو النعيم المنتظر ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(١)، وإذا كانت هذه الادعاءات صحيحة بالنسبة لأديانهم المحرفة فما أبعد أن يصح ذلك بالنسبة للإسلام الذي شاء الله أن تسعد به البشرية وتحقق سائر طموحاتها وهي تتحرك بنور الله.

(١) سورة الكهف: ٥

وسعيًا لقطع الأمة عن أسباب وجودها وحياتها الإسلامية وضع المستعمر الكافر كل العراقيل والعقبات أمام التعليم الإسلامي، وما يمكن منه وهو تعليم اللغة العربية، وتحقيقها لهذا الهدف فقد أهمل الطلبة الذين ينحون منحى التعليم الإسلامي، وبث الأفكار التي تقلل من شأنهم وتستهين بدراساتهم التي لم تعد تؤهلهم لشغل أدنى المراتب والمناصب، وبالمقابل خص بالرعاية والعناية الطلبة الذين انخرطوا في المدارس الحديثة، وتلقوا تعليمهم فيها، وفتحت أمامهم أبواب المستقبل الزاهر، فأصبحت المواقع القيادية في الأمة وقفا عليهم، وهكذا ضيق الخناق على أهل التعليم الإسلامي واللغة العربية وسددت جميع السبل المؤدية إليه، ولم يعد يقدم على سلوك سبيله إلا نزر يسير من الطلبة يتعرضون عادة إلى مضايقات كثيرة جدا قد تحملهم على التراجع في أي مرحلة من مراحل الطريق، ومن أصر على الاستمرار فإن أمامه دائما ألوانا من التمييز بينه وبين الآخرين، كما قلنا، في الأعمال والوظائف والمرتبات والدرجات تجعله يشعر بالظلم وانتقاص القدرة، لذلك فإن التعليم الإسلامي، في معظم بلاد المسلمين، قد قلّ طالبوه وتدنى مستواه، وصار معظم الذين يقبلون عليه كمن يزرع في أرض لا يرجو جني حصادها، وقد لا يدفعهم إلى هذا النوع من التعليم إلا ظروف معينة، لا يقوون على التحرر من ضغوطها حتى بعد التخرج حيث السبيل موصدة أمامهم، ولا قدرة لهم على ممارسة الدور الذي ينبغي للعالم أن يقوم به في المجتمع وتحقيق الرسالة المنوطة به، وأمام الأبواب الموصدة يفقدون استقلالهم وتضمحل شخصياتهم ويحملون على الانخراط في مؤسسات دينية رسمية أعدت، من قبل، لخدمة أغراض مرسومة محددة لا يستطيعون تجاوزها، حيث يحال بينهم وبين تأدية دورهم في المجتمع، ويفقد الناس ثقتهم بهم.

وفي محاولة لتعميق الهوة بين هذه الأمة وعقيدتها، ورغبة في قطع الجذور التي تصلها بشريعتها، حاول المستعمر الكافر وضع التعليم الإسلامي وتعليم اللغة العربية في الظل، وأخلى الساحة لأفكار ومبادئ اختارها، وزين لشباب الأمة ورود حياضها، فلم يجن هذا الشباب إلا الشوك والقذى. ولم يذق غير مر العلقم، لقد جرب الشباب المسلم كل ألوان الفكر الذي قدم له من شيوعية إلى اشتراكية إلى راديكالية وقومية وديمقراطية وغيرها ممن زين له من الغشاء الذي زاد الأمة الإسلامية هوانا على هوان، وذلا فاق ما كانت فيه، وأيقن أن الإسلام وحده القادر على معالجة مشكلات الأمة، والنهوض بها من كبوتها، والقضاء على أسباب تخلفها، فقرر أن يتجه بعد أن تاهت به السبل إلى الإسلام، وأن يسلك السبيل إليه من غير رفيق سوء يخاف على دينه ونفسه، ولما واجهته مشكلة التفقه في الدين ومعرفة أحكامه لجأ إلى الكتب من

غير دراسات منهجية سابقة تعينه على الفهم السليم، كما افتقد الأستاذ الكفاء الذي يأخذ بيده في دراسة هذا النوع الجديد عليه من المعرفة، فكانت النتيجة أن أصبح هؤلاء الشباب يفهمون الإسلام من خلال الكتب التي قرؤوها فرؤوا جانباً محدوداً من الإسلام لا يعطيهم الفكرة الشاملة المتكاملة عنه، ولا يمكنهم معرفة مقاصده وكتلياته، ولا يمنحهم الرؤية السليمة من خلال غاياته، فهم أشبه بمجموعة من المكفوفين مرت أيديهم على مواضع متفرقة من جسم الفيل واعتبر كل منهم ما لمس هو الفيل، وهكذا حال المسلمين مع الإسلام اليوم، لقد تفرقت الأمة شرذم وفئات، ففئة تدير ظهرها للإسلام وتركب عربة الهوى تطوف بها بين شرق وغرب حتى كان لم يعد يربطها بالإسلام إلا أسماء ورتتها، ولولا بقية حياء لتبرأت منها. وأخرى تحن للعودة إلى دوحه الإسلام الوارفة ولكنها تتخذ إليها سبلاً مختلفة فيفرق بينها الاختلاف، ويمكن منها الأعداء، وتلاحقها عصا السلطان تحت كل سماء تحاول أن تسد عليها كل منفذ، وتستأصل شأفتها قبل أن يستقيم عودها.

المبحث الثالث

أسباب غزو المذاهب الهدامة لبلاد المسلمين

المطلب الأول: أثر الغزو الفكري في نشأة التيارات والمذاهب الضالّة وإحياء الفرق والبدع بين المسلمين:

لقد أسّس المسلمون دولةً قويّةً نشرت الإسلام؛ من تخوم الصين شرقاً، إلى المحيط الأطلسي غرباً؛ ومن أسوار فيينا وجبال البرانس في فرنسا شمالاً، إلى أواسط أفريقيا جنوباً، واكتسح الإسلام أمامه ممالك كانت في ذلك الوقت أعظم ممالك الدنيا^(١).

وأمام هذا الامتداد العجيب نظر أعداء الإسلام إلى حربهم مع المسلمين بالسيف والسنان، فرأوا أنها حربٌ خاسرة؛ قد أكلت شبابهم، وأفنت رجالهم، وقضت على أحلامهم وآمالهم. وتأمّلوا في نتائج هذه الحروب عليهم، حتى كادت الحسرات والزفريات تقطّع نياط قلوبهم، ثم تفكّروا في سر عظمة الأمة المحمّدية، وفي منابع القوة عند المسلمين - رغم قلة عددهم، وضعف عدّتهم في مقابل جيوش أعدائهم-، والتي جعلتهم يفتحون قلوب العباد وبلادهم، فعرفوا السبب الرئيسي وراء هذا المدّ الهائل، إنّه: الإسلام وأيقنوا أنه لا يمكن لهم الانتصار على المسلمين، ما داموا متمسّكين بالإسلام، ملتقيين حوله، فأجمعوا أمرهم على الكيد بالإسلام وأهله.

ومن أجل هذا جنّدوا جنودهم الفكرية، وتعلّموا اللغة العربية، وترجموا العلوم الإسلامية إلى لغاتهم، ودرسوها دراسة متأنّية، ثم وضعوا الخطط الشيطانية التي ضمّنها أخطر أساليبهم في مواجهة الإسلام، والتي تضمن لهم -بزعمهم- إبعاد المسلمين عن دينهم، وتمزيق وحدتهم، وإضعاف قوتهم، والسيطرة على عقولهم وقلوبهم من خلال غزو فكريّ منظم، (يُخرب المعنويّات، ويُدمر النفوس، ويُحيل الأمم إلى أعجاز نخلٍ خاوية)^(٢).

وكان من أشدّ خطّتهم التي وضعوها خطراً: إنشاء المذاهب والمبادئ الهدامة؛ كالماسونية، والبهائية، والقاديانية، وغيرها، ثم إشغال المسلمين بها، وإخراجهم من دينهم بواسطة، وإنشاء الأحزاب السياسيّة المتنافرة، والتيارات المختلفة المبادئ والاتجاهات؛ كالقوميّة، والاشتراكيّة، والفلسفة الماركسية الملحدة "الشيوعيّة" التي تقوم على أساس إنكار كلّ ما ليس بمحسوس، وإثارة الفتن الطبقيّة بين الشعوب وقد سلّموا زعامتها لأشخاصٍ فارغين، يُوجّهون

(١) الحركة الفكرية ضد الإسلام، دويدار: بركات عبد الفتاح: ١٤٠٦هـ، ص ٨٩.

(٢) الغزو الفكري، كشك: محمد جلال: ١٩٧٥م، ص ٧.

من قبل أعداء الإسلام في الشرق والغرب .

وخيوط هذه المؤامرة التي نسجها أعداء الإسلام، لغزو المسلمين فكراً يُمكن أن تُلخَّص في النقاط التالية:

أولاً: أوجد أعداء الإسلام فرقاً وجماعات هدامة، انتسبت - زوراً وبهتاناً- إلى الإسلام، وكانت تهدف إلى القضاء عليه من الداخل، ومن هذه الفرق والجماعات الهدامة: القاديانية، والبهائية، وغيرهما من الفرق التي تبنت آراءً تهدم مبادئ الإسلام من أساسه^(١). وكان الهدف من إيجاد أمثال هذه الفرق والجماعات:

ضرب الإسلام كعقيدة، وشريعة، والقضاء عليه، وتشويه مبادئه في عقول المسلمين. إسقاط شريعة الجهاد التي أفضت مضاجع المستعمرين، وذلك يعتبر ضماناً لاستمرار احتلال أعداء الإسلام لبلدان العالم الإسلامي. إشاعة الفرقة الفكرية بين المسلمين، وشغلهم بالردِّ على بعضهم، واستنفاد قوتهم في الجدل والمناقشات .

نشر العقائد الباطلة بين المسلمين.

ويتضح هذا الهدف، إذا علم أن هذه الجماعات الهدامة قد (تبنت كثيراً من عقائد النصارى، واليهود، والماركسيين)^(٢)، وغيرهم من أعداء الدين، ثم عملت على بثها بين أبناء المسلمين .

أن تعمل هذه الفرق - وخصوصاً البهائية - كجناح آخر للحركة الماسونية الصهيونية، التي تحاول تحقيق السيطرة العالمية^(٣) لليهود على العالم أجمع.

بث النظريات، والأفكار، والمبادئ الإلحادية المناقضة لأسس الإسلام وتعاليمه^(٤)، ومن ذلك نظرية "وحدة الأديان" التي تعدُّ أهم المبادئ التي نادى بها أتباع فرقة البهائية، وعملوا مع غيرهم من أعداء الدين على بثها ونشرها بين المسلمين وغير ذلك من الأهداف الكثيرة التي حرص أعداء الإسلام على تطبيقها من خلال تلك الفرق والجماعات الهدامة التي أوجدوها. فباتت حرب الأفكار والغزو الثقافي والفكري تشكل تياراً جارفاً يهدد المجتمعات المسلمة،

(١) احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، السيد صالح: سعد الدين: ١٤١٩هـ، ص ٢٥٧.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٨.

(٤) الغزو الفكري، الميداني: عبدالرحمن حسن حبنكة: ١٤٠٤هـ، ص ٥٠٨.

لصرف المسلمين عن دينهم ومسح هويتهم وتغيير انتماءاتهم، مما يفتت الأمة ويضعفها ويبعدها عن واقعها ويشغلها بنفسها .

فليس مبالغة في القول إذا قررنا أن ما تعانیه أمتنا من هزائم فكرية، واقتصادية، وسياسية، واجتماعية، هو نتيجة حتمية لتدمير الشخصية الإسلامية عقدياً وثقافياً وسلوكياً، بسبب الغزو الفكري الذي يعمل على أن تصبح مسخاً تابعاً لغيره، يؤمر فيطيع ويُقاد فينقاد، ووسيلتهم في تحقيق ذلك الخداع والتمويه وقلب الحقائق وتشويه الوقائع عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول، والدخول إلى المخاطب، من نقطة ضعفه، والإيقاع به، والإيحاء إليه بسلامة الفكرة، وصحة المفهوم المزيف الذي تحمله كلمات الغزو.

لقد كان الغزو الفكري موجوداً في كل جيل وفي كل عصر، وله في كل مصر دوراً تخريبياً مدمراً، إلا أن البشرية لم تشهد قط زمناً كان فيه للغزو الفكري خبراء، ومنظرون، وأجهزة، ومؤسسات، ووسائل إعلام كعصرنا هذا، حيث صار للغزو الفكري صبغة الفلسفة، والنظرية، والمبدأ، الذي يعتنقه الأتباع، ويدافعون عنه، وينقادون له. ولذا كان أثره في الأمم والمجتمعات، أشد فتكاً من تأثير المدفع والصاروخ والطائرة، وقد ينزل إلى الميدان، ويعظم خطره، حين تخفق وسائل الحديد والنار، في تحقيق الهدف، والوصول إلى الغاية.

والخطر الذي يمثله هذا الغزو أكثر بكثير من قتل الأفراد، بل من قتل جيل بأسره، إذ يتعدى ذلك إلى قتل أجيال متعاقبة والقضاء عليها قبل أن تولد .

إنه داء عضال يفتك بالأمم، ويذهب شخصيتها، ويزيل معاني الأصالة والقوة فيها، والأمة التي تُبتلى به لا تحس بما أصابها ولا تدري عنه ولذلك يصبح علاجها أمراً صعباً وإفهامها سبيل الرشيد شيئاً عسيراً.

ومصطلح الغزو الفكري يعني: الإغارة على أمة من الأمم إغارة ثقافية بأسلحة فكرية، للهيمنة على عقول أفرادها وزعزعة الثوابت التي ينطلقون منها والتشويش على أفهامهم مما يدمر قواها الداخلية، ويحطم مقوماتها.

والفرق بين الغزو الفكري، والغزو العسكري: أن الغزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهداف استعمارية، دون رغبة الشعوب المستعمرة، أما الغزو الفكري فهو لتصفية العقول، الأفهام، لتكون تابعة للغازي. ولذا، فهو أشد فتكاً وضرراً من الغزو العسكري لأن الأمة المهزومة فكرياً، تنقاد إلى غازيها طواعية، وتسلم رقبتها إلى جزاها عن رضا وقناعة بل وعن حب ومودة، دون أن تفكر بالتمرد أو تسعى في سبيل الخلاص.

ومما يجدر التنبيه عليه أن هناك من ينكر وجود الغزو الفكري، ويعتبر الحديث عنه مجرد وهم لأنه يتصور أن عالم اليوم: وطن واحد لحضارة واحدة، اسمها: (حضارة العصر) أو (الحضارة العالمية) أو (الحضارة الإنسانية)، ويتصور أن الأمم والشعوب والقوميات مجرد درجات ومستويات في البناء الواحد، لهذه الحضارة الواحدة.

ومن ثم فليس في هذا التصور حدود تميز الأوطان، ولهذا فإن عبور الفكر عبر الحدود ليس فيه عندهم شبهة (غزو) ولا أثر (عدوان)، وهذا التصور يُروَّجُ له الآن بشتى الأساليب، فثمة دعوة إلى (فكر عالمي) وهناك دعاوى إلى اعتبار الحضارة الحديثة (حضارة عالمية).

أسباب الغزو الفكري :

أولاً: كره الإسلام والمسلمين قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١) وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾^(٣) تمنى هؤلاء المنافقون الذين أنتم، أيها المؤمنون، فيهم فنتان أن تكفروا فتجدوا وحدانية ربكم، وتصديق نبيكم محمد ﷺ "كما كفروا"، يقول: كما جحدوا هم ذلك "فتكونون سواء"، يقول: فتكونون كفاراً مثلهم، وتستونون أنتم وهم في الشرك بالله^(٤).

يذكر أهل السير أن الجيوش الأوروبية الصليبية لما هاجمت بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين:

الدافع الأول: دافع الدين، والعصبية العمياء، التي أثارها رجال الكنيسة، في شعوب أوروبا، مفترين على المسلمين أبشع الافتراءات، محرضين النصارى أشد تحريض على تخلص مهد المسيح من أيدي الكفار — أي المسلمين — . يقول "غاردنر": إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة (القدس) بقدر ما كانت لتدمير الإسلام^(٥).

والدافع الثاني: دافع سياسي استعماري، حيث سمع ملوك أوروبا بما تتمتع به بلاد المسلمين

(١) سورة البقرة: ١٢٠.

(٢) تفسير الطبري (ج ٢ - ص ٥٦٢).

(٣) سورة النساء: ٨٩.

(٤) تفسير الطبري (ج ٨ - ص ١٧).

(٥) نقلاً عن الحروب الصليبية والغزو الفكري (ص ٥٣).

من حضارة، وثورات، فجاجوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما في نفوسهم إلا الرغبة في الاستعمار والفتح.

وبعد مضي أكثر من قرنين من حروب دامية، اشتد وطيسها، ارتدت الحملات الصليبية على أديارها، بعد أن باءت بالإخفاق والهزيمة، وبعد أن وقع القديس (لويس التاسع) قائد الحملة الصليبية الثامنة، وملك فرنسا أسيراً في مدينة المنصورة في مصر، ثم خلص من الأسر بقدية، ولما عاد إلى فرنسا، أيقن أن قوة الحديد والنار لا تجدي نفعاً مع المسلمين الذين يملكون عقيدة راسخة، تدفعهم إلى الجهاد، وتحضهم على التضحية بالنفس والنفيس .

لذا، كان لابد من تغيير المنهج والسبيل، فكانت توصياته: أن يهتم أتباعه بتغيير فكر المسلمين، والتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم الإسلام لهذا الغرض، وصارت قاعدتهم التي ارتكزوا عليها: إذا أربك عدوك فأفسد فكره ينتحر به، ومن ثم تستعبده(١).

وسبب هذا الكره للإسلام هو جهلهم به، فحينما سمعت أوروبا لأول مرة بالإسلام، وواجهتها تحدي قوته المتزايدة لم يكن لدى أوروبا حينذاك أية معرفة حقيقية بمن ستقاتله، فنتج عن هذا الجهل الممزوج بالخوف جملة من الأساطير والخرافات. يقول "ريتشارد سويثرن" في تاريخه الموجز: إنَّ الذي انصقل كثيراً وازداد تعقيداً هو الجهل الغربي، وليس المعرفة الصحيحة بالإسلام، أدَّى هذا الجهل بالإسلام إلى التفكير بضرورة القيام بعمل ما بشأن الإسلام. والواقع أنَّ عدم الإنصاف يتمثل في التصور المسيحي للمسلمين ككفار ووثنيين يعبدون ديناً زائفاً، ولمحمد ﷺ كساحر، بل نظر إلى النبي ﷺ على أنه كاردينال في كنيسة روما، فلمَّا أحببت آماله في أن يصير بابا ثار وفرَّ إلى الجزيرة العربية حيث أنشأ هناك كنيسة خاصة به(٢)، ففي مثل هذا الجهل الفاضح الممزوج بالخوف والحذر عشَّت وفقَّست العديد من التصورات والمواقف والتأويلات الظالمة المشوَّهة)) على حدِّ تعبير المستشرقة الألمانية د. أنا ماري شمیل(٣)، وتستمر هذه الرؤية القاصرة لتطبع الذهنية الغربية المريضة تجاه الإسلام والقرآن والنبي ﷺ بمعونة جملة عوامل ومقومات أبرزها وجود الرموز التبشيرية والدوائر الغربية التابعة لها التي ما انفكت من العمل الدائب على تكريس هذا الواقع من خلال نسج

(١) (الغزو الفكري) د. أحمد السايح: ٥١ ضمن سلسلة منشورات كتاب الأمة العدد(٣٨) ط. قطر .

(٢) صورة العرب في الصحافة البريطانية ((: (ج٢٥ - ص ٢٦).

(٣) كتاب الإسلام كبديل لمراد هوفمان

الأساطير والخرافات حول الرسالة المحمدية البيضاء وحتى يومنا الحاضر.

ولئن تعامل الغرب في البداية مع الإسلام والمسلمين بشيء من الحذر، فإنه قد تجاوز هذه الحالة إلى ما هو أشد فيما بعد، فعندما وصل المسلمون إلى أبواب أوروبا وانفتحوا عليها تعاملاً وحضارة، قابلهم الأوروبيون بالخوف والرعب المشوبين بالحذر والرغبة في الصّدّ والمقاومة، خاصة بعدما أملت عليهم الكنيسة الرومية الضبابية باعتبار هؤلاء ما هم إلا محتلون وتوسعيون ومتوحشون وأعداء للمسيح في الوقت الذي شرعت الكنيسة لنفسها سياسة وحيدة الجانب تقوم على مواجهة الخطر الإسلامي، والعمل على إعادة الأمور إلى نصابها التي كانت عليه قبل ظهور الإسلام.

كتب المستشرق الكبير "رودنسون" يقول: لقد كان المسلمون خطراً على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلته، وفي الوقت نفسه عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب، وأنموذجاً حضارياً بديلاً يمتاز بتنافس حركته الإبداعية المتسارعة وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب، وفي مواجهة تقدّم هذا الأنموذج على المستوى الجيوسياسي عبّر مثقفو الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام المسلمين، وبدا ذلك لهم وكأنه خطر على المسيحية^(١).

ومن هنا كان لابد للكنيسة من اتباع برنامج دقيق يقوم على آلية عالية تعمل من أجل تكوين الصورة السلبية عن الشرق والإسلام لمواجهة هذا الخطر المحدق من جهتين:
الأولى: تشريع الكنيسة الغربية لوحدة إيديولوجية متكاملة في مواجهة فكر الإسلام وحضارته.

الثانية: اعتماد مشروع يهدف إلى تثبيت الإيمان المسيحي عند المسيحيين من خلال تشويه الصورة الحضارية للإسلام وما يصل منها إلى مسامع الغربيين بغية تغيير ما ترسخ في الوعي الغربي من إيجابيات الشرق الإسلامي^(٢).

لقد أدرك الأوروبيون وساد الاعتقاد بينهم أنّ الصراع العسكري مع الإسلام لا يجدي نفعاً، ولا يكفي وحده لإسقاطه ودحره، وأنه لا بدّ من التفكير بعمق في تنظيم برنامج عمل كامل يقوم بدراسة وفهم مضامين الفكر الإسلامي ومعرفة مواضع القوة والضعف فيه كمرحلة أولى، ثم محاولة نقضه وإحداث الشرخ في جدرانه لغرض اختراقه وتحطيمه من الداخل، وبالتالي

(١) الحركة الصليبية وأثرها على الاستشراق الغربي د. علي الشامي منشور في مجلة الفكر العربي العدد سنة ١٩٨٣ م.

(٢) الحروب الصليبية والغزو الفكري (٥١ - ٥٢).

ضرب إرادة المقاومة عند هذا الخصم العنيد ثم استئصاله بالكلية. ذلك لأنّ قوة المسلمين إنما هي بالإسلام، ففي حالة حدوث الانفصال بينهما، و"الطلاق" بين الاثنين عندئذ يمكن كسر قوة المسلمين ودحر جحافلهم المنتشرة حول أوروبا. ومن هنا دخلت المواجهة بين الإسلام والغرب المسيحي مرحلة جديدة مبنية على استراتيجية جديدة تعتمد الأسلوب الثقافي الفكري سلاحاً لها لضرب الإسلام^(١).

وفي هذا كتب المؤرّخ البريطاني المعروف أ.ج. تايلور قائلاً: إنّ أوروبا استنفدت الكثير من الوقت قبل أن تبدأ مسيرتها الصحيحة، إنّ استبقاها على الحضارات غير الأوروبية لم يبدأ إلا في القرن السادس عشر حين خسر المسلمون الأندلس، أمّا انتصارها النهائي فتحقق في القرن العشرين فقط^(٢).

وهكذا تحولت المعركة من ميدان الحديد والنار إلى ميدان الفكر، لأن القضاء على الإسلام أو تحويل المسلمين عن دينهم، لا يمكن أن يأتي عن طريق القوة والغزو المسلح. بدأ النشاط التبشيري يأخذ صفة الجدّية، وكانت أولى الرحلات قام بها بعض الرهبان الغربيين فقصدوا الأندلس إبان مجدها وانضمّوا إلى مدارسها وتلقوا في جامعاتها وتعلّموا على يد علماء الإسلام في مختلف العلوم والمعارف. ثم بدأ التحرك الاستشراقي ينشط أكثر فأكثر في هذا الصعيد، خاصة بعدما أرسل "فرانسوا الاسيزي" ستة من الرهبان إلى بلاد المغرب فسلكوا الطريق عبر إسبانيا وهم متكرون بثياب التجار. وتوالت الرحلات تلو الرحلات بعدها. وفي عام ١٣١١م حتّ "ريموندليل" المجلس العالي في فيينا على تأسيس مدارس للعربية ولغات شرقية أخرى لغرض العمل التبشيري بين المسلمين وهدايتهم إلى طريق "الحق" والذي باشره بنفسه بإخلاص كبير^(٣).

وتجدر الإشارة هنا أنّ سر اتجاههم نحو الدراسات العربية فالشرقية الإسلامية، يعود إلى أنّ الأولى كانت ضرورية لفهم الثانية، والإسلام بمجموعه يعتبر الدين المنافس الوحيد للمسيحية، وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية لتشمل أدياناً ولغات أخرى غير إسلامية، وعلى صعيد العمل التبشيري الإنجليزي فقد كان أمثال: "يوم بدويل" و"جون غريفز"

(١) المصدر السابق (ص ٥٦/٥٧).

(٢) نقلاً عن ما بعد الدولة القومية المسلمة لكليم صديقي: (ص ٣).

(٣) الفرنسيون واللغات اليونانية والشرقية في القرن الثالث عشر. مارتينيا نورونكاليا، ترجمة د. أسعد ذبيان: ١٨، نقلاً عن الحروب الصليبية والغزو الفكري (ص ٦٢).

و"آموند كاستيل" وغيرهم منهمكين في تأسيس دراسات عربية في جامعتي أكسفورد وكمبرج^(١).

فبدأت حركة الغزو الفكري بالعمل على ترجمة معاني القرآن والدواوين والسنة ومصنفات المسلمين في شتى الفنون، للبحث عما توهموه ثغرات يدخلون منها إلى إثارة الشبهات، وقد أعلنوا صراحة أن الإسلام هو عدوهم الأول، وأن أكبر غاية لهم هي ضرب وهدم قواعده . يقول (وليم غيفورد لجراف) الإنجليزي الملقب (بالحرباء): الكلمة المشهورة التي يلخص فيها عدا الغريبيين للإسلام: (متى توارى القرآن، ومدينة مكة، عن بلاد العرب، يمكننا أن نرى العربي، يندرج في سبيل الحضارة، التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه). وقال (جلاد ستون) أحد رؤساء وزراء بريطانيا: (ما دام القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان).

ويرى غاردنر: (أن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا). أ.هـ. ويوضح هذا العدا، ويذكر بعض أسبابه المستشرق (بيكر)، فيقول: (إن هناك عداً من النصرانية للإسلام، لأن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى، أقام سداً منيعاً في وجه الاستعمار، وانتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها).

ويقول في هذا المعنى (لورانس براون): (إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي) ويقول: (أن خطر المسلمين هو الخطر العالمي الوحيد في هذا العصر، الذي يجب أن تجتمع له القوى، ويُجَبَّسُ له الجيوش، وتلتفت إليه الأنظار). ويحكي عن أحد المنصرين قوله: (إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية، إن المسلمين يختلفون عن اليهود في دينهم، إنه دين دعوة، إن الإسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم، وبين غير النصارى، ثم إن المسلمين كان لهم كفاح طويل في أوروبا - كما يراه المنصرون - والمسلمون لم يكونوا يوماً ما أقلية موطوءة بالأقدام).

ثانياً: الضعف الفكري لدى المسلمين: بسبب بعدهم عن هدي الوحيين المعصومين (الكتاب والسنة) وسيطرة الجمود والتقليد، والانبهار بحضارة الغرب والركون إلى الدنيا، ثم جاء التفكك الاجتماعي نتيجة حتمية للضعف الفكري، لأن الضعف الفكري لا يكشف لصاحبه مخاطر

(١) صورة العرب في الصحافة البريطانية)) د. حلمي خضر ساري: (ص ٣٠).

الانزلاق ومواطن الخلل، فأى أمة تضعف في أفكارها، ولا تعرف إلا القشور من أمرها، وتعيش في تناحر وتمزق، لا بد أن تسقط، وينال منها من كان يتربص بها.

ثالثاً: تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة، فالمجتمعات الإسلامية، حين أصابها الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، انشغلت بالتأفاه من الأمور، وتخلفت عن ركب العلم والتقدم، والحضارة.

هذا التخلف أضعف الثقة بالنفس، وأوقف عجلة التقدم والانطلاق لدى الشعوب المسلمة، وجعلها تعتمد في كل شيء على غيرها وترضى بالتباعد والخمول وموت الهمة.

المطلب الثاني: أساليب الغزو الفكري:

أولاً: حملات التشويه التي مست كل ما يتصل بالإسلام من عقائد، ونظم، وتراث، وتاريخ، وفكر، وحياة:

فهناك محاولة تشويه عقائد المسلمين، يقول رينان الفرنسي، وهو يصور عقيدة التوحيد في الإسلام: (بأنها عقيدة تؤدي إلى حيرة المسلم. كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك). محاولة تشويه القرآن الكريم: يقول المستشرق جب: إن محمداً قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها، وشق طريقة بين الأفكار والعقائد الشائعة في بيئته، فالقرآن من صنع محمد ومن ملائمتها هذه البيئة التي عاش فيها). وكانت الخطوة الأولى التي قام بها الأب (بطرس المجل) أن رعى أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللاتينية فأنجزت عام (١٤٣م) معلناً هدفه من عمله هذا قائلاً: إن نقطة البداية في حرب الإسلام هي القرآن، وقد شكّلت هذه الترجمة الأساس في مجال الدراسات الإسلامية بأوروبا الغربية.

وكتب المستشرق الفرنسي "أ. م. هذي" يقول: إن هذه الترجمة وكل الترجمات التي تلتها لم يكن لها أيّ هدف آخر سوى أن تكون الأساس لتوجيه المزيد من الإدانات ضد القرآن، تلك الإدانات التي امتدت سلسلتها على مدى قرون تتناثر عليها بعض أشهر الأسماء.

لقد خطا (بطرس) الخطوة الأولى في هذا الاتجاه وقام بما لم يستطع غيره أن يقوم به، وبذلك يكون قد دشّن عهداً جديداً في العلاقة ما بين الغرب المسيحي والإسلام، لكنها هذه المرة قائمة على مرتكز خطير يهدف إلى اختراق العالم الإسلامي بسلاح آخر غير السلاح التقليدي، ولا يحتاج إلى القوة في المبارزة، بل كل حاجته إلى الكلمات الرشيقة والمعلومات المضللة. وهذا ما كان يؤكده (بطرس) دائماً، ففي آخر كلماته الموجهة إلى المسلمين مخاطباً إيّاهم قائلاً: إنني لا أهاجمكم كما يفعل كثيرون بيننا بالسلاح، إنني أوجه إليكم كلمات فقط بغير عنف وبتعقل وهدوء من غير كراهية وبحب كبير، إنني أحبكم ولذلك أكتب إليكم^(١).

محاولة تشويه السنة النبوية: وقد جند أعداء الإسلام لتشويه السنة، ما جندوا من أقلام، وكتب، ومجلات، وبحوث، ويمكن تلخيص مجمل محاولاتهم لتشويه السنة بالتالي:

١. الادعاء بأن هناك بعض الأحاديث لا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبي ﷺ.

٢. الادعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت في الآراء، أخذ كل منها يضع لنفسه

(١) نقلاً عن مقال ((الحركة الصليبية وأثرها على الاستشراق الغربي)) د. علي الشامي المنشور في مجلة الفكر العربي لسنة ١٩٨٣م.

الأحاديث التي يؤيد بها رأيه.

٣. الادعاء بأن الأحاديث النبوية ليست إلا سجلاً للجدل الديني في القرون الأولى.

محاولة تشويه شخصية الرسول ﷺ والطعن في رسالته. قال جيرى فالويل أحد القساوسة البارزين في المجمع المعداني (أحد مذاهب الكنيسة البروتستانتية) في مقابلة مع شبكة (سي بي إس) الأمريكية: (إن محمداً كان رجل عنف ورجل حرب). وقال في مقابلة ضمن برنامج (ستون دقيقة): (أعتقد أن محمداً كان إرهابياً، لقد قرأت ما يكفي للمسلمين وغير المسلمين لكي أقرر إنه كان رجلاً عنيفاً ورجل حرب). ونشرت محطة (سي بي إس) على موقعها مقتطفات من المقابلة قبل بثها قال فالويل فيها: (في رأيي أرسى المسيح مثلاً للحب، وموسى فعل الشيء نفسه لكن محمداً ضرب المثل المناقض لهما).

محاولة تشويه التاريخ الإسلامي. فقد صور هؤلاء الفتوحات الإسلامية على أنها فتوحات غزو واستعمار، وأن الخلافة الإسلامية خلافة تآمر، وسفك للدماء، وغير ذلك كثير مما لا يقره عقل ولا دين.

محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية، بالادعاء بأنه لا يوجد نظام للحياة معروف في الإسلام. والتهم التي وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة ولكن أبرزها وأخطرها: أولاً: اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم.

ثانياً: اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية.

ثالثاً: اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ، تعتمد على وحشية أو همجية أو قسوة، وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد.

رابعاً: اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية، بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها، في عصر من العصور.

خامساً: اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير الإسلامية، في ظل الدولة الإسلامية.

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من غير المسلمين، وشاركهم في إطلاقها بعض المسلمين المخدوعين بالفكر الغربي.

ثانياً: ومن أساليب الغزو الفكري: الترويج للعلمانية وفصل الدين عن الدولة

لإقصاء الدين عن الحياة وسجنه في المساجد ومنعه من التدخل في شؤون الحكم والسياسة والاقتصاد والتعليم وسائر مرافق الحياة الحية.

وقد كانت هذه الفكرة من أخطر ما جلبه الغزو الفكري إلى بلاد المسلمين فقد جاء الغزاة إلى الشرق المسلم وهم حديثو عهد بالتحرر من الطغيان البابوي الذي رزحوا تحت نيرانه زمناً طويلاً وعانوا منه ما عانوا باسم الدين، واستطاعوا بعد صراع مريع إقصاء البابا والكنيسة من حياتهم ثم انطلقوا في الأرض وهم يحملون فكرة فصل الدين عن الدولة بمعنى أن الدولة في جميع شؤونها الخاصة والعامة لا تسترشد بمبادئ الدين ومعتقداته، ورجال الحكم والسياسة أحرار في تصرفاتهم بغير وازع أو رقيب من الدين، والدين بحد ذاته لا يعدو أن يكون علاقة خاصة بين العبد وربّه.

وجاءوا إلى الشرق مدججين بهذه الفكرة ليجدوا في الشرق ديناً عظيماً يلبي جميع حاجات الإنسان في حياته الخاصة والعامة وينظم علاقته بربه وعلاقته بأخيه الإنسان. فكان هذا الدين بشموله وواقعيته وتكامل نظرتة إلى الوجود أعظم عدو جابهوه.

ولكي تستقر أقدامهم في أرض الإسلام كان لا بد من الحيلولة بين الإسلام وبين الحياة وذلك بتشويه فكرة أبنائه عنه ومسح مفهوم الدين في نفوس المسلمين وجعله رهبانية سجين الصوامع، يطلقون بين الحين والآخر الكلمة الخبيثة: "الدين لله والوطن للجميع".

ثالثاً: من أساليب الغزو الفكري: الترويج لشعارات المدنية والحضارة والتقدم

وإطلاق الاصطلاحات الضبابية الفارغة والكلمات القائمة الموهمة وجعل ذلك كله مبرراً للتخلص من كل قديم مهما كان ذلك القديم نافعاً، فكل قديم مناف للمدنية والتقدم وكل جديد هو الحضارة، وبناء على هذا المقياس فقد ترك الدين في بعض بلاد الإسلام وهُجرت الأخلاق ونُبذت الفضائل، واستغني عن كل ذلك لأنه قديم وكل قديم ينافي المدنية والرقى.

رابعاً: الحركة النسائية وفكرة تحرير المرأة

لم يكن يخفى على غزاة الفكر أمر المرأة ودورها في الهدم والتدمير لذلك أولوها اهتمامهم الزائد وعنايتهم البالغة وبحث حناجرهم وهم ينادون بتحريرها واسودت صحفهم وهم يطالبون بحقوقها وكأن الديانات ما جاءت إلا لترشد الناس إلى ظلم المرأة وهضم حقوقها، وجاءوا هم ليرفعوا عنها هذا الحيف الذي عانت منه أجيالاً طويلاً. وإذا أردت أن تكون موضوعياً ومحدداً في مناقشة أحدهم ترى أن خلاصة شغبيهم وصراخهم وعويلهم حول هذا الأمر لا يتجاوز تجريد المرأة من دينها وخلقتها ثم من حجابها وثيابها. فالظلم كله هو أن تبقى المرأة متمسكة بدينها وخلقتها وعفتها وطهارتها، مصبغة عليها حجاب الصون والعفة، والعدل كله أن تتحرر

من كل ذلك. وكننتيجة طبيعية لضعف المسلمين، فقد انهزموا أيضا في هذا الميدان وحقق الغزاة انتصارا مذهلا مروعا، وجردت المرأة من حليها في الظاهر والباطن فأبدت عورتها للناس وتبرجت تبرجا أشد من تبرج الجاهلية الأولى وانطلقت في الشوارع كاسية عارية مائلة مميلة تغري الناس بزینتها وتحرضهم على الرذيلة وتدمر كل شيء بإذن أسياها وأساتذتها من الغزاة وعملائهم، فتحطمت الأسر وهدمت البيوت وشاعت الفاحشة في الذين آمنوا وقوضت أركان المجتمع الإسلامي في بعض الدول وسرى الانحلال والانهيار في كل جوانبه، وكان للأعداء ما أرادوا.

خامساً: – من أساليب الغزو الفكري: إحياء النزعات الجاهلية التي لا تتفق مع تعاليم

الإسلام

كالدعوة إلى القومية، والدعوة إلى الفرعونية، والآشورية، والفينيقية، وما جرى مجرى هذا، مما يتنافى مع الإسلام لتمزيق أواصر المودة والتآلف بين المسلمين، على قاعدة (فرق تسد).

سادساً: الدعوة إلى التحلل والإباحية عبر القنوات والمسلسلات والأفلام

وهذه دعوة خبيثة لأنها تطعن الأمة في أخلاقها وقيمها، وقد شاعت في بعض المجتمعات الإسلامية أمور منكرة وفواحش كثيرة وبلغ الانحلال الخلفي أدنى دركاته.

سابعاً: إبعاد العلماء عن مراكز القرار والتأثير

وفي بعض المجتمعات تقلص دور العلماء، وأصبح قاصراً على خطبة الجمعة، وبعض الأحاديث التي تخضع للعيون الساهرة والمراقبة الدقيقة، وزاد من سوء الواقع أن بعض العلماء باتوا يجرون وراء المناصب جرياً وقد يبيع دينه حتى يصل إلى هذه المناصب، تذل له الجباه، ويطلبون المناصب بما لهم من مآثر في الأتباع، وأياد في التصفيق والتأييد.

ثامناً: من وسائل الغزو الفكري: تغريب التعليم

إذ لا يخفى أن الغزو الفكري، ينتشر من خلال مدارس التعليم ومعاهده وجامعاته أفضل من أي وسيلة أخرى، يقول القس زويمر: (المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون في التحكم بالمسلمين).

وقد دخل الغزو الفكري إلى العالم الإسلامي، من باب يخيل إلى السطحيين من الناس أنه الباب الطبيعي. إذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن. وبما أن الثقافة ليست علوماً ومعارف وأدباً وفنوناً فحسب، بل مناهج فكر وخلق، تصطبغ حياة الأمة بصبغتها في شتى ضروب

نشاطها، فإن الغزو الفكري استطاع من خلال الثقافة، أن يلقي بمزيج من الأخطا الغربية الملتزمة من الفكر الغربي المنحرف، والتوجيه الفاسد، ولذا قام بعض أدوات الغرب بالدعوة إلى:

- إضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية وإحياء الثقافات الجاهلية.
- الدعوة إلى العامية، وإلى تطوير اللغة.
- إيجاد الشعور بالتبعية الثقافية، والشعور بمركب النقص.
- دفع الجامعات إلى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية.
- توهين جهود المخلصين الثقافية والإبداعية.
- تمجيد القيم الغربية، وتسفيه القيم الإسلامية، والدعوة إلى نبذها.
- لفت المجتمعات إلى القشور، وإهائها عما يفيد وينفع.
- إحياء المذاهب الفلسفية والجدلية، والبعد عن الأساليب العلمية.
- إنشاء الموسوعات التاريخية الإسلامية، وبذر الشكوك ولي الحقائق فيها.
- الحرص على تكوين جيل مثقف، يحمل راية الاستشراق والدعوة إليه.

أهداف الغزو الفكري:

١. أن تظل الشعوب الإسلامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها، وتلك القوى التي تتمثل في عدد محدود من الدول الكبيرة، التي تحمي بعضها بعضاً، ويتبادل ساستها الدفاع عن المصالح، التي تهم أي طرف من أطرافها.
٢. أن تظل بلدان العالم الإسلامي خصوصاً، تابعة للدول الكبيرة المتقدمة، تبعية غير منظورة.
٣. أن تنتشر ثقافة الغرب بين المسلمين.
٤. الحيلولة بين الأمة وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدول الكبيرة الغازية، وسير أعلامها وقادتها.
٥. أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوب، فضلاً عن أن تحل محلها أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية أو الإقليمية، وما دام الإنسان لا يفكر إلا باللغة فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها.
٦. أن تسود أخلاق الغرب على أخلاق الأمة.

٧. تصوير تراث الأمة الإسلامية بصورة التخلف، وعدم قدرته على إمداد الحضارة بشيء مفيد، وأنه لم يكن له فضل على الحضارات التي جاءت بعد.
٨. إحياء الجوانب الضعيفة في التراث الإسلامي خاصة فيما يتعلق بالخلافات السياسية التي وقعت بين المسلمين أنفسهم، والتركيز على دعوات الحركات الباطنية، وإخراجها بصورة جميلة مضيئة، ووصف هذه الدعوات بأنها كانت تحمل فكراً عالياً، وفلسفة عميقة.
٩. إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أي دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر.
١٠. تشكيك المسلمين بقيمة تراثهم الحضاري، بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن حضارة الرومان، ولم يكن العرب والمسلمون إلا نقلة لفلسفة تلك الحضارة وآثارها.
١١. اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين، وصرفهم عن التمسك بالإسلام نظاماً وسلوكاً.
١٢. تفرغ العقل والقلب من القيم الأساسية، المستمدة من الإيمان بالله لتصبح هذه القلوب عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم عن طريق الصحافة والمسرح والفيلم والأزياء والملابس.

وعن بعض هذه الأهداف يُحدِّثنا الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، فيقول: "جربَّ الغزاة أن ينشروا بين المسلمين عقائد جديدة، تُفسر نصوص الإسلام بحسب أهوائهم، وتُنادي بالأخوة الإنسانيَّة، دون تفریق بين الأديان القائمة، وتُفسر الإسلام بأنه واحدٌ من هذه الأديان المنتشرة في الأرض؛ يدعو إلى المحبَّة، وإلى التآخي العامِّ بين البشر، مهما كانت مذاهبهم واتجاهاتهم وأعمالهم ومعتقداتهم، ولا يفرض نفسه على النَّاسِ فرضاً، وما هو بدين قتال وسفك دماء — إلى أن قال: — واستأجروا للقيام بتنفيذ هذا المخطط أُجراً ضمن صفوف المسلمين، بألوان شتى، وصور مختلفة، وظهر بعض هؤلاء بأثواب قادة سياسيين، وظهر بعضهم بأثواب مصلحين دينيين، وابتدع بعضهم ديناً جديداً دعا إليه، وجمع فريقاً من المرتزقة عليه؛ فظهرت البهائية في إيران، وظهرت القاديانية في الهند وكلٌّ منهما متضمَّن أخلاطه الاعتقادية المملفة: إلغاء ركن الجهاد في سبيل الله بالقتال، ودعاء إلى التعايش بمحبة وإخاء، وتعاون مع السلطات الكافرة التي تمتصَّ خيرات البلاد، وتنتشر مبادئها، باعتبارها أمةً غالبية

مستعمرة" (١).

ثانياً: أثار أعداء الإسلام النعرات القومية والعرقية، لتمزيق الوحدة الإسلامية التي تُفزع أعداء الإسلام .

ويزداد اليقين بصحة المذكور آنفاً، حين سماع تصريحات وزير المستعمرات البريطانية "أورمس غو"، التي جاء فيها: (إنَّ الحرب علّمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره، وتُحاربه، وليست إنجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك، بل فرنسا أيضاً. ومن دواعي فرحتنا أن الخلافة الإسلامية زالت؛ لقد ذهب، ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة. إنَّ سياستنا تهدف دائماً وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية، أو التضامن الإسلامي، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك) (٢).

ويزول العجب من هذا التصريح إذا علمنا أنَّ القومية التي جلبها أعداء الله إلى بلاد المسلمين، وفوضوا أمر نشرها إلى نصارى العرب: كانت من أسباب سقوط دولة الخلافة الإسلامية؛ فحين تلاشت الوحدة الإسلامية، وحلَّت محلَّها تيارات قومية عملت على النخر في جسد الأمة من الداخل، تمزقت أوصال الدولة الإسلامية، لتسقط الخلافة في النهاية (٣).

ثالثاً: تمجيد وإحياء الحضارات القديمة؛ الآشورية، والفينيقية، والفرعونية، وتسليط الأضواء عليها، وهي محاولة من أعداء الإسلام، كي ينبهر الشباب المسلم بهذه الحضارات، وينسى حضارته الإسلامية الأصيلة، التي طمس الأعداء عن الشباب أخبارها، وشوَّهوا حقائقها؛ بحيث عميت عن الشباب أنباؤها، فلم يفتح عينيه إلا على حضارات أعداء الإسلام وأمجادهم . وكان مظهر هذه الدعوة في كلِّ البلاد واحداً، وكانت أساليبها متشابهة؛ لأنَّ المحرِّك لها واحدٌ، وغرض من أحدثها (أن يحجب بها نور الحضارة الإسلامية عن الأبصار، ويُبْعدها عن الأنظار في جميع الأقطار، ويفتح لهم نوافذ على الحضارات القديمة التي سادت، ثمَّ بادت، ولكنَّ المستعمر عمل على إحيائها، وبعث أخبارها، ليشغل بها أفكارنا، ويملاً بها أدمغة شبابنا، حتى لا تتسع لأخبار حضارتهم، أو تُعجب بتاريخ أمجادهم، الذين ملأوا الدنيا نوراً، وعلماء، وهدى، ورشاداً، وفلسفة، وحكمة، وأدباً) (٤).

(١) أجنحة المكر الثلاثة، الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة : ١٤١٤هـ، (ص ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) هموم داعية، الغزالي: محمد : ١٤٠٤هـ، (ص ٩٤).

(٣) كيف يُحطَّم المسلمون قيود التبعية والحصار، الجندي: أنور : ١٤٠٥هـ، (ص ٧٩-٨٢).

(٤) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، الصوّاف: محمد محمود : ١٩٧٩م، (ص ١٣٥-١٣٦).

رابعاً: استهدفت المؤامرة على الإسلام أيضاً: انبعاث الفكر الصوفي الفلسفيّ، والفكر الباطني الوثني. فأعداء الإسلام قد عرفوا (أنّ الحصن الحصين في حياة الأمة الإسلامية؛ وجودها، وقيامها، وبنائها، واستمرارها، هو " الإسلام " بمفهومه الجامع: منهج حياة، ونظام مجتمع، القائم على التوحيد الخالص، الذي لا تشوبه شائبة، وبمفهوم رسالة الإنسان في الأرض، لبناء المجتمع الإسلامي، ومسؤوليته الفردية، والتزامه الأخلاقي، وإيمانه بالبعث والجزاء، وعقيدته الجامعة التي تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والتي تؤمن بأنّ الأمور كلها بيد الله، وأنّه خالق كلّ شيء، ومدبّر كلّ شيء)(١).

والمتملّ في التصوّف يجد أنّه يعزل صاحبه عن المجتمع، ويقطع الصلة بينه وبين الناس، فضلاً عن أنّه يقتل في النفس أسباب القوّة ودوافع الحياة، بسبب سلوك أتباعه لمسلك الرهبنة. من أجلّ ذلك كان أحد معاول الهدم التي هوت على صرح الأمة الإسلامية، (فتصدّعت أركانه، وتهدّم بنيانه، وأصبحنا نعيش على أنقاض هذا الصرح الشامخ الذي بناه سلفنا العظيم، وأعلى بُنيانه)(٢).

وأما الباطنيّة: فإنّ الذين وضعوا أساس دينها كانوا من أولاد المجوس، وقد وضعوها بقصد هدم الدين؛ إذ (كانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يجسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين، فوضع الأعمار منهم أسساً، من قبلها منهم، صار في الباطن إلى تفضيل دين المجوس وتأوّلوا آيات القرآن وسُنن النبيّ عليه الصلاة والسلام على موافقة أسسهم)(٣).

وقد عمد أعداء الإسلام إلى ركوب هاتين الموجتين: " الصوفية، والباطنيّة "؛ فساعدوا على إحياء الأفكار الباطنية، والصوفيّة من جديد، لتعمل تلك العقائد المنحرفة على تدمير الإسلام، وتحطيمه، وإزالته.

وليس الانحراف العقديّ الملاحظ عند الباطنيّة والصوفيّة داخليّ المصدر، بل هو مستمدّ من مفاهيم الأديان السماويّة المحرّفة، والأرضية الوضعيّة :

فنظريات: "وحدة الوجود"، و"الحلول"، و"الاتحاد"، و"الفناء"، و"التناسخ"، و"الإباحيّة" هي في مجموعها مفاهيم دخيلة على الفكر الإسلاميّ الأصيل، ومستمدة من الفكر الفلسفي اليهودي،

(١) كيف يُحطّم المسلمون قيود التبعية، الجندي: مرجع سابق، (ص ٦٥).

(٢) الغزو الفكري، الخطيب: عبد الكريم يونس: ١٤٠٤هـ، (ص ٤٢١).

(٣) الفرق بين الفرق، البغدادي: عبد القاهر بن طاهر: ١٩٧٥م، (ص ٢٨٤-٢٨٥).

والنصراني، واليوناني، والمجوسي، والبوذي، والهندوسي.

وغيره أعداء الإسلام من نشر هذه النظريات الإلحادية بين المسلمين، زلزلة مفهوم التوحيد الأصل، وإيجاد جوٍّ من الشك والريب في قلوب المؤمنين؛ لزعزعتهم عن أصول عقيدتهم السمحة القرآنية الربانية، القائمة على الفطرة السليمة، البعيدة عن التعقيدات والتناقضات^(١).

فأعداء الإسلام حاولوا أن يطبقوا مفاهيم الأديان الأخرى عليه، وتناسوا أن الإسلام يختلف عن هذه العقائد التي قد أصابها التحريف، أو وضعها البشر لأنفسهم؛ إذ التوحيد في الإسلام هو الأساس الأوّل لهذا الدين، وهو - أيضاً - المحرّك الرئيس لكل ما يصدر عنه من معتقدات، وشرائع، وأفكار^(٢).

خامساً: نشر الكثير من الأفكار المشوّهة عن الإسلام، وتاريخ المسلمين، وإثارة الشبهات حول عقائد الإسلام، وشرائعه، ونظمه، وتزييف الحقائق الدامغة التي انطلق منها هذا الدين، وهذه المؤامرة من آثار دسائس المبشرين، والمستشرقين، والمستعمرين ضدّ الإسلام، ومن ورائهم كيد يهودي يعمل في الخفاء لمصلحة نفسه، ويستغلّ جهود كلّ مفسدٍ يتسمّى باسم الماسونية تارةً، وباسم الصهيونية أخرى.

ومع هؤلاء في الغزو الفكري للمسلمين: (موظّفون في إدارات الاستعمار)؛ شيوعيون، ومنافقون، وملحدون، همّهم (أن يلوّثوا سمعة الإسلام، وأن يسوّغوا المظالم النازلة بأهله)^(٣).

وقد وفد بعض هؤلاء إلى بعض ديار المسلمين، وفي حقائبهم تعليمات مكتوبة، وغير مكتوبة، تحمّلهم مهمّات متعدّدة، من أخطرها: هدم الإسلام في عقائده، وعباداته، ونظمه، وأخلاقه، عن طريق حملات تشويهية على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، تُساعد على اهتزاز ثقة المسلمين في دينهم، فإذا ما اهتزّت ثقة المسلمين في دينهم، أصبح الواحد منهم يُعاني من فراغ رهيب في نفسه، وعقله، وعاطفته، وغدا النظام الإسلامي في الاجتماع والسياسة والاقتصاد عنده لا يُقنع، ولا يُحقّق له شيئاً من مطالبه. وعندئذٍ تتلقاه دعايات هؤلاء الأعداء لحضارتهم، ونظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فيصبح فريسة لها. وما هو إلا أن يرتمي في

(١) المؤامرة على الإسلام، الجندي: أنور: ١٩٧٧م، (ص ٤٦).

(٢) الإسلام والدعوات الهدامة، الجندي: أنور: ١٩٨٢م، (ص ٢٧٣).

(٣) دفاع عن العقيدة والشريعة، الغزالي: محمد: ١٣٩٥هـ، (ص ١٥).

شباكها، فيضيع اعتزازه بدينه، ويصبح تابعاً خاضعاً لعدوه" (١).

وتتضح الحقيقة أكثر، إذا علمنا أن هناك - في ديار الكفار - كليات قائمة، تدرس الإسلام بغرض الطعن فيه، وتشويه صورته النقيّة في أعين دارسيه، ومن يدرس من أبناء المسلمين في تلك الكليات الاستشراقية - في الغالب الأعمّ -، يعود إلى دياره وقد تشرب تلك الأفكار التي درسها، وتأثر بتلك الشبهات التي طُرحت عليه حول الإسلام، ونبیّه، وعقائده، وشرائعه، ونظمه، وأخلاقه؛ فيعود ناشراً لتلك الشبهات التي لقّنه إياها أعداء الإسلام بين أبناء المسلمين

سادساً: الهجوم المباشر على عقائد الإسلام، وأخلاقه، وقيمه، ولغة القرآن، ولربّما عدّ البعض هذا الهدف مع سابقه واحداً، لكنّ المتأمل في الهدفين يلمح الهجوم غير المباشر في أولهما، والهجوم المباشر في الثاني.

وهذا الهدف - في الغالب - يقوم به قومٌ من أبناء جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، تربّوا في أحضان أعدائنا، ودفعهم الإعجاب بهم إلى اعتناق آرائهم ومبادئهم، لظنّهم (أنّ هؤلاء هم القدوة التي ينبغي أن يأخذوا عنهم كلّ الأسباب التي أدّت إلى التقدّم، والرقي العلمي التقني) (٢).

لكنّهم لا يكتفون بأخذ أسباب التقدّم العلمي، بل يضمّون إليه تأثيراً بكلّ ما يرونه من عادات وتقاليد، ونظم اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وكان أخطر ما ألقى في روع هذه الطلائع النكدة: (قياس الإسلام بدين أوروبا وكنيستها، مع فارق ما بين الأمرين شكلاً، وموضوعاً، وتاريخاً، وظروفاً. كذلك ربطوا في أذهانهم التخلف المادي بالإسلام - وهذا عكس الحقيقة، ونقيض الواقع على طول الخطّ. وقد انعكس هذا كلّ على تصرف هذه الطلائع في نظرتها لدينها العظيم، وفي درجة استمساكها به، وفي استعدادها النفسي والفعلي لقبول الفكر الوافد، واستبداله بالإسلام في كثير من النواحي، خاصّة في المجال القانوني التشريعي) (٣).

(١) الغزو الفكري، محمود: علي عبد الحليم: مرجع سابق، (ص ٢٥).

(٢) نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامي، العرمابي: محمد زين الهادي: ١٤٠٧هـ، (ص ١١٠).

(٣) الغزو الفكري، سعيد: عبد الستار فتح الله: ١٤٠٤هـ، (ص ٢٠١).

ويعود هؤلاء - في الغالب - إلى بلادهم ليعملوا على تشويه معتقداتنا، وطمس قيمنا، وهدم أخلاقنا^(١). ويقف وراءهم بالدعم، والتأييد، والمساندة: أعداء الإسلام من النصارى الذين يحملون خصومة الدين، ويطمعون في السيطرة الاقتصادية على بلاد المسلمين، ويضمرون في أعماقهم كراهية ضخمة للإسلام والمسلمين، ويؤازرهم في العمل على تحقيق هدفهم: الصهيونية الطامعة في السيطرة على العالم، والشيوعية الإلحادية التي كانت تُحاول السيطرة على الأمم باسم مقاومة الأديان، وهدم الأخلاق.

ولمقاومة ذلك علينا بالقيام بعدة أمور أهمها:—

- ١- الدخول معهم في حوار منطقي لمحاولة إرجاعهم إلى الحق وبيانه لهم بأبهى صورته.
- ٢- الرد العلمي المنقيد بأداب الرد العلمي الموضوعي على ما ينشرونه من شبّهات.
- ٣- تذكيرهم بالله وعقوبته لمن ينشر مثل هذه الشبّهات وتحمل أوزار كل من يعمل بها.
- ٤- إنشاء مراكز متخصصة لدراسة حراكهم الفكري والثقافي والتعامل معه على حسب المقدرة.

(١) الابتعاث ومخاطره، الصبّاغ: محمّد لطفي: ١٤٠٣هـ، (ص ٣٥-٤٥).

المطلب الثالث: آثار الغزو الفكري:**أولاً: استعمار العقل المسلم:**

فقد أدى الغزو الفكري إلى جعل العالم الإسلامي مشرع الأبواب والنوافذ أمام الفكر الغربي والنهج الغربي والثقافة الغربية، والعلم الغربي والحضارة الغربية والفنون والآداب والتقاليد الغربية بدرجات متفاوتة، وباتت الأجيال تتعرض لعملية استلاب فكري وثقافي هائل، انتهت بأن أصبحت جميع معارفنا النظرية غريبة مائة بالمائة في قالب وإطار غربيين! وقد شمل ذلك الفكر، والمنهج، والفلسفة المعرفية وموضوعاتها، وأهدافها، وغاياتها، فأصابها الذهول والانبهار، ومارس البعض الانفتاح حتى الانبساط، وبدأت تتشكل عقولهم وأذواقهم وفق النمط الغربي، وأصبحت هذه العقول مناطق نفوذ للثقافة الغربية، كما هو حال بعض الأوطان. ولم تعد العولمة تكتفي بالانفتاح الذي حققه احتلال الأوطان والأدمغة، بل تريد استكمال المعركة مع آخر حصون العقل المسلم وهي القلوب؛ فالعولمة لا تعترف بالعقائد الدينية الأخرى من الإيمان بالله وبالأنبياء واليوم الآخر، بل تنتشر الحياة المادية والإلحادية عبر شبكاتها الكونية بأساليب في غاية الإغراء والتأثير في النفس الإنسانية، فتؤثر في مئات الملايين من المسلمين مباشرة أو بصورة غير مباشرة، فتفقد ضحيتها شخصيته وثقافته ودينه وانتمائه، ليتلذذ بالتبعية الكاملة والذوبان التام في حضارة الغرب، مما يفقده أصالته ويقعده عن خدمة أمته.

وقد استطاع الغرب بخبثه ودسائسه أن يلجئ المخلصين إلى خندق الدفاع، وذلك بدفعهم إلى تعريف بعض المفاهيم الإسلامية للدفاع عن الإسلام ورد الشبهات عنه، فإذا كتب الشائنون أن الإسلام انتشر بقوة السيف، رد المخلصون بأن الجهاد في الإسلام ليس عدائياً وليس استعمارياً

وإذا كتبوا أن الإسلام لا يقوم على العقل، جهد المخلصون في أن يردوا ذلك، وبعضهم قد يتجاوز ذلك إلى درجة إخضاع النص للعقل. ومن أسلحة الغرب في هذا الباب :

- نشر الأفكار الهدامة التي تدعو إليها بعض المؤتمرات والمنظمات والجمعيات العالمية.
- نشر الكتب أو الكتيبات أو النشرات التي تدعو إلى أديان باطلة أو تشكك في الإسلام.

- الدخول من باب الأدب لحرف الفكر الإسلامي، فتارة عن طريق الحداثة، وتارة عن طريق القصاص الغرامية، وتارة عن طريق فكر مخالف للدين بدعوى الحرية الفكرية.

- نشر الأدبيات المنحرفة وتمجيد أصحابها، سواء كان عن طريق القصة أو الشعر أو غيرها.
- ترجمة غير المفيد من اللغات الأخرى فلا تترجم الكتب العلمية المفيدة وإنما تترجم الغراميات، أو التي تحمل الأفكار العلمانية أو الإلحادية.
- استغلال الإعلام لبث الأفكار التي يريدون.
- استغلال العادات والتقاليد، وذلك عن طريقين:
- الطريقة الأولى: استغلال الأخطاء التي حدثت بسبب العادات والتقاليد، فيقوم هؤلاء باستغلال هذا الوضع ويهاجمون الإسلام هجوماً شديداً متهمين الإسلام بأنه سبب ما جرى ومن ثم تشويه صورته في أعين الناس.
- الطريقة الثانية: الحرص على تصوير تعاليم الإسلام عادات وتقاليد مما يهون من شأنها ويسهل مهاجمتها ويهون على الناس التخلي عنها، كالحجاب مثلاً.
- الحديث عن أعيادهم، ونشر ما يحدث فيها كعيد الميلاد وعيد الحب.
- الدعوات إلى الفرق والأديان الباطلة.
- الدعوة إلى التقريب بين الأديان، والدعوة إلى الندوات والمحاضرات والمؤتمرات لمناقشة هذه القضية، وكل ذلك باسم الانفتاح.
- فقد زُيّن مصطلح الانفتاح من قبل دعاة ماجورين، سوقوه، وحاولوا أن يستروا سوائته ببعض الأحاديث الصحيحة كحديث: "الحكمة ضالة المؤمن" رواه الترمذي وابن ماجه وغيره، ومعلوم أن الحديث النبوي حق لكن زبانية التغريب يرددون هذا الحق ويريدون بذلك الباطل في محاولة لدفع الأمة إلى قبول ثقافة الاستعمار والتبعية.
- وبعضهم ربط الانفتاح بالمرونة والوعي والعلم والتبادل الحضاري، فأوقع الأجيال في براثن الخداع والتضليل الذي جعلها تقبل بالاستلاب، لأنه في الأصل انفتاح قسري إجباري.
- فالانفتاح مصطلح عائم ومضلل لم يخدم الأمة، ولم يُبصرها بعواقب القبول بثقافة عدوِّها، لأنه فرض على الأمة قسراً، ورغم كل الشروط التي حاولت أن تُقنن له، أو تضبطه، إلا أنه لم يُستثمر إلا استثماراً سلبياً في تغريب الأمة ومحاولة اقتلاعها من جذورها.
- ولا يعني هذا أن نوصد أبواب عقولنا أمام العلم والمعرفة والعلوم النافعة، بل يجب العمل على تحرير العقل من جحافل الاستعمار الثقافي الغربي ليعود إلى مرجعيته وتميزه من جديد.

وفي سبيل ذلك يجب علينا ألا نخاف من حصول فراغ علمي إذا أوقفنا الاستعمار الثقافي الغربي للعقول، وينبغي كذلك التخلص من عقدة الانبهار بالغرب فالمبهور محبٌ أعمى لا يمكنه معرفة ما عنده من مواطن القوة وما عنده عدوه من مواطن الضعف.

* ومن وسائل الغرب الفتاكة في استعمار العقول: حرب المصطلحات، وذلك اعتماد تكتيك استراتيجي ومعركة تبدأ من العقل الباطن لتنتهي في استطراق الفكر وتحجيم القدرة وخصي المبادرة.

ومما يؤسف له أن من الكتاب من يتحول إلى داعية لمصطلح بعينه، فيصير هاجساً له، وقضية يناضل من أجلها، حتى لو وقع في تناقضات مع نفسه، وابتلع مصطلحات متضاربة أشد التضارب، وربما كانت كنسيّة المصدر، صليبية الاتجاه، ولو نظر الواحد بأدنى تأمل لوجد كثيرين ممن دعواً قديماً إلى الاشتراكية يدعون اليوم إلى الديمقراطية، ويتعصبون لها ويُنظرون؛ برغم ما بين المصطلحين من تضارب كما بين الليل والنهار.

ثانياً: من آثار الغزو الفكري إثارة السعار الجنسي

حتى باتت ناره تجتاح كثيراً من البيوت وتهدد القيم، ولعل ما نسمع من قصص على اللواط والاعتصاب وزنى المحارم يدل على ما نقول والقصص كثيرة جداً.

ويتولى كبر إشاعة الفاحشة القنوات التي تعرض ما يغري ويزين الفاحشة إضافة إلى ما في الشبكة العنكبوتية من مواقع إباحية تدمر الأخلاق وتحرر القيم وتشوه الفطرة.

إن سبب تركيز الغرب وأدواته على الإثارة الجنسية هو إدراكه ما في ذلك من أثر تدميري شامل على الشباب، يقول جيمس روستون في النيويورك تايمز: (إن خطر الطاقة الجنسية قد يكون في نهاية المطاف أكبر من خطر الطاقة الذرية)، ويقول جورج بالوشي هورفت في كتابه الثورة الجنسية: (ربما يتحول أطفال اليوم إلى وحوش عندما تحيط بهم وسائل الإغراء المتجددة بالليل والنهار).

لقد أدرك الغرب أنه بنشر الفاحشة في المجتمع يهدم الأسرة، وكم من أسرة هدمت نتيجة لذلك، كم من رجل طلق زوجته، كم من زوجة هجرت زوجها تطبيقاً لما رآته أمام عينها، أو لما رآه هو بعينه من مشاهد، أو من مسلسلات، أو قصص، وما أشبه ذلك، وبذلك استطاع هذا الغزو أن ينقل بعض المجتمعات الإسلامية نقلةً بعيدةً من مجتمعات محافظة، إلى مجتمعات لا تكاد تفترق عن المجتمعات الغربية.

فالغرب يرى أن لا سبيل له للسيطرة على الشرق إلا من بوابة الشهوات، يقول أحدهم:

(لن يستقيم حال الشرق ما لم تخرج المرأة سافرة متبرجة)، ويقول آخر: (يجب أن يتضامن الغرب المسيحي شعوبا وحكومات ويعيدوا الحرب الصليبية في صورة أخرى ملائمة للعصر (الغزو الثقافي) ولكن في أسلوب نافذ حاسم).

وأسلحته في هذا الباب عديدة منها :-

١. تعميم تجربة ما يسمى بتلفزيون الواقع (ستار أكاديمي / الأخوة الكبار) والذي يقوم بنقل أفكار بعض البرامج الغربية الساقطة وتهيئتها وتقديمها بالصيغة الشرقية.
٢. أغاني الإباحية العربية (الفيديو كليب) التي أصبح مخرجوها يتقنون في إخراج المرأة في أبهى صورة بإظهار مفاتها وجعلها شبه عارية بل إنهم يتقنون ويبتكرون في طريقة ذلك العري بهدف الإثارة ومحاولة الوصول إلى أكبر قدر ممكن من تحريك الغريزة لدى المشاهد .
٣. الأفلام وخاصة الجنسية.
٤. المسلسلات الهابطة التي تزين الفاحشة وتخري بها (مسلسل مهند)، والتي كان من آثارها تدمير كثير من الأسر (العشرات من النساء طلقن بسبب مسلسل مهند)، نسبة كبيرة من المواليد في مصر سمو باسم بطل المسلسل مهند).
٥. المجالات الماجنة الجنسية الفاضحة بالإضافة إلى إقبال المجالات العادية على نشر الصور العارية وظهور ذلك في أغلفتها.
٦. القصص الغرامية وكثرة تداولها بين الشباب .
٧. إفساد المرأة، بالدعوة إلى تخريبها وسفورها واختلاطها، ولا تخفى الدعوات التي يطلقها بعض المأجورين بين الفينة والأخرى لإخراج المرأة من خدرها وأزها على الاختلاط بالرجال، ولهم في ذلك طرق كثيرة ودعوات مغرضة؛ لأنهم يعرفون أهمية المرأة ودورها في المجتمع.
٨. ما تقوم به بعض المؤسسات التربوية والسياحية من تنظيم برامج سياحية وأخرى للتعلم في بلاد الغرب، فيذهب الشباب إلى هناك، وربما سكنوا مع عائلات كافرة، ونتج عن ذلك ثلة جعلوا الغرب قبلتهم، ينهلون منه التصورات العقدية والفلسفية الشاذة والقيم الخلقية والقوانين والعادات والتقاليد، فحاولوا جاهدين أن ينشروا المدنية الغربية في بلادهم، وقد أسهم الاستعمار بما له من نفوذ في بعض الأقطار الإسلامية

في أن يمكن لهؤلاء، ويوليهم المناصب الحساسة في البلاد، وقد كثر هؤلاء، وسيطروا على سياسة التعليم، وخرجوا أجيالاً تتهج نهجهم، وقد دأب هؤلاء على الدعوة إلى الحرية في الأخلاق ليفلتوا من رقابة المجتمع، ودعوا إلى تحرير المرأة ولحاقها بالمرأة الغربية.

ثالثاً: ومن آثار الغزو الفكري، تفتيت العالم الإسلامي إلى دويلات وكناتونات

وذلك بمحاولة إحداث تجزئة داخلية في كل بلد عربي أو إسلامي، حتى ينشغلوا بأنفسهم وينسوا تماماً أنهم أمة واحدة، ينتمون إلى دين واحد). مخطط انفصال الشرقية عن المملكة / الحوثيين في اليمن / الأكراد في العراق / إقليم آتشيه في إندونيسيا / باكستان مهددة بالانهيار حسب تقرير CIA / مخطط تقسيم السودان). وسبيله في ذلك العمل على طمس هوية الأمة الإسلامية، لإدراكه بأنه إذا قضى على هوية الأمة لا تقوم لها قائمة بتاتاً لأنها بمثابة الروح من الجسد، فطرح هويات ضيقة قومية وعرقية وإقليمية.

إن المستقرى لتاريخ الأمة الحديث، يجد أن الغرب قد جنى ثمار معركته الفكرية مع الأمة بهدم الخلافة، عبر تشويه متعمد لصورة الخليفة والخلافة وبالتعاون مع أدواته من الأحزاب العلمانية والماسونية والقومية التي لبست لبوس التحرر والتقدم، حتى إذا هدمها عام ١٩٢٤م لم تنكر الأمة ما فعل، ومر الأمر بهدوء وكأن شيئاً لم يكن. وكان من ثمار ذلك :

أولاً: عدم التحاكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، في كثير من بلاد الإسلام، واستبدال شرع الله بالأحكام الوضعية.

ثانياً: تمزيق جسد الأمة: بعد أن كان المسلمون يعيشون في بلد واحد يحكمه خليفة واحد، يتكلمون لغة واحدة، ولهم راية واحدة، وجيش واحد، وهوية واحدة، لا تفصل بينهم حدود ولا سدود ولا عوائق، يربطهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١) ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة^(٢).

(١) سورة الحجرات: ١٠

(٢) في ظلال القرآن (ج ٦ - ص ٣٣٤٣).

لكن الاستعمار مزق دولة الإسلام إلى كيانات متفرقة مما أفقد الأمة وزنها على الساحة الدولية، بعد أن كانت قوية تخاطب ملوك الأرض بكل عزة: "من رسول الله محمد بن عبد الله إلى كسرى الفرس، أسلم تسلم"، "من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم"، "من المعتصم أمير المؤمنين إلى ملك الروم أطلق سراح المرأة المسلمة وإلا جئتك بجيش أوله عندك وآخره عندي"، ولم يكن أي شخص في الدنيا يجرؤ على المساس بأي مسلم، أصبحت الأمة اليوم في ذيل الأمم خيراتها تتهب وأبناؤها يذبحون، ونساؤها تغتصب، والأدهى من ذلك وأمرٌ أنها تستجدي أعداءها لحل مشاكلها.

رابعاً: من آثار الغزو الفكري ظهور العلمانية في المجتمع

وللعلمانية صورتان وكتاهما في القبح سواء:-

الصورة الأولى: العلمانية الملحدة: وهي التي تنكر الدين كلية، وتنكر وجود الخالق، وتحارب وتعادي من يدعو إلى الإيمان بالله، وهذه العلمانية على فجورها ووقاحتها في التبجح بكفرها، إلا أن أمرها ظاهر معروف لكافة المسلمين، فلا ينظلي - بحمد الله - على المسلمين، ولا يُقبل عليها من المسلمين إلا رجل يريد أن يفارق دينه، فخطر هذه الصورة من العلمانية من حيث التلبيس على عامة المسلمين خطر ضعيف، وإن كان لها خطر عظيم من جهة محاربة الدين، ومعاداة المؤمنين وحربهم وإيذائهم.

الصورة الثانية: العلمانية غير الملحدة، وهي علمانية لا تنكر وجود الله، وتؤمن به لكنه إيمان نظري، وتنكر تدخل الدين في شؤون الدنيا، وتتادي بعزل الدين عن الدنيا، وهذه الصورة أشد خطراً من الصورة السابقة من حيث الإضلال والتلبيس على عامة المسلمين، فعدم إنكارها لوجود الله، وعدم ظهور محاربتها للتدين يغطي على أكثر عوام المسلمين حقيقتها، فلا يتبينون ما فيها.

وإن مما يؤسف له أن أصحاب هذه الدعوة كثر، منهم الكتاب والأدباء والصحفيين، ومنهم أساتذة في الجامعات، ومنهم جمهرة غفيرة منتشرة في وسائل الإعلام المختلفة، وتسيطر عليها، ومنهم غير ذلك، وهذه الطبقات تتعاون فيما بينها، وتستغل أقصى ما لديها من إمكانات لنشر فكرها وكان لذلك أسوأ الأثر على بعض المسلمين، من ذلك :

• مطالبتهم بإقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة عن الوحي الإلهي

المُنزَّل على سيد البشر ﷺ بالقوانين الوضعية، واعتبار الدعوة إلى الحكم بما أنزل الله

تخلفاً وردة عن التقدم والحضارة، وسبباً في السخرية من أصحاب هذه الدعوة واحتقارهم، وإبعادهم عن تولي الوظائف التي تستلزم الاحتكاك بالشعب والشباب، حتى لا يؤثر فيهم .

- العمل على تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه، وتصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلامية، على أنها عصور همجية تسودها الفوضى، والمطامع الشخصية.
- العمل على إفساد التعليم وجعله خادماً لنشر الفكر العلماني.
- العمل على إذابة الفوارق بين المسلمين، وبين الكفار، تحت شعار المساواة وأن الجميع بمنزلة واحدة، وإن كانوا في الحقيقة يفضلون أهل الكفر والعصيان على أهل التوحيد والإيمان، فالمسلم والنصراني واليهودي والشيوعي والمجوسي والبرهمني كل هؤلاء وغيرهم، في ظل هذا الفكر بمنزلة واحدة، لا فضل لأحد على الآخر إلا بمقدار الاستجابة لهذا الفكر العلماني .
- العمل الدؤوب على نشر الفواحش والفوضى الأخلاقية، وتهديم بنیان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية، وتشجيع ذلك والحض عليه: وذلك عن طريق :
 - القوانين التي تمهد للفاحشة (إلغاء بند عدم الاختلاط مؤخراً من قانون العمل).
 - استغلال وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز التي لا تكل ولا تمل من محاربة الفضيلة، والترويج للرذيلة تلميحاً وتصريحاً.
 - مهاجمة العلماء والدعاة والهيئات ومحاضن الخير والتضييق على الدعوة من خلال :
 - إفساح المجال في وسائل الإعلام المختلفة للعلمانيين المنحرفين لمخاطبة المشاهدين لنشر فكرهم المنحرف، مع تقليل فرص مشاركة العلماء والدعاة .
 - نعت العلماء والدعاة بالأوصاف التي لا تليق، وتصويرهم على أنهم جماعة متخلفة فكرياً، ومتحجرة عقلياً، وأنهم رجعيون، يُحاربون كل جديد، وأنهم لا يفقهون حقيقة الأمور بل يتمسكون بالقشور ويدعون الأصول .
 - الحديث بكثرة عن المسائل الخلافية، واختلاف العلماء وتضخيم ذلك الأمر، حتى يخيل للناس أن الدين كله اختلافات وأنه لا اتفاق على شيء حتى بين العلماء، مما يوقع في النفس أن الدين لا شيء فيه يقيني مجزوم به، وإلا لما وقع هذا الخلاف، والعلمانيون كثيراً ما يركزون على هذا الجانب، ويضخمونه لإحداث ذلك الأثر في نفوس المسلمين .
 - الاتكاء على بعض القواعد الشرعية والمنضبطة بقواعد وضوابط الشريعة، وإيرادها

في غير محلها دون مراعاة هذه الضوابط، ومن خلال هذا الاتكاء الضال والمنحرف يحاولون ترويح كل قضايا الفكر العلماني أو جُلها، فمن ذلك مثلاً قاعدة (المصالح المرسلّة) يفهمونها على غير حقيقتها ويطبقونها في غير موضعها، ويجعلونها حجة في رفض كل ما لا يحبون من شرائع الإسلام، وإثبات كل ما يرغبون من الأمور التي تقوي العلمانية وترسخ دعائمها. وكذلك قاعدة (ارتكاب أخف الضررين واحتمال أدنى المفسدتين) وقاعدة (الضرورات تبيح المحظورات)، (ودراء المفساد مقدم على جلب المصالح)، (وصلاحية الإسلام لكل زمان)، (واختلاف الفتوى باختلاف الأحوال)، يتخذون من هذه القواعد وأشباهها ذريعة لتمرير ما يريدون .

ولا يخفى أن هذا المسلك من أخطر المسالك وأشدّها ضرراً لما فيه من شبهة وتلبيس على الناس أن هذه الأمور إنما هي مرتكزة على قواعد شرعية معترف بها، وكشف هذا المسلك على وجه التفصيل ومناقشة كثير من هذه الأمور على وجه البسط والتوضيح في حاجة إلى كتابة مستقلة لكشف كل هذه الأمور وتوضيحها وإزالة ما فيها من لبس أو غموض .

ومما يجب التأكيد عليه هو أن اعتمادهم على هذه القواعد أو غيرها ليس لإيمانهم بها، وليس لإيمانهم بعموم وشمول وكمال الدين الذي انبثقت منه هذه القواعد، وإنما جعلوها أداة يتوصلون بها إلى تحقيق غاياتهم الضالة المنحرفة .

هذه هي بعض الثمار الخبيثة التي أنتجتها العلمانية، وإلا فنثارها الخبيثة أكثر من ذلك بكثير.

يمكن تلمس هذه الثمار في واقع كثير من بلاد المسلمين، وفي الوقت ذاته نستطيع أن ندرك إلى أي مدى تغلغت العلمانية في بلدٍ ما اعتماداً على ما يجده من هذه الثمار الخبيثة فيها .

المبحث الرابع

دور المذاهب الفكرية المعاصرة لحماية العقل المسلم

المطلب الأول: المذاهب الفكرية ودورها في تشكيل الشخصية الإسلامية:

في خضم هذه التحديات، والاختلافات البيئية يجدر بالمسلم، أن تكون لديه رؤية ناضجة في كيفية التعامل مع هذه التحديات، فإن فيها الحق والباطل، ومواجهتنا لهذه التحديات الثقافية تتطلب منا قوة عقديّة، وركائز ثابتة، تأخذنا لبرّ الأمان، وشاطئ النجاة.

وليس من شك أنّ الله - تعالى - قد منّ علينا بنعمة عظيمة، وهي: نعمة العقل، والتي يُعرف من خلالها - في كثير من المسائل - الخير من الشر، والهدى من الضلالة، والصواب من الخطأ، بيد أنّ الإنسان إذا استقلّ بها وأعرض عن الوحي، فسيرتكب ما تهواه النفس، ولذا نزلت الشريعة الإلهية على عباد الله، لتميّز للناس ما يفيدهم ويضبط عقولهم، فتوازن الحياة، وتنضبط المسيرة.

والعقل على شرف منزلته، لن يستقلّ بالهداية إلاّ باتّباعه لشريعة الإسلام، وشريعة الإسلام لن تتبين مراداتها إلاّ بواسطة العقل، فكلا الأمرين يحتاج أحدهما الآخر، ولن يعارض العقل الصحيح النقل الصريح أبداً كما بيّنه علماء الإسلام.

التعريف بـ: (الحصانة الشرعية):

من أهمّ القضايا العلميّة في دين الإسلام معرفة حقائق الأشياء وتعريفاتها؛ لتكون الصورة واضحة في الذهن، جليّة في الفكر: (إذ المرء ما لم يحط علماً بحقائق الأشياء التي يحتاج إليها يبقى في قلبه حسكة)، كما يقول ابن تيمية^(١).

ومن خلال تأمل فكري لاستخراج تعريف لهذا المفهوم: (الحصانة الشرعية) وتبيين المقصود منه، أرى أنّه: (البناء العقدي المتين من خلال الفهم الناضج لمنهاج الله كتاباً وسنةً، ووقاية الفكر والعقل عن كلّ ما يخلُّ بهما من الآراء الفاسدة، المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة في التلقي والاستدلال).

فالحصانة الشرعيّة مشابهة لجهاز مناعة واق من أن يتسرب إليه شيء من الخلل والعطب، فيفسده ويخلُّ به، وهكذا المسلم، فإنّه محتاج لما يحوط عقيدته ويرعاها حقّ رعايتها من أن تتلقّى شيئاً من شبه أهل الضلال، فيقع في قلبه شيء من الانخداع بها، فيزيغ قلبه -

(١) الفتاوى، قاله الإمام ابن تيمية (ج ١٠ - ص ٣٦٨).

عياداً بالله من ذلك – فيهلك مع الهالكين.

ومنذ خروج المرء من بطن أمّه، فليس في ذهنه رصيد معرفي، ولا خبرة عملية، كما قال الله – تعالى: ﴿وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) يقول تعالى ذكره: والله تعالى علمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئاً ولا تعلمون، فرزقكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشر وبصركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضاً من بعض. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون وتفقهون بها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك (٢).

فالمرء المسلم ما دام أنه سيبدأ بالتلقي والاتصال مع بني الإنسان، فسيجد اختلافات في الآراء، وتباينات في المناهج، وكلٌّ يدعي الحق والصواب.

- فما موقفه إذن من هذه التضاربات الفكرية؟
- وكيف يستطيع أن يميّز بين الصواب والخطأ؟
- هناك خطوات لتحقيق ذلك، وستتجلى – بإذن الله –

ضرورة تلقي العلم من منابعه الأصيلة:

ليس من شك في أنّ الإنسان المسلم إذا لم يتلقَّ العلم من منابعه الأصيلة، وروافده الصحيحة، أخذاً من الكتاب والسنة على هدي السلف الصالح، فإنه سيخبط خبط عشواء ويتلقّى العلم من جهات لا يعلم توجهاتها العقديّة، ولا أصولها الشرعية، ويقع في عدة مزلق يتباين حجم خطئها وضلالها، ولهذا كان علماءنا السابقون يوصون بتلقي العلم ممّن صدقوا الله في تعلمهم وتعليمهم، ولاحت قوة حججهم أمام خصومهم، وفي المقابل يحذرون طلابهم من أهل الزيغ والهوى، لئلا يقعوا فيما وقع فيه أولئك المبتدعة، فكان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – يقول: (لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن الأكابر، وعن

(١) سورة النحل: ٧٨

(٢) تفسير الطبري (ج ١٧ – ص ٢٦٥).

أمنائهم وعلمائهم؛ فإذا أخذوا من صغارهم وشرارهم هلكوا.

قال ابن المبارك (١) - رحمه الله - في تفسير (الأصاغر): (يعني أهل البدع) (٢).

وهذا الإمام عبد الله بن المبارك - رحمه الله - يوصي طالب العلم قائلاً له:

أيها الطالب علماً أئت حمّاد بن زيد

فاكتسب علماً وحلماً ثم قيده بقيد

ودع الفتنة من آثار عمرو بن عبيد (٣).

وممن نبّه على ذلك الإمام الغزالي - رحمه الله - حيث ألح للمسلم الذي يريد أن يكون ذا عقلية واعية بأنه لا بد أن يعمل على حصانة عقلية من الانحرافات الفكرية، وخصوصاً إن كان في منطقة يكثر بها أهل البدع والهوى، فقال: (فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يسان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق؛ فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا) (٤).

وحين يفتش المراقب ضلال من ضلّ وحاد عن طريق الهدى وعلائم الحق، فسيجد أنّ من أسباب ذلك ضعف الحصانة الشرعية، ممّا يؤدي لولوج المشتبهات في فكره وعقله، وقد نبّه على ذلك الإمام ابن بطة العكبري فقال: (اعلموا إخواني أي فكرت في السبب الذي أخرج أقواماً من السنة والجماعة واضطّروهم إلى البدعة والشناعة، وفتح باب البلية على أفئدتهم وحجب نور الحق عن بصيرتهم فوجدت ذلك من وجهين:

أحدهما: البحث والتنقيب وكثرة السؤال عما لا ينبغي، ولا يضر العاقل جهله، ولا ينفع

المؤمن فهمه.

والآخر: مجالسة من لا تؤمن فتنته، وتفسد القلوب صحبتته) (٥).

(١) عبد الله بن المبارك. ويكنى أبا عبد الرحمن. ولد سنة ثمان مائة وطلب العلم فروى رواية كثيرة وصنف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه حملها عنه قوم وكتبها الناس عنهم. وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد. وقدم العراق والحجاز والشام ومصر واليمن وسمع علماً كثيراً. وكان ثقة مأموناً إماماً حجة كثير الحديث. ومات بهيت منصرفاً من الغزو سنة إحدى وثمانين ومائة وله ثلاث وستون سنة. (تذكرة الحفاظ ج ١ / ٢٧٤ - ٢٧٩).

(٢) المصنّف: أخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٤٦ و ٢٠٤٨٣، بسند صحيح).

(٣) ديوان ابن المبارك للدكتور: مجاهد مصطفى: (ص ٤٥).

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي: (ج ١ - ص ٢٩).

(٥) الإبانة: (ج ١ - ص ٣٩٠).

وقد يتساءل بعض المستشكلين عن علة الاهتمام والتشُّبُّت تجاه مصادر التلقي؛ والسبب في ذلك، لئلاً تختلط المناهج في الذهن، وتتضارب التصورات، فتكون النتيجة المنطبعة بعد ذلك في العقل الإسلامي منهجاً غوغائياً لا تلزمه ضوابط، ولا تحكمه قيود.

فالمطلوب لمن أراد الهداية والتثبيت على سلم الشريعة؛ ليدفع بها الأهواء، ومكائد أهل الضلال، أن يكون معتنياً بحماية عقله، بسياج الشريعة الإسلامية وأصولها، والتي تكون له ثوابت عقديّة تحميه — بعون الله — من سريان الأفكار المضلّة إلى منهجه، من أهل الأهواء والعصرنة والعلمنة.

أمّا أن يظنّ العبد بنفسه حين يقرأ شيئاً في عقيدة أهل السنة والجماعة أنّه صار مدركاً لها بالكلية، أو مفكراً أليماً، ثمّ يطالع كتب أولي الأهواء والبدع، ويشاهد بعض البرامج الدينية أو الفكرية في بعض القنوات الفضائية، بحجّة الاستنارة وعدم التعصّب الفكري، أو بغية العثور على فكرة ضالة، فيبدأ مشاهداً ومطالِعاً متوجساً من كلام المتحدث، وما أن تمضي عدّة شهور أو سنوات، حتّى يذمّن ذلك الذي ظنّ أنّه قد أحاط علماً بأصول الإسلام، على مشاهدة الفضائيات وملاحقة الصحف والمنديات الثقافية، فتبدأ الشبهات تقع في ذهنه، لقلّة علمه، بل قد يأتي بعضهم لأهل العلم في مجالس خاصة أو عامة، يحدثونهم سرّاً أو علانية، بأنّ في ذلك البرنامج الفلاني، أو الصحيفة الفلانية، ذكر الكاتب كذا، وأقام الأدلة على حديثه، فهل كلامه صواب؟ وكيف نرد عليه؟! والحق أنّ هؤلاء أحسنهم، وإلاّ فقد يندفع هؤلاء ببعض أهل الهوى ممّن أوتوا فصاحة وبياناً بل علماً، فتختلط المعايير لديهم، ويضطربون فكراً، ثمّ يلتفتون مرّة أخرى إلى منهجهم الذي ساروا عليه سنوات فيدعون أهميّة نقضه ونسفه، ومعاودة النظر في كلام علمائه بحجّة أنّهم رجال وعلماء السلف رجال؛ لأنّه لم يقم على الأصول العلمية الصحيحة!!

وصدق عمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه — القائل: (من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل) (١).

الحذر من مخالفة منهج أهل السنة والجماعة:

من يتابع مسيرة سلفنا الصالح — رضوان الله عليهم — يجدهم يتحاشون الاستماع لأهل

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص: ١١٥).

البدع والهوى، أو محادثتهم، أو مجالستهم، وفي هذا يقول سفيان الثوري^(١): (من أصغى بسمعه إلى صاحب بدعة، وهو يعلم، خرج من عصمة الله، ووكل إلى نفسه، وقال كذلك: من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه، لا يلقها في قلوبهم.

علق الإمام الذهبي على مقولة الإمام سفيان الثوري بقوله: أكثر الأئمة على هذا التحذير يرون أن القلوب ضعيفة والشبه خطافة^(٢)، وقد أحسن من قال:

لا تستمع إلا لقول صادق *** يغنيك عن خطل من الأقوال
فالأذن نافذة العلوم وخيرها *** أذنٌ وعت ذكراً تلاه التالي

يقال ذلك لحفظ عقول المسلمين، والاحتياط لدينهم من سماع كلام أهل الضلال، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^(٣) يعني: بعد ما علموا نهى الله عن مجالسة الكفار الذين يكفرون بحجج الله وآي كتابه ويستهزئون بها ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، يعني بقوله: ﴿يَخُوضُوا﴾، يتحدثوا حديثاً غيره "بأن لهم عذاباً أليماً". وقوله: "إنكم إذا مثلهم"، يعني: وقد نزل عليكم أنكم إن جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون، فأنتم مثله يعني: فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، مثلهم في فعلهم، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله. فقد أتيتم من معصية الله نحو الذي أتوه منها، فأنتم إذا مثلهم في ركوبكم معصية الله، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه^(٤).

ومن الأدلة على ذلك قوله - ﷺ -: ((وإنه من يعيش منكم بعدي فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة))^(٥)، فإنه - ﷺ - حذرنا من محدثات الأمور، ودعانا إلى اجتنابها.

(١) سفيان الثوري (١٦١ هـ): سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، شيخ الإسلام إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، مصنف كتاب الجامع. وقال المروزي عن أحمد بن حنبل قال: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري، لا يتقدمه أحد في قلبي، وقال شعبة: ساد سفيان الناس بالورع والعلم. توفي سنة إحدى وستين ومائة. (تذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٣ - ٢٠٧).

(٢) السير: للذهبي: (ج٧- ص ٢٦١).

(٣) سورة النساء: ١٤٠.

(٤) تفسير الطبري (ج ٩ - ص ٣٢٠).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (ج٤- ص ١٢٦) والترمذي برقم (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح.

ومن الأدلة كذلك ما رواه عمران بن حصين^(١) عنه — عليه الصلاة والسلام — أنه قال: (من سمع بالدجال فليأمنه، من سمع بالدجال فليأمنه، من سمع بالدجال فليأمنه، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فما يزال به بما معه من الشبه حتى يتبعه)^(٢).

بل إن المصطفى — عليه الصلاة والسلام — حين أتاه عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، غضب — عليه الصلاة والسلام — وقال: (أوفى شكك يا ابن الخطاب؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به. والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)^(٣).

كان ذلك منه — عليه الصلاة والسلام — تربية لأصحابه على أن يكون النبي الذي يتلقون منه واحداً عذباً نقياً: (يسقى بماء واحد)، ليفارقوا أهل الضلالة ويستقوا المنهج من غيرهم، لأن مفارقتهم منهج لأهل السنة والجماعة، وليست من إنشاءات بعض المتشددين كما يزعمه بعضهم، ويكفيها أنه — سبحانه وتعالى — يقول في محكم التنزيل لمن يطلب النظر في غير كتاب بدعوى عدم الحجر الفكري: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾^(٤) يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات — يعنون — ترشدتهم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّد: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك^(٥).

وأما ما يدعيه بعضهم من أولي التوجهات الحديثة العصرية: بأن ذلك التحفظ من باب الحجر على الأفكار، والاسترقاق الفكري، والإرهاب الثقافي تجاه الناس، وأنه لا بأس بأن يستمع من شاء إلى من يشاء، سواء أكان سني المنهج أو نقيضه، بلا توجيه أو رعاية أو تربية

(١) عمران بن حصين (٥٢ هـ) — عمران بن حصين بن عبيد بن خلف أبو نجيد الخزاعي. القدوة الإمام صاحب رسول الله ﷺ أسلم عام خيبر. وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات، بعثه عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقه أهلها، وكان من فضلاء الصحابة. روى عن النبي ﷺ وعن معقل ابن يسار. وروى عنه بشير بن كعب العدوي، والحسن البصري كان عمران بن الحصين من أشد أصحاب رسول الله ﷺ اجتهاداً في العبادة. توفي سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنه. (الإصابة ٧٠٥ / ٤ - ٧٠٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: (ج ٤ - ص ٤٣١) بسند صحيح، وجود إسناد الإمام ابن مفلح في الآداب الشرعية (ج ١ - ص ٢٢٠).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ج ٣ - ص ٣٣٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٦ - ص ٢٢٨) بسند حسنه الألباني.

(٤) سورة العنكبوت: ٥١

(٥) تفسير بن كثير (ج ٦ - ص ٢٨٧).

وعناية؛ بزعم أن الحق أبلج ناصع، ومن خلال نصاعة الحق سيتبين للناس أنه حق ويأخذون به، لأن الله يقول: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١) أي باطلاً مرمياً به يرميه السيل إلى ساحل الوادي فيعلق بالأشجار والأحجار ويرميه الصائغ عن بوقته (٢). ويقولون: إنه ليس من إشكال أن يقاب المرء بصره في كلام الناس، ويستمتع لجدال المجادلين، ثم يرى من كان كلامه حقاً فيأخذ به.

فالجواب عن ذلك: بأن هذا الطرح متولد من العقلية الغالية في تحكيم النصوص، والتي تزايد في إعطاء العقل ما لا يقدر عليه، ولم يُبْنَ على الأصول الشرعية، وإلا فإن هدي رسول الهدى - ﷺ - والصحابة والتابعين ممن بعده يقوم على تحصين الأفكار، وصيانة العقول من الاستماع لكل من هبَّ ودبَّ، وعلى هذا قام منهج أهل السنة والجماعة، ورحم الله عمر بن عبد العزيز، حين قال: (سنَّ رسول الله ﷺ وولاية الأمر بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعته، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها، فمن اقتدى بما سنوا فقد اهتدى، ومن استبصر بها بصر، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولأه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً) (٣).

وحيث جاء رجل للإمام الأوزاعي - رحمه الله - فقال: أنا أجالس أهل السنة، وأجالس أهل البدع، قال الأوزاعي: (هذا رجل يريد أن يساوي بين الحق والباطل) (٤).

وما زال علماء الإسلام في القديم والحديث يطلعون على كتب الملل ومقالاتهم، ويردون بما يستخرجونه منها من الدلائل الإلزامية، وناهيك بمثل ابن حزم وابن تيمية في الغابرين، وبرحمة الله الهندي صاحب إظهار الحق في المتأخرين، أرأيت لو لم يقرأ هذا الرجل كتب اليهود والنصارى، هل كان يقدر على ما قدر عليه من إلزامهم وقهرهم في المناظرة، ومن تأليف كتابه الذي أحبط دعواتهم في الهند وغير الهند، أرأيت لو لم يفعل ذلك هو ولا غيره أما كان يأثم هو وجميع أهل العلم، وهم يرون عوام المسلمين تأخذهم الشبهات من كل ناحية ولا يدفعونها عنهم؟ نعم إنه ينبغي منع التلامذة والعوام من قراءة هذه الكتب لئلا تشوش عليهم عقائدهم وأحكام دينهم، فيكونوا كالغراب الذي حاول أن يتعلم مشية الطاووس فنسي مشيته ولم يتعلم مشية

(١) سورة الرعد: ١٧

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (ج ٣ - ص ٢٠-٢١).

(٣) أخرجه الأجرى في الشريعة (ص: ٤٨).

(٤) الإبانة لابن بطة (ج ٢- ص ٤٥٦) والألكائي (٢٥٢) في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة.

(الحجل، والله أعلم)

ولنفترض جدلاً أنّ علماء أهل السنة والجماعة فتحوا المجال للناس أجمعين ليطالعوا ما يشاؤون، ويشاهدوا ما يريدون، فالظنُّ أنّه سيخرج كلُّ واحد منهم بمنهج يدّعي أنّه الحق الذي لا مرية فيه، وخاصة إذا استصبحنا أنّ في القلوب ركيزة الهوى، وتزيين السوء باسم المصلحة تارة والحق أخرى ووجهة النظر الثالثة والحرية رابعة، وتكون النتيجة المحصّلة لنا من هذه الآراء؛ التمهيد بمذهبية الـ(حيص بيص!) في المعتقدات والأفهام، والكل يقول أنا الذي! دع عنك حبّ الاستئثار بالرأي لدى البشر، وتعظيمهم لأقوالهم، ومن ثمّ إخراجهم للكتب والمؤلفات لنصرة رأيهم، والانتصار لفكرتهم (وكم كتاب صنع ليطعن حقاً) (١) كما قال الشيخ محمد الخضر حسين.

والحقيقة أنّنا إذا نظرنا فيمن يعظم الذي يظنُّ أنّه عقلائي، فسندهم قد صاروا إلى أقوال متباينة، وأفكار غريبة، وقلّ أن نراهم يوافقون الحق والصواب المدّعى من قبلهم؛ لأنّ المعيار بلا معيار لا يكون، والعقول تختلف، والآراء تتباين، والأفكار تتضارب، فتتكون لديهم رؤية مبعثرة غير متّزنة، تسفّها الرياح العاتية، وتتلاعب بها الأعاصير الجارفة، وقد قيل: (للناس بعدد رؤوسهم آراء!) ولهذا فلم نرَ من كبارهم إلّا الندم والحسرة على تلك الأيام التي خلت حين كانوا يضرّبون الأخماس في الأسداس في ماهية المنهج الصائب، حتّى انتهوا بلا نهاية، وقالوا: ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا.

ولله درُّ الإمام ابن قتيبة حيث قال عن هؤلاء المتبعين للمنهج "الأرائيني": (وقد كان يجب — مع ما يدّعون من معرفة القياس وإعداد آلات النظر — أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُساب والمسّاح، والمهندسون، لأنّ ألّهم لا تدلُّ إلّا على عدد واحد، وإلّا على شكل واحد، وكما لا يختلف حذّاق الأطباء في الماء وفي نبض العروق؛ لأنّ الأوائل قد وقفوهم من ذلك على أمر واحد؛ فما بالهم أكثر الناس اختلافاً، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين) (٢) وصدق الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٣) (٤).

وأما ما ادّعاه بعضهم من صحّة الفكرة القائلة: بأن يقبّل المرء ناظره بين الأقوال

(١) في كتابه: نقض كتاب الشعر الجاهلي (ص: ٤).

(٢) تأويل مختلف الحديث (ص ٦٣).

(٣) سورة النساء: ٨٢.

(٤) النساء: ٨٢. سبق تفسيرها (ص ٢-٣).

المتضاربة، ويرى الحق الذي يبدو له في بعضها فيختاره، ثم يرى أن هناك شخصاً تعقّب ذلك الحق الذي اتّبعه فجعله باطلاً، ثمّ أبدى ما لديه من حق، فيأتي المرء ليختار الحق الذي اختاره ذلك الشخص المتعقب لكلام من قبله، ثمّ يأتي شخص ثالث فيبطل القولين ويصوّب القول الذي اختاره بعناية وتحقيق، فيأتي هذا المرء المسافر بين عقول هؤلاء ليختار قول هذا الرجل، لأنّه قوي في المناظرة، رابط الجأش في المجادلة، وهكذا فإنّ هذا الرأي المطروح ليس صواباً؛ لأنّ دين الله لم يأت ليحاكمه العقل البشري، بل ليعلم له ويطيعه، ولهذا فإنّ المنهج العقلي وإنّ صوراً لأصحابه في البداية بأنه منهج المنطقية والعقلانية، إلاّ أنّه في الحقيقة منهج الحيرة والضلالة، لأنّ هذا المنهج وإن كانت له قيود، فقيوده متغلّظة، وقواعده متسيّبة، فينتج من ذلك ثلاثة أمور:

إمّا أن يصاب أصحابه بتبدّل الإحساس فيختاروا قولاً، يبقون عليه إلى أن يُقبضوا مع تعصب مقبّيت، وهوى متّبّع.

وإمّا أن يصطدموا بما لا طاقة لعقولهم به فيردّوا الشريعة جملة وتفصيلاً.

وإمّا أن يصاب أصحابه بالارتحال الفكري، والتجوال بين عقول البشر، ومناهج الفلاسفة أو المفكرين العصريين، فيعانوا من الدوار مع القلق الفكري، وتغلب عليهم الحيرة والاضطراب المنهجي – عياداً بالله من ذلك – وقد ابتلي بعض من سار على هذا المنهج بذلك مثل: الفخر الرازي، والشهرستاني، والجويني، والكرابيسي، والخونجي، وشمس الدين الخسروشاهي، وابن واصل الحموي، والأمدي، وإبراهيم الجعبري، وغيرهم، وإن كان بعض هؤلاء قد منّ الله عليهم بالرجوع لمنهج أهل السنة والجماعة قبل وفاتهم – والله الحمد.

وحيث جاء رجل للإمام مالك يقول له أبو الجويرية – متّهم بالإرجاء – فقال له: اسمع منّي، فقال مالك: احذر أن أشهد عليك. فقال هذا الرجل: والله ما أريد إلّا الحق، فإن كان صواباً، فقل به، أو فتكلم. فقال مالك: فإن غلبتني. فقال الرجل: اتّبعتني. فقال مالك: فإن غلبتك، قال: اتّبعتك. فقال مالك: فإن جاء رجل فكلمنا، فغلبنا؟ قال: اتّبعتنا. فقال مالك: يا هذا، إن الله بعث محمداً ﷺ – بدين واحد، وأراك تنتقل!!(١).

ولا يعني ذلك بحال ألاّ يطلب المستلم الحق ويبحث عنه، فإنّ هذا الأمر غير ذاك والفرق بينهما أن من يريد تتبع الحق في أصول الإسلام وقضاياها الكلية يرجع إلى كتاب الله، وسنة

(١) سير أعلام النبلاء (ج٨- ص ٩٩-١٠٦).

رسوله ﷺ — فيستقي منهما الحق والصواب، على طريقة علماء أهل السنة والجماعة، ومنهجيتهم في الاستدلال.

حتى لا نقع في الانحرافات:

صفة متبَع الحق أنه يدور مع الأدلة الشرعية حيث تدور، فهمه التسليم لكلام الله ورسوله؛ لأنه عابدٌ لله، ولا يكون العبد مسلماً لله إلا إذا ابتعد عن هواه وسلَّم عقله ونفسه لحكم الله وأمره، أمّا من يريد تتبع الحق لأقوال من عرفوا بالزيغ والهوى، فإنه قلّ أن يصل للمنهج الإسلامي الصحيح، ومن دلائل معرفة هؤلاء أنهم يبعدون النجعة كثيراً عن الأدلة الشرعية، ولا يتحاكمون إلا إلى عقولهم ومن ثمّ يختارون من الشريعة ما يوافق هواهم، بل لو قيل لبعضهم: إنّ هذا القول خطأ والدليل عليه من كتاب الله كذا وكذا، لضجّوا وأكثروا وقالوا أنت رجل مباحك؛ فما أشبههم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(١) يقول تعالى ذكره: وإذا أفرَد الله جل ثناؤه بالذكر، فدعي وحده، وقيل لا إله إلا الله، اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْمَعَادِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَمَاتِ. وعنى بقوله: ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: نفرت من توحيد الله. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يقول: وإذا ذكر الآلهة التي يدعونها من دون الله مع الله، فقيل: تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى، إذ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بذلك ويفرحون^(٢).

ومن هنا يلزم كلّ متبَع لمنهج أهل السنة أن يكون فكره مبنياً على كتاب الله وسنة رسول الله بالفهم المنضبط على منهج أهل السنة والجماعة، خشية الوقوع في الشبهات ووصولها إلى ذهنه، ومن ثمّ صعوبة الانفكاك عنها، حيث ترسّخت في العقل، ولعلّ هذا يفسر لنا ما ذكره الإمام أبو بكر بن العربي عن أبي حامد الغزالي — رحمهما الله — حيث إنّه من المعلوم أنّ الإمام الغزالي تنقل في عدة أطوار عقديّة ومنهجية من اعتزالية فلسفيّة، فكلابيّة، فصوفية، فأشعريّة، ثمّ أراد الانفكاك عنها والخروج من لوازمها، لكنّه لم يستطع أن يتقياً كلّ ما انغرس في فكره من تلك العقائد البدعية، فقال عنه أبو بكر بن العربي: (شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة، ثمّ أراد أن يخرج منهم فما قدر)^(٣) وكذا الإمام أبو الحسن الأشعري فقد كان معتزلياً،

(١) سورة الزمر: ٤٥.

(٢) تفسير الطبري (ج ٢١ — ص ٣٠١).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (ج ١—٥).

ثم تبنى الفكر الأشعري.

وبعد هذه التقلبات الفكرية ترك أبو الحسن الأشعري ذلك كله وأقبل على منهج أهل السنة والجماعة وألف كتابين جليلين هما: (الإبانة عن أصول الديانة) وكتاب: (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) ولكنه مع ذلك لم يخل من بعض الأخطاء بسبب التكوين العقدي المركب في عقله، وممن ألمح لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (لم يستطع التخلص من مذهب المعتزلة لأنه نشأ عليه مع قلة خبرته بمذهب أهل السنة وعدم تمكنه من علم الكتاب والسنة)(١).

عرضت هذين النموذجين لأبّين دور البناء والتأصيل للتكوين العقدي في الخريطة الذهنية لدى الفرد المسلم، وأنّ الانفكاك عن كلّ ما يثبت بالذهن من الأخطاء العقديّة قد يكون صعباً، إلاّ من أراد الله له ذلك وتفلّت فكره من كلّ مخالفة شرعيّة.

استدراك لا بدّ منه:

لا يعني التحذير من القراءة لكتب أهل الزيغ والهوى، أو متابعة آرائهم وأفكارهم بأي حال؛ ألاّ يُتَدَبَّ أناس من الله عليهم بالعمق العلمي في معرفة منهج أهل السنة، ورصانة الدفاع عنه، مع ما آتاهم الله من قوة وحجّة في الكلام، وجزالة في المعاني والتبيان، بالتصدّي لأهل البدع والضلالات، وكشف زيف شبههم؛ فإنّ أهل السنة محتاجون أشد الحاجة لأولي العلم الربانيين المتمكّنين، وخاصة في هذا الزمان، الذي كثرت فيه الشبهات وتسلط فيه الجهال على منابر الإعلام، وانتشر فيه الروبيضات الذين ينطقون في أمر العامة، فإننا بحاجة ماسّة لمن من الله عليهم بذلك وتكونت لديهم الحصانة العقديّة، لأنّ يُتَدَبَّوا لجدال الزائعين، ومناقشة المغرضين، وقد كان في السابق من أهل العلم من ينتدب لذلك إذا رأى الشبهات قد كثرت، بل قد يناظر ويجادل أمام العامة، إذا خشي أن تتسرب الفكرة الضالة إلى عقولهم من أهل الضلال، حماية لهم منهم، ورداً لكيد الضلال في نحورهم، كما ناقش الإمام أحمد ابن أبي دؤاد، وكما جادل الكناي بشر المريسي، وابن تيمية علماء الأشاعرة، وغيرهم كثير.

وكانت هذه الحالة عند العلماء استثنائية، من أصل عدم مناظرة هؤلاء، أو الاستماع إليهم، إلاّ إن اضطروا إلى ذلك، وخشوا أن تستفحل الفتنة أكثر فأكثر؛ فإنّ أهل السنة استحَبُّوا أن ينتهز الربانيون لمجادلة الضلال.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية.

وممن نبه على ذلك من علماء الإسلام: الأجرّي — رحمه الله — بقوله عن أهل الضلالة والبدع: (فإن قال قائل: فإن اضطر في الأمر وقتاً من الأوقات إلى مناظرتهم، وإثبات الحجة عليهم ألا يناظرهم؟ قيل: الاضطرار إنما يكون مع إمام له مذهب سوء، فيمتحن الناس، ويدعوهم إلى مذهبه، كفعل من مضى، في وقت الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ثلاثة خلفاء امتحنوا الناس، ودعوهم إلى مذهبهم السوء، فلم يجد العلماء بدءاً من الذبّ عن الدين، وأرادوا بذلك معرفة الحق من الباطل، فناظروهم ضرورة لا اختياراً، فأثبت الله — عزّ وجل — الحق مع الإمام أحمد بن حنبل، ومن كان على طريقته، وأدلّ الله العظيم المعتزلة وفضحهم، وعرفت العامة أنّ الحقّ ما كان عليه أحمد بن حنبل ومن تابعه إلى يوم القيامة)^(١).

ولهذا فلا يُذكر أن أفحم أهل السنة في مناقشاتهم لأهل البدع، أو مناظراتهم لهم — والله الحمد والمنة — لأنّ الله هاديهم، ومنورّ طريقهم.

أمّا من أرادوا جرّ أهل البدع والهوى لمناقشات لا يحسنون الجدل معهم فيها، بل يلقون في أذهانهم شياً تلجج في عقولهم أيّاماً حتى يفرجها الله بإزالة تلك الإشكالات من أهل العلم الربانيين، بعد أن يطوف عليهم هؤلاء المغمورون... إنّ هؤلاء القوم لا يقال لهم إلاّ: لا تعرضوا أنفسكم للفتنة، فتكونوا للناس فتنة، حين لا يجدوا لديكم قوّة في الحجّة، وعمقاً في المناظرة، وكم أتى أهل السنة والجماعة من أمثال هؤلاء!

وقد قيل: (كثيراً ما يكون الباطل أهلاً للهزيمة، ولكنه لا يجد من هو أهل للانتصار عليه).
وحيث كان يتحدّث الإمام ابن تيميّة عن مناظرة أهل السنة لأهل البدع والهوى، بيّن — رحمه الله — أنّ أهل السنة والجماعة لا يؤيّدون أن يتصدى لمناظرة أهل البدع من كان قليل العلم، فقال: (وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجّة وجواب الشبهة، فيخاف عليه أن يفسده ذلك المضلّ، كما يُنهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل علجاً قويّاً من علوج الكفّاء، فإنّ ذلك يضرّه ويضرّ المسلمين بلا منفعة)^(٢).

وعلة ذلك أنّه حين النقاش يظهر السنّي أمام أهل الضلال والهوى بمظهر ضعف، وعدم قوّة في الاحتجاج والطرح، فيسبّب ذلك له وللبعض أهل السنة حيرة وفتنة في دينهم، وقد تحدّث ابن تيميّة في موضع آخر حول هذه القضية قائلاً: (وكثيراً ما يعارضهم من أهل الإسلام من لا

(١) الشريعة للأجرّي، (ص: ٦٦).

(٢) درء تعارض العقل والنقل: (ج٧- ص ١٧٣).

يحسن التمييز بين الحق والباطل، ولا يقيم الحجّة التي تدحض باطلهم، ولا يبيّن حجّة الله التي أقامها برسله، فيحصل بسبب ذلك فتنة(١).

حلُّ إشكال قد يقع في البال!

قد يقول بعض إننا نعيش في زمن الانفتاح، والقرية الكونية؛ التي فرضت نفسها على المجتمعات، وقد يصلح ما أكتبه لبعض المجتمعات المنغلقة على كينونتها الخاصة بها، أو أزمّة سابقة، وكثير من الناس يعيش في بلاد يكثر بها أهل الهوى والابتداع، فليس من بدّ إلا أن يستمع للأفكار حسنها وسيئها، وقد يكون غير محصّن فكرياً وعقدياً، كما تزعم أهميته، فما قولك؟!

فالجواب عن هذا الإيراد: أنّ هذا الطرح فيه شيء صحيح وباطل، فأماً الصحيح فإنّ هناك مجتمعات لها خصوصيّتها الفكرية والعقدية، وهناك مجتمعات تكثر فيها المذاهب العقديّة، والآراء الفكرية المغايرة لمنهج أهل السنّة والجماعة، ولكن... هل نقف عند هذا الحد، ولا ننتمي ونختار علماء أهل السنّة الموجودين في كلّ مكان من الأرض، ممّا يساعدنا على البناء العقدي المتين؟

ثمّ من الذي قال لهؤلاء احضروا لمن تشاؤون، لقلّة أهل السنّة والجماعة الموجودين في أراضيكم؟

أليس النبيّ — عليه الصلاة والسلام — أخبرنا بأنّه سيأتي زمان القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر؟! وذلك لأنّ صحابة رسول الله — ﷺ — يجدون على الخير أعواناً وهؤلاء القابضون على الجمر لا يجدون على الحقّ أعواناً.

ألم يخبرنا بأنّه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى نلقى ربنا؟ وأوصانا بأن نصبر حتّى نلقاه على الحوض غير مبدلين ولا مغيرين؟

ثمّ هناك فرق بين أن يجلس إنسان مسلم في مجلس فيتحدّث متحدّث بكلام خاطئ، ويكون المسلم الجالس في ذلك المجلس عَرَضاً لا قصداً، فإنّ الأعمال بالنيّات كما أخبرنا المصطفى — ﷺ — والأمور بمقاصدها، وقد رُفِعَ الحرج عن هذا وأمثاله حين حضر هذا المجلس، ولكن ليس له إن علم ضلال قول ذلك المتحدّث أن يبقى جالساً في المجلس ذاك، بل يجب عليه مفارقتّه، وخاصةً إن كان قليل العلم، وقد قال أبو قلابة — رحمه الله —: (لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا

(١) مجموع الفتاوى: (ج ٣٥ - ص ١٩٠).

تجادلوهم، فإنِّي لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا ما تعرفون^(١).
إنَّ فرضيَّات الواقع والتي يغلب عليها اللغة الانهزاميَّة، والأفكار المضلَّة، تقتضي أن نكون
أشدَّ إصراراً في مفاصلنا العقديَّة، وأصلب عوداً في التلمُّس الجاد لوجود أهل السنة المعينين
لنا بالإبقاء على استنبات الفطرة التي ولدنا عليها، وأهميَّة معرفة مصادر التلقي لتصورها
ونعتقدها مستمسكين بها، ولدينا أهل العلم وحملته الربانيُّون، فلنسألهم ولنستوضح منهم ما أشكل
من أصول ديننا.

(١) الإبانة (ج ٢ - ص ٤٣٧).

المطلب الثاني: حلول وأصول في حماية العقل المسلم من شبهات المغرضين:

بعد هذه الأطروحة التي عرضت قضية أحسب أنها من مهمّات قضايا الفكر الإسلامي، فلا بد لسائل أن يقول: وكيف نحصّن أنفسنا وفكرنا من الداخل، خشية أن يضلّنا ما هو زائغ عن المنهج القويم، وما الأسس والأصول التي تكوّن لدينا حصانة شرعيّة، نستطيع – بإذن الله – بعدها أن نردّ الغلط إذا أوردت الشبهات، وخصوصاً في ظلّ ما يمارس الآن من الحرب الإعلاميّة الغازية للأفكار والعقول المسلمة؟

لعلّ الجواب يكمن في عدّة نقاط أرى أنها – بإذنه تعالى – تساهم في بناء الحصانة الشرعية للعقلية الإسلامية، وهي كالتالي:

١- التعلّق بالله – عزّ وجلّ – والاستعانة والاستعادة به، وسؤاله الهداية والثبات والممات على دين الإسلام من غير تبديل ولا تغيير، ولنا في رسول الله أسوة وقدوة، فقد كان يسأل ربّه الهداية، وكان كثيراً ما يسأله الثبات على هذا الدين، وعدم تقلّب قلبه عن منهج الإسلام، ويستعيز به من أن يضلّ أو يُضلّ، كما كان – عليه السلام – يستعيز من الفتن ما ظهر منها وما بطن، فالدعاء الملازم لذلك والانطراح على عتبة العبوديّة، وملازمة القرع لأبواب السماء بـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(١) أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي: من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٢)، فإذا اجتمعت هذه كلّها، فلا شك أنّ رحمته سبحانه سابقة لغضبه وعقابه، ومحال أن يتعلّق العبد برّبّه حقّ التعلّق، ويعرض عنه الله – سبحانه وبحمده – وهو الكريم الوهاب.

٢- الثّقة بمنهج الله ووعده وحكمه وأوامره، واليقين به ومراقبته، والشعور بالمسؤوليّة عن حفظ الدين من شبهات المغرضين، وعدم خلطه بالباطل، أو لبسه إياه، ومن ثمّ الصبر على مكائد المنفذين والمسوّغين للشبهات، فإنّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٣) أي تصبروا على ما يبئليكم الله به من الشدائد والمحن

(١) سورة آل عمران: ٨

(٢) تفسير بن كثير (ج ٢ – ص ١٣).

(٣) سورة آل عمران: ١٢٠

والمصائب وتثبتوا على الطاعة وتتفوا الاستعانة بهم في أموركم والالتجاء إلى ولايتهم لا يضرُّكم كيدُهُمْ شَيْئاً لأن المتوكل على الله الصابر على بلائه، المستعين به لا بغيره: ظافر في طلبته، غالب على خصمه، محفوظ بحسن كلاءة ربه. والمستعين بغيره: مخذول موكل إلى نفسه، محروم عن نصره ربه^(١).

وقد قال الإمام سفيان الثوري: (بالصبر واليقين تتال الإمامة في الدين) أي كلما صبر الإنسان وتوكل على الله وأحسن العمل فإن الله سيرفعه مكان عالياً في الدين والدنيا، ومما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٢) أي: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم، هدى، والمؤمنون به منهم، على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم. والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماعها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله، إلى درجة اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين^(٣).

٣- تلقى العلم عن العلماء الربانيين، وإرجاع المسائل المشككة إليهم ليحلُّوها ويوضحوا ما أبهم على صاحبها، فلا يستعجل في قبول فكرةٍ أطلقها من لا يؤمن فكره، ولا يبقي تلك الشبهة في صدره حتى تعظم، بل ينبغي عليه أن يضبط نفسه بالرجوع للراسخين من أهل العلم؛ فإن الله تعالى - يقول: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) أي أيها الشاكرون فيما جاء به محمد ﷺ فاسألوا أهل التوراة والإنجيل لإزالة شككم ووقوفكم على الحقيقة وأن ما جاء به محمد حق وأن الرسل قبله كلهم كانوا بشراً مثله^(٥).

(١) محاسن التأويل (ج ٢ - ص ٣٩٦).

(٢) سورة السجدة: ٢٤.

(٣) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٦٥٦).

(٤) سورة النحل: ٤٣.

(٥) أيسر التفاسير للجزائري (ج ٣ - ص ١٢٠).

وذلك لأنَّ هذا العلم دين يدين به العبد لربِّه ويلقاه به إذا مات عليه، ولهذا قال الإمام محمد

بن سيرين - رحمه الله - : (إنَّ هذا العلم دين ؛ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم) (١).

٤- البناء الذاتي بمعرفة مصادر التَّقِي، ومناهج الاستدلال الصحيحة، وملء القلب بنور الوحي من الكتاب والسنة، مع ملازمة إجماع أهل السنة والجماعة، فإنَّ هذه المصادر عاصمة من قاصمة الوقوع في الخطأ والانحراف والزلل، وسبب أكيد لسدِّ باب الشبهات المظلمات، وذلك - بعونه تعالى - مساعدًا لحماية العقل المسلم من مضلات الفتن.

قال أبو عثمان النيسابوري: (من أمرَّ السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمرَّ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾ (٢) (٣) فيما أمركم به ونهاكم عنه (وتهتدوا) إلى الحق وترشدوا إلى الخير وتفوزوا بالأجر (٤).

ومن ذلك إرجاع المجلد إلى المبيِّن، والمطلق إلى المقيد، والمؤول إلى الظاهر، والجمع بين الأدلة التي ظاهرها التعارض، بالرجوع لكتب أهل العلم، واستقاء معاني الألفاظ من العلماء الربانيين، وكذا برد المتشابه إلى المحكم، وقد روت عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله

- ﷺ - قرأ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ

عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥) هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ واضحات

الدلالة هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ أي أصله المعتمد عليه في الأحكام وأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ وهي ما استأثر الله بعلمها لعدم اتضاح حقيقتها التي أخبر عنها، أو ما احتملت أوجهها. وجعله كله محكما في قوله

تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهُ آيَاتٍ﴾ (٦)، بمعنى أنه ليس فيه عيب، وأنه كلام حق فصيح الألفاظ، صحيح

المعاني. ومتشابهها في قوله ﴿كُنُوبًا مُتَشَابِهًا﴾ (٧)، بمعنى أنه يشبه بعضه بعضا في الحسن،

ويصدق بعضه بعضا فأما الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ أي ميل عن استقامة إلى كفر وأهواء وابتداع

(١) أخرجه مسلم في مقدِّمة صحيحه: (ج ١ - ص ١٤).

(٢) سورة النور: ٥٤.

(٣) مجموع الفتاوى : (ج ١٤ - ص ٢٤١).

(٤) فتحُ البيان في مقاصد القرآن (ج ٩ - ص ٢٥٣).

(٥) سورة آل عمران: ٧.

(٦) سورة هود: ١.

(٧) سورة الزمر: ٢٣.

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ أَوْ يَطْلُبُونَ الْإِيقَاعَ فِي الشَّبَهَاتِ وَاللَّبْسِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أَيُّ الثَّابِتِينَ الْمُتَمَكِّنُونَ مُبْتَدَأُ خَبْرِهِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ أَيُّ بِالْمُتَشَابِهِ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى كُلُّ مَنْ الْمَحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ أَيُّ الْعُقُولِ الْخَالِصَةِ مِنَ الرُّكُونِ إِلَى الْأَهْوَاءِ الزَّائِغَةِ. وَهُوَ تَذْيِيلٌ سَيِّقٌ مِنْهُ تَعَالَى مَدْحًا لِلرَّاسِخِينَ بِجُودَةِ الذَّهْنِ وَحَسَنِ النَّظَرِ (١).

ثم قال ﷺ ((فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ)) (٢).

٥- التعلق بكتاب الله قراءة وفقهاً وتدبراً وعملاً، ولو أقبل الخلق على كتاب الله والانتهاج بنهجه، لأجارهم - سبحانه - من الفتن، فالقرآن شفاء لما في الصدور، ومن يعرض عنه فسيصيبه من العذاب بقدر ابتعاده عنه ﴿وَالْوَالِئَاتُ أَهْلُ الْبُيُوتِ لَا يَسْقَيْنَهُنَّ مَاءً غَدَقًا﴾ (٦) ﴿لَتُنْفِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (٣) وأن لو استقام هؤلاء القاسطون على طريقة الحق والاستقامة ﴿لَأَسْقَيْنَهُنَّ مَاءً غَدَقًا﴾ يقول: لوسعنا عليهم في الرزق، وبسطناهم في الدنيا ﴿لَتُنْفِنَهُمْ فِيهِ﴾ يقول: لنختبرهم فيه. ومن يعرض عن ذكر ربه الذي ذكره به، وهو هذا القرآن؛ ومعناه: ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله، يسلكه الله عذاباً صعباً: يقول: يسلكه الله عذاباً شديداً شاقاً (٤). ورضي الله عن ابن عباس إذ قال: (من قرأ القرآن فاتبع ما فيه هداه الله من الضلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة الحساب) (٥).

وصدق الله: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (٦) قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: في الدنيا، فلاطمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره (ضيق) حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن

(١) محاسن التأويل (ج ٢ - ص ٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٧٤٥٤).

(٣) سورة الجن: ١٧.

(٤) تفسير الطبري (ج ٢٣ - ص ٦٦٤).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف: (٦٠٣٣).

(٦) سورة طه: ١٢٤.

قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة^(١).

ويكفي أن آثاراً كثيرة وردت عن السلف بأنه من ابتغى الهدى من غير كتاب الله، فإن الله سيضله. قال - ﷺ -: ((إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً))^(٢) وأخبر - ﷺ - بقوله: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي)^(٣).

كتاب الله عز وجل قولي *** وما صحّت به الآثار ديني

فدع ما صدّ من هذي وخذا *** تكن منها على عين اليقين^(٤)

٦- إصلاح القلب ومجاهدته، ومن حاول ذلك وجدّ واجتهد في تحصيله، فليبشر بالهداية واليقين، فالله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٥) يقول تعالى ذكره: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله كذبا من كفار قريش، المكذبين بالحق لما جاءهم فينا، مُبتغين بقتالهم علو كلمتنا، ونصرة ديننا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يقول: لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، وذلك إصابة دين الله الذي هو الإسلام الذي بعث الله به محمدا ﷺ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: وإن الله لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك، مُصدّقاً رسوله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه^(٦).

٧- معرفة مقاصد الشريعة، ومرامي الدين الإسلامي؛ لأنها تمنح المسلم قوّة منهجيّة كبيرة، ولقاحاً ضدّ الانحرافات.

٨- تكثيف البرامج التوجيهيّة، وأخصّ بالذكر وسائل الإعلام بشتّى أصنافها، ومحاولة زرع الثقة في قلوب المسلمين بالاعتزاز بدينهم وعقيدتهم، وتمكين قواعد الإسلام في قلوبهم، والرد على ما يضادها، وحتماً سيولد ذلك قناعة بأولويّة الأصول الإسلاميّة في قلوب المسلمين، وبناء الرسوخ العقدي في قلوبهم، وذاك التحصين الذي نريد.

(١) تفسير بن كثير (ج ٥ - ص ٣٢٢).

(٢) أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف (ج ١٢ - ص ١٦٥) وصحّحه الألباني في الصحيحة (٧١٣).

(٣) أخرجه مالك وأحمد في مسنده.

(٤) البيتان السابقان في: نفح الطيب للمقري (ج ٢ - ص ١٢٧).

(٥) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٦) تفسير الطبري (ج ٢٠ - ص ٦٣).

٩- إنشاء مراكز الأبحاث والدراسات المعنوية برصد الانحرافات الفكرية، والتعقيب عليها بتفنيد الشبه، والجواب عن الشكوك والشبهات التي يثيرها بعض المارقين من قيم الإسلام ومبادئه، والجهاد الفكري ضدها، من منطلق قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾^(١) وتفعيل هذه المراكز بقوة البحوث، وضخ المال الداعم لها، وتوظيف الباحثين المتمكنين فيها، وإعطاءها قدراً من الشهرة والانفتاح على الوسائل الإعلامية.

١٠- فسح المجال من وسائل الإعلام بشتى صورها وأوانها؛ للمنتمين لمدرسة أهل السنة بالخروج الإعلامي، وعرض رأيهم تجاه الآراء الأخرى، وبخاصة من الأقوياء المتمكنين منهم، وإن ممّا يؤسف له ، أن تجد بعضاً من وسائل الإعلام، تستضيف رجلاً بأفكار منحرفة، وتقبله بآخر من المنتسبين لمنهج أهل السنة لا يكون مستواه في الطرح الفكري بتلك القوة اللازمة، ممّا يؤثر سلباً تجاه الناظرين لتلك المحطّات الإعلامية لطرح هذا الرجل السني، كما أنه من اللازم حقيقة لبعض أهل العلم أن لا ينأى بنفسه عن تلك المواجهات بل يغلب جانب المصلحة العظمى والكبرى في نصرة أهل السنة وقضاياهم، على عدم الخروج بسبب بعض السلبيات أو المفاصد الصغرى، مع الإدراك والمعرفة بأن كثيراً من المهيمين على الوسائل الإعلامية يأتوننا بمفكرين ومنتسبين للعلم ، ليفصلوا لنا إسلاماً على المزاج الغربي، أو ما يسمونه —: (الإسلام الليبرالي)! وما الدعوات السيئة التي تخرج منهم أو من بعض أذناهم بما يسمى —: (تطوير الخطاب الديني) إلا ليصدوا المسلمين عن تمسكهم بدينهم الحق، وليس تبدلوا به الانهزامية والتراخي، والذي لن ينصر حقاً ولن يكسر باطلاً، بل مقصوده الأساس تحريف المفاهيم لدى المسلمين، وتحريف المفاهيم أشدّ خطراً من الهزيمة العسكرية، ومن هنا كانت مخططات أعداء الإسلام (لأنّ هزيمة الأمة في أفكارها تجرّدها من الحصانة وتركها فريسة لأي مرض أو وباء فيسهل بعد ذلك احتواؤها وتفكيك معتقديها)^(٢).

١١- ملازمة الجلوس مع الصالحين، والمنتمين لمنهج أهل السنة، وقد نهانا رسول الله —

عن صحبة ضعاف الإيمان، وأمرنا بصحبة المؤمنين فقال: ((لا تصاحب إلا مؤمناً))^(١)

(١) سورة الفرقان: ٥٢

(٢) واقعنا المعاصر ، كما يقول الأستاذ المفكر: محمد قطب — حفظه الله — في: (ص ٣٥٦)

(١) أخرجه الترمذي (ج ٤- ص ٦٠٠) برقم (٢٣٩٥) وأحمد في مسنده (ج ٣- ص ٣٨) و(ج ٤- ص ١٤٣) وصححه الحاكم في المستدرک (ج ٤-

ص ١٤٣) وابن حبان في صحيحه (ج ٢- ص ٣١٤) وحسنه الترمذي وابن مفلح في الآداب الشرعية، وكذا الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم :

(٧٣٤١)

فينبغي الحذر من الجلوس إلى أهل الزيغ والهوى والالتفات إليهم، وخاصة إن كانت الخلفيّة لذلك الجالس مهلهلة في الجانب العقدي، وقد كان أهل السنّة يوصون تلاميذهم بمجالسة الأخيار والصالحين، والإعراض عن أهل الزيغ والفسق والهوى، ورحم الله الإمام أبو الحسن البربهاري حين قال: (وعليك بالآثار، وأهل الآثار، وإياهم فاسأل، ومعهم فاجلس، ومنهم فاقتبس) (١).

ويكفي أنّ من فضائل ذلك أنّ أصحاب الخير يدلّون رفقاءهم على سبل الهدى، ولهذا فحين كان ابن القيم يورد على ابن تيميّة بعض كلام أهل الهوى إيراداً بعد إيراد، أوصاه ابن تيميّة قائلاً: (لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السّفنجة، فيتشربها، فلا ينضح إلاّ بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمرّ الشبهات بظاهرها، ولا تستقرّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلاّ فإذا أشربت قلبك كلّ شبهة تمرّ عليها صار مقراً للشبهات أو كما قال) - ثمّ قال ابن القيم - فما أعلم أنّي انتفعت بوصيّة في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك) (٢).

١٢ - الدراسة الواعية والناقدة للأفكار والملل والنحل المغايرة لمنهج أهل السنّة، مع الحذر من أهلها، وتمكين العقلية الإسلاميّة من أدوات الفهم والنظر والمعرفة لرصد الانحرافات الفكرية، ومعالجتها على ضوء الشريعة، ومما يبيّن أهميّة ذلك أنّ الله تعالى فصلّ لنا وسائل وأساليب وحجج المجرمين، وردّ عليها داحضاً لها، فمعرفة فقه المداخل التي يدخل بها أهل الزيغ والهوى لإقناع من يريدون ضمّه إليهم، أصلٌ نبّه عليه تعالى فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٣) أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبانته واتضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل (١).

ولهذا يقول حذيفة بن اليمان: ((كان الناس يسألون رسول الله - ﷺ - عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني)) (٢) فمعرفة الشر وأهله منهج أساس لأهل السنة

(١) شرح السنة للبربهاري (ص ١٠٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (ج ١ - ص ٤٤٣).

(٣) سورة الأنعام: ٥٥.

(١) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٢٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٧٠٨٤) ومسلم برقم: (١٨٤٧).

والجماعة وكشف خُدَعِه.

١٣- إذا شعر المرء أو غلب على ظنه بأنه قد يفتن في دينه؛ فلا ينبغي له قراءة كتب أهل الهوى والزيغ، ولو قصد بذلك الردَّ عليهم، ومناقشة شبههم، لأنَّ درء المفسد عن هذا المرء مقدّمة على جلب المصالح في الذبِّ عن هذا الدين، بل ينأى المسلم بنفسه عن الشبهات، ولا يجعلها متهافئة على قبولها، ويجعل نفسه مطمئنّة إلى الاستيقان بعظمة هذا الدِّين، وثبات أصوله، فيخلى قلبه ونفسه من متابعة الشبهات، ولا يجعلها لاقطة لأي تشكيك في دين الإسلام، ومن تأمل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(١) أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفا لهم، لا لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلما منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب (٢)٣).

وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾^(٤) أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت.

وقال قتادة: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالحق وأهله ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿وَعَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: قلت: سيغفر لنا. وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما زلت في هذا حتى جاء الموت ﴿وَعَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: الشيطان. قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا (أي) بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلا.

قال مجاهد: كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرهم، وكانوا

(١) سورة الصف: ٥

(٢) سورة عقوبة لهم وعدلا منه بهم

(٣) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٨٥٨).

(٤) سورة الحديد: ١٤

معهم أمواتا، ويعطون النور جميعا يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ^(١).

علم أنّ بعض النفوس تتطير على منافذ الشبهات والضلالات – عيادا باللّٰه – وحين بلغ عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – أنّ رجلاً يقال له: صبيغ بن عسلّ قدم المدينة وكان يسأل عن متشابه القرآن^(٢)، بعث إليه عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه وجلس قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ. قال عمر: وأنا عبد الله عمر، وأوماً عليه، فجعل يضربه بتلك العراجين؛ فما زال يضربه حتى شجه، وجعل الدم يسيل عن وجهه، قال: حسبك يا أمير المؤمنين! فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي^(٣).

٤ – التربية للنشء بما يرضي الله، والتحاور معه بتبيين فساد شبهات أهل الزيغ والهوى، مع قوّة الإقناع، وأدب الحوار، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي هي أول عمليّة في التربية؛ بتربيتهم على العقيدة الصحيحة، وحماية ذواتهم من العبث الفكري، وبناء الشخصية الإسلاميّة التي لا تؤثر فيها تيّارات التشكيك، وإرسالهم إلى المرَبِّين الثقات لتربيتهم على أصول ديننا، وقد قال أيوب السخيتاني: (إنّ من سعادة الحدث والأعجمي، أن يوفّقهما الله لعالم من أهل السنّة)^(٤) ليكون أهل التربية معينين لهم على تقوية عقيدتهم، ودرء عبث غزاة الأفكار والعقول عنها، مع التحذير الملازم لهم بخطر الأخذ عن غير أهل السنّة، وإن استطعنا منعهم من ذلك فهو الأحسن، إلّا أنّ المنع لا بد أن يكون بإقناع لهم، وقد يكون منعهم متعذراً في هذا الزمّن؛ لأنّهم قد يمنعون فتأتيتهم ردّة فعل تجعلهم يصرون على ما سيّطالعونه أو يسمعوناه، ولكن الأسلوب التربوي يرجّح أن يناقش الأب أو المرَبّي ذلك الشاب ويبيّن له أوجه الخطأ التي وقع بها أهل الضلال، فلا منع مطلق، ولا إباحتهم مطلقاً، بل إباحتهم وفق ضوابط وتحذير ودعم تربوي.

وقد يقول قائل: إنّ منهج جمع من السلف الصالح منع الناس من سماع البدع والشبهات؛ وحقاً فإنّ ذلك الأفضل ولا شك، ولكنّ السلف الصالح في ذاك الزمّن كانت قاعدته هي الإسلام

(١) تفسير بن كثير (ج ٨ – ص ١٨).

(٢) أي يتتبع الآيات المتشابهة والمتعارضة فيليب على الناس ويجعلهم في حيرة قال تعالى: (٤٥٥ هـ ٤٤٤ ع ٤).

(٣) أخرجه الأجرّي في الشريعة (ص ٧٥)، واللاكثي بسنده في شرح أصول اعتقاد أهل السنّة (ج ٤ – ص ٧٠٣) وقد صحّح ابن حجر إحدى روايات هذا الأثر في الإصابة: (ج ٥ – ص ١٦٩) كما ذكره محقّق كتاب اللاكثي.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة لللاكثي (ج ١ – ص ٦٠).

وقيمه ومبادئه، وكان الأمر إليهم وبيدهم، وأمّا الآن ليس لنا من قوّة الإسلام ما كان، وحقيقة فإنّ الناس في هذا الزمن للفتنة أقرب منهم للإسلام، وتربيتهم الآن تكون بقوّة الكلمة الحقّة التي تصنع المنهج، وتقعن المخاطب...

إنّها حكمة في الأمور وتربية تستدعي التأمّل والنظر في المآلات قال تعالى: ﴿وَمَنْ أُرِيدُ أَنْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(١) يقول: من لم يرزقه الله إيماناً وهدى من الضلالة ومعرفة بكتابه، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾: يقول فما له من إيمان وهدى ومعرفة بكتابه^(٢).

فمن الضروري إذاً أن نبني جيلاً محصّناً - بإذن الله - من لقاءات الشبهات، وطعم الشكوك، ليكونوا على قوّة في دينهم تجاه الهجمات الشرسة التي يواجهها أهل الإسلام من أعدائه.

ولعلّي في هذا المقام أذكر قصّة حدّثتني بها إحدى القريبات الداعيات، توضح كيف أنّ العامل الثقافي له دوره الرئيس في تشكيل هويّة النشء، فقد كانت هذه القرية مدرسة للمواد الشرعيّة، وفي إحدى الأيام دخلت على أحد صفوف المرحلة الابتدائيّة الأولى لتدرّس الطلاب كتاب التوحيد، وحين بدأت بشرح عقيدة المسلمين بأنّ الله عالٍ على عرشه، انتفض أحد الطلاب وقال: كلا يا أستاذة، فلا يجوز لنا أن نقول: إنّ الله فوق السماء عالٍ على عرشه، بل هو في كلّ مكان، ومن قال بأنّ الله فوق السماء، فقد كفر! فأجابته المعلمة قائلة له: لا يجوز أن تقول ذلك لأنّ اعتقاد المسلمين؛ أنّ الله عالٍ على عرشه وهو - جلّ وتعالى - فوق خلقه، ومن خالف هذه العقيدة فإنّه كافر، وإياك أن تقول هذا الكلام مرّة أخرى، فأجابها ذلك الطالب قائلاً: كلا سأقول ذلك، لأنّ هذه عقيدتي وهكذا ربّاني والدي وهو شيخ، وأنا مقتنع بكلامه، وبقيت هذه المعلمة تجادل ذلك الطالب، وفي اليوم التالي جاءت المعلمة للفصل، وحين قالت للطلاب: أخرجوا كتاب التوحيد، رفض بعض الطلاب وقالوا: يا أستاذة: كيف تدرّسينا هذا الكتاب وفيه كفر، ووالد هذا الطالب شيخ وهو يقول بأنّ كتابنا فيه كفر، وفي زمن حديث الطلاب مع معلمتهم حول ذلك، كان الطالب يشير لأصدقائه الطلاب بإشارات النصر، ويوافقهم على حديثهم، ويؤيدهم على ألا يخرجوا الكتاب من الدرج!

الشاهد الذي أحببت التنبيه إليه، أنّ هذا الطالب تبيّن أنّه من فرقة الأحباش الضالّة، التي

(١) سورة النور: ٤٠

(٢) تفسير الطبري (ج ١٩ - ص ١٩٩).

جمعت من الكفر والضلال الشيء الكثير، ولو تأملنا كيف أنّ أهل البدع يدرسون أبناءهم العقائد الضالة، ويحصنّوهم من أي عقيدة واردة عليهم، بل يدعوهم لمناقشة من يخالفهم، فضلاً عن التحذير منهم ومن كتبهم، ويعلمون أبناءهم حق الرد والجرأة في الدعوة لمثلهم ونحلتهم؛ لرأينا من ذلك شيئاً عجيباً، فأين أهل السنة من دعوة أبنائهم بمثل ذلك؟
وأين هم من ترسيخ العقيدة الصافية في عقول أبنائهم وتعليمهم كيف يثبتون عليها ويناضلون عنها؟

إنّ من المهمات التي يجدر التنبيه عليها، ما للوالدين من كبير الأثر على تنشئة الولد تنشئة إسلامية خالصة من كدر الشبهات والشهوات قدر المستطاع، وتعميق الإسلام وأساسه العقدي في أنفسهم، ووصيتهم بالثبات عليه، ومما يستدلُّ به لذلك ما قاله تعالى عن الأنبياء والمرسلين حين كانوا يوصون أبناءهم بالثبات على الإسلام، ومن ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) وحثَّ إبراهيم ويعقوبُ أبناءهما على الثبات على الإسلام قائليْن: يا أبناءنا إن الله اختار لكم هذا الدين - وهو دين الإسلام - فلا تفارقوه أيام حياتكم، ولا يأتكم الموت إلا وأنتم عليه^(٢).

وكل مولود يولد على فطرة الإسلام، فإن كان الوالدان مسلمين حصنوه بترسيخ الإسلام، وإن كانا كافرين فإنه لابد أن يكون لهما دور كبير في تحريف فطرة ذلك المولود، وقد أخبرنا - ﷺ - بذلك فقال: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه، أو ينصرانه»^(٣).

ومن جميل الكلام حول طريقة ترسيخ الوجود العقدي في النشء؛ ما قاله الإمام الغزالي: (وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يردُّ عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها)^(١).

وختاماً: ممّا يحسن التنبيه إليه: أنّ المستمسك بهذا المنهج يجب أن يكون قوياً في طرحه

(١) سورة البقرة: ١٣٢

(٢) التفسير الميسر (ج ١ - ص ٢٠).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(١) (إحياء علوم الدين) (ج ١ - ص ٩٤-٩٥).

لدى الناس بتعامل لطيف، مبيناً له بلا عنف، عارفاً للحق، راحماً للخلق، يريد لهم الهداية، بلا جباية أو وصاية، فالحق أبلج، والباطل لجج، وماذا بعد الحق إلا الضلال!

نسأله تعالى أن يمن علينا بهدأيته، وأن يثبتنا على دينه، وأن يحفظنا من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً، وعباداً بالله أن نكون ممن قال فيهم ربهم:

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي

الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١) ومن يرد الله فتنته أي ضلالتة فلن تملك له من الله

شيئاً أي فلا تستطيع دفع ذلك عنه ولا تقدر على نفعه وهدأيته، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وظاهرها العموم ويدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولا أولياً، والإشارة بقوله:

أولئك إلى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا: آمنا بأفواههم ومن الذين هادوا، وهو مبتدأ وخبره الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم أي لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق كما طهر قلوب المؤمنين لهم في الدنيا خزي بظهور نفاق المنافقين وبضرب الجزية على الكافرين وظهور تحريفهم وكتهم لما أنزل الله في التوراة^(٢).

(١) سورة المائدة: ٤١

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني (ج ٢ - ص ٤٨).

الخاتمة

الخاتمة

والآن وقد شخص الداء الذي تعاني الأمة منه، فلفل فيما يأتي شيئاً من النتائج والعلاج:

١- إن على المسلمين المخلصين الذين يعملون في حقل الدعوة الإسلامية، ويعيشون واقع مأساة الأمة وحقيقتها أن يختاروا مجموعة من أذكى أبناء الأمة وأنبه شبابها، ويهيؤوا لهم افضل السبل لدراسة علوم الشريعة على أيدي علماء الشريعة وعلماء العصر الحديث الذين يجمعون بين العلم والقُدوة الحسنة والتقوى والفكر السليم والإدراك القويم لغايات الإسلام ومقاصده ووكلياته والفقهاء في علومه، وأن يتخذوا من أسلوب التربية النبوية منهاجاً لهم، ويعضد هؤلاء الشباب فئة أخرى تمكنت من العلوم العصرية المختلفة ممن يرى فيهم أنهم على قدر كبير من الإخلاص والتقوى، لعل هؤلاء وأولئك بعد ذلك أن يوجهوا المسيرة ويرشدوا الصحوه ويسددوا خطاها، فتستعيد الأمة عافيتها، وتستأنف دورها القيادي للبشرية التي تدنو من الهاوية يوماً بعد يوم، ولا نجاه لها إلا في الإسلام.

٢- وضع منهج لتعديل مسار الفكر لدى المسلمين، بحيث تعالج الأزمة الفكرية التي يعيشها المسلمون اليوم، ولا يدرك إلا القلائل أبعادها، هذه الأزمة التي تبرز بوضوح من خلال انهيار مؤسسات الأمة، وانعدام منظماتها وتدني مستوى الوعي والمعرفة والتربية في أبنائها، وتفكك علاقاتها وانحراف الكثرة الغالبة من قياداتها، وإحباط المحاولات الخيرة للنبذة الصالحة من أبنائها، كل ذلك لأن الإسلام أقصي عن حياة الأمة، وغدت الهوة عميقة بين مثل الإسلام وبين جماعات بشرية ترى الإسلام سحابة في السماء لا تمطر ولا تحيي الموات، حيث القلوب غلظت وعلاها الران، والعيون عمشت فما عادت تفرق بين خير وشر.

٣- إن المؤسسات التعليمية المختلفة قد أخفقت في أن تقدم للأمة الإنسان المسلم السوي، فالجامعات التي أقيمت على النمط الغربي في بلاد المسلمين، لم تر أن من مهمتها إعداد العالم المسلم في سائر فروع المعرفة والذي يقوى على أسلمة جميع المعارف والعلوم على يديه، بل رأت أن مهمتها: إعداد المتعلم المفتون بعلوم الغرب وفنونه، والذي سرعان ما يدير ظهره لعقيدة الأمة وأهدافها وغاياتها في الحياة. فخرجت تلك الجامعات أجيالاً ضعيفة في انتمائها، مرتبكة في علاقاتها، مضطربة في تفكيرها، عاجزة عن تسخير معارفها لخدمة الأمة.

٤- إننا بحاجة ماسة الى اخراج الفكر الإسلامي السليم القائم على فهم روح الإسلام وغاياته وقواعده الكلية، ومراتب أحكامه من خلال مصدرية العظميين: الكتاب الكريم وسنة رسول الله ﷺ. كما نحتاج إلى دراسة سبل السلف الصالح في تعامله مع هذه المصادر خلال

القرون الخيرة وأساليب فهمهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لنتمكن من إعادة طرح التصورات والحلول الإسلامية لما تعاني منه الأمة بشكل يجعلها على يقين تام أن الإسلام هو السبيل الأوحى لإنقاذها وفيه الحل الأمثل لجميع مشكلاتها، هذا اليقين الذي يحمل الأمة على الالتفاف حول أسس الفكر الإسلامي بوعي وإدراك يحول بينها وبين الشياطين أن تجتالها، فإذا عادت الأمة إلى رشدها، ووضعت يدها على الجرح، وعرفت موطن الداء لابد لها بعد ذلك أن تتبين الخطوات التي يجب أن تسلكها للوصول الى الدواء وتحقيق الهدف، وما ذلك عنها ببعيد.

وريثما يتم تحقيق الأهداف السالفة لابد من وعي الطليعة المؤمنة لجملة من الأمور حتى تأمن على نفسها العثار منها:

١- أهمية إدراك الشباب المسلم أنه إن كان الباري جلت قدرته قد يسر القرآن للذكر وهياً لنا سبل الاطلاع الواسع على السنة من خلال كتبها الكثيرة المتوفرة فإن الأخذ عن تلك المصادر بمبادرات فردية فيه الكثير من المحاذير، فلا بد من الاستعداد السابق ثم التزود لذلك بأدواته التي فصلها أهل الاختصاص من معرفة ضوابط الاستنباط وقواعده، وإتقان العربية وأساليب التعبير فيها، ومعرفة علوم الكتاب والسنة والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمراد به الخصوص، والمطلق والمقيد من النصوص غير ذلك من عوارضها، فإن أي قول يصدر عن المسلم من غير إحاطة ومعرفة بتلك الوسائل إنما هو قول في الدين بالتشهي والخرص والتخمين، من غير نور ولا هدى ولا علم، ومن فعل ذلك فقد ركب مركبا صعبا وأودى بنفسه والعياذ بالله، فقد قال رسول الله ﷺ: «(من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)»^(١) وهذا النوع من المعرفة لا يمكن تحصيله من خلال قراءة كتاب أو كتابين، بل لابد من دراسة منهجية متقنة، تضع في يد الدارس مفاتيح تلك العلوم التي تهيب له سبيل الولوج الى ساحة الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية، وحتى تؤتي تلك الدراسة أكلها لابد أن تعتمد على البحث المستقصي الذي يقوده الأستاذ المتقن والموجه المجيد، والناقد البصير، في ظل من تقوى الله وابتغاء الأجر منه.

٢- وقد نبهنا الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن هذه الشريعة أنزلت لتسعد الناس في الدارين: الدنيا والآخرة، ولتحقق لهم مصالحهم بما ينسجم مع قدراتهم العقلية

(١) أخرجه الترمذي عن ابن عباس بسند صحيح على ما في الجامع الصغير (ج٢- ص٣٠٩) والفتح الكبير (ج٣- ص٢٩١) كما أخرجه الثلاثة من أصحاب السنن بلفظ (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) من طريق جندب على ما في الفتح الكبير (ج٣- ص٢١٩).

التي أنعم الله بها على عباده، فكرمهم سبحانه على سائر مخلوقاته، ولم تضمن الشريعة السماح أمرا لا يطيق الناس إتيانه أبداً ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (١) أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يتقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي أن " المشقة تجلب التيسير " و "الضرورات تبيح المحظورات " فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية، شيء كثير معروف في كتب الأحكام (٢).

٣- كل الأحكام الشرعية حوت مصلحة العباد وحرصت على تحقيق النفع لهم، ولا شيء فيها يعود لله تعالى نفعه، ذلك لأنه تعالى هو الغني الحميد، ولذلك فإنه لا بد من فهم جزئيات الشريعة في ضوء تلك الكليات ونحوها، ومن لم يحط بكليات الشريعة، ويفهم مقاصدها، ويدرك قواعدها فإنه لن يستطيع أن يرد الفروع إلى الأصول والجزئيات إلى الكليات، يقول الإمام ابن برهان (٣): " إن الشرائع سياسات يدبر بها الله عباده، والناس مختلفون في ذلك بحسب اختلاف الأزمنة، فلكل زمان نوع من التدبير، وحظ من اللطف والمصلحة تختص به، كما أن لكل أمة نوعا من التدبير يصلحهم وإن كان ذلك مفسدة في حق غيرهم " (٤).

٤- قد انفقت كلمة علماء الأمة على أن أحكام الشريعة كلها معللة بمصالح العباد، ولأجلها شرعت، سواء منها ما هدانا الله لمعرفته بالنص عليه أو بالإيماء إليه؛ وما لم نهتد إليه فلحكمة يعلمها الله جل شأنه، ولذلك فإن كثيرا من الأحكام الاجتهادية تتغير بتغير الأزمنة، وقد تختلف باختلاف الأشخاص وطاقاتهم وقدراتهم وظروفهم.

٥- إن من أهم الواجبات أن يدرك الجميع أن أخوة الإسلام ووحدة صفوف المسلمين المخلصين والحفاظ عليها ونبذ كل ما يسيء إليها أو يضعف من عراها من أهم الفرائض وأخطرها، وعبادة من أهم العبادات، وقربة من أفضل القربات لأننا بتلك الأخوة نقوى على

(١) سورة الحج: ٧٨

(٢) تفسير السعدي (ج ١ - ص ٥٤٦).

(٣) ابن برهان: هو أحمد بن علي بن برهان البغدادي المتوفى سنة (٥١٨ هـ) . أصولي معروف، له جملة من المؤلفات الاصولية منها: الوصول إلى علم الأصول، والأوسط والوجيز، كان حنبلياً، ثم تحول إلى المذهب الشافعي، له ترجمة في طبقات الشافعية لابن السبكي (٤٢/٤) والوفيات (١٩٩/١) والبداية والنهاية (١٩٦/١٢) وطبقات الاثنوددي (٢٠٨/١) والمنظم لابن الجوزي (٢٥٠/٩) ولقبه بابن تركان.

(٤) كتاب الوصول إلى الأصول المسألة الرابعة في مسائل النسخ ((مخطوط)).

التصدي لكل العقبات التي تعيق استئناف الحياة الإسلامية على الصورة التي ترضي الله ورسوله ﷺ، ويكفي أن رسول الله ﷺ نفرنا من الفرقة بأن أهدر دم المفرق للجماعة، ولذلك فإن التفريط بالأخوة الإسلامية أو المساس بها لمجرد اختلاف في الرأي أمر لا يجوز لمسلم أن يفعله، أو أن يسقط في شركه، ولا سيما في هذه الظروف التي تداعت فيها علينا الأمم، تريد أن تطفئ جذوة الإيمان التي بدأت تنقد في القلوب، وتبيد البذرة الطيبة التي بدأت تشق التربة رغم الأيدي العابثة التي تنهال عليها وتحاول اجتثاثها.

٦- كما أن من الأمور المعروفة أن الباري سبحانه قد شرع للناس تأدية العبادات في كثير من الأمور على درجات تتنوع بين الأفضل والاختيار والجواز، وإن كانت الدرجات السابقة كلها تلتقي في زاوية القبول عند الله تعالى، لكنها تتفاوت في المراتب، فكثير من الفرائض والواجبات لها صور متعددة تدخل ضمن هذه الدرجات الثلاث، فيمكن أن تؤدي العبادة على أفضل صورها الشرعية فتقبل مع ثواب الفضل، ولولا تفاوت مراتب العبادات والطاعات لما تباينت درجات المؤمنين في الجنة، فطاقات الناس مختلفة وقدراتهم متباينة وكل ميسر لما خلق له.

ولعل من الأمور المفيدة في حمل المسلمين على التمسك بآداب الاختلاف معرفة المخاطر الهائلة، والتحديات الخطيرة، والخطط الماكرة التي يعدها أعداء الإسلام للقضاء على الطليعة المؤمنة التي تحمل لواء هذه الدعوة وليس في حساب الأعداء أبداً أن تفلت من يدها، إن استطاعت، فئة دون أخرى، فالمهم هو القضاء على العاملين للإسلام على اختلاف مذاهبهم وتباين وجهات نظرهم، وهذا يجعل إثارة أي اختلاف بين المسلمين، أو تنمية أسبابه، أو تجاوز آدابه خيانة عظمى لأهداف الأمة وجريمة كبرى في حقها لا يمكن تبريرها أو الاعتذار عنها.

وقبل هذا وبعده لا مناص من التزام تقوى الله في السر والعلن وابتغاء رضاه في حالتي الوفاق والخلاف، مع الحرص على فقه دين الله والتجرد عن الهوى والبعد عن نزغات الشيطان، ومعرفة سبل إبليس والحذر من شركه، وحسب الأمة ما لقيت وعانت، وقد آن الأوان لتثوب إلى رشدها، وتستنير بكتاب ربها، وتعض على سنة نبيها ﷺ بالنواجذ، ولعل الله يكتب إنقاذ الأمة على أيدي هذا الجيل من أبناء البررة، إذا صدقت النية مع الله، واتخذت من السبل ما هو كفيل بقيادة الركب نحو شاطئ الأمان، بعد أن طال ليل التيه والضلال، ولا يبخلن الصالحون من الأمة بالدعاء للعصبة المؤمنة بالسداد والتوفيق.

أما التوصيات:-

الدعوة إلى مقاربة تستهدف بعث الأمة المسلمة، وتأهيلها للاضطلاع بدورها كاملا في تحقيق النهضة الشاملة لكل جوانب الحياة، وهي النهضة التي يستظل بدوححتها الوارفة، وينعم بفضائها الفسيح كل أفراد المجتمع الإنساني، ولا تتحقق هذه النهضة إلا بـ:

١- ترسيخ مبدأ عظيم ووضع منهج قرآني حول البحث في قضايا (تصحيح الفكر الإنساني) وذلك بتأسيس مفاهيم عامة تدور حول القضية من منظور قرآني تشكل أرضية للانطلاق نحو تلك القضايا.

٢- رسم بعض المعالم والخطط التي تساعد الأمة في التخلص من ظاهرة الفساد الفكري والعقائدي، من أجل تنشئة جيل يمارس فكرا وعقيدة صحيحة، ويفتخر بالنقد كما كان الحال في العصور الأولى للإسلام، وبعض الأمم الآن.

٣- المساهمة في علاج الفساد الفكري والنهوض بالأمة، وإيضاح طريقة القرآن في تربية الجانب العقلي للإنسان وأهمية العقل الذي كرم الله به الإنسان على سائر المخلوقات لتحقيق خلافة الله له في الأرض، ثم محاولة تطبيق هذا المنهج الرباني في حياتنا الواقعية والاستفادة منه في تربية النشء على المنهج الإسلامي الصحيح.

٤- إعادة بعث المنهج النبوي كما نقله الرعيل الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

٥- لم شتات هذه الأمة التي عبثت بها الأهواء واستحكمت بين أفرادها العداوات، وانشغلت بمعاركها الجانبية وقضاياها الجزئية عن معركتها المصيرية الكبرى، وهي معركة الوجود في بعده المادي والمعنوي، ولن يتم لم ذلك الشتات إلا من خلال تدبير الخلافات والتناقضات بحكمة، مع الاهتمام بالمشتركات وعدم التركيز على ما يفرقهم.

٦- التعامل مع النص الشرعي بما ينسجم مع مستجدات العصر بما يكتنفه من إكراهات وضرورات، فما بعث الرسول إلا ميسرا لا منفرا "فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"^(١)، وهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها، وهي توجي للقلب الذي يتذوقها، بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد. سماحة تؤدي معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة وكأنما هي مسيل الماء الجاري، ونمو الشجرة الصاعدة

(١) البخاري كتاب الوضوء، باب صبَّ الماء على البول في المسجد.

في طمأنينة وثقة ورضاء. مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعباده المؤمنين^(١).

فلا مجال للتضييق على عباد الله انطلاقاً من شرعه، فانه أكرم هذا الإنسان، وحمله في البر والبحر، وخلق في أحسن تقويم، ثم فضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

٧- دعم وتثمين المبادرات الطيبة التي أسهمت في تكوين وتوعية وتهذيب وتزكية الشباب المسلم من خلال التركيز على جوانبها المشرقة والسعي المخلص للاستفادة من أحسن ما تقدم، مع عدم الانجرار خلف ما تزخر به من سلبيات هي في حقيقتها نتاج التراكمات والمواريث الاجتماعية، فالجماعة المسلمة لا تخلو من نوازع خيرة وصفات حميدة، وباستثمار ما تتصف به من صفات خلقية حميدة، وتفادي ما تتصف به من سلبيات يتم وضع لبنة كبرى لتأسيس جيل الخلافة والتمكين.

وحينها يلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض، وينتصر الحق، ويبقى ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

نسأله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا ويزيدنا علماً، ويجمع على الحق كلمتنا، ويلهمنا الرشد والسداد في أمورنا كلها، ويقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وألاً يجعلنا كالتى نقضت غزلها بعد قوة أنكاثاً، إنه أهل ذلك سبحانه، والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

(١) في ظلال القرآن (ج ١ - ص ١٧٢).

الفهارس

فهرس الآيات

الفهارس

فهرس الآيات

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف ا ي ت	رل و ل ي ض ف ذ ت
1 س ل ي ر ق ط ل ح ذ ت			
261	٦	{ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }	1
2 س ل ي ر ق ط ل ح ذ ت			
354	٣	{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }	2
66	١٠	{ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا... }	3
361	٢٣	{ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ... }	4
53	٢٩	{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ... }	5
45, 44, 52	٣٠	{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... }	6
46	٣١	{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا }	6
55	٣٤	{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى... }	5
166	٤٤	{ أَنَا مُرْسِلٌ النَّاسِ بِالْبُرِّ وَتَسْوُونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا... }	4
155	٤٥	{ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ }	15
464	٨٣	{ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا }	11
441	٨٧	{ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا... }	12
256, 145	١١١	{ قُلْ هَسْبِيَ اللَّهُ إِنَّ كُنُوزَ صَدِيقِي }	13
443	١٢٠	{ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ بِلَهُمْ }	14
542	١٣٢	{ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ... }	15
261	١٤٣	{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا }	16
55	١٥٢	{ فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ أَكْثَرًا وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا }	16
125	١٥٣	{ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ... }	15
254	١٥٩ ١٦٠-	{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا... }	14
255	١٥٩	{ وَأُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ }	25
333	١٦٣ ١٦٤-	{ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ... }	21
333	١٦٣	{ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }	22
134, 165, 16 5, 333, 333	١٦٤	{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْخَالِفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعَالَمِ... }	23

رقم الآية	رل و بعض فذت	ط ز ف الآيت	رقم
١٦٨ ١٦٩-	43	{يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَاكًا طَيْبًا وَلَا تَتَّبِعُوا...}	24
١٧٠	144.155.25 3.215.233.233	{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ...}	25
١٧٦	232.452	{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي...}	26
١٧٩	252	{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}	26
١٨٣	161.254	{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}	25
١٨٥	355.546	{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}	24
١٩١	64	{وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْغَنَّةُ أَشَدُّ مِنْ...}	35
١٩٣	344.346	{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْرِفُوا فَلا عُدْوَانَ...}	31
١٩٥	415	{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}	32
١٩٧	161	{فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}	33
٢١٣	455	{فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ...}	34
٢١٦	134	{وَاللَّهُ يَتَعَلَّمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}	35
٢١٧	346	{وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلَعُوا}	36
٢٢٢	154	{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ}	36
٢٣٣	112	{ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ...}	35
٢٤٢	64.164	{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}	34
٢٤٧	33	{ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا...}	45
٢٥٣	435.442	{وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}	41
٢٥٦	355.354.35 4.345.344.344.34 4.344.344.344.34 4.345.345.345.34 5.345.345.345.44 6	{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}	42
٢٥٧	266	{اللَّهُ وَرَى الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...}	43
٢٦٩	65	{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ...}	44
٢٨٢	245	{وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيَسْمِعْكُمْ اللَّهُ}	45
٢٨٣	54	{وَلِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ...}	46
٢٨٦	465.466	{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}	46

رل ولبس فذت	رلى الآية	ط زف الآيت	
3سلىرة الالع ز ا			
235	٥	{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ }	45
246·246·53 4	٧	{ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ ءَكُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ ۗ أَلَا .. }	44
246·532·53 2،532	٨	{ رَبَّنَا لَا تُؤِخِّرْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ۗ }	55
124	-١٤ ١٥	{ ذُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ ۗ }	51
254،243	١٨	{ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا ۗ }	52
461	١٩	{ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ۗ }	53
54	٥٩	{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ ۗ }	54
232	١٠١	{ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ }	55
253	١٠٤	{ وَأَتَىٰكَ مِنْكَ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ۗ }	56
364	١١٠	{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ ۗ }	56
246،532	١٢٠	{ وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ }	55
135	١٣٣ ١٣٤-	{ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ ۗ }	54
134	١٣٤	{ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ۗ }	65
221·222·22 2	١٣٧	{ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ ۗ }	61
135	١٦٤	{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا ۗ }	62
55	١٨٥	{ كُلُّ نَفْسٍ ذَٰئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ۗ }	63
314	١٨٩ ١٩١-	{ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ فِي ۗ }	64
246، 65	١٩٠ ١٩١-	{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ ۗ }	65
65·242·252 314،	١٩٠	{ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ }	66
151	١٩١	{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ۗ }	66
4سلىرة ان س اء			
255	٥	{ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّفَهَاءَ ءَأْمُورِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لِكُرْهِنَا وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا ۗ }	65
255	٦	{ وَأَتَّبِعُوا الْيَتِيمَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنِ ءَأَنْسَمْتُمْ مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْفَعُوا ۗ }	64
546	٢٨	{ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ۗ }	65
466	٢٩	{ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۗ }	61

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
555	31	{ إِنْ جَعَلْتُمْ كَيْدَكُمْ كَيْدًا مَكْرُومًا تَرْجُوا أَنْ تُخَلَّوْا بِهِمُ الْيَوْمَ هَارِبِينَ } 62	555
65	58	{ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَحْبُوا بَعْدَ إِذْ أَخَذْتُمُ الْعَهْدَ مِنْ أَيْدِيكُمْ } 63	65
155.451.45 4.461.464	59	{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّكُمْ كُفَرْتُمْ } 64	155.451.45 4.461.464
365	78	{ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ } 65	365
61.45.256. 356.356.364.364. 436.436.461.461. 525	82	{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ } 66	61.45.256. 356.356.364.364. 436.436.461.461. 525
443	89	{ وَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُفَرْتُمْ } 66	443
522	140	{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا } 65	522
155	174	{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا } 64	155
5 سلى رقل آئدة			
365.366	3	{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ } 55	365.366
356	6	{ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ } 51	356
31.155	-15 16	{ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * } 52	31.155
155.166.16 6.166	15	{ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ } 53	155.166.16 6.166
31	16	{ أَوْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ } 54	31
543	41	{ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا } 55	543
14.346.346 364	48	{ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } 56	14.346.346 364
365	50	{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } 56	365
64	58	{ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَخَذُوا هُزُومًا وَلِئِمَّا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا } 55	64
161	70	{ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا } 54	161
336	72	{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } 45	336
366	81	{ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرَةِ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمَ } 41	366
255	90	{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَهْوَابُ وَالْأَزْكَامُ رِجْسٌ مِنْ } 42	255
256	91	{ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } 43	256
454	101	{ لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّدَ لَكُمْ تَسْوَأُكُمْ } 44	454
23	103	{ وَلَا وَصِيَّةَ وَلَا حَاجِرًا } 45	23
6 سلى رة الأ ع او ا			

رل ولبس فذت	رل الآية	ط ز ف الآيت	
252	١١	{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ... }	46
165	٢٥	{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي... }	46
65,55	٣٨	{ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ }	45
355	٥٠	{ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ }	44
535	٥٥	{ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ﴿٥٥﴾	155
255	٧٢	{ أَقْبِسُوا صَلَاةَ }	151
66	-٧٤ ٧٩	{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَنَّهُ أَخَذَ أُصْنَامًا مِمَّا لِهَيْئَةِ ابْنِ آدَمَ... }	152
66	٧٤	{ ابْنِ آدَمَ وَقَوْمَكَ فِي صُنُوفٍ مُبِينَةٍ }	153
144	-٧٦ ٧٨	{ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا... }	154
146	٨٢	{ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ... }	155
164	٩١	{ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ }	156
164	٩٣	{ وَلَوْ فَرِحْنَا بِإِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا... }	156
56	٩٤	{ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا كَانَتْكُمْ... }	155
251	٩٨	{ الْقَوْمِ يَفْقَهُونَ }	154
35,265,265 265,265	١٢٢	{ أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَاحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ... }	115
1	١٢٥	{ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ... }	111
265	١٣٠	{ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا }	112
265	١٣٣	{ هَكَأَنْفُسَاكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ }	113
343	١٣٥	{ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ... }	114
436	١٤١	{ وَالزُّنْحَلِ وَالزُّرْعِ مَخْلُفًا أَكْهَلُهُ }	115
215	١٥١	{ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }	116
56,125	١٥٢	{ وَلَا تَقْرَبُوا مَا لَا يَحِلُّ بِهِ إِلَّا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا... }	116
261	١٥٣	{ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ... }	115
364,461	١٥٩	{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيَنَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ }	114
44	١٦٢ ١٦٣-	{ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ } ﴿١٦٣﴾ لَا... }	125
44,366	١٦٢	{ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي }	121

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
44	١٦٣	{ لَا شَرِيكَ لَدُنِّي }	122
55-265	١٦٥	{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ... }	123
6 س ل ي رة الأعزاف			
54	١٠	{ وَالْقَدْ مَكَتَكُمُ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَدِينَ قَلِيلًا مَا... }	124
162	١١- ١٢	{ وَالْقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ... }	125
162	١٢	{ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ }	126
41-122	٣١	{ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا }	126
251	٣٣	{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ... }	125
55	٥١	{ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَاسِيََا غَرَضًا... }	124
165-164-16 4-164	١٠٠	{ أُولَئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِدِينِهِ يَرْتَدُونَ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ... }	135
42	١٥٧	{ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ... }	131
٦٠٢٧٥٠٢٧٥٠٢٧	١٧٢	{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ... }	١٣٢
151	١٧٥ ١٧٦-	{ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ... }	133
151	١٧٥	{ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ }	134
151	١٧٦	{ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا }	135
25-45-52-5 2-52-53-53-53-53- 266-266-266-266	١٧٩	{ وَالْقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ... }	136
151-152-45 3	١٨٥	{ أُولَئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ... }	136
25	٢٠٤	{ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }	135
5 س ل ي رة الأفعال			
145-256-25 6-266	٢٢	{ إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ إِلَيْكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ }	134
366	٢٤	{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا... }	145
253	٢٥	{ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُغِيْبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا... }	141
225	٣٧	{ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ... }	142
444-465-46 3	٤٦	{ وَلَا تَنْزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَإِنْ اللَّهُ مَعَ... }	143
346	٦٠	{ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ }	144

رل و لحي فذت	رلى الآية	ط ز ف الآيت	
4 سلى رلحي بت			
251	٦	{ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ... }	145
143	-١٧ ١٨	{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ... }	146
265	١٧	{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِ... }	146
144	١٨	{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ... }	145
135	٤٠	{ لَا تَخْرُجَنَّ مِنْهَا... }	144
264	٨٧	{ وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ... }	155
161	١٠٣	{ تَطْفِئُهُمْ وَتُرْزِقُهُمْ بِهَا... }	151
133	١٠٥	{ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ... }	152
155	١١٠	{ لَا يَزَالُ يُبَيِّنُ لَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِبْعَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ... }	153
145	١١١	{ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ... }	154
452	١٢٢	{ فَتَلَوْنَ تَقَرُّونَ كُلَّ فَتْرَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَسْفَهُوا فِي الدِّينِ... }	155
54	١٢٨	{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا... }	156
15 سلى رلحي س			
435، 431	٥	{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا... }	156
55	٨-٧	{ إِنْ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا... }	155
٧	١٢	{ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّمُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا... }	١٥٩
55	-٢٢ ٢٣	{ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْتُمْ... }	165
215، 245	٣٦	{ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ... }	161
266	٤٣	{ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ... }	162
155	-٥٧ ٥٨	{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي... }	163
155	٥٧	{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ... }	164
155	٥٨	{ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ... }	165
335، 334، 33 4	٦٨	{ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي... }	166
55	٩٠	{ وَجَوْرًا بَيْنِي وَبَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا... }	166
341	-٩٠ ٩١	{ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرِقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ... }	165

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيات	رقم الآية
55	91	{وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ}	164
355	99	{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ..}	165
256	100	{وَمَا كُنَّا لِنُفَيْسَ أَنْ نُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ..}	161
262,431	101	{قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ..}	162
11 سطر رة ه د ا			
534	1	{أُخْبِتَ أَيْنَهُ}	163
342	2	{الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ}	164
253	7	{لِيَسْتَلُوكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا}	165
136	9- 11	{وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ..}	166
136	10	{ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي}	166
136	11	{أُوَلِّيكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}	165
251	13	{قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ وَمِثْلِهِ مَفْرَدٍ}	164
342	50	{اعْبُدُوا اللَّهَ}	155
214	59	{وَقَالَ عَادُ جَعَلُوا بِيَابَتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ..}	151
445	88	{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ}	152
214	97	{فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ}	153
215	109	{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَتُوْلَاءَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ..}	154
36,435	118	{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}	155
444	118- 119	{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ*..}	156
462	118	{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}	156
444	119	{إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ}	155
12 سطر ه د ا ي س ف			
152	2	{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}	154
135	87	{إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكٰفِرُونَ}	145
254	105	{وَكَيْفَ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ..}	141
65	111	{لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا..}	142
13 سطر ه د ا ي س ف			

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
162-255-25 5	١١	{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}	143
524	١٧	{فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}	144
66	١٩	{أَمْنَ بَعْدَ أَمْنًا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمْ هُوَ أَمْحَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَئِكَ..}	145
66	٢٢-٢٣	{وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا..}	146
365	٢٤	{سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ}	146
46-123-141 364	٢٨	{الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ..}	145
14 س ل ر ق ل ب ن و ي			
55	٣	{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ..}	144
136	٥	{إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}	255
262-316	١٠	{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي إِلَهُ شَأْنٌ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..}	251
154	٢٤-٢٥	{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ..}	252
131	٢٧	{يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..}	253
266	٣٤	{وَمِنْكُمْ مَن كَفَلَ مَا سَأَلْتُمُوهُ}	254
66	٥٢	{هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ..}	255
16 س ل ر ق ل ن ذ م			
334	٢	{يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا..}	256
265	١٠-١١	{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ..}	256
265	١١	{لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}	255
334	١٧	{أَمْنَ يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}	254
334	١٨	{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}	215
334	٢٠	{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}	211
334-335	٢١	{أَمْوَاتٌ غَيْرَ أَحْيَاءٍ}	212
334	٢٢	{إِلَّا نَهَكَرُ اللَّهُ وَجِدًا فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُّكْرَهُ..}	213
166	٣٧	{فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ}	214
246-533	٤٣	{فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}	215
335	٥١	{وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي..}	216
335	٥٢	{وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}	216

رل ولبس فذت	رلى الآية	ط زف الآيت	
266	٥٣	{ وَمَا يَكُم مِّن نَّمَمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَلْيَئْتُوا... }	215
125·121·12 1	٧٠	{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُم وَيُنكِرُ مَن يَرُدُّ إِلَيْكَ أَرْزُلَ الْعَمْرِ لِيَكُنِّي لَا يَبْعَثُ... }	214
514	٧٨	{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بَطُونٍ أَهْنَكُم لَأَتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ... }	225
336	-٨١ ٨٣	{ كَذَلِكَ يَبْتَرِ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا... }	221
335	٨٣	{ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُ هُمْ... }	222
56·366	٩٠	{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ... }	223
55·356·356	٩٧	{ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ... }	224
152	١٠٦	{ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأَيْمَنِ }	225
16 سلى رة الإِسزاع			
155	٢٥	{ زَيْكُرُ أَعْلَىٰ يَمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ... }	226
145·144·25 4·254·245·244·35 4	٣٦	{ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ... }	226
26	٤٥	{ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ... }	225
26·26·26·2 6·26·261	٤٦	{ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُمْ... }	224
٦٤٤٨٤٤٨٤٤٨٤٤٨ ٤٨٤٦٠٤٤٩٤٤٩٤٤٩٤٤٩٤٤٩ ٤٩	٧٠	{ وَقَلَدَ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ }	٢٣٠
45·156·256 255·255	٨٥	{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن... }	231
262	١٠٢	{ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ إِلَىٰ أَرْضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنزَلَ... }	232
15 سلى رة لكه ف			
456	٥	{ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا }	233
245	١٥	{ هَذِهِ قَوْمَانَا اتَّخَذُوا مِن دُونِي آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ... }	234
415	١٦	{ وَإِذْ أَخْرَجْنَا آلَ فِرْعَوْنَ مِمَّا يَبْدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَىٰ الْكَهْفِ }	235
25·355·344	٢٩	{ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا... }	236
252·253·25 3	٤٥	{ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْخَيْبَةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ... }	236
44	١١٠	{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَجِدْتُ قَوْمًا يُشْرِكُونَ... }	235
14 سلى رة قوي ي			

رل ولبس فذت	رلى الآية	ط زف الآيت	
325	٩	{ وَفَدَّ خَلْقْتَاكَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ تَأْكُ شَيْئًا }	234
336	٣٠	{ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا }	245
336	٣٦	{ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ }	241
435,445	٣٧	{ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ }	242
235	٥٨	{ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا... }	243
236	٥٩	{ فَخَلَفَ مِنْ بَهِيمٍ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ... }	244
326	٦٧	{ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا }	245
245	٧٥	{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا }	246
232	٩٣	{ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا }	246
25 سلى رةطه			
53	٣-٢	{ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى * إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَحْشَى }	245
234,235	٥	{ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }	244
46	٧	{ يَعْلَمُ الْسِرَّ وَ الْخَفَى }	255
442	٨٨	{ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنِيءَ }	251
443	٩٤	{ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ... }	252
234	١١٠	{ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا }	253
154	١١٤	{ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا }	254
231	١٢٣	{ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا... }	255
535	١٢٣ ١٢٤-	{ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي... }	256
535	١٢٤	{ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا }	256
66	١٢٨	{ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ... }	255
21 سلى رةالانبيا			
155	٨	{ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا آلِيًا كَلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَلِيلِينَ }	254
24	-١٦ ١٨	{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ... }	265
256	-٢١ ٢٢	{ أَرِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِهِمْ يُشْرِكُونَ * لَوْ كَانُوا فِيهَا... }	261
256,256,25 6,345	٢٢	{ لَوْ كَانُوا فِيهَا إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا }	262
221	٢٤	{ أَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ }	263

رل ولبس فذت	رلى الآية	ط زف الآيت	
61	-٢٦ ٢٨	{ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * .. }	264
145	٥١	{ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرٰهٖمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلِ وَكُنَّا بِوَيْهِ عَلِيمِينَ }	265
155,166	٦٧	{ أَفَبِ لَكُم مَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }	266
462	-٧٨ ٧٩	{ وَءَاوَدُ وَسُلَيْمٰنُ إِذْ بَجَسَا فِي الْحَرَابِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمٌ * .. }	266
462	٧٩	{ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمٰنَ }	265
44	٩٣	{ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلْتِنَازٍ جُعُوتَ }	264
345	١٠٥	{ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا * .. }	265
22 سلى رة ان ذج			
43	١/١٥ ر ١٣/٤٩ ت	{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ * .. }	261
65	١/١٥ ر ٧٥	{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيٰتٍ لِّمُنْتَهِيْنَ }	262
45	١/١٥ ر ٢٩	{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }	263
155	١/١٥ ر ١٧/٤٩ ت	{ يٰمُنُونَ عَلَيْكُمُ الْآيٰتُ الْبَيِّنٰتُ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِ اسْمُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ * .. }	264
125	١/١٥ ر ٩٩-٩٧	{ وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنكُم بِبَيْتِكُمْ لِيْلًا يٰمُؤْمِنِينَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ * .. }	265
151	١/١٥ ر ٢٩	{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }	266
265	١/١٥ ر ٦/٤٩ ت	{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَاٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا * .. }	266
361	١/١٥ ر ٩	{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحٰفِظُونَ }	265
365	١/١٥ ر ١٣/٤٩ ت	{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ * .. }	264
432	١/١٥ ر ٢١	{ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِإِِقْدَارٍ مَّعْلُومٍ }	255
466	١/١٥ ر ٤٧	{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ }	251
455	١/١٥ ر ٢/٤٩ ت	{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ }	252

رل ولبس فذت	رلى الآية	ط زف الآيت	
514	ر ١٥/١ ت ١٠/٤٩	{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ }	253
426	٥	{ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُم مِّن نَّوْبٍ } ..	254
255	٨	{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ } ..	255
65·164·163 163·163·163·166· 166·166·212·212· 212	٤٦	{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ } ..	256
243	٦٣	{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَصُيِّغَ الْأَرْضُ } ..	256
243	٦٥	{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ } ..	255
546	٧٨	{ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ }	254
23 سلى رقل وبي ي			
32	١٢	{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ }	245
345، 253	-١٢ ١٤	{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي } ..	241
345	١٢	{ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ }	242
345	١٣	{ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً }	243
31·32·32·3 45·345	١٤	{ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }	244
345·345·34 5·345·345	١٤	{ فَكَسَوْنَا الْوُطْنَ لِحْمًا }	245
22	٥٠	{ ذَاتِ قُرْأِرٍ وَمِعِينٍ }	246
262	٧١	{ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن } ..	246
244	-٧٨ ٨٠	{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } ..	245
244	٧٨	{ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ }	244
244	٧٩	{ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }	355
244، 245	٨٠	{ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ يُخْلَفُ آيَاتِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا } ..	351
245	-٩٠ ٩٢	{ ذَلِ آيَاتِنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلِيٍّ وَمَا } ..	352
245	٩٠	{ ذَلِ آيَاتِنَهُم بِالْحَقِّ }	353
245، 256	٩١	{ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلِيٍّ }	354

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
246	٩٣-٩٥	{ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي .. } 355	246
246	46	{ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ مِمَّنْ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ } 356	246
156، 25، 6	١١٥-١١٦	{ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا .. } 356	156، 25، 6
25	١١٦	{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ } 355	25
245	١١٧	{ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ .. } 354	245
24 سلى ر قلى ر			
133	٢١	{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ .. } 315	133
365	٢٤	{ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 311	365
353	٣٥	{ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ } 312	353
353، 541، 54	٤٠	{ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } 313	353، 541، 54
243	٤٣	{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُنزِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَامًا فَرَى .. } 314	243
246، 534	٥٤	{ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا } 315	246، 534
55، 355، 355	٥٥	{ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي .. } 316	55، 355، 355
-25			
		{ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا } 316	
25 سلى ر قلى ر			
254	٢	{ الَّذِينَ لَهُ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَنْخِذُ وَكَذَلِكَ يَكُنْ لَهُ .. } 315	254
161	٤٣	{ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا } 314	161
25، 152، 165	٤٤	{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَل .. } 325	25، 152، 165
243	٤٥	{ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ .. } 321	243
536	٥٢	{ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } 322	536
166، 424، 42	٦١	{ وَجْعَلْ فِيهَا سُرَجًا وَقَمْرًا مُنِيرًا } 323	166، 424، 42
355	63	{ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَلَى الْإَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا } 324	355

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
355	٦٥	{إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا }	325
146	٦٧	{ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ... }	326
365	٧٥	{ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا }	326
26 سى راقى ش ع ز اء			
265	٧٨	{ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يُعِيدُنِي }	325
66.152.264	١٩٣ ١٩٤-	{ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ }	324
265	١٩٤	{ عَلَى قَلْبِكَ }	335
26 سى ر قل م			
262	١٤	{ وَوَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلُومًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ... }	331
434	-٥٩ ٦٤	{ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا... }	332
434	٦٠	{ بَلْ هُمْ قَوْمٌ }	333
64.265	٦٢	{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْمَلُكُمْ... }	334
225	٦٤	{ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ... }	335
25 سى ر قل م ص ض			
225	٥٠	{ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ... }	336
56	٦٠	{ وَمَا أُنزِلَتْ مِنْ شَيْءٍ مِّنْ مَّنْعِ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ... }	336
145	٧١	{ أَفَلَا تَسْمَعُونَ }	335
155	٧٧	{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ... }	334
24 سى ر قل م بى ث			
233.234.23 4	١٢	{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ... }	345
336.336	١٧	{ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوتُنَّا وَتَخْلُقُونَ إِنْ كُنْتُمْ... }	341
243	٢٠	{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ... }	342
115	٢٣	{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن... }	343
155.144.26 3	٤٣	{ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا... }	344
161.255	٤٥	{ إِنَّ أَوْلَىٰ لِغُلَامِكُمْ الصَّلَاةَ تَتَّبِعُوا فِي الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ }	345
464	٤٦	{ وَلَا تَجِدُوا أُمَّةً أَحْسَنَ }	346
523	٥١	{ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي هَذِهِ نَسَبُ اللَّهِ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ }	346
145	٦٣	{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ }	345

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
56	٦٤	{ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ .. } 344	
536	٦٩	{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } 355	
35 سلى رة ان زووا			
251	٧-٦	{ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * } 351	
35.255.353 353	٧	{ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } 352	
251.252.25 2	٨	{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا .. } 353	
43.44.44.2 52	٢٢	{ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنَائِكُمْ .. } 354	
326	٢٧	{ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } 355	
٦٠٧٤٠٧٠٠٧٠٠٧٠ ٧٠٠٧٠٠٢٦٩٠٢٧٣٠٢٧٣٠	٣٠	{ فَأَوَدَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْهَا .. } ٣٥٦	
465	-٣١ ٣٢	{ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ .. } 356	
31 سلى رة ان زووا			
156	٢٠	{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ .. } 355	
54	٢٦	{ لِلَّهِ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } 354	
32 سلى رة ان س ج دة			
45	٧	{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ } 365	
155	٩-٧	{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ .. } 361	
155	٧	{ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ } 362	
156	٩-٧	{ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ .. } 363	
45.155.155	٨	{ ثُمَّ جَعَلْنَا سَلَكًا مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ } 364	
45.155.155	٩	{ ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ } 365	
253	٢٢	{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَرَّغَ مِنْهَا إِنَّا مِنْ .. } 366	
246.533.53 3.533	٢٤	{ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا .. } 366	
33 سلى رة الان اب			
65	٢٧	{ وَأَوْزَقْنَاهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَيُدْعُوهُمْ إِلَىٰ طَرَفِهَا وَمَا كَانَ اللَّهُ .. } 365	
42.154.154 154	٣٦	{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ .. } 364	
166	٤٦	{ وَدَاعِبًا إِلَىٰ اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّبِينًا } 365	
364	٧٢	{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ .. } 361	

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
34 سلى رة سب أ			
464	٢٤	﴿وَلِنَا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾	362
335	٤٠- ٤١	﴿وَيَوْمَ يُصْرَفُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ لِأَكَرْكَ أَتُونَا..﴾	363
335	٤١	﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾	364
243	٤٦	﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنًى وَفَرْدَىٰ ثُمَّ..﴾	365
35 سلى رة صا طز			
64	١	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي..﴾	366
234	١٠	﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾	366
251	٢٨	﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	365
36 سلى رة قاي س			
234	٢٠	﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا..﴾	364
234	٢١	﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾	355
265	٢٢	﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	351
262	٦١	﴿وَأَنْ أَعْبُدَ فِي هَذَا صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾	352
166	٦٨	﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾	353
36 سلى رة صا فاث			
164	١٣٧ ١٣٨-	﴿وَلِأَكْثَرِ النَّاسِ كُفْرًا بِآيَاتِنَا أَفَلَا يَعْقِلُونَ * وَإِلَيْهِ أُنشَبُ الْكَلِمَاتِ﴾	354
35 سلى رة صا			
214.441.44 1	٢٦	﴿يَدَاؤُدُّ إِذَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا..﴾	355
24	٢٧	﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا..﴾	356
66	٢٨	﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ..﴾	356
144.251	٢٩	﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	355
66	٤٢	﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾	354
34 سلى رة صا يزا			
265.261	٨	﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ رِيقَةً..﴾	345
56.152.145 145.	٩	﴿أَمَّنْ هُوَ قَدِنتُ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا..﴾	341
42.343	١٥	﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ..﴾	342
66	١٨	﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ءَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ..﴾	343
534	٢٣	﴿كَتَبْنَا مُتَشَبِهًا﴾	344

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيات	رقم الآية
55	٢٥	{ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا .. }	345
526	٤٥	{ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .. }	346
55	٧٥	{ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. }	346
45 سلى رة غلزل			
261	١٢	{ ذَلِكُمْ يَأْتِيهِ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ .. }	345
364	١٩	{ يَعْلَمُ حَافِيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ }	344
125	٦٧	{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ .. }	455
253	٨١	{ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ }	451
65	٨٤	{ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ .. }	452
341	٨٥	{ فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ يُبْغِضُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَدَّتْ اللَّهُ الْآلِي فَدَخَلَتْ .. }	453
41 سلى فقصه ج			
266.266.25 2.252.252.252.25 2	٢٦	{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ }	454
364	٣١	{ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأٰخِرَةِ }	455
45	٣٤	{ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا .. }	456
135.145	-٣٤ ٣٥	{ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا .. }	456
335	٣٧	{ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ .. }	455
343	٤٠	{ إِنَّ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُقَىٰ فِي النَّارِ .. }	454
235	٤٢	{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ }	415
144.255.35 2	٥٣	{ سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ .. }	411
42 سلى قان شى رى ي			
162.234.23 4	١١	{ أَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }	412
456.455	١٣	{ أَنْ آمِنُوا بِالَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ }	413
145	-٣٧ ٤٠	{ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * .. }	414
145	٣٧	{ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ }	415
145	٣٨	{ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ }	416
145	٣٩	{ وَالَّذِينَ إِذَا مَا سَأَلْتَهُمُ الْبَيِّنَاتِ }	416

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيات	رقم الآية
415	٤٠	{فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}	141
43 سلى ر ق ف خ ز ف ا			
414	٣	{أَعْلَمَكُمْ تَقُولُونَ}	251
425	٢٢	{بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ}	423
421	٢٤	{قَتَلُوا نَفْسَهُمْ بِآيَاتِنَا وَمَا جَدُّهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا بِمَا يَفْعَلُونَ لَشَدِيدُونَ}	266
422	٨٧	{وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}	65
45 سلى ر ق ل ا ض ي ت ا			
423	٥-٣	{إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّو...}	155
424	٦-٣	{إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّو...}	253
425	٣	{الآيَاتِ لِلْمُؤْمِنِينَ}	253
426	٤	{آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}	253
426	٥	{وَالْخَالِيفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَلْبَسَ بِه...}	66
425	١٣	{وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ...}	44, 53, 251
424	٢٣	{أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ...}	166
435	٢٤	{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْدِي لَكُمَا إِلَّا الذَّهْرَ وَمَا لَكُم...}	45, 41, 41, 4 1, 41, 41, 41
46 سلى رة الأدم ف ا			
431	٤	{اتَّبِعُونِي يَكْتُوبَ مِن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ آتُوا رَبَّكَ مِن بَيْنِ يَدَيْكَ...}	244
432	١٥	{حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}	125
433	٣٥	{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْ لَهُمْ...}	56
46 سلى ر ق ي ذ د ا			
434	٣	{ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ...}	235
435	١٢	{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا...}	25, 152, 152
436	٢٤	{أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَنِ قُلُوبِ أَفْقَاهِهَا}	65, 151
45 سلى ر ن ف خ خ ا			
436	٤	{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ...}	131, 152
435	٢٣	{سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلشُّرُكَةِ اللَّهُ تَبْدِيلًا}	222
55 سلى ر ق ق ا			
434	٢-١	{قَالَ الْكُفْرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ	66, 65

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
46	١٦	{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَرْتَسُونَ بِهِ فَمَنْ قَسَمَ لِي بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّ...}	445
46:151	٢٢	{لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ...}	441
66:164,264 264	٣٧	{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ...}	442
51 سلى رقل فري ا ث			
256	٢٠	{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ}	443
145:256:25 6:431	٢١	{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}	444
35:65:365	٥٦	{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}	445
52 سلى رقل طو ر ا			
434	-٣٣ ٣٨	{أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بِئَلَاءَ لَوْلَا نُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا...}	446
53:326	٣٥	{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}	446
53 سلى رقل جى ا			
364	٤	{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}	445
215:262	٢٨	{وَمَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الْإِلَهَ الَّذِي لَا يَلْفُظُ مِنْ...}	444
٦	٣٢	{هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}	٤٥٠
55 سلى رقل زد ا			
135	٦٠	{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}	451
56 سلى رقل اى ل ع ت			
53	-٥٧ ٥٩	{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ...}	452
256	-٥٧ ٦٢	{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ...}	453
344	-٥٨ ٥٩	{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ...}	454
344:345	٥٩	{أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ}	455
265:264	-٦٣ ٧٤	{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ...}	456
341	-٧١ ٧٣	{أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا...}	456
341	٧١	{أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ}	455
56 سلى رقل ذى د ا			
235	٤	{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}	454

رقل وحيى فذت	الآية رلى	ط ز ف الآيت	
351,534,53 4,534,534	١٤	{وَلْيَكْتُمُوا كُنُوزَهُمْ أَنفُسُهُمْ وَيَرْبَحُوا رِبْحًا يَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ مِنْ غَيْرِهِمْ أَصْحَابٌ فَذُقُوا حَرْبَهُمْ وَمَا يَرْبَحُونَ حَرْبَهُمْ وَمَا يَرْبَحُونَ حَرْبَهُمْ وَمَا يَرْبَحُونَ حَرْبَهُمْ}	465
55 سلى رقل ج ان ت			
364	٦	{أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ}	461
56,251,455	١١	{يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَّحُوا...}	462
54 سلى رقل ن ش ز			
365	٧	{وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهَنكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ...}	463
65	١٤	{لَا يُقَدِّرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ...}	464
251	٢١	{لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشْيَعًا مُتَّصِدًا مِّنْ...}	465
61 سلى رقل اص ف			
351,534,53 4,534	٥	{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}	466
346	٩	{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ...}	466
63 سلى رقل ق ل م			
33	٤	{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأْتِمُمْ...}	465
64 سلى رقل خ غ ا ب			
136	١١	{مَا أَصَابَ مِنْ ضَلَالَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ...}	464
66 سلى رقل خ ن ي			
344	٩	{يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَخْلَفَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَمَا مِنْهُمْ...}	465
66 سلى رقل ه ك			
254	2-1	{بِذِكْرِ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ...}	461
254	١	{الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}	462
61,254,254	٢	{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}	463
252	٤-٣	{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ...}	464
155,165,16 4,215,212,213	١٠	{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}	465
56,355	١٤	{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}	466
51	١٥	{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ...}	466
235,234,23 4	١٦	{أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ}	465
265	٢١	{بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ}	464
266	٢٢	{أَمْ يَتَّبِعُونَ مِثْلًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَّبِعُ سَوَاءً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}	455
65 سلى رقل ه ي			
54,456	٤	{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}	451

رقم الآية	رقم الآية	ط ز ف الآيت	رقم الآية
65سلى رقل ع ا ر ج			
123	١٩- ٣٥	{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا...}	452
125		{إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ }	453
125	٢٣	{عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ }	454
125	٣٤	{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }	455
61سلى رقاى ح			
435	١٥- ١٦	{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا...}	456
234	١٦	{ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا }	456
62سلى رقا ن ج			
245	١٦- ١٧	{وَأَلُو اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقِ وَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا * لَتَنفُنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ...}	455
245	١٦	{لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا }	454
535	١٦- ١٧	{وَأَلُو اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقِ وَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا ﴿١٧﴾ لَتَنفُنَّهُمْ فِيهِ...}	445
535	١٦	{لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقًا }	441
245,535	١٧	{لَتَنفُنَّهُمْ فِيهِ }	442
64سلى رقل د ش ن ا			
355	١٨	{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ }	443
355	٣٨- ٤٦	{عَلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ * عَنْ...}	444
65سلى رقل عى لى ت ا			
25	١٧- ١٨	{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْقِعْ قُرْآنَهُ. }	445
25,21	١٧	{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. }	446
25,21,21	١٨	{فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْقِعْ قُرْآنَهُ. }	446
25	٣٦	{يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى }	445
255	٣٦- ٤٠	{يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نُطْفَةٌ مِنْ مَوَاطِنِ * ثُمَّ كَانَتْ عَلَقَةً...}	444
66سلى رقا لانس ا			
253	٢-١	{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا...}	555

رقم الآية رلى	رلى الآية	ط زف الآيت	رقم الآية رلى
233	٣-٢	{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا...}	551
253	٢	{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ }	552
٦	٣	{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}	٥٠٣
46	٢٨	{لَمَّا خُنَّ خَلْقَتَهُمْ وَشَدَّدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بِدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا }	554
66 سلى رقل مرسلات			
341	-٢٥ ٢٧	{أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِخَاطٍ...}	555
341	٢٥	{أَلَمْ يَجْعَلِ }	556
425	-٢٥ ٢٧	{أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِخَاطٍ...}	556
341,425,42 5	٢٧	{ وَجَعَلْنَا فِيهَا }	555
64 سلى رقل س عاث			
424	-٣٠ ٣١	{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا }	554
424	٣١	{مِنْهَا مَاءَهَا }	515
252	-٣٧ ٤١	{فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ...}	511
252	٣٩	{فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى }	512
153	-٤٠ ٤١	{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ...}	513
55 سلى رقل ع ب س			
43	٢٢	{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرْنَاهُ }	514
256	٣١	{ وَفَقِيمَةً وَأَبًا }	515
52 سلى رقل اللفظ ا ر			
253	٧-٦	{يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ...}	516
53 سلى رقل ه قضي			
153	١٤	{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }	516
		{ سلى رقل ط ا ر	56
225	٥	{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ }	515
426	٦	{خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ }	514
426	٧	{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ }	525
56 سلى رقل ط ا ر			

رل و لحي فذت	رل ي الآية	ط زف الآيت	
426	6-4	{ إن كل نفس لآ عليها حافظ * فلينظر الإنسان يوم خلق * خلق من مَلَو دافئ * يخرج من بين الصلب والترائب }	521
56 سلى رة الاء ه			
153	١٤	{ قد أفلح من تزكى }	522
135		{ قد أفلح من تزكى * وذكر اسمه ففضل }	523
55 سلى رة الاش ي ت			
63	١٧	{ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت }	524
144	-١٧ ٢٠	{ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * .. }	525
144	١٨	{ وإلى السماء كيف رفعت }	526
144	١٩	{ وإلى الجبال كيف نصبت }	526
144	٢٠	{ وإلى الأرض كيف سطحت }	525
341	-٢١ ٢٢	{ فذكر إنما أنت مذكر * أنت عليهم مصيطر }	524
341	٢٢	{ أنت عليهم مصيطر }	535
54 سلى رة لحي ج ز			
144	٥	{ هل في ذلك قسم لذي حجر }	531
55	-٢٧ ٣٠	{ يتأينها النفس المطمئنة * أرجع إلى ربك راضية مرضية * فادخل في .. }	532
155	-٢٧ ٢٨	{ يتأينها النفس المطمئنة * أرجع إلى ربك راضية مرضية }	533
155	٢٨	{ أرجع إلى ربك }	534
45 سلى رة لحي ج د			
24	٤	{ لقد خلقنا الإنسان في كبر }	535
365	١١	{ فلا أقنم العقبة }	536
41 سلى رة لحي ش س			
135		{ ونفس وما سواها * فآلمها جوارها وتقودها * قد أفلح من زكها * وقد خاب من دسها }	536
45	٩	{ قد أفلح من زكها }	535
45 سلى رة لحي خ ي			
156	٦-٤	{ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددته أسفل سافلين * إلا .. }	534

رل و لحي فذت	رل ي الآية	ط ز ف الآيت	
46 سلى ر قلا ع هك			
65، 154، 216 425، 242، 451،	٥-١	{ أَقْرَأْ بِأَمْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * .. }	545
65	٢	{ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ }	541
65، 216	٣	{ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }	542
65	٤	{ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ }	543
243	٥	{ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }	544
45 سلى ن قلا ي تا			
55	٨	{ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. }	545
155 سلى ر قلا ع اي اث			
265	٧	{ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ }	546
112 سلى رة الإخلاص			
151	٣	{ كَلِمَ بَكِيلًا وَكَلِمَ يُؤَلَّدُ }	546

فهرس الأحاديث

فهرس الأحاديث

رقم الصفحة	الحديث	رقم
٧	((ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة))	١
٨	((أربع من كن فيه كان منافقا خالصا))	٢
٨	((إنك امرؤ فيك جاهلة))	٣
٢	((رأيت خيراً أما المنهج العظيم فالمحشر))	٤
٦	((لا حمى إلا لله ولرسوله))	٥
١٦	((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ))	٦
١٧	((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ،))	٧
٢١	((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))	٨
٣٣	((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي))	٩
٥٦	((البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك))	١٠
٥٨	((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ))	١١
٥٨	((مَا مِنْ مَوْلُودٍ))	١٢
٥٨	((إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ))	١٣
٥٩	((فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ))	١٤
٥٩	((حين أسري بي لقيت موسى قال فنعته))	١٥
٦٠	((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، حَتَّى يُعْرَبَ عَنْهُ لِسَانُهُ،))	١٦
٦٢	((بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ))	١٧
٦٤	((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغَيِّرُ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، وَكَانَ يَسْمَعُ الْأَذَانَ،))	١٨
٦٤	((إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضَوْعَكَ لِلصَّلَاةِ))	١٩
٦٥	((لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَلَّ النَّاسُ إِلَيْهِ))	٢٠
٦٧	((أبدلني الله بتحية خير من تحيتك))	٢١
٦٧	((السلام عليكم ورحمة الله))	٢٢
٦٧	((أنا رسول الله))	٢٣
٦٧	((اللهم اهد دوسا وائت بهم))	٢٤
٦٧	((يا طفيل، اذهب إلى دوس، فادعهم إلى الإسلام))	٢٥
٦٨	((أدعوكم إلى لا إله إلا الله محمد رسول الله))	٢٦
٧٢	((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ،))	٢٧

رقم الصفحة	الحديث	رقم
٧٢	((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ))	٢٨
٧٢	((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))	٢٩
٧٥	((أَنْتُمْ الَّذِينَ قَلْتُمْ كَذًا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ))	٣٠
٧٦	((أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا))	٣١
٧٦	((إنما الأعمال بالنيات))	٣٢
٧٦	((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))	٣٣
٧٦	((لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه))	٣٤
٧٦	((الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتهات))	٣٥
٧٦	((البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك))	٣٦
٧٧	((جئت تسأل عن البر؟))	٣٧
٧٧	((استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب))	٣٨
٨٠	((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ))	٣٩
٨١	((إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم))	٤٠
٨١	((أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَانِمِ اللَّذَاتِ))	٤١
٨٢	((يَا عَبْدَ اللَّهِ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ،))	٤٢
٨٥	((المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء))	٤٣
٩٤	((تُتَكِّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسْبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا))	٤٤
٩٤	((إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَرَوْجُوهُ))	٤٥
٩٩	((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ))	٤٦
١٠٢	((يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج))	٤٧
١٠٢	((لِمَا مَثَلُ لَجْبِيسٍ لَصَالِحٍ، وَلِجْبِيسٍ لِسَوِّءٍ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَفِخِ الْكَبِيرِ))	٤٨
١٠٤	((أعوذ بك من البخل والكسل والهرم))	٤٩
١٠٥	((أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالِدَوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً))	٥٠
١١٦	((اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها))	٥١
١٢١	((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ))	٥٢
١٢١	((لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّارِعِ إِلَّا مَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))	٥٣
١٢٧	((إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان))	٥٤
١٣١	((لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ))	٥٥

رقم الصفحة	الحديث	
١٤٣	((لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ))	٥٦
١٤٣	((الآنَ يَا عُمَرُ))	٥٧
١٥٢	((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله))	٥٨
١٦٧	((يا معشر النساء تصدقن فإني أريكن أكثر أهل النار))	٥٩
١٧٣	((مَنْ سَأَلَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))	٦٠
١٧٣	((طلب العلم فريضة على كل مسلم))	٦١
١٧٤	((من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبياً))	٦٢
١٧٦	((إِنَّ اللَّهَ سَأَلَ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحْفَظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟))	٦٣
١٧٨	((مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبُؤُسُ، لَا تَبَلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ))	٦٤
١٨٠	((لَا يَزَالُونَ يَسْأَلُونَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟))	٦٥
١٨٠	((فمن وجد ذلك فليقل: لا إله إلا الله))	٦٦
١٩١	((لا يتم بعد احتلام ولا صمات يوم إلى الليل))	٦٧
١٩١	((رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم))	٦٨
١٩٣	((هكذا الوضوء فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وتعدى وظلم))	٦٩
١٩٦	((رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ، عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَعْتُورِ))	٧٠
٢٠١	((إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث))	٧١
٢١٩	((من قال لا إله إلا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً))	٧٢
٢٢٠	((من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))	٧٣
٢٢٠	((ماء زمزم لما شرب له))	٧٤
٢٢٢	((تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت))	٧٥
٢٢٣	((إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه))	٧٦
٢٤٤	((بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر الأديان))	٧٧
	((إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث))	٧٨
٢٤٥	((واعقل عقل قلبك))	٧٩
٢٤٧	((وليعقل قلبك))	٨٠
٢٤٧	((إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل))	٨١
٢٤٩	((لَيْسَ مَوْلُودٌ يُوَلَّدُ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْمَلَّةِ))	٨٢

رقم الصفحة	الحديث	
٢٥٦	((إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالهم الشياطين))	٨٣
٢٥٦	((ما من مولود إلا يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه))	٨٤
٢٥٦	((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة))	٨٥
٢٥٧	((ما بال قوم يتناولون الذرية))	٨٦
٢٥٨	((إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة))	٨٧
٢٥٨	((ما أنا بقارئ))	٨٨
٢٧٥	((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه))	٨٩
٢٨١	((إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله))	٩٠
٢٨١	((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به. كتاب الله))	٩١
٢٨١	((ما من عبد يسترعيه الله رعيّة يموت يوم يموت وهو غاش لرعيّته))	٩٢
٢٨٥	((ما من مسلم يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحها لم يجد رائحة الجنة))	٩٣
٢٨٥	((أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ، فبكت وأطالت))	٩٤
٣٠٢	((ومالي لا أبكى وقد أنزل الله علىّ في هذه الليلة))	٩٥
٣٠٢	((ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها))	٩٦
٣٠٢	((ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها))	٩٧
٣٠٢	((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله))	٩٨
٣١١	((أكثروا من ذكر هادم اللذات))	٩٩
٣٥١	((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا))	١٠٠
٣٥٤	((جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِرَازَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَوَلَدَتُ))	١٠١
٣٥٤	((يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْذَنْ لِي فِي الزَّنَا))	١٠٢
٣٥٥	((لَيْسَ مِنْ أَمِيرٍ مُصَيِّمٍ فِي أَمْسَقَرِّ))	١٠٣
٣٥٥	((كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ ثَلَاثًا لِكَيْ يُفْهَمَ عَنْهُ))	١٠٤
٣٥٦	((أَنَّهُ ﷺ لَا يَسْرُدُ الْكَلَامَ كَسَرِدِكُمْ))	١٠٥
٣٥٦	((إِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَدِّثُ حَدِيثًا، لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لِأَحْصَاءَهُ))	١٠٦
٣٥٦	((كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا))	١٠٧
٣٥٦	((لن تراعوا، لن تراعوا))	١٠٨
٣٦٥	((إن فتى شابا أتى النبي ﷺ.. فقال: يا رسول الله! انذن لي بالزنا!))	١٠٩
٣٦٦	((كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟ " قَالَ: سَبْعَةٌ،))	١١٠

رقم الصفحة	الحديث	
٣٦٨	((ومن تبعنا من يهود فإنه له النصره والأسوة))	١١١
٣٧٨	((أُمرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))	١١٢
٣٨١	((مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ))	١١٣
٣٨٤	((مرحباً بطالب العلم تحفه الملائكة بأجنتها))	١١٤
٣٨٤	((يا أبا ذر! لأن تغدو، فتعلم آية من كتاب الله خير لك))	١١٥
٣٨٥	((من علم علماً فكتمه: ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار))	١١٦
٣٨٨	((فَضِّلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضِّي عَلَى أَدْنَاكُمْ))	١١٧
٣٨٩	((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))	١١٨
٣٩١	((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي))	١١٩
٣٩١	((إنها ستكون فتنة، قالوا: وما ن صنع يا رسول الله))	١٢٠
٣٩١	((عليكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً))	١٢١
٣٩١	((كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم))	١٢٢
٣٩٢	((إنها ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم))	١٢٣
٣٩٢	((إنها ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشي))	١٢٤
٣٩٣	((إن هذه الأمة تبئلى في قبورها))	١٢٥
٣٩٣	((أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة))	١٢٦
٣٩٣	((يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال))	١٢٧
٣٩٣	((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم))	١٢٨
٣٩٤	((العبادة في الهرج كهجرة إلي))	١٢٩
٣٩٥	((الدين النصيحة))	١٣٠
٣٩٤	((من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبْده علانية))	١٣١
٣٩٦	((سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام))	١٣٢
٣٩٨	((هم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها))	١٣٣
٤٢٤	((إنما هلكت بنو اسرائيل بكثرة سؤلهم واختلافهم على أنبيائهم))	١٣٤
٤٢٩	((هَلُمَّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ))	١٣٥
٤٣٠	((إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب))	١٣٦
٤٣٣	((اختلاف أمتي رحمة))	١٣٧
٤٣٣	((الجماعة رحمة والفرقة عذاب))	١٣٨

رقم الصفحة	الحديث	
٤٣٩	((لا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً))	١٣٩
٤٣٩	((لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة))	١٤٠
٤٣٩	((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران))	١٤١
٤٤٣	((وإذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله))	١٤٢
٤٤٤	((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران))	١٤٣
٤٤٤	((قَوْمُوا إِلَيَّ خَيْرِكُمْ أَوْ سَيِّدِكُمْ))	١٤٤
٤٤٦	((أصبت حكم الله أو حكمت بحكم الملك))	١٤٥
٤٤٨	((يسرا ولما تعسرا، وبشرا ولما تنفرا وتطوآعاً))	١٤٦
٤٤٨	((إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فأخطأ فله أجر))	١٤٧
٤٥٣	((قد فعلت))	١٤٨
٤٥٦	((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))	١٤٩
٤٥٧	((لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة))	١٥٠
٤٦٠	((يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟))	١٥١
٤٦٠	((لا تختلفوا فتختلف قلوبكم))	١٥٢
٤٦١	((لا تختلفوا فان من قبلكم اختلفوا فهلكوا))	١٥٣
٤٦١	((اقروا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فاذا اختلفتم فيه فقوموا))	١٥٤
٥٠٣	((وإنه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً))	١٥٥
٥٠٤	((من سمع بالدجال فليأمن عنه، من سمع بالدجال فليأمن عنه))	١٥٦
٥١٦	((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه))	١٥٧
٥١٧	((إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به))	١٥٨
٥١٧	((تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي))	١٥٩
٥١٩	((لا تصاحب إلا مؤمناً))	١٦٠
٥٢٠	((كان الناس يسألون رسول الله - ﷺ - عن الخير))	١٦١
٥٢٣	((كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه))	١٦٢
٥٢٧	((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار))	١٦٣

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

و	انصذر	نفس فح
١	نك زرخ	١٤٩
٢	نك سخت	٤٢٦
٣	نك خجش	٣٧١
٤	نك خشح	٨٦
٥	نك خشش	١٤٧
٦	نك ح دش	١٥٠
٧	نك حض	٤٢٧
٨	نك خضخ	٤٥٩
٩	نك خلدو	٣٣٠
١٠	محمد بن منده	٤٦٠
١١	محمد بن خزيمه	٤٥٩-٤٩٠
١٢	ح ذت ع ش	٧٦
١٣	ع ب ع ث ع ش	٧٤
١٤	ا فلها	٢٤٥
١٥	نك ص ذ	٣٥٧
١٦	ا ج هم	٢٩٦
١٧	نك ع ب	٣٥٩
١٨	ش ب ط ج	٤٤٠
١٩	نك ع ا ب د	٣٨٦
٢٠	نك ا ه ت	٤٣٣
٢١	ا ج ب	١٦٠
٢٢	نك ع ب ط	٤٣٣
٢٣	ا ن ج ي	٤٣٤
٢٤	ا ض	٤٤٩
٢٥	نك عبد الاعرى ا ظف	٤٣٤
٢٦	نك عبد ا ب ح	٣٩٣
٢٧	نك ظ ف	١
٢٨	نك ع ث	٤٤٣
٢٩	ا ظ ع ا ني	٤٢٧
٣٠	بن برها	٢٧٣
٣١	ا ع ه د	٢٥٠
٣٢	نك ب س ط	٢٧٣
٣٣	ا ح ج	٣٦
٣٤	نك ا م	٧
٣٥	نك و ث ن	٧٦
٣٦	ا غ ي و ط ي	٦٣
٣٧	نك ب خ خ	٣٨
٣٨	ع ش ث ا خطبة	٣٢٨ - ٢٥١
٣٩	نك ظ و س	٢٥٨
٤٠	ح نك ج ب س ن	

و	انصذر	لخص فح
٤١	أنووي	٦٢
٤٢	أنقثوري	1.
٤٣	ضذث خلدو	٣٣٠
٤٤	مبو ثحرب	67
٤٥	وئظنث ععد	٧٥
٤٦	يوسف عبد الله مشضاوي	17
٤٧	ابوعحبق الحو	٤١
٤٨	أبوأحغ الأشعري	٤٤
٤٩	أبو الدرءاء	٣٩١
٥٠	أبو أمامة بن سهل	٤٤٤
٥١	أث موسى الأشعري	٤٤٦
٥٢	أبوئش اشخي	6.
٥٣	أبوئش اظنطشي	٢٥
٥٤	أبوئش اظنطك	٣٤٠
٥٥	أبوئش ث أثش حج	71
٥٦	رح ذأخ طت	٤٤
٥٧	أبو حب ذغضأ	١٦٦ - ٨٤
٥٨	أبو حفيخ	٤
٥٩	أبوس أقبسي	ص
٦٠	أبوئشوح	٣٧١
٦١	أبولكخ	٢٤٥
٦٢	أبو هريخ	٣٥٣
٦٣	أثأحغ الندوي	1
٦٤	أعرب عنغبس	٣٩٠
٦٥	أثث وعت	٣٩٠
٦٦	أباجوي	1.
٦٧	أبففع	٣١٢
٦٨	أظت أبه	٦٠
٦٩	أبففظ ائغال	٣٨٣
7	أحرفخت أيب	
7	أوب أظخب	٢٨٣
7.	أمش طج	٤٧
٧٣	أعب ث نئش	7
٧٤	أئواس ث ععا	٥٤
٧٥	أخبسي	٤٤
٧٦	أئسوب	٤٢
77	أفبخت دبأخ	٤٤
76	أح ذأشأغ	٥٩
71	أح ث حج	7
6	أطهنت عي	1
6	أخ ث أذفراهيدي	١٤٦
6.	د عبد لئش ص ذأ	٤٣٤
٨٣	أئس	7
٨٤	أعزث عبد السلا	٣٨٧

و	انصذر	لخص فح
٨٥	اذهج	٤٥٩
٨٦	الصح	٤٢٩
67	الناوي	٤٢١
66	عبد الله الجبسن	٥٠١
61	خلس وش	١٦٧
1	طرخش شي	1
1	غرت احبج الغببوي	١٥
1	بعرت خج	٣٠٩
٩٣	ضمام بن ثعلبة السعدي	٦٠
٩٤	صذنتبذ	٣٩٢
٩٥	عمروث ابص	17
٩٦	عمروث شعوت	17
17	خبي اذ لمبع	17
16	سعدت ب ه	١٢٥
11	غعث بع	٤٤٤
١١	عبد الله طرش	٢٦٧
١١	عهيث اغت	1
١٠٣	الأسوف عشغ	٢٥٦
١٠٣	عهيث خيش	٣٢
١٠٤	فش الحوا	1
١٠٥	فعب اتوسي	٥٠٣
١٠٦	حذ طك خب	٥٥
7	بثث عذالله	٥٨
6	عشث عذ	٣٥٨
1	عشث ائ اخ ط	٥٠٤
١١	حذ ائ اش مرط	٣٦٩
١١	عذل طت	6
١١	بش هت عبد الله مبض	٦٠
١١٣	عذ ائ ائ امغ	٣٤٣
١١٤	عبد الله علا	٦٣
١١٥	عذ الله عبي ط	٤٢٩
١١٦	حذ الأعرابي	٢٥٠
7	عبد الله عشث اخطبة	7
6	عذ الله عشوث ابص	7
1	عبد الله رغعود	٣٥٢
١١	اطشي	١٤٧
١١	اطل ائ عشو ادوع	٦٣
١١	ظهيرث العلواني	16
١٢٣	حذ عذ الله بلصا	٣٢٧
١٢٤	حش ائ عازة	٦٢
١٢٥	السعدي	6
١٢٦	أبو حفيخ	٤
7	دوبرو و اخ ج	١١٣
6	مورظ بوبي اخ ج	٢٧٦

و	انصذر	لحن فحح
1	سب	1
130	اشخ	465
131	فخطي	240

الكتب والمصادر

فهرس المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- (٣) تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- (٤) تفسير الجلالين، المؤلف: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الأولى.
- (٥) التسهيل لعلوم التنزيل، المؤلف: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبى الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت.
- (٦) فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.
- (٧) محاسن التأويل، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
- (٨) تفسير المراغي، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.
- (٩) يسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- (١٠) في ظلال القرآن، المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ.
- (١١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ببيروت - لبنان، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- (١٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري،

الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(١٣) التفسير الميسر، المؤلف: نخبة من أساتذة التفسير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(١٤) صفوة التفاسير، المؤلف: محمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني للطباعة، والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(١٥) التفسير الواضح، المؤلف: الحجازي، محمد محمود، الناشر: دار الجيل الجديد - بيروت، الطبعة: العاشرة - ١٤١٣هـ.

(١٦) أوضح التفاسير، المؤلف: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ)، الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها، الطبعة: السادسة، رمضان ١٣٨٣هـ - فبراير ١٩٦٤م.

(١٧) زهرة التفاسير، المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.

(١٨) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(١٩) مختصر تفسير ابن كثير، المؤلف: (اختصار وتحقيق) محمد علي الصابوني، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

(٢٠) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢١) تفسير الشعراوي - الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم.

(٢٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧هـ.

(٢٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: حقه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢٤) التوراة والإنجيل والقرآن بمقاييس العلم الحديث" د. موريس بوكاي، ترجمة علي الجوهرى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦م.

(٢٥) "تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين"، د. محمد السيد الجليند: دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٩م.

- ٢٦) "عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم" د.محمد السيد راضي جبريل: (ج ١).
- ٢٧) "مسائل العقيدة ودلالاتها بين البرهنة القرآنية والاستدلال الكلامي د. السيد رزق الحجر " ، دار الثقافة للتوزيع والنشر، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٢٨) "مقدمة في أصول العقيدة الإسلامية" د. محمد سلامة أبو خليفة، دار الهانئ للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ٢٩) (الغزو الفكري» د. أحمد السايح: ٥١ ضمن سلسلة منشورات كتاب الأمة العدد(٣٨) ط. قطر.
- ٣٠) «الإسلام دين العلم والمعرفة»، مجلة منبر الإسلام، عبد الرحمن البهلول، عدد رجب ١٤٠٧ هـ.
- ٣١) «مسيرة الفكر العلمي العربي عبر التاريخ»، أحمد الدمرداش، مجلة المنهل، العدد، ٤٥٠، جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ (الحلقة الأولى).
- ٣٢) أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، عوامه، محمد، دار البشائر، بيروت، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- ٣٣) آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، عمار طالبي، الشركة الوطنية، الجزائر، ج ١.
- ٣٤) أرشيف ملتقى أهل الحديث ، باب العلاقة بين العقل والنقل.
- ٣٥) الأزمة الفكرية، طه جابر العلواني.
- ٣٦) أساليب الغزو الفكري، د. علي محمد جريشة، د. محمد شريف الزبيق، دار الاعتصام، مصر، ١٩٧٨م.
- ٣٧) أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية - عبد الحميد الصيد الزنتاني - الدار العربية-ليبيا - ١٩٩٣م - ط ٢ .
- ٣٨) أسلمت المناهج والعلوم، دار الاعتصام، أنور الجندي، القاهرة، ١٩٨٦ .
- ٣٩) أصول التربية الإسلامية - خالد حامد الحازمي - دار الزمان - المدينة المنورة - ط ٢ - ١٤٣٠هـ.
- ٤٠) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٩هـ.
- ٤١) المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية. أ. د محمد إبراهيم الفيومي ضمن أبحاث ندوة (نحو فلسفة إسلامية معاصرة).
- ٤٢) المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، طبعة المكتبة الإسلامية إستانبول، تركيا، الطبعة الثانية (بدون تاريخ)، الجزء الثاني مادة (فكر)..
- ٤٣) إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، العلواني، طه جابر، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
- ٤٤) البحر المحيط، الزركشي، محمد بن بهادر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- ٤٥) المصباح المنير في غريب شرح الوجيز. الفيومي، أحمد بن محمد، المكتبة العلمية، بيروت.

- ٤٦) تجديد الوعي، بكار عبد الكريم، (الرياض: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- ٤٧) الإسلام والعقل د. عبد الحليم محمود: ط. دار الكتب الحديثة، مصر.
- ٤٨) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- الإيمان والحياة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
- ٤٩) العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، دار السلام، مصر، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٥٠) البيان لما يشغل الأذهان، د. علي جمعة، المقطم للنشر والتوزيع، مصر، د. ت. التسامح في الفكر الإسلامي، د. جعفر عبد السلام، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.
- ٥١) إهداء الديباجة بشرح سنن ابن ماجه - صفاء الضوي العدوي - دار اليقين - ١٤٢٠هـ.
- ٥٢) تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية (كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر)، أحمد صبحي منصور، دون ذكر الطبعة والتاريخ.
- ٥٣) تراث الإسلام، شاخت وبوزورت، ترجمة حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- ٥٤) سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- ٥٥) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، الطبعة: الأولى.
- ٥٦) تقبيل اليد، أبو بكر المقري
- ٥٧) تلبيس إبليس، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ٥٨) تهذيب التهذيب، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة: الأولى، ١٣٢٦هـ.
- ٥٩) جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.
- ٦٠) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٦١) جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر، (ج ٢).
- ٦٢) جاهلة القرن العشرين، محمد قطب (٢).

- ٦٣) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد المؤلف: محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر السوسي الردواني المغربي المالكي (المتوفى: ١٠٩٤هـ) تحقيق وتخريج: أبو علي سليمان بن دريع، الناشر: مكتبة ابن كثير، الكويت - دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م
- ٦٤) الحركة الصليبية وأثرها على الاستشراق الغربي د. علي الشامي منشور في مجلة الفكر العربي العدد سنة ١٩٨٣ م.
- ٦٥) الحركة الفكرية ضد الإسلام، دويدار: بركات عبد الفتاح: ١٤٠٦هـ.
- ٦٦) خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي المحقق: حقه وخارج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل، الناشر: مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، كتاب الأذان، باب ابتدائه وفضله (ج ١).
- ٦٧) درء التعارض بين العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١.
- ٦٨) دراسات في الفلسفة الإسلامية، أ/د محمد الأنور السنهوتي، أ/د عبد الحميد مذكور (بالاشتراك ٢).
- ٦٩) دعوة الإسلام إلى العلم، مجلة المنهل، أحمد عبد الرحيم السايح، « العدد ٤٥٣، شعبان ١٤٠٧ هـ - ٧٠) دفاع عن العقيدة والشريعة، الغزالي: محمد: ١٣٩٥هـ.
- ٧١) ديوان ابن المبارك للدكتور: مجاهد مصطفى.
- ٧٢) دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، أ/د يحيى هويدي، . أ/د النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. أ/د يمني طريف الخولي، من منظور فلسفة العلوم: الطبيعيات في علم الكلام من الماضي إلى المستقبل.
- ٧٣) ملاحظات حول المدرسة الفلسفية في الإسلام، أ/د محمد إبراهيم الفيومي.
- ٧٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الشيخ مصطفى عبد الرازق، أ/د النشار.
- ٧٥) رسالة في العلوم، أبو حيان التوحيدي.
- ٧٦) رسالة في العقل والروح: لابن تيمية، ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ج ٢.
- ٧٧) رسائل أبي حامد الغزالي، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، مصر، وينظر كذلك: ابن منظور، لسان العرب، مادة "عقل".
- ٧٨) روضة المحبين ونزهة المشتاقين المؤلف: ابن قيم الجوزية الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة: ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، (ج ١).
- ٧٩) زهرة الآداب، أبو إسحاق القيرواني، (ج ١).
- ٨٠) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: الألباني، محمد ناصر الدين، (ج ١).
- ٨١) سنن ابن ماجه المؤلف: ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية (ج ١).
- ٨٢) سنن أبي داود باب متى يؤمر الغلام بالصلاة (ج ١).

- (٨٣) سنن الدارمي تحقيق حسين سليم الداراني- دار المغني- الرياض ط ١ - ١٤٢١ هـ..
- (٨٤) السنن الكبرى للنسائي، باب كل راع عم استرعى (ج ٨ -).
- (٨٥) سير أعلام النبلاء (ج ١٠).
- (٨٦) السير: للذهبي: (ج ٧).
- (٨٧) سيرة ابن هشام ج ٢ وتاريخ ابن كثير ج ٣.
- (٨٨) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي.
- (٨٩) شرح الإشارات حاشية الإشارات والتبهيئات، الطوسي- وانظر: مقدمة الإشارات: سليمان دنيا (١) وما بعدها.
- (٩٠) شرح السنة للبرهاري
- (٩١) شرح السنوسية، الباجوري.
- (٩٢) شرح العقيدة الطحاوية المؤلف: سفر بن عبد الرحمن الحوالي (ج ١).
- (٩٣) شرح النووي على صحيح مسلم (ج ٢).
- (٩٤) الشريعة للأجري.. (ج ١).
- (٩٥) الصحاح تاج العربية، الجوهري، إسماعيل بن حماد، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) ج ٥.
- (٩٦) صحيح ابن حبان المؤلف: محمد بن حبان التميمي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣ (باب ذكر إكثار المصطفى صلى الله عليه وسلم (ج ٧).
- (٩٧) صحيح البخاري.
- (٩٨) صحيح سنن الترمذي.
- (٩٩) صحيح مسلم
- (١٠٠) الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية، والمعطلة لابن قيم الجوزية، (٢)
- (١٠١) صورة العرب في الصحافة البريطانية» د. حلمي خضر ساري.
- (١٠٢) طبقات الحنفية (ج ١)
- (١٠٣) «الإسلام دين العلم والمعرفة»، مجلة منبر الإسلام القاهرية، عبد الرحمن البهلول، العدد ٢٧، السنة ٤٥، رجب ١٤٠٧ هـ.
- (١٠٤) العقل مجالاته وآثاره في ضوء الإسلام: رسالة قيمة أعدّها لنيل درجة الماجستير الشيخ عبد الرحمن زيد الزبيدي.
- (١٠٥) العقيدة بين السلف والمتكلمين -حسن بن محمد شبانة.
- (١٠٦) العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ، المقبل، صالح بن مهدي، مكتبة دار البيان..
- (١٠٧) علم الكلام وبعض مشكلاته.

- ١٠٨ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، باب منقبة أسيد بن الخضير (ج ١٦).
- ١٠٩ الغزو الفكري، الميداني : عبدالرحمن حسن حبنكة : ١٤٠٤هـ.
- ١١٠ الغزو الفكري، كشك : محمد جلال : ١٩٧٥ م .
- ١١١ الغزو الفكري، محمود : علي عبد الحليم.
- ١١٢ الغزو الفكري، الخطيب : عبد الكريم يونس : ١٤٠٤هـ،
- ١١٣ الغزو الفكري، سعيد : عبد الستار فتح الله : ١٤٠٤هـ،
- ١١٤ الفتاوى ابن تيمية، ٩/.
- ١١٥ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ: (١/٢٥٣).
- ١١٦ الفتوحات، لابن عربي (١).
- ١١٧ الفرق بين الفرق، البغدادي : عبد القاهر بن طاهر : ١٩٧٥ م .
- ١١٨ الفرنسييسكان واللغات اليونانية والشرقية في القرن الثالث عشر. مارتين يانور ونكاليا، ترجمة د. أسعد ذبيان: ١٨، نقلاً عن الحروب الصليبية والغزو الفكري.
- ١١٩ الفقه الإسلامي و أدلته ٨.
- ١٢٠ فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك.
- ١٢١ الفقيه والمتفقه الخطيب البغدادي، ٢/٢١.
- ١٢٢ الفواكه العديدة للشيخ المنقور (ج ٢).
- ١٢٣ الفوائد، ابن القيم الجوزية، تحقيق عبد السلام شاهين، ط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.
- ١٢٤ نقد مدارس علم الكلام (مقدمة تحقيقه مناهج الأدلة في عقائد الملة)، أ/د محمود قاسم.
- ١٢٥ تاج العروس .
- ١٢٦ كتابه «إعلام الموقعين». لابن القيم.
- ١٢٧ كتابه:نقض كتاب الشعر الجاهلي.
- ١٢٨ فيض القدير، المناوي، عبد الرؤوف، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ: (١).
- ١٢٩ القاموس الفقهي د. سعدي أبو حبيب.
- ١٣٠ كتاب " تسمية ما ورد به الخطيب " : ج ١ رواه عن عروة عن عائشة، مخطوطة المكتبة الظاهرية، دمشق. مجموع (١٨).
- ١٣١ كتاب إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ١٣٢ كتاب إقامة الحجة على العالمين بنبوة خاتم النبيين / الدكتور جورج بوست الشهير (ج ١).
- ١٣٣ كتاب الإسلام كبديل لمراد هوفمان

- ١٣٤) كتاب البدعة وأثرها في محنة المسلمين لأبو إسحاق الحويني الأثري حجازي محمد شريف، (ج٤).
- ١٣٥) كتاب البدعة وأثرها في محنة المسلمين ، المؤلف : أبو إسحاق الحويني الأثري، (ج١).
- ١٣٦) كتاب التعريفات، للجرجاني.
- ١٣٧) كتاب الدين، د. محمد عبد الله دراز .
- ١٣٨) كتاب الروح لابن القيم .
- ١٣٩) كتاب الشخصية المتميزة للمسلم / أحمد سعد الدين
- ١٤٠) كتاب العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي.
- ١٤١) كتاب القول السديد (ج١). المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ -
- ١٤٢) كتاب المنقذ من الضلال،، للأمام الغزالي وهو محمد بن محمد بن أحمد الملقب.
- ١٤٣) كتاب الوحي المحمدي ، المؤلف محمد رشيد رضا.
- ١٤٤) كتاب الوصول إلى الأصول المسألة الرابعة في مسائل النسخ «مخطوط» .
- ١٤٥) كتاب براهين وأدلة إيمانية للشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني رحمه الله في ، دار القلم : دمشق ١٩٨٧ م .
- ١٤٦) كتاب حول إعادة تشكيل العقل المسلم، خليل عماد الدين، (قطر: كتاب الأمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ).
- ١٤٧) كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي.
- ١٤٨) الكتاب: الجامع المسند الصحيح المختصر = صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ (ج ٢) .
- ١٤٩) الكتاب: الجامع المسند صحيح البخاري المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري المحقق: محمد زهير بن ناصر ، دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ (باب الجمعة في القرى والمدن، (ج٢).
- ١٥٠) القاموس المحيط المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- ١٥١) الكليات، الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١٥٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (٤)
- ١٥٣) كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ «، مجلة الهداية، لطفي نصر» العدد ١١٣، رجب ١٤٠٧ هـ.

- (١٥٤) كيف يُحطَّم المسلمون قيود التبعية والحصار، الجندي : أنور : ١٤٠٥هـ.
- (١٥٥) لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر-بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ - (ج٥).
- (١٥٦) أساسيات المناهج الدراسية ومهامها. الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- (١٥٧) كيف يحض الإسلام على طلب العلم مجلة الهداية البحرينية لطفي نصر ع ١١٣ رجب ١٤٠٧هـ.
- (١٥٨) اللؤلؤ المنظوم في مبادئ العلوم، محمد عليان المرزوقي الشافعي.
- (١٥٩) مجلة المنار (١/ ٢٩٣)، مقال للشيخ / محمد رشيد.
- (١٦٠) مجلة المنار.
- (١٦١) مجلة جامعة أم القرى (ج٤).
- (١٦٢) مجمل اللغة لابن فارس. المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة-بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م (ج١).
- (١٦٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (ج٩).
- (١٦٤) محاسن التأويل المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.
- (١٦٥) مختار الصحاح -محمد بن بكر الرازي-المطبعة الكلية-ط ١ - ١٣٢٩هـ.
- (١٦٦) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، الصوّاف : محمد محمود : ١٩٧٩ م .
- (١٦٧) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي بَابُ تَقْرِيْبِ الْفَتْيَانِ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ (ج ١) والحديث موقوف على الصحابي ابن عباس.
- (١٦٨) المستدرك على الصحيحين للحاكم ، باب تعبير الرؤيا (ج ٤)
- (١٦٩) مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، (ج ١٢).
- (١٧٠) المسند الجامع حقه ورتبه وضبط نصح: محمود محمد خليل ، الناشر: دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، (ج٤).
- (١٧١) المسند الصحيح المختصر المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، (ج٤).
- (١٧٢) المسند الصحيح المختصر المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت ٥ (ج١).

- ١٧٣) المسند الصحيح المختصر المؤلف: مسلم بن الحجاج النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بَابُ تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ، وَخَذْلِهِ، وَاحْتِقَارِهِ، (ج ٤).
- ١٧٤) المسند الصحيح للأمام مسلم (ج ٤).
- ١٧٥) مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ»، مجلة المنهل السعودية، أحمد سعيد الدمرداش، « الحلقة الأولى، العدد ٤٥٠، جمادى الأولى، سنة ١٤٠٧ هـ.
- ١٧٦) مسيرة الفكر العلمي»، مجلة المنهل، الدمرداش، « عدد رجب ١٤٠٧ هـ (الحلقة الثالثة).
- ١٧٧) المعجم الكبير للطبراني، باب بسر بن سعيد عن أبي واقد (ج ٣).
- ١٧٨) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، عن المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، (بدون تاريخ)، مادة (فكر).
- ١٧٩) معجم لغة الفقهاء.
- ١٨٠) معجم مقاييس اللغة ابن فارس، أبو الحسين أحمد، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، الطبعة: ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) ج ٤.
- ١٨١) مفتاح دار السعادة - ابن القيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩ هـ.
- ١٨٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني مادة (فكر) بتحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م، دار العلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت.
- ١٨٣) مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، عن دار الجيل، ط ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ج ٤.
- ١٨٤) مقطع من مقاصد الشريعة عند ابن تيمية: ليوسف محمد أحمد البدوي .
- ١٨٥) مناظرة بين الإسلام والنصرانية .
- ١٨٦) الموالاتة والمعاداة في الشريعة الإسلامية .
- ١٨٧) المؤامرة على الإسلام، الجندي : أنور : ١٩٧٧ م .
- ١٨٨) النبذة الكافية في أحكام أصول الدين، بن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الظاهري، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥ هـ.
- ١٨٩) نزهة الفضلاء: ١٥٣٨/٤.
- ١٩٠) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، راجع: ألد النشار.
- ١٩١) نظرية التعقيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء، محمد الروكي، ط. منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط: الأولى ١٤١٤ هـ.
- ١٩٢) النظرية الخلقية عند ابن تيمية، محمد عبد الله عفيفي، ط، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٩٨٨
- ١٩٣) هموم داعية، الغزالي : محمد : ١٤٠٤ هـ
- ١٩٤) العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي (بيروت: مؤسسة الرسالة).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

نصف ح	نَضَع
أ	الاستهلال
ة	اهداء
ج	سوش وعوب
د	غزخض أجت
هـ	ABSTRACT
و	المذخ
	التمهذ
7	نصم ا.ل: طبع يكاح.ض ا. العقل ف ان مزاً
7	نث حث الأ لمناح ك ح ي خهك الإنس ا ف أنم زانك زى
7	ا طت الأول: خك الله الإغب حى خ ول خقه عبنا:
7	ا طت ثاب: ا حى خ خك الإنب لا تعل إلا ا خب ك ع ح:
7	ا طت ثاب: ا حى خ خك الإنب متعلخ ب ذب والآخرة:
7	ا طت لثاب: خش خ تشذيا حى خ خمه:
٢٥	نث حث ثاب: بيكاح الإض ا ف ان مزاً لثوى
٢٥	ا طت الأول: بى ب خ الإغب ف الإسلام:
1	ا طت ثاب: ب ح ا دب داس اع خلاف:
٣٨	ا طت ثاب: الأ ر ع داس ثولاء وانر ح ل لانب:
٤١	نث حث ثاب: حث ان مزاً علل صت خ ذوا العقل
٤١	ا طت الأول ر عى: الله الإغب بالعق:
٤٥	ا طت ثاب: حث ا شرا على استعمال العق:
٥١	ا طت ثاب: وجو تحل ف ظخ على العقل:
٥٤	نث حث ثاب: الإسلام لن ف طزج
٥٥	ا طت الأول: التعريف العف طش ح:
٥٨	ا طت ثاب: اق طش ح ف عه ح الله وروحه:
٦٣	ا طت ثاب: لثاب طش ح ف ا ر طذ ك ث ذعوة ا ح:
٦٧	ا طت لثاب: طش ح ف غش الإسلام وسب خ ه:
٧٦	نصم لثاب: ا ح ص ائ ص الإنس ا ل ز ح ح ن ل ض ح ق ض ح:
٧٦	نث حث الأ لخص ائ ص الإض ا ل ز ح ح
٧٦	ا طت الأول: بى ب خ تش و ذف ا شرا ل ش:
6	ا طت ثاب: ثاب س ل ش و ح ل ل ع ح:
61	ا طت ثاب: الإب ا ع طر ش خ ل ش و ح ف الإسلام:
1	نث حث ثاب: ا ح ص ائ ص الإنس ن ل ض ح
1	ا طت الأول: ش ح ا زى و ا د غ د خ:
17	ا طت ثاب: ش ح ا ر ض و البلوغ:
17	ا طت ثاب: ش ح خ ش ه:
401	نث حث ثاب: ا ح ص ائ ص الإنس ا ق ض ح
٤	ا طت الأول: رمو خ ا ط خ بالله تعالى و لرها ا ف غ خ
٤	ا طت ثاب: لثاب د و ا ر ا ص ا ل انفعالى:
٥	ا طت ثاب: ا ش و خ ف مواجهاة الوالغ:

ن ط ف ح

ن ض ع

- ٤ نث ح شان زنگ: طرز الإسلام للإنسان ي ح ح ح أ ج ض ي وعقل ر ح
- ٤ ا ط ط الأول: فهو الإنب وفطته ادغ دغ:
- ٣ ا ط ط تثاب: طش ح الإسلام للعقل ونسوح ف ا ح ح:
- ٣٦ ا ط ط تثاب يئى بس طش ح الإسلام ا ر اص ح اى الإنب:
- ٤٦ فص ابن ثنث: ي ج ان مز ا ف ثوت ح العقم
- ٤٦ نث ح ح الأول: اخ تلاف العلماء ح ل ي ف و العقل ف لا غ ح الاصطلاح
- ٤٦ ا ط ط الأول: تعش ف العقل:
- ٥ ا ط ط تثاب: ع العقل ف الإنب:
- ٥٥ ا ط ط تثاب: مفهو العق ف الإسلام:
- ٦٥ ا ط ط لث غ فلو ب و دف العقول:
- ٦١ نث ح ثنثا أن ت ر ح العقلي ح ف ل مز ا ت م ذ ر ل ع ت ا ر ي ا ط ن ض و ن ح
- ٦١ ا ط ط الأول: ز ش ح ا ش ا خ للعقل:
- ٧٥ ا ط ط تثاب ز م ذ ش ا مش ا ط ش للعقل:
- ٦ ا ط ط تثاب: ي ب ا ح العقل ف الإسلام:
- ٦١ ا ط ط لث غ: العقل ب ط ر ي ف:
- ١٦ نث ح ثنث ثنث: د ر العقل ف ان مز ا ل ث و ي
- ١٧ ا ط ط الأول: العقل ودوره ف ج ب ا المشغف:
- ٤ ا ط ط تثاب: العقل ودوره ف ج ب ا و ا ز د د:
- ٦ ا ط ط تثاب: العقل ودوره ف مواجهة الأز م ل ح ص بس ح لم بى ح:
- نث ح شان زنگ: علاج ل مز ا ت العقل ف ك ز
- ا ط ط الأول: العلاقة ا ش ا و العقل
- ٣ ا ط ط تثاب: العلاقة ا ش ا فوى ش
- ٣٤ ا ط ط تثاب: العلاقة العقل فوى ش
- 732 نث ح شان خ ا ي ش: دلالات حفظ العقل ف ان مز ا نك ز ا ف ت ج افكار ح ا ت ا
- ٣٧ ا ط ط الأول: دلالات ح د خ العقل:
- ٤ ا ط ط تثاب: دلالة العق ف ا ش ان و ن ش ه ا ف ح ب ن ل ا ب س:
- ٥ ن فص م ان زنگ: ي ج ان مز ا ف ح ا ح افكار ت ا
- ٥ نث ح ح الأول: ي ج ان مز ا ف ح ا ح افكار ت ا ن ح ف ط ر ح ا ف ض ح
- ٥ ا ط ط الأول: دلالات طش ح:
- ٥٦ ا ط ط تثاب: ا ه ح فطش ي أو ا و ج ذ ا ف ح ب ن ل ا ب س:
- ٦ ا ط ط تثاب: ا ش ا ر و ح ب خ ط ب ة اى ا ش ا ع ر:
- ٦٦ نث ح ثنثا ي ج ان مز ا ف ح ا ح افكار ت ا ن ح العقلي ح
- ٦٦ ا ط ط الأول: ا ن ه ح العق:
- ٧ ا ط ط تثاب: ا ه ح ا ش ا ف ن ث ب ا العقل ح ا علم ح:
- ٧٧ ا ط ط تثاب: ا ن ه ح العقلي ف ا ش ا ط ش ز ح ظ ف ي ش الانحراف:
- ٦٥ نث ح ثنث ثنث: ا ي ا ج الفلاسف علماعن كلام
- ٦٥ ا ط ط الأول: تعريف ف ف غ و ث ب ه ه ح:
- ١ ا ط ط تثاب: تعريف اهل الكلا و ث ب منهج ح:
- ١٦ ا ط ط تثاب: ا و ج ه ا ش ب ه و ا ل و ش ا ق و ث ه ح الفلاسف و ا ر ي:
- ٣ نث ح شان زنگ ن ف ز ق ت علماء الفلاسف علماعن كلام ي ج ان مز ا ف ح ا ح افكار

ن ط ف ح

ن ض ع

- ٣٠ اَطَّطِ الْأُولَ بِطَشْمُخٍ فَاهْسَخِ :
- ٣٠٥ اَطَّطِ تَنْتَابٌ : طَشْمُخٍ أَرَى : :
- ٣٠٣ اَطَّطِ تَنْتَابُتٌ بِطَشْمُخٍ مُشَا طَشْمُخٍ :
- ٣٠٦ فِصْفِصٍ مِنْ خَيْشٍ دُرِّ لَوْضِخِ الْعَهْجِ فَتَنْتَابُتُ بِنِجْفِكْزِحِ الْإِسْلَامِ ح
- ٣٠٦ نَتَّحِثُ الْأَلْبَتِ الْأَلَّجُ لَتَنْتَابُتُ بِنِجْفِكْزِي فَانْمِرَانُ لَتَوَيُّ
- ٣٠٦ اَطَّطِ الْأُولَ : تَعْلُفٌ اَطَّطِ زَنْتَابُتُ وَيُفَشِّشِي فَاشْأ :
- ٣٣٣ اَطَّطِ تَنْتَابٌ : اَطَّطِ بَسْ لَتَوَيُّ غُخِ فَطَبِغِخِ اَنْهَجُ زَنْتَابُتُ وَيُفَشِّشِي الْإِسْلَامِ :
- ٣٤٠ اَطَّطِ تَنْتَابُتٌ : أَهْمِخِ اَطَّطِ زَنْتَابُتُ اَنْهَجُ فِشْأ فَاشْأ لَتَشْمُخِ
- ٣٤٥ اَطَّطِ لَتَشْمُغِ : مَعْجَزَةٌ اَشْأ اَزْشَبُتُ وَاْفِغِخِ
- ٣٥٠ نَتَّحِثُ ثِنْتَا بَتِ اَيُّ اِنْمِرَانُ لَتَنْتَابُتُ
- ٣٥٠ اَطَّطِ الْأُولَ : رَهْدُهُ فَالتَعْلُفِ :
- ٣٥٥ اَطَّطِ تَنْتَابٌ زَنْضِ وَهَلِخِ اَنْهَجِ اَجْوِي وَمَمْظَدِه
- ٣٦٣ اَطَّطِ تَنْتَابُتٌ : تَبْرَجِ بَصِيحِ اَجَّ فَازْشَبُتُ فِشْأ
- ٣٦٦ نَتَّحِثُ ثِنْتَا : لَا اِكْزَا فَاَنْذُ
- ٣٦٦ اَطَّطِ الْأُولَ : تَعْلُفِ الْأَوْرَاهِ فَاَنْذُ :
- ٣٧٤ اَطَّطِ تَنْتَابٌ : (لَا اِشْفَا فَاَنْذُ) غُغِ دِزْخِشِ اَدْدَشْدَتْ تَهْدُذُ اِرْضَا سِ اَنْتَلِي فِشْ عَلَى الْإِبِّ :
- ٣٦٠ نَتَّحِثُ ثِنْتَا زَنْدِغِ : دُرِّ لَوْضِخِ الْعَهْجِ عُلْمَانُ ضَهِّ فَتَنْتَابُتُ بِنِجْفِكْزِحِ
- ٣٦٠ اَطَّطِ الْأُولَ : بَسْ لَتَوَيُّ غُغِ اَعْبُ الْعَبِّ
- ٣١٠ اَطَّطِ تَنْتَابٌ : دُورِ الْعَبِّ وَادْعَاةُ فَاَوْجَهَةٌ فَوَّ
- ٣١١ اَطَّطِ تَنْتَابُتٌ : ضَرُورَةٌ زَنْتَابُتُ اَنْهَجُ فِشْأ فَاشْأ دَاغِ :
- ٤٠٦ اَطَّطِ لَتَشْمُغِ : اَعْظِ اَنْهَجُ زَنْتَابُتُ وَيُفَشِّشِي اَرَى جُغِ اَرْجِ اَهْ اَوْعِغِ دَا اَعْلَمِخِ فَاَشْشِشِ
- ٤٠١ نَفْصِ فِضْ اَدَسِ الْأَفْكَارِ الْإِسْلَامِ اَنْ ذَاةُ اَنْ ذَلِيحِ
- ٤٠١ نَتَّحِثُ الْأَلَّجُ : تَعْرُفِ الْخِلَافِ وَالْاِخْتِلَافِ اَلْضِي
- ٤٠١ اَطَّطِ الْأُولَ : اَخْلَافُ فَاِغِخِ :
- ٤٠٥ اَطَّطِ تَنْتَابٌ : حِي اَخْلَافِ :
- ٤٣٦ اَطَّطِ تَنْتَابُتٌ : الْأَمْثَلُ لَوْرَافِ وَالْاَحْوَبُ عِ وَانْهِي عَنِ الْاِخْوَالِفِ وَتَلْفَلِخِ
- ٤٤٦ نَتَّحِثُ ثِنْتَا : اَدَبِ الْاِخْتِلَافِ الْإِسْلَامِ
- ٤٤٦ اَطَّطِ الْأُولَ : اَدَاةُ جُغِ شِ اَعَاتْهَا عِذَا اَخْلَافِ :
- ٤٥٦ اَطَّطِ تَنْتَابٌ رَيْبِشْ اَخْلَافِ وَرَطُورِه :
- ٤٦٤ اَطَّطِ تَنْتَابُتٌ : اَلْجِبِّ اَخْلَافِ وَرَطُورِه :
- ٤٧٠ نَتَّحِثُ ثِنْتَا نَتَّصِ ثَابِغِ زُ اَنْ ذَاةُ اَنْ ذَلِيحِ ثَلَالِنُ ضَهِّ
- ٤٧٠ اَطَّطِ الْأُولَ بَتَشْمُغِ فَاِشْأ فَاشْأ اَحْ اَرْبِسا دَا وَامْذَاهِلْتَضِبْخِ وَاحْيَا فِشْ قِ وَاجْذَعَتْ اِغِ :
- ٤٦٠ اَطَّطِ تَنْتَابٌ اَعْبُتُ غُضْلُفِي شِي :
- ٤١٠ اَطَّطِ تَنْتَابُتُ تَبْتَلِيسُ غُضْلُفِي شِي :
- ٤١١ نَتَّحِثُ ثِنْتَا زَنْدِغِ : دُرِّ اَنْ ذَاةُ زَنْفَكْزِحِ الْمَلْصِ زَنْجِنِ حِ اَحْ الْعَقْلَانُ ضَهِّ
- ٤٩٩ اَطَّطِ الْأُولَ : اَمْذَاهِلْتَفِي شْخِ وَدُوسِ هَا فَرَشِي اَشْخِ خَطْخِ الْإِسْلَامِ :
- ٥١٣ اَطَّطِ تَنْتَابٌ : حَلُولُ وَأَطُولُ فَحَبِّخِ الْعَقْلِ اِغِ شْشِ بِهَا دَاغِشْضِ :
- ٥٧٥ اَخْبُوخِ

نظن فحج

نَضِيع

٥٣

الفهارس

٥٣

فهرس أَّب د

٥٥٦

فهرس الأحادث

٥٦٢

فهرس الأعلّ

٥٦٦

فهرس أشخغ والمصدس

٥٧٦

فهرس اّوضوعا د